2269
.38
.349
V.3.

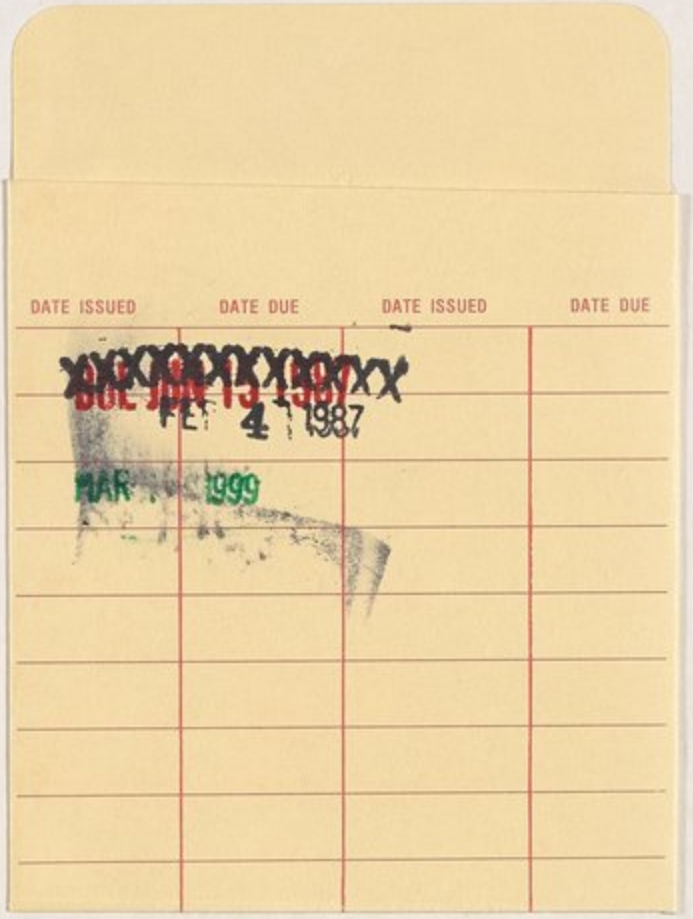

Princeton University Library
32101 047105059

A ١ al-Ghazzālī

﴿ فهرست الجزء الثالث وهو الربع الثالث من كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالى ﴾

صحيفة XXI

٢ كتاب شرح عجائب القلب وهو الاول من ربع المهلكات
٣ بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وماهو المراد بهذه الاسامى
٤ بيان جنود القلب
٦ بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة
٧ بيان خاصية قلب الانسان
٩ بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته
١١ بيان مثال القلب بالاضافة الى العلوم خاصة
١٤ بيان حال القلب بالاضافة الى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والاخروية
١٦ بيان الفرق بين الالهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق وطريق النظار
١٧ بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس
٢٠ بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لامن التعلم ولامن الطريق المعتاد
٢٣ بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها
٢٧ بيان تفصيل مداخل الشيطان الى القلب
٣٥ بيان مايؤاخذبه العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها ومايعفى عنه ولايؤاخذبه
٣٨ بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا
٣٩ بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب بالتغير والثبات
٤٢ (كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب) وهو الكتاب الثانى من ربع المهلكات
٤٣ بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة

صحيفة

٤٦ بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق
٤٨ بيان قبول الاخلاق للتغيير بطريق الرياضة
٥٠ بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة
٥٢ بيان تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق
٥٤ بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها الى الصحة
٥٥ بيان الطريق الذى يعرف به الانسان عيوب نفسه
٥٦ بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق الخ
٥٩ بيان علامات حسن الخلق
٦٢ بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم
٦٤ بيان شروط الارادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد فى سلوك سبيل الرياضة
٦٨ (كتاب كسر الشهوتين) وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات
٦٩ بيان فضيلة الجوع وذم الشبع
٧٢ بيان فوائد الجوع وآفات الشبع
٧٦ بيان طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن
٨٢ بيان اختلاف حكم الجوع وفضله واختلاف أحوال الناس فيه
٨٥ بيان آفة الرياء المتطرق الى من ترك كل الشهوات وقلل الطعام
القول فى شهوة الفرج
٨٧ بيان ما على [illegible] ترك التزويج وفعله
٩٠ بيان [illegible] خلف شهوة الفرج والعين
٩٢ [illegible] لسان) وهو الكتاب الرابع [illegible] هلكات من كتاب احياء علوم الدين [illegible] عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

XXIII XXIV

3-1434

605635

(RECAP)
2269
.38
.349
V. 3

صحيفة

٩٦ الآفة الاولى من آفات اللسان الكلام فيما لا يعنيك
٩٨ الآفة الثانية فضول الكلام
٩٩ الآفة الثالثة الخوض فى الباطل
١٠٠ الآفة الرابعة المراء والجدال
١٠٢ الآفة الخامسة الخوضة
١٠٣ الآفة السادسة التقعر فى الكلام بالتشدق الخ
١٠٤ الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان
١٠٦ الآفة الثامنة اللعن
١٠٩ الآفة التاسعة الغناء والشعر
١١٠ الآفة العاشرة المزاح
١١٣ الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء
١١٤ الآفة الثانية عشرة افشاء السر
الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب
١١٦ الآفة الرابعة عشرة الكذب فى القول واليمين جميعا
١١٩ بيان ما رخص فيه من الكذب
١٢١ بيان الحذر من الكذب بالمعاريض
١٢٣ الآفة الخامسة عشرة الغيبة والنظر فيها طويل
١٢٥ بيان معنى الغيبة وحدودها
١٢٦ بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان
١٢٧ بيان الاسباب الباعثة على الغيبة
١٢٩ بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة
١٣٠ بيان تحريم الغيبة بالقلب
١٣٢ بيان الاعذار المرخصة فى الغيبة
١٣٣ بيان كفارة الغيبة
١٣٤ الآفة السادسة عشرة النميمة
١٣٥ بيان حد النميمة وما يجب فى رفعها
١٣٧ الآفة السابعة عشرة كلام ذى الوجهين
١٣٨ الآفة الثامنة عشرة المدح

صحيفة

١٤٠ بيان ما على الممدوح
الآفة التاسعة عشرة الغفلة عن دقائق الخطأ
١٤١ الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات الله تعالى
١٤٢ ﴿كتاب ذم الغضب والحقد والحسد﴾ XXV
وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين
١٤٣ بيان ذم الغضب
١٤٤ بيان حقيقة الغضب
١٤٦ بيان ان الغضب هل يمكن ازالة أصله بالرياضة أم لا
١٤٩ بيان الاسباب المهيجة للغضب
١٥٠ بيان علاج الغضب بعد هيجانه
١٥٢ بيان فضيلة كظم الغيظ
١٥٣ بيان فضيلة الحلم
١٥٥ بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام
١٥٧ القول فى معنى الحقد وتائجه وفضيلة العفو والرفق
فضيلة العفو والاحسان
١٦٠ فضيلة الرفق
١٦٢ القول فى ذم الحسد وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى ازالته
١٦٢ بيان ذم الحسد
١٦٤ بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه
١٦٧ بيان أسباب الحسد والمنافسة
١٦٩ بيان السبب فى كثرة الحسد بين الامثال والاقران والاخوة وبنى العم والاقارب وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه
١٧٠ بيان الدواء الذى ينفى مرض الحسد عن القلب
١٧٠ بيان القدر الواجب فى نفى الحسد عن

صحيفة	
	القلب
XXVI ١٧٤	(كتاب ذم الدنيا) وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين
١٧٥	بيان ذم الدنيا
١٨٣	بيان المواعظ فى ذم الدنيا وصفتها
١٨٥	بيان صفة الدنيا بالامثلة
١٩٠	بيان حقيقة الدنيا وماهيتها فى حق العبد
١٩٤	بيان حقيقة الدنيا فى نفسها وأشغالها التى استغرقت هم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم
XXVII ٢٠٠	(كتاب ذم البخل وذم حب المال) وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين
	بيان ذم المال وكراهة حبه
٢٠٢	بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم
٢٠٤	بيان تفصيل آفات المال وفوائده
٢٠٥	بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما فى أيدى الناس
٢٠٨	بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذى يكتسب به صفة القناعة
٢١٠	بيان فضيلة السخاء
٢١٤	حكايات الاسخياء
٢١٨	بيان ذم البخل
٢٢٢	حكايات البخلاء
٢٢٢	بيان الايثار وفضله
٢٢٤	بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما
٢٢٦	بيان علاج البخل
٢٢٨	بيان مجموع الوظائف التى على العبد فى ماله
٢٢٩	بيان ذم الغنى ومدح الفقر
٢٣٧	(كتاب ذم الجاه والرياء) وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين وفيه شطران XXVIII
٢٣٨	الشطر الاول فى حب الجاه والشهرة وفيه

صحيفة	
	بيان ذم الشهرة و بيان فضيلة الخمول الخ
	بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت
٢٣٩	بيان فضيلة الخمول
٢٤٠	بيان ذم حب الجاه
٢٤١	بيان معنى الجاه وحقيقته
	بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب الا بشديد المجاهدة
٢٤٤	بيان الكمال الحقيقى والكمال الوهمى الذى لا حقيقة له
٢٤٦	بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم
٢٤٧	بيان السبب فى حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع اليه و بغضها للذم ونفرتها منه
٢٤٨	بيان علاج حب الجاه
٢٤٩	بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم
٢٥١	بيان علاج كراهة الذم
	بيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم
٣٥٣	(الشطر الثانى من الكتاب فى طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وهو الرياء وفيه بيان ذم الرياء الى آخره)
	بيان ذم الرياء
٢٥٦	بيان حقيقة الرياء وما يراءى به
٢٦٠	بيان درجات الرياء
٢٦٣	بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل
٢٦٥	بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لا يحبط
٢٦٨	بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه
٢٧٣	بيان الرخصة فى قصد اظهار الطاعات
٢٧٥	بيان الرخصة فى كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليه وكراهة ذمهم له
٢٧٧	بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء

صحيفة	
	ودخول الآفات
٢٨٤	بيان مايصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق ومالا يصح
٢٨٦	بيان ماينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه
٢٨٩	(كتاب ذم الكبر والعجب وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين)
٢٩٠	الشطر الاول من الكتاب في الكبر وفيه
	بيان ذم الكبر الخ
	بيان ذم الكبر
٢٩٢	بيان ذم الاختيال واظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب
٢٩٣	بيان فضيلة التواضع
٢٩٦	بيان حقيقة الكبر وآفته
٢٩٨	بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه
٣٠٠	بيان مابه التكبر
٣٠٤	بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له
٣٠٥	بيان اخلاق المتواضعين ومجامع مايظهر فيه أثر التواضع والتكبر
٣٠٨	بيان الطريق في معالجة الكبر

صحيفة	
	واكتساب التواضع له
٣١٧	بيان غاية الرياضة في خلق التواضع
٣١٨	الشطر الثاني من الكتاب في العجب وفيه بيان ذم العجب وآفاته الخ
	بيان ذم العجب وآفاته
٣١٩	بيان آفة العجب
	بيان حقيقة العجب والادلال وحدهما
٣٢٠	بيان علاج العجب على الجملة
٣٢٢	بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه
٣٢٦	(كتاب ذم الغرور وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين)
	بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته
٣٣٤	بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف
	الصنف الاول أهل العلم والمغترون منهم فرق
٣٤٥	الصنف الثاني أرباب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة الخ
٣٤٧	الصنف الثالث المتصوفة والمغترون منهم فرق كثيرة الخ
٣٥٠	الصنف الرابع أرباب الاموال والمغترون منهم فرق الخ

﴿ تمت ﴾

al-Ghazzālī, 1058-1111

الجزء الثالث

من كتاب احياء علوم الدين تأليف الامام العالم

العلامة المحقق المدقق حجة الاسلام أبى

حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

قدس الله روحه ونوّر

ضريحه آمين

Ihyā' al-ʿUlūm

ومعه كتاب المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الاحياء من الأخبار لحافظ الاسلام زين الدين أبى الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى رحمه الله تعالى ونفعنا به وبعلومه آمين

وقد فصلناه على الاحياء فجعلنا بكل صحيفة فيها أحاديث ما يتعلق بها من المغنى

ولتمام النفع وضعنا بالهامش

بقية كتاب عوارف المعارف للعارف بالله تعالى الامام السهروردى نفعنا الله بهم آمين

طبع بمطبعة شركة

دار الكتب العربية الكبرى

على نفقة أصحابها

مصطفى البابى الحلبى وأخويه بكرى وعيسى بمصر

(كتاب شرح عجائب القلب وهو الاول من ربع المهلكات)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تحير دون ادراك جلاله القلوب والخواطر * وتدهش فى مبادى اشراق أنواره الاحداق والنواظر * المطلع على خفيات السرائر * العالم بمكنونات الضمائر * المستغنى فى تدبير مملكته عن المشاور والموازر * مقلب القلوب وغفار الذنوب * وستار العيوب * ومفرج الكروب * والصلاة على سيد المرسلين * وجامع شمل الدين * وقاطع دابر الملحدين * وعلى آله الطيبين الطاهرين * وسلم كثيرا (أما بعد) فشرف الانسان وفضيلته التى فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه التى هى فى الدنيا جماله وكماله وذخره وفى الآخرة عدته وذخره وانما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه فالقلب هو العالم بالله وهو المتقرب الى الله وهو العامل لله وهو الساعى الى الله وهو المكاشف بما عند الله ولديه وانما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة فالقلب هو المقبول عند الله اذا سلم من غير الله وهو المحجوب عن الله اذا صار مستغرقا بغير الله وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذى يسعد بالقرب من الله فيفلح اذا زكاه وهو الذى يخيب ويشقى اذا دنسه ودساه وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى وانما الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره * وهو العاصى المتمرد على الله تعالى وانما السارى الى الاعضاء من الفواحش آثاره * وباظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه اذ كل اناء ينضح بما فيه * وهو الذى اذا عرفه الانسان فقد عرف نفسه واذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهو الذى اذا جهله الانسان فقد جهل نفسه واذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل اذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم فان الله يحول بين المرء وقلبه وحيلولته بان يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه بين اصبعين من أصابع الرحمن وانه كيف يهوى مرة الى أسفل السافلين وينخفض الى أفق الشياطين وكيف يرتفع أخرى الى أعلى عليين ويرتقى الى عالم الملائكة المقربين ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد له يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه فهو ممن قال الله تعالى فيه نسوا الله فانساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فمعرفة القلب

(كتاب عجائب القلب)

(الباب الثلاثون فى تفاصيل أخلاق الصوفية) من أحسن أخلاق الصوفية التواضع ولا يلبس العبد لبسة أفضل من التواضع ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد مقدارا يعلم انه يقيمه ويقيم كل أحد على ما عنده من نفسه ومن رزق هذا فقد استراح وأراح ومايعقلها الا العالمون (أخبرنا) أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا عثمان بن عبد الله قال أنا عبد الرحمن بن ابراهيم قال ثنا عبد الرحمن بن حمدان قال ثنا أبو حاتم الرازى قال ثنا النضر بن عبد الجبار قال أنا ابن لهيعة عن يزيد ابن أبى حبيب عن سنان بن

وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين واذ فرغنا من الشطر الاول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والعادات وهو العلم الظاهر ووعدنا أن نشرح فى الشطر الثانى مايجرى على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات وهو العلم الباطن فلابد أن نقدم عليه كتابين كتابا فى شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه وكتابا فى كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه ثم نتدفع بعد ذلك فى تفصيل المهلكات والمنجيات فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الامثال مايقرب من الافهام فان التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة فى جملة عالم الملكوت مما يكل عن درك أكثر الافهام

(بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وماهو المراد بهذه الأسامى)

اعلم ان هذه الاسماء الاربعة تستعمل فى هذه الابواب ويقل فى قول العلماء من يحيط بهذه الاسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها وأكثر الاغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الاسامى واشتراكها بين مسميات مختلفة ونحن نشرح فى معنى هذه الاسامى مايتعلق بغرضنا *(اللفظ الاول)* لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين * أحدهما اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الايسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف وفى ذلك التجويف دم أسود وهو منبع الروح ومعدنه ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته اذ يتعلق به غرض الاطباء ولا يتعلق به الاغراض الدينية وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ونحن اذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك فانه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة اذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين * والمعنى الثانى هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان وهو المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ولها علاقة مع القلب الجسمانى وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى ادراك وجه علاقته فان تعلقه به يضاهى تعلق الاعراض بالاجسام والاوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك مما تتوقاه لمعنيين أحدهما انه متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب الاعلوم المعاملة * والثانى ان تحقيقه يستدعى افشاء سر الروح وذلك مما (١) لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس لغيره أن يتكلم فيه والمقصود أنا اذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها فى ذاتها وعلم المعاملة يفتقر الى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر الى ذكر حقيقتها *(اللفظ الثانى)* الروح وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين * أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينشر بواسطة العروق الضوارب الى سائر أجزاء البدن وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت فانه لا ينتهى الى جزء من البيت الا ويستنير به والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان والروح مثالها السراج وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه والاطباء اذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب وليس شرحه من غرضنا اذ المتعلق به غرض الاطباء الذين يعالجون الأبدان فاما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق الى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا * المعنى الثانى هو اللطيفة العالمة المدركة من الانسان وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب وهو الذى أراده الله تعالى بقوله قل الروح من أمر ربى وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والافهام عن درك حقيقته *(اللفظ الثالث) النفس وهو أيضا مشترك بين معان ويتعلق بغرضنا منه معنيان أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الانسان على ماسيأتى شرحه وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لانهم يريدون

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فى الروح متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود عن الروح وفيه فامسك النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم فعلمت أنه يوحى اليه الحديث وقد تقدم

سعد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى أوحى الى أن تواضعوا ولا يبغى بعضكم على بعض وقال عليه السلام فى قوله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى قال على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس (وكان) من تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجيب دعوة الحر والعبد ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافئ عليها ويأكلها ولا يستكبر عن اجابة الامة والمسكين (وأخبرنا) أبو زرعة اجازة عن ابن خلف اجازة عن السلمى قال أنا أحمد بن على المقرى قال أنا محمد بن المنهال قال حدثنى أبى عن

بالنفس الاصل الجامع للصفات المذمومة من الانسان فيقولون لابد من مجاهدة النفس وكسرها واليه الاشارة بقوله عليه السلام (١) أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك * المعنى الثاني هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الانسان بالحقيقة وهي نفس الانسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فاذا سكنت تحت الامر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة قال الله تعالى في مثلها يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية والنفس بالمعنى الاول لا يتصور رجوعها الى الله تعالى فانها مبعدة عن الله وهي من حزب الشيطان واذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة لانها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه قال الله تعالى ولا أقسم بالنفس اللوامة وان تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الامارة بالسوء قال الله تعالى اخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء وقد يجوز أن يقال المراد بالامارة بالسوء هي النفس بالمعنى الاول فاذا النفس بالمعنى الاول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثاني محمودة لانها نفس الانسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات * (اللفظ الرابع) العقل وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان أحدهما انه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الامور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب والثاني انه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة ونحن نعلم ان كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق ويراد به محل الادراك أعني المدرك وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم (٢) أول ما خلق الله العقل فان العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق بل لابد وأن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ولانه لا يمكن الخطاب معه وفي الخبر أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر والحديث فاذا قد انكشف لك أن معاني هذه الاسماء موجودة وهي القلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعلوم فهذه أربعة معان يطلق عليها الالفاظ الاربعة ومعنى خامس وهي اللطيفة العالمة المدركة من الانسان والالفاظ الاربعة بجملتها تتوارد عليها فالمعاني خمسة والالفاظ أربعة وكل لفظ أطلق لمعنيين وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الالفاظ وتواردها فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح وهذا خاطر القلب وهذا خاطر النفس وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الاسماء ولاجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الاسامي وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الانسان ويعرف حقيقة الاشياء وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر لان بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة فانها وان كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الاول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها ولذلك شبه سهل التستري القلب بالعرش والصدر بالكرسي فقال القلب هو العرش والصدر هو الكرسي ولا يظن به انه يرى أن عرش الله وكرسيه فان ذلك محال بل أراد به انه مملكته والمجرى الاول لتدبيره وتصرفه فهما بالنسبة اليه كالعرش والكرسي بالنسبة الى الله تعالى ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا الا من بعض الوجوه وشرح ذلك أيضا لا يليق بغرضنا فلنجاوزه

* (بيان جنود القلب) *

قال الله تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو فلله سبحانه في القلوب والارواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها الا هو ونحن الآن نشير الى بعض جنود القلب فهو الذي يتعلق بغرضنا وله جندان جند يرى بالابصار وجند لا يرى الا بالبصائر وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم والاعوان فهذا معنى الجند فاما

(١) حديث أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين (٢) حديث أول ما خلق الله العقل وفي الخبر أنه قال له أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر الحديث تقدم في العلم

محمد بن جابر اليماني عن سليمان بن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت وترد على من سلم عليك وان ترضى بالدون من المجلس وأن لا تحب المدحة والتزكية والبر (وورد) أيضا عنه عليه السلام طوبى لمن تواضع من غير منقصة وذل في نفسه من غير مسكنة (سئل الجنيد) عن التواضع فقال خفض الجناح ولين الجانب (وسئل) الفضيل عن التواضع فقال تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله وتسمع منه (وقال أيضا) من رأى لنفسه

جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والاذن واللسان وسائر الاعضاء الظاهرة والباطنة فان جميعها خادمة للقلب ومسخرة له فهو المتصرف فيها والمردد لها وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا فاذا أمر العين بالانفتاح انفتحت واذا أمر الرجل بالحركة تحركت واذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم وكذا سائر الاعضاء وتسخير الاعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى فانهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافا بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وانما يفترقان فى شئ وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها والاجفان تطيع القلب فى الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب وانما افتقر القلب الى هذه الجنود من حيث افتقاره الى المركب والزاد لسفره الذى لاجله خلق وهو السفر الى الله سبحانه وقطع المنازل الى لقائه فلاجله خلقت القلوب قال الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وانما مركبه البدن وزاده العلم وانما الاسباب التى توصله الى الزاد وتمكنه من التزود منه هو العمل الصالح وليس يمكن العبد أن يصل الى الله سبحانه مالم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا فان المنزل الادنى لابد من قطعه للوصول الى المنزل الاقصى فالدنيا مزرعة الآخرة وهى منزل من منازل الهدى وانما سميت دنيا لانها أدنى المنزلتين فاضطر الى أن يتزود من هذا العالم فالبدن مركبه الذى يصل به الى هذا العالم فافتقر الى تعهد البدن وحفظه وانما يحفظ البدن بان يجاب اليه ما يوافقه من الغذاء وغيره وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك فافتقر لاجل جلب الغذاء الى جندين باطن وهو الشهوة وظاهر وهو اليد والاعضاء الجالبة للغذاء فخلق فى القلب من الشهوات ما احتاج اليه وخلقت الاعضاء التى هى آلات الشهوات فافتقر لاجل دفع المهلكات الى جندين باطن وهو الغضب الذى به يدفع المهلكات وينتقم من الاعداء وظاهر وهو اليد والرجل الذى بهما يعمل بمقتضى الغضب وكل ذلك بامور خارجة فالجوارح من البدن كالاسلحة وغيرها ثم المحتاج الى الغذاء مالم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء والفه فافتقر للمعرفة الى جندين باطن وهو ادراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق وظاهر وهو العين والاذن والانف وغيرها وتفصيل وجه الحاجة اليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة وقد أشرنا الى طرف يسير منها فى كتاب الشكر فليقتنع به فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف صنف باعث ومستحث اما الى جلب النافع الموافق كالشهوة واما الى دفع الضار المنافى كالغضب وقد يعبر عن هذا الباعث بالارادة والثانى هو المحرك للاعضاء الى تحصيل هذه المقاصد ويعبر عن هذا الثانى بالقدرة وهى جنود مبثوثة فى سائر الاعضاء لاسيما العضلات منها والاوتار والثالث هو المدرك المتعرف للاشياء كالجواسيس وهى قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس وهى مبثوثة فى أعضاء معينة ويعبر عن هذا بالعلم والادراك ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهى الاعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه الجنود فان قوة البطش انما هى بالاصابع وقوة البصر انما هى بالعين وكذا سائر القوى ولسنا نتكلم فى الجنود الظاهرة أعنى الاعضاء فانها من عالم الملك والشهادة وانما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تر وهو هذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم الى ما قد أسكن المنازل الظاهرة وهى الحواس الخمس أعنى السمع والبصر والشم والذوق واللمس والى ما أسكن منازل باطنة وهى تجاويف الدماغ وهى أيضا خمسة فان الانسان بعد رؤية الشئ يغمض عينه فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شئ يحفظه وهو الجند الحافظ ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك الى البعض ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود اليه ثم يجمع جملة معانى المحسوسات فى خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ففى الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه فتلك القوى أيضا جنود باطنة وأماكنها أيضا باطنة فهذه هى أقسام جنود القلب وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الامثلة يطول

قيمة فليس له فى التواضع نصيب (وقال) وهب بن منبه مكتوب فى كتب الله انى أخرجت النور من صلب آدم فلم أجد قلبا أشد تواضعا الى من قلب موسى عليه السلام فلذلك اصطفيته وكلمته (وقيل) من عرف كوامن نفسه لم يطمع فى العلو والشرف ويسلك سبيل التواضع فلا يخاصم من يذمه ويشكر الله لمن يحمده وقال أبو حفص من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرمتهم فمن شدة تواضعهم فى أنفسهم يقتدى بهم ولا يتكبر (وقال لقمان عليه السلام) لكل شئ مطية ومطية العمل التواضع (وقال

ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الاقوياء والفحول من العلماء ولكن تجتهد فى تفهيم الضعفاء بضرب الامثلة ليقرب ذلك من أفهامهم

(بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة)

اعلم أن جندى الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيادا تاما فى عينه ذلك على طريقه الذى يسلكه ويحسن مرافقتهما فى السفر الذى هو بصدده وقد يستعصيان عليه استعصاء بغى وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذى به وصوله الى سعادة الابد وللقلب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكر كما سيأتى شرحه وحقه أن يستعين بهذا الجند فانه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين فانهما قد يلتحقان بحزب الشيطان فان ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا وذلك حالة أكثر الخلق فان عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم فى استنباط الحيل لقضاء الشهوة وكان ينبغى أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فبها يفتقر العقل اليه ونحن نقرب ذلك الى فهمك بثلاثة أمثلة *(المثال الاول)* أن نقول مثل نفس الانسان فى بدنه أعنى بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك فى مدينته ومملكته فان البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة الى المدينة والغضب والحمية له كصاحب الشرطة والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل وبدنه وعادته منازعة الوزير الناصح فى آرائه وتدبيراته حتى أنه لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة كما أن الوالى فى مملكته اذا كان مستغنيا فى تدبيراته بوزيره ومستشيرا له ومعرضا عن اشارة هذا العبد الخبيث مستدلا باشارته فى أن الصواب فى نقيض رأيه وأدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا ومأمورا مدبرا لا أميرا مدبرا استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه فكذا النفس متى استعانت بالعقل وأدبت بحمية الغضب وسلطتها على الشهوة واستعانت باحداهما على الاخرى تارة بان تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واسترداجها وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وقال تعالى واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث وقال عز وجل فمن نهى النفس عن الهوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى وسيأتى كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض فى كتاب رياضة النفس ان شاء الله تعالى *(المثال الثانى)* اعلم أن البدن كالمدينة والعقل أعنى المدرك من الانسان كملك مدبر لها وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه وأعضاؤه كرعيته والنفس الامارة بالسوء التى هى الشهوة والغضب كعدو ينازعه فى مملكته ويسعى فى اهلاك رعيته فصار بدنه كرباط وثغر ونفسه كقيم فيه مرابط فان هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره اذا عاد الى الحضرة كما قال تعالى والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وان ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى (١) فيقال له يوم القيامة يا راعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك كما ورد فى الخبر والى هذه المجاهدة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (٢) رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر *(المثال الثالث)* مثل العقل مثال فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح ومتى كان هو فى نفسه أخرق وكان الفرس جموحا والكلب عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل

(١) حديث يقال يوم القيامة يا راعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة الخبر لم أجد له أصلا

(٢) حديث رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر البيهقى فى الزهد من حديث جابر وقال هذا اسناد فيه ضعف

باشارته

النورى) خمسة أنفس أعز الخلق فى الدنيا عالم زاهد وفقيه صوفى وغنى متواضع وفقير شاكر وشريف سنى (وقال الجلاء) لو لا شرف التواضع كنا اذا مشينا نخطر وقال يوسف بن أسباط وقد سئل ما غاية التواضع قال ان تخرج من بيتك فلا تلقى أحدا الا رأيته خيرا منك ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه فى سفره الى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاما على رؤس الاسارى من الافرنج وهم فى قيودهم فلما مدت السفرة والاسارى ينتظرون الاوانى حتى تفرغ قال للخادم أحضر الاسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء فجاءهم وأقعدهم على السفرة صفا

باشارته مطيعا فهو خليق بان يعطب فضلا عن أن ينال ماطلب وانما خرق الفارس مثل جهل الانسان وقلة حكمته وكلال بصيرته وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه نسأل الله حسن التوفيق باطفه

(بيان خاصية قلب الانسان)

اعلم ان جملة ماذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمى اذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضا حتى ان الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه فذلك هو الادراك الباطن فلنذكر مايختص به قلب الانسان ولاجله عظم شرفه واستاهل القرب من الله تعالى وهو راجع الى علم وارادة أما العلم فهو العلم بالامور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فان هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل اذ يحكم الانسان بان الشخص الواحد لايتصور أن يكون فى مكانين فى حالة واحدة هذا حكم منه على كل شخص ومعلوم انه لم يدرك بالحس الا بعض الاشخاص فحكمه على جميع الاشخاص زائد على ما أدركه الحس واذا فهمت هذا فى العلم الظاهر ورى فهو فى سائر النظريات أظهر وأما الارادة فانه اذا أدرك بالعقل عاقبة الامر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق الى جهة المصلحة والى تعاطى أسبابها والارادة لهاوذلك غير ارادة الشهوة وارادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة فان الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها والشهوة تميل الى لذائذ الاطعمة فى حين المرض والعاقل يجد فى نفسه زاجرا عنها وليس ذلك زاجر الشهوة ولوخلق الله العقل المعرف بعواقب الامور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للاعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق فاذا قلب الانسان اختص بعلم وارادة ينفك عنها سائر الحيوان بل ينفك عنها الصبى فى أول الفطرة وانما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فانها موجودة فى حق الصبى ثم الصبى فى حصول هذه العلوم فيه له درجتان * احداهما أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الاولية كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة الا انها صارت ممكنة قريبة الامكان والحصول ويكون حاله بالاضافة الى العلوم كحال الكاتب الذى لايعرف من الكتابة الا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فانه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد * الثانية أن تحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده فاذا شاء رجع اليها وحاله حال الحاذق بالكتابة اذ يقال له كاتب وان لم يكن مباشرا للكتابة بقدرته عليها وهذه هى غاية درجة الانسانية ولكن فى هذه الدرجة مراتب لاتحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها اذ تحصل لبعض القلوب بالهام الهى على سبيل المبادأة والمكاشفة ولبعضهم بتعلم واكتساب وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطىء الحصول وفى هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والانبياء والاولياء فدرجات الترقى فيه غير محصورة اذ معلومات الله سبحانه لانهاية لها وأقصى الرتب رتبة النبى الذى تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف بل بكشف الهى فى أسرع وقت وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراقى هذه الدرجات هى منازل السائرين الى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل وانما يعرف كل سالك منزله الذى بلغه فى سلوكه فيعرفه ويعرف ماخلفه من المنازل فاما مابين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به ايمانا بالغيب كما انا نؤمن بالنبوة والنبى ونصدق بوجوده ولكن لايعرف حقيقة النبوة الا النبى وكما لايعرف الجنين حال الطفل ولا الطفل حال المميز ومايفتح له من العلوم الضرورية ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لايعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته مايفتح الله للناس من رحمة فلا يمسك لها وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد ولكن انما تظهر فى القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال

واحدا وقام الشيخ من سجادته ومشى اليهم وقعد بينهم كلواحد منهم فاكل وأكلوا وظهر لنا على وجههما نازل باطنه من التواضع لله والانكسار فى نفسه وانسلاخه من التكبر عليهم بايمانه وعلمه (أخبرنا) أبوزرعة اجازة عن أبى بكر ابن خلف اجازة عن السلمى قال سمعت أبا الحسين الفارسى يقول سمعت الجريرى يقول صح عند أهل المعرفة أن للدين رأس مال خمسة فى الظاهر وخمسة فى الباطن فاما اللواتى فى الظاهر فصدق فى اللسان وسخاوة فى الملك وتواضع فى الابدان وكف الاذى واحتماله بلا اباء وأما اللواتى فى الباطن فحب وجود سيده وخوف الفراق من سيده ورجاء

صلى الله عليه وسلم (١) ان لربكم فى أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الاخلاق المذمومة كما سيأتى بيانه والى هذا الجود الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ينزل الله كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيب له وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه (٢) عز وجل لقد طال شوق الابرار الى لقائى وأنا الى لقائهم أشد شوقا وبقوله تعالى (٣) من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا كل ذلك اشارة الى ان أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنع تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب فان القلوب كالاوانى فمادامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (٤) لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء ومن هذه الجملة يتبين ان خاصية الانسان العلم والحكمة وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الانسان وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال فالبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم والعلم هو مقصود الانسان وخاصيته التى لاجله خلق وكما أن الفرس يشارك الحمار فى قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكر والفر وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقا لاجل تلك الخاصية فان تعطلت منه نزل الى حضيض رتبة الحمار وكذلك الانسان يشارك الحمار والفرس فى أمور ويفارقهما فى أمور هى خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين والانسان على رتبة بين البهائم والملائكة فان الانسان من حيث يتغذى وينسل فنبات ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط وانما خاصيته معرفة حقائق الاشياء فمن استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق بان يلحق بهم وجدير بان يسمى ملكا وربانيا كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقولهما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم ومن صرف همته الى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الانعام فقد انحط الى حضيض أفق البهائم فيصير اما غمرا كثورا واما شرها كخنزير واما ضاريا ككلب أو سنور أو حقودا كجمل أو متكبرا كنمر أو ذا روغان كثعلب أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد وما من عضو من الاعضاء ولا حاسة من الحواس الا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول الى الله تعالى كما سيأتى بيان طرف منه فى كتاب الشكر فمن استعمله فيه فقد فاز ومن عدل عنه فقد خسر وخاب وجملة السعادة فى ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده والدار الآخرة مستقره والدنيا منزله والبدن مركبه والاعضاء خدمه فيستقر هو أعنى المدرك من الانسان فى القلب الذى هو وسط مملكته كالملك ويجرى القوة الخيالية المودعة فى مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده اذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده ويجرى القوة الحافظة التى مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه ويجرى اللسان مجرى ترجمانه ويجرى الاعضاء المتحركة مجرى كتابه ويجرى الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها باخبار صقع من الاصقاع فيوكل العين بعالم الالوان والسمع بعالم الاصوات والشم بعالم الروائح وكذلك سائرها فانها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدونها الى القوة الخيالية التى هى كصاحب البريد ويسلمها صاحب البريد الى الخازن وهى الحافظة ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج اليه فى تدبير مملكته واتمام سفره الذى هو بصدده وقمع عدوه الذى هو مبتلى به ودفع قواطع الطريق عليه فاذا فعل ذلك كان موفقا سعيدا شاكرا نعمة الله واذا عطل هذه الجملة أو

(١) حديث ان لربكم فى أيام دهركم نفحات الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وقد تقدم
(٢) حديث يقول الله عز وجل لقد طال شوق الابرار الى لقائى الحديث لم أجد له أصلا الا ان صاحب الفردوس خرجه من حديث أبى الدرداء ولم يذكر له ولد فى مسند الفردوس اسنادا (٣) حديث يقول الله من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا متفق عليه من حديث أبى هريرة (٤) حديث لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم الحديث أحمد من حديث أبى هريرة بنحوه وقد تقدم فى الصيام

الوصول الى سيده والندم على فعله والحياء من ربه وقال يحيى بن معاذ التواضع فى الخلق حسن ولكن فى الاغنياء أحسن والتكبر سمج فى الخلق ولكن فى الفقراء أسمج (وقال ذو النون) ثلاثة من علامات التواضع تصغير النفس معرفة بالعيب وتعظيم الناس حرمة للتوحيد وقبول الحق والنصيحة من كل واحد (وقيل) لابى يزيد متى يكون الرجل متواضعا قال اذا لم ير لنفسه حقا ولا حالا من علمه بشرها وازدرائها ولا يرى ان فى الخلق شرا منه (قال) بعض الحكماء وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الادب والسخاء

استعملها

استعملها لكن فى مراعاة أعدائه وهى الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة أو فى عمارة طريقه دون منزله اذ الدنيا طريقه التى عليها عبوره وطنه ومستقره الآخرة كان مخذولا شقيا كافرا بنعمة الله تعالى مضيعا لجنود الله تعالى ناصرا لاعداء الله مخذلا لحزب الله فيستحق المقت والابعاد فى المنقلب والمعاد نعوذ بالله من ذلك واما المثال الذى ضربناه أشار كعب الاحبار حيث قال دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت (١) الانسان عيناه هادوأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب منه ملك فاذا طاب الملك طابت جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال على رضى الله عنه فى تمثيل القلوب ان لله تعالى فى أرضه آنية وهى القلوب فاحبها اليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسره فقال أصلبها فى الدين وأصفاها فى اليقين وأرقها على الاخوان وهو اشارة الى قوله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم وقوله تعالى مثل نوره كمشكاة فيها مصباح قال أبى بن كعب رضى الله عنه معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى أو كظلمات فى بحر لجى مثل قلب المنافق وقال زيد بن أسلم فى قوله تعالى فى لوح محفوظ وهو قلب المؤمن وقال سهل مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسى فهذه أمثلة القلب

(بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته)

اعلم أن الانسان قد اصطحب فى خلقته وتركيبة أربع شوائب فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الاوصاف وهى الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره ومن حيث انه فى نفسه أمر ربانى كما قال الله تعالى قل الروح من أمر ربى فانه يدعى لنفسه الربوبية ويحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص والاستبداد بالامور كلها والتفرد بالرياسة والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة والاحاطة بحقائق الامور ويفرح اذا نسب الى العلم ويحزن اذا نسب الى الجهل والاحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية وفى الانسان حرص على ذلك ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها فى الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز فى استنباط وجوه الشر ويتوصل الى الاغراض بالمكر والحيلة والخداع ويظهر الشر فى معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين وكل انسان فيه شوب من هذه الاصول الاربعة أعنى الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية وكل ذلك مجموع فى القلب فكأن المجموع فى اهاب الانسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم فالخنزير هو الشهوة فانه لم يكن الخنزير مذموما للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه والكلب هو الغضب فان السبع الضارى والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة واللون والشكل بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر وفى باطن الانسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه فالخنزير يدعو بالشره الى الفحشاء والمنكر والسبع يدعو بالغضب الى الظلم والايذاء والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغرى أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه والحكيم الذى هو مثال العقل مأمور بان يدفع كيد الشيطان ومكره بان يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه اذا الغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهورا تحت سياسته فان فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الامر وظهر العدل فى مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم وان عجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال فى استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائما فى عبادة كلب وخنزير وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم

(١) حديث عائشة الانسان عيناه هاد واذناه قمع ولسانه ترجمان الحديث أبو نعيم فى الطب النبوى والطبرانى فى مسند الشاميين والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة نحوه وله ولأحمد من حديث أبى ذر أما الأذن فقمع وأما العين فقرة لما يوعى القلب ولا يصح منها شئ

وقيل لبعض الحكماء هل تعرف نعمة لا يحسد عليها وبلاء لا يرحم صاحبه عليه قال نعم أما النعمة فالتواضع وأما البلاء فالكبر والكشف عن حقيقة التواضع أن التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة فالكبر رفع الانسان نفسه فوق قدره والضعة وضع الانسان نفسه مكانا يزرى به ويفضى الى تضييع حقه وقد انفهم من كثير من اشارات المشايخ فى شرح التواضع أشياء الى حد أقاموا التواضع فيه مقام الضعة ويلوح فيه الهوى من أوج الافراط الى حضيض التفريط ويوهم انحرافا عن حد الاعتدال ويكون قصدهم فى ذلك

البطن والفرج ومنافسة الاعداء والعجب منه انه ينكر على عبدة الاصنام عبادتهم للحجارة ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين اما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه ماثلا بين يدى خنزير ساجدا له مرة وراكعا أخرى ومنتظر الاشارته وأمره فهما هاج الخنزير لطلب شئ من شهواته انبعث على الفور في خدمته واحضار شهوته أو رأى نفسه ماثلا بين يدى كلب عقور عابد له مطيعا سامعا لما يقتضيه ويلتمسه مدققا بالفكر في حيل الوصول الى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه فانه الذى يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته ونطقه وقيامه وقعوده ولينظر بعين البصيرة فلا يرى ان أنصف نفسه الا ساعيا طول النهار في عبادة هؤلاء وهذا غاية الظلم اذ جعل المالك مملوكا للرب مربوبا والسيد عبدا والقاهر مقهورا اذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر الى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعا وريانما له كالقلب وميتاله أما طاعة خنزير الشهوة فيصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها الى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وارادة الشر وشهوة الظلم وغيرها وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها ولو عكس الامر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والاحاطة بحقائق الاشياء ومعرفة الامور على ماهي عليه والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولانتشر اليه من ضبط خنزير الشهوة ورده الى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدى والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها الى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها فالقلب في حكم مرآة قد كتنفته هذه الامور المؤثرة فيه وهذه الآثار على التواصل واصلة الى القلب اما الآثار المحمودة التي ذكرناها فانها تزيد مرآة القلب جلاء واشراقا ونورا وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الامر المطلوب في الدين والى مثل هذا القلب الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (١) اذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه وبقوله صلى الله عليه وسلم (٢) من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ وهذا القلب هو الذى يستقر فيه الذكر قال الله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب وأما الآثار المذمومة فانها مثل دخان مظلم يتصاعد الى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى الى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وقال عز وجل أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى واتقوا الله واسمعوا واتقوا الله ويعلمكم الله ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن ادراك الحق وصلاح الدين ويستهين بامر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصورا لهم عليها فاذا قرع سمعه أمر الآخرة ومافيها من الاخطار دخل من اذن وخرج من اذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه الى التوبة والتدارك أولئك الذين يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة قال ميمون بن مهران اذا أذنب العبد ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء

(١) حديث اذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظا من قلبه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة واسناده جيد (٢) حديث من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ لم أجد له أصلا

المبالغة في قمع نفوس المريدين خوفا عليهم من العجب والكبر فقل أن ينفك مريد في مبادى ظهور سلطان الحال من العجب حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالاعجاب وكل ما نقل من ذلك القبيل من المشايخ لبقايا السكر عندهم وانحصارهم في مضيق سكر الحال وعدم الخروج الى فضاء الصحو في ابتداء أمرهم وذلك اذا حدق صاحب البصيرة نظره يعلم انه من استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب والنفس اذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لا يخفو على الوقت وصلافة الحال

فاذا

فاذا هو نزع وتاب صقل وان عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصي اسود قلبه ومن أتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح وينفس ثم تمسح فانها لا تخلو عن كدورة وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فاي المادتين غلبت عليه حكم له بها وفي رواية ذهبت به قال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون فاخبر أن جلاء القلب وابصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه الا الذين اتقوا فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الاكبر وهو الفوز بلقاء الله تعالى

(بيان مثال القلب بالاضافة الى العلوم خاصة)

اعلم أن محل العلم هو القلب أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهي المطاعة المخدومة من جميع الاعضاء وهي بالاضافة الى حقائق المعلومات كالمرآة بالاضافة الى صور المتلونات فكما أن للمتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها وكما ان المرآة غير وصور الاشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير فهي ثلاثة أمور فكذلك ههنا ثلاثة أمور القلب وحقائق الاشياء وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه فالعالم عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقائق الاشياء والمعلوم عبارة عن حقائق الاشياء والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة وكما أن القبض مثلا يستدعي قابضا كاليد ومقبوضا كالسيف ووصولا بين السيف واليد بحصول السيف في اليد ويسمى قبضا فكذلك وصول مثال المعلوم الى القلب يسمى علما وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم حاصلا لان العلم عبارة عن وصول الحقيقة الى القلب كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والاخذ حاصلا لعدم وقوع السيف في اليد نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب فمن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها فمثيله بالمرآة أولى لان عين الانسان لا تحصل في المرآة وانما يحصل مثال مطابق له وكذا حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم في القلب يسمى علما وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور * أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل * والثاني لخبثه وصدئه وكدورته وان كان تام الشكل * والثالث لكونه معدولا به عن جهة الصورة الى غيرها كما اذا كانت الصورة وراء المرآة * والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصورة * والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها فكذلك القلب مرآة مستعدة لان ينجلي فيها حقيقة الحق في الامور كلها وانما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الاسباب الخمسة أو لها نقصان في ذاته كقلب الصبي فانه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه * والثاني لكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فان ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (٣) من قارف ذنبا فارقه عقل فيمتنع لا يعود اليه أبدا أي حصل في قلبه كدورة لا يزول أثرها اذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها فلو جاء بالحسنة ولم

(١) حديث قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر الحديث أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض الحديث الذي يليه (٢) حديث القلوب أربعة قلب اجرد فيه سراج يزهر الحديث احمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري وقد تقدم (٣) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا لم أر له أصلا

فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب كقول بعضهم من تحت خضراء السماء مثلي وقول بعضهم قدمي على رقبة جميع الأولياء وكقول بعضهم أسرجت وألجمت وطفت في أقطار الأرض وقلت هل من مبارز فلم يخرج الى أحد اشارة منه في ذلك الى تفرده في وقته ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم انه من استراق النفس السمع فليزن ذلك بميزان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعهم واجتنابهم أمثال هذه الكلمات واستبعادهم ان يجوز للعبد التظاهر بشئ من ذلك ولكن يجعل لكلام الصادقين وجه في الصحة ويقال

تتقدم السيئة لازدادا لا محالة اشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها الى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نورا فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له فليست المرآة التي تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق فالاقبال على طاعة الله والاعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقال صلى الله عليه وسلم (١) من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم * الثالث أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فان قلب المطيع الصالح وان كان صافيا فانه ليس يتضح فيه جلية الحق لانه ليس يطلب الحق وليس محادثا بمر آته شطر المطلوب بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره الى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الالهية فلا ينكشف له الا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الاعمال وخفايا عيوب النفس ان كان متفكرا فيها أو مصالح المعيشة ان كان متفكرا فيها واذا كان تقييدا لهم بالاعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جلية الحق فما ظنك فيمن صرف الهم الى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي * الرابع الحجاب فان المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق اليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن فان ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والارض لانهم محجوبون باعتقادات تقليدية جدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجابا بينهم وبين درك الحقائق * الخامس الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب فان طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول الا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى اذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه فان العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص الا بشبكة العلوم الحاصلة بل كل علم لا يحصل الا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والانثى ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وانسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والانثى وذلك اذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب فالجهل بتلك الاصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها بل مثاله أن يريد الانسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة فانه اذا رفع المرآة بازاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا وان رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج الى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويرعى مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الاخرى التي في مقابلة العين ثم تدرك العين صورة القفا فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة يعز على بسيط الارض من يهتدي الى كيفية الحيلة في تلك الازورارات فهذه هي الاسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الامور والافكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لانه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف واليه الاشارة بقوله عز وجل انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان اشارة الى أن له خاصية تميز بها عن السموات والارض والجبال بها صار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى وتلك الامانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي مستعد لحمل الامانة ومطيق لها في الاصل ولكن يثبطه عن النهوض باعبائها والوصول الى تحقيقها الاسباب التي ذكرناها ولذلك قال صلى الله عليه

(١) حديث من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد تقدم في العلم

وسلم

ان ذلك طفح عليهم في سكر الحال وكلام السكارى يحمل فلمشايخ أرباب التمكين لما علموا في النفوس هذا الداء الدفين بالغوا في شرح التواضع الى حد ألحقوه بالضعة تداويا للمريدين والاعتدال في التواضع ان يرضى الانسان بمنزلة دون ما يستحقه ولو أمن الشخص جموح النفس لأوقفها على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان ولكن لما كان الجموح في جبلة النفس لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها الى مركز النار احتاجت للتداوي بالتواضع وايقافها دون ما تستحقه لئلا يتطرق

وسلم (١) كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء اشارة الى بعض هذه الاسباب التى هى الحجاب بين القلب وبين الملكوت واليه الاشارة بما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قيل لرسول الله يارسول الله (٣) أين الله فى الارض أو فى السماء قال فى قلوب عباده المؤمنين وفى الخبر قال الله تعالى (٤) لم يسعنى أرضى ولا سمائى و وسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع وفى الخبر أنه (٥) قيل يارسول الله من خير الناس فقال كل مؤمن مخموم القلب فقيل ومامخموم القلب فقال هو التقى النقى الذى لاغش فيه ولا بغى ولا غدر ولا غل ولا حسد ولذلك قال عمر رضى الله عنه رأى قلبى ربى اذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ومن ارتفع الحجاب بينه و بين الله تجلى صورة الملك والملكوت فى قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والارض أما جلتها فا كثر سعة من السموات والارض لان السموات والارض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وان كان واسع الاطراف متباعد الاكناف فهو متناه على الجملة وأما عالم الملكوت وهى الاسرار الغائبة عن مشاهدة الابصار المخصوصة بادراك البصائر فلا نهاية له نعم الذى يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه فى نفسه و بالاضافة الى علم الله لانهاية له وجملة عالم الملك والملكوت اذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لان الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات اذ ليس فى الوجود شئ سوى الله تعالى وأفعاله ومملكته وعبيده من أفعاله فما يتجلى من ذلك للقلب هى الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق و يكون سعة ملكه فى الجنة بحسب سعة معرفته و بمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله وانما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه قد أفلح من زكاها وخاب من دساها وبقوله الايمان فيه أعنى اشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام و بقوله أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه نعم هذا التجلى وهذا الايمان له ثلاث مراتب (المرتبة الاولى) ايمان العوام وهو ايمان التقليد المحض (والثانية) ايمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة ايمان العوام (والثالثة) ايمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين ونبين لك هذه المراتب بمثال وهو أن تصديقك بكون زيد مثلا فى الدار له ثلاث درجات (الاولى) أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا انهمته فى القول فان قلبك يسكن اليه و يطمئن بخبره بمجرد السماع وهذا هو الايمان بمجرد التقليد وهو مثل ايمان العوام فانهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وارادته وقدرته وسائر صفاته و بعثة الرسل وصدقهم وما جاؤا به وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا اليه ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم وهذا الايمان سبب النجاة فى الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لانه ليس فيه كشف و بصيرة وانشراح صدر بنور اليقين اذ الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد بل من الاعداد فيما يتعلق بالاعتقادات فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم الا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ لانهم ألقى اليهم الخطأ والمسلمون اعتقدوا الحق لالاطلاعهم عليه ولكن ألقى اليهم كلمة الحق (الرتبة الثانية) أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به

(١) حديث كل مولود يولد على الفطرة الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٢) حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم الحديث تقدم (٣) حديث ابن عمر أين الله قال فى قلوب عباده المؤمنين لم أجده بهذا اللفظ وللطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى يرفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله آنية من أهل الارض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين الحديث فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث (٤) حديث قال الله ما وسعنى أرضى ولا سمائى و وسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع لم أر له أصلا وفى حديث أبى عتبة قبله عند الطبرانى بعد قوله وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها اليه ألينها وأرقها (٥) حديث قيل من خير الناس قال كل مؤمن مخموم القلب الحديث ٥ من حديث عبد الله بن عمر باسناد صحيح

اليها الكبر فالكبر ظن الانسان انه أكبر من غيره والتكبر اظهاره ذلك وهذه صفة لايستحقها الا الله تعالى ومن ادعاها من المخلوقين يكون كاذبا والكبر يتولد من الاعجاب والاعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن والجهل الانسلاخ من الانسانية حقيقة وقد عظم الله تعالى شأن الكبر بقوله تعالى انه لايحب المستكبرين وقال تعالى أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين وقد ورد يقول الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما قصمته وفى رواية قذفته فى نار جهنم وقال عز وجل ردا للانسان فى طغيانه الى حده ولا تمش فى الارض مرحا

على كونه فى الدار فيكون ايمانك وتصديقك ويقينك بكونه فى الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع فانك اذا قيل لك انه فى الدار ثم سمعت صوته ازددت به يقينا لان الاصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت فى حال مشاهدة الصورة فيحكم قلبه بان هذا صوت ذلك الشخص وهذا ايمان ممزوج بدليل والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق اليه اذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة الا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لانه ليس بجعل للتهمة موضعا ولا يقدر فى هذا التلبيس والمحاكاة غرضا (الرتبة الثالثة) أن تدخل الدار فتنظر اليه بعينك وتشاهده وهذه هى المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهى تشبه معرفة المقربين والصديقين لانهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوى فى ايمانهم ايمان العوام والمتكلمين ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها امكان الخطأ نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف أما درجات العلوم فمثاله أن يبصر زيدا فى الدار عن قرب وفى صحن الدار فى وقت اشراق الشمس فيكمل له ادراكه والآخر يدركه فى بيت أو من بعد أو فى وقت عشية فيتمثل له فى صورته ما يستيقن معه أنه هو ولكن لا يتمثل فى نفسه الدقائق والخفايا من صورته ومثل هذا متصور فى تفاوت المشاهدة للامور الالهية وأما مقادير العلوم فهو بان يرى فى الدار زيدا وعمرا وبكرا وغير ذلك وآخر لا يرى الا زيدا فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة فهذا حال القلب بالاضافة الى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب

(بيان حال القلب بالاضافة الى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية)

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التى تحل فيه تنقسم الى عقلية والى شرعية والعقلية تنقسم الى ضرورية ومكتسبة والمكتسبة الى دنيوية وأخروية أما العقلية فنعنى بها ما تقتضى بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع وهى تنقسم الى ضرورية لا يدرى من أين حصلت وكيف حصلت كعلم الانسان بان الشخص الواحد لا يكون فى مكانين والشئ الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما معافان هذه علوم يجدها الانسان نفسه منذ الصبا مفطورا عليها ولا يدرى متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له أعنى أنه لا يدرى له سببا قريبا والا فليس يخفى عليه أن الله هو الذى خلقه وهداه والى علوم مكتسبة وهى المستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلا قال على رضى الله عنه

رأيت العقل عقلين * فمطبوع ومسموع * ولا ينفع مسموع
اذا لم يك مطبوع * كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى (١) ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل والثانى هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه (٢) اذا تقرب الناس الى الله تعالى بانواع البر فتقرب أنت بعقلك اذ لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة ولكن مثل على رضى الله عنه هو الذى يقدر على التقرب باستعمال العقل فى اقتناص العلوم التى بها ينال القرب من رب العالمين فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر فى العين وقوة الابصار لطيفة تفقد فى العمى وتوجد فى البصر وان كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل والعلم الحاصل منه فى القلب جار مجرى قوة ادراك البصر فى العين ورؤيته لاعيان الاشياء وتاخر العلوم عن عين العقل فى مدة الصبا الى أوان التمييز أو البلوغ يضاهى تاخر الرؤية عن البصر الى أوان اشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات والقلم الذى سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجرى مجرى قرص الشمس وانما لم يحصل العلم فى قلب الصبى قبل التمييز لان لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نقش العلم والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سببا لحصول نقش العلوم فى قلوب البشر قال الله تعالى الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصفه وصف خلقه فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من

(١) حديث ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل ت الحكيم فى نوادر الاصول باسناد ضعيف وقد تقدم فى العلم
(٢) حديث اذا تقرب الناس الى الله بانواع البر فتقرب أنت بعقلك أبو نعيم من حديث على باسناد ضعيف

انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا وقال تعالى فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق وأبلغ من هذا قوله تعالى قتل الانسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره وقد قال بعضهم لبعض المتكبرين أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك حامل العذرة وقد نظم الشاعر هذا المعنى كيف يزهو من رجيعه * ابد الدهر نجيعه واذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر انتشر أثره فى بعض الجوارح وترشح الاناء بما فيه فتارة يظهر أثره فى العنق بالتمايل وتارة فى الخد بالتصعير قال الله تعالى ولا تصعر خدك للناس

جوهر ولا عرض فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه الا أنه لا مناسبة بينهما فى الشرف فان البصيرة الباطنة هى عين النفس التى هى اللطيفة المدركة وهى كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس بل لا نسبة لاحد الضررين الى الآخر ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ما كذب الفؤاد ما رأى سمى ادراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وما أراد به الرؤية الظاهرة فان ذلك غير مخصوص بابراهيم عليه السلام حتى يعرض فى معرض الامتنان ولذلك سمى ضد ادراكه عمى فقال تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وقال تعالى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا فهذا بيان العلم العقلى

* أما العلوم الدينية فهى المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما بعد السماع وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الادواء والامراض فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب وان كان محتاجا اليها كما ان العقل غير كاف فى استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج الى معرفة خواص الادوية والعقاقير بطريق التعلم من الاطباء اذ مجرد العقل لا يهتدى اليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه الا بالعقل فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل فالداعى الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور فاياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعا بين الاصلين فان العلوم العقلية كالاغذية والعلوم الشرعية كالادوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها الا بالادوية المستفادة من الشريعة وهى وظائف العبادات والاعمال التى ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لاصلاح القلوب فمن لا يداوى قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة نعوذ بالله منه بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض فى الدين فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين وانما ذلك لأن عجزه فى نفسه خيل اليه تناقضا فى الدين وهيهات وانما مثاله مثال الأعمى الذى دخل دار قوم فتعثر فيها بأوانى الدار فقال لهم ما بال هذه الاوانى تركت على الطريق لم لا ترد الى مواضعها فقالوا له تلك الأوانى فى مواضعها وانما أنت لست تهتدى للطريق لعماك فالعجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عماك وانما تحيلها على تقصير غيرك فهذه نسبة العلوم الدينية الى العلوم العقلية والعلوم العقلية تنقسم الى دنيوية وأخروية فالدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات والأخروية كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله كما فصلناه فى كتاب العلم وهما علمان متنافيان أعنى أن من صرف عنايته الى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ولذلك ضرب على رضى الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال هما ككفتى الميزان وكالمشرق والمغرب وكالضرتين اذا أرضيت احداهما أسخطت الأخرى ولذلك ترى الاكياس فى أمور الدنيا وفى علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالا فى أمور الآخرة والاكياس فى دقائق علوم الآخرة جهالا فى أكثر علوم الدنيا لأن قوة العقل لا تفى بالأمرين جميعا فى الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال فى الثانى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) ان أكثر أهل الجنة البله أى البله فى أمور الدنيا وقال الحسن فى بعض مواعظه لقد أدركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو أدركوكم لقالوا شياطين فهما سمعت أمرا غريبا من أمور الدين يجحده أهل الكياسة فى سائر العلوم فلا يغرنك جحودهم عن قبوله اذ من المحال أن يظفر

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله البزار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبى فى التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدى انه منكر

وثارة يظهر فى الرأس عند استعصاء النفس قال الله تعالى لووا رؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون وكان الكبر له انقسام على الجوارح والاعضاء تتشعب منه شعب فكذلك بعضها أكثف من البعض كالتيه والزهو والعزة وغير ذلك الا أن العزة تشتبه بالكبر من حيث الصورة وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة والتواضع محمود والضعة مذمومة والكبر مذموم والعزة محمودة قال الله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين والعزة غير الكبر ولا يحل لمؤمن أن يذل نفسه فالعزة معرفة الانسان بحقيقة نفسه واكرامها أن لا يضعها لاغراض

سالك طريق المشرق بما يوجد فى المغرب فكذلك يجرى أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها الآية وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وقال عز وجل فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم فالجمع بين كمال الاستبصار فى مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر الا لمن رسخه الله لتدبير عباده فى معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الالهية التى تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها فاما قلوب سائر الخلق فانها اذا استقلت بامر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها

(بيان الفرق بين الالهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق وطريق النظار)

اعلم أن العلوم التى ليست ضرورية وانما تحصل فى القلب فى بعض الاحوال تختلف الحال فى حصولها فتارة تهجم على القلب كانه ألقى فيه من حيث لا يدرى وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم فالذى يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى الهاما والذى يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم الى ما لا يدرى العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل والى ما يطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب والأول يسمى الهاما ونفثا فى الروع والثانى يسمى وحيا وتختص به الأنبياء والأول يختص به الأولياء والأصفياء والذى قبله وهو المكتسب بطريق الاستدلال يختص به العلماء وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لان تنجلى فيه حقيقة الحق فى الاشياء كلها وانما حيل بينه وبينها بالاسباب الخمسة التى سبق ذكرها فهى كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذى هو منقوش بجميع ماقضى الله به الى يوم القيامة وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح فى مرآة القلب يضاهى انطباع صورة من مرآة فى مرآة تقابلها والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه وكذلك قد تهب رياح الالطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فيتجلى فيها بعض ماهو مسطور فى اللوح المحفوظ ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون فى المستقبل وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فيه ينكشف الغطاء وينكشف أيضا فى اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفى من الله تعالى فيلمع فى القلوب من وراء ستر الغيب شئ من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالى الى حد ما ودوامه فى غاية الندور فلم يفارق الالهام الاكتساب فى نفس العلم ولا فى محله ولا فى سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب فان ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحى الالهام فى شئ من ذلك بل فى مشاهدة الملك المفيد للعلم فان العلم انما يحصل فى قلوبنا بواسطة الملائكة واليه الاشارة بقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء فاذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف الى العلوم الالهامية دون التعليمية فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ماصنفه المصنفون والبحث عن الاقاويل والادلة المذكورة بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بانوار العلم واذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فى القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأ فيه حقائق الامور الالهية فليس على العبد الا الاستعداد بالتصفية المجردة واحضار الهمة مع الارادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة فالانبياء والاولياء انكشف لهم الامر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى فمن كان لله كان الله له وزعموا أن الطريق فى ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الاهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه الى حالة يستوى فيها وجود كل شئ وعدمه ثم يخلو بنفسه فى زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب

عاجلة دنيوية كما أن الكبر جهل الانسان بنفسه وانزالها فوق منزلتها (قال بعضهم) للحسن ما أعظمك فى نفسك قال لست بعظيم ولكنى عزيز ولما كانت العزة غير مذمومة وفيها مشاركة بالكبر قال الله تعالى تستكبرون فى الأرض بغير الحق فيه اشارة خفية لاثبات العزة بالحق فالوقوف على حد التواضع من غير انحراف الى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر ولا يؤيد فى ذلك ولا يثبت عليه الا أقدام العلماء الراسخين والسادة المقربين ورؤساء الابدال والصديقين (قال بعضهم) من تكبر فقد أخبر عن نذالة نفسه ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه (وقال الترمذى)

مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل فى تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره بل يجتهد أن لا يخطر بباله شئ سوى الله تعالى فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة قائلا بلسانه الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهى الى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ثم يصير عليه الى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ثم يواظب عليه الى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معنى الكلمة مجردا فى قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار الى أن ينتهى الى هذا الحد واختيار فى استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس وليس له اختيار فى استجلاب رحمة الله تعالى بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله فلا يبقى الا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الانبياء والاولياء بهذه الطريق وعند ذلك اذا صدقت ارادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق فى قلبه ويكون فى ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود وقد يتأخر وان عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا وان ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فرد واحد ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم وقد رجع هذا الطريق الى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط وأما النظار وذو والاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وامكانه وافضاءه الى هذا المقصد على الندور فانه أكثر أحوال الانبياء والاولياء ولكن استوعر واهذا الطريق واستبطؤا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه وزعموا أن محو العلائق الى ذلك الحد كالمتعذر وان حصل فى حال فثباته أبعد منه اذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر فى غليانها وقال عليه أفضل الصلاة والسلام (٢) قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وفى أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن واذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس اليها مدة طويلة الى أن يزول وينقضى العمر قبل النجاح فيها فكم من صوفى سلك هذا الطريق ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانكشف له وجه التباس ذلك الخيال فى الحال فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب الى الغرض وزعموا أن ذلك يضاهى ما لو ترك الانسان تعلم الفقه وزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحى والالهام من غير تكرير وتعليق فأنا أيضا بما انتهت بى الرياضة والمواظبة اليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره بل هو كمن يترك طريق الكسب والحرانة رجاء العثور على كنز من الكنوز فان ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا فكذلك هذا وقالوا لا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة

(بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس)

اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس لان القلب أيضا خارج عن ادراك الحس وما ليس مدركا بالحواس تضعف الافهام عن دركه الا بمثال محسوس ونحن نقرب ذلك الى الافهام الضعيفة بمثالين * أحدهما أنه لو فرضنا حوضا محفورا فى الارض احتمل أن يساق اليه الماء من فوقه بانهار تفتح فيه ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب الى أن يقرب من مستقر الماء الصافى فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر فذلك القلب مثل الحوض والعلم مثل الماء وتكون الحواس الخمس مثل الانهار وقد يمكن أن تساق العلوم الى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علما ويمكن أن تسد هذه الانهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد الى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله فان قلت فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه فاعلم أن هذا من

(١) حديث قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر فى غليانها أحمد وك وصححه من حديث المقداد بن الأسود

(٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن م من حديث عبد الله بن عمر

التواضع على ضربين الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونهيه فان النفس لطالب الراحة تتلهى عن أمره والشهوة التى فيها تهوى فى نهيه فاذا وضع نفسه لأمره ونهيه فهو تواضع والثانى أن يضع نفسه لعظمة الله فان اشتهت نفسه شيأ مما أطلق له من كل نوع من الانواع منعها ذلك وجملة ذلك أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى * واعلم ان العبد لا يبلغ حقيقة التواضع الا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه فعند ذلك تذوب النفس وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب فتلين وتطيع للحق والخلق لمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها وكان الحظ الاوفر من التواضع لنبينا عليه السلام فى أوطان

عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره فى علم المعاملة بل القدر الذى يمكن ذكره أن حقائق الاشياء مسطورة فى اللوح المحفوظ بل فى قلوب الملائكة المقربين فكما أن المهندس يصور أبنية الدار فى بياض ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر السموات والارض كتب نسخة العالم من أوله الى آخره فى اللوح المحفوظ ثم أخرجه الى الوجود على وفق تلك النسخة والعالم الذى خرج الى الوجود بصورة تتأدى منه صورة أخرى الى الحس والخيال فان من ينظر الى السماء والارض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والارض فى خياله حتى كانه ينظر اليهما ولو انعدمت السماء والارض وبقى هو فى نفسه لوجد صورة السماء والارض فى نفسه كانه يشاهدهما وينظر اليهما ثم يتأدى من خياله أثر الى القلب فيحصل فيه حقائق الاشياء التى دخلت فى الحس والخيال والحاصل فى القلب موافق للعالم الحاصل فى الخيال والحاصل فى الخيال موافق للعالم الموجود فى نفسه خارجا من خيال الانسان وقلبه والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة فى اللوح المحفوظ فكان للعالم أربع درجات فى الوجود وجود فى اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسمانى ويتبعه وجوده الحقيقى ويتبع وجوده الحقيقى وجوده الخيالى أعنى وجود صورته فى الخيال ويتبع وجوده الخيالى وجوده العقلى أعنى وجود صورته فى القلب وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض وهذا اللطف من الحكمة الالهية اذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث ينطبع فيها صورة العالم والسموات والارض على اتساع أكنافها ثم يسرى من وجودها فى الحس وجودا الى الخيال ثم منه وجودا فى القلب فانك أبدا لا تدرك الا ما هو واصل اليك فلولم يجعل للعالم كله مثالا فى ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك فسبحان من دبر هذه العجائب فى القلوب والابصار ثم أعمى عن درکها القلوب والابصار حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بانفسها وبعجائبها ولنرجع الى الغرض المقصود فنقول القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر اليها وتارة من النظر الى الماء الذى يقابل الشمس ويحكى صورتها فهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر اليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما أن الماء اذا اجتمع فى الانهار منع ذلك من التفجر فى الأرض وكما أن من نظر الى الماء الذى يحكى صورة الشمس لا يكون ناظرا الى نفس الشمس فاذا للقلب بابان باب مفتوح الى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة وباب مفتوح الى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة وعالم الشهادة والملك أيضا يحاكى عالم الملكوت نوعا من المحاكاة فاما انفتاح باب القلب الى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك وأما انفتاح بابه الداخل الى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علما يقينا بالتأمل فى عجائب الرؤيا واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل أو كان فى الماضى من غير اقتباس من جهة الحواس وانما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم (١) سبق المفردون قيل ومن هم المفردون يا رسول الله قال المتنزهون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا ثم قال فى وصفهم اخبارا عن الله تعالى ثم أقبل بوجهى عليهم أترى من واجهته بوجهى يعلم أحد أى شئ أريد أن أعطيه ثم قال تعالى أول ما أعطيهم أن أقذف النور فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن فاذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء

(١) حديث سبق المفردون قيل ومن هم قال المستهترون بذكر الله الحديث م من حديث أبى هريرة مقتصرا على أول الحديث وقال فيه وما المفردون قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات ورواه ك بلفظ قال الذين يستهترون بذكر الله وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقى فى الشعب يضع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافا ورواه هكذا الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث أبى الدرداء دون الزيادة التى ذكرها المصنف فى آخره وكلاهما ضعيف

هذا

الغرب كما روى عن عائشة رضى الله عنها فى الحديث الطويل قالت فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فاخذنى ما يأخذ النساء من الغيرة ظننت أنه عند بعض أزواجه فطلبته فى حجر نسائه فلم أجده فوجدته فى المسجد ساجدا كالثوب الخلق وهو يقول فى سجوده سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى وأقر بك لسانى وهذا أنا ذا بين يديك يا عظيم يا غافر الذنب العظيم وقوله عليه السلام سجد لك سوادى وخيالى استقصاء فى التواضع بمحو آثار الوجود حيث لم تتخلف ذرة منه عن السجود ظاهرا وباطنا ومتى لم يكن للصوفى حظ من التواضع

هذا وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب من الباب المنفتح الى عالم الملكوت وعلم الحكمة يأتى من أبواب الحواس المفتوحة الى عالم الملك وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمى الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقصى فى علم المعاملة فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين * المثال الثانى يعرفك الفرق بين العملين أعنى عمل العلماء وعمل الأولياء فان العلماء يعملون فى اكتساب نفس العلوم واجتلابها الى القلب وأولياء الصوفية يعملون فى جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط فقد حكى أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدى بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأى الملك على أن يسلم اليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانبا وأهل الروم جانبا ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك فجمع أهل الروم من الاصباغ الغريبة مالا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضا فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ فقيل وكيف فرغتم من غير صبغ فقالوا ما عليكم ارفعوا الحجاب فرفعوا واذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة اشراق وبريق اذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الاشراق كفعل أهل الصين وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها فى القلب كفعل أهل الروم فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت وعلمه عند الموت لا يمحى وصفاؤه لا يتكدر واليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله التراب لا يأكل محل الايمان بل يكون وسيلة وقربة الى الله تعالى وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا سعادة لأحد الا بالعلم والمعرفة وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى الا بالمال فصاحب الدرهم غنى وصاحب الخزائن المترعة غنى وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والايمان كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون الى لقاء الله تعالى الا بأنوارهم قال الله تعالى يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم وقد روى فى الخبر (١) ان بعضهم يعطى نورا مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نورا على ابهام قدميه فيضىء مرة وينطفىء أخرى فاذا أضاء قدم قدميه مشى واذا طفئ قام ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كالفرس اذا اشتد فى ميدانه والذى أعطى نورا على ابهام قدمه يحبو حبوا على وجهه ويديه ورجليه يجر يدا ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص الحديث فبهذا يظهر تفاوت الناس فى الايمان ولو وزن ايمان أبى بكر بايمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح فهذا أيضا هى قول القائل لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح فايمان آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع وايمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم وايمان الأنبياء كالشمس وكما ينكشف فى نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع أقطارها ولا ينكشف فى نور السراج الا زاوية ضيقة من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين ولذلك جاء فى الخبر (٢) أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الايمان وان هذه المقادير من الايمان لا تمنع دخول النار وفى مفهومه ان من ايمانه يزيد على مثقال فانه لا يدخل النار اذ لو دخل لأمر باخراجه أولا وأن من فى قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود فى النار وان دخلها

(١) حديث ان بعضهم يعطى نورا مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجل يعطى نوره على ابهام قدمه الحديث الطبرانى وله من حديث ابن مسعود قال له صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث يقال يوم القيامة اخرجوا من النار من فى قلبه وربع مثقال من ايمان الحديث متفق عليه من حديث أبى سعيد وليس فيه قوله وربع مثقال

الخاص على بساط القرب لا يتوفر حظه من التواضع للخلق وهذه سعادات ان أقبلت جاءت بكليتها والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية (ومن أخلاق الصوفية) المداراة واحتمال الاذى من الخلق وبلغ من مداراة رسول الله صلى الله عليه وسلم انه وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة من قبله وان باصحابه لحاجة الى بعير واحد يتقوون به * وكان من حسن مداراته ان لا يذم طعاما ولا ينهر خادما (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الكرخى قال أنا أبو نصر الترياقى

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم (١) ليس شئ خيرا من ألف مثله الا الانسان المؤمن اشارة الى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن فانه خير من ألف قلب من العوام وقد قال تعالى وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين تفضيلا للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن العارف دون المقلد وقال عز وجل يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فاراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم ويدل ذلك على ان اسم المؤمن يقع على المقلد وان لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف وفسر ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى والذين أوتوا العلم درجات فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وقال صلى الله عليه وسلم (٢) أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب وقال صلى الله عليه وسلم (٣) فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى وفى رواية كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب فبهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن اذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره اليها كنظر الغنى الذى يملك عشرة دراهم الى الغنى الذى يملك الأرض من المشرق الى المغرب وكل واحد منهما غنى ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا

(بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد)

اعلم أن من انكشف له شئ ولو الشئ اليسير بطريق الالهام والوقوع فى القلب من حيث لا يدرى فقد صار عارفا بصحة الطريق ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغى أن يؤمن به فان درجة المعرفة فيه عزيزة جدا ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات أما الشواهد فقوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والالهام وقال صلى الله عليه وسلم (٤) من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار وقال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا من الاشكالات والشبه ويرزقه من حيث لا يحتسب يعلمه علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر فى دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام (٥) اللهم أعطنى نورا وزدنى نورا واجعل لى فى قلبى نورا وفى قبرى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا حتى قال فى شعرى وفى بشرى وفى لحمى ودمى وعظامى وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى (٦) أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ما هذا الشرح فقال هو التوسعة ان النور اذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح وقال صلى الله عليه وسلم (٧) لابن عباس اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل وقال

(١) حديث ليس شئ خيرا من الف مثله الا الانسان أو المؤمن الطبرانى من حديث سلمان بلفظ الانسان ولأحمد من حديث ابن عمر لا نعلم شيئا خيرا من مائة مثله الا الرجل المؤمن واسنادهما حسن (٢) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الالباب تقدم دون هذه الزيادة ولم أجد لهذه الزيادة أصلا (٣) حديث فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى ت من حديث أبى أمامة وصححه وقد تقدم فى العلم وكذلك الرواية الثانية (٤) حديث من عمل بما علم الحديث تقدم فى العلم دون قوله ووفقه فيما يعمل فلم أرها (٥) حديث اللهم اعطنى نورا وزدنى نورا الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس (٦) حديث سئل عن قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام الحديث وفى المستدرك من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم (٧) حديث اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله وعلمه التأويل فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وحبك وصححه وقد تقدم فى العلم

قال أنا الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبة قال ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط وما قال لشئ صنعته لم صنعته ولا لشئ تركته لم تركته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا وما مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيأ كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم فالمداراة مع كل أحد من الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية وباحتمال الأذى يظهر جوهر النفس وقد قيل

على رضى الله عنه (١) ماعندنا شئ أسره النبى صلى الله عليه وسلم الينا الا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه وليس هذا بالتعلم وقيل فى تفسير قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء انه الفهم فى كتاب الله تعالى وقال تعالى ففهمناها سليمان خص ما انكشف باسم الفهم وكان أبو الدرداء يقول المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله انه للحق يقذفه الله فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم وقال بعض السلف ظن المؤمن كهانة وقال صلى الله عليه وسلم (٢) اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى واليه يشير قوله تعالى ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وقوله تعالى قد بينا الآيات لقوم يوقنون وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (٣) العلم علمان فعلم باطن فى القلب فذلك هو العلم النافع وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ماهو فقال هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا وقد قال صلى الله عليه وسلم (٤) ان من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين وان عمر منهم وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدث يعنى الصديقين والمحدث هو الملهم والملهم هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف وذلك علم من غير تعلم وقال الله تعالى وما خلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون خصها بهم وقال تعالى هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين وكان أبو يزيد وغيره يقول ليس العالم الذى يحفظ من كتاب فاذا نسى ما حفظه صار جاهلا انما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا حفظ ولا درس وهذا هو العلم الربانى واليه الاشارة بقوله تعالى وعلمناه من لدنا علما مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولوجمع كل ما ورد فيه من الآيات والاخبار والآثار لخرج عن الحصر * وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته انما هما أخواك وأختاك وكانت زوجته حاملا فولدت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة انها بنت وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته ياسارية الجبل الجبل اذ انكشف له ان العدو قد أشرف عليه فخذره لمعرفته ذلك ثم بلوغ صوته اليه من جملة الكرامات العظيمة وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال دخلت على عثمان رضى الله عنه وكنت قد لقيت امرأة فى طريق فنظرت اليها شزرا وتأملت محاسنها فقال عثمان رضى الله عنه لما دخلت يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين النظر لتتوبن أو لا عزرنك فقلت أوحى بعد النبى فقال لا ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة * وعن أبى سعيد الخراز قال دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقتان فقلت فى نفسى هذا وأشباهه كل على الناس فنادانى وقال والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه فاستغفرت الله فى سرى فنادانى وقال وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ثم غاب عنى ولم أره وقال زكريا بن داود دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى وهو عليل وكان ذا عيال ولم يعرف له سبب يعيش به قال فلما قمت قلت فى نفسى من أين يا كل هذا الرجل قال فصاح بى يا أبا العباس ردهذه الهمة الدنية فان الله تعالى ألطافا خفية وقال أحمد النقيب دخلت على الشبلى فقال مفتونا يا أحمد فقلت ما الخبر قال كنت جالسا فجرى بخاطرى انك بخيل فقلت ما أنا بخيل فعاد منى خاطرى وقال بل أنت بخيل فقلت ماقح اليوم على بشئ الا دفعته الى أول فقير يلقانى قال فما استتم الخاطر حتى دخل على صاحب المؤنس الخادم ومعه خمسون دينارا فقال اجعلها فى مصالحك قال وقمت فاخذتها وخرجت واذا بفقير مكفوف بين يدى مزين يحلق رأسه فتقدمت

(١) حديث على ماعندنا شئ أسره الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه تقدم فى آداب تلاوة القرآن (٢) حديث اتقوا فراسة المؤمن الحديث من حديث أبى سعيد وقد تقدم (٣) حديث العلم علمان الحديث تقدم فى العلم (٤) حديث ان من أمتى محدثين ومكلمين وان عمر منهم خ من حديث أبى هريرة لقد كان فيما قبلكم من الامم محدثون فان يك فى أمتى أحد فانه عمر ورواه م من حديث عائشة

لكل شئ جوهر وجوهر الانسان العقل وجوهر العقل الصبر

(أخبرنا) أبو زرعة طاهر عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا أبو محمد الصريفينى قال أنا أبو القاسم عبيد الله بن حبابة قال أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا على بن الجعد قال أنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت من هو قال ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن الذى يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم (وفى الخبر) أيعجز أحدكم أن يكون كابى ضمضم قيل ماذا كان يصنع أبو ضمضم قال كان اذا أصبح قال

اليه وناولته الدنانير فقال أعطها المزين فقلت ان جلتها كذا وكذا قال أوليس قد قلنا لك انك بخيل قال فناولتها المزين فقال المزين قد عقدنا لما مجلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا قال فرميت بها في دجلة وقلت ما أعزك أحد الا أذله الله عز وجل وقال حمزة بن عبد الله العلوي دخلت على أبي الخير التيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاما فلما خرجت من عنده اذا به قد لحقني وقد حمل طبقا فيه طعام وقال يا فتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك وكان أبو الخير التيناني هذا مشهورا بالكرامات وقال ابراهيم الرقي قصدته مسلما عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكد يقرأ الفاتحة مستويا فقلت في نفسي ضاعت سفرتي فلما سلم خرجت الى الطهارة فقصدني سبع فعدت الى أبي الخير وقلت قصدني سبع فخرج وصاح به وقال ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني فتنحى الاسد فتطهرت فلما رجعت قال لي اشتغالهم بتقويم الظاهر لختم الاسد واشتغلنا بتقويم البواطن لخافنا الاسد * وما حكي من تفرس المشايخ واخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر بل ما حكي عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه ومن سماع صوت الهاتف ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية لا تنفع الجاحد مالم يشاهد ذلك من نفسه ومن أنكر الاصل أنكر التفصيل * والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحده أمران * أحدهما عجائب الرؤيا الصادقة فانه ينكشف بها الغيب واذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضا في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة الا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه * الثاني اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن واذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم جاز لغيره اذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الامور وشغل باصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل باصلاح الخلق وهذا لا يسمى نبيا بل يسمى وليا فمن آمن بالانبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان باب الى خارج وهو الحواس وباب الى الملكوت من داخل القلب وهو باب الالهام والنفث في الروع والوحي فاذا أقر بهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الاسباب المألوفة بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا اليه فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت وأما السبب في انكشاف الامر في المنام بالمثال المحوج الى التعبير وكذلك تمثل الملائكة للانبياء والاولياء بصور مختلفة فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذلك الا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ما ذكرناه فانه كاف للاستمداد على المجاهدة وطلب الكشف منها فقد قال بعض المكاشفين ظهر لي الملك فسألني أن أملي عليه شيأ من ذكري الخفي عن مشاهدتي من التوحيد وقال ما نكتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به الى الله عز وجل فقلت ألستما تكتبان الفرائض قالا بلى قلت فيكفيكما ذلك وهذه اشارة الى أن الكرام الكاتبين لا يطلعون على أسرار القلب وانما يطلعون على الاعمال الظاهرة وقال بعض العارفين سألت بعض الابدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت الى شماله فقال ما تقول رحمك الله ثم التفت الى يمينه فقال ما تقول رحمك الله ثم أطرق الى صدره وقال ما تقول رحمك الله ثم أجاب باغرب جواب سمعته فسألته عن التفاته فقال لم يكن عندي في المسألة جواب عتيد فسألت صاحب الشمال فقال لا أدري فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدري فنظرت الى قلبي وسألته فحدثني بما أجبتك فاذا هو أعلم منهما وكأن هذا هو معنى قوله عليه السلام ان في أمتي محدثين وان عمر منهم وفي الاثر ان الله تعالى يقول أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري تولليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه وقال أبو سليمان الداراني رحمة الله عليه القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة فاي باب فتح له عمل فيه فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب الى جهة الملكوت والملأ الاعلى وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والاعراض عن شهوات الدنيا ولذلك كتب عمر رضي الله عنه الى أمراء الاجناد احفظوا ما تسمعون من المطيعين فانهم يجلى لهم أمور صادقة وقال بعض العلماء يدل الله على أفواه الحكماء لا ينطقون الا بما هيأ الله لهم من الحق وقال آخر لو شئت لقلت ان الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره

اللهم اني تصدقت اليوم بعرضي على من ظلمني فمن ضربني لا أضربه ومن شتمني لا أشتمه ومن ظلمني لا أظلمه (وأخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب قال أنا أبو الفتح الهروي قال حدثنا الترياقي قال أنا الجراحي قال أنا المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا ابن أبي عمر قال ثنا سفيان عن محمد ابن المنكدر عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة ثم أذن له فألان له القول فلما خرج قلت يا رسول الله قلت له ما قلت ثم ألنت له القول قال يا عائشة ان من شر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس

(بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها)

اعلم ان القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب اليه الاحوال من كل باب ومثاله أيضا مثال هدف تنصب اليه السهام من الجوانب أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة اليه وانما مداخل هذه الآثار المتجددة فى القلب فى كل حال أما من الظاهر فالحواس الخمس وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والاخلاق المركبة من مزاج الانسان فانه اذا أدرك بالحواس شيأ حصل منه أثر فى القلب وكذلك اذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الاكل وبسبب قوة فى المزاج حصل منها فى القلب أثر وان كف عن الاحساس فالخيالات الحاصلة فى النفس تبقى وينتقل الخيال من شئ الى شئ وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال الى حال آخر والمقصود أن القلب فى التغير والتأثر دائما من هذه الاسباب وأخص الآثار الحاصلة فى القلب هو الخواطر وأعنى بالخواطر ما يحصل فيه من الافكار والاذكار وأعنى به ادراكاته علوما اما على سبيل التجدد واما على سبيل التذكر فانها تسمى خواطر من حيث انها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها والخواطر هى المحركات للارادات فان النية والعزم والارادة انما تكون بعد خطور المنوى بالبال لاستحالة فبدأ الأفعال الخواطر ثم الخاطر يحرك الرغبة والرغبة تحرك العزم والعزم يحرك النية والنية تحرك الأعضاء والخواطر المحركة للرغبة تنقسم الى ما يدعو الى الشر أعنى الى ما يضر فى العاقبة والى ما يدعو الى الخير أعنى الى ما ينفع فى الدار الآخرة فهما خاطران مختلفان فافتقرا الى اسمين مختلفين فالخاطر المحمود يسمى الهاما والخاطر المذموم أعنى الداعى الى الشر يسمى وسواسا ثم انك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ثم ان كل حادث فلا بد له من محدث ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعى الى الخير يسمى ملكا وسبب الخاطر الداعى الى الشر يسمى شيطانا واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول الهام الخير يسمى توفيقا والذى به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى اغواء وخذلانا فان المعانى المختلفة تفتقر الى أسامى مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه افاضة الخير وافادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف وقد خلقه وسخره لذلك والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير بالفقر فالوسوسة فى مقابلة الالهام والشيطان فى مقابلة الملك والتوفيق فى مقابلة الخذلان واليه الاشارة بقوله تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين فان الموجودات كلها متقابلة مزدوجة الا الله تعالى فانه فرد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) فى القلب لمتان لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله سبحانه وليحمد الله ولمة من العدو ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا قوله تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء الآية وقال الحسن انهما هاجسان يجولان فى القلب هم من الله تعالى وهم من العدو فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده ولتجاذب القلب بين هذين المتباطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن فالله يتعالى عن ان يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الأصبع سرعة التقليب والقدرة على التحريك والتغيير فانك لا تريد أصبعك لشخصه بل لفعله فى التقليب والترديد كما أنك تتعاطى الافعال باصابعك والله تعالى يفعل ما يفعل

(١) حديث فى القلب لمتان لمة من الملك ايعاد بالخير الحديث ت وحسنه ون فى الكبرى من حديث ابن مسعود

(٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين الحديث تقدم

اتقاء خشيه (وروى) أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن فما شئ يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه كحسن المداراة والنفس لا تزال تشمئز ممن يعكس مرادها ويستفزها الغيظ والغضب وبالمداراة قطع حمة النفس ورد طيشها ونزورها * وقد ورد من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء (وروى جابر) رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أخبركم على من تحرم النار

باستصغار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته فى تقليب القلوب كما أن أصابعك مسخرة لك فى تقليب الاجسام مثلا والقلب باصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر وانما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والاكباب على الشهوات أو الاعراض عنها ومخالفتها فان اتبع الانسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه وان جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه باخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل الى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لاجرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) مامنكم من أحد الا وله شيطان قالوا وأنت يارسول الله قال وأنا الا أن الله أعانني عليه فاسلم فلا يأمر الا بخير وانما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف الا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط الا حيث ينبغي والى الحد الذي ينبغي فشهوته لا تدعو الى الشر فالشيطان المتدرع بها لا يأمر الا بالخير ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس ومهما انصرف القلب الى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين فى معركة القلب دائم الى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويسكن ويكون اجتياز الثاني اختلاسا وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية الى ايثار العاجلة واطراح الآخرة ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى ولا يمكن فتحها بعد ذلك الا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أنس الملائكة وقال جابر بن عبيدة العدوي شكوت الى العلاء بن زياد ما أجد فى صدري من الوسوسة فقال انما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص فان كان فيه شئ عالجوه والا مضوا وتركوه يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال الله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان وقال تعالى أفرأيت من اتخذ الهه هواه وهو اشارة الى أن من الهوى الهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك قال عمرو بن العاص (٧) للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله (٢) حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله منه وانفل على يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فاذهبه الله عني وفى الخبر (٣) ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب الا ذكر ماسوس مايوسوس به لأنه اذا خطر فى القلب ذكر شئ انعدم منه ما كان فيه من قبل ولكن كل شئ سوى الله تعالى وسوى مايتعلق به فيجوز أيضا ان يكون مجالا للشيطان وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ولا يعالج الشئ الا بضده وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوة وهو معنى قولك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وذلك لا يقدر عليه الا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى وانما الشيطان يطوف عليهم فى أوقات الفلتات على سبيل الخلسة قال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وقال مجاهد فى معنى قول الله تعالى من شر الوسواس الخناس قال هو منبسط على القلب فاذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض واذا غفل انبسط على قلبه فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار ولتضادهما قال الله تعالى

(١) حديث مامنكم من أحد الا وله شيطان الحديث م من حديث ابن مسعود (٢) حديث ابن أبي العاص ان الشيطان حال بيني وبين صلاتي الحديث م من حديث ابن أبي العاص (٣) حديث ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان الحديث ه ت من حديث أبي بن كعب وقال غريب وليس اسناده بالقوي عند أهل الحديث

(٧) قوله عمرو بن العاص كذا فى النسخ قال الشارح والصواب عثمان بن أبي العاص وفى العراقي مايشير لذلك اهمصححه

على كل هين لين سهل قريب (وروى) أبو مسعود الانصاري رضي الله عنه قال أتى النبي عليه السلام برجل فكلمه فارعد فقال هون عليك فاني لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد (وعن بعضهم) فى معنى لين جانب الصوفية هينون لينون ايسار بنو يسر * سواس مكرمة ابناء ايسار لاينطقون عن الفحشاء ان نطقوا * ولا يمارون ان مارواوا كثار من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم * مثل النجوم التي يسرى بها الساري * (وروى) أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ومن حرم حظه من

استحوذ

استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فان هو ذكر الله تعالى خنس وان نسى الله تعالى التقم قلبه وقال ابن وضاح (٢) فى حديث ذكره اذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده وقال بابى وجه من لا يفلح وكما ان الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية فى لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى اخبارا عن ابليس لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم وقال صلى الله عليه وسلم (٤) ان الشيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الاسلام فقال أتسلم وتترك دينك ودين آبائك فعصاه وأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر فتدع أرضك وسماءك فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك فعصاه وجاهد وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الوسوسة وهى هذه الخواطر التى تخطر للمجاهد أنه يقتل وتنكح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه الخواطر معلومة فاذا الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويفتقر الى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ولا يتصور أن ينفك عنه آدمى وانما يختلفون بعصيانه ومتابعته ولذلك قال عليه السلام (٥) مامن أحد الا وله شيطان فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والالهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر من ينظر فى ذات الشيطان انه جسم لطيف أوليس بجسم وان كان جسما فكيف يدخل بدن الانسان ما هو جسم فهذا الآن غير محتاج اليه فى علم المعاملة بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت فى ثيابه حية وهو محتاج الى ازالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فمصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على انه عن سبب لا محالة وعلم ان الداعى الى الشر المحذور فى المستقبل عدو فقد عرف العدو لا محالة فينبغى أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته فى مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير وقال تعالى ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين فينبغى للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه نعم ينبغى ان يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالمين فاما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته نعوذ بالله منه وحقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين فى علوم المكاشفات فلا يحتاج فى علم المعاملة الى معرفته نعم ينبغى أن يعلم أن الخواطر تنقسم الى ما يعلم قطعا أنه داع الى الشر فلا يخفى كونه وسوسة والى ما يعلم انه داع الى الخير فلا يشك فى كونه الهاما والى ما يتردد فيه فلا يدرى أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان فان من مكايد الشيطان أن يعرض الشر فى معرض الخير والتمييز فى ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون فان الشيطان لا يقدر على دعائهم الى الشر الصريح فيصور الشر بصورة الخير كما يقول للعالم بطريق الوعظ أما تنظر الى الخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النار أما لك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب

(١) حديث أنس ان الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب مكايد الشيطان وأبو يعلى الموصلى وابن عدى فى الكامل وضعفه (٢) حديث ابن وضاح اذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال بأبى وجه لا يفلح لم أجد له أصلا (٣) حديث ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم تقدم (٤) حديث ان الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه الحديث ن من حديث سبرة بن أبى فاكه باسناد صحيح (٥) حديث مامن أحد الا له شيطان الحديث تقدم

الرفق فقد حرم حظه من الخير

(حدثنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب املاء قال ثنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله المالينى قال أنا أبو الحسين عبد الرحمن بن أبى طلحة الداودى قال أنا أبو محمد عبد الله الحموى السرخسى قال أنا أبو عمران عيسى بن عمر السمرقندى قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال أنا محمد بن أحمد بن أبى خلف قال ثنا عبد الرحمن بن محمد عن محمد بن اسحق قال حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن رجل من العرب قال زحمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وفى رجلى نعل كثيفة فوطئت بها على رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفحنى نفحة

بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وتسكت عن اشاعة العلم ودعوة الخلق الى الصراط المستقيم ولا يزال يقرر ذلك فى نفسه ويستجره بلطيف الحيل الى أن يشتغل بوعظ الناس ثم يدعوه بعد ذلك الى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ واظهار الخير ويقول له ان لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يهتدوا الى الحق ولا يزال يقرر ذلك عنده وهو فى أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الاتباع والعلم والنظر الى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح الى الهلاك فيتكلم وهو يظن ان قصده الخير وانما قصده الجاه والقبول فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان الله ليؤيد بهذا الدين بقوم لا خلاق لهم (٢) وان الله ليؤيد بهذا الدين بالرجل الفاجر ولذلك روى ان ابليس لعنه الله تمثل لعيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فقال له قل لا اله الا الله فقال كلمة حق ولا أقولها بقولك لان له أيضا تحت الخير تلبيسات وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تتناهى وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والاغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لانفسهم الخوض فى المعاصى المكشوفة وسنذكر جملة من مكايد الشيطان فى كتاب الغرور فى آخر هذا الربع ولعلنا ان أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه تلبيس ابليس فانه قد انتشر الآن تلبيسه فى البلاد والعباد لا سيما فى المذاهب والاعتقادات حتى لم يبق من الخيرات الا رسمها كل ذلك اذعانا لتلبيسات الشيطان ومكايده فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ليعلم انه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع ولا يطلع عليه الا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا أى رجعوا الى نور العلم فاذا هم مبصرون أى ينكشف لهم الاشكال فاما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه الى الاذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر وفى مثلهم قال سبحانه وتعالى وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون قيل هى أعمال ظنوها حسنات فاذا هى سيئات وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكايد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر اليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه ولا ينجى من كثرة الوسواس الا سد أبواب الخواطر وأبوابها الحواس الخمس وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا والخلوة فى بيت مظلم تسد بها الحواس والتجرد عن الاهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنه فى التخيلات الجارية فى القلب وذلك لا يدفع الا بشغل القلب بذكر الله تعالى ثم انه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بد من مجاهدته وهذه مجاهدة لا آخر لها الا الموت اذ لا يتخلص أحد من الشيطان مادام حيا نعم قد يقوى بحيث لا ينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد ولكن لا يستغنى قط عن الجهاد والمدافعة مادام الدم يجرى فى بدنه فانه مادام حيا فابواب الشيطان مفتوحة الى قلبه لا تنغلق وهى الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها كما سيأتى شرحها ومهما كان الباب مفتوحا والعدو غير غافل لم يدافع الا بالحراسة والمجاهدة قال رجل للحسن يا أبا سعيد أينام الشيطان فتبسم وقال لو نام لاسترحنا فاذا لا خلاص للمؤمن منه نعم له سبيل الى دفعه وتضعيف قوته قال صلى الله عليه وسلم (٣) ان المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى سفره وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول وقال قيس بن الحجاج قال لى شيطانى دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل العصفورة قلت ولم ذاك قال تذيبنى بذكر الله تعالى فاهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة أعنى الابواب الظاهرة والطرق الجلية التى تفضى الى المعاصى الظاهرة وانما يتعثرون فى طرقه

(١) حديث ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم ن من حديث أنس باسناد جيد (٢) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم فى العلم (٣) حديث ان المؤمن ينضى شيطانه الحديث احمد من حديث ابى هريرة وفيه ابن لهيعة

يسوط فى يده وقال بسم الله أوجعتنى قال فبت لتفسى لائما أقول أوجعت رسول الله قال فبت بليلة كما يعلم الله فلما أصبحنا اذا رجل يقول أين فلان قلت هذا والله الذى كان منى بالأمس قال فانطلقت وأنا متخوف فقال لى انك وطئت بنعلك على رجلى بالأمس فأوجعتنى فنفحتك نفحة بالسوط فهذه ثمانون نهجة نفذها بها ومن أخلاق الصوفية الايثار والمواساة ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعا وقوة اليقين شرعا يؤثرون بالموجود ويصبرون على المفقود * قال أبو يزيد البسطامى ماغلبنى أحد ماغلبنى شاب من أهل بلخ قدم علينا حاجا فقال لى يا أبا يزيد ماحد الزهد

الغامضة فانهم لا يهتدون اليها فيحرسونها كما أشرنا اليه فى غرور العلماء والوعاظ والمشكل ان الابواب المفتوحة الى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الابواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذى يبقى فى بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك فى ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق الا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة والعين البصيرة ههنا هى القلب المصفى بالتقوى والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مما يهدى الى غوامض طرقه والاقطرقه كثيرة وغامضة * قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (١) خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم تلا وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل لتلك الخطوط فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه وهو الذى يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصى الظاهرة فلنذكر مثالا للطريق الواضح الذى لا يخفى الا أن يضطر الآدمى الى سلوكه وذلك كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) كان راهب فى بنى اسرائيل فعمد الشيطان الى جارية فخنقها وألقى فى قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فاتوا بها اليه فابى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى واقعها فحملت منه فوسوس اليه وقال الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فان سألوك فقل ماتت فقتلها ودفنها فاتى الشيطان أهلها فوسوس اليهم وألقى فى قلوبهم أنه أحبها ثم قتلها ودفنها فاتاه أهلها فسألوه عنها فقال ماتت فاخذوه ليقتلوه بها فاتاه الشيطان فقال أنا الذى خنقتها وأنا الذى ألقيت فى قلوب أهلها فاطعنى تنج وأخلصك منهم قال بماذا قال اسجد لى سجدتين فسجد له سجدتين فقال له الشيطان انى برىء منك فهو الذى قال الله تعالى فيه كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك فانظر الآن الى حيله واضطراره الراهب الى هذه الكبائر وكل ذلك لطاعته له فى قبول الجارية للمعالجة وهو أمر هين ورب مما يظن صاحبه انه خير وحسنة يحسن ذلك فى قلبه بخفى الهوى فيقدم عليه كالراغب فى الخير فيخرج الامر بعد ذلك عن اختياره ويجره البعض الى البعض بحيث لا يجد محيصا فنعوذ بالله من تضييع أوائل الامور واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (٣) من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه

(بيان تفصيل مداخل الشيطان الى القلب)

اعلم أن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولى عليه ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو الا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدرى أبوابه فمهما القلب من وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف وما لا يتوصل الى الواجب الا به فهو أيضا واجب ولا يتوصل الى دفع الشيطان الا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهى كثيرة ولكنا نشير الى الابواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان * فمن أبوابه العظيمة الغضب والشهوة فان الغضب هو غول العقل واذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ومهما غضب الانسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبى بالكرة فقد روى أن موسى عليه السلام لقيه ابليس فقال له يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلك تكليما وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب

(١) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال هذا سبيل الله الحديث ن فى الكبرى وك وقال صحيح الاسناد (٢) حديث كان راهب فى بنى اسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى فى قلوب أهلها ان دواءها عند الراهب الحديث بطوله فى تأويل قوله تعالى كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر ه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان وابن مردويه فى تفسيره فى حديث عبيد بن أبى رفاعة مرسلا والحاكم نحوه موقوفا على على بن أبى طالب وقال صحيح الاسناد وصله بطين فى مسنده من حديث على (٣) حديث من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه متفق عليه من حديث النعمان بن بشير من يرتع حول الحمى يوشك ان يواقعه لفظ خ

عندكم قلت اذا وجدنا أكلنا واذا فقدنا صبرنا فقال هكذا عندنا كلاب بلع فقلت له وما حد الزهد عندكم قال اذا فقدنا شكرنا واذا وجدنا آثرنا (وقال ذو النون) من علامة الزاهد المشروح صدره ثلاث تفريق المجموع وترك طلب المفقود والايثار بالقوت (روى) عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النضير للانصار ان شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم فى هذه الغنيمة وان شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم شيأ من الغنيمة فقالت الانصار بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة

فاشفع لى الى ربى أن يتوب على فقال موسى نعم فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه أد الامانة فقال موسى يارب عبدك ابليس يريد أن تتوب عليه فاوحى الله تعالى الى موسى ياموسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه فلقى موسى ابليس فقال له قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك فغضب واستكبر وقال لم أسجد له حيا أأسجد له ميتا ثم قال ياموسى ان لك على حقا بما شفعت لى الى ربك فاذكرنى عند ثلاث لا أهلكك فيهن اذكرنى حين تغضب فان روحى فى قلبك وعينى فى عينك وأجرى منك مجرى الدم اذكرنى اذا غضبت فانه اذا غضب الانسان نفخت فى أنفه فما يدرى مايصنع واذكرنى حين تلقى الزحف فانى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فاذكره زوجته وولده وأهله حتى يولى واياك ان تجلس الى امرأة ليست بذات محرم فانى رسولها اليك ورسولك اليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك فقد أشار بهذا الى الشهوة والغضب والحرص فان الفرار من الزحف حرص على الدنيا وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله وقد ذكر أن بعض الاولياء قال لابليس أرنى كيف تغلب ابن آدم فقال آخذه عند الغضب وعند الهوى فقد حكى أن ابليس ظهر لراهب فقال له الراهب أى أخلاق بنى آدم أعون لك قال الحدة فان العبد اذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وقيل ان الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم واذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه واذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فبهما كان العبد حريصا على كل شئ أعماه حرصه وأصمه اذ قال صلى الله عليه وسلم (١) حبك للشئ يعمى ويصم ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان فاذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله الى شهوته وان كان منكرا وفاحشا فقد روى ان نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى فرأى فى السفينة شيخا لم يعرفه فقال له نوح ما أدخلك فقال دخلت لاصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك فقال له نوح أخرج منها يا عدو الله فانك لعين فقال له ابليس خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنتين فاوحى الله تعالى الى نوح انه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين فقال له نوح ما الاثنتان فقال هما اللتان لا تكذبانى هما اللتان لا تخلفانى بهما أهلك الناس الحرص والحسد فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما وأما الحرص فانه أبيح لآدم الجنة كلها الا الشجرة فاصبت حاجتى منه بالحرص * ومن أبوابه العظيمة الشبع من الطعام وان كان حلالا صافيا فان الشبع يقوى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان فقد روى أن ابليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شئ فقال له يا ابليس ما هذه المعاليق قال هذه الشهوات التى أصبت بها ابن آدم فقال فهل لى فيها من شئ قال ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر قال فهل غير ذلك قال لا قال لله على ان لا أملا بطنى من الطعام أبدا فقال له ابليس ولله على أن لا أنصح مسلما أبدا ويقال فى كثرة الاكل ست خصال مذمومة أولها ان يذهب خوف الله من قلبه الثانى أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لانه يظن انهم كلهم شباع والثالث انه يثقل عن الطاعة والرابع انه اذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة والخامس انه اذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع فى قلوب الناس والسادس ان يهيج فيه الامراض * ومن أبوابه حب التزين من الاثاث والثياب والدار فان الشيطان اذا رأى ذلك غالبا على قلب الانسان باض فيه وفرخ فلا يزال يدعوه الى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها ويدعوه الى التزين بالثياب والدواب ويستخره فيها طول عمره واذا أوقعه فى ذلك فقد استغنى ان يعود اليه ثانية فان بعض ذلك يجره الى البعض فلا يزال يؤديه من شئ الى شئ الى أن يساق اليه أجله فيموت وهو فى سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه * ومن أبوابه العظيمة الطمع فى الناس لانه اذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب اليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بانواع الرياء والتلبيس حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر فى حيلة

(١) حديث حبك الشئ يعمى ويصم أبو داود من حديث أبى الدرداء باسناد ضعيف

ولا نشاركهم فيها فأنزل الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (وروى) أبو هريرة رضى الله عنه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصابه جهد فقال يارسول الله انى جائع فأطعمنى فبعث النبى صلى الله عليه وسلم الى أزواجه هل عندكن شئ فكلهن قلن والذى بعثك بالحق نبيا ما عندنا الا الماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عندنا ما نطعمك هذه الليلة ثم قال من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله فقام رجل من الانصار فقال أنا يا رسول الله فأتى به منزله فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرميه

التودد والتحبب اليه ويدخل كل مدخل للوصول الى ذلك وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد روى صفوان بن سليم أن ابليس تمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له يا ابن حنظلة احفظ عنى شيأ أعلمك به فقال لا حاجة لى به قال انظر فان كان خيرا أخذت وان كان شرا ارددت يا ابن حنظلة لا تسأل أحدا غير الله سؤال رغبة وانظر كيف تكون اذا غضبت فانى أملكك اذا غضبت * ومن أبوابه العظيمة العجلة وترك التثبت فى الامور وقال صلى الله عليه وسلم (١) العجلة من الشيطان والتأنى من الله تعالى وقال عز وجل خلق الانسان من عجل وقال تعالى وكان الانسان عجولا وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وهذا الان الاعمال ينبغى أن تكون بعد التبصرة والمعرفة والتبصرة تحتاج الى تأمل وتمهل والعجلة تمنع من ذلك وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الانسان من حيث لا يدرى فقد روى انه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام أتت الشياطين ابليس فقالوا أصبحت الاصنام قد نكست رؤسها فقال هذا حادث قد حدث مكانكم فطار حتى أتى خافقى الارض فلم يجد شيأ ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد واذا الملائكة حافين به فرجع اليهم فقال ان نبيا قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت الا وأنا حاضرها الا هذا فايسوا من أن تعبد الاصنام بعد هذه الليلة ولكن اتقوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة * ومن أبوابه العظيمة الدراهم والدنانير وسائر أصناف الاموال من العروض والدواب والعقار فان كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان فان من معه قوته فهو فارغ القلب فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق انبعث من قلبه عشر شهوات تحتاج كل شهوة منها الى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج الى تسعمائة أخرى وقد كان قبل وجود المائة مستغنيا فالآن لما وجد مائة ظن انه صار بها غنيا وقد صار محتاجا الى تسعمائة ليشترى دارا يعمرها وليشترى جارية وليشترى أثاث البيت ويشترى الثياب الفاخرة وكل شئ من ذلك يستدعى شيأ آخر يليق به وذلك لا آخر له فيقع فى هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواه * قال ثابت البنانى (٢) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابليس لشياطينه لقد حدث أمر فانظر واما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاؤا وقالوا ما ندرى قال أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال قد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم قال فجعل يرسل شياطينه الى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فينصرفون خائبين ويقولون ما صحبنا قوما قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون الى صلاتهم فيمحى ذلك فقال ابليس روايدا بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا وروى ان عيسى عليه السلام توسد يوما حجرا فمر به ابليس فقال يا عيسى رغبت فى الدنيا فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم فرمى به من تحت رأسه وقال هذا لك مع الدنيا وعلى الحقيقة من يملك حجرا يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن ان يكون عدة للشيطان عليه فان القائم بالليل مثلا للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر يمكن ان يتوسده فلا يزال يدعوه الى النوم والى ان يتوسده ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرك رغبته الى النوم هذا فى حجر فكيف بمن يملك المخاد المثيرة والفرش الوطيئة والمنتزهات الطيبة فمتى ينشط لعبادة الله تعالى * ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر فان ذلك هو الذى يمنع من الانفاق والتصدق ويدعو الى الادخار والكنز والعذاب الاليم وهو الموعود للكاثرين كما نطق به القرآن العزيز قال خيثمة بن عبد الرحمن ان الشيطان يقول ما غلبنى ابن آدم غلبة فلن يغلبنى على ثلاث ان آمره ان يأخذ المال من غير حقه وانفاقه فى غير حقه ومنعه من حقه وقال سفيان ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فاذا قبل ذلك منه أخذ فى الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء * ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الاسواق لجمع المال والاسواق هى معشش الشياطين وقال أبو أمامة ان رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث العجلة من الشيطان والتأنى من الله ت من حديث سهل بن سعد بلفظ الاناة وقال حسن

(٢) حديث ثابت لما بعث صلى الله عليه وسلم قال ابليس لشياطينه لقد حدث أمر الحديث ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا

ولا تدخرى عنه شيأ فقالت ما عندنا الا قوت الصبية فقال فقومى عليهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعمون شيأ ثم اسرجى فاذا أخذ الضيف ليأكل قومى كأنك تصلحين السراج فأطفئيه وتعالى نمضغ ألسنتنا لضيف رسول الله حتى يشبع ضيف رسول الله فقامت الى الصبية فعللتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيأ ثم قامت فأثردت وأسرجت فلما أخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فاطفأته فجعلا يمضغان ألسنتهما لضيف رسول الله وظن الضيف انهما يأكلان معه حتى شبع الضيف وباتا طاويين فلما أصبحوا

وسلم قال (١) ان ابليس لما نزل الى الارض قال يارب أنزلتنى الى الارض وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا قال الحمام قال اجعل لى مجلسا قال الاسواق ومجامع الطرق قال اجعل لى طعاما قال طعامك مالم يذكر اسم الله عليه قال اجعل لى شرابا قال كل مسكر قال اجعل لى مؤذنا قال المزامير قال اجعل لى قرآنا قال الشعر قال اجعل لى كتابا قال الوشم قال اجعل لى حديثا قال الكذب قال اجعل لى مصايد قال النساء * ومن أبوابه العظيمة التعصب للمذاهب والاهواء والحقد على الخصوم والنظر اليهم بعين الازدراء والاستحقار وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعا فان الطعن فى الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة محمولة فى الطبع من الصفات السبعية فاذا خيل اليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى فى الدين وهو ساع فى اتباع الشياطين فترى الواحد منهم يتعصب لابى بكر الصديق رضى الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لانواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أول عدوله اذ مو الى أبى بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه وكان من سيرته رضى الله عنه أن يضع حصاة فى فمه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه فأنى لهذا الفضولى أن يدعى ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته ونرى فضوليا آخر يتعصب لعلى رضى الله عنه وكان من زهد على وسيرته أنه لبس فى خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين الى الرسغ ونرى الفاسق لا يسالثياب الحرير ومتجملا باموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب على رضى الله عنه ويدعيه وهو أول خصمائه يوم القيامة وليت شعرى من أخذ ولدا عزيزا لانسان هو قرة عينه وحياة قلبه فاخذ يضربه ويمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعى حب أبيه وولاءه فكيف يكون حاله عنده ومعلوم أن الدين والشرع كان أحب الى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم من الأهل والولد بل من أنفسهم والمقتحمون لمعاصى الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به الى عدو الله ابليس وعدو أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة فى أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ثم ان الشيطان يخيل اليهم أن من مات محبا لأبى بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله ويخيل الى الآخر أنه اذا مات محبا على لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٢) لفاطمة رضى الله عنها وهى بضعة منه (٣) اعملى فانى لا أغنى عنك من الله شيأ وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء وهكذا حكم المتعصبين للشافعى وأبى حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب امام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الامام هو خصمه يوم القيامة اذ يقول له كان مذهبى العمل دون الحديث باللسان وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان فما بالك خالفتنى فى العمل والسيرة التى هى مذهبى ومسلكى الذى سلكته وذهبت فيه الى الله تعالى ثم ادعيت مذهبى كاذبا وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم وقد سلمت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم وضعفت فى الدين بصيرتهم وقويت فى الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع واقامة الجاه الا بالتعصب لمن يوافقهم فى مذاهبهم فحبسوا ذلك فى صدورهم ولم ينبهوهم على مكايد الشيطان فيه بل نابوا عن الشيطان فى تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فالله تعالى يتوب علينا وعليهم وقال الحسن بلغنا أن ابليس قال سولت لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصى فقصموا ظهرى بالاستغفار فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها وهى الاهواء وقد صدق اللعون فانهم لا يعلمون ان ذلك من الأسباب التى تجر الى المعاصى فكيف يستغفرون

(١) حديث أبى أمامة ان ابليس لما نزل الى الأرض قال يارب أنزلتنى الى الأرض وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا قال الحمام الحديث الطبرانى فى الكبير واسناده ضعيف جدا ورواه بنحوه من حديث ابن عباس باسناد ضعيف أيضا (٢) حديث فاطمة بضعة منى متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة (٣) حديث انى لا أغنى عنك من الله شيأ قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبى هريرة

غدوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نظر اليهما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة وأنزل الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (وقال) أنس رضى الله عنه أهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوى وكان مجهودا فوجه به الى جار له فتداوله سبعة أنفس ثم عاد الى الاول فانزلت الآية لذلك وروى ان أبا الحسن الانطاكى اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية بقرى الرى وله أرغفة معدودة لم تشبع خمسة منهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام فلما رفعوا الطعام فاذا هو بحاله لم

منها * ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الانسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس فى المذاهب والخصومات قال عبد الله بن مسعود جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليفرق بينهم فلم يستطع فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون وليس اياهم يريد فقام الذين يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم يصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم وذلك مراد الشيطان منهم * ومن أبوابه جهل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر فى ذات الله تعالى وصفاته وفى أمور لا يبلغها حدعة وعلم حتى يشككهم فى أصل الدين أو يخيل اليهم فى الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير بها كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور ربما تهج بما وقع فى صدره يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وانه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فاشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا فى عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلقك فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فمن خلق الله فاذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فان ذلك يذهب عنه والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث فى علاج هذا الوسواس فان هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وانما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء فالعامى لو بزنى ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم فى العلم فانه من تكلم فى الله وفى دينه من غير اتقان العلم وقع فى الكفر من حيث لا يدرى كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لا تحصر وانما أردنا بما أوردناه المثال * ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك أو يقصر فى القيام بحقوقه أو يتوانى فى اكرامه وينظر اليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم فقال صلى الله عليه وسلم (٢) اتقوا مواضع التهم حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك روى عن على بن حسين (٣) أن صفية بنت حيى بن أخطب أخبرته أن النبى صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فى المسجد قالت فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشى معى فمر به رجلان من الانصار فلما رأيا النبى صلى الله عليه وسلم أسرعا فانصرفا فقال النبى صلى الله عليه وسلم على رسلكما انها صفية بنت حيى فقالا سبحان الله يا رسول الله ما كنا نظن بك الا خيرا فقال ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وانى خشيت أن يدخل عليكما فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فخرسهما وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين فى أحواله فيقول مثلى لا يظن به الا الخير اعجابا منه بنفسه فان أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم اليه بعين واحدة بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الاشرار فان الأشرار لا يظنون بالناس كلهم الا الشر فهما رأيت انسانا يسىء الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم أنه خبيث فى الباطن وان ذلك خبثه يترشح منه وانما رأى غيره من حيث هو فان المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب والمؤمن سليم الصدر فى حق كافة الخلق فهذه بعض مداخل الشيطان الى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفى هذا القدر ما ينبه على غيره فليس فى الآدمى صفة مذمومة الا وهى سلاح الشيطان ومدخل من مداخله * فان قلت فما العلاج فى دفع الشيطان وهل يكفى فى ذلك

(١) حديث عائشة ان الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلقك فيقول الله الحديث احمد والبزار وأبو يعلى فى مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبى هريرة (٢) حديث اتقوا مواضع التهم لم أجد له أصلا (٣) حديث صفية بنت حيى ان النبى صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فأتيته فتحدثت عنده الحديث وفيه ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم متفق عليه

يأكل أحدهم ايثارا منه على نفسه (وحكى) عن حذيفة العدوى قال انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لى ومعى شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته ومسحت وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فأشار الى نعم فاذا رجل يقول آه فقال ابن عمى انطلق به اليه فجئت اليه فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع هشام آخر يقول آه فقال انطلق به اليه فجئت اليه فاذا هو قد مات ثم رجعت الى هشام فاذا هو أيضا قد مات ثم رجعت الى ابن عمى فاذا هو أيضا قد مات (وسئل) أبو الحسين البوشنجى عن الفتوة فقال الفتوة عندى ما وصف الله تعالى به الانصار فى قوله

ذكر الله تعالى وقول الانسان لاحول ولاقوة الا بالله فاعلم أن علاج القلب فى ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره وغرضنا فى هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة الى كتاب منفرد على ما ستيأتى شرحه نعم اذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب الا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة والا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان ولذلك قال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون خصص بذلك المتقى فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فان لم يكن بين يديك خبز أو لحم فانه ينزجر بأن تقول له اخسأ فمجرد الصوت يدفعه فان كان بين يديك لحم وهو جائع فانه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام فالقلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر فاما الشهوة اذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر الى حواشى القلب فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان فى سويداء القلب وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فانه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوها بالغفلة عن الذكر فاذا عاد الى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم وسائر الاخبار والآيات الواردة فى الذكر قال أبو هريرة التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فاذا شيطان الكافر دهين سمين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك مهزول قال أنا مع رجل اذا أكل سمى الله فاظل جائعا واذا شرب سمى الله فأظل عطشانا واذا لبس سمى الله فأظل عريانا واذا دهن سمى الله فأظل شعثا فقال لكنى مع رجل لا يفعل شيأ من ذلك فأنا أشاركه فى طعامه وشرابه ولباسه * وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح اللهم انك سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك انك على كل شئ قدير قال فتمثل له ابليس يوما فى طريق المسجد فقال له يا ابن واسع هل تعرفنى قال ومن أنت قال أنا ابليس فقال وما تريد قال أريد أن لا تعلم أحدا هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك قال والله لا أمنعها ممن أرادها فاصنع ماشئت * وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال (١) كان شيطان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلى فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له قل أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار الا طارقا يطرق بخير يا رحمن فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه وقال الحسن (٢) نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان عفريتا من الجن يكيدك فاذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسى وقال صلى الله عليه وسلم (٣) لقد أتانى الشيطان فنازعنى ثم نازعنى فأخذت بحلقه فو الذى بعثنى بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدى ولولا دعوة أخى سليمان عليه السلام

(١) حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى كان الشيطان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار الحديث ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا ولمالك فى الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلا ووصله ابن عبد البر فى التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش الشامى عن ابن مسعود ورواه أحمد والبزار من حديث عبد الرحمن بن حبيش وقيل له كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الشياطين فذكر نحوه (٢) حديث الحسن نبئت أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان عفريتا من الجن يكيدك الحديث ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا (٣) حديث أتانى شيطان فنازعنى ثم نازعنى فأخذت بحلقه الحديث ابن أبى الدنيا من رواية الشعبى مرسلا هكذا وللبخارى من حديث أبى هريرة ان عفريتا من الجن تفلت على البارحة أو كلمة نحوها ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه الحديث ون فى الكبرى من حديث

والذين تبوؤا الدار والايمان قال ابن عطاء يؤثرون على أنفسهم جودا وكرما ولو كان بهم خصاصة يعنى جوعا وفقرا (قال) أبو حفص الايثار هو أن يقدم حظوظ الاخوان على حظوظه فى أمر الدنيا والآخرة (وقال) بعضهم الايثار لا يكون عن اختيار انما الايثار ان تقدم حقوق الخلق أجمع على حقك ولا تميز فى ذلك بين أخ وصاحب وذى معرفة (وقال يوسف) ابن الحسين من رأى لنفسه ملكا لا يصح منه الايثار لأنه يرى نفسه أحق بالشئ برؤية ملكه انما الايثار ممن يرى الاشياء كلها للحق فمن وصل اليه فهو أحق به فاذا وصل شئ من ذلك اليه يرى نفسه وبيده فيه بدأمانة يوصلها

لاصبح طريحا فى المسجد وقال صلى الله عليه وسلم (١) ماسلك عمر فجا الا سلك الشيطان فجا غير الذى سلكه عمر وهذا ان القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهى الشهوات فهما طمعت فى أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضى الله عنه كان محالا وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغليظ الاطعمة ويطمع أن ينفعه كما نفع الذى شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة والذكر الدواء والتقوى احتماء وهى تخلى القلب عن الشهوات فاذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء فى المعدة الخالية عن الاطعمة قال الله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب وقال تعالى كتب عليه أنه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مولاه وان ذكر الله بلسانه وان كنت تقول الحديث قد ورد مطلقا بان الذكر يطرد الشيطان (٢) ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر الى نفسك فليس الخبر كالعيان وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة فراقب قلبك اذا كنت فى صلاتك كيف يجاذبه الشيطان الى الاسواق وحساب العالمين وجواب المعاندين وكيف يمر بك فى أودية الدنيا ومهالكها حتى انك لاتذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا الا فى صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك الا اذا صليت فالصلاة محك القلوب فبها يظهر محاسنها ومساويها فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس كما ان الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضر وان أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضى الله عنه ولذلك قال وهب بن منبه اتق الله ولا تسب الشيطان فى العلانية وأنت صديقه فى السر أى أنت مطيع له وقال بعضهم يا عجبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته باحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه وكما ان الله تعالى قال ادعونى أستجب لكم وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء قيل لابراهيم بن أدهم مالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى ادعونى أستجب لكم قال لان قلوبكم ميتة قيل وما الذى أماتها قال ثمان خصال عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له وقال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا فواظأتموه على المعاصى وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها واذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فاسخطتم ربكم فكيف يستجيب لكم فان قلت فالداعى الى المعاصى المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون فاعلم أنه لا حاجة لك الى معرفة ذلك فى المعاملة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته كل البقل من حيث يؤتى ولا تسأل عن المبقلة ولكن الذى يتضح بنور الاستبصار فى شواهد الاخبار انهم جنود مجندة وان لكل نوع من المعاصى شيطانا يخصه ويدعو اليه فاما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذى ذكرناه وهو ان اختلاف المسببات يدل على اختلاف الاسباب كما ذكرناه فى نور النار وسواد الدخان وأما الاخبار فقد قال مجاهد لا بليس خمسة من الاولاد فجعل كل واحد منهم على شئ من أمره ثبر والاعور ومبسوط وداسم وزلنبور فاما ثبر فهو صاحب المصائب الذى يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية وأما الاعور فانه صاحب الزنا يأمر به ويزينه وأما مبسوط فهو صاحب الكذب وأما داسم فانه يدخل مع الرجل الى أهله برميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم وأما زلنبور فهو صاحب السوق فبسببه لا يزالون متظالمين (٣) وشيطان الصلاة يسمى خنزب (٤) وشيطان الوضوء يسمى الولهان وقد ورد

عائشة كان يصلى فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه قال حتى وجدت برد لسانه على يدى الحديث واسناده جيد

(١) حديث ماسلك عمر فجا الا سلك الشيطان فجا غير فجه متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص بلفظ يا ابن الخطاب ما لقيك الشيطان سالكا فجا (٢) الحديث الوارد بان الذكر يا عمر يطرد الشيطان تقدم (٣) حديث ان شيطان الصلاة يسمى خنزب م من حديث عثمان بن أبى العاص وقد تقدم أول الحديث (٤) حديث ان شيطان الوضوء يسمى الولهان تقدم وهو عند ت من حديث أبى

الى صاحبها أو يؤديها اليه وقال بعضهم حقيقة الايثار ان تؤثر بحظ آخرتك على اخوانك فان الدنيا أقل خطرا من أن يكون لايثارها محل أو ذكر ومن هذا المعنى ما نقل ان بعضهم رأى أخاه فلم يظهر البشر الكثير فى وجهه فانكر أخوه ذلك منه فقال يا أخى سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا التقى المسلمان يتنزل عليهما مائة رحمة تسعون لأكثرهما بشرا وعشرة لأقلهما بشرا فأردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر (أخبرنا) الشيخ ضياء الدين أبو النجم اجازة قال أنا أبو حفص عمر ابن الصفار النيسابورى قال أنا أبو بكر أحمد ابن خلف

في ذلك أخبار كثيرة وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة كثرة وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به وقد قال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل في اليوم الصائف ولو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كل باسط يده فاغر فاه ولو وكل العبد الى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين وقال أيوب بن يونس بن يزيد بلغنا أنه يولد مع أبناء الانس من أبناء الجن ثم ينشؤن معهم وروى جابر بن عبد الله أن آدم عليه السلام لما أهبط الى الارض قال يارب هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة ان لم تعني عليه لا أقوى عليه قال لا يولد لك ولد الا وكل به ملك قال يارب زدني قال أجزى بالسيئة سيئة وبالحسنة عشرا الى ما أريد قال رب زدني قال باب التوبة مفتوح مادام في الجسد الروح قال ابليس يارب هذا العبد الذي كرمته علي ان لا تعني عليه لا أقوى عليه قال لا يولد له ولد الا ولد لك ولد قال يارب زدني قال تجري منهم مجرى الدم وتتغذون صدورهم بيوتا قال رب زدني قال اجلب عليهم بخيلك ورجلك الى قوله غرورا وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) خلق الله الجن ثلاثة أصناف صنف حيات وعقارب وخشاش الارض وصنف كالريح في الهواء وصنف عليهم الثواب والعقاب وخلق الله تعالى الانس ثلاثة أصناف صنف كالبهائم كما قال تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل وصنف أجسامهم أجسام بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل الا ظله وقال وهيب بن الورد بلغنا أن أبليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال اني أريد أن أنصحك قال لا حاجة لي في نصحك ولكن اخبرني عن بني آدم قال هم عندنا ثلاثة أصناف أما صنف منهم وهم أشد الاصناف علينا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه فيفزع الى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ثم نعود عليه فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه في عناء وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم نقلبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا تقدر منهم على شيء فان قلت فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض واذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يتمثل به فان كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة الا بانوار النبوة (٣) فما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه أفضل الصلاة والسلام في صورته الا مرتين وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالبقيع وظهر له بحراء فسد الافق من المشرق الى المغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وانما كان يراه في صورة الآدمي غالبا (٤) فكان يراه في صورة دحية الكلبي (٥) وكان رجلا حسن الوجه

(١) حديث أبي أمامة وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه الحديث ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وطب في المعجم الكبير باسناد ضعيف (٢) حديث أبي الدرداء خلق الله الجن ثلاثة أصناف صنف حيات وعقارب الحديث ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وحب في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضعفه وله نحوه مختصرا في الجن فقط ثلاثة أصناف من حديث أبي ثعلبة الخشني وقال صحيح الاسناد (٣) حديث انه صلى الله عليه وسلم ما رأى جبريل في صورته الا مرتين الشيخان من حديث عائشة وسئلت هل رأى محمد ربه وفيه ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين (٤) حديث انه كان يرى جبريل في صورة الآدمي غالبا الشيخان من حديث عائشة وسئلت فأين قوله فدنا فتدلى قالت ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل الحديث (٥) حديث انه كان يرى جبريل في صورة دحية الكلبي الشيخان من حديث اسامة بن زيد أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة من هذا قالت دحية الحديث

الشيرازي قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا القاسم الرازي يقول سمعت أبا بكر بن أبي سعدان يقول من صحب الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا ملك فمن نظر الى شيء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده (وقال سهل بن عبد الله) الصوفي من يرى دمه هدرا وملكه مباحا وقال رويم التصوف مبني على ثلاث خصال التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل والايثار وترك التعرض والاختيار (قيل) لما سمي بالصوفية وتميزا لجنيد بالفقه وقبض على الشعام والرقام والنوري وبسط النطع لضرب رقابهم تقدم النوري فقيل له

والاكثر

والا كثر انه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له فى اليقظة فيراه بعينه ويسمع كلامه باذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف فى المنام لا كثر الصالحين وانما المكاشف فى اليقظة هو الذى انتهى الى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التى تكون فى المنام فيرى فى اليقظة مايراه غيره فى المنام كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم فرأى فى النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان فى صورة ضفدع قاعد على منكبه الايسر بين منكبه وأذنه له خرطوم دقيق قد أدخله من منكبه الايسر الى قلبه يوسوس اليه فاذا ذكر الله تعالى خنس ومثل هذا قد يشاهد بعينه فى اليقظة فقد رآه بعض المكاشفين فى صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس اليها وكانت الجيفة مثال الدنيا وهذا يجرى مجرى مشاهدة صورته الحقيقية فان القلب لابد وان تظهر فيه حقيقة من الوجه الذى يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذى يقابل عالم الملك والشهادة لان أحدهما متصل بالآخر وقد بينا أن القلب له وجهان وجه الى عالم الغيب وهو مدخل الالهام والوحى ووجه الى عالم الشهادة فالذى يظهر منه فى الوجه الذى يلى جانب عالم الشهادة لا يكون الا صورة متخيلة لان عالم الشهادة كله متخيلات الا أن الخيال تارة يحصل من النظر الى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لان عالم الشهادة عالم كثير التلبيس اما الصورة التى تحصل فى الخيال من اشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون الا محاكية للصفة وموافقة لها لان الصورة فى عالم الملكوت تابعة للصفة وموافقة لها فلا جرم لا يرى المعنى القبيح الا بصورة قبيحة فيرى الشيطان فى صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها ويرى الملك فى صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعانى ومحاكية لها بالصدق ولذلك يدل القرد والخنزير فى النوم على انسان خبيث وتدل الشاة على انسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير وهذه أسرار عجيبة وهى من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة وانما المقصود أن تصدق بان الشيطان ينكشف لارباب القلوب وكذلك الملك تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك فى النوم وتارة بطريق الحقيقة والاكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى هو مثال المعنى لا عين المعنى الا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم

(بيان مايؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها ومايعفى عنه ولا يؤاخذ به)

اعلم أن هذا أمر غامض وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها الا على سماسرة العلماء بالشرع فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال (١) عفى عن أمتى ماحدثت به نفوسها مالم تتكلم به أو تعمل به وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ان الله تعالى يقول للحفظة اذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها فان عملها فاكتبوها سيئة واذا هم بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة فان عملها فاكتبوها عشرا وقد خرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة وفى لفظ آخر من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له الى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وان عملها كتبت وفى لفظ آخر واذا تحدث بان يعمل سيئة فانا أغفر له مالم يعملها وكل ذلك يدل على العفو فأما مايدل على المؤاخذة فقوله سبحانه ان تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وقوله تعالى ولا تقف مالبس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا فدل على ان عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه وقوله تعالى ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه وقوله تعالى

(١) حديث عفى لامتى عما حدثت به نفوسها متفق عليه من حديث أبى هريرة ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها الحديث (٢) حديث أبى هريرة يقول الله اذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه الحديث قال المصنف أخرجه م خ فى الصحيحين قلت هو كما قال واللفظ لمسلم فلهذا والله أعلم قدمه فى الذكر

الى ماذا تبادر فقال أوثر اخوانى بفضل حياة ساعة وقيل دخل الروذبارى دار بعض أصحابه فوجده غائبا وباب بيته مغلق فقال صوفى وله باب مغلق اكسروا الباب فكسروه وأمر بجميع ماوجدوا فى البيت أن يباع فانفذوه الى السوق واتخذوا رفقا من الثمن وقعدوا فى الدار فدخل صاحب المنزل ولم يقل شيأ ودخلت امرأته وعليها كساء فدخلت بيتا فرمت بالكساء وقالت هذا أيضا من بقية المتاع فبيعوه فقال الزوج لها لم تكلفت هذا باختيارك قالت اسكت مثل الشيخ يباشطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شئ ندخره عنه

لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والحق عندنا فى هذه المسألة لايوقف عليه مالم تقع الاحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها الى أن يظهر العمل على الجوارح فنقول أول مايرد على القلب الخاطر كما لوخطر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره فى الطريق لو التفت اليها لرآها والثانى هيجان الرغبة الى النظر وهو حركة الشهوة التى فى الطبع وهذا يتولد من الخاطر الاول ونسميه ميل الطبع ويسمى الاول حديث النفس والثالث حكم القلب بان هذا ينبغى أن يفعل أى ينبغى أن ينظر اليها فان الطبع اذا مال لم تنبعث الهمة والنية مالم تندفع الصوارف فانه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والميل الرابع تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه هما بالفعل ونية وقصدا وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن اذا أصغى القلب الى الخاطر الاول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار ارادة مجزومة فاذا انجزمت الارادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت اليه وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل فههنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة الخاطر وهو حديث النفس ثم الميل ثم الاعتقاد ثم الهم فنقول أما الخاطر فلا يؤاخذ به لانه لايدخل تحت الاختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لانهما لايدخلان أيضا تحت الاختيار وهما المرادان بقوله صلى الله عليه وسلم عفى عن أمتى ماحدثت به نفوسها فحديث النفس عبارة عن الخواطر التى تهجس فى النفس ولا يتبعها عزم على الفعل فاما الهم والعزم فلا يسمى حديث النفس بل حديث النفس كما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبى صلى الله عليه وسلم (١) يارسول الله نفسى تحدثنى أن أطلق خولة قال مهلا ان من سنتى النكاح قال نفسى تحدثنى أن أجب نفسى قال مهلا خصاء أمتى دؤب الصيام قال نفسى تحدثنى أن أترهب قال مهلا رهبانية أمتى الجهاد والحج قال نفسى تحدثنى أن أترك اللحم قال مهلا فانى أحبه ولو أصبته لاكلته ولو سألت الله لاطعمنيه فهذه الخواطر التى ليس معها عزم على الفعل هى حديث النفس ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل وأما الثالث وهو الاعتقاد وحكم القلب بانه ينبغى أن يفعل فهذا تردد بين أن يكون اضطرارا أو اختيارا والاحوال تختلف فيه فالاختيارى منه يؤاخذ به والاضطرارى لايؤاخذ به وأما الرابع وهو الهم بالفعل فانه مؤاخذ به الا انه ان لم يفعل نظر فان كان قد تركه خوفا من الله تعالى وندما على همه كتبت له حسنة لان همه سيئة وامتناعه

(١) حديث ان عثمان بن مظعون قال يارسول الله نفسى تحدثنى أن اطلق خولة قال مهلا ان من سنتى النكاح الحديث ت الحكيم فى نوادر الأصول من رواية على بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلا نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمرى كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وللدارمى من حديث سعد بن أبى وقاص لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذى كان من ترك النساء بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياعثمان انى لم أومر بالرهبانية الحديث وفيه من رغب عن سنتى فليس منى وهو عند م بلفظ رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا وللبغوى والطبرانى فى معجمى الصحابة باسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون انه قال يارسول الله انى رجل تشق على هذه العزوبة فى المغازى فتأذن لى يارسول الله فى الخصاء فأختصى قال لا ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام فانه مجفرة ولأحمد والطبرانى باسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو خصاء أمتى الصيام والقيام وله من حديث سعيد بن العاص باسناد فيه ضعف ان عثمان بن مظعون قال يارسول الله ائذن لى فى الاختصاء فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة والتكبير على كل شرف الحديث وه بسند ضعيف من حديث عائشة النكاح من سنتى ولأحمد وأبى يعلى من حديث أنس لكل نبى وقال أبو يعلى لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله وفيه زيد العمى وهو ضعيف ولأبى داود من حديث أبى أمامة ان سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله واسناده جيد

(وقيل) مرض قيس بن سعد فاستبطأ اخوانه فى عيادته فسأل عنهم فقالوا انهم يستحيون بما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع الاخوان عن الزيارة ثم أمر مناديا ينادى من كان لقيس عليه مال فهو منه فى حل فكسرت عتبة داره بالعشى لكثرة عواده (وقيل) أتى رجل صديقا له ودق عليه الباب فلما خرج قال لماذا جئتنى قال لاربعمائة درهم دين على فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم وأخرجها اليه ودخل الدار باكيا فقالت امرأته هلا تعللت حين شق عليك الاجابة فقال انما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج أن يفاتحنى به

ومجاهدته نفسه حسنة والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج الى قوة عظيمة فجده فى مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده فى موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتب له حسنة لانه رجح جهده فى الامتناع وهمه به على همه بالفعل وان تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفا من الله تعالى كتبت عليه سيئة فان همه فعل من القلب اختيارى والدليل على هذا التفصيل ما روى فى الصحيح مفصلا فى لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) قالت الملائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فان هو عملها فاكتبوها له بمثلها وان تركها فاكتبوها له حسنة انما تركها من جرائى وحيث قال فان لم يعملها أراد به تركها لله فاما اذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) انما يحشر الناس على نياتهم ونحن نعلم ان من عزم ليلا على أن يصبح ليقتل مسلما أو يزنى بامرأة فمات تلك الليلة مات مصرا ويحشر على نيته وقدهم بسيئة ولم يعملها والدليل القاطع فيه ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (٣) اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار فقيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لانه أراد قتل صاحبه وهذا نص فى انه صار بمجرد الارادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهم بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به الا أن يكفره بحسنة وتنقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة فاما فوت المراد بعائق فليس بحسنة وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فلم يؤاخذه به تكليف مالا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله جاء ناس من الصحابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا (٤) كلفنا مالا نطيق ان أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت فى قلبه ثم يحاسب بذلك فقال صلى الله عليه وسلم لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا فانزل الله الفرج بعد سنة بقوله لا يكلف الله نفسا الا وسعها فظهر به ان كل مالا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذى لا يؤاخذ به فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس وكل من يظن أن كل ما يجرى على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الاقسام الثلاثة فلا بد وان يغلط وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا أى ما يدخل تحت الاختيار فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذى محرم لم يؤاخذ به فان أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذا به لانه مختار فكذا خواطر القلب تجرى هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لانه الاصل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) التقوى ههنا وأشار الى القلب وقال الله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وقال صلى الله عليه وسلم (٦) الاثم حواز القلوب وقال (٧) البر ما اطمأن اليه القلب وان أفتوك وأفتوك حتى انا نقول اذا حكم القلب المفتى

(١) حديث قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر الحديث قال المصنف انه فى الصحيح وهو كما قال فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة (٢) حديث انما يحشر الناس على نياتهم ه من حديث جابر دون قوله انما له ومن حديث أبى هريرة انما يبعث الناس على نياتهم واسنادهما حسن وم من حديث عائشة يبعثهم الله على نياتهم وله من حديث أم سلمة يبعثون على نياتهم (٣) حديث اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار الحديث متفق عليه من حديث أبى بكرة (٤) حديث لما نزل قوله تعالى وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله جاء ناس من الصحابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا مالا نطيق الحديث م من حديث أبى هريرة وابن عباس نحوه (٥) حديث التقوى ههنا وأشار الى القلب م من حديث أبى هريرة وقال الى صدره (٦) حديث الاثم حواز القلوب تقدم فى العلم (٧) حديث البر ما اطمأن اليه القلب وان أفتوك وأفتوك الطبرانى من حديث أبى ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفيه وان أفتاك

(وأخبرنا) الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا محمد بن محمد امام جامع أصفهان قال ثنا أبو عبد الله الجرجانى قال أنا أبو طاهر محمد ابن الحسن المحمدا باذى قال ثنا أبو البحترى قال ثنا أبو أسامة قال ثنا بريد بن أبى بردة عن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاشعريين اذا أرملوا فى الغزو وقل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموا فى اناء واحد بالسوية فهم منى وأنا منهم (وحدث) جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه اذا أراد أن يغزو قال يامعشر المهاجرين والانصار ان من اخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عدة فليضم أحدكم

بايجاب شئ وكان مخطئا فيه صار مثابا عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلى فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله فان تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ومن وجد على فراشه امرأة فظن انها زوجته لم يعص بوطئها وان كانت أجنبية فان ظن انها أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وان كانت زوجته وكل ذلك نظرا الى القلب دون الجوارح

(بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا)

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين فى صفاتها وعجائبها اختلفوا فى هذه المسألة على خمس فرق * فقالت فرقة الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه عليه السلام قال (١) فاذا ذكر الله خنس والخنس هو السكوت فكأنه يسكت * وقالت فرقة لا ينعدم أصله ولكن يجرى فى القلب ولا يكون له أثر لأن القلب اذا صار مستوعبا بالذكر كان محجوبا عن التأثر بالوسوسة كالمشغول بهمه فانه قد يكلم ولا يفهم وان كان الصوت يمر على سمعه * وقالت فرقة لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضا ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف وقالت فرقة ينعدم عند الذكر فى لحظة وينعدم الذكر فى لحظة ويتعاقبان فى أزمنة متقاربة يظن لتقاربها انها متساوقة وهى كالكرة التى عليها نقط متفرقة فانك اذا أدرتها بسرعة رأيت النقط دوائر بسرعة تواصلها بالحركة واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له الا هذا وقالت فرقة الوسوسة والذكر يتساوقان فى الدوام على القلب تساوقا لا ينقطع وكما أن الانسان قد يرى بعينيه شيئين فى حالة واحدة فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين فقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) ما من عبد الا وله أربعة أعين عينان فى رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر دينه والى هذا ذهب المحاسبى والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الاحاطة باصناف الوسواس وانما نظر كل واحد منهم الى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه * والوسواس أصناف (الاول) أن يكون من جهة التلبيس بالحق فان الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للانسان ترك التنعم باللذات فان العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألم عظيم فعند هذا اذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه ولا بد من أحدهما فاذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده وجدد ايمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب اذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصى ولا يمكنه أن يقول المعصية لا تفضى الى النار فان ايمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه وكذلك يوسوس اليه بالعجب بعمله فيقول أى عبد يعرف الله كما تعرفه ويعبده كما تعبده فما أعظم مكانك عند الله تعالى فيتذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضاءه التى بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يعجب به فيخنس الشيطان اذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله فان المعرفة والايمان يدفعه فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الايمان والمعرفة (الصنف الثانى) أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها وهذا ينقسم الى ما يعلم العبد يقينا أنه معصية والى ما يظنه بغالب الظن فان علمه يقينا خنس الشيطان عن تهييج يؤثر فى تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهييج وان كان مظنونا فربما بقى مؤثرا بحيث يحتاج الى مجاهدة فى دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة (الصنف الثالث) أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغائبة والتفكر فى غير الصلاة مثلا فاذا أقبل على الذكر تصور أن يندفع ساعة ويعود ويندفع ويعود فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصور أن يتساوقا جميعا حتى يكون الفهم مشتملا على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كانهما

---

(١) حديث واذا ذكر الله خنس ابن أبى الدنيا وابن عدى من حديث أنس فى أثناء حديث ان الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم الحديث وقد تقدم قريبا (٢) حديث ما من عبد الا وله أربعة أعين عينان فى رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر دينه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ الآخرة مكان دينه وفيه الحسين بن أحمد بن محمد الهروى السماخى الحافظ كذبه

اليه الرجل والرجلين والثلاثة فما لأحدكم من ظهر جمله الا عقبة كعقبة أحدهم قال فضممت الى اثنين أو ثلاثة مالى الا عقبة كعقبة أحدهم من جمله (وروى) أنس قال لما قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة آخى النبى عليه السلام بينه وبين سعد بن الربيع فقال له أقاسمك مالى نصفين ولى امرأتان فأطلق احداهما فاذا انقضت عدتها فتزوجها فقال له عبد الرحمن بارك الله لك فى أهلك ومالك فاجعل الصوفى على الايثار الاطهارة نفسه وشرف غريزته وما جعله الله تعالى صوفيا الا بعد أن سوى غريزته لذلك وكل من كانت غريزته السخاء والسخى يوشك أن يصير صوفيا لأن

في موضعين من القلب وبعيد جدا ان يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر ولكنه ليس محالا اذ قال عليه السلام (١) من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشئ من أمر الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه فلولا أنه متصور لما ذكره الا أنه لا يتصور ذلك الا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر فانا قد نرى المستوعب القلب بعدوه تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوه وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه ولو كلمه غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يديه أحد لكان كأنه لا يراه واذا تصور هذا في خوف من عدو وعند الحرص على مال وجاه فكيف لا يتصور من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضعف الايمان بالله تعالى واليوم الاخر واذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أن لكل مذهب من المذاهب وجها ولكن في محل مخصوص وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمر اطويلا بعيد جدا ومحال في الوجود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج الرغبة لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى (٢) أنه نظر الى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال شغلني عن الصلاة وقال اذهبوا به الى أبي جهم وائتوني بانبجانيته (٣) وكان في يده خاتم من ذهب فنظر اليه وهو على المنبر ثم رمى به وقال نظرة اليه ونظرة اليكم وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر الى خاتم الذهب وعلم الثوب وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها الا بالرمي والمفارقة فما دام يملك شيأ وراء حاجته ولو دينارا واحدا لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في دينار وانه كيف يحفظه وفيما ينفقه وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد أو كيف يظهره حتى يتباهى به الى غير ذلك من الوساوس فمن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظن أن الذباب لا يقع عليه فهو محال فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة قال حكيم من الحكماء الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي فان امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة فان أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ما ليس بحرام فان أبى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم فان أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفا فيميل قلوبهم اليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه وعند ذلك تشتد الحاجة فانها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه الى الجنة

(بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات)

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتنصب اليه الآثار والاحوال من الأبواب التي وصفناها فكأنه هدف يقصد على الدوام من كل جانب فاذا أصابه شئ يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير صفته فان نزل به الشيطان دعاه الى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه وان جذبه شيطان الى شر جذبه شيطان آخر الى غيره وان جذبه ملك الى خير جذبه آخر الى غيره فتارة يكون متنازعا بين ملكين وتارة بين شيطانين وتارة بين ملك وشيطان لا يكون قط مهملا واليه الاشارة بقوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ولاطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه كان يحلف به فيقول (٤) لا ومقلب القلوب وكان كثيرا ما يقول (٥) يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالوا أو تخاف يا رسول الله قال ومايؤمنني

---

(١) حديث من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشئ من الدنيا تقدم في الصلاة (٢) حديث انه صلى الله عليه وسلم نظر الى علم في ثوبه في الصلاة الحديث تقدم فيه (٣) حديث كان في يده خاتم من ذهب فنظر اليه على المنبر فرماه فقال نظرة اليه ونظرة اليكم ن من حديث ابن عباس وتقدم في الصلاة (٤) حديث لا ومقلب القلوب خ من حديث ابن عمر (٥) حديث يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك الحديث ت من حديث أنس وحسنه وك من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط م ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك و ن في الكبرى ه ك وصححه على شرط خ م من حديث النواس بن

السخاء صفة الغريزة وفي مقابلته الشح والشح من لوازم صفة النفس قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون حكم بالفلاح لمن يوق الشح وحكم بالفلاح لمن أنفق وبذل فقال ومما رزقناهم ينفقون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون والفلاح أجمع اسم لسعادة الدارين والنبي عليه السلام نبه بقوله ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فجعل احدى المهلكات شحا مطاعا ولم يقل مجرد الشح يكون مهلكا بل يكون مهلكا اذا كان مطاعا فاما كونه موجودا في النفس غير مطاع فانه لا ينكر ذلك لأنه من لوازم النفس مستمدا من أصل جبلتها

والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء وفى لفظ آخر ان شاء أن يقيمه أقامه وان شاء أن يزيغه أزاغه وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة فقال (١) مثل القلب مثل العصفور يتقلب فى كل ساعة وقال عليه السلام (٢) مثل القلب فى تقلبه كالقدر اذا استجمعت غليانا وقال (٣) مثل القلب كمثل ريشة فى أرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى فى تقليبها من حيث لا تهتدى اليه المعرفة لا يعرفها الا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى * والقلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة * قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت فينصرف العقل الى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه الى العمل به وينظر الملك الى القلب فيجده طيبا فى جوهره طاهرا بتقواه مستنيرا بضياء العقل معمورا بأنوار المعرفة فيراه صالحا لأن يكون له مستقرا ومهبطا فعند ذلك يمده بجنود لا ترى ويهديه الى خيرات أخرى حتى ينجر الخير الى الخير وكذلك على الدوام ولا يتناهى امداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه واليه الاشارة بقوله تعالى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وفى مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يخفى فيه الشرك الخفى الذى هو أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء فلا يخفى على هذا النور خافية ولا يروج عليه شئ من مكايد الشيطان بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول غرورا فلا يلتفت اليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معمورا بالمنجيات التى سنذكرها من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك وهو القلب الذى أقبل الله عز وجل بوجهه عليه وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب وبقوله عز وجل يا أيتها النفس المطمئنة (القلب الثانى) القلب المخذول المشحون بالهوى المدنس بالاخلاق المذمومة والخبائث المفتوح فيه أبواب الشياطين المسدود عنه أبواب الملائكة ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب الى حاكم العقل ليستفتى منه ويستكشف وجه الصواب فيه فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى فتستولى النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلمانه لانحباس جند العقل عن مدافعته فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزين والغرور والأمانى ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا فيضعف سلطان الايمان بالوعد والوعيد ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة اذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم الى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفئ أنواره فيصير العقل كالعين التى ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب امكان التوقف والاستبصار ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمى عن الفهم وصم عن السمع وهاجت الشهوة فيه وسطا الشيطان وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية الى عالم الشهادة ممن علم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره والى مثل هذا القلب الاشارة بقوله تعالى أرأيت من اتخذ الهه

سمعان ما من قلب الا بين أصبعين من أصابع الرحمن ان شاء أقامه وان شاء أزاغه ون فى الكبرى باسناد جيد نحوه من حديث عائشة (١) حديث مثل القلب مثل العصفور يتقلب فى كل ساعة ك فى المستدرك وقال صحيح على شرط م والبيهقى فى الشعب من حديث أبى عبيدة بن الجراح قلت رواه البغوى فى معجمه من حديث أبى عبيد غير منسوب وقال لا أدرى له صحبة أم لا (٢) حديث مثل القلب فى تقلبه كالقدر اذا استجمعت غليانا أحمد وك وقال صحيح على شرط خ من حديث المقداد بن الاسود (٣) حديث مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة الحديث الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من حديث أبى موسى الاشعرى باسناد حسن والبزار نحوه من حديث أنس باسناد ضعيف

التراب وفى التراب قبض وامساك وليس ذلك بالمحب من الآدمى وهو جبلى فيه وانما المحب وجود السخاء فى الغريزة وهو لنفوس الصوفية الداعى لهم الى البذل والايثار والسخاء أتم وأكمل من الجود ففى مقابلة الجود البخل وفى مقابلة السخاء الشح والجود والبخل يتطرق اليهما الاكتساب بطريق العادة بخلاف الشح والسخاء اذا كان من ضرورة الغريزة وكل سخى جواد وليس كل جواد سخيا والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء لأن السخاء من نتيجة الغرائز والله تعالى منزه عن الغريزة والجود يتطرق اليه الرياء ويأتى به الانسان متطلعا الى عوض من

هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا وبقوله عز وجل لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون وبقوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ورب قلب هذا حاله بالاضافة الى بعض الشهوات كالذى يتورع عن بعض الاشياء ولكنه اذا رأى وجها حسنا لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه أو كالذى لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ولا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه أو كالذى لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه أو كالذى لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى الى القلب حتى يظلم وتنطفئ منه أنواره فينطفئ نور الحياء والمروءة والايمان ويسعى فى تحصيل مراد الشيطان (القلب الثالث) قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه الى الشر فيلحقه خاطر الايمان فيدعوه الى الخير فتنبعث النفس بشهوتها الى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم فينبعث العقل الى خاطر الخير ويدفع فى وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها الى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع فى تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب فتميل النفس الى نصح العقل فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوى داعى الهوى ويقول ما هذا التحرج البارد لم تمتنع عن هواك فتؤذى نفسك وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا يضحك عليك أهل الزمان أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا أما ترى العالم الفلانى ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرا لامتنع منه فتميل النفس الى الشيطان وتنقلب اليه فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول هل هلك الا من اتبع لذة الحال ونسى العاقبة أفتقنع بلذة يسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستثقل ألم النار أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك أرأيت لو كنت فى يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم فى الشمس وكان لك بيت باردا كنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس ولا تخالفهم خوفا من حر النار فعند ذلك تمتثل النفس الى قول الملك فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذبا بين الحزبين الى أن يغلب على القلب ما هو أولى به فان كانت الصفات التى فى القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التى ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب الى جنسه من أحزاب الشيطان معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعدا لحزب الشيطان وأعدائه وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى وان كان الاغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب الى اغواء الشيطان وتحريضه اياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة بل مال الى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن أى بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب أعنى التقلب والانتقال من حزب الى حزب أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين وهذه الطاعات والمعاصى تظهر من خزائن الغيب الى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فانه من خزائن الملكوت وهى أيضا اذا ظهرت كانت علامات تعرف أرباب القلوب سابق القضاء فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصى وسلط عليه أقران السوء وألقى فى قلبه حكم الشيطان فانه بانواع الحكم يغر الحق بقوله ان الله رحيم فلا تبال وان الناس كلهم مايخافون الله فلا تخالفهم وان العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدا يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان الا غرورا يعدهم التوبة ويمنيهم المغفرة فيهلكهم باذن الله تعالى بهذه الحيل ومايجرى مجراها فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق وكل ذلك بقضاء من الله وقدر فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده فهو الهادى

الخلق أو الحق بمقابل تاما من الثناء وغيره من الخلق والثواب من الله تعالى والسخاء لا يتطرق اليه الرياء لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الاعواض دنيا وآخرة لأن طالب العوض مشعر بالبخل لكونه معاملا بطالب العوض فما تمحض سخاء فالسخاء لأهل الصفاء والايثار لأهل الأنوار ويجوز أن يكون قوله تعالى انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا نفى فى الآية الاطعام لطلب الاعواض حيث قال لا نريد بعد قوله لوجه الله فما كان لله لا يشعر بطالب العوض بل الغريزة لطهارتها تنجذب الى مراد الحق لا لاعواض وذلك أكمل السخاء من أطهر الغرائز وروت

والمضل يفعل مايشاء ويحكم مايريد لارادلحكمه ولامعقب لقضائه خلق الجنة وخلق لها أهلا فاستعملهم بالطاعة وخلق النار وخلق لها أهلا فاستعملهم بالمعاصي وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال ان الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم ثم قال تعالى فيما روى عنه صلى الله عليه وسلم (١) هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي فتعالى الله الملك الحق لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ولنقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فان استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة وانما ذكرنا منه مايحتاج اليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بها من لا ينفع بالظواهر ولا يجتزئ بالقشر عن اللباب بل يتشوق الى معرفة دقائق حقائق الأسباب وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع ان شاء الله تعالى والله ولي التوفيق * تم كتاب عجائب القلب ولله الحمد والمنة ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى

(كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق ومعالجة أمراض القلب وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فاحسن في تصويره وزين صورة الانسان بحسن تقويمه وتقديره وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره وفوض تحسين الاخلاق الى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره وسهل على خواص عباده تهذيب الاخلاق بتوفيقه وتيسيره وامتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره الذي كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجوه الاسلام من ظلمة الكفر وداجيره وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره (أما بعد) فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين وهي الأبواب المفتوحة الى نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة كما أن الأخلاق الجميلة هي الابواب المفتوحة من القلب الى نعيم الجنان وجوار الرحمن والاخلاق الخبيثة أمراض القلوب واسقام النفوس الا أنه مرض يفوت حياة الأبد * وأين منه المرض الذي لا يفوت الا حياة الجسد * ومهما اشتدت عناية الاطباء بضبط قوانين العلاج للابدان وليس في مرضها الا فوت الحياة الفانية فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب اذ لا يخلو قلب من القلوب عن اسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد الى تأنق في معرفة عللها وأسبابها ثم الى تشمير في علاجها واصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى قد أفلح من زكاها واهمالها هو المراد بقوله وقد خاب من دساها ونحن نشير في هذا الكتاب الى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص الامراض فان ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الربع وغرضنا الآن النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الافهام دركه ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ثم بيان حقيقة حسن الخلق ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة ثم بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق ثم بيان الطرق التي بها يعرف تفصيل الطرق الى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ثم بيان العلامات التي بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التي بها يعرف الانسان عيوب نفسه ثم بيان شواهد النقل على ان طريق المعالجة للقلوب بترك

(١) حديث قال الله عز وجل هؤلاء الى الجنة ولا أبالي وهؤلاء الى النار ولا أبالي أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي وقال ابن عبد البر في الاستيعاب انه مضطرب الاسناد

الشهوات

أسماء بنت أبي بكر قالت قلت يارسول الله ليس لي من شئ الا ما أدخل على الزبير فأعطى قال نعم لا توكي فيوكى عليك * ومن أخلاق الصوفية التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة (قال) سفيان الاحسان أن تحسن الى من أساء اليك فان الاحسان الى المحسن متاجرة كنقد السوق خنشيأ وهات شيأ وقال الحسن الاحسان ان تعم ولا تخص كالشمس والريح والغيث (وروى) أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت ياجبرائيل لمن هذه قال للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس (روى) أبو هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كان

الشهوات لاغير ثم بيان علامات حسن الخلق ثم بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول النشو ثم بيان شروط الارادة ومقدمات المجاهدة فهى أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

(بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق)

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه وانك لعلى خلق عظيم وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) خلقه القرآن وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ثم قال صلى الله عليه وسلم (١) هو أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال صلى الله عليه وسلم (٣) انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وقال صلى الله عليه وسلم (٤) أثقل مايوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق (٥) وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال يارسول الله ما الدين قال حسن الخلق فاتاه من قبل يمينه فقال يارسول الله ما الدين قال حسن الخلق ثم أتاه من قبل شماله فقال ما الدين فقال حسن الخلق ثم أتاه من ورائه فقال يارسول الله ما الدين فالتفت اليه وقال أما تفقه هو أن لاتغضب وقيل يارسول الله (٦) ما الشؤم قال سوء الخلق وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) أوصنى فقال اتق الله حيث كنت قال زدنى قال أتبع السيئة الحسنة تمحها قال زدنى قال خالق الناس بخلق حسن وسئل عليه السلام أى الأعمال أفضل قال خلق حسن وقال صلى الله عليه وسلم (٨) ما حسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار وقال الفضيل (٧) قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال لا خير فيها هى من أهل النار وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٩) أول مايوضع فى الميزان حسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الايمان قال اللهم قونى فقواه بحسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الكفر قال اللهم قونى فقواه بالبخل وسوء الخلق وقال صلى الله عليه وسلم (١٠) ان الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم الا السخاء وحسن الخلق ألا فزينوا دينكم بهما وقال عليه السلام (١١) حسن الخلق خلق الله الأعظم (١٢) وقيل يارسول الله أى المؤمنين أفضل ايمانا قال أحسنهم خلقا وقال صلى الله عليه وسلم (١٣) انكم لن تسعوا الناس

(١) حديث عائشة كان خلقه القرآن تقدم وهو عندم (٢) حديث تأويل قوله تعالى خذ العفو الآية هو أن تصل من قطعك الحديث ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس باسانيد حسان (٣) حديث بعثت لاتمم مكارم الأخلاق أحمد وك والبيهقى من حديث أبى هريرة وتقدم فى آداب الصحبة (٤) حديث أثقل مايوضع فى الميزان خلق حسن دت وصححه من حديث أبى الدرداء (٥) حديث جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال ما الدين قال حسن الخلق الحديث محمد بن نصر المروزى فى كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبى العلاء بن الشخير مرسلا (٦) حديث ما الشؤم قال سوء الخلق احمد من حديث عائشة الشؤم سوء الخلق ولأبى داود من حديث رافع بن مكيث سوء الخلق شؤم وكلاهما لا يصح (٧) حديث قال رجل أوصنى قال اتق الله حيثما كنت الحديث ت من حديث أبى ذر وقال حسن صحيح (٨) حديث ما حسن الله خلق امرئ وخلقه فتطعمه النار تقدم فى آداب الصحبة (٩) حديث أبى الدرداء أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق الحديث لم أقف له على أصل هكذا ولأبى داود من حديث أبى الدرداء ما من شئ فى الميزان أثقل من حسن الخلق وقال غريب وقال فى بعض طرقه حسن صحيح (١٠) حديث ان الله استخلص هذا الدين لنفسه الحديث الدارقطنى فى كتاب المستجاد والخرايطى فى مكارم الاخلاق من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد فيه لين (١١) حديث حسن الخلق خلق الله الاعظم الطبرانى فى الاوسط من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف (١٢) حديث قيل يارسول الله أى المؤمنين أفضلهم ايمانا قال أحسنهم خلقا دت ن ك من حديث أبى هريرة وتقدم فى النكاح بلفظ أكمل المؤمنين وللطبرانى من حديث أبى أمامة أفضلكم ايمانا أحسنكم خلقا (١٣) حديث انكم لن تسعوا الناس باموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق البزار وأبو يعلى والطبرانى فى مكارم

(٧) قوله وقال الفضيل الخ لم يخرجه العراقى ولم ينبه عليه وقد تقدم فى باب الصحبة اه مصححه

مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس فجاء رجل فوقع فى أبى بكر وهو ساكت والنبى عليه السلام يتبسم ثم رد أبو بكر عليه بعض الذى قال فغضب النبى وقام فلحقه أبو بكر فقال يارسول الله شتمنى وأنت تتبسم ثم رددت عليه بعض ماقال فغضبت وقمت فقال انك حيث كنت ساكا كان معك ملك يرد عليه فلما تكلمت وقع الشيطان فلم أكن لأقعد فى مقعد فيه الشيطان ياأبا بكر ثلاث كلهن حق ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها الا أعز الله نصره وليس عبد يفتح باب مسئلة يريد بها كثرة الا زاده الله قلة وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يبتغى بها وجه الله الا زاده الله بها كثرة (أخبرنا)

بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق وقال أيضا صلى الله عليه وسلم (١) سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل وعن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) انك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك وعن البراء بن عازب قال (٣) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا وعن أبي مسعود البدري قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه (٤) اللهم حسنت خلقي فحسن خلقي وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما (٥) قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول اللهم اني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (٦) قال كرم المؤمن دينه وحسبه حسن خلقه ومروءته عقله وعن أسامة بن شريك قال (٧) شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ما خير ما أعطي العبد قال خلق حسن وقال صلى الله عليه وسلم (٨) ان أحبكم الي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وعن ابن عباس رضي الله عنهما (٩) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشئ من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حلم يكف به السفيه أو خلق يعيش به بين الناس وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصلاة (١٠) اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها الا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها الا أنت وقال أنس (١١) بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما اذ قال ان حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما يذيب الشمس الجليد وقال عليه السلام (١٢) من سعادة المرء حسن الخلق وقال صلى الله عليه وسلم (١٣) اليمن حسن الخلق

الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات (١) حديث سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضا وضعفهما ابن جرير (٢) حديث انك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك الخرايطي في مكارم الاخلاق وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب وفيه ضعف (٣) حديث البراء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا الخرايطي في مكارم الأخلاق بسند حسن (٤) حديث أبي مسعود البدري اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي الخرايطي في مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي مسعود البدري وانما هو ابن مسعود أي عبد الله هكذا رواه ابن حبان في صحيحه ورواه احمد من حديث عائشة (٥) حديث عبد الله بن عمرو اللهم اني اسألك الصحة والعافية وحسن الخلق الخرايطي في مكارم الاخلاق باسناد فيه لين (٦) حديث أبي هريرة كرم المرء دينه ومروءته عقله وحسن خلقه حب وك وصححه على شرط م والبيهقي قلت فيه مسلم بن خالد الزنجي وقد تكلم فيه قال البيهقي وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفا على عمر وقال اسناد صحيح (٧) حديث اسامة بن شريك شهدت الاعاريب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خير ما أعطي العبد قال خلق حسن ه وتقدم في آداب الصحبة (٨) حديث ان أحبكم الى الله وأقربكم مني مجلسا يوم القيمة أحاسنكم أخلاقا طص طس من حديث أبي هريرة ان أحبكم الى الله أحاسنكم أخلاقا وللطبراني في مكارم الاخلاق من حديث جابر ان أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا وقد تقدم الحديثان في آداب الصحبة (٩) حديث ابن عباس ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشئ من عمله الحديث الخرايطي في مكارم الاخلاق باسناد ضعيف ورواه الطبراني في الكبير وفي مكارم الاخلاق من حديث أم سلمة (١٠) حديث اللهم اهدني لاحسن الاخلاق الحديث م من حديث علي (١١) حديث أنس ان حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما يذيب الشمس الجليد الخرايطي في مكارم الاخلاق والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة وضعفه أيضا طب وطس والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعفه أيضا (١٢) حديث من سعادة المرء حسن الخلق الخرايطي في مكارم الاخلاق والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف (١٣) حديث اليمن حسن الخلق الخرايطي في مكارم الاخلاق من حديث علي باسناد ضعيف

ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا الكروخي قال أنا الترياقي قال أنا الجراحي قال أنا المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا أبو هشام الرفاعي قال ثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله ابن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا أمعة تقولون ان أحسن الناس أحسنا وان ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا وان أساؤا فلا تظلموا (وقال) بعض الصحابة يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقريني ولا يضيفني فيمر بي أفأجزيه قال لا أقره وقال الفضيل الفتوة الصفح عن عثرات الاخوان وقال

وقال

وقال عليه السلام لأبي ذر يا أبا ذر (١) لاعقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق وعن أنس (١) قال قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لايهما تكون قال لأحسنهما خلقا كان عندها في الدنيا يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ان المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته وفي رواية درجة الظمآن في الهواجر وقال عبد الرحمن بن سمرة كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال (٤) اني رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم (٥) ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وانه لضعيف في العبادة وروى ان عمر رضي الله عنه (٦) استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر رضي الله عنه تبادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر رضي الله عنه مم تضحك بابي أنت وأمي يارسول الله فقال عجبت لهؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب فقال عمر أنت كنت أحق أن يهبنك يارسول الله ثم أقبل عليهن عمر فقال ياعدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلن نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم ايها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا الا سلك فجا غير فجك وقال صلى الله عليه وسلم (٧) سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تفوح وقال عليه السلام (٨) ان العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم (الآثار) قال ابن لقمان الحكيم لأبيه يا أبت أي الخصال من الانسان خير قال الدين قال فاذا كانت اثنتين قال الدين والمال قال فاذا كانت ثلاثا قال الدين والمال والحياء قال فاذا كانت أربعا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق قال فاذا كانت خمسا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء قال فاذا كانت ستا قال يابني اذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو تقي لله ولي ومن الشيطان برى وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه وقال أنس بن مالك ان العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد وقال يحيى بن معاذ في سعة الأخلاق كنوز الارزاق وقال وهب بن منبه مثل السيئ الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعاد طينا وقال الفضيل لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب الي من أن يصحبني عابد سيئ الخلق * وصحب ابن المبارك رجل سيئ الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال بكيته رحمته فارقته وخلقه معه لم يفارقه وقال الجنيد أربع ترفع العبد الى أعلى الدرجات وان قل عمله وعلمه الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الايمان

(١) حديث يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق ه حب من حديث أبي ذر (٢) حديث أنس قالت أم حبيبة يارسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان البزار والطبراني في الكبير والخرايطي في مكارم الاخلاق باسناد ضعيف (٣) حديث ان المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه الحديث احمد من حديث عبد الله بن عمرو بالرواية الاولى ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيهما ابن لهيعة (٤) حديث عبد الرحمن بن سمرة اني رأيت البارحة عجبا الحديث الخرايطي في مكارم الاخلاق بسند ضعيف (٥) حديث ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة الحديث طب والخرايطي في مكارم الاخلاق وأبو الشيخ في كتاب مكارم الاخلاق وأبو الشيخ في كتاب طبقات الاصبهانيين من حديث أنس باسناد جيد (٦) حديث ان عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه الحديث متفق عليه (٧) حديث سوء الخلق ذنب لا يغفر الحديث طص من حديث عائشة ما من شئ الا له توبة الا صاحب سوء الخلق فانه لا يتوب من ذنب الا عاد في شر منه واسناده ضعيف (٨) حديث ان العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل من درك جهنم الطبراني والخرايطي في مكارم الاخلاق وأبو الشيخ في طبقات الاصبهانيين من حديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الواصل المكافئ ولكن الواصل الذي اذا قطعت رحمه وصلها (وروى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكارم الاخلاق أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك * ومن أخلاق الصوفية البشر وطلاقة الوجه الصوفي بكاؤه في خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس فالبشر على وجهه من آثار أنوار قلبه وقد تنازل باطن الصوفي منازلات الهية ومواهب قدسية يرتوي منها القلب ويمتلئ فرحا وسرورا قال بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا والسرور اذا تمكن من القلب فاض على الوجه آثاره قال الله

وقال الكتانى التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف وقال عمر رضى الله عنه خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال وقال يحيى بن معاذ سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات وسئل ابن عباس ما الكرم فقال هو ما بين الله فى كتابه العزيز ان أكرمكم عند الله أتقاكم قيل فما الحسب قال أحسنكم خلقا أفضلكم حسبا وقال لكل بنيان أساس وأساس الاسلام حسن الخلق وقال عطاء ما ارتفع من ارتفع الا بالخلق الحسن ولم ينل أحد كماله الا المصطفى صلى الله عليه وسلم فاقرب الخلق الى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق

(بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق)

اعلم ان الناس قد تكلموا فى حقيقة حسن الخلق وانه ما هو وما تعرضوا لحقيقته وانما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضرا فى ذهنه ولم يصرفوا العناية الى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب وذلك كقول الحسن حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الاذى وقال الواسطى هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى وقال شاه الكرمانى هو كف الاذى واحتمال المؤن وقال بعضهم هو أن يكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا وقال الواسطى مرة هو ارضاء الخلق فى السراء والضراء وقال أبو عثمان هو الرضا عن الله تعالى وسئل سهل التسترى عن حسن الخلق فقال أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه وقال مرة أن لا يتهم الحق فى الرزق ويثق به ويسكن الى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه فى جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس وقال على رضى الله عنه حسن الخلق فى ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال وقال الحسين بن منصور هو أن لا يؤخر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق وقال أبو سعيد الخراز هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى فهذا وأمثاله كثير وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه ثم ليس هو محيطا بجميع الثمرات أيضا وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الاقاويل المختلفة فنقول الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا يقال فلان حسن الخلق والخلق أى حسن الباطن والظاهر فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ويراد بالخلق الصورة الباطنة وذلك لأن الانسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة ولكل واحد منهما هيئة وصورة اما قبيحة واما جميلة فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر ولذلك عظم الله أمره باضافته اليه اذ قال تعالى انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فنبه على أن الجسد منسوب الى الطين والروح الى رب العالمين والمراد بالروح والنفس فى هذا المقام واحد فالخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الافعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وان كان الصادر عنها الافعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا وانما قلنا انها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ وانما اشترطنا أن تصدر منه الافعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم فههنا أربعة أمور أحدها فعل الجميل والقبيح والثانى القدرة عليهما والثالث المعرفة بهما والرابع هيئة للنفس بها تميل الى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين اما الحسن واما القبيح وليس الخلق عبارة عن الفعل فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل المال أصلا لمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل اما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة لأن نسبة القوة الى الامساك والاعطاء بل الى الضدين واحد وكل انسان خلق بالفطرة قادر على الاعطاء والامساك وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فان المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد بل هو عبارة عن المعنى

تعالى وجوه يومئذ مسفرة أى مضيئة مشرقة مستبشرة أى فرحة قيل أشرقت من طول ما اغبرت فى سبيل الله ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة فالوجه مشكاة والقلب زجاج والروح مصباح فاذا تنعم القلب بلذيذ المسامرة ظهر البشر على الوجه قال الله تعالى تعرف فى وجوههم نضرة النعيم أى نضارته وبريقه يقال أنضر النبات اذا أزهر ونور وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فلما نظرت نضرت فارباب المشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور المشاهدة وانصقلت مرآة قلوبهم وانعكس فيها نور

الرابع وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الامساك أو البذل فالخلق اذا عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق فاذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الافعال فاذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الاخلاق الحسنة وهي التي قال الله فيها ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت اشارة الحكمة أعني اشارة العقل والشرع وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت اشارة العقل والشرع فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هي القدرة ومثالها مثال المنفذ الممضي لاشارة العقل والغضب هو الذي تنفذ فيه الاشارة ومثاله مثال كلب الصيد فانه يحتاج الى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الاشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فانه تارة يكون مروضا مؤدبا وتارة يكون جموحا فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالاضافة الى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة فان مالت قوة الغضب عن الاعتدال الى طرف الزيادة تسمى تهورا وان مالت الى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا وان مالت قوة الشهوة الى طرف الزيادة تسمى شرها وان مالت الى النقصان تسمى جمودا والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل اذا فات فليس له طرف زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور وأما الحكمة فيسمى افراطها عند الاستعمال في الاغراض الفاسدة خبثا وجربزة ويسمى تفريطها بلها والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة فاذا أمهات الأخلاق وأصولها أربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الافعال الاختيارية ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في اقدامها واحجامها ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الاخلاق الجميلة كلها اذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي واصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفاياها آفات النفوس ومن افراطها تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الانسان غمرا في شيء دون شيء والفرق بين الحمق والجنون أن الاحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل الى الغرض وأما المجنون فانه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وايثاره فاسدا وأما خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة وأما افراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع وأما ميلها الى الافراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقصير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للاغنياء واستحقار الفقراء

الجمال الازلي واذا شرقت الشمس على المرآة المصقولة استنارت الجدران قال الله تعالى سيماهم في وجوههم من أثر السجود واذا تأثر الوجه بسجود الظلال وهي القوالب في قول الله تعالى وظلالهم بالغدو والآصال كيف لا يتأثر بشهود الجمال (أخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا الكروخي قال أنا الترياقي قال أنا الجراحي قال أنا المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا قتيبة قال ثنا المنكدر بن محمد ابن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة وان من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وان تفرغ من دلوك في اناء أخيك

وغير ذلك فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقي فروعها ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الاربع الا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه فكل من قرب منه في هذه الاخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع كمال هذه الاخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم اليه ويقتدون به في جميع الافعال ومن انفك عن هذه الاخلاق كلها واتصف باضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فانه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد فينبغي أن يبعد كما أن الاول قريب من الملك المقرب فينبغي أن يقتدي به ويتقرب اليه فان رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) لم يبعث الا ليتمم مكارم الاخلاق كما قال وقد أشار القرآن الى هذه الاخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون فالايمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع الى ضبط قوة الشهوة والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع الى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال أشداء على الكفار رحماء بينهم اشارة الى أن للشدة موضعا وللرحمة موضعا فليس الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه

(بيان قبول الاخلاق للتغيير بطريق الرياضة)

اعلم ان بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم ان الاخلاق لا يتصور تغييرها فان الطباع لا تتغير واستدل فيه بأمرين أحدهما ان الخلق هو صورة الباطن كما ان الخلق هو صورة الظاهر فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى والثاني انهم قالوا حسن الخلق بقمع الشهوة والغضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فانه قط لا ينقطع عن الآدمي فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة فان المطلوب هو قطع التفات القلب الى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده فنقول لو كانت الاخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) حسنوا أخلاقكم وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن اذ ينقل البازي من الاستيحاش الى الانس والكلب من شره الأكل الى التأدب والامساك والتخلية والفرس من الجماح الى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للاخلاق والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول الموجودات منقسمة الى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله كالسماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلا وخارجا وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله والى ما وجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد ان وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فان النواة ليست بتفاح ولا نخل الا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة اذا انضاف التربية اليها ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربية فاذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا الى الله تعالى نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولا اختلاف فيها سببان أحدهما قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداده مدة الوجود فان قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الانسان ولكن أصعبها أمرا وأعصاها

(وقال) سعد بن عبد الرحمن الزبيدي يعجبني من القراء كل سهل طلق مضحاك فاما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمن عليك فلا أكثر الله في القراء مثله

(ومن أخلاق الصوفية) السهولة ولين الجانب والنزول مع الناس الى أخلاقهم وطباعهم وترك التعسف والتكلف وقد روى في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبارا وأخلاق الصوفية تحاكي أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول عليه الصلاة والسلام أما انى أمزح ولا أقول الا حقا وروى أن رجلا يقال له زاهر بن حرام وكان بدويا وكان لا يأتي الى رسول الله الا جاء بطرفة يهديها الى رسول الله فجاء يوما من الايام فوجده

أنس باسناد جيد وهو بعض الحديث الذي قبله بحديثين (١) حديث بعثت لأتمم مكارم الاخلاق تقدم في آداب الصحبة (٢) حديث حسنوا أخلاقكم أبو بكر بن لال في مكارم الاخلاق من حديث معاذ يا معاذ

على التغيير قوة الشهوة فانها أقدم وجودا اذ الصبي في مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز والسبب الثاني أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب * الأولى وهو الانسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقي كما فطر عليه خاليا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج الا الى معلم ومرشد والى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان * والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهواته واعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول اذ قد تضاعفت الوظيفة عليه اذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للروضة ان انتهض لها بجد وتشمير وحزم * والثالثة أن يعتقد في الأخلاق القبيحة انها الواجبة المستحسنة وانها حق وجميل وتربى عليها فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه الا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال * والرابعة أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره وهذا هو أصعب المراتب وفي مثله قيل ومن العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والأول من هؤلاء جاهل فقط والثاني جاهل وضال والثالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به وهو قولهم ان الآدمي مادام حيا فلا ينقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات فان الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال وليس المطلوب اماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذي هو وسط بين الافراط والتفريط والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن الفتور وعن الحمق جميعا وبالجملة أن يكون في نفسه قويا ومع قوته منقادا للعقل ولذلك قال الله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم وصفهم بالشدة وانما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك اذ قال صلى الله عليه وسلم (١) انما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر (٢) وكان اذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول الا حقا فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق وقال تعالى والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة الى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن وهو المراد بتغيير الخلق فانه ربما تستولي الشهوة على الانسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها عن الانبساط الى الفواحش وبالرياضة تعود الى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين ان السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أثنى الله تعالى عليه فقال والذين اذا أنفقوا لم

---

(١) حديث انما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة انما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر (٢) حديث انه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول الا حقا فكان الغضب لا يخرجه عن الحق الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال لأن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهما من حديث أبي سعيد الخدري وكان اذا كره شيأ عرفناه في وجهه ولهما من حديث عائشة وما انتقم رسول الله صلى

حسن خلقك للناس منقطع ورجاله ثقات

رسول الله في سوق المدينة يبيع سلعة له ولم يكن أتاه ذلك اليوم فاحتضنه النبي عليه السلام من ورائه بكفيه فالتفت فأبصر النبي عليه السلام فجعل يكفيه فقال النبي عليه السلام من يشتري العبد فقال اذا تجدني كاسدا يا رسول الله فقال ولكن عند الله لست بكاسد ثم قال عليه السلام لكل أهل حضر بادية وبادية آل محمد زاهر بن حرام (وأخبرنا) أبو زرعة طاهر بن الحافظ المقدسي عن أبيه قال أنا المطهر بن محمد الفقيه قال أنا أبو الحسن قال أنا أبو عمرو بن حكيم قال أنا أبو أمية قال ثنا عبيد بن اسحق العطار قال ثنا سنان بن هرون عن حميد عن أنس قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه

يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجود قال الله تعالى كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين وقال فى الغضب أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال صلى الله عليه وسلم (١) خير الأمور أوساطها وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم قال الله تعالى الا من أتى الله بقلب سليم والبخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضا من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منهما أى لا يكون ملتفتا الى المال ولا يكون حريصا على انفاقه ولا على امساكه فان الحريص على الانفاق مصروف القلب الى الانفاق كما ان الحريص على الامساك مصروف القلب الى الامساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا واذا لم يكن ذلك فى الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط فان الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكانه خال عن الوصفين فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير والشجاعة بين الجبن والتهور والعفة بين الشره والجمود وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفى الأمور ذميم هذا هو المطلوب وهو ممكن نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأسا ويذم امساك المال رأسا ولا يرخص له فى شئ منه لأنه لو رخص له فى أدنى شئ اتخذ ذلك عذرا فى استبقاء بخله وغضبه وظن انه القدر المرخص فيه فاذا قصد قطع الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له الا كسر سورته بحيث يعود الى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر المقصود فلا يكشف هذا السر للمريد فانه موضع غرور الحمق اذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وان امساكه بحق

(بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة)

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع الى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة والى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا وهذا الاعتدال يحصل على وجهين * أحدهما بجود الهى وكمال فطرى بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ولا يبعد أن يكون فى الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب فرب صبى خلق صادق اللهجة سخيا جريا وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق وربما يحصل بالتعلم والوجه الثانى اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعنى به حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجواد وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصير به جوادا وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف الى أن يصير ذلك خلقا له وطبعا فيتيسر عليه وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا فالسخى هو الذى يستلذ بذل المال الذى يبذله دون الذى يبذله عن كراهة والمتواضع هو الذى يستلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية فى النفس ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم تواظب عليها مواظبة من يشتاق الى الأفعال الجميلة وينفر بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها كما قال صلى الله عليه وسلم (٢) وجعلت قرة عينى فى الصلاة ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ولكن بالاضافة الى تركها لا بالاضافة الى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى وانها لكبيرة الا على الخاشعين

---

(١) حديث خير الأمور أوساطها البيهقى فى شعب الايمان من رواية مطرف بن عبد الله مرسلا (٢) حديث وجعلت قرة عينى فى الصلاة ن من حديث أنس وقد تقدم

وسلم فقال يا رسول الله احملنى على جمل فقال أحملك على ابن الناقة قال أقول لك احملنى على جمل وتقول أحملك على ابن الناقة فقال عليه السلام فالجمل ابن الناقة (وروى صهيب) فقال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه تمر يا كل فقال أصب من هذا الطعام فجعلت آكل من التمر فقال أتأكل وأنت رمد فقلت اذا أمضغ من الجانب الآخر فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (وروى) أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم ياذا الاذنين (وسئلت) عائشة رضى الله عنها كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خلا فى البيت قالت كان

وقال صلى الله عليه وسلم (١) اعبد الله فى الرضا فان لم تستطع ففى الصبر على ماتكره خير كثير ثم لا يكفى فى نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية فى زمان دون زمان بل ينبغى أن يكون ذلك على الدوام وفى جملة العمر وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل ولذلك لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال (٢) طول العمر فى طاعة الله تعالى ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فان الدنيا مزرعة الآخرة وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ وانما مقصود العبادات تأثيرها فى القلب وانما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون شئ أحب اليه من لقاء الله تعالى عز وجل فلا يستعمل جميع ماله الا على الوجه الذى يوصله اليه وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما الا على الوجه الذى يوصله الى الله تعالى وذلك بأن يكون موزونا بميزان الشرع والعقل ثم يكون بعد ذلك فرحا به مستلذا له ولا ينبغى أن يستبعد مصير الصلاة الى حد تصير هى قرة العين ومصير العبادات لذيذة فان العادة تقتضى فى النفس عجائب أغرب من ذلك فانا قد نرى الملوك والمنعمين فى أحزان دائمة ونرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلسا ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به وذلك لطول الفه له وصرف نفسه اليه مدة وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار فى حر الشمس قائما رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها فى جو السماء بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته فى الصبر على ذلك حتى يرى ذلك نفرا لنفسه ويقطع الواحد منهم ارب ارب على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصر على الانكار ولا يبالى بالعقوبات فرحا بما يعتقده كمالا وشجاعة ورجولية فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره بل لا حالة أخس وأقبح من حال المخنث فى تشبهه بالاناث فى تنتف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء فترى المخنث فى فرح بحاله وافتخار بكماله فى تخنثه يتباهى به مع المخنثين حتى يجرى بين الحجامين والكاسبين التفاخر والمباهاة كما يجرى بين الملوك والعلماء فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك فى المخالطين والمعارف فاذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبائح فكيف لا تستلذ الحق لو وردت اليه مدة والتزمت المواظبة عليه بل ميل النفس الى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهى الميل الى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل الى الطعام والشراب فانه مقتضى طبع القلب فانه أمر ربانى وميله الى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه وانما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهى الطعام والشراب وهما سببان لحياتها فكل قلب مال الى حب شئ سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله الا اذا كان أحب ذلك الشئ لكونه معينا له على حب الله تعالى وعلى دينه فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض فاذا قد عرفت بهذا قطعا أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الافعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعا انتهاء وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعنى النفس والبدن فان كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك الا على وفقها لا محالة وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب والأمر فيه دور ويعرف ذلك بمثال وهو أن من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة له صفة نفسية حتى يصير كاتبا بالطبع فلا طريق له الا أن يتعاطى

(١) حديث اعبد الله فى الرضا فان لم تستطع ففى الصبر على ماتكره خير كثير طب (٢) حديث سئل عن السعادة فقال طول العمر فى عبادة الله رواه القضاعى فى مسند الشهاب وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعيف وللترمذى من حديث أبى بكرة وصححه أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله

ألين الناس بساما فحا كا (وروت) أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ثم سابقها بعد ذلك فسبقها فقال هذه بتلك (وأخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال ثنا عبد الله ابن الوضاح الكوفى قال ثنا عبد الله بن ادريس عن شعبة عن أبى التياح عن أنس رضى الله عنه قال ان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخاطبنا حتى انه كان يقول لأخ لى

بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن فان فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفا ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعا كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفا فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسنا ولكن الأول بتكلف الا انه ارتفع منه أثر الى القلب ثم انخفض من القلب الى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له الا أن يتعاطى أفعال الفقهاء وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس وكذلك من أراد أن يصير سخيا عفيف النفس حليما متواضعا فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفا حتى يصير ذلك طبعا له فلا علاج له الا ذلك وكما أن طالب فقه النفس لا ييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا يناله بتكرار ليلة فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا يناله بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم وهو معنى قولنا ان الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة في يوم واحد تدعو الى مثلها ثم تتداعى قليلا قليلا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر انتحصيل رأسا فيفوتها فضيلة الفقه وكذلك صغائر المعاصي يجر بعضها الى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الايمان عند الخاتمة وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيأ فشيأ على التدريج مثل نمو البدن وارتفاع القامة فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فان الجملة الكثيرة منها مؤثرة وانما اجتمعت الجملة من الآحاد فلكل واحد منها تأثير فما من طاعة الا ولها أثر وان خفي فله ثواب لا محالة فان الثواب بازاء الاثر وكذلك المعصية وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوما فيوما الى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه فكذا من يستهين صغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي الى أن يختطفه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة اذ القليل يدعو الى الكثير فيصير القلب مقيدا بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها وهو المعنى بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا الآية ولذلك قال علي رضي الله عنه ان الايمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء كلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض فاذا استكمل العبد الايمان ابيض القلب كله وان النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فاذا استكمل النفاق اسود القلب كله فاذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتياد الافعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير واخوان الصلاح اذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو في غاية الفضيلة ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل وبين الرتبتين من اختلفت فيه هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

(بيان تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق)

قد عرفت من قبل ان الاعتدال في الاخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحته له والميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثالا فنقول مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والاخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والاخلاق الجميلة اليها مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها اليه وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وانما تعتري المعدة المضرة بعوارض الاغذية والاهوية والاحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وانما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وانما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق

صغير يا أبا عمير ما فعل النغير والنغير عصفور صغير (وروى) ان عمر سابق زبيرا رضي الله عنهما فسبقه الزبير فقال سبقتك ورب الكعبة ثم سابقه مرة أخرى فسبقه عمر فقال عمر سبقتك ورب الكعبة وروى عبد الله ابن عباس قال قال لي عمر تعال أنافسك في الماء أينا أطول نفسا ونحن محرمون (وروى) بكر ابن عبد الله قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمازحون حتى يتباذحون بالبطيخ فاذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال يقال بذح يبذح اذا رمى أي يترامون بالبطيخ (وأخبرنا) أبو زرعة عن أبيه

والتغذية بالعلم وكما أن البدن ان كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وان كان مريضا فشأنه جلب الصحة اليه فكذلك النفس منك ان كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة اليها واكتساب زيادة صفائها وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك اليها وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج الا بضدها فان كانت من حرارة فبالبرودة وان كانت من برودة فبالحرارة فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخي ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا وكما انه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى فان مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة الا اذا كان على حد مخصوص ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ولابد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فانه ان لم يحفظ معياره زاد الفساد فكذلك النقائض التي تعالج بها الأخلاق لابد لها من معيار وكان معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى ان الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة فان كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية فاذا عرف ذلك التفت الى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم وكما ان الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم بل ينبغي ان ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته فان كان المريد مبتدئا جاهلا بحدود الشرع فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات وان كان مشغولا بمال حرام أو مقار فالمعصية فيأمره أولا بتركها فاذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بعد ان الأحوال الى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه فان رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه الى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت اليه وان رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره ان يخرج الى الأسواق للكدية والسؤال فان عزة النفس والرياسة لا تنكسر الا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه فان الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة وان رأى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلا الى ذلك فرحابه ملتفتا اليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة فان الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار فلا فرق بين ان يعبد الانسان نفسه أو يعبد صنما فهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ومن راعى في ثوبه شيأ سوى كونه حلالا وطاهرا مراعاة يلتفت اليها قلبه فهو مشغول بنفسه ومن لطائف الرياضة اذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأسا أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة فينبغي أن ينقله من اخلاق المذموم الى خلق مذموم آخر أخف منه كالذي يغسل الدم بالبول ثم يغسل البول بالماء اذا كان الماء لا يزيل الدم كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ثم ينقل من اللعب الى الزينة وفاخر الثياب ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياسة وطلب الجاه ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فلينقل الى جاه أخف منه وكذلك سائر الصفات وكذلك اذا رأى شره الطعام غالبا عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ثم يكلفه أن يهيئ الأطعمة اللذيذة ويقدمها الى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه وكذلك اذا رآه شابا متشوقا الى النكاح وهو

قال أنا الحسن بن أحمد الكرخي قال ثنا أبو طالب محمد بن محمد بن ابراهيم قال ثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله قال حدثني اسحق الحربي قال ثنا أبو سلمة قال ثنا حماد بن خالد قال أنا محمد بن عمرو ابن علقمة قال ثنا أبو الحسن ابن محيصن الليثي عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ابن أبي بلتعة قال ان عائشة رضي الله عنها قالت أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بحريرة طبختها له وقلت لسودة والنبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينها كلي فأبت فقلت لها كلي فأبت فقلت لتأكلن أو لالطخن بها وجهك فأبت فوضعت يدي في الحريرة فلطخت بها وجهها

عاجز عن الطول فيأمره بالصوم وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء ويمنعه اللحم والادم رأسا حتى تذل نفسه وتنكسر شهوته فلا علاج في مبدأ الارادة أنفع من الجوع وان رأى الغضب غالبا عليه ألزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه كما حكي عن بعضهم انه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب فكان يستأجر من يشتمه على ملا من الناس ويكلف نفسه الصبر ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة وبعض الشيوخ في ابتداء ارادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع وعالج بعضهم حب المال بان باع جميع ماله ورمى به في البحر اذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود والرياء بالبذل فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض فان ذلك سيأتي في بقية الكتب وانما غرضنا الآن التنبيه على ان الطريق الكلي فيه سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس وتميل اليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فاذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا فينبغي ان يصبر ويستمر فانه ان عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت واذا اتفق منه نقض عزم فينبغي ان يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة واذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية

(بيان علامات أمراض القلوب وعلاماتها عودها الى الصحة)

اعلم ان كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به وانما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلا أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش ومرض العين أن يتعذر عليها الابصار وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وايثاره ذلك على كل شهوة سواه والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه قال الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ففي كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة وخاصية النفس التي للآدمي ما يتميز بها عن البهائم فانه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والابصار أو غيرها بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيأ وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم الى قوله أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بامره فمن عنده شيء أحب اليه من الله فقلبه مريض كما أن كل معدة صار الطين أحب اليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة الا ما شاء الله الا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه وان عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فان دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح فان وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه فان الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض فالطبيب المريض قلما يلتفت الى علاجه فلهذا صار الداء عضالا والمرض مزمنا واندرس هذا العلم وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراآت فهذه علامات أصول الأمراض وأما علامات عودها الى الصحة

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم فوضع نفنه وقال لسودة الطخي وجهها فلطخت بها وجهي فضحك النبي صلى الله عليه وسلم فمر عمر رضي الله عنه على الباب فنادى يا عبد الله يا عبد الله فظن النبي صلى الله عليه وسلم انه سيدخل فقال قوما فاغسلا وجهكما فقالت عائشة رضي الله عنها فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياه ووصف بعضهم ابن طاوس فقال كان مع الصبي صبيا ومع الكهل كهلا وكان فيه مزاحة اذا خلا (وروى) معاوية بن عبد الكريم قال كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين وكان يقول ونمزح

بعد المعالجة فهو أن ينظر فى العلة التى يعالجها فان كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وانما علاجه ببذل المال وانفاقه ولكنه قد يبذل المال الى حد يصير به مبذرا فيكون التبذير أيضا داء فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضا داء بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفى غاية البعد عن الطرفين فان أردت ان تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذى يوجبه الخلق المحذور فان كان أسهل عليك وألذ من الذى يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له مثل أن يكون امساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم ان الغالب عليك خلق البخل فزد فى المواظبة على البذل فان صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الامساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع الى المواظبة على الامساك فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الافعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات الى المال فلا تميل الى بذله ولا الى امساكه بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه الا امساكه لحاجة أو بذله لحاجة محتاج ولا يترجح عندك البذل على الامساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليما عن هذا المقام خاصة ويجب أن يكون سليما عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشئ مما يتعلق بالدنيا حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة اليها ولا متشوقة الى أسبابها فعند ذلك ترجع الى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة فى زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ولما كان الوسط الحقيقى بين الطرفين فى غاية الغموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم فى الدنيا جاز على مثل هذا الصراط فى الآخرة وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم أعنى الوسط حتى لا يميل الى أحد الجانبين فيكون قلبه متعلقا بالجانب الذى مال اليه ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وان كان مثل البرق قال الله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا أى الذين كان قربهم الى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى فى كل يوم سبع عشرة مرة فى قوله اهدنا الصراط المستقيم اذ وجب قراءة الفاتحة فى كل ركعة فقد روى أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال قد قلت يا رسول الله شيبتنى هود فلم قلت ذلك فقال عليه السلام لقوله تعالى فاستقم كما أمرت فالاستقامة على سواء السبيل فى غاية الغموض ولكن ينبغى أن يجتهد الانسان فى القرب من الاستقامة ان لم يقدر على حقيقتها فكل من أراد النجاة فلا نجاة له الا بالعمل الصالح ولا تصدر الاعمال الصالحة الا عن الأخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه وليعددها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين

* (بيان الطريق الذى يعرف به الانسان عيوب نفسه) *

اعلم أن الله عز وجل اذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عين نفسه فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق (الأول) أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه فى نفسه ويتبع اشارته فى مجاهدته وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه وهذا قد عز فى هذا الزمان وجوده (الثانى) أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله فما كرهه من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين كان عمر رضى الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الى عيوبى وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له ما الذى بلغك عنى مما تكرهه فاستعفى فألح عليه فقال بلغنى انك جمعت بين ادامين على مائدة وان لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل قال وهل بلغك غير هذا قال لا فقال أما هذان فقد كفيتهما وكان يسأل حذيفة ويقول له

عنده وبما زحنا وكا نخرج من عنده ونحن نضحك وكا اذا دخلنا نعشى الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكى فهذه الاخبار والآثار دالة على حسن لين الجانب وصحة حال الصوفية وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من المداعبة فى الربط ويتزلون مع الناس على حسب طباعهم لنظرهم الى سعة رحمة الله فاذا خلوا وفقوا موقف الرجال واكتسوا ملابس الاعمال والاحوال ولا يقف فى هذا المعنى على حد الاعتدال الا صوفى قاهر للنفس عالم بأخلاقها وطباعها سائس لها بوفور العلم حتى يقف فى ذلك على صراط الاعتدال بين الافراط والتفريط ولا

أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين فهل ترى على شيأ من آثار النفاق فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضى الله عنه فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصبا كان أقل اعجابا وأعظم اتهاما لنفسه الا أن هذا أيضا قد عز فقل فى الاصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب فلا تخلو فى أصدقائك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبا أو عن مداهن يخفى عنك بعض عيوبك ولهذا كان داود الطائى قد اعتزل الناس فقيل له لم لا تخالط الناس فقال وماذا أصنع باقوام يخفون عنى عيوبى فكانت شهوة ذوى الدين ان يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم وقد آل الأمر فى أمثالنا الى أن أبغض الخلق الينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الايمان فان الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشتغلنا بازالة العقرب وابعادها وقتلها وانما نكايتها على البدن وبدوم ألمها يوما فيادونه ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبدا أو آلافا من السنين ثم انا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بازالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التى أثمرتها كثرة الذنوب وأصل كل ذلك ضعف الايمان فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله (الطريق الثالث) أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فان عين السخط تبدى المساوى ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه الا ان الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فان مساويه لا بد وان تنتشر على ألسنتهم (الطريق الرابع) أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها اليه فان المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم ان الطباع متقاربة فى اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شئ منه فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب * قيل لعيسى عليه السلام من أدبك قال ما أدبنى أحد رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته وهذا كله حيل من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناصحا فى الدين فارغا من تهذيب نفسه مشتغلا بتهذيب عباد الله تعالى ناصحا لهم فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذى يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذى هو بصدده

(بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على ان الطريق فى معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وان مادة أمراضها هى اتباع الشهوات)

اعلم ان ما ذكرناه ان تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين فان عجزت عن ذلك فلا ينبغى أن يفوتك التصديق والايمان على سبيل التلقى والتقليد لمن يستحق التقليد فان للايمان درجة كما أن للعلم درجة والعلم يحصل بعد الايمان وهو وراءه قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فمن صدق بان مخالفة الشهوات هى الطريق الى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا واذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى والذى يقتضى الايمان بهذا الأمر فى القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر قال الله تعالى ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى وقال تعالى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى قيل نزع منها محبة الشهوات وقال صلى الله عليه وسلم (١) المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه

(١) حديث المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه الحديث أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق

يصلح الاكثار من ذلك للمريدين المبتدئين لقلة علمهم ومعرفتهم بالنفس وتعديهم حد الاعتدال فللنفس فى هذه المواطن نهضات ووثبات تجر الى الفساد وتجنح الى العناد فالنزول الى طباع الناس يحسن بمن صعد عنهم وترقى لعلو حاله ومقامه فينزل اليهم والى طباعهم حين ينزل بالعلم فاما من لم يصعد بصفاء حاله عنهم وفيه بقية مزح من طباعهم ونفوسهم الجامحة الامارة بالسوء اذا دخلت فى هذه المداخل أخذت النفس حظها واغتنمت ما رأيها واستروحت الى الرخصة والنزول الى الرخصة يحسن لمن يركب العزيمة غالب أوقاته وليس ذلك شأن المبتدئ فللصوفية العلماء فيما ذكرناه

يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها وروى أن الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فان القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة وقال عيسى عليه السلام طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد (١) مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر قيل يارسول الله وما الجهاد الأكبر قال جهاد النفس وقال صلى الله عليه وسلم (٢) المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم (٣) كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله تعالى اذا تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضا الا أن يغفر الله تعالى ويستر وقال سفيان الثوري ما عالجت شيأ أشد علي من نفسي مرة لي ومرة علي وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كما لي بك بين الجنة والنار تحبسين يا نفس ألا تستحيين وقال الحسن ما الدابة الجموح باحوج الى اللجام الشديد من نفسك وقال يحيى بن معاذ الرازي جاهد نفسك بأسياف الرياضة والرياضة على أربعة أوجه القوت من الطعام والغمض من المنام والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ومن قلة المنام صفو الارادات ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ومن احتمال الأذى البلوغ الى الغايات وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى واذا تحركت من النفس ارادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت عليها سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام وضربتها بايدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام فتأمن من بوائقها من بين سائر الانام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفاره في الميدان وكالملك المتنزه في البستان وقال أيضا أعداء الانسان ثلاثة دنياه وشيطانه ونفسه فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ومن الشيطان بمخالفته ومن النفس بترك الشهوات وقال بعض الحكماء من استولت عليه النفس صار أسيرا في حب شهواتها محصورا في سجن هواها مقهورا مغلولا زمامه في يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد وقال جعفر بن حميد أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك الا بترك النعيم وقال أبو يحيى الوراق من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات وقال وهيب بن الورد ما زاد على الخبز فهو شهوة وقال أيضا من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل ويروى ان امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفا من عظماء مملكته سبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له ان الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيدا وذلك جزاء المفسدين وان الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وقال الجنيد أرقت ليلة فقمت الى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها فأردت أن أنام فلم أقدر فجلست فلم أطق الجلوس فخرجت فاذا رجل ماثل في عباءة مطروح على الطريق فلما أحس بي قال يا أبا القاسم الى الساعة فقلت يا سيدي من غير موعد فقال بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لي قلبك فقلت قد فعل فما حاجتك قال فتى يصيبه داء النفس دواءها فقلت اذا خالفت النفس هواها فأقبل على نفسه فقال اسمعي فقد أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه الا من الجنيد فها قد سمعتيه ثم انصرف وما عرفته وقال يزيد الرقاشي اليكم عني الماء البارد في الدنيا لعلي لا أحرمه في الآخرة وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عظني قال اذا اشتهيت الصمت قال فتى أصمت قال

من حديث أنس بسند ضعيف (١) حديث مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر البيهقي في الزهد وقد تقدم في شرح عجائب القلب (٢) حديث المجاهد من جاهد نفسه ت في أثناء حديث وصححه وه من حديث فضالة بن عبيد (٣) حديث كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله الحديث لم أجده

ترويح يعلمون حاجة القلب الى ذلك والشيء اذا رضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة ومعيار مقدار الحاجة في ذلك علم غامض لا يسلم لكل أحد (قال) سعيد بن العاص لابنه اقتصد في مزاحك فالافراط فيه يذهب بالبهاء ويجزئ عليك السفهاء وتركه يغيظ المؤانسين ويوحش المخالطين قال بعضهم المزاح مسلبة للبهاء مقطعة للاخاء وكما يصعب معرفة الاعتدال في ذلك يصعب معرفة الاعتدال في الضحك والضحك من خصائص الانسان ويميزه عن جنس الحيوان ولا يكون الضحك الا عن سابقة تعجب والتعجب يستدعي الفكر والفكر شرف الانسان وخاصيته ومعرفة

اذا اشتهيت الكلام وقال علي رضي الله عنه من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فاذا رأى الشئ يشتهيه قال لنفسه اصبري فوالله ما أمنعك الا من كرامتك على فاذا قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق الى سعادة الآخرة الا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالايمان بهذا واجب وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك لا يدرك الا بما قدمناه وحاصل الرياضة وسرها ان لا تتمتع النفس بشئ مما لا يوجد في القبر الا بقدر الضرورة فيكون مقتصرا من الأكل والنكاح واللباس والمسكن وكل ما هو مضطر اليه على قدر الحاجة والضرورة فانه لو تمتع بشئ منه أنس به وألفه فاذا مات تمنى الرجوع الى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع الى الدنيا الا من لا حظ له في الآخرة بحال ولا خلاص منه الا بأن يكون القلب مشغولا بمعرفة الله وحبه والتفكر فيه والانقطاع اليه ولا قوة على ذلك الا بالله ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه والناس فيه أربعة رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت الى الدنيا الا في ضرورات المعيشة فهو من الصديقين ولا ينتهي الى هذه الرتبة الا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة الثاني رجل استغرقت الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه الا من حيث حديث النفس حيث يذكره باللسان لا بالقلب فهذا من الهالكين والثالث رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لا بد له من ورود النار الا أنه ينجو منها سريعا بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه والرابع رجل اشتغل بهما جميعا لكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمكنه من صميم فؤاده وان كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه اللهم انا نعوذ بك من خزيك فانك أنت المعاذ وربما يقول القائل ان التنعم بالمباح مباح فكيف يكون التنعم سبب البعد من الله عز وجل وهذا خيال ضعيف بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب احباط كل حسنة والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضا من الدنيا وهو سبب البعد وسيأتي ذلك في كتاب ذم الدنيا وقد قال ابراهيم الخواص كنت مرة في جبل اللكام فرأيت رمانا فاشتهيته فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركتها فرأيت رجلا مطروحا وقد اجتمعت عليه الزنابير فقلت السلام عليك فقال وعليك السلام يا ابراهيم فقلت كيف عرفتني فقال من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شئ فقلت أرى لك حالا مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير فقال وأرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فان لدغ الرمان يجد الانسان ألمه في الآخرة ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا فتركته ومضيت وقال الدري أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسي أن اغمس خبزة في دبس فما أطعمتها فاذا لا يمكن اصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح فان النفس اذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول فحقه أن يلزمه السكوت الا عن ذكر الله والا عن المهمات في الدين حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم الا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة ومهما اعتادت العين رمي البصر الى كل شئ جميل لم تتحفظ عن النظر الى ما لا يحل وكذلك سائر الشهوات لأن الذي يشتهي به الحلال هو بعينه الذي يشتهي به الحرام فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فان لم يعودها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته فهذه احدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه وهو أن النفس تفرح بالتنعم في الدنيا وتركن اليها وتطمئن اليها أشرا وبطرا حتى تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة وهذا هو موت القلب قال الله تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وقال تعالى وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع وقال تعالى اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد الآية وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة فأولوا الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر وجربوها

الاعتدال فيه أيضا شأن من ترسخ قدمه في العلم ولهذا قيل اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب وقيل وكثرة الضحك من الرعونة (وروى) عن عيسى عليه السلام انه قال ان الله تعالى يبغض الضحاك من غير عجب المشاء في غير ارب وذكر فرق بين المداعبة والمزاح فقيل المداعبة مالا يغضب جده والمزاح ما يغضب جده وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله الفهقهة في الصلاة من الذنب وحكم ببطلان الوضوء بها وقال يقوم الاثم مقام خروج الخارج فالاعتدال في المزاح والضحك لا يتأتى الا اذا خلص وخرج من مضيق الخوف والقبض والهيبة فانه يتقوم بكل

في حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ففطموها عن ملاذها وعودوها الصبر عن شهواتها حلالها وحرامها وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذب فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا الى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أثر الشهوات ورقها والانس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته وفعلوا بها ما يفعل بالبازي اذا قصد تأديبه ونقله من التوثب والاستيحاش الى الانقياد والتأديب فانه يحبس أولا في بيت مظلم وتخاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جو الهواء وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال ثم يرفق به باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه فاذا دعاه أجابه ومهما سمع صوته رجع اليه فكذلك النفس لا تألف بها ولا تأنس بذكره الا اذا فطمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أولا ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات ثم عودت الثناء والذكر والدعاء ثانيا في الخلوة حتى يغلب عليها الانس بذكر الله عز وجل عوضا عن الانس بالدنيا وسائر الشهوات وذلك يثقل على المريد في البداية ثم يتنعم به في النهاية كالصبي يفطم عن الثدي وهو شديد عليه اذ كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام ويشتد نفوره عن الطعام الذي يقدم اليه بدلا عن اللبن ولكنه اذا منع اللبن رأسا يوما فيوما وعظم تعبه في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفا ثم يصير له طبعا فلو رد بعد ذلك الى الثدي لم يرجع اليه فيهجر الثدي ويعاف اللبن ويألف الطعام وكذلك الدابة في الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب فتحمل على ذلك قهرا وتمنع عن السراج الذي ألفته بالسلاسل والقيود أولا ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد فكذلك تؤدب النفس كما يؤدب الطير والدواب وتأديبها بأن تمنع من النظر والانس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزايلها بالموت اذ قيل له أحب ما أحببت فانك مفارقه فاذا علم انه من أحب شيء يلزمه فراقه ويشق لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى فان ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه وكل ذلك يتم بالصبر أولا أياما قلائل فان العمر قليل بالاضافة الى مدة حياة الآخرة ومامن عاقل الا وهو راض باحتمال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيرها شهرا ليتنعم به سنة أو دهرا وكل العمر بالاضافة الى الابد أقل من الشهر بالاضافة الى عمر الدنيا فلا بد من الصبر والمجاهدة فعند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات الكرى كما قاله علي رضي الله عنه وطريق المجاهدة والرياضة لكل انسان تختلف بحسب اختلاف أحواله والأصل فيه أن يترك كل واحد مابه فرحه من أسباب الدنيا فالذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بالعز في القضاء والولاية أو بكثرة الاتباع في التدريس والافادة فينبغي أن يترك أولا مابه فرحه فانه ان منع عن شيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها وذلك مهلك في حقه ثم اذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل الا بذكر الله تعالى والفكر فيه وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر فان لكل وسوسة سببا ولا تزول الا بقطع ذلك السبب والعلاقة وليلازم ذلك بقية العمر فليس للمجاهد آخر الا الموت

﴿ بيان علامات حسن الخلق ﴾

اعلم أن كل انسان جاهل بعيوب نفسه فاذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه قد هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد من ايضاح علامة حسن الخلق فان حسن الخلق هو الايمان وسوء الخلق هو النفاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق * قال الله تعالى * قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون الى قوله أولئك هم الوارثون وقال عز وجل التائبون العابدون الحامدون الى قوله وبشر المؤمنين وقال عز وجل انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الى قوله أولئك

مضيق من هذه المضايق بعض التقويم فيعتدل الحال فيه ويستقيم فالبسط والرجاء ينشئان المزاح والضحك والخوف والقبض يحكمان فيه بالعدل * ومن أخلاق الصوفية ترك التكلف وذلك ان التكلف تصنع وتعمل وتمايل على النفس لاجل الناس وذلك يباين حال الصوفية وفي بعضه خفي منازعة للاقدار وعدم الرضا بما قسم الجبار ويقال التصوف ترك التكلف ويقال التكلف تخلف وهو تخلف عن شأو الصادقين (روى) أنس ابن مالك قال شهدت وليمة لرسول الله ما فيها خبز ولا لحم (وروى) عن جابر أنه أتاه ناس من أصحابه فأتاهم

هم المؤمنون حقا وقال تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما الى آخر السورة فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل مافقده وحفظ ماوجده وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها الى محاسن الأخلاق فقال (١) المؤمن يحب لأخيه مايحب لنفسه وقال عليه السلام (٢) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه وقال صلى الله عليه وسلم (٣) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره وقال (٤) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم (٥) أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم أخلاقا وقال صلى الله عليه وسلم (٦) اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقن الحكمة وقال (٧) من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن وقال (٨) لايحل لمؤمن أن يشير الى أخيه بنظرة تؤذيه وقال عليه السلام (٩) لايحل لمسلم أن يروع مسلما وقال صلى الله عليه وسلم (١٠) انما يتجالس المتجالسان بامانة الله عز وجل فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان قليل الكلام كثير العمل قليل الزلل قليل الفضول براوصولا وقورا صبورا شكورا رضيا حليما رفيقا عفيفا شفيقا لاعانا ولا سبابا ولا نماما ولا مغتابا ولا عجولا ولا حقودا ولا بخيلا ولا حسودا بشاشا هشاشا يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق (١١) وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال ان المؤمن همته في الصلاة والصيام والعبادة والمنافق همته في الطعام والشراب كالبهيمة وقال حاتم الأصم المؤمن مشغول بالفكر والعبر والمنافق مشغول بالحرص والأمل والمؤمن آيس من كل أحد الا من الله والمنافق راج كل أحد الا الله والمؤمن آمن من كل أحد الا من الله والمنافق خائف من كل أحد الا من الله والمؤمن يقدم ماله دون دينه والمنافق يقدم دينه دون ماله والمؤمن يحسن ويبكي والمنافق يسيء ويضحك والمؤمن يحب الخلوة والوحدة والمنافق يحب الخلطة والملأ والمؤمن يزرع ويخشى الفساد والمنافق يقلع ويرجو الحصاد والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد وأولى مايمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء ومن شكا من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه فان حسن الخلق احتمال الأذى فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٢) كان يوما يمشي ومعه أنس فأدركه اعرابي

بهذا السياق (١) حديث المؤمن يحب لأخيه مايحب لنفسه الشيخان من حديث أنس لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه (٢) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي هريرة (٣) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذي قبله (٤) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت متفق عليه أيضا من حديثهما وهو بعض الذي قبله (٥) حديث أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا تقدم غير مرة (٦) حديث اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقى الحكمة ه من حديث أبي خلاد بلفظ اذا رأيتم الرجل قد أعطي زهدا في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فانه يلقى الحكمة (٧) حديث من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن أحمد والطبراني وك وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى ورواه طب ك وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة (٨) حديث لايحل لمسلم أن يشير الى أخيه بنظر يؤذيه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة مرسلا وقد تقدم (٩) حديث لايحل لمسلم أن يروع مسلما طب طس من حديث النعمان بن بشير والبزار من حديث ابن عمر واسناده ضعيف (١٠) حديث انما يتجالس المتجالسان بامانة الله الحديث تقدم في آداب الصحبة (١١) حديث سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال ان المؤمن همه في الصلاة والصيام الحديث لم أجد له أصلا (١٢) حديث كان يمشي فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد

بخبز وحل وقال كلوا فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نعم الادام الخل وعن سفيان ابن سلمة قال دخلت على سلمان الفارسي فأخرج الي خبزا وملحا وقال كل لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن يتكلف أحد لاحد لتكلفت لكم والتكلف مذموم في جميع الأشياء كالتكلف بالملبوس للناس من غير نية فيه والتكلف في الكلام وزيادة التملق الذي صار دأب أهل الزمان فما يكاد يسلم من ذلك الا آحاد وافراد وكم من متملق لايعرف أنه تملق ولا يفطن له فقد يتملق الشخص الى حد يخرجه الى صريح النفاق وهو مباين لحال الصوفي (أخبرنا) الشيخ العالم

جذبه

يجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجرانى غليظ الحاشية قال أنس رضى الله عنه حتى نظرت الى عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه فقال يا محمد هب لى من مال الله الذى عندك فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ثم أمر باعطائه ولما أكثرت قريش ايذاءه وضربه قال[1] اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون قيل ان هذا يوم أحد فلذلك أنزل الله تعالى فيه وانك لعلى خلق عظيم ويحكى أن ابراهيم بن أدهم خرج يوما الى بعض البرارى فاستقبله رجل جندى فقال أنت عبد قال نعم فقال له أين العمران فأشار الى المقبرة فقال الجندى انما أردت العمران فقال هو المقبرة فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده الى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر فأخبرهم الجندى ماقال له فقالوا هذا ابراهيم بن أدهم فنزل الجندى عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر اليه فقيل بعد ذلك له لم قلت له أنا عبد فقال انه لم يسألنى عبد من أنت بل قال أنت عبد فقلت نعم لأنى عبد الله فلما ضرب رأسى سألت الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك فقال علمت أنى أوجر على ما نالنى منه فلم أرد أن يكون نصيبى منه الخير ونصيبه منى الشر ودعى أبو عثمان الحيرى الى دعوة وكان الداعى قد أراد تجربته فلما بلغ منزله قال له ليس لى وجه فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيا فقال له يا استاذ ارجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع ثم دعاه الثالثة وقال ارجع على ما يوجب الوقت فرجع فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان ثم جاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك فأكب على رجليه وقال يا أستاذ انما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك فقال ان الذى رأيت منى هو خلق الكلب ان الكلب اذا دعى أجاب واذا زجر انزجر وروى عنه أيضا أنه اجتاز يوما فى سكة فطرحت عليه اجانة رماد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيأ فقيل ألا زبرتهم فقال ان من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب وروى أن على بن موسى الرضا رحمة الله عليه كان لونه يميل الى السواد اذ كانت أمه سوداء وكان بنيسابور حمام على باب داره وكان اذا أراد دخول الحمام فرغ له الحمامى فدخل ذات يوم فأغلق الحمامى الباب ومضى فى بعض حوائجه فتقدم رجل رستاقى الى باب الحمام ففتحه ودخل فنزع ثيابه ودخل فرأى على بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام فقال له قم واحمل الى الماء فقام على بن موسى وامتثل جميع ما كان يأمره به فرجع الحمامى فرأى ثياب الرستاقى وسمع كلامه مع على بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما فلما خرج على بن موسى سأل عن الحمامى فقيل له انه خاف مما جرى فهرب قال لا ينبغى له أن يهرب انما الذنب لمن وضع ماءه عند أمة سوداء وروى أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه وكان له حريف مجوسى يستعمله فى الخياطة فكان اذا خاط له شيأ حمل اليه دراهم زائفة فكان أبو عبد الله يأخذها منه ولا يخبره بذلك ولا يردها عليه فاتفق يوما أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته فأتى المجوسى فلم يجده فدفع الى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زائفا فلما نظر اليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال بئس ما عملت هذا المجوسى يعاملنى بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها فى البئر لئلا يغر بها مسلما وقال يوسف بن اسباط علامة حسن الخلق عشر خصال قلة الخلاف وحسن الانصاف وترك طلب العثرات وتحسين ما يبدو من السيئات والتماس المعذرة واحتمال الأذى والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره وطلاقة الوجه للصغير والكبير ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه * وسئل سهل عن حسن الخلق فقال أدناه احتمال الأذى وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه وقيل للاحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم قيل وما بلغ من حلمه قال بينما هو جالس فى داره اذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات فدهشت الجارية فقال لها لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى وقيل ان

نجرانى غليظ الحاشية الحديث متفق عليه من حديث أنس (١) حديث اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون حب والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث سهل بن سعد وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم

ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال انا أبو نصر التريانى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى ثنا أحمد بن منيع قال ثنا يزيد بن هرون عن محمد ابن مطرف عن حسان بن عطية عن أبى امامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الحياء والحى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق البذاء الفحش وأراد بالبيان ههنا كثرة الكلام والتكلف للناس بزيادة تملق وثناء عليهم واظهار التفصح وذلك ليس من شأن أهل الصدق (وحكى) عن أبى وائل قال مضيت مع صاحب

أو يسا القرنى كان اذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم يا اخوتاه ان كان ولا بد فارمونى بالصغار حتى لا تدموا ساقى فتمنعونى عن الصلاة وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحى وقف وقال ان كان قد بقى فى نفسك شئ فقله كى لا يسمعك بعض سفهاء الحى فيؤذوك وروى أن عليا كرم الله وجهه دعا غلاما فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام اليه فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال بلى قال فما حملك على ترك اجابتى قال أمنت عقوبتك فقال أما مضى فانت حر لوجه الله تعالى وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله يا مرائى فقال يا هذه وجدت اسمى الذى أضل أهل البصرة وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء فقيل له لم تمسكه فقال لا تعلم الحلم عليه فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فاثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق فان من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرنا فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغى أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغى أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة الى أن يبلغ درجة حسن الخلق فانها درجة رفيعة لا ينالها الا المقربون والصديقون

* (بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم) *

اعلم ان الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبى امانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل الى كل ما يمال به اليه فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والوالى له وقد قال الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ولا يحبب اليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها اذا كبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغى أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل فى حضانته وارضاعه الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فاذا وقع عليه نشو الصبى انمجنت طينته من الخبث فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغى أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فانه اذا كان يحتشم ويستحى ويترك بعض الأفعال فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه - تى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحى من شئ دون شئ وهذه هدية من الله تعالى اليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبى المستحى لا ينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغى أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام الا بيمينه وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر الى الطعام قبل غيره وأن لا يحدق النظر اليه ولا الى من يأكل وأن لا يسرع فى الأكل وأن يجيد المضغ وأن لا يوالى بين اللقم ولا يلطخ يده ولا ثوبه وأن يعود الخبز القفار فى بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الادم حتما ويقبح عنده كثرة الأكل بان يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم وبان يذم بين يديه الصبى الذى يكثر الأكل ويمدح عنده الصبى المتأدب القليل الأكل وأن يحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أى طعام كان وان يحبب اليه من الثياب البيض دون الملون والابريسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وان الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه ومهما رأى على صبى ثوبا من ابريسم أو ملون فينبغى أن يستنكره ويذمه ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية واس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه فان الصبى مهما أهمل فى ابتداء نشوه خرج فى الاغلب ردىء الاخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذا فضول وفحش وكياد ومجانة وانما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ثم يشغل فى المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الاخبار وحكايات

لى ثم زوره سلمان فقدم الينا خبز شعير وملحا جريشا فقال صاحبى لو كان فى هذا الملح سعتر كان أطيب فخرج سلمان ورهن مطهرته وأخذ سعترا فلما أكلنا قال صاحبى الحمد لله الذى قنعنا بما رزقنا فقال سلمان لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتى مرهونة وفى هذا من سلمان ترك التكلف قولا وفعلا وفى حديث يونس النبى عليه السلام انه زاره اخوانه فقدم اليهم كسرا من خبز شعير وجزلهم بقلا كان يزرعه ثم قال لولا ان الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم قال بعضهم اذا قصدت للزيارة فقدم ما حضر واذا استزرت فلا تبق ولا تذر (وروى) الزبير

الأبرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون ان ذلك من الظرف ورقة الطبع فان ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذر الفساد ثم مهما ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس فان خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما اذا ستره الصبى واجتهد فى اخفائه فان اظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة فعند ذلك ان عاد ثانيا فينبغى أن يعاتب سرا ويعظم الأمر فيه ويقال له اياك ان تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك فى مثل هذا فتفتضح بين الناس ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين فانه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه الا أحيانا والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح وينبغى أن يمنع عن النوم نهارا فانه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم بل يعود الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم وينبغى أن يمنع من كل ما يفعله فى خفية فانه لا يخفيه الا وهو يعتقد انه قبيح فاذا ترك تعود فعل القبيح ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشى ولا يرخى يديه بل يضمهما الى صدره ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشئ مما يملكه والداه أو بشئ من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته بل يعود التواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيأ بداله حشمة ان كان من أولاد المحتشمين بل يعلم أن الرفعة فى الاعطاء لا فى الاخذ وان الاخذ لؤم وخسة ودناءة وان كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وان ذلك من دأب الكلب فانه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها وبالجملة يقبح الى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب فان آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الاكابر أيضا وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فان ذلك دليل الكسل ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وانه فعل أبناء اللئام ويمنع اليمين رأسا صادقا كان أو كاذبا حتى لا يعتاد ذلك فى الصغر ويمنع أن يبتدئ بالكلام ويعود أن لا يتكلم الا جوابا وبقدر السؤال وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجرى على لسانه شئ من ذلك فان ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء وينبغى اذا ضرب المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال وان كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب فى اللعب فان منع الصبى من اللعب وارهاقه الى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبى وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللعب بين أيديهم ومهما بلغ سن التمييز فينبغى أن لا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ويعلم كل ما يحتاج اليه من حدود الشرع ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش وكل ما يغلب على الصبيان فاذا وقع نشوه كذلك فى الصبا فهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور فيذكر له أن الأطعمة أدوية وانما المقصود منها أن يقوى الانسان بها على طاعة الله عز وجل وان الدنيا كلها لا أصل لها اذ لا بقاء لها

ابن العوام قال نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما اللهم اغفر للذين يدعون لأموات أمتى ولا يتكلفون ألا انى برىء من التكلف وصالحو أمتى وروى أن عمر رضى الله عنه قرأ قوله تعالى فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا ثم قال هذا كله قد عرفناه فما الأب قال وبيده عمر عصاه فضرب بها الارض ثم قال هذا لعمر الله هو التكلف خذوا أيها الناس ما بين لكم منه فما عرفتم العمل به ومن لم تعرفوا فكلوا علمه الى الله * ومن أخلاق الصوفية الايثار من غير اقتدار وترك الادخار وذلك ان الصوفى يرى خزائن فضل الحق فهو بمثابة من

وان الموت يقطع نعيمها وانها دار ممر لا دار مقر وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر وان الموت منتظر فى كل ساعة وان الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه فى الجنان فاذا كان النشو صالحا كان هذا الكلام عند البالوغ واقعا مؤثرا ناجعا ثابت فى قلبه كما يثبت النقش فى الحجر وان وقع النشو بخلاف ذلك حتى ألف الصبى اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس فأوائل الامور هى التى ينبغى أن تراعى فان الصبى بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وانما أبواه يميلان به الى أحد الجانبين قال صلى الله عليه وسلم (١) كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه قال سهل بن عبد الله التسترى كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فانظر الى صلاة خالى محمد بن سوار فقال لى يوما ألا تذكر الله الذى خلقك فقلت كيف أذكره قال قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك الله معى الله ناظر الى الله شاهدى فقلت ذلك ليالى ثم أعلمته فقال قل فى كل ليلة سبع مرات فقلت ذلك ثم أعلمته فقال قل ذلك كل ليلة احدى عشر مرة فقلته فوقع فى قلبى حلاوته فلما كان بعد سنة قال لى خالى احفظ ما علمتك ودم عليه الى أن تدخل القبر فانه ينفعك فى الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة فى سرى ثم قال لى خالى يوما يا سهل من كان الله معه وناظرا اليه وشاهده أيعصيه اياك والمعصية فكنت أخلو بنفسى فيعثوا بى الى المكتب فقلت انى لأخشى أن يتفرق على همى ولكن شارطوا المعلم انى أذهب اليه ساعة فأتعلم ثم أرجع فمضيت الى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين وكنت أصوم الدهر وقوتى من خبز الشعير اثنى عشرة سنة فوقعت لى مسئلة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلى أن يبعثونى الى أهل البصرة لأسأل عنها فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عنى شيأ فخرجت الى عبادان الى رجل يعرف بأبى حبيب حمزة بن أبى عبد الله العبادانى فسألته عنها فأجابنى فأقمت عنده مدة أتتنع بكلامه وأتأدب بآدابه ثم رجعت الى تستر فجعلت قوتى اقتصادا على أن يشترى لى بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لى فافطر عند السحر على أوقية كل ليلة بحتا بغير ملح ولا أدم فكان يكفينى ذلك الدرهم سنة ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ثم أفطر ليلة ثم خمسا ثم سبعا ثم خمسا وعشرين ليلة فكنت على ذلك عشرين سنة ثم خرجت أسيح فى الأرض سنين ثم رجعت الى تستر وكنت أقوم الليل كله ماشاء الله تعالى قال أحمد فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى

(بيان شروط الارادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد فى سلوك سبيل الرياضة)

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا لحرث الآخرة مشتاقا اليها سالكا سبلها مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها فان من كانت عنده خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة فى الخرزة وقويت ارادته فى بيعها بالجوهرة ومن ليس مريدا لحرث الآخرة ولا طالبا للقاء الله تعالى فهو لعدم ايمانه بالله واليوم الآخر ولست أعنى بالايمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتى الشهادة من غير صدق واخلاص فان ذلك يضاهى قول من صدق بان الجوهرة خير من الخرزة الا انه لا يدرى من الجوهرة الا لفظها وأما حقيقتها فلا ومثل هذا المصدق اذا ألف الخرزة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه الى الجوهرة فاذا المانع من الوصول عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الارادة والمانع من الارادة عدم الايمان وسبب عدم الايمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى الهادين الى طريقه والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها فالخلق غافلون قد انهمكوا فى شهواتهم وغاصوا فى رقدتهم وليس فى علماء الدين من ينبههم فان تنبه منهم متنبه عجز عن سلوك الطريق لجهله فان طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين الى الهوى عادلين عن نهج الطريق فصار ضعف الارادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه ومهما كان

(١) حديث كل مولود يولد على الفطرة الحديث متفق عليه من حديث أبى

هو مقيم على شاطئ بحر والمقيم على شاطئ البحر لا يدخر الماء فى قربته وراويته (روى) أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من يوم الا له ملكان ينادیان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممكا تلفا وروى أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيأ لغد وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر فأطعم خادمه طيرا فلما كان الغد أتاه به فقال رسول الله ألم أنهك ان تخبأ شيأ لغد فان الله تعالى يأتى برزق كل غد وروى أبو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على بلال وعنده صبرة من

المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتعطلت الطرق لا محالة فان تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له ارادة فى حرث الآخرة وتجارتها فينبغى أن يعلم أن له شروطا لابد من تقديمها فى بداية الارادة وله معتصم لابد من التمسك به وله حصن لابد من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه وعليه وظائف لابد من ملازمتها فى وقت سلوك الطريق * أما الشروط التى لابد من تقديمها فى الارادة فهى رفع السد والحجاب الذى بينه وبين الحق فان حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق قال الله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون والسد بين المريد وبين الحق أربعة المال والجاه والتقليد والمعصية وانما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له الا قدر الضرورة فما دام يبقى له درهم يلتفت اليه قلبه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل وانما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وايثار الخمول والهرب من أسباب الذكر وتعاطى أعمال تنفر قلوب الخلق عنه وانما يرتفع حجاب التقليد بان يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله لا اله الا الله محمد رسول الله تصديق ايمان ويحرص فى تحقيق صدقه بان يرفع كل معبود له سوى الله تعالى وأعظم معبود له الهوى حتى اذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الامر فى معنى اعتقاده الذى تلقفه تقليدا فينبغى أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة فان غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق فى نفسه متسع لغيره صار ذلك قيدا له وحجابا اذ ليس من شرط المريد الانتماء الى مذهب معين أصلا وأما المعصية فهى حجاب ولا يرفعها الا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ما مضى ورد المظالم وارضاء الخصوم فان من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصى الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب فان ترجمة عربية القرآن لابد من تقديمها أولا ثم الترقى منها الى أسرار معانيه فكذلك لابد من تصحيح ظاهر الشريعة أولا وآخر ما تم الترقى الى أغوارها وأسرارها فاذا قدم هذه الشروط الأربعة وتجرد عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحا للصلاة فيحتاج الى امام يقتدى به فكذلك المريد يحتاج الى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ليهديه الى سواء السبيل فان سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان الى طرقه لا محالة فمن سلك سبل البوادى المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها فانها تجف على القرب وان بقيت مدة وأورقت لم تثمر فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره اليه بالكلية ولا يخالفه فى ورده ولا صدره ولا يبقى فى متابعته شيأ ولا يذر وليعلم أن نفعه فى خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه فى صواب نفسه لو أصاب فاذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور * الخلوة والصمت والجوع والسهر وهذا تحصن من القواطع فان مقصود المريد اصلاح قلبه ليشاهد به ربه ويصلح لقربه أما الجوع فانه ينقص دم القلب ويبيضه وفى بياضه نوره ويذيب شحم الفؤاد وفى ذوبانه رقته ورقته مفتاح المكاشفة كما ان قساوته سبب الحجاب ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو فان مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات وقال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم وقال سهل بن عبد الله التسترى ما صار الابدال ابدالا الا بأربع خصال بالجوع والسهر والصمت والاعتزال عن الناس ففائدة الجوع فى تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة وسيأتى بيان وجه التدريج فيه فى كتاب كسر الشهوتين وأما السهر فانه يجلو القلب ويصفيه وينوره فيضاف ذلك الى الصفاء الذى حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرى والمرآة المجلوة فيلوح فيه جمال الحق ويشاهد فيه رفيع الدرجات فى الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتها فتم بذلك رغبته عن الدنيا واقباله على الآخرة والسهر أيضا نتيجة الجوع فان السهر مع الشبع غير ممكن والنوم يقسى القلب ويميته الا اذا كان بقدر الضرورة

تمر فقال ما هذا يا بلال فقال أدخر يا رسول الله قال أما تخشى أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش اقلالا

وروى ان عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم كان يأكل الشجر ويلبس الشعر ويبيت حيث أمسى ولم يكن له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يخبأ شيأ لغد فالصوفى كل خباياه فى خزائن الله لصدق توكله ونقته به فالدنيا للصوفى كدار الغربة ليس له فيها ادخار ولا له منها استكثار

قال عليه السلام لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا (أخبرنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله المالينى قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودى

قال أنا أبو محمد عبد الله السرخسي قال أنا أبو عمران السمرقندي قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي قال أنا محمد بن يوسف عن سفيان عن ابن المنكدر عن جابر قال ماسئل النبي صلى الله عليه وسلم شيأ قط فقال لا قال ابن عيينة اذا لم يكن عنده وعد وبالاسناد عن الدارمي قال أنا يعقوب بن حميد قال أنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخي الزهري قال ان جبريل عليه السلام قال مافى الارض أهل عشيرة من أبيات الا قابلتهم فما وجدت أحدا أشد انفاقا لهذا المال من رسول الله صلى الله عليه وسلم * ومن أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا (قال ذوالنون المصري)

فيكون سبب المكاشفة لاسرار الغيب فقد قيل فى صفة الابدال ان أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة وقال ابراهيم الخواص رحمه الله أجمع رأى سبعين صديقا على ان كثرة النوم من كثرة شرب الماء * وأما الصمت فانه تسهل العزلة ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره فينبغى أن لا يتكلم الا بقدر الضرورة فان الكلام يشغل القلب وشره القلوب الى الكلام عظيم فانه يستروح اليه ويستثقل التجرد للذكر والفكر فيستريح اليه فالصمت يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى * وأما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فانهما دهليز القلب والقلب فى حكم حوض تنصب اليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر وكيف يصح له أن يفتح الماء من الحوض والانهار مفتوحة اليه فيتجدد فى كل حال أكثر مما ينقص فلا بد من ضبط الحواس الا عن قدر الضرورة وليس يتم ذلك الا بالخلوة فى بيت مظلم وان لم يكن له مكان مظلم فليغط رأسه فى جيبه أو يتدثر بكساء أو ازار ففى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية أما ترى ان نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة (١) فقيل له يا أيها المزمل يا أيها المدثر فهذه الاربعة جنة وحصن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق فاذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق وانما سلوكه بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى الا صفات القلب التى سببها الالتفات الى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض والترتيب فى قطعها أن يشتغل بالاسهل فالاسهل وهى تلك الصفات أعنى أسرار العلائق التى قطعها فى أول الارادة وآثارها أعنى المال والجاه وحب الدنيا والالتفات الى الخلق والتشوف الى المعاصى فلا بد أن يخلى الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة وفيه تطول المجاهدة ويختلف ذلك باختلاف الاحوال فرب شخص قد كفى أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة وقد ذكرنا ان طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى فى كل صفة غالبة على نفس المريد كما سبق ذكره فاذا كفى ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق فى قلبه علاقة شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام ويمنعه من تكثير الاوراد الظاهرة بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده وردا واحدا وهو لباب الاوراد وثمرتها أعنى ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلو من ذكر غيره ولا يشغله به مادام قلبه ملتفتا الى علائقه قال الشبلى للحصرى ان كان يخطر بقلبك من الجمعة التى تأتينى فيها الى الجمعة الاخرى شئ غير الله تعالى فحرام عليك أن تأتينى وهذا التجرد لا يحصل الا مع صدق الارادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون فى صورة العاشق المستهتر الذى ليس له الا هم واحد فاذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من يقوم له بقدر يسيره من القوت الحلال فان أصل طريق الدين القوت الحلال وعند ذلك يلقنه ذكرا من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلا الله الله أو سبحان الله سبحان الله أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كانها جارية على اللسان من غير تحريك منه لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الاثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ فى القلب ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ عن كل ماسواه لأن القلب اذا شغل بشئ خلا عن غيره أى شئ كان فاذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود خلا لا محالة عن غيره وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التى تتعلق بالدنيا وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره

(١) حديث بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مدثر فقيل له يا أيها المزمل يا أيها المدثر متفق عليه من حديث جابر جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى الحديث وفيه فأتيت خديجة فقلت دثرونى وصبوا على الماء باردا فدثرونى وصبوا على ماء باردا قال فنزلت يا أيها المدثر وفى رواية فقلت زملونى زملونى ولهما من حديث عائشة فقال زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع

فانه مهما اشتغل بشئ منه ولو فى لحظة خلا قلبه عن الذكر فى تلك اللحظة وكان أيضا نقصانا فليجتهد فى دفع ذلك ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس الى هذه الكلمة جاءته الوساوس من هذه الكلمة وأنهاها ومامعنى قولنا الله ولاى معنى كان الها وكان معبودا ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر ورب ما يرد عليه من وساوس الشيطان ماهو كفر وبدعة ومهما كان كارها لذلك ومتشمرا لاماطته عن القلب لم يضره ذلك وهى منقسمة الى مايعلم قطعا ان الله تعالى منزه عنه ولكن الشيطان يلقى ذلك فى قلبه ويجريه على خاطره فشرطه أن لا يبالى به ويفزع الى ذكر الله تعالى ويبتهل اليه ليدفعه عنه كما قال تعالى واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم وقال تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون والى مايشك فيه فينبغى أن يعرض ذلك على شيخه بل كل مايجد فى قلبه من الأحوال من فترة أو نشاط أو التفات الى علقة أو صدق فى ارادة فينبغى أن يظهر ذلك لشيخه وأن يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحد أتم ان شيخه ينظر فى حاله ويتأمل فى ذكائه وكياسته فلو علم انه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغى أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف فى قلبه من النور ما يكشف له حقيقته وان علم أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده الى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه وينبغى أن يتأنق الشيخ ويتلطف به فان هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها فكم من مريد اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الاباحة وذلك هو الهلاك العظيم ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الافكار فانه قد ركب سفينة الخطر فان سلم كان من ملوك الدين وان أخطأ كان من الهالكين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) عليكم بدين العجائز وهو تارك أصل الايمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير فان الخطر فى العدول عن ذلك كثير ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس فى المريد فان لم يكن ذكيا فطنا متمكنا من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر بل يرده الى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة أو يشغله بخدمة المتجردين للفكر لتشمله بركتهم فان العاجز عن الجهاد فى صف القتال ينبغى أن يسقى القوم ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة فى زمرتهم وتعمه بركتهم وان كان لا يبلغ درجتهم ثم المريد المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الاحوال وما يبدو من أوائل الكرامات ومهما التفت الى شئ من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتورا فى طريقه ووقوفا بل ينبغى أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذى لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه ويدوم على ذلك ورأس ماله الانقطاع عن الخلق الى الحق والخلوة قال بعض السياحين قلت لبعض الابدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق الى التحقيق فقال ان تكون فى الدنيا كأنك عابر طريق وقال مرة قلت له دلنى على عمل أجد قلبى فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لى لا تنظر الى الخلق فان النظر اليهم ظلمة قلت لابد لى من ذلك قال فلا تسمع كلامهم فان كلامهم قسوة قلت لابد لى من ذلك قال فلا تعاملهم فان معاملتهم وحشة قلت أنا بين أظهرهم لابد لى من معاملتهم قال فلا تسكن اليهم فان السكون اليهم هلكة قال قلت هذا العلة قال ياهذا أتنظر الى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام هذا مالا يكون أبدا فاذا منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك الا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره الا بطول المجاهدة فاذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلى له الحق وظهر له من

(١) حديث عليكم بدين العجائز قال ابن طاهر فى كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع اليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثا لمحمد بن عبد الرحمن بن السلمانى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا كان فى آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين أهل البادية والنساء وابن السلمانى له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يتهم بوضعها انتهى وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه حب فى الضعفاء فى ترجمة ابن السلمانى والله أعلم

من قنع استراح من أهل زمانه واستطال على أقرانه وقال بشر ابن الحرث لو لم يكن فى القناعة الا التمتع بالعز لكفى صاحبه وقال بنان الحمال الحر عبد ما طمع والعبد حر ما قنع وقال بعضهم انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص وقال أبو بكر المراغى العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل وقال يحيى بن معاذ من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه (وقال) أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه القناعة سيف لا ينبو (أخبرنا) أبو زرعة عن أبيه أبى الفضل قال أنا أبو القاسم عبد الله بن الحسن

لطائف الله تعالى مالا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلا واذا انكشف للمريد شئ من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظا ونصحا ويتصدى للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة فتدعوه تلك اللذة الى أن يتفكر فى كيفية ايراد تلك المعانى وتحسين الالفاظ المعبرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار وتحسين صنعة الكلام لتميل اليه القلوب والأسماع فربما يخيل اليه الشيطان ان هذا احياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالى وانما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده اليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر فى أقرانه من يكون أحسن كلاما منه وأجزل لفظا وأقدر على استجلاب قلوب العوام فانه يتحرك فى باطنه عقرب الحسد لا محالة ان كان محركه كيد القبول وان كان محركه هو الحق حرصا على دعوة عباد الله تعالى الى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول الحمد لله الذى عضدنى وأيدنى بمن وازرنى على اصلاح عباده كالذى وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا اليد فنه اذ وجده ضائعا وتعين عليه ذلك شرعا فجاء من أعانه عليه فانه يفرح به ولا يحسد من يعينه والغافلون موتى القلوب والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ففى كثرتهم استراح وتناصر فينبغى أن يعظم الفرح بذلك وهذا عزيز الوجود جدا فينبغى أن يكون المريد على حذر منه فانه أعظم حبائل الشيطان فى قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فان ايثار الحياة الدنيا طبع غالب على الانسان ولذلك قال الله تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا ثم بين ان الشر قديم فى الطباع وان ذلك مذكور فى الكتب السالفة فقال ان هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى فهذا منهاج رياضة المريد وترتيبه فى التدريج الى لقاء الله تعالى فأما تفصيل الرياضة فى كل صفة فسيأتى فان أغلب الصفات على الانسان بطنه وفرجه ولسانه أعنى به الشهوات المتعلقة بهائم الغضب الذى هو كالجند لحماية الشهوات ثم مهما أحب الانسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا ولم يتمكن منها الا بالمال والجاه واذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة واذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأسا وتمسك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب ان شاء الله تعالى كتاب فى كسر شهوة البطن والفرج وكتاب فى آفات اللسان وكتاب فى كسر الغضب والحقد والحسد وكتاب فى ذم الدنيا وتفصيل خدعها وكتاب فى كسر حب المال وذم البخل وكتاب فى ذم الرياء وحب الجاه وكتاب فى ذم الكبر والعجب وكتاب فى مواقع الغرور ونذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها ثم غرضنا من ربع المهلكات ان شاء الله تعالى فان ماذكرناه فى الكتاب الاول هو شرح لصفات القلب الذى هو معدن المهلكات والمنجيات وماذكرناه فى الكتاب الثانى هو اشارة كلية الى طريق تهذيب الاخلاق ومعالجة أمراض القلوب أما تفصيلها فانه يأتى فى هذه الكتب ان شاء الله تعالى ثم كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه يتلوه ان شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الارض والسماء وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب

(كتاب كسر الشهوتين وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله المنفرد بالجلال فى كبريائه وتعاليه المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتنزيه القائم بالعدل فيما يحرمه ويقضيه المتطول بالفضل فيما ينعم به ويسديه المتكفل بحفظ عبده فى جميع موارده ومجاريه المنعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يفى بأمانيه فهو الذى يرشده ويهديه وهو الذى يميته ويحييه واذا مرض فهو يشفيه واذا ضعف فهو يقويه وهو الذى يوفقه للطاعة ويرتضيه وهو الذى يطعمه

ويسقيه

الحلال ببغداد قال أنا أبو حفص عمر بن ابراهيم قال حدثنا أبو القاسم البغوى قال حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا أبو سعيد عن صدقة بن الربيع عن عمارة بن غزية عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الأعواد يقول ماقل وكفى خير مما كثر وألهى (وروى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا قانع صبر عليه (وروى أبو هريرة) رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا وقال اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا (وروى جابر) رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه

ويسقيه ويحفظه من الهلاك ويحميه ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجارى الشيطان الذى يناويه ويكسر به شهوة النفس التى تعاديه فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه هذا بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه كل ذلك يمتحنه به ويبتليه فينظر كيف يؤثره على ما يهواه وينتحيه وكيف يحفظ أوامره وينتهى عن نواهيه ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه والصلاة على محمد عبده النبيه ورسوله الوجيه صلاة تزلفه وتحظيه وترفع منزلته وتعليه وعلى الابرار من عترته وأقربيه والاخيار من صحابته وتابعيه (أما بعد) فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار الى دار الذل والافتقار اذ نهيا عن الشجرة فكلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الادواء والآفات اذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق الى المنكوحات ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة فى الجاه والمال اللذين هما وسيلة الى التوسع فى المنكوحات والمطعومات ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ثم يتداعى ذلك الى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ثم يفضى ذلك بصاحبه الى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء وكل ذلك ثمرة اهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء ولو ذل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لأذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ولم ينجر به ذلك الى الانهماك فى الدنيا وايثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا واذا عظمت آفة شهوة البطن الى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيرا منها ووجب ايضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيبا فيها وكذلك شرح شهوة الفرج فانها تابعة لها ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى فى فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائده ثم طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس ثم بيان الرياضة فى ترك الشهوة ثم القول فى شهوة الفرج ثم بيان ما على المريد فى ترك التزويج وفعله ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين

* (بيان فضيلة الجوع وذم الشبع) *

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فان الاجر فى ذلك كاجر المجاهد فى سبيل الله وانه ليس من عمل أحب الى الله من جوع وعطش وقال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم (٢) لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه وقيل يارسول الله (٣) أى الناس أفضل قال من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستر به عورته وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٤) سيد الاعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) البسوا وكلوا واشربوا فى أنصاف البطون فانه جزء من النبوة وقال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم (٦) الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة وقال الحسن أيضا (٧) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعا وتفكرا فى الله سبحانه وأبغضكم عند الله عز وجل يوم القيامة كل نؤوم أكول شروب وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم (٨) كان يجوع من غير عوز أى مختار الذلك

(١) حديث جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش لم أجد له أصلا (٢) حديث ابن عباس لا يدخل ملكوت السموات من ملأ بطنه لم أجد له أيضا (٣) حديث أى الناس أفضل قال من قل طعمه وضحكه ورضى بما يستر عورته يأتى الكلام عليه وعلى ما بعده من الأحاديث (٤) حديث سيد الاعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف (٥) حديث أبى سعيد الخدرى البسوا واشربوا وكلوا فى أنصاف البطون (٦) الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة (٧) حديث الحسن أفضلكم عند الله أطولكم جوعا وتفكرا لم أجد لهذه الأحاديث المتقدمة أصلا (٨) حديث كان يجوع من غير عوز أى مختار لذلك البيهقى فى شعب الايمان من حديث عائشة قالت لو شئنا أن نشبع لشبعنا ولكن محمدا صلى

قال القناعة مال لا ينفد (وروى) عن عمر رضى الله عنه أنه قال كونوا أوعية الكتاب وينابيع الحكمة وعدوا أنفسكم فى الموتى واسألوا الله تعالى الرزق يوما بيوم ولا يضركم أن لا يكثر لكم (وأخبرنا) أبو زرعة طاهر عن أبى الفضل والده قال أنا أبو القاسم اسمعيل بن عبد الله الشاوى قال أنا أحمد بن على الحافظ قال أنا أبو عمرو بن حمدان قال حدثنا الحسن ابن سفيان قال حدثنا عمرو بن مالك البصرى قال حدثنا مروان ابن معاوية قال حدثنا عبد الرحمن ابن أبى سلمة الأنصارى قال أخبرنى سلمة بن عبد الله بن محصن عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح آمنا فى

وقال صلى الله عليه وسلم (١) ان الله تعالى يباهى الملائكة بمن قل مطعمه ومشربه فى الدنيا يقول الله تعالى انظروا الى عبدى ابتليته بالطعام والشراب فى الدنيا فصبر وتركهما اشهدوا يا ملائكتى ما من أكلة يدعها الا أبدلته بها درجات فى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم (٢) لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وان كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه وفى حديث أسامة بن زيد وحديث أبى هريرة (٤) الطويل ذكر فضيلة الجوع اذ قال فيه ان أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه فى الدنيا الاحفياء الاتقياء الذين ان شهدوا لم يعرفوا وان غابوا لم يفتقدوا تعرفهم بقاع الارض وتحف بهم ملائكة السماء نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله عز وجل افترش الناس الفرش الوثيرة وافترشوا الجباه والركب ضيع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم تبكى الارض اذا فقدتهم ويسخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا الخرق شعثا غبرا يراهم الناس فيظنون ان بهم داء وما بهم داء ويقال قد خولطوا فقد ذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقلوبهم الى أمر الله الذى أذهب عنهم الدنيا فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول عقلوا حين ذهبت عقول الناس لهم الشرف فى الآخرة يا أسامة اذا رأيتهم فى بلدة فاعلم أنهم أمان لاهل تلك البلدة ولا يعذب الله قوما هم فيهم الارض بهم فرحة والجبار عنهم راض اتخذهم لنفسك اخوانا عسى أن تنجو بهم وان استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل فانك تدرك بذلك شرف المنازل وتحل مع النبيين وتفرح بقدوم روحك الملائكة ويصلى عليك الجبار * روى الحسن عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال (٥) البسوا الصوف وشمروا وكلوا فى أنصاف البطون تدخلوا فى ملكوت السماء وقال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل وروى ذلك أيضا عن نبينا صلى الله عليه وسلم رواه طاوس (٦) وقيل مكتوب فى التوراة ان الله ليبغض الحبر السمين لان السمن يدل على الغفلة وكثرة الاكل وذلك قبيح خصوصا بالحبر ولاجل ذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه ان الله تعالى يبغض القارئ السمين وفى خبر مرسل (٧) ان الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش وفى الخبر (٨) ان الاكل على الشبع يورث البرص وقال صلى الله عليه وسلم (٩) المؤمن يأكل فى معى واحد والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء أى يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته وذكر المعى كناية عن الشهوة لان

---

(١) حديث ان الله يباهى الملائكة بمن قل مطعمه فى الدنيا الحديث ابن عدى فى الكامل وقد تقدم فى الصيام (٢) حديث لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب الحديث لم أقف له على أصل (٣) حديث ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه الحديث ت من حديث المقدام وقد تقدم (٤) حديث أسامة بن زيد وأبى هريرة أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه الحديث بطوله الخطيب فى الزهد من حديث سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات وفيه حباب بن عبد الله بن جبلة أحد الكذابين وفيه من لا يعرف وهو منقطع أيضا ورواه الحارث بن أبى أسامة من هذا الوجه (٥) حديث الحسن عن أبى هريرة البسوا الصوف وشمروا وكلوا فى أنصاف البطون تدخلوا فى ملكوت السماء أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف (٦) حديث طاوس مرسلا أجيعوا أكبادكم الحديث لم أجد له أيضا (٧) حديث ان الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم الحديث تقدم فى الصيام دون الزيادة التى فى آخره وذكر المصنف هنا انه مرسل والمرسل رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان من حديث على بن الحسين دون الزيادة أيضا (٨) حديث ان الأكل على الشبع يورث البرص لم أجد له أصلا (٩) حديث المؤمن يأكل فى معى واحد

شربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا (وقيل) فى تفسير قوله تعالى فلنحيينه حياة طيبة هى القناعة فالصوفى قوام على نفسه بالقسط عالم بطبائع النفس وجدوى القناعة والتوصل الى استخراج ذلك من النفس لعلمه بدائها ودوائها (وقال أبو سليمان) الدارانى القناعة من الرضا كالورع من الزهد * ومن أخلاق الصوفية ترك المراء والمجادلة والغضب الا بحق واعتماد الرفق والحلم وذلك ان النفوس تثب وتظهر فى المماراة والصوفى كمار أى نفس صاحبه ظاهرة قابلها بالقلب واذا قوبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة وانطفأت الفتنة قال الله

الشهوة هى التى تقبل الطعام وتاخذه كما ياخذه المعى وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن وروى الحسن عن عائشة رضى الله عنها انها قالت (١) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أديموا قرع باب الجنة يفتح لكم فقلت كيف نديم قرع باب الجنة قال بالجوع والظما وروى (٢) أن أباجحيفة تحشأ فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له اقصر من جشائك فان أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا فى الدنيا وكانت عائشة رضى الله عنها تقول (٣) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدى وأقول نفسى لك الفداء لو تبلغ من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة اخوانى من أولى العزم من الرسل فصبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحى ان ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غدا دونهم فالصبر أياما يسيرة أحب الى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة وما من شئ أحب الى من اللحوق باصحابى واخوانى قالت عائشة فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله اليه وعن أنس قال (٤) جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الكسرة قالت قرص خبزته ولم تطب نفسى حتى أتيتك منه بهذه الكسرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما انه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام وقال أبو هريرة (٥) ما أشبع النبى صلى الله عليه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم (٦) ان أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة وان أبغض الناس الى الله المتخمون الملاى وما ترك عبدا كلة يشتهيها الا كانت له درجة فى الجنة (وأما الآثار) فقد قال عمر رضى الله عنه اياكم والبطنة فانها تثقل فى الحياة تتن فى الممات وقال شقيق البلخى العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلتها المجاعة وقال لقمان لابنه يا بنى اذا امتلات المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه أى شئ تخافين أتخافين أن تجوعى لا تخافى ذلك أنت أهون على الله من ذلك انما يجوع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكان كهمس يقول الهى أجعتنى وأعريتنى وفى ظلم الليالى بلا مصباح أجلستنى فبأى وسيلة بلغتنى وكان فتح الموصلى اذا اشتد مرضه وجوعه يقول الهى أبليتنى بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأى عمل أؤدى شكر ما أنعمت به على وقال مالك بن دينار قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس فقال لى يا أبا يحيى طوبى لمن أمسى وأصبح جائعا وهو عن الله راض وكان الفضيل بن عياض يقول الهى أجعتنى وأجعت عيالى وتركتنى فى ظلم الليالى بلا مصباح وانما تفعل ذلك بأوليائك فبأى منزلة نلت هذا منك وقال يحيى بن معاذ جوع الراغبين منية وجوع التائبين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة وفى التوراة اتق الله واذا شبعت فاذكر الجياع وقال أبو سليمان لأن أترك لقمة من عشائى أحب الى من قيام ليلة الى

والكافر يأكل فى سبعة أمعاء متفق عليه من حديث عمر وحديث أبى هريرة (١) حديث الحسن عن عائشة أديموا قرع باب الجنة الحديث لم أجده أيضا (٢) حديث ان أباجحيفة تحشأ فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اقصر من جشائك فان أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا فى الدنيا البيهقى فى الشعب من حديث أبى جحيفة وأصله عند ت وحسنه و ه من حديث ابن عمر تحشأ رجل الحديث لم يذكر أباجحيفة (٣) حديث عائشة انه صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ شبعا قط وربما بكيت رحمة له لما أرى به من الجوع الحديث لم أجده أيضا (٧) (٤) حديث أنس جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث الحارث بن أبى أسامة فى مسنده بسند ضعيف (٥) حديث أبى هريرة ما شبع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا أخرجه م وقد تقدم (٦) حديث ان أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة طب وأبو نعيم فى الحلية

---

(٧) وجد بهامش العراقى ما يأتى قلت : بل له أصل أخرجه أبو موسى المدينى مطولا فى كتاب استعلاء الموت وأورد منه عياض فى الشفاء اه

تعالى تعاملا لعباده ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم ولا ينزع المراء الا من نفوس زكية انتزع منها الغل ووجود الغل فى النفوس مراء الباطن واذا انتزع المراء من الباطن ذهب من الظاهر أيضا وقد يكون الغل فى النفس مع من يشاكله ويماثله لوجود المنافسة ومن استقصى فى تذويب النفس بنار الزهادة فى الدنيا يمحى الغل من باطنه ولا تبقى عنده منافسة دنيوية فى حظوظ عاجلة من جاه ومال قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة المتقين ونزعنا ما فى صدورهم من غل قال أبو حفص كيف يبقى الغل فى قلوب ائتلفت بالله واتفقت على محبته

الصبح وقال أيضا الجوع عند الله فى خزائنه لا يعطيه الا من أحبه وكان سهل بن عبد الله التسترى يطوى نيفا وعشرين يوما لا يأكل وكان يكفيه لطعامه فى السنة درهم وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال لا بوا فى القيامة عمل برأ فضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى أكله وقال لم ير الا كياس شيأ أنفع من الجوع للدين والدنيا وقال لا أعلم شفيأ أضر على طلاب الآخرة من الأكل وقال وضعت الحكمة والعلم فى الجوع ووضعت المعصية والجهل فى الشبع وقال ما عبد الله بشئ أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال وقد جاء فى الحديث (١) ثلث للطعام فمن زاد عليه فانما يأكل من حسناته وسئل عن الزيادة فقال لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب اليه من الأكل ويكون اذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين فاذا كان ذلك وجد الزيادة وقال ما صار الابدال ابدالا الا باخماص البطون والسهر والصمت والخلوة وقال رأس كل برنزل من السماء الى الأرض الجوع ورأس كل فجور بينهما الشبع وقال من جوع نفسه انقطعت عنه الوساوس وقال اقبال الله عز وجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء الا من شاء الله وقال اعلموا ان هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة الا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد وقال ما مر على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روى فسلم من المعصية وان شكر الله تعالى فكيف الشبع من الطعام وسئل حكيم بأى قيد أقيد نفسى قال قيدها بالجوع والعطش وذللها باحمال الذكر وترك العز وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة واكسرها بترك زى القراء عن ظاهرها وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها واصحبها بخلاف هواها وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى أن الله تعالى ما صافى أحدا الا بالجوع ولا مشوا على الماء الا به ولا طويت لهم الارض الا بالجوع ولا تولاهم الله تعالى الا بالجوع وقال أبو طالب المكى مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار انما حسن صوته خفته ورقته ولأنه أجوف غير ممتلئ وكذلك الجوف اذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى ثلاثة يحبهم الله تعالى رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة وروى أن عيسى عليه السلام مكث يناجى ربه ستين صباحا لم يأكل خطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة فاذا رغيف موضوع بين يديه فجلس يبكى على فقد المناجاة واذا شيخ قد أظله فقال له عيسى بارك الله فيك يا ولى الله ادع الله تعالى لى فانى كنت فى حالة تخطر ببالى الخبز فانقطعت عنى فقال الشيخ اللهم ان كنت تعلم أن الخبز خطر ببالى منذ عرفتك فلا تغفر لى بل كان اذا حضر لى شئ أكلته من غير فكر وخاطر وروى أن موسى عليه السلام لما قربه الله عز وجل نجيا كان قد ترك الأكل أربعين يوما ثلاثين ثم عشرا على ما ورد به القرآن لأنه أمسك بغير تبييت يوما فزيد عشرة لأجل ذلك

(بيان فوائد الجوع وآفات الشبع)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فان الأجر فى ذلك ولعلك تقول هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو وما سببه وليس فيه الا ايلام المعدة ومقاساة الأذى فان كان كذلك فينبغى أن يعظم الأجر فى كل ما يتأذى به الانسان من ضرب لنفسه وقطعه للحمه وتناوله الأشياء المكروهة وما يجرى مجراه فاعلم أن هذا يضاهى قول من شرب دواء فانتفع به وظن ان منفعته لكراهة الدواء ومرارته فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق وهو غلط بل نفعه فى خاصية فى الدواء وليس لكونه مرا وانما يقف على تلك الخاصية الاطباء فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع الا سمرة العلماء ومن جوع نفسه مصد قالما جاء فى الشرع من مدح الجوع انتفع به وان لم يعرف علة المنفعة كما أن من شرب الدواء انتفع به وان لم يعلم وجه كونه نافعا ولكا نشرح لك ذلك ان أردت أن ترتقى من درجة الايمان الى درجة العلم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فنقول فى الجوع عشر فوائد (الفائدة الأولى) صفاء القلب وانقياد القريحة وانفاذ البصيرة فان الشبع يورث

(١) حديث ثلث للطعام تقدم من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

(٧) حديث جاهدوا أنفسكم لم يخرجه العراقى

واجتمعت على مودته وأنست بذكره فان تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع بل كحلت بنور التوفيق فصارت اخوانا فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتمعين على الكلمة الواحدة ومن التزم بشروط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق * والناس رجلان رجل طالب ما عند الله تعالى ويدعو الى ما عند الله نفسه وغيره فما للمحقق الصوفى مع هذا منافسة ومراء وغل فان هذا معه فى طريق واحد ووجهة واحدة وأخوه ومعينه والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا ورجل مفتتن بشئ من محبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق فما للصوفى مع هذا منافسة

البلادة ويعمى القلب ويكثر البخار فى الدماغ شبه السكر حتى يحتوى على معادن الفكر فينثقل القلب بسببه عن الجريان فى الأفكار وعن سرعة الادراك بل الصبى اذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطىء الفهم والادراك وقال أبو سليمان الدارانى عليك بالجوع فانه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوى وقال صلى الله عليه وسلم (١) أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهروها بالجوع تصفو وترق ويقال مثل الجوع مثل الرعد ومثل القناعة مثل السحاب والحكمة كالمطر وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٢) من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه وقال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم (٣) من شبع ونام فسا قلبه ثم قال لكل شئ زكاة وزكاة البدن الجوع وقال الشبلى ما جعت لله يوما الا رأيت فى قلبى بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط ولبس يخفى ان غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل الى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه والمعرفة باب من أبواب الجنة فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة ولهذا قال لقمان لابنه يابنى اذا امتلات المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة وقال أبو يزيد البسطامى الجوع سحاب فاذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٤) نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع والقربة الى الله عز وجل حب المساكين والدنو منهم لا تشبعوا فتطفؤا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات فى خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح (الفائدة الثانية) رقة القلب وصفاؤه الذى به يتهيأ لادراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابا من قسوة القلب وقد يرق فى بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه وقال أبو سليمان الدارانى أحلى ما تكون الى العبادة اذا التصق ظهرى ببطنى وقال الجنيد يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة وقال أبو سليمان اذا جاع القلب وعطش صبا ورق واذا شبع عمى وغلظ فاذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة فهى فائدة ثانية (الفائدة الثالثة) الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والاشر الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى فلا تنكسر النفس ولا تذل بشئ كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها اذ ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقمة طعام فاتتها وأظلمت عليها الدنيا بشربة ماء تأخرت عنها ومالم يشاهد الانسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره وانما سعادته فى أن يكون دائما مشاهدا نفسه بعين الذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والقهر فليكن دائما جائعا مضطرا الى مولاه مشاهدا للاضطرار بالذوق ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبى صلى الله عليه وسلم (٥) قال لا بل أجوع يوما وأشبع يوما فاذا جعت صبرت وتضرعت واذا شبعت شكرت أو كما قال فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع ومن أغلق بابا من أبواب النار فقد فتح بابا من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب فالقرب من أحدهما بعد من الآخر (الفائدة الرابعة) أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء فان الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره الا ويتذكر بلاء الآخرة فيذكر من عطشه عطش الخلق فى عرصات القيامة ومن جوعه جوع أهل

(١) حديث أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترق لم أجد له أصلا (٢) حديث من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه كذلك لم أجد له أصلا (٣) حديث من شبع ونام فسا قلبه ثم قال ان لكل شئ زكاة وان زكاة الجسد الجوع ه من حديث أبى هريرة لكل شئ زكاة وزكاة الجسد الصوم واسناده ضعيف (٤) حديث نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع الحديث ذكره أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وكتب عليه انه مسند وهى علامة ما رواه باسناده (٥) حديث أجوع يوما وأشبع يوما الحديث تقدم وهو عند ت

لأنه زهد فيما فيه رغب فمن شأن الصوفى أن ينظر الى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه محجوبا بمفتتنا فلا ينطوى له على غل ولا يمارية فى الظاهر على شئ لعلمه بظهور نفسه الامارة بالسوء فى المراء والمجادلة

(أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الزيادى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا زياد ابن أيوب قال حدثنا المحاربى عن ليث عن عبد الملك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تمار أخاك ولا تعده موعدا فتخلفه وفى الخبر من ترك المراء

النار حتى انهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فانه هو الذي يهيج الخوف فمن لم يكن في ذلة ولاعلة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء أولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فان فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة وهذا أحد الأسباب الذي اقتضى اختصاص البلاء بالانبياء والاولياء والامثل فالامثل ولذلك قيل ليوسف عليه السلام لم تجوع وفي يديك خزائن الارض فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع فذكر الجائعين والمحتاجين احدى فوائد الجوع فان ذلك يدعو الى الرحمة والاطعام والشفقة على خلق الله عز وجل والشبعان في غفلة عن ألم الجائع (الفائدة الخامسة) وهي من أكبر الفوائد كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الامارة بالسوء فان منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ومادة القوى والشهوات لا محالة الاطعمة فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة وانما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه والشقاوة في أن تملكه نفسه وكما انك لا تملك الدابة الجموح الا بضعف الجوع فاذا شبعت قويت وشردت وجمحت فكذلك النفس كما قيل لبعضهم ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهد فقال لانه سريع المرح فاحش الاشر فاخاف أن يجمح بي فيورطني فلأن أحمله على الشدائد أحب الى من أن يحملني على الفواحش وقال ذو النون ما شبعت قط الا عصيت أو هممت بمعصية وقالت عائشة رضي الله عنها أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع ان القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم الى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد ولذلك قيل الجوع خزانة من خزائن الله تعالى وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام فان الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخاص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها فيمنعه الجوع من كل ذلك واذا شبع افتقر الى فاكهة فيتفكه لا محالة باعراض الناس ولا يكب الناس في النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم * وأما شهوة الفرج فلا تخفى غائلتها والجوع يكفي شرها واذا شبع الرجل لم يملك فرجه وان منعته التقوى فلا يملك عينه فالعين تزني كما أن الفرج يزني فان ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره فيضطر له من الافكار الرديئة وحديث النفس باسباب الشهوة وما يتشوش به مناجاته وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة وانما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا والا فجميع معاصي الاعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع قال حكيم كل مريد صبر على السياسة فصبر على الخبز البحت سنة لا يخلط به شيأ من الشهوات ويأكل في نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء (الفائدة السادسة) دفع النوم ودوام السهر فان من شبع شرب كثيرا ومن كثر شربه كثر نومه ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا وأجمع رأي سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر والنوم موت فتكثيره ينقص العمر ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم فواتها ومهما غلب النوم فان تهجد لم يجد حلاوة العبادة ثم المتعزب اذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضا من التهجد ويحوجه الى الغسل اما بالماء البارد فيتأذى به أو يحتاج الى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل فيفوته الوتر ان كان قد أخره الى التهجد ثم يحتاج الى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة في دخول الحمام فان فيه أخطارا ذكرناها في كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع وقد قال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وانما قال ذلك لانه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كل حال فالنوم منبع الآفات والشبع مجلبة له والجوع مقطعة له (الفائدة السابعة) تيسير المواظبة على العبادة فان الاكل يمنع من كثرة العبادات لانه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالاكل وربما يحتاج الى زمان في شراء الطعام وطبخه ثم يحتاج الى غسل اليد والخلال ثم يكثر ترداده الى بيت الماء لكثرة شربه والاوقات المصروفة الى هذا لو صرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه

وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها ومن حسن خلقه بني له في أعلاها (وأخبرنا) شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن السهروردي محمد ابن أبي عبد الله المالكي قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودي قال أنا أبو محمد عبد الله ابن أحمد الجوي قال أنا أبو عمران عيسى السمرقندي قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي قال حدثنا يحيى بن بسطام عن يحيى بن حمزة قال حدثني النعمان ابن مكحول عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يريد أن يقبل بوجوه الناس اليه أدخله

قال السرى رأيت مع على الجرجانى سويقا يستفه منه فقلت ما حملك على هذا قال انى حسبت ما بين المضغ الى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه فى المضغ وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها فينبغى أن يستوفى منه خزانة باقية فى الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه الى ذكر الله وطاعته ومن جملة ما يتعذر بكثرة الاكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد فانه يحتاج الى الخروج لكثرة شرب الماء واراقته ومن جملته الصوم فانه يتيسر لمن تعود الجوع فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالاكل وأسبابه الى العبادة أرباح كثيرة وانما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وقد أشار أبو سليمان الدارانى الى ست آفات من الشبع فقال من شبع دخل عليه ست آفات فقد حلاوة المناجاة وتعذر حفظ الحكمة وحرمان الشفقة على الخلق لانه اذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع وثقل العبادة وزيادة الشهوات وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد والشباع يدورون حول المزابل (الفائدة الثامنة) يستفيد من قلة الاكل صحة البدن ودفع الامراض فان سببها كثرة الاكل وحصول فضلة الاخلاط فى المعدة والعروق ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج الى الفصد والحجامة والدواء والطبيب وكل ذلك يحتاج الى مؤن ونفقات لا يخلو الانسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصى واقتحام الشهوات وفى الجوع ما يمنع ذلك كله حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء هندى ورومى وعراقى وسوادى وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لاداء فيه فقال الهندى الدواء الذى لاداء فيه عندى هو الاهليلج الاسود وقال العراقى هو حب الرشاد الابيض وقال الرومى هو عندى الماء الحار وقال السوادى وكان أعلمهم الاهليلج يعفص المعدة وهذا داء وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء والماء الحار يرخى المعدة وهذا داء قالوا فما عندك فقال الدواء الذى لاداء معه عندى أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه وان ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه فقالوا صدقت وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبى صلى الله عليه وسلم (١) ثلث طعام وثلث شراب وثلث للنفس فتعجب منه وقال ما سمعت كلاما فى قلة الطعام أحكم من هذا وانه لكلام حكيم وقال صلى الله عليه وسلم (٢) البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذاك وقال ابن سالم من أكل خبزا لخنطة بحتا بادب لم يعتل الا علة الموت قيل وما الادب قال تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع وقال بعض أفاضل الاطباء فى ذم الاستكثار ان أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته المالح ولأن يقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان وفى الحديث (٣) صوموا تصحوا ففى الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الاجسام من الاسقام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما (الفائدة التاسعة) خفة المؤنة فان من تعود قلة الاكل كفاه من المال قدر يسير والذى تعود الشبع صار بطنه غرا مما لا زمام له آخذا بمخنقه فى كل يوم فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج الى أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل ويربما يحتاج الى أن يمد أعين الطمع الى الناس وهو غاية الذل والشقاوة والمؤمن خفيف المؤنة وقال بعض الحكماء انى لاقضى عامة حوائجى بالترك فيكون ذلك أروح لقلبى وقال آخر اذا أردت أن أستقرض من غيرى لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسى فتركت الشهوة فهى خير غريم لى وكان ابراهيم بن أدهم رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقال انها غالية فيقول أرخصوها بالترك وقال سهل رحمه الله الاكول مذموم فى ثلاثة أحوال ان كان من أهل العبادة فيكسل وان كان

(١) حديث ثلث للطعام تقدم أيضا (٢) حديث البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل بدن بما اعتاد لم أجد له أصلا (٣) حديث صوموا تصحوا الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الطب النبوى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

الله تعالى جهنم انظر كيف جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم المراء مع السفهاء سببا لدخول النار وذلك بظهور نفوسهم فى طلب القهر والغلبة والقهر والغلبة من صفات الشيطنة فى الآدمى (قال بعضهم) المجادل المراى يضع فى نفسه عند الخوض فى الجدال أن لا يقنع بشئ ومن لا يقنع الا الأن لا يقنع فما الى قناعته سبيل فنفس الصوفى تبدلت صفاتها وذهب عنه صفة الشيطنة والسبعية وتبدل باللين والرفق والسهولة والطمأنينة (روى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره

مكتسبا فلايسلم من الآفات وان كان ممن يدخل عليه شئ فلا ينصف الله تعالى من نفسه وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج وسبب شهوة الفرج شهوة البطن وفى تقليل الاكل مايحسم هذه الاحوال كلها وهى أبواب النار وفى حسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله عليه وسلم أديموا قرع باب الجنة بالجوع فمن قنع برغيف فى كل يوم قنع فى سائر الشهوات أيضا وصار حرا واستغنى عن الناس واستراح من التعب وتخلى لعبادة الله عز وجل وتجارة الآخرة فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وانما لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة وأما المحتاج فتلهيه لا محالة (الفائدة العاشرة) أن يتمكن من الايثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين فيكون يوم القيامة فى ظل صدقته (١) كما ورد به الخبر فما يأكله كان خزانته الكنيف وما يتصدق به كان خزانته فضل الله تعالى فليس للعبد من ماله الا ما تصدق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع وكان الحسن رحمة الله عليه اذا تلا قوله تعالى انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا قال عرضها على السموات السبع الطباق والطرائق التى زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى هل تحملين الأمانة بما فيها قالت وما فيها قال ان أحسنت جوزيت وان أسأت عوقبت فقالت لا أطيق عرضها كذلك على الارض فأبت ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها هل تحملين الأمانة بما فيها قالت وما فيها فذكر الجزاء والعقوبة فقالت لا ثم عرضها على الانسان فحملها انه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافا فاذا صنعوا فيها وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم وأسمنوا برا ذينهم وأهزلوا دينهم وتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح الى باب السلطان يتعرضون للبلاء وهم من الله فى عافية يقول أحدهم تبيعنى أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا يتكئ على شماله ويأكل من غير ماله حديثه سخرة وماله حرام حتى اذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال يا غلام ائتنى بشئ أهضم به طعامى يالكع اطعامك تهضم انما دينك تهضم أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذى أمرك الله تعالى بهم فهذه اشارة الى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام الى الفقير ليدخر به الاجر فذلك خير له من ان يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه (٢) ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رجل سمين البطن فأومأ الى بطنه بأصبعه وقال لو كان هذا فى غير هذا لكان خيرا لك أى لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك وعن الحسن قال والله لقد أدركت أقواما كان الرجل منهم يمسى وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله فيقول والله لا أجعل هذا كله لبطنى حتى أجعل بعضه لله فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة ولأجل هذا قال بعض السلف الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة بل ذلك صريح فى الأخبار التى رويناها وبالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معانى تلك الاخبار ادراك علم وبصيرة فاذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين فى الايمان والله أعلم بالصواب

(بيان طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن)

اعلم أن على المريد فى بطنه ومأكوله أربع وظائف * الأولى أن لا يأكل الا حلالا فان العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار وقد ذكرنا ما يجب مراعاته من درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام فى القلة والكثرة وتقدير وقته فى الابطاء والسرعة وتعيين الجنس المأكول فى تناول المشتهيات وتركها (أما الوظيفة الأولى) فى تقليل الطعام فسبيل الرياضة فيه التدريج فمن

(١) حديث كل امرئ فى ظل صدقته ك من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم (٢) حديث نظر الى رجل سمين البطن فأومأ الى بطنه بأصبعه وقال لو كان هذا فى غير هذا لكان خيرا لك أحد و ك فى المستدرك والبيهقى فى الشعب من حديث جعدة الجشمى واسناده جيد

بوائقه انظر كيف جعل النبى صلى الله عليه وسلم من شرط الاسلام سلامة القلب واللسان وروى عنه عليه السلام أنه مر بقوم وهم يجدون حجرا قال ما هذا قالوا هذا حجر الاشداء قال ألا أخبركم بأشد من هذا رجل كان بينه وبين أخيه غضب فأتاه فغلب شيطانه وشيطان أخيه فكلمه وروى أنه جاء غلام لابى ذر وقد كسر رجل شاة فقال أبو ذر من كسر رجل هذه الشاة فقال أنا قال ولم فعلت ذلك قال عمدا فعلت قال ولم قال أغيظك فتضربنى فتأثم فقال أبو ذر لاغيظن من حضك على غيظى فاعتقه (وروى) الاصمعى عن اعرابى قال اذا أشكل عليك

اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة الى القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقته فينبغي أن يتدرج اليه قليلا قليلا وذلك بأن ينقص قليلا قليلا من طعامه المعتاد فان كان يأكل رغيفين مثلا وأراد أن يرد نفسه الى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف وهو أن ينقص جزأ من ثمانية وعشرين جزأ أو جزأ من ثلاثين جزأ فيرجع الى رغيف في شهر ولا يستضر به ولا يظهر أثره فان شاء فعل في ذلك بالوزن وان شاء بالمشاهدة فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالأمس ثم هذا فيه أربع درجات أقصاها أن يرد نفسه الى قدر القوام الذي لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين وهو اختيار سهل التستري رحمة الله عليه اذ قال ان الله استعبد الخلق بثلاث بالحياة والعقل والقوة فان خاف العبد على اثنين منها وهي الحياة والعقل أكل وأفطر ان كان صائما وتكلف الطلب ان كان فقيرا وان لم يخف عليهما بل على القوة قال فينبغي أن لا يبالي ولو ضعف حتى صلى قاعدا ورأى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائما مع كثرة الأكل وسئل سهل عن بدايته وما كان يقتات به فقال كان قوتي في كل سنة ثلاثة دراهم كنت آخذ بدرهم دبسا وبدرهم دقيق الأرز وبدرهم سمنا وأخلط الجميع وأسوي منه ثلثمائة وستين أكرة آخذ في كل ليلة أكرة أفطر عليها فقيل له فالساعة كيف تأكل قال بغير حد ولا توقيت ويحكى عن الرهابين أنهم قدروا دون انفسهم الى مقدار درهم من الطعام * الدرجة الثانية أن يرد نفسه بالرياضة في اليوم والليلة الى نصف مد وهو رغيف وشئ مما يكون الأربعة منه مناويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأكثرين كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم وهو فوق اللقيمات لأن هذه الصيغة في الجمع للقلة فهو لما دون العشرة وقد كان ذلك عادة عمر رضي الله عنه اذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم * الدرجة الثالثة أن يردها الى مقدار المد وهو رغيفان ونصف وهذا يزيد على ثلث البطن في حق الأكثرين ويكاد ينتهي الى ثلثي البطن ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شئ للذكر وفي بعض الألفاظ ثلث للذكر بدل قوله للنفس * الدرجة الرابعة أن يزيد على المد الى المن ويشبه أن يكون ما وراء المن اسرافا مخالفا لقوله تعالى ولا تسرفوا أعني في حق الأكثرين فان مقدار الحاجة الى الطعام يختلف بالسن والشخص والعمل الذي يشتغل به وههنا طريق خامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط وهو أن يأكل اذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد ولكن الأغلب ان من لم يقدر لنفسه رغيفا أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة وقد ذكر للجوع الصادق علامات احداها أن لا تطلب النفس الادم بل تأكل الخبز وحده بشهوة أي خبز كان فهما طلبت نفسه خبزا بعينه أو طلبت أدما فليس ذلك بالجوع الصادق وقد قيل من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه أي لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة ومعرفة ذلك غامض فالصواب للمريد أن يقدر مع نفسه القدر الذي لا يضعفه عن العبادة التي هو بصددها فاذا انتهى اليه وقف وان بقيت شهوته وعلى الجملة فتقدير الطعام لا يمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعا من حنطة في كل جمعة فاذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعا ونصفا وصاع الحنطة أربعة أمداد فيكون كل يوم قريبا من نصف مد وهو ما ذكرناه أنه قدر ثلث البطن واحتيج في التمر الى زيادة لسقوط النوى منه وقد كان أبو ذر رضي الله عنه يقول طعامي في كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أزيد عليه شيأ حتى ألقاه فاني سمعته يقول(١) أقربكم مني مجلسا يوم القيامة وأحبكم الى من مات على ما هو عليه اليوم وكان يقول في انكاره على بعض الصحابة قد غير تم ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل وخبزتم المرقق وجمعتم بين ادامين واختلف عليكم بألوان الطعام وغدا أحدكم في ثوب وراح في آخر ولم تكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) وقد كان قوت أهل الصفة مدا من تمر بين اثنين في كل يوم والمد رطل وثلث ويسقط منه النوى وكان

(١) حديث أبي ذر أقربكم مني مجلسا يوم القيامة وأحبكم الى من مات على ما هو عليه اليوم أحمد في كتاب الزهد ومن طريقه أبو نعيم في الحلية دون قوله وأحبكم الى وهو منقطع (٢) حديث كان قوت أهل الصفة مدا من تمر بين

أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أفزبهما الى هواك فان أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى (أخبرنا) أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أنا أبو بكر محمد بن أحمد ابن علي قال أنا خورشيد قال ثنا ابراهيم بن عبد الله قال ثنا أحمد بن محمد بن سليم قال ثنا الزبير ابن بكار قال ثنا سعيد بن سعد عن أخيه عن جده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فأما المنجيات فخشية الله في السر والعلانية والحكم بالحق عند الغضب والرضا والاقتصاد عند الفقر والغنى وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه فالحكم

الحسن رحمة الله عليه يقول المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف والقبضة من السويق والجرعة من الماء والمنافق مثل السبع الضارى بلعابلعا وسرطاسرطا يطوى بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفضله وجهوا هذه الفضول أمامكم وقال سهل لو كانت الدنيا دما عبيطا لكان قوت المؤمن منها حلالا لان أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط (الوظيفة الثانية) فى وقت الاكل ومقدار تأخيره وفيه أيضا أربع درجات * الدرجة العليا أن يطوى ثلاثة أيام فما فوقها وفى المريدين من رد الرياضة الى العلى لا الى المقدار حتى انتهى بعضهم الى ثلاثين يوما وأربعين يوما وانتهى اليه جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم محمد بن عمر والعرنى وعبد الرحمن بن ابراهيم ورحيم وابراهيم التيمى وحجاج بن فرافصة وحفص العابد المصيصى والمسلم بن سعيد وزهير وسليمان الخواص وسهل بن عبد الله التسترى وابراهيم بن أحمد الخواص وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام وكان عبد الله بن الزبير يطوى سبعة أيام وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا وروى أن الثورى وابراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة قال بعض العلماء من طوى لله أربعين يوما ظهرت له قدرة من الملكوت أى كوشف ببعض الاسرار الالهية وقد حكى أن بعض أهل هذه الطائفة مر براهب فذاكره بحاله وطمع فى اسلامه وترك ما هو عليه من الغرور فكلمه فى ذلك كلاما كثيرا الى ان قال له الراهب ان المسيح كان يطوى أربعين يوما وان ذلك معجز فلا تكون الا لنبى أو صديق فقال له الصوفى فان طويت خمسين يوما تترك ما أنت عليه وتدخل فى دين الاسلام وتعلم انه حق وأنك على باطل قال نعم فجلس لا يبرح الا حيث يراه حتى طوى خمسين يوما ثم قال وأزيدك أيضا فطوى الى تمام الستين فتعجب الراهب منه وقال ما كنت أظن أن أحدا يجاوز المسيح فكان ذلك سبب اسلامه وهذه درجة عظيمة قل من يبلغها الا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه فى لذته وأنساه جوعته وحاجته * الدرجة الثانية ان يطوى يومين الى ثلاثة وليس ذلك خارجا عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول اليه بالجد والمجاهدة * الدرجة الثالثة وهى أدناها ان يقتصر فى اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الاقل وما جاوز ذلك اسراف ومداومة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة (١) فقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا تغدى لم يتعش واذا تعشى لم يتغد وكان السلف يأكلون فى كل يوم أكلة (٢) وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة اياك والسرف فان أكلتين فى يوم من السرف وأكلة واحدة فى كل يومين اقتار وأكلة فى كل يوم قوام بين ذلك وهو المحمود فى كتاب الله عز وجل ومن اقتصر فى اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحرا قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام وخلو القلب لفراغ المعدة ورقة الفكر واجتماع الهم وسكون النفس الى المعلوم فلا تنازعه قبل وقته (٣) وفى حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبى هريرة قال ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قياما كم هذا قط وان كان ليقوم حتى تورم قدماه وما واصل وصالكم هذا قط غير انه قد أخر الفطر الى السحر وفى حديث عائشة رضى الله عنها قالت (٤) كان النبى صلى الله عليه وسلم يواصل الى السحر فان كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب الى الطعام وكان ذلك يشغله عن حضور القلب فى التهجد فالاولى أن يقسم طعامه نصفين فان كان رغيفين مثلا أكل رغيفا عند

اثنين فى كل يوم لك وصحح اسناده من حديث طلحة البصرى (١) حديث أبى سعيد الخدرى كان اذا تغدى لم يتعش واذا تعشى لم يتغد لم أجد له أصلا (٢) حديث قال لعائشة اياك والاسراف فان أكلتين فى يوم من السرف البيهقى فى الشعب من حديث عائشة وقال فى اسناده ضعف (٣) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبى هريرة ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قياما كم هذا قط وان كان ليقوم حتى تزلع قدماه رواه ن مختصرا كان يصلى حتى تزلع قدماه واسناده جيد (٤) حديث عائشة كان يواصل الى السحر لم أجده من فعله وانما هو من قوله فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر رواه خ من حديث أبى سعيد وأما هو فكان يواصل وهو من خصائصه

الفطر

بالحق عند الغضب والرضا لا يصح الا من عالم ربانى أمير على نفسه يصرفها بعقل حاضر وقلب يقظان ونظر الى الله بحسن الاحتساب (نقل) انهم كانوا يتوضؤن عن ايذاء المسلم يقول بعضهم لان أتوضأ من كلمة خبيثة أحب الى من أن أتوضأ من طعام طيب (وقال) عبد الله بن عباس رضى الله عنهما الحدث حدثان حدث من فرجك وحدث من فيك فلا يحل حبوة الوقار والحلم الا الغضب ويخرج عن حد العدل الى العدوان بتجاوز الحد فبالغضب يثور دم القلب فان كان الغضب على من فوقه مما يعجز عن انفاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجلد واجتمع فى القلب ويصير منه الهم والحزن والانكماد ولا

الفطر ورغيفا عند السحر لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجد ولا يشتد بالنهار جوعه لاجل التسحر فيستعين بالرغيف الاول على التهجد وبالثاني على الصوم ومن كان يصوم يوما ويفطر يوما فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر ويوم صومه وقت السحر فهذه الطرق فى مواقيت الاكل وتباعده وتقاربه (الوظيفة الثالثة) فى نوع الطعام وترك الادام وأعلى الطعام مخ البرفان نخل فهو غاية الترفه وأوسطه شعير منخول وأدناه شعير لم ينخل وأعلى الادم اللحم والحلاوة وأدناه الملح والخل وأوسطه المزورات بالادهان من غير لحم وعادة سالكى طريق الآخرة الامتناع من الادام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات فان كل لذيذ يشتهيه الانسان وأكله اقتضى ذلك بطرا فى نفسه وقسوة فى قلبه وأنسه بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى وتصير الدنيا جنة فى حقه ويكون الموت سجنا له واذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سجنا عليه ومضيقا له فاشتهت نفسه الافلات منها فيكون الموت اطلاقها واليه الاشارة بقول يحيى بن معاذ حيث قال معاشر الصديقين جوعوا أنفسكم لوليمة الفردوس فان شهوات الطعام على قدر تجويع النفس فكل ما ذكرناه من آفات الشبع فانه يجرى فى كل الشهوات وتناول اللذات فلا تطول باعادته فلذلك يعظم الثواب فى ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر فى تناولها حتى قال صلى الله عليه وسلم (١) شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى ان من أكله مرة أو مرتين لم يعص ومن داوم عليه أيضا فلا يعصى بتناوله ولكن تتربى نفسه بالنعيم فتأنس بالدنيا وتألف اللذات وتسعى فى طلبها فيجرها ذلك الى المعاصى فهم شرار الامة لان مخ الحنطة يقودهم الى اقتحام أمور تلك الامور معاص وقال صلى الله عليه وسلم (٢) شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم وانما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون فى الكلام وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام اذكرنى أنك ساكن القبر فان ذلك يمنعك من كثير الشهوات وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيذ الاطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة حتى روى أن وهب بن منبه قال التقى ملكان فى السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر من أين قال أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودى لعنه الله وقال الآخر أمرت باهراق زيت اشتهاه فلان العابد فهذا تنبيه على ان تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير ولهذا امتنع عمر رضى الله عنه عن شربة ماء بارد بعسل وقال اعزلوا عنى حسابها فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس فى الشهوات وترك اللذات كما أوردناه فى كتاب رياضة النفس (٣) وقد روى نافع أن ابن عمر رضى الله عنهما كان مريضا فاشتهى سمكة طرية فالتمست له بالمدينة فلم توجد ثم وجدت بعد كذا وكذا فاشتريت له بدرهم ونصف فشويت وحملت اليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال للغلام لفها برغيفها واد فعها اليه فقال له الغلام أصلحك الله قد اشتهيتها منذ كذا وكذا فلم نجدها فلما وجدتها اشتريتها بدرهم ونصف فنحن نعطيه ثمنها فقال لفها واد فعها اليه ثم قال الغلام للسائل هل لك أن تأخذ درهما وتتركها قال نعم فأعطاه درهما وأخذها وأتى بها فوضعها بين يديه وقال قد أعطيته درهما وأخذتها منه فقال لفها واد فعها اليه ولا تأخذ منه الدرهم فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها

(١) حديث شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة لم أجد له أصلا (٢) حديث شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم الحديث ابن عدى فى الكامل ومن طريقه البيهقى فى شعب الايمان من حديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من حديث فاطمة بنت الحسين مرسلا قال الدارقطنى فى العلل انه أشبه بالصواب ورواه أبو نعيم فى الحلية من حديث عائشة باسناد لا بأس به (٣) حديث نافع ان ابن عمر كان مريضا فاشتهى سمكة الحديث وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب باسناد ضعيف جدا ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات

ينطوى الصوفى على مثل هذا لانه يرى الحوادث والاعراض من الله تعالى فلا ينكمد ولا يغتم والصوفى صاحب الرضا صاحب الروح والراحة والنبى عليه السلام أخبر أن الهم والحزن فى الشك والسخط (سئل) عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما عن الغم والغضب قال مخرجهما واحد واللفظ يختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غضبا ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزنا والحرد غضب أيضا ولكن يستعمل اذا قصد المغضوب عليه وان كان الغضب على من يشاكله ويماثله ممن يتردد فى الانتقام منه يتردد القلب بين الانقباض والانبساط فيتولد منه الغل والحقد ولا يأوى مثل

هذا الى قلب الصوفى قال الله تعالى ونزعنا ما فى صدورهم من غل وسلامة قلب الصوفى وحاله يقذف زبد الغل والحقد كما يقذف البحر الزبد لما فيه من تلاطم أمواج الانس والهيبة وان كان الغضب على من دونه ممن يقدر على الانتقام منه ثار دم القلب والقلب اذا ثار دمه يحمر ويقسو ويتصلب وتذهب عنه الرقة والبياض ومنه تحمر الوجنتان لان الدم فى القلب نار وطلب الاستعلاء وانتفخت منه العروق فظهر عكسه وأثره على الخد فيتعدى الحدود حينئذ بالضرب والشتم ولا يكون هذا فى الصوفى الا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى فأما فى غير ذلك فينظر الصوفى عند الغضب الى الله

على نفسه غفر الله له وقال صلى الله عليه وسلم (١) اذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار أشار الى أن المقصود دفع ألم الجوع والعطش ودفع ضررهما دون التنعم بلذات الدنيا وبلغ عمر رضى الله عنه ان يزيد بن أبى سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له اذا علمت انه قد حضر عشاؤه فاعلمنى فاعلمه فدخل عليه فقرب عشاؤه فأقعده بثريد لحم فأكل معه عمر ثم قرب الشواء وبسط يزيد يده وكف عمر يده وقال الله الله يا يزيد بن أبى سفيان أطعام بعد طعام والذى نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم وعن يسار بن عمير قال ما تخلت لعمر دقيقا قط الا وأتاله عاص وروى ان عتبة الغلام كان يعجن دقيقه ويجففه فى الشمس ثم يأكله ويقول كسرة وملح حتى يتهيأ فى الآخرة الشواء والطعام الطيب وكان يأخذ الكوز فيغرف به من حب كان فى الشمس نهاره فتقول مولاته يا عتبة لو أعطيتنى دقيقك نخبزنه لك وبردت لك الماء فيقول لها يا أم فلان قد شردت عنى كلب الجوع قال شقيق بن ابراهيم لقيت ابراهيم بن أدهم بمكة فى سوق الليل عند مولد النبى صلى الله عليه وسلم يبكى وهو جالس بناحية من الطريق فعدلت اليه وقعدت عنده وقلت ايش هذا البكاء يا أبا اسحق فقال خير فعاودته مرة واثنتين وثلاثا فقال يا شقيق استر على فقلت يا أخى قل ما شئت فقال لى اشتهت نفسى منذ ثلاثين سنة سكباجا فمنعتها جهدى حتى اذا كان البارحة كنت جالسا وقد غلبنى النعاس اذ أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج قال فاجتمعت بهمتى عنه فقربه وقال يا ابراهيم كل فقلت ما آكل قد تركته لله عز وجل فقال لى قد أطعمك الله كل ما كان لى جواب الا انى بكيت فقال لى كل رحمك الله فقلت قد أمرنا أن لا نطرح فى وعائنا الا من حيث نعلم فقال كل عافاك الله فانما أعطيته فقيل لى يا خضر اذهب بهذا وأطعمه نفس ابراهيم بن أدهم فقدر جها الله من طول صبرها على ما يحملها من منعها أعلم يا ابراهيم انى سمعت الملائكة يقولون من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يعط فقلت ان كان كذلك فها أنا بين يديك لاجل العقد مع الله تعالى ثم التفت فاذا أنا بفتى آخر ناوله شيأ وقال يا خضر لقمه أنت فلم يزل يلقمنى حتى نعست فانتبهت وحلاوته فى فمى قال شقيق فقلت أرنى كفك فأخذت بكفه فقبلتها وقلت يا من يطعم الجياع الشهوات اذا صحوا المنع يا من يقدح فى الضمير اليقين يا من يشفى قلوبهم من محبته أترى لشقيق عبدك حالا ثم رفعت يد ابراهيم الى السماء وقلت بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالجود الذى وجد منك جد على عبدك الفقير الى فضلك واحسانك ورحمتك وان لم يستحق ذلك قال فقام ابراهيم ومشى حتى أدركا البيت وروى عن مالك بن دينار انه بقى أربعين سنة يشتهى لبنا فلم يأكله وأهدى اليه يوما رطب فقال لاصحابه كلوا فما ذقته منذ أربعين سنة وقال أحمد بن أبى الحوارى اشتهى أبو سليمان الدارانى رغيفا حارا بملح فجئت به اليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكى وقال عجلت الى شهوتى بعد اطالة جهدى واشقوتى قد عزمت على التوبة فأقلنى قال أحمد فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى وقال مالك بن ضيغم مررت بالبصرة فى السوق فنظرت الى البقل فقالت لى نفسى لو أطعمتنى الليلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها اياه أربعين ليلة ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لاهل البصرة ولا بسرة قط وقال يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بسرة فما زاد فيكم ما نقص منى ولا نقص منى ما زاد فيكم وقال طلقت الدنيا منذ خمسين سنة اشتهت نفسى لبنا منذ أربعين سنة فوالله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى وقال حماد ابن أبى حنيفة أتيت داود الطائى والباب مغلق عليه فسمعته يقول نفسى اشتهيت جزرا فأطعمتك جزرا ثم اشتهيت تمرا فآليت أن لا تأكليه أبدا فسلمت ودخلت فاذا هو وحده ومر أبو حازم يوما فى السوق فرأى الفاكهة فاشتهاها فقال لابنه اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة لعلنا نذهب الى الفاكهة التى لا مقطوعة ولا ممنوعة فلما اشتراها وأتى بها اليه قال لنفسه قد خدعتينى حتى نظرت واشتهيت وغلبتينى حتى اشتريت والله

(١) حديث اذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف

لاذقتيه فبعث بها الى يتامى من الفقراء * وعن موسى الاشج انه قال نفسى تشتهى ملحاجر يشا منذ عشرين سنة وعن أحمد بن خليفة قال نفسى تشتهى منذ عشرين سنة ماطلبت منى الا الماء حتى تروى فما أرويتها وروى أن عتبة الغلام اشتهى لحما سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال استحييت من نفسى أن أدفعها منذ سبع سنين سنة بعد سنة فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها وتركتها على رغيف فلقيت صبيا فقلت ألست أنت ابن فلان وقدمات أبوك قال بلى فناولته اياها قالوا وأقبل يبكى ويقرأ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ثم لم يذقه بعد ذلك ومكث يشتهى تمرا سنين فلما كان ذات يوم اشترى تمرا بقيراط ورفعه الى الليل ليفطر عليه قال فهبت ريح شديدة حتى أظلمت الدنيا فنزع الناس فأقبل عتبة على نفسه يقول هذا الجزاء تى عليك وشرا فى التمر بالقيراط ثم قال لنفسه ما أظن أخذ الناس الا بذنبك على أن لا تذوقيه واشترى داود الطائى بنصف فلس بقلا وبفلس خلا وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه ويلك يا داود ما أطول حسابك يوم القيامة ثم لم يأكل بعده الا قفارا وقال عتبة الغلام يوما لعبد الواحد بن زيد ان فلانا يفعل من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى فقال لانك تأكل مع خبزك تمرا وهو لا يزيد على الخبز شيأ قال فان أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة قال نعم وغيرها فأخذ يبكى فقال له بعض أصحابه لا أبكى الله عينك أعلى التمر تبكى فقال عبد الواحد دعه فان نفسه قد عرفت صدق عزمه فى الترك وهو اذا ترك شيأ لم يعاوده وقال جعفر بن نصر أمرنى الجنيد ان أشترى له التين الوزيرى فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعها فى فمه ثم ألقاها وجعل يبكى ثم قال احمله فقلت له فى ذلك فقال هتف بى هاتف أما تستحى ترك شيأ من أجلى ثم تعود اليه وقال صالح المرى قالت لعطاء السلمى انى متكلف لك شيأ فلا ترد على كرامتى فقال افعل ما تريد قال فبعثت اليه مع ابنى شربة من سويق قد لتته بسمن وعسل فقلت لا تبرح حتى يشربها فلما كان من الغد جعلت له نحوها فردها ولم يشربها فعاتبته ولمته على ذلك وقلت سبحان الله رددت على كرامتى فلما رأى وجدى لذلك قال لا يسوءك هذا انى قد شربتها أول مرة وقد راودت نفسى فى المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى يتجرعه ولا يكاد يسيغه الآية قال صالح فبكيت وقلت فى نفسى أنا فى واد وأنت فى واد آخر وقال السرى السقطى نفسى منذ ثلاثين سنة تطالبنى أن أطعمها جزرة فى دبس فما أطعمتها وقال أبو بكر الخلاء أعرف رجلا تقول له نفسه أنا أصبر لك على طى عشرة أيام وأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتهيها فيقول لها لا أريد أن تطوى عشرة أيام ولكن اتركى هذه الشهوة وروى ان عابدا دعا بعض اخوانه فقرب اليه رغفانا فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها فقال له العابد مه أى شئ تصنع أما علمت أن فى الرغيف الذى رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صانع حتى استدار من السحاب الذى يحمل الماء والماء الذى يسقى الارض والرياح والارض والبهائم وبنى آدم حتى صار اليك ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به وفى الخبر (١) لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل عليه السلام الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ثم الملائكة التى تزجى السحاب والشمس والقمر والافلاك وملائكة الهواء وداب الارض وآخرهم الخباز وهل تعد نعمة الله لا تحصوها وقال بعضهم أتيت قاسما الجرعى فسألته عن الزهد أى شئ هو فقال أى شئ سمعت فيه فعددت أقوالا فسكت فقلت وأى شئ تقول أنت فقال اعلم ان البطن دنيا العبد فبقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد وبقدر ما يملكه بطنه تملكه الدنيا وكان بشر بن الحرث قد اعتل مرة فأتى عبد الرحمن الطبيب يسأله عن شئ يوافقه من المأكولات فقال تسألنى فاذا وصفت لك لم تقبل منى قال صف لى حتى أسمع قال تشرب سكنجبينا وتمص سفرجلا وتأكل بعد ذلك اسفيذباجا فقال له بشر هل تعلم شيأ أقل من السكنجبين يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف قال ما هو قال الهندباباخل ثم قال أتعرف شيأ أقل من السفرجل

(١) حديث لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل الحديث لم أجد له أصلا

تعالى ثم تقواه تحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل ويتهم النفس بعدم الرضا بالقضاء (قيل) لبعضهم من اقهر الناس لنفسه قال أرضاهم بالمقدور وقال بعضهم أصبحت ومالى سرور الا مواقع القضاء واذا اتهم الصوفى النفس عند الغضب تداركه العلم واذا لاح علم العلم قوى القلب وسكنت النفس وعاد دم القلب الى موضعه ومقره واعتدل الحال وغاضت حمرة الخد وبانت فضيلة العلم قال عليه السلام السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزأ من النبوة * وروى حارثة بن قدامة قال قلت يا رسول الله أوصنى وأقلل لعلى أعيه قال لا تغضب فأعاد عليه

يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف قال ماهو قال الخربوب الشامى قال فتعرف شيأ أقل من الاسفيذباج يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف ماء الحمص بسمن البقر فى معناه فقال له عبد الرحمن أنت أعلم منى بالطب فلم تسألنى فقد عرفت بهذا ان هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشبع من الاقوات وكان امتناعهم للفوائد التى ذكرناها وفى بعض الأوقات لأنهم كانوا لا يصيبونها لم يرخصوا لأنفسهم الا فى قدر الضرورة والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان الملح شهوة لأنه زيادة على الخبز وماوراء الخبز شهوة وهذا هو النهاية فمن لم يقدر على ذلك فينبغى أن لا يغفل عن نفسه ولا يهملك فى الشهوات فكفى بالمرء اسرافا أن يأكل كل مايشتهيه ويفعل كل مايهواه فينبغى أن لا يواظب على أكل اللحم قال على كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلقه ومن داوم عليه أربعين يوما قسا قلبه وقيل ان للمداومة على اللحم ضراوة كضراوة الخمر ومهما كان جائعا وتاقت نفسه الى الجماع فلا ينبغى أن يأكل ويجامع فيعطى نفسه شهوتين فتقوى عليه وربما طلبت النفس الأكل لينشط فى الجماع ويستحب أن لا ينام على الشبع فيجمع بين غفلتين فيعتاد الفتور ويقسو قلبه لذلك ولكن ليصل أوليجلس فيذكر الله تعالى فانه أقرب الى الشكر وفى الحديث (١) أذيبوا طعامكم بالذكر والصلاة ولا تناموا عليه فتقسوا قلوبكم وأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزأ من القرآن عقيب أكله فقد كان سفيان الثورى اذا شبع ليلة أحياها واذا شبع فى يوم واصله بالصلاة والذكر وكان يقول أشبع الزنجبى وكده رمرقية ول أشبع الحمار وكده ومهما اشتهى شيأ من الطعام وطيبات الفواكه فينبغى أن يترك الخبز ويأكلها بدلا منه لتكون قوتا ولا تكون تفكها لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة * نظر سهل الى ابن سالم وفى يده خبز وتمر فقال له ابدأ بالتمر فان قامت كفايتك به والا أخذت من الخبز بقدر حاجتك ومهما وجد طعاما لطيفا وغليظا فليقدم اللطيف فانه لا يشتهى الغليظ بعده ولو قدم الغليظ لأكل اللطيف أيضا لاطافته وكان بعضهم يقول لأصحابه لا تأكلوا الشهوات فان أكلتموها فلا تطلبوها فان طلبتموها فلا تحبوها وطلب بعض أنواع الخبز شهوة قال عبد الله بن عمر رحمة الله عليهما ما تأتينا من العراق فاكهة أحب الينا من الخبز فرأى ذلك الخبز فاكهة وعلى الجملة لا سبيل الى اهمال النفس فى الشهوات المباحات واتباعها بكل حال فبقدر مايستوفى العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع فى الدار الآخرة بشهوته قال بعض أهل البصرة نازعتنى نفسى خبز أرز وسمكا فمنعتها فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتى لها عشرين سنة فلما مات قال بعضهم رأيته فى المنام فقلت ماذا فعل الله بك قال لا أحسن ان أصف ما تلقانى به ربى من النعم والكرامات وكان أول شئ استقبلنى به خبز أرز وسمكا وقال كل اليوم شهوتك هنيأ بغير حساب وقد قال تعالى كلوا واشربوا هنيأ بما أسلفتم فى الأيام الخالية وكانوا قد أساءوا واترك الشهوات ولذلك قال أبو سليمان ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها وفقنا الله لما يرضيه

(بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه)

اعلم أن المطلوب الاقصى فى جميع الأمور والأخلاق الوسط اذ خير الأمور أوساطها وكلا طرفى قصد الامور ذميم وما أوردناه فى فضائل الجوع ربما يومئ الى أن الافراط فيه مطلوب وهيهات ولكن من أسرار حكمة الشريعة ان كل مايطلب الطبع فيه الطرف الاقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة فى المنع منه على وجه يومئ عند الجاهل الى أن المطلوب مضادة مايقتضيه الطبع بغاية الامكان والعالم يدرك ان المقصود الوسط لان الطبع اذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغى أن يمدح غاية الجوع حتى يكون الطبع باعثا والشرع مانعا فيتقاومان ويحصل الاعتدال فان من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم انه لا ينتهى الى الغاية فانه ان أسرف مسرف فى

(١) حديث أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر ولا تناموا عليه فتقسوا قلوبكم طس وابن السنى فى اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف

كل ذلك يقول لا تغضب قال عليه السلام ان الغضب جمرة من النار ألم تنظروا حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه من وجد ذلك منكم فان كان قائما فليجلس وان كان جالسا فليضطجع (أخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر التريانى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد ابن عبد الله قال حدثنا بشر بن المفضل عن قرة ابن خالد عن أبى حمزة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأشج عبد القيس ان فيك خصلتين يحبهما الله تعالى الحلم والاناة * ومن أخلاق الصوفية التودد والتألف

مضادة الطبع كان فى الشرع أيضا مايدل على اساءته كما ان الشرع بالغ فى الثناء على قيام الليل وصيام النهار ثم لما علم النبى صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم انه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه (١) فاذا عرفت هذا فاعلم أن الافضل بالاضافة الى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لايحس بثقل المعدة ولايحس بألم الجوع بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا فان مقصودا لاكل بقاء الحياة وقوة العبادة وثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها فالمقصود أن يأكل أكلا لايبقى للأكول فيه أثر ليكون متشبها بالملائكة فانهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع وغاية الانسان الاقتداء بهم واذا لم يكن للانسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الاحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال ومثال طلب الآدمى البعد عن هذه الاطراف المتقابلة بالرجوع الى الوسط مثال نملة ألقيت فى وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الارض فان النملة تهرب من حرارة الحلقة وهى محيطة بها لاتقدر على الخروج منها فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذى هو الوسط فلو مالت مالت على الوسط لان الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التى فى الحلقة المحيطة فكذلك الشهوات محيطة بالانسان احاطة تلك الحلقة بالنملة والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ولامطمع للانسان فى الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة فى الخلاص فأشبه أحواله بهم البعد وأبعد المواضع عن الاطراف الوسط فصار الوسط مطلوبا فى جميع هذه الأحوال المتقابلة وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم (٢) خير الأمور أوساطها واليه الاشارة بقوله تعالى كلوا واشربوا ولاتسرفوا ومهما لم يحس الانسان بجوع ولاشبع تيسرت له العبادة والفكر وخف فى نفسه وقوى على العمل مع خفته ولكن هذا بعد اعتدال الطبع اما فى بداية الامر اذا كانت النفس جموحا منشوقة الى الشهوات مائلة الى الافراط فالاعتدال لاينفعها بل لابد من المبالغة فى ايلامها بالجوع كما يبالغ فى ايلام الدابة التى ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره الى أن تعتدل فاذا ارتاضت واستوت ورجعت الى الاعتدال ترك تعذيبها وايلامها ولاجل هذا السر يامر الشيخ مريده بما لايتعاطاه هو فى نفسه فيأمره بالجوع وهو لايجوع ويمنعه الفواكه والشهوات وقد لايمتنع هو منها لانه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماح والامتناع عن العبادة كان الاصلح لها الجوع الذى تحس بألمه فى أكثر الاحوال لتنكسر نفسه والمقصود أن تنكسر حتى تعتدل فترد بعد ذلك فى الغذاء أيضا الى الاعتدال وانما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكى طريق الآخرة اما صديق واما مغرور أحمق اما الصديق فلاستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع الى الحق وأما المغرور فلظنه بنفسه انه الصديق المستغنى عن تأديب نفسه الظان بها خيرا وهذا غرور عظيم وهو الاغلب فان النفس قلما تتأدب تأدبا كاملا وكثيرا ماتغتر فتنظر الى الصديق ومساحته نفسه فى ذلك فيسامح نفسه كالمريض ينظر الى من قد صح من مرضه فيتناول مايتناوله ويظن بنفسه الصحة فيهلك والذى يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير فى وقت مخصوص ونوع مخصوص ليس مقصودا فى نفسه وانما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه قالت عائشة رضى الله عنها (٣) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لايفطر ويفطر حتى نقول لايصوم (٤) وكان يدخل على أهله فيقول هل عندكم من شئ فان قالوا نعم أكل وان قالوا لا قال انى صائم (٥) وكان يقدم اليه الشئ فيقول أما انى قد كنت أردت

(١) حديث انهى عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله تقدم (٢) حديث خير الامور أوسطها البيهقى فى الشعب مرسلا وقد تقدم (٣) حديث عائشة كان يصوم حتى نقول لايفطر ويفطر حتى نقول لايصوم متفق عليه (٤) حديث كان يدخل على أهله فيقول هل عندكم من شئ فان قالوا نعم أكل وان قالوا لا قال انى صائم د ت وحسنه ون ممن حديث عائشة وهو عندم بنحوه كما سيأتى (٥) حديث كان يقدم اليه الشئ فيقول اما انى كنت أريد الصوم البيهقى من حديث عائشة بلفظ وان كنت قد فرضت الصوم وقال اسناده صحيح وعند

والموافقة مع الاخوان وترك المخالفة قال الله تعالى فى وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال الله تعالى لو أنفقت مافى الارض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم والتودد والتألف من ائتلاف الارواح على ماورد فى الخبر الذى أوردناه فما تعارف منها ائتلف قال الله تعالى فأصبحتم بنعمته اخوانا وقال سبحانه وتعالى واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وقال عليه السلام المؤمن آلف مألوف لاخير فيمن لايألف ولا يؤلف وقال عليه السلام مثل المؤمنين اذا التقيا مثل اليدين تغسل احداهما الاخرى وما التقى مؤمنان الا استفاد أحدهما

الصوم ثم يأكل (١) وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقال انى صائم فقالت له عائشة رضى الله عنها قد أهدى الينا حيس فقال كنت أردت الصوم ولكن قربيه ولذلك حكى عن سهل انه قيل له كيف كنت فى بدايتك فأخبر بضروب من الرياضات منها انه كان يقتات ورق النبق مدة ومنها انه أكل دقاق التين مدة ثلاث سنين ثم ذكر انه اقتات بثلاثة دراهم فى ثلاث سنين فقيل له فكيف أنت فى وقتك هذا فقال آكل بلا حد ولا توقيت وليس المراد بقوله بلا حد ولا توقيت انى آكل كثيرا بل انى لا أقدر بمقدار واحد مما آكله وقد كان معروف الكرخى يهدى اليه طيبات الطعام فيأكل فقيل له ان أخاك بشرا لا يأكل مثل هذا فقال ان أخى بشرا قبضه الورع وأنا بسطتنى المعرفة ثم قال انما أنا ضيف فى دار مولاى فاذا أطعمنى أكلت واذا جوعنى صبرت مالى والاعتراض والتمييز ودفع ابراهيم بن أدهم الى الاوزاعى والثورى فقال له الثورى يا أبا اسحق أما تخاف أن يكون هذا اسرافا فقال ليس فى الطعام اسراف انما الاسراف فى اللباس والاثاث فالذى أخذ العلم من السماع والنقل تقليدا يرى هذا من ابراهيم بن أدهم ويسمع عن مالك بن دينار انه قال ما دخل بيتى الملح منذ عشرين سنة وعن سرى السقطى انه منذ أربعين سنة يشتهى أن يغمس جزرة فى دبس فما فعل فيراه متناقضا فيحير أو يقطع بان أحدهما مخطئ والبصير باسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالاضافة الى اختلاف الاحوال ثم هذه الاحوال المختلفة يسمعها فطن محتاط أو غبى مغرور فيقول المحتاط ما أنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسى فليس نفسى أطوع من نفس سرى السقطى ومالك بن دينار وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتدى بهم والمغرور يقول ما نفسى باعصى على من نفس معروف الكرخى وابراهيم بن أدهم فاقتدى بهم وأرفع التقدير فى ما كولى فأنا أيضا ضيف فى دار مولاى فمالى وللاعتراض ثم انه لو قصر أحد فى حقه وتوقيره أو فى ماله وجاهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض وهذا مجال رحب للشيطان مع الحمقى بل رفع التقدير فى الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم الا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوة فيكون بينه وبين الله علامة فى استرساله وانقباضه ولا يكون ذلك الا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية حتى يكون أكله اذا أكل على نية كما يكون امساكه بنية فيكون عاملا لله فى أكله وافطاره فينبغى أن يتعلم الحزم من عمر رضى الله عنه فانه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يحب العسل ويأكله ثم لم يقس نفسه عليه بل لما عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل جعل يدير الاناء فى يده ويقول أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعتها اعزلوا عنى حسابها وتركها وهذه الاسرار لا يجوز لشيخ أن يكاشف بها مريده بل يقتصر على مدح الجوع فقط ولا يدعوه الى الاعتدال فانه يقصر لا محالة عما يدعوه اليه فينبغى أن يدعوه الى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغنى عن الرياضة فان الشيطان يجد متعلقا من قلبه فيلقى اليه كل ساعة انك عارف كامل وما الذى فاتك من المعرفة والكمال بل كان من عادة ابراهيم الخواص أن يخوض مع المريد فى كل رياضة كان يأمره بها كيلا يخطر بباله أن الشيخ لم يأمره بما لم يفعل فينفره ذلك من رياضته والقوى اذا اشتغل بالرياضة واصلاح الغير لزمه النزول الى حد الضعفاء تشبها بهم وتلطفا فى سياقتهم الى السعادة وهذا ابتلاء عظيم للانبياء والاولياء واذا كان حد الاعتدال خفيا فى حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغى أن لا يترك فى كل حال ولذلك أدب عمر رضى الله عنه ولده عبد الله اذ دخل عليه فوجده يأكل لحما أو دوما

(١) حديث خرج وقال انى صائم فقالت عائشة يا رسول الله قد أهدى الينا حيس فقال كنت أردت الصوم ولكن قربيه م بلفظ قد كنت أصبحت صائما وفى رواية له أدنيه فلقد أصبحت صائما فاكل وفى لفظ للبيهقى انى كنت أريد الصوم ولكن قربيه (٢) حديث كان يحب العسل ويأكله متفق عليه من حديث عائشة كان يحب الحلواء والعسل الحديث وفيه قصة شربه العسل عند بعض نسائه

من صاحبه خيرا (وقال) أبو ادريس الخولانى لمعاذ انى أحبك فى الله فقال أبشر ثم أبشر فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس وهم لا يفزعون ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون قيل من هؤلاء يا رسول الله قال المتحابون فى الله (وقيل) لو تحاب الناس وتعاطوا أسباب المحبة لاستغنوا بها عن العدالة وقيل العدالة خليفة المحبة تستعمل حيث لا توجد المحبة وقيل طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة فان طاعة المحبة من داخل وطاعة

بسمن

بسمن فعلاه بالدرة وقال لا أم لك كل يوما خبزا ولحما ويوما خبزا ولبنا ويوما خبزا وسمنا ويوما خبزا وزيتا ويوما خبزا وملحا ويوما خبزا قفارا وهذا هو الاعتدال فأما المواظبة على اللحم والشهوات فافراط واسراف ومهاجرة للحم بالكلية اقتار وهذا قوام بين ذلك والله تعالى أعلم

(بيان آفة الرياء المتطرق الى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام)

اعلم انه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات * احداهما أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ولكن لا يريد أن يعرف بانه يشتهيها فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة مالا يأكل مع الجماعة وهذا هو الشرك الخفي سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له هل تعلم به بأسا قال يأكل في الخلوة مالا يأكل مع الجماعة وهذه آفة عظيمة بل حق العبد اذا ابتلى بالشهوات وحبها أن يظهرها فان هذا صدق الحال وهو بدل عن فوات المجاهدات بالاعمال فان اخفاء النقص واظهار ضده من الكمال وهو نقصانان متضاعفان والكذب مع الاخفاء كذبان فيكون مستحقا لمقتين ولا يرضى منه الا بتوبتين صادقتين ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار لان الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وستر فكان ستره لكفره كفرا آخر لانه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى الى قلبه وعظم نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يبتلون بالرياء والغش والاخفاء بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهره من نفسه الشهوة اسقاطا للمنزلة من قلوب الخلق وكان بعضهم يشتري الشهوات ويعلقها في البيت وهو فيها من الزاهدين وانما يقصد به تايس حاله ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين حتى لا يشوشون عليه حاله فنهاية الزهد الزهد في الزهد باظهار ضده وهذا عمل الصديقين فانه جمع بين صدقين كما أن الاول جمع بين كذبين وهذا قد حمل على النفس ثقلين وجرعها كاس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة برميه فلاجرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وهذا يضاهي طريق من يعطي جهرا فيأخذ ويردسرا ليكسر نفسه بالذل جهرا وبالفقر سرا فمن فانه هذا فلا ينبغي أن يفوته اظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه ولا ينبغي أن يغره قول الشيطان انك اذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره اصلاحا لغيرك فانه لو قصد اصلاح غيره لكان اصلاح نفسه أهم عليه من غيره فهذا انما يقصد الرياء المجرد ويروجه الشيطان عليه في معرض اصلاح غيره فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه وان علم أن من اطلع عليه ليس يقتدي به في الفعل أو لا ينزجر باعتقاد أنه تارك للشهوات * الآفة الثانية أن يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات فقد خالف شهوة ضعيفة وهي شهوة الاكل وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه وتلك هي الشهوة الخفية فهما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام فليأكل فهو أولى له قال أبو سليمان اذا قدمت اليك شهوة وقد كنت تاركا لها فأصب منها شيئا يسيرا ولا تعط نفسك مناها فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نغصت عليها الذلم تعطها شهوتها وقال جعفر بن محمد الصادق اذا قدمت الى شهوة نظرت الى نفسي فان هي أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها وان أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيأ وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية وبالجملة من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفر الى حية لان شهوة الرياء أضر كثيرا من شهوة الطعام والله ولي التوفيق

(القول في شهوة الفرج)

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الانسان لفائدتين * احداهما أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة فان لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الاجساد كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد والترغيب والترهيب يسوق الناس الى سعادتهم وليس ذلك الا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة فان ما لا يدرك بالذوق لا يعظم اليه الشوق * الفائدة الثانية بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا ان لم تضبط

الرهبة من خارج ولهذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثرة من البعض في البعض لانهم لما تحابوا في الله تواصوا بمحاسن الاخلاق ووقع القبول بينهم لوجود المحبة فانتفع لذلك المريد بالشيخ والاخ بالاخ ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس في كل يوم خمس مرات في المساجد أهل كل درب وكل محلة وفي الجامع في الاسبوع مرة أهل كل بلد وانضمام أهل السواد الى البلدان في الاعياد في جميع السنة مرتين وأهل الاقطار من البلدان المتفرقة في العمر مرة للحج كل ذلك لحكم بالغة منها تأكيد الالفة والمودة بين المؤمنين وقال

ولم تقهر ولم ترد الى حد الاعتدال وقد قيل فى تأويل قوله تعالى ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به معناه شدة الغلمة وعن ابن عباس (١) فى قوله تعالى ومن شر غاسق اذا وقب قال هو قيام الذكر وقد أسنده بعض الرواة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أنه قال فى تفسيره الذكر اذا دخل وقد قيل اذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله (٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه أعوذ بك من شر سمعى و بصرى وقلبى ومنى ومنيى وقال عليه السلام (٣) النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال روى ان موسى عليه السلام كان جالسا فى بعض مجالسه اذ أقبل اليه ابليس وعليه برنس يتلون فيه ألوانا فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال السلام عليك يا موسى فقال له موسى من أنت فقال أنا ابليس فقال لا حياك الله ما جاء بك قال جئت لاسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه قال فما الذى رأيت عليك قال برنس أختطف به قلوب بنى آدم قال فما الذى اذا صنعه الانسان استحوذت عليه قال اذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه وأحذرك ثلاثا لا تحل بامرأة لا تحل لك فانه ما خلا رجل بامرأة قط الا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها وأفتنها به ولا تعاهد الله عهدا الا وفيت به ولا تخرج من صدقة الا أمضيتها فانه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها الا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه و بين الوفاء بها ثم ولى وهو يقول يا ويلتاه علم موسى ما يحذر به بنى آدم * وعن سعيد بن المسيب قال ما بعث الله نبيا فيما خلا الا لم يبأس ابليس أن يهلكه بالنساء ولا شئ أخوف عندى منهن وما بالمدينة بيت أدخله الا بيتى و بيت ابنتى اغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح وقال بعضهم ان الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى أرمى به فلا أخطئ وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب وأعظم الشهوات شهوة النساء وهذه الشهوة أيضا طرفا افراط وتفريط واعتدال فالافراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال الى الاستمتاع بالنساء والجوارى فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر الى اقتحام الفواحش وقد ينتهى افراطها بطائفة الى أمرين شنيعين * أحدهما أن يتناولوا ما يقوى شهواتهم على الاستكثار من الوقاع كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوى المعدة لتعظم شهوة الطعام وما مثال ذلك الا كمن ابتلى بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه فى بعض الاوقات فيحتال لانارتها وتهييجها ثم يشتغل باصلاحها وعلاجها فان شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الانسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص فان قلت فقد روى فى غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) قال شكوت الى جبرائيل ضعف الوقاع فأمرنى بأكل الهريسة فاعلم انه صلى الله عليه وسلم كان تحته تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالامتاع وحرم على غيره نكاحهن وان طاقهن فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع * والأمر الثانى أنه قد تنتهى هذه الشهوة ببعض الضلال الى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع وهو مجاوزة فى البهيمية لحد البهائم لأن المتعشق ليس يقنع بارافة شهوة الوقاع وهى أقبح الشهوات وأجدرها أن يستحى منه حتى اعتقد أن الشهوة لا تنقضى الا من محل واحد والبهيمة تقضى الشهوة أين اتفق فتكتفى به وهذا لا يكتفى الا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلا الى ذل وعبودية الى عبودية وحتى يستخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعا لا ليكون خادما للشهوة ومحتالا لاجلها وما العشق الا سعة افراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لا هم له وانما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر والا فاذا استحكم عسر دفعه فكذلك عشق المال والجاه والعقار والأولاد حتى حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج فان هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها ألبتة ومثال من يكسر سورة العشق فى أول انبعاثه

(١) حديث ابن عباس موقوفا ومسندا فى قوله تعالى ومن شر غاسق اذا وقب قال هو قيام الذكر وقال الذى أسنده الذكر اذا دخل هذا حديث لا أصل له (٢) حديث اللهم انى أعوذ بك من شر سمعى و بصرى وقلبى ودينى تقدم فى الدعوات (٣) حديث النساء حبائل الشيطان الاصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث خالد ابن زيد الجهنى باسناد فيه جهالة (٤) حديث شكوت الى جبريل ضعف الوقاع فأمرنى بأكل الهريسة

عليه السلام المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (أخبرنا) أبو زرعة قال أنا والدى أبو الفضل قال أنا أبو نصر محمد بن سلمان العدل قال أنا أبو طاهر محمد بن محمد ابن محمش الزيادى قال أنا أبو العباس عبد الله بن يعقوب الكرمانى قال حدثنا يحيى الكرمانى قال حدثنا حماد بن زيد عن مجالد بن سعد عن الشعبى عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا ان مثل المؤمنين فى توادهم وتحابهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر والحمى والتآلف والتودد يؤكد أسباب الصحبة والصحبة مع الاخيار مؤثرة

مثال

مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها الى باب لتدخله وما أهون منعها بصرف عنانها ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها الى ورائها وما أعظم التفاوت بين الامرين فى اليسر والعسر فليكن الاحتياط فى بدايات الامور فأما فى أواخرها فلا تقبل العلاج الا بجهد جهيد يكاد يؤدى الى نزع الروح فاذا افراط الشهوة أن يغلب العقل الى هذا الحد وهو مذموم جدا وتفريطها بالعنة أو بالضعف عن امتاع المنكوحة وهو أيضا مذموم وانما المحمود أن تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع فى انتهاضها وانبساطها ومهما افرطت فكسرها بالجوع والنكاح قال صلى الله عليه وسلم (١) معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فالصوم له وجاء

(بيان ما على المريد فى ترك التزويج وفعله)

اعلم أن المريد فى ابتداء أمره ينبغى أن لا يشغل نفسه بالتزويج فان ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجره الى الانس بالزوجة ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) فانه كان لا يشغل قلبه جميع ما فى الدنيا عن الله تعالى فلا تقاس الملائكة بالحدادين ولذلك قال أبو سليمان الدارانى من تزوج فقد ركن الى الدنيا وقال ما رأيت مريدا تزوج فثبت على حاله الاول وقيل له مرة ما أحوجك الى امرأة تأنس بها فقال لا آنسنى الله بها أى ان الانس بها يمنع الانس بالله تعالى وقال أيضا كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤم فكيف يقاس غير رسول صلى الله عليه وسلم به وقد كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احتراقه فيه الى حد كان يخشى منه فى بعض الاحوال أن يسرى ذلك الى قالبه فيهدمه فلذلك (٣) كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحيانا ويقول كلينى يا عائشة لتشغلنى بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه فقد كان طبعه الانس بالله عز وجل وكان أنسه بالخلق عارضا رفقا ببدنه ثم انه كان لا يطيق الصبر مع الخلق اذا جالسهم فاذا ضاق صدره قال (٤) أرحنا بها يا بلال حتى يعود الى ما هو قرة عينه (٥) فالضعيف اذا لاحظ أحواله فى مثل هذه الامور فهو مغرور لأن الافهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله صلى الله عليه وسلم فشرط المريد العزبة فى الابتداء الى أن يقوى فى المعرفة هذا اذا لم تغلبه الشهوة فان غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم فان لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا وان قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة والا فهما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره ويتفرق عليه همه ورب موقع فى بلية لا يطيقها وزنا العين من كبار الصغائر وهو يؤدى على القرب الى الكبيرة الفاحشة وهى زنا الفرج ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه قال عيسى عليه السلام اياكم والنظرة فانها تزرع فى القلب شهوة وكفى بها فتنة وقال سعيد بن جبير انما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة ولذلك قال لابنه عليه السلام يا بنى امش خلف الاسد والاسود ولا تمش خلف المرأة وقيل ليحيى عليه السلام ما بدء الزنا قال النظر والتمنى وقال الفضيل يقول ابليس هو قوسى القديمة وسهمى الذى لا أخطئ به يعنى النظر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) النظرة سهم مسموم من سهام ابليس فمن تركها خوفا من الله تعالى أعطاه الله تعالى ايمانا يجد حلاوته فى قلبه وقال صلى الله عليه وسلم (٧) ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء وقال صلى الله عليه وسلم (٨) اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بنى اسرائيل كانت من قبل النساء وقال تعالى

العقيلى فى الضعفاء طس من حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع (١) حديث معاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج الحديث تقدم فى النكاح (٢) حديث كان لا يشغل قلبه عن الله تعالى جميع ما فى الدنيا تقدم (٣) حديث كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحيانا ويقول كلينى يا عائشة لم أجد له أصلا (٤) حديث أرحنا بها يا بلال تقدم فى الصلاة (٥) حديث ان الصلاة كانت قرة عينه تقدم أيضا (٦) حديث النظرة سهم مسموم من سهام ابليس الحديث تقدم أيضا (٧) حديث ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء متفق عليه من حديث أسامة بن زيد (٨) حديث اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء

جدا (وقد قيل) لقاء الاخوان لقاح ولا شك ان البواطن تتلقح ويتقوى البعض بالبعض بل مجرد النظر الى أهل الصلاح يؤثر صلاحا والنظر فى الصور يؤثر أخلاقا مناسبة لخلق المنظور اليه كدوام النظر الى المحزون يحزن ودوام النظر الى المسرور يسر (وقد قيل) من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه والجلل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الجلل الذلول فالمقارنة لها تأثير فى الحيوان والنبات والجماد والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف والزروع تنتقى عن أنواع العروق فى الارض والنبات لموضع الافساد بالمقارنة واذا كانت المقارنة مؤثرة فى هذه الاشياء فتى النفوس الشريفة

قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم الآية وقال عليه السلام (١) لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر واليدان تزنيان وزناهما البطش والرجلان تزنيان وزناهما المشي والفم يزني وزناه القبلة والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه * (٢) وقالت أم سلمة استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ومميونة جالستان فقال عليه السلام احتجبا فقلنا أوليس باعمى لا يبصرنا فقال وأنتما لا تبصرانه وهذا يدل على انه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة في المآتم والولائم فيحرم على الاعمى الخلوة بالنساء ويحرم على المرأة مجالسة الاعمى وتحديق النظر اليه لغير حاجة وانما جوز للنساء محادثة الرجال والنظر اليهم لاجل عموم الحاجة وان قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به فان الشر في الصبيان أكثر فانه لو مال قلبه الى امرأة أمكنه الوصول الى استباحتها بالنكاح والنظر الى وجه الصبي بالشهوة حرام بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الامرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحي لم يحل له النظر اليه فان قلت كل ذي حس يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لا محالة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة فأقول لست أعني تفرقة العين فقط بل ينبغي أن يكون ادراكه التفرقة كادراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة وبين ماء صاف وماء كدر وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها فانه يميل الى احداهما بعينه وطبعه ولكن ميلا خاليا عن الشهوة ولاجل ذلك لا يشتهي ملامسة الازهار والأنوار ونقبيلها ولا تقبيل الماء الصافي وكذلك الشيبة الحسنة قد تميل العين اليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لا شهوة فيها ويعرف ذلك بميل النفس الى القرب والملامسة فيهما وجد ذلك الميل في قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين النبات الحسن والاثواب المنقشة والسقوف المذهبة فنظره نظر شهوة فهو حرام وهذا مما يتهاون به الناس ويجرهم ذلك الى المعاطب وهم لا يشعرون قال بعض التابعين ما أنا باخوف من السبع الضاري على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس اليه * وقال سفيان لو أن رجلا عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لواطا وعن بعض السلف قال سيكون في هذه الامة ثلاثة أصناف لوطيون صنف ينظرون وصنف يصافحون وصنف يعملون فاذا آفة النظر الى الاحداث عظيمة فهما عجز المريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح فرب نفس لا يسكن توقانها بالجوع (وقال بعضهم) غلبت على شهوتي في بدء ارادتي بمالم أطق فأكثرت الضجيج الى الله تعالى فرأيت شخصا في المنام فقال مالك فشكوت اليه فقال تقدم الى فتقدمت اليه فوضع يده على صدري فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي فأصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة ثم عاودني ذلك فأكثرت الاستغاثة فأتاني شخص في المنام فقال لي أتحب أن يذهب ما تجده وأضرب عنقك قلت نعم فقال مد رقبتك فمددتها فجر دسيفا من نور فضرب به عنقي فأصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة ثم عاودني ذلك أو أشد منه فرأيت كان شخصا فيما بين جنبي وصدري يخاطبني ويقول ويحك كم تسأل الله تعالى رفع ما لا يحب رفعه قال فتزوجت فانقطع ذلك عني وولد لي ومهما احتاج المريد الى النكاح فلا ينبغي ان يترك شرط الارادة في ابتداء النكاح ودوامه أما في ابتدائه فبالنية الحسنة وفي دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة كما فصلنا جميع ذلك في كتاب آداب النكاح فلا نطول باعادته وعلامة صدق ارادته ان ينكح فقيرة متدينة ولا يطلب الغنية (قال بعضهم) من تزوج غنية كان له منها خمس خصال مغالاة الصداق وتسويف الزفاف وفوت الخدمة وكثرة النفقة واذا أراد طلاقها لم يقدر خوفا على ذهاب مالها والفقيرة بخلاف ذلك وقال بعضهم ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل باربع والا استحقرته بالسن والطول والمال والحسب وان تكون

(١) حديث لكل ابن آدم حظه من الزنا فالعينان تزنيان الحديث م هق واللفظ له من حديث أبي هريرة واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس نحوه (٢) حديث أم سلمة استأذن ابن أم مكتوم الأعمى وأنا ومميونة جالستان فقال احتجبا الحديث دن ت وقال حسن صحيح

البشرية أكثر تأثيرا وسمى الانسان انسانا لانه يأنس بما يراه من خير وشر والتألف والتودد مستجلب للمزيد وانما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة الى أراذل الناس وأهل الشر فأما أهل العلم والصفاء والوفاء والاخلاق الجيدة فيغتنم مقارنتهم والاستئناس بهم استئناس بالله تعالى كما ان محبتهم محبة الله والجامع معهم رابطة الحق ومع غيرهم رابطة الطبع فالصوفي مع غير الجنس كائن بائن ومع الجنس كائن مغاير والمؤمن مرآة المؤمن اذا نظر الى أخيه يستكشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات الهيبة وتعريفات وتلويحات من الله الكريم خفية غابت عن الاغيار

فوقه بار بع بالجمال والادب والورع والخلق وعلامة صدق الارادة فى دوام النكاح الخاق * تزوج بعض المريدين بامرأة فلم يزل يخدمها حتى استحيت المرأة وشكت ذلك الى أبيها وقالت قد تحيرت فى هذا الرجل أتانى منزله منذ سنين ماذهبت الى الخلاء قط الا وجل الماء قبلى اليه وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدرى فاشتد حزن أهلها لذلك خوفا من أن يستقبحها فأراهم الرجل انه قد أصابه رمد ثم أراهم ان بصره قد ذهب حتى زفت اليه فزال عنهم الحزن فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك فقيل له فى ذلك فقال تعمدته لاجل أهلها حتى لا يحزنوا فقيل له قد سبقت اخوانك بهذا الخلق * وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقيل له لم لا تطلقها فقال أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها فان تزوج المريد فهكذا ينبغى أن يكون وان قدر على الترك فهو أولى له اذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم ان ذلك يشغله عن حاله كما روى أن محمد بن سليمان الهاشمى كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم فكتب الى أهل البصرة وعلمائها فى امرأة يتزوجها فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى فكتب اليها بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان الله تعالى قد ملكنى من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم وليس تمضى الايام والليالى حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبينى فكتبت اليه بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث الهم والحزن فاذا أتاك كتابى هذا فهيئ زادك وقدم لمعادك وكن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك فصم الدهر وليكن فطرك الموت وأما أنا فلو أن الله تعالى خولنى أمثال الذى خولك وأضعافه ما سرنى أن أشتغل عن الله طرفة عين وهذه اشارة الى ان كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان فلينظر المريد الى حاله وقلبه فان وجده فى العزوبة فهو الاقرب وان عجز عن ذلك فالنكاح أولى به ودواء هذه العلة ثلاثة أمور الجوع وغض البصر والاشتغال بشغل يستولى على القلب فان لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذى يستأصل مادتها فقط ولهذا كان السلف يبادرون الى النكاح والى تزويج البنات قال سعيد بن المسيب ما أيس ابليس من أحد الا وأتاه من قبل النساء وقال سعيد أيضا وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت احدى عينيه وهو يعشو بالاخرى ما شئ أخوف عندى من النساء وعن عبد الله بن أبى وداعة قال كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفقدنى أياما فلما أتيته قال أين كنت قلت توفيت أهلى فاشتغلت بها فقال هلا أخبرتنا فنشهدناها قال ثم أردت أن أقوم فقال هل استحدثت امرأة فقلت يرحمك الله تعالى ومن يزوجنى وما أملك الا درهمين أو ثلاثة فقال أنا فقلت وتفعل قال نعم فحمد الله تعالى وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وزوجنى على درهمين أو قال ثلاثة قال فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح فصرت الى منزلى وجعلت أفكر ممن آخذ ومن أستدين فصليت المغرب وانصرفت الى منزلى فأسرجت وكنست صائما فقدمت عشائى لافطر وكان خبزا وزيتا واذا بابى يقرع فقلت من هذا فقال سعيد قال فأفكرت فى كل انسان اسمه سعيد الا سعيد ابن المسيب وذلك انه لم ير أربعين سنة الا بين داره والمسجد قال فخرجت اليه فاذا به سعيد بن المسيب فظننت انه قد بدا له فقلت يا أبا محمد لو أرسلت الى لاتيتك فقال لا أنت أحق أن تؤتى قلت فما تأمر قال انك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك وهذه امرأتك واذا هى قائمة خلفه فى طوله ثم أخذ بيدها فدفعها فى الباب ورده فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ثم تقدمت الى القصعة التى فيها الخبز والزيت فوضعتها فى ظل السراج لكيلا تراه ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاؤنى وقالوا ما شأنك قلت ويحكم زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا أو سعيد زوجك قلت نعم قالوا وهى فى الدار قلت نعم فنزلوا اليها وبلغ ذلك أمى فجاءت وقالت وجهى من وجهك حرام ان مسستها قبل أن أصلحها الى ثلاثة أيام قال فأقمت ثلاثا ثم دخلت بها فاذا هى من أجمل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج قال فمكثت شهرا لا يأتينى سعيد ولا آتيه فلما كان بعد الشهر أتيته

وأدركها أهل الانوار * ومن أخلاق الصوفية شكر المحسن على الاحسان والدعاء له وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم وصفاء توحيدهم وقطعهم النظر الى الاغيار ورؤيتهم النعم من المنعم الجبار ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال ما من الناس أحد أمن علينا فى صحبته وذات يده من ابن أبى قحافة ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا وقال ما نفعنى مال كمال أبى بكر فالخلق حجبوا عن الله بالخلق فى المنع والعطاء فالصوفى فى الابتداء يفنى عن الخلق ويرى الاشياء من الله

وهو فى حلقته فسلمت عليه فرد على السلام ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس فقال ما حال ذلك الانسان فقلت بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو قال ان رابك منه أمر فدونك والعصا فانصرفت الى منزلى فوجه الى بعشرين ألف درهم قال عبد الله بن سليمان وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك ابن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبى سعيد أن يزوجه فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط فى يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف فاستجمال سعيد فى الزفاف تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة فى الدين الى تطفئة نارها بالنكاح رضى الله تعالى عنه ورحمه

(بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين)

اعلم أن هذه الشهوة هى أغلب الشهوات على الانسان وأعصاها عند الهيجان على العقل الا أن مقتضاها قبيح يستحيا منه ويخشى من اقتحامه وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها اما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه وليس فى شئ من ذلك ثواب فانه ايثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر نعم من العصمة أن لا يقدر ففى هذه العوائق فائدة وهى دفع الاثم فان من ترك الزنا اندفع عنه اثمه بأى سبب كان تركه وانما الفضل والثواب الجزيل فى تركه خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الاسباب لاسيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد وقال عليه السلام (٢) سبعة يظلهم الله يوم القيامة فى ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله وعد منهم رجلا دعته امرأة ذات جمال وحسب الى نفسها فقال انى أخاف الله رب العالمين وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك فى كتابه العزيز وهو امام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان فى هذه الشهوة العظيمة وروى أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها وخرج هاربا من منزله وتركها فيه قال سليمان فرأيت تلك الليلة فى المنام يوسف عليه السلام وكانى أقول له أنت يوسف قال نعم أنا يوسف الذى هممت وأنت سليمان الذى لم تهم أشار به الى قوله تعالى ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وعنه أيضا ما هو أعجب من هذا وذلك انه خرج من المدينة حاجا ومعه رفيق له حتى نزلا بالابواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق الى السوق ليبتاع شيأ وجلس سليمان فى الخيمة وكان من أجل الناس وجها وأورعهم فبصرت به اعرابية من قلة الجبل وانحدرت اليه حتى وقفت بين يديه وعليها البرقع والقفازان فأسفرت عن وجه لها كانه فلقة قمر وقالت أهنئنى فظن انها تريد طعاما فقام الى فضلة السفرة ليعطيها فقالت لست أريد هذا انما أريد ما يكون من الرجل الى أهله فقال جهزك الى ابليس ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ فى النحيب فلم يزل يبكى فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك قال خير ذكرت صبيتى قال لا والله الا ان لك قصة انما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها فلم يزل به حتى أخبره خبر الاعرابية فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكى بكاء شديدا فقال له سليمان وأنت ما يبكيك قال أنا أحق بالبكاء منك لانى أخشى ان لو كنت مكانك لما صبرت عنها فلم يزالا يبكيان فلما انتهى سليمان الى مكة فسعى وطاف ثم أتى الحجر فاحتبى بثوبه فأخذته عيناه فنام واذا رجل وسيم طوال له شارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان رحمك الله من أنت قال له أنا يوسف قال يوسف الصديق قال نعم قال ان فى شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا فقال له يوسف شأنك وشأن صاحبة الابواء أعجب وروى عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد ك فى التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكر على سويد ابن سعيد ثم قال يقال ان يحيى لما ذكر له هذا الحديث قال لو كان لى فرس ورمح غزوت سويدا ورواه الخرائطى من غير طريق سويد بسند فيه نظر (٢) حديث سبعة يظلهم الله فى ظله الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

سعيث طالع ناصيته التوحيد وخرق الحجاب الذى منع الخلق عن صرف التوحيد فلا يثبت للخلق منعا ولا عطاء ويحجبه الحق عن الخلق فاذا ارتقى الى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق ويثبت لهم وجودا فى المنع والعطاء بعد ان يرى المسبب أولا وذلك لسعة علمه وقوة معرفته يثبت الوسائط فلا يحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين ولا يحجبه الحق عن الخلق كارباب الارادة والمبتدئين فيكون شكره للحق لانه المنعم والمعطى والمسبب ويشكر الخلق لانهم واسطة وسبب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يدعى الى الجنة الحامدون

وسلم (١) يقول انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت الى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم اللهم انك تعلم انه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بى طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ومالا فلبثت والقدح فى يدى أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون حول قدمى فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيأ لا يستطيعون الخروج منه وقال الآخر اللهم انك تعلم انه كان لى ابنة عم من أحب الناس الى فراودتها عن نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها مائة وعشرين دينارا على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى اذا قدرت عليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهى من أحب الناس الى وتركت الذهب الذى أعطيتها اللهم ان كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها وقال الثالث اللهم انى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فانه ترك الأجر الذى له وذهب ففيت له أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال يا عبد الله أعطنى أجرى فقلت كل ما ترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق فقال يا عبد الله أتهزأ بى فقلت لا أستهزئ بك فأخذه فاستاقه وأخذه كله ولم يترك منه شيأ اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون فهذا أفضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة فعف وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين فان العين مبدأ الزنا فحفظها مهم وهو عسر من حيث انه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ والنظرة الأولى اذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها قال صلى الله عليه وسلم (٢) لك الأولى وعليك الثانية أى النظرة وقال العلاء بن زياد لا تتبع بصرك رداء المرأة فان النظر يزرع فى القلب شهوة وقلما يخلو الانسان عن تردده عن وقوع البصر على النساء والصبيان فهما تخايل اليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة وعنده ينبغى أن يقرر فى نفسه ان هذه المعاودة عين الجهل فانه ان حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له الا التحسر وان استقبح لم يلتذ وتألم لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه فلا يخلو فى كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات فان أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعى غاية القوة ونهاية التوفيق فقد روى عن أبى بكر بن عبد الله المزنى أن فصابا أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها فى حاجة فطم الى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له لا تفعل لأنا أشد حبا لك منك لى ولكنى أخاف الله قال فأنت تخافينه وأنا لا أخافه فرجع تائبا فأصابه العطش حتى كاد يهلك فاذا هو برسول لبعض أنبياء بنى اسرائيل فسأله فقال مالك قال العطش قال تعال حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية قال مالى من عمل صالح فأدعو فادع أنت قال أنا أدعو وأمن أنت على دعائى فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتى انتهيا الى القرية فأخذ القصاب الى مكانه فقالت السحابة معه فقال له الرسول زعمت ان ليس لك عمل صالح وأنا الذى دعوت وأنت الذى أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك لتخبرنى بأمرك فأخبره فقال الرسول ان التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه وعن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال كان عندنا بالكوفة شاب متعبد لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت فنظرت اليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له يا فتى اسمع منى كلمات أكلمك بهن ثم اعمل ما شئت فمضى ولم يكلمها ثم وقفت له بعد ذلك

(١) حديث ابن عمر انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت الى غار فذكر الحديث بطوله رواه خ

(٢) حديث لك الاولى وليست لك الثانية أى النظرة د ت من حديث بريدة قال لعلى قال ت حديث غريب

الذين يحمدون الله تعالى فى السراء والضراء وقال عليه السلام من عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال دفع الله تعالى بها عنه سبعين داء أهونها الجذام (وروى) جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد ينعم عليه بنعمة فحمد الله الا كان الحمد أفضل منها فقوله عليه السلام كان الحمد أفضل منها يحتمل أن يرضى الحق بها شكرا ويحتمل ان الحمد أفضل منها نعمة فتكون نعمة الحمد أفضل من النعمة التى حمد عليها فاذا شكروا المنعم الأول يشكرون الواسطة المنعم من الناس ويدعون له (روى) أنس رضى الله عنه قال

على طريقه وهو يريد منزله فقال له يافتى اسمع منى كلمات أكلمك بها فأطرق مليا وقال لها هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعا فقال له والله ما وقفت موقفى هذا جهالة منى بأمرك ولكن معاذالله أن يتشوف العباد الى مثل هذا منى والذى حلنى على أن لقيتك فى مثل هذا الأمر بنفسى لمعرفتى ان القليل من هذا عند الناس كثير وأنتم معاشر العباد على مثال الفوار برأدنى شئ يعيبها وجملة ما أقول لك ان جوارحى كلها مشغولة بك فالله الله فى أمرى وأمرك قال فمضى الشاب الى منزله وأراد أن يصلى فلم يعقل كيف يصلى فأخذ قرطاسا وكتب كتابا ثم خرج من منزله واذا بالمرأة واقفة فى موضعها فألقى الكتاب اليها ورجع الى منزله وكان فيه بسم الله الرحمن الرحيم اعلمى أيتها المرأة ان الله عزوجل اذا عصاه العبد حلم فاذا عاد الى المعصية مرة أخرى ستره فاذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه فان كان ماذكرت باطلا فانى أذكرك يوما تكون السماء فيه كالمهل وتصير الجبال كالعهن وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم وانى والله قد ضعفت عن اصلاح نفسى فكيف باصلاح غيرى وان كان ماذكرت حقا فانى أدلك على طبيب هدى يداوى الكلوم المميضة والأوجاع المرمضة ذلك الله رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة فانى مشغول عنك بقوله تعالى وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فأين المهرب من هذه الآية ثم جاءت بعد ذلك بايام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع لمنزله كيلا يراها فقالت يافتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدا الا غدا بين يدى الله تعالى ثم بكت بكاء شديدا وقالت أسأل الله الذى بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك ثم انها تبعته وقالت امنن على بموعظة أجلها عنك وأوصنى بوصية أعمل عليها فقال لها أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار قال فأطرقت وبكت بكاء شديدا أشد من بكائها الاول ثم انها أفاقت ولزمت بيتها وأخذت فى العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمدا فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكى فيقال له مم بكاؤك وأنت قد أيأستها من نفسك فيقول انى قد ذبحت طمعها فى أول أمرها وجعلت قطيعتها ذخيرة لى عند الله تعالى فأنا أستحيى منه ان أسترد ذخيرة ادخرتها عنده تعالى * تم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه يتلوه ان شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الارض والسماء وسلم تسليما كثيرا

(كتاب آفات اللسان وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات من كتاب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى أحسن خلق الانسان وعدله وألهمه نور الايمان فزينه به وجمله وعلمه البيان فقدمه به وفضله وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله ثم أرسل عليه سترا من رحمته وأسبله ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ويكشف عنه ستره الذى أرسله وأطلق بالحق مقوله وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله من علم حصله ونطق سهله وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله الذى أكرمه وبجله ونبيه الذى أرسله بكتاب أنزله وأسمى فضله وبين سبله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله ما كبر الله عبد وهلله (أما بعد) فان اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فانه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه اذ لا يستبين الكفر والايمان الا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ثم انه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم الا واللسان يتناوله ويتعرض له باثبات أو نفى فان كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان اما بحق أو باطل ولا شئ الا والعلم متناول له وهذه خاصية لا توجد

(كتاب آفات اللسان)

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أفطر عند قوم قال أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الابرار ونزلت عليكم السكينة (أخبرنا) أبو زرعة عن أبيه قال أنا أحمد ابن محمد بن أحمد البزار قال أنا أبو حفص عمر بن ابراهيم قال ثنا عبد الله بن محمد البغوى قال أنا عمرو بن زرارة قال ثنا سفيان بن عيينة عن يونس عن موسى ابن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال لأخيه جزاك الله خيرا فقد أبلغ فى الثناء * ومن أخلاق الصوفية بذل الجاه للاخوان والمسلمين كافة فاذا كان الرجل وافر العلم بصيرا بعيوب النفس وآفاتها وشهواتها

فى سائر الاعضاء فان العين لا تصل الى غير الالوان والصور والآذان لا تصل الى غير الاصوات واليد لا تصل الى غير الاجسام وكذلك سائر الاعضاء واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحده فى الخير مجال رحب وله فى الشر ذيل سحب فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقه الى شفا جرف هار الى أن يضطره الى البوار ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان الا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه الا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته فى عاجله وآجله وعلم ما يحمد فيه اطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير وأعصى الاعضاء على الانسان اللسان فانه لا تعب فى اطلاقه ولا مؤونة فى تحريكه وقد تساهل الخلق فى الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصايده وحبائله وانه أعظم آلة الشيطان فى استغواء الانسان ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل مجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها ونعرف طريق الاحتراز عنها ونورد ما ورد من الاخبار والآثار فى ذمها فنذكر أولا فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يعنى ثم آفة فضول الكلام ثم آفة الخوض فى الباطل ثم آفة المراء والجدال ثم آفة الخصومة ثم آفة التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ثم آفة اللعن اما الحيوان أو جماد أو انسان ثم آفة الغناء بالشعر وقد ذكرنا فى كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده ثم آفة المزاح ثم آفة السخرية والاستهزاء ثم آفة افشاء السر ثم آفة الوعد الكاذب ثم آفة الكذب فى القول واليمين ثم بيان التعاريض فى الكذب ثم آفة الغيبة ثم آفة النميمة ثم آفة ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين فيكلم كلا واحدا بكلام يوافقه ثم آفة المدح ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطافى خوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط باصول الدين ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل وعن كلامه وعن الحروف أهى قديمة أو محدثة وهى آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجملتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

(بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت)

اعلم ان خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره الا بالصمت فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم (١) من صمت نجا وقال عليه السلام (٢) الصمت حكم وقليل فاعله أى حكمة وحزم (٣) وروى عبد الله بن سفيان عن أبيه قال قلت يا رسول الله أخبرنى عن الاسلام بامر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت فما أتقى فأومأ بيده الى لسانه (٤) وقال عقبة بن عامر قلت يا رسول الله ما النجاة قال أمسك عليك لسانك ولسعك بيتك وابك على خطيئتك (٥) وقال سهل بن سعد الساعدى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة وقال صلى الله عليه وسلم (٦) من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقى الشر كله القبقب هو البطن والذبذب الفرج واللقلق اللسان فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق

(١) حديث من صمت نجات من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبرانى بسند جيد (٢) حديث الصمت حكمة وقليل فاعله أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال والصحيح عن أنس ان لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان فى كتاب روضة العقلاء بسند صحيح الى أنس (٣) حديث سفيان الثقفى اخبرنى عن الاسلام بامر لا أسأل عنه أحدا بعدك الحديث ت وصححه و ن ه وهو عندهم دون آخر الحديث الذى فيه ذكر اللسان (٤) حديث عقبة بن عامر قلت يا رسول الله ما النجاة قال املك عليك لسانك الحديث ت وقال حسن (٥) حديث سهل بن سعد من يتوكل لى بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة رواه خ (٦) حديث من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه الحديث أبو منصور الديلمى

فليتوصل الى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة فى اصلاح ذات البين وفى هذا المعنى يحتاج الى مزيد علم لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم ولا يصلح ذلك الا لصوفى تام الحال عالم ربانى (روى) عن زيد بن أسلم أنه قال كان نبى من الأنبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس (وقال عطاء) لأن يرانى الرجل سنين فيكتسب جاها يعيش فيه مؤمن أتم له من أن يخاص العمل لنجاة نفسه وهذا باب غامض لا يؤمن ان يفتتن به خلق من الجهال المدعين ولا يصلح هذا الا لعبد اطلع الله على باطنه فعلم منه ان لا رغبة له فى شئ من الجاه والمال ولو أن

ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج (١) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال الاجوفان الفم والفرج فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لانه محله ويحتمل أن يكون المراد به البطن لانه منفذة فقد قال (٢) معاذ بن جبل قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول فقال ثكلتك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم (٣) وقال عبد الله الثقفي قلت يارسول الله حدثني بامر أعتصم به فقال قل ربي الله ثم استقم قلت يارسول ما أخوف ما تخاف علي فأخذ بلسانه وقال هذا (٤) وروى أن معاذا قال يارسول الله أي الاعمال أفضل فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه (٥) وقال أنس ابن مالك قال صلى الله عليه وسلم لا يستقيم ايمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه وقال صلى الله عليه وسلم (٦) من سره أن يسلم فليلزم الصمت وعن سعيد بن جبير مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (٧) اذا أصبح ابن آدم أصبحت الاعضاء كلها تذكر اللسان أي تقول اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا (٨) وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له ما تصنع يا خليفة رسول الله قال هذا أوردني الموارد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شئ من الجسد الا يشكو الى الله اللسان على حدته (٩) وعن ابن مسعود انه كان على الصفا يلبي ويقول باللسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شئ تقوله أو شئ سمعته فقال لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أكثر خطايا ابن آدم في لسانه (١٠) وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر الى الله قبل الله عذره (١١) وروى أن معاذ

من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ فقد وجبت له الجنة (١) حديث سئل عن أكثر ما يدخل الجنة الحديث ت وصححه وه من حديث أبي هريرة (٢) حديث معاذ قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول فقال ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم ت وصححه وه ك وقال صحيح على شرط الشيخين (٣) حديث عبد الله الثقفي قلت يارسول الله حدثني بامر أعتصم به الحديث رواه ن قال ابن عساكر وهو خطأ والصواب سفيان بن عبد الله الثقفي كما رواه ت وصححه ه وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث (٤) حديث ان معاذا قال يارسول الله أي الاعمال أفضل فاخرج لسانه ثم وضع يده عليه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت وقال أصبعه مكان يده (٥) حديث أنس لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الاخلاق بسند فيه ضعف (٦) حديث من سره أن يسلم فليلزم الصمت ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو الشيخ في فضائل الاعمال والبيهقي في الشعب من حديث أنس باسناد ضعيف (٧) حديث اذا أصبح ابن آدم أصبحت الاعضاء كلها تذكر اللسان الحديث ت من حديث أبي سعيد الخدري رفعه ووقع في الاحياء عن سعيد بن جبير مرفوعا وانما هو عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رفعه ورواه ت موقوفا على عمار بن زيد وقال هذا أصح (٨) حديث ان عمر اطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه فقال ما تصنع يا خليفة رسول الله قال ان هذا أوردني الموارد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شئ من الجسد الا يشكو الى الله عز وجل اللسان على حدته ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو يعلى في مسنده والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر وقال الدارقطني ان المرفوع وهم على الدار وردي قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له (٩) حديث ابن مسعود انه كان على الصفا يلبي ويقول باللسان قل خيرا تغنم وفيه مرفوعا ان أكثر خطايا بني آدم في لسانه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن (١٠) حديث ابن عمر من كف لسانه ستر الله عورته الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن (١١) حديث ان معاذا قال

ابن

ملوك الارض وقفوا في خدمته ماطنى ولا استطال ولو دخل الى أتون يوقد ما ظهرت نفسه بصريح الانكار لهذا الحال وهذا لا يصلح الا لآحاد من الخلق وأفراد من الصادقين ينسلخون عن ارادتهم واختيارهم ويكاشفهم الله تعالى بمراده منهم فيدخلون في الاشياء بمراد الله تعالى فاذا علموا أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل الجاه يدخلون في ذلك بغيبة صفات النفس وهذا لاقوام ماتوا ثم حشروا وأحكموا مقام الفناء ثم رقوا الى مقام البقاء فيكون لهم في كل مدخل ومخرج برهان وبيان واذن من الله تعالى فهم على بصيرة من ربهم وهذا ليس فيهم ارتياب لصاحب

ابن جبل قال يارسول الله أوصنى قال اعبد الله كانك تراه وعد نفسك فى الموتى وان شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله وأشار بيده الى لسانه (١) وعن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بايسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق (٢) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أوليسكت (٣) وقال الحسن ذكر لنا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال رحم الله عبدا تكلم فغنم أوسكت فسلم وقيل لعيسى عليه السلام دلنا على عمل ندخل به الجنة قال لاتنطقوا أبدا قالوا لانستطيع ذلك فقال فلا تنطقوا الا بخير وقال سليمان بن داود عليهما السلام ان كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب (٤) وعن البراء بن عازب قال جاء اعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال أطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فان لم تطق فكف لسانك الا من خير وقال صلى الله عليه وسلم (٥) اخزن لسانك الا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان وقال صلى الله عليه وسلم ان الله ليغضب لسان كل قائل فليتق الله امرؤ علم ما يقول وقال عليه السلام (٦) اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقن الحكمة (٧) وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ثلاثة غانم وسالم وشاجب فالغانم الذى يذكر الله تعالى والسالم الساكت والشاجب الذى يخوض فى الباطل وقال عليه السلام (٨) ان لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشئ تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه وان لسان المنافق أمام قلبه فاذا هم بشئ أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه وقال عيسى عليه السلام العبادة عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت وجزء فى الفرار من الناس وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٩) من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به (الآثار) كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يضع حصاة فى فيه يمنع بها نفسه عن الكلام وكان يشير الى لسانه ويقول هذا الذى أوردنى الموارد وقال عبد الله بن مسعود والله الذى لا اله الا هو ماشئ أحوج الى طول سجن من لسان وقال طاوس لسانى سبع ان أرسلته أكلنى وقال وهب بن منبه فى حكمة آل داود حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه حافظا للسانه مقبلا على شانه وقال الحسن ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه وقال الأوزاعى كتب الينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد فان من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا

أوصنى قال اعبد الله كانك تراه الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت وطب ورجاله ثقات وفيه انقطاع (١) حديث صفوان ابن سليم مرفوعا ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه أبو الشيخ فى طبقات المحدثين من حديث أبى ذر وأبى الدرداء أيضا مرفوعا (٢) حديث أبى هريرة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أوليسكت متفق عليه (٣) حديث الحسن ذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله عبدا تكلم فغنم أوسكت فسلم ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فانه من رواية اسماعيل بن عياش عن الحجازيين (٤) حديث البراء جاء اعرابى فقال دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال أطعم الجائع الحديث ابن أبى الدنيا باسناد جيد (٥) حديث اخزن لسانك الا من خير الحديث طص من حديث أبى سعيد وله فى المعجم الكبير ولابن حبان فى صحيحه نحوه من حديث أبى ذر (٦) حديث اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقى الحكمة ه من حديث أبى خلاد بلفظ اذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا فى الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة وقد تقدم (٧) حديث ابن مسعود الناس ثلاثة غانم وسالم وشاجب الحديث الطبرانى وأبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ المجالس وضعفه ابن عدى ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود (٨) حديث ان لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشئ تدبره بقلبه الحديث لم أجده مرفوعا وانما رواه الخرائطى فى مكارم الاخلاق من رواية الحسن البصرى قال كانوا يقولون (٩) حديث من كثر كلامه كثر سقطه الحديث أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حبان فى روضة العقلاء والبيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بن الخطاب

قلب مكاشف بصريح المراد فى خفى الخطاب فيأخذ وقته أبدا من الاشياء ولم تأخذ الاشياء من وقته ولا يكون فى قطر من الاقطار الا واحد متحقق بهذا الحال (قال) أبو عثمان الحيرى لايكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء المنع والعطاء والعز والذل ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه والدخول فيما ذكرناه (قال) سهل بن عبد الله لايستحق الانسان الرياسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال يصرف جهله عن الناس ويحتمل جهل الناس ويترك ما فى أيديهم ويبذل ما فى يده لهم وهذه الرياسة ليست عين

بالبسير ومن عد كلامه من عمله قل كلامه الا فيما يعنيه وقال بعضهم الصمت يجمع للرجل فضيلتين السلامة فى دينه والفهم عن صاحبه وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم وقال يونس بن عبيد ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال الا رأيت صلاح ذلك فى سائر عمله وقال الحسن تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والاحنف بن قيس ساكت فقال له مالك يا أبا بحر لا تتكلم فقال له أخشى الله ان كذبت وأخشاك ان صدقت وقال أبو بكر بن عياش اجتمع أربعة ملوك ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر فقال أحدهم أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل وقال الآخر انى اذا تكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها واذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى وقال الثالث عجبت للمتكلم ان رجعت عليه كلمته ضرته وان لم ترجع لم تنفعه وقال الرابع أنا على ردما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت وقيل أقام المنصور بن المعتزلم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة وقيل ما تكلم الربيع بن خثيم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان اذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقلما فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء فان قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه فاعلم ان سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وايذاء الخلق وهتك العورات فهذه آفات كثيرة وهى سياقة الى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة فى القلب وعلها بواعث من الطبع ومن الشيطان والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويمسكه ويكفه عما لا يحب فان ذلك من غوامض العلم كما سيأتى تفصيله ففى الخوض خطر وفى الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة فقد قال الله تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة أقسام قسم هو ضرر محض وقسم هو نفع محض وقسم فيه ضرر ومنفعة وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة * أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفى بالضرر وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى الا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع وهذا الربع فيه خطر اذ يمتزج بما فيه اثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجا يخفى درکه فيكون الانسان به مخاطرا ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره علم قطعا أن ماذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال (١) من صمت نجا (٢) فلقد أوتى والله جوامع الحكم قطعا وجوامع الكلم ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعانى الا خواص العلماء وفيما نذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفك حقيقة ذلك ان شاء الله تعالى ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ونترقى الى الأغلظ قليلا ونؤخر الكلام فى الغيبة والنميمة والكذب فان النظر فيها أطول وهى عشرون آفة فأعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى

(الآفة الأولى الكلام فيما لا يعنيك)

اعلم ان أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التى ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا الا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك اليه فانك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير لانك لو صرفت زمان الكلام الى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ولو هلت

(١) حديث من صمت نجا تقدم (٢) حديث انه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم م من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(الآفة الأولى الكلام فيما لا يعنيك)

الرياسة التى زهد فيها وتعين الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه وانما هذه رياسة أقامها الحق لصلاح خلقه فهو فيها بالله يقوم بواجب حقها وشكر نعمتها لله تعالى

(الباب الحادى والثلاثون فى ذكر الأدب ومكانه من التصوف)

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أدبنى ربى فأحسن تأديبى فالأدب تهذيب الظاهر والباطن فاذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيا أديبا وانما سميت المأدبة مأدبة لاجتماعها على أشياء ولا يتكامل الأدب فى العبد الا بتكامل مكارم الأخلاق ومكارم الأخلاق مجموعها من تحسين الخلق فالخلق صورة الانسان والخلق معناه فقال بعضهم

الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك فكم من كلمة يبنى بها قصر فى الجنة ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرا خسرانا مبينا وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فانه وان لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى (١) فان المؤمن لا يكون صمته الا فكرا ونظره الا عبرة ونطقه الا ذكرا هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها الى مالا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم (٢) من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه بل ورد ما هو أشد من هذا قال أنس (٣) استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئا لك الجنة يا بنى فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه و يمنع ما لا يضره وفى حديث آخر (٤) أن النبى صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشى حتى أتاه فلما دخل عليه قال أبشر يا كعب فقالت أمه هنيأ لك الجنة يا كعب فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتألية على الله قال هى أمى يا رسول الله قال وما يدريك يا أم كعب لعل كعبا قال مالا يعنيه أو منع مالا يغنيه ومعناه انه انما تنتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه وان كان كلامه مباحا فلا تنتهيأ الجنة له مع المناقشة فى الحساب فانه نوع من العذاب وعن محمد بن كعب (٥) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام فقام اليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا أخبرنا بأوثق عمل فى نفسك ترجو به فقال انى لضعيف وان أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك مالا يعنينى وقال أبو ذر (٦) قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل فى الميزان قلت بلى يا رسول الله قال هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك وقال مجاهد سمعت ابن عباس يقول خمس لهن أحب الى من الدهم الموقوفة لا تتكلم فيما لا يعنيك فانه فضل ولا آمن عليك الوزر ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا فانه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعنت ولا تمار حليما ولا سفيها فان الحليم يقليك والسفيه يؤذيك واذكر أخاك اذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به وأعفه مما تحب أن يعفيك منه وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالاحسان مأخوذ بالاجترام وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك قال لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف مالا يعنينى وقال مورق العجلى أمر أتانى فى طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا وما هو قال السكوت عما لا يعنينى وقال عمر رضى الله عنه لا تتعرض لما لا يعنيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم الا الأمين ولا أمين الا من خشى الله تعالى ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك واستشر فى أمرك الذين يخشون الله

(١) حديث المؤمن لا يكون صمته الا فكرا ونظره الا عبرة ونطقه الا ذكرا لم أجد له أصلا وروى محمد بن زكريا العلائى أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله أمرنى أن يكون نطقى ذكرا وصمتى فكرا ونظرى عبرة (٢) حديث من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه ت وقال غريب وه من حديث أبى هريرة (٣) حديث استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع الحديث وفيه لعله كان يتكلم بما لا يعنيه و يمنع ما لا يضره ت من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف (٤) حديث ان النبى صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض الحديث وفيه لعل كعبا قال مالا يعنيه أو منع مالا يغنيه ابن أبى الدنيا من حديث كعب بن عجرة باسناد جيد الا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابى و بين الراوى عنه (٥) حديث محمد بن كعب ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام الحديث وفيه ان أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك مالا يعنينى ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا وفيه أبو نجيح اختلف فيه (٦) حديث أبى ذر ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن الحديث وفيه هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك ابن أبى الدنيا بسند منقطع

الخلق لا سبيل الى تغييره كالخلق وقد ورد فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والأجل وقد قال تعالى لا تبديل لخلق الله والأصح ان تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليه بخلاف الخلق وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال حسنوا أخلاقكم وذلك ان الله تعالى خلق الانسان وهيأه لقبول الصلاح والفساد وجعله أهلا للادب ومكارم الاخلاق ووجود الاهلية فيه كوجود النار فى الزناد ووجود النخل فى النوى ثم ان الله تعالى بقدرته ألهم الانسان ومكنه من اصلاحه بالتربية الى أن يصير النوى نخلا والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نارا وكما جعل فى

تعالى وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به فى حال ولا مال مثاله أن تجلس مع قوم فتذكرهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار وما وقع لك من الوقائع وما استحسنته من الأطعمة والثياب وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ورقائهم فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر واذا بالغت فى الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشئ مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك وأنى تسلم من الآفات التى ذكرناها ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد أجأت صاحبك أيضا بالجواب الى التضييع هذا اذا كان الشئ مما لا يتطرق الى السؤال عنه آفة وأكثر الاسئلة فيها آفات فانك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له هل أنت صائم فان قال نعم كان مظهرا لعبادته فيدخل عليه الرياء وان لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات وان قال لا كان كاذبا وان سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به وان احتال لمدافعة الجواب افتقر الى جهد وتعب فيه فقد عرضته بالسؤال اما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب فى حيلة الدفع وكذلك سؤالك عن سائر عباداته وكذلك سؤالك عن المعاصى وعن كل ما يخفيه ويستحى منه وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول له ماذا تقول وفيم أنت وكذلك ترى انسانا فى الطريق فتقول من أين فر بما يمنعه مانع من ذكره فان ذكره تأذى به واستحيا وان لم يصدق وقع فى الكذب وكنت السبب فيه وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك اليها والمسؤل ربما لم تسمح نفسه بان يقول لا أدرى فيجيب عن غير بصيرة ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الاجناس فان هذا يتطرق اليه اثم أو ضرر وانما مثال ما لا يعنى ما روى ان لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يتعجب مما رأى فاراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال نعم الدرع للحرب فقال لقمان الصمت حكم وقليل فاعله أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال وقيل انه كان يتردد اليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال فهذا وأمثاله من الاسئلة اذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط فى رياء وكذب فهو مما لا يعنى وتركه من حسن الاسلام فهذا حده * وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به اليه أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الاوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها وعلاج ذلك كله ان يعلم ان الموت بين يديه وانه مسؤل عن كل كلمة وان أنفاسه رأس ماله وان لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين هذا علاجه من حيث العلم واما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة فى فيه وان يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه وضبط اللسان فى هذا على غير المعتزل شديد جدا

(الآفة الثانية فضول الكلام)

وهو أيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه ان يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول أى فضل عن الحاجة وهو أيضا مذموم لما سبق وان لم يكن فيه اثم ولا ضرر قال عطاء بن أبى رباح ان من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمر بمعروف أو نهيا عن منكر أو أن تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لا بد لك منها أتنكرون أن عليكم حافظين كراما كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد أما يستحيى أحدكم اذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه وعن بعض الصحابة قال ان الرجل ليكلمنى بالكلام لجوابه أشهى الى من الماء البارد الى الظمآن فاترك جوابه خيفة أن

نفس الانسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الاصلاح والافساد فقال سبحانه وتعالى ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها فقد سويتها بصلاحيتها للشيئين جميعا ثم قال عز وجل قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها فاذا تزكت النفس تدربت بالعقل واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة وتهذبت الاخلاق وتكونت الآداب فالادب استخراج ما فى القوة الى الفعل وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه والسجية فعل الحق لا قدرة للبشر على تكوينها كتكون النار فى الزناد اذ هو فعل الله المحض واستخراجه بكسب الآدمى فهكذا الآداب

يكون فضولا وقال مطرف ليعظم جلال الله فى قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار اللهم اخزه وما أشبه ذلك * واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى قال الله عز وجل لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس وقال صلى الله عليه وسلم (١) طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله فانظر كيف قلب الناس الامر فى ذلك فامسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال (٢) قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا وأنت أطولنا علينا طولا وأنت الجفنة الغراء وأنت وأنت فقال قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان اشارة الى أن اللسان اذا أطاق بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان الى الزيادة المستغنى عنها وقال ابن مسعود أنذركم فضول كلامكم حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته وقال مجاهد ان الكلام ليكتب حتى ان الرجل ليسكت ابنه فيقول أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذابا وقال الحسن يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل وروى ان سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفرا ينظرون ما يقول ويخبرونه فاخبروه بانه مر فى السوق فرفع رأسه الى السماء ثم نظر الى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال عجبت من الملائكة على رؤس الناس ما أسرع ما يكتبون ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون وقال ابراهيم التيمى اذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فان كان له تكلم والا أمسك والفاجر انما لسانه رسلا رسلا وقال الحسن من كثر كلامه كثر كذبه ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ومن ساء خلقه عذب نفسه وقال عمرو بن دينار (٣) تكلم رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فاكثر فقال له صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب فقال شفتاى وأسنانى قال أفما كان لك فى ذلك ما يرد كلامك وفى رواية انه قال ذلك فى رجل أثنى عليه فاستهتر فى الكلام ثم قال ما أوتى رجل شرا من فضل فى لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه انه ليمنعنى من كثير من الكلام خوف المباهاة وقال بعض الحكماء اذا كان الرجل فى مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وان كان ساكتا فأعجبه السكوت فليتكلم وقال يزيد ابن أبى حبيب من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع فان وجد من يكفيه فان فى الاستماع سلامة وفى الكلام تزيين وزيادة ونقصان وقال ابن عمر ان أحق ما طهر الرجل لسانه ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال لو كانت هذه خرساء كان خيرا لها وقال ابراهيم يهلك الناس خلتان فضول المال وفضول الكلام فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه وعلاجه ما سبق فى الكلام فيما لا يعنى

(الآفة الثالثة الخوض فى الباطل)

وهو الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الاغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة فان كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام وأما الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الاولى ولا تحريم فيه نعم من يكثر الكلام فيما لا يعنى لا يؤمن عليه الخوض فى الباطل وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه باعراض الناس أو الخوض فى الباطل

(١) حديث طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله البغوى وابن قانع فى معجمى الصحابة والبيهقى من حديث ركب المصرى وقال ابن عبد البر انه حديث حسن وقال البغوى لا أدرى سمع من النبى صلى الله عليه وسلم أم لا وقال ابن منده مجهول لا نعرف له صحبة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا الحديث دن فى اليوم والليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف (٣) حديث عمرو بن دينار تكلم رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال كم دون لسانك من باب الحديث ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات

(الآفة الثالثة الخوض فى الباطل)

منبعها السجايا الصالحة والمنح الالهية ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجايا فيها توصلوا بحسن الممارسة والرياضة الى استخراج ما فى النفوس مركوز بخلق الله تعالى الى الفعل فصاروا مؤدبين مهذبين والآداب تقع فى حق بعض الاشخاص من غير زيادة ممارسة ورياضة لقوة ما أودع الله تعالى فى غرائزهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدبنى ربى فأحسن تأديبى وفى بعض الناس من يحتاج الى طول الممارسة لنقصان قوى أصولها فى الغريزة فلهذا احتاج المريدون الى صحبة المشايخ لتكون الصحبة والتعلم عونا على استخراج ما فى الطبيعة الى الفعل

وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا تخلص منها الا بالاقتصار على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا وفى هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها فقد قال بلال بن الحرث (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه الى يوم القيامة وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه الى يوم القيامة وكان علقمة يقول كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحرث وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٢) ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا وقال أبو هريرة ان الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم وان الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها فى أعلى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم (٣) أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل وإليه الاشارة بقوله تعالى وكنا نخوض مع الخائضين وبقوله تعالى فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم اذا مثلهم وقال سلمان أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما فى معصية الله وقال ابن سيرين كان رجل من الانصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم توضؤا فان بعض ما تقولون شر من الحدث فهذا هو الخوض فى الباطل وهو وراء ما سيأتى من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها بل هو الخوض فى ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل اليها من غير حاجة دينية الى ذكرها ويدخل فيه أيضا الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض فى الباطل نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه

(الآفة الرابعة المراء والجدال)

وذلك منهى عنه قال صلى الله عليه وسلم (٤) لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه وقال عليه السلام (٥) ذروا المراء فانه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته وقال صلى الله عليه وسلم (٦) من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت (٧) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول ما عهد الى ربى ونهانى عنه بعد عبادة الاوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال وقال أيضا (٨) ما ضل قوم بعد أن هداهم الله الا أوتوا الجدل وقال أيضا (٩) لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يدع المراء وان كان محقا وقال أيضا

---

(١) حديث بلال بن الحارث ان الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله الحديث ه ت وقال حسن صحيح

(٢) حديث ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة بسند حسن وللشيخين وت ان الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا فى النار لفظ ت وقال حسن غريب (٣) حديث أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل ابن أبى الدنيا من حديث قتادة مرسلا ورجاله ثقات ورواه هو والطبرانى موقوفا على ابن مسعود بسند صحيح

(الآفة الرابعة المراء والمجادلة)

(٤) حديث لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه ت من حديث ابن عباس وقد تقدم (٥) حديث ذروا المراء فانه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته طب من حديث أبى الدرداء وأبى أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع باسناد ضعيف دون قوله لا تفهم حكمته ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا موقوفا على ابن مسعود

(٦) حديث من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة الحديث تقدم فى العلم (٧) حديث أم سلمة ان أول ما عهد الى ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى والبيهقى بسند ضعيف وقد رواه ابن أبى الدنيا فى المراسيل من حديث عروة بن رويم (٨) حديث ما ضل قوم الا أوتوا الجدل ت من حديث أبى أمامة وصححه وزاد بعد هدى كانوا عليه وتقدم فى العلم وهو عند ابن أبى الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف (١) حديث لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يذر المراء وان كان محقا ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب فى

قال الله تعالى قوا أنفسكم وأهليكم نارا قال ابن عباس رضى الله عنهما فقهوهم وأدبوهم وفى لفظ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدبنى ربى فاحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الاخلاق فقال خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * قال يوسف بن الحسين بالادب يفهم العلم وبالعلم يصح العمل وبالعمل تنال الحكمة وبالحكمة يقام الزهد وبالزهد تترك الدنيا وبترك الدنيا يرغب فى الآخرة وبالرغبة فى الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى (قيل) لما ورد أبو حفص العراق جاء اليه الجنيد فرأى أصحاب أبى حفص وقوفا على رأسه يأتمرون لأمره لا يخطئ أحدهم فقال يا أبا حفص

(١) ست من كن فيه بلغ حقيقة الايمان الصيام فى الصيف وضرب أعداء الله بالسيف وتعجيل الصلاة فى اليوم الدجن والصبر على المصيبات واسباغ الوضوء على المكاره وترك المراء وهو صادق وقال الزبير لابنه لا تجادل الناس بالقرآن فانك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل وقال مسلم بن يسار اياكم والمراء فانه ساعة جهل العالم وعندها يبتغى الشيطان زلته وقيل ماضل قوم بعد اذ هداهم الله الا بالجدال وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه ليس هذا الجدال من الدين فى شئ وقال أيضا المراء يقسى القلوب ويورث الضغائن وقال لقمان لابنه يابنى لا تجادل العلماء فيمقتوك وقال بلال بن سعد اذا رأيت الرجل لجوجا ممار يا معجبا برأيه فقد تمت خسارته وقال سفيان لو خالفت أخى فى رمانة فقال حلوة وقات حامضة لسعى الى السلطان وقال أيضا صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش وقال ابن أبى ليلى لا أمارى صاحبى فاما أن أكذبه واما أن أغضبه وقال أبو الدرداء كفى بك اثما أن لا تزال ممار يا وقال صلى الله عليه وسلم

(٢) تكفير كل لحاء ركعتان وقال عمر رضى الله عنه لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث لا تتعلمه لتمارى به ولا لتباهى به ولا لترائى به ولا تتركه حياء من طلبه ولا زهادة فيه ولا رضا بالجهل منه وقال عيسى عليه السلام من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه وقيل لميمون بن مهران مالك لا تترك أخاك عن قلى قال لأنى لا أشاريه ولا أماريه وما ورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه امافى اللفظ وامافى المعنى وامافى قصد المتكلم وترك المراء بترك الانكار والاعتراض فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدق به وان كان باطلا وكذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان وكيفما كان فلا وجه لاظهار خلله وأما فى المعنى فبان يقول ليس كما تقول وقد تخطأت فيه من وجه كذا وكذا وأما فى قصده فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وانما أنت فيه صاحب غرض ومايجرى مجراه وهذا الجنس ان جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال فى معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة أو التلطف فى التعريف لا فى معرض الطعن وأما المجادلة فعبارة عن قصد افحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته الى القصور والجهل فيه وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل يحب أن يكون هو المظهر له خطأه ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه ولا نجاة من هذا الا بالسكوت عن كل مالا يأثم به لو سكت عنه وأما الباعث على هذا فهو الترفع باظهار العلم والفضل والتهجم على الغير باظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها أما اظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس وهى من مقتضى مافى العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهى من صفات الربوبية وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فانه يقتضى أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وانما قوتهما المراء والجدال فالمواظب على المراء والجدال مقو لهذه الصفات المهلكة وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه ايذاء الغير ولا تنفك المماراة عن الايذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ويقدح فى قائله بكل مايتصور له فيثور الشجار بين المتمارين كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما ان يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى فى الخامه والجامه وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث

---

(١) حديث ست من كن فيه بلغ حقيقة الايمان الحديث وفيه ترك المراء وهو صادق أبو منصور الديلمى من حديث أبى مالك الاشعرى بسند ضعيف بلفظ ست خصال من الخير الحديث

(٢) حديث تكفير كل لحاء ركعتان الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف

أدبت أصحابك أدب الملوك فقال لا يا أبا القاسم ولكن حسن الأدب فى الظاهر عنوان الأدب فى الباطن قال أبو الحسين النورى ليس لله فى عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة وآداب الشريعة حلية الظاهر والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلى بمحاسن الآداب قال عبد الله بن المبارك أدب الخدمة أعز من الخدمة (حكى) عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة وربما كنت أستاق وأمد رجلى فجاءتنى عائشة المكية فقالت لى يا أبا عبيد يقال انك من أهل العلم اقبل منى كلمة لا تجالسه الا بادب والا

له على اظهار فضله والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب فان علاج كل علة باماطة سببها وسبب المراء والجدال ماذكرناه ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعا حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائي لم آثرت الانزواء قال لاجاهد نفسي بترك الجدال فقال احضر المجالس واستمع مايقال ولا تتكلم قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد على منها وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه تعسر عليه الصبر عند ذلك جدا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا في أعلى الجنة لشدة ذلك على النفس وأكثر مايغلب ذلك في المذاهب والعقائد فان المراء طبع فاذا ظن ان له عليه ثوابا اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه وذلك خطأ محض بل ينبغي للانسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة واذا رأى مبتدعا تلطف في نصحه في خلوة لا بطريق الجدال فان الجدال يخيل اليه انها حيلة منه في التلبيس وان ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتتأكد فاذا عرف أن النصح لاينفع اشتغل بنفسه وتركه وقال صلى الله عليه وسلم (١) رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة الا بأحسن مايقدر عليه وقال هشام بن عروة كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعا اذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها

(الآفة الخامسة الخصومة)

وهي أيضا مذمومة وهي وراء الجدال والمراء فالمراء طعن في كلام الغير باظهار خلل فيه من غير ان يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مزية الكاسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها والخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا والمراء لايكون الا باعتراض على كلام سبق فقد قالت عائشة رضي الله عنها (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبغض الرجال الى الله الالد الخصم وقال أبو هريرة (٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع وقال بعضهم اياك والخصومة فانها تمحق الدين ويقال ماخاصم ورع قط في الدين وقال ابن قتيبة مر بي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة فقال مايجلسك ههنا قلت خصومة بيني وبين ابن عم لي فقال ان لأبيك عندي يدا واني أريد أن أجزيك بها واني والله مارأيت شيأ أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة قال فقمت لا نصرف فقال لي خصمي مالك قلت لا أخاصمك قال انك عرفت ان الحق لي قلت لا ولكن أكرم نفسي عن هذا قال فاني لا أطلب منك شيأ هو لك فان قلت فاذا كان للانسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلم فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته فاعلم ان هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضي فانه قبل أن يتعرف ان الحق في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أي جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الايذاء ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات

(١) حديث رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة الا بأحسن مايقدر عليه ابن أبي الدنيا باسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ رحم الله امرأ كف لسانه عن اعراض المسلمين وهو منقطع وضعيف جدا

(الآفة الخامسة الخصومة)

(٢) حديث عائشة ان أبغض الرجال الى الله الالد الخصم خ وقد تقدم (٣) حديث أبي هريرة من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ابن أبي الدنيا والاصفهاني في الترغيب والترهيب وفيه رجاء أبو يحيى

فيحيى اسمك من ديوان القرب قال أبو عبيد وكانت من العارفات وقال ابن عطاء النفس مجبولة على سوء الادب والعبد مأمور بملازمة الأدب والنفس تجرى بطباعها في ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده الى حسن المطالبة فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية ومهما أعانها فهو شريكها وقال الجنيد من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه لان العبودية ملازمة الادب والطغيان سوء الادب (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو النصر الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال

مؤذية ليس يحتاج اليها فى نصرة الحجة واظهار الحق ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع انه قد يستحقر ذلك القدر من المال وفى الناس من يصرح به ويقول انما قصدى عناده وكسر عرضه وانى ان أخذت منه هذا المال رميت به فى بئر ولا أبالى وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء ففعله ليس بحرام ولكن الأولى تركه ما وجد اليه سبيلا فان ضبط اللسان فى الخصومة على حد الاعتدال متعذر والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب واذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان فى عرضه فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى انه فى صلاته يشتغل بحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب فالخصومة مبدأ كل شر وكذا المراء والجدال فينبغى أن لا يفتح بابه الا لضرورة وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا فمن اقتصر على الواجب فى خصومته سلم من الاثم ولا تذم خصومته الا أنه ان كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما نعم أقل ما يفوته فى الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب اذ أقل درجات طيب الكلام اظهار الموافقة ولا خشونة فى الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذى حاصله اما تجهيل واما تكذيب فان من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام وقد قال الله تعالى وقولوا للناس حسنا وقال ابن عباس رضى الله عنهما من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وان كان مجوسيا ان الله تعالى يقول واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها أو ردوها وقال ابن عباس أيضا لو قال لى فرعون خيرا لرددت عليه وقال أنس (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام وروى أن عيسى عليه السلام مر بخنزير فقال مر بسلام فقيل يا روح الله أتقول هذا للخنزير فقال أكره أن أعود لساني الشر وقال نبينا عليه السلام (٣) الكلمة الطيبة صدقة وقال (٤) اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة وقال عمر رضى الله عنه البرشئ هين وجه طليق وكلام لين وقال بعض الحكماء الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح وقال بعض الحكماء كل كلام لا يسخط ربك الا انك ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلا فانه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين هذا كله فى فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج فانه الكلام المستكره الموحش المؤذى للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

(الآفة السادسة)

التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات وماجرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأتقياء أمتى برآء من التكلف وقال صلى الله عليه وسلم (٥) ان أبغضكم الى وأبعدكم منى مجالسا الثرثارون

ضعفه الجمهور (١) حديث يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام الطبرانى من حديث جابر وفيه من لا أعرفه وله من حديث هانى أبى شريح باسناد جيد يوجب الجنة اطعام الطعام وحسن الكلام (٢) حديث أنس ان فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها الحديث ت وقد تقدم (٣) حديث الكلمة الطيبة صدقة م من حديث أبى هريرة (٤) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة الحديث متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقدم

(الآفة السادسة التقعر فى الكلام والتشدق)

(٥) حديث ان أبغضكم الى الله وأبعدكم منى مجالسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون أحمد من حديث ابى ثعلبة وهو عند ت من حديث جابر وحسنه بلفظ ان أبغضكم الى

أنا أبو العباس المحبوبى أنا أبو عيسى الترمذى قال ثنا قتيبة قال ثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك عن جابر ابن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع (وروى) أيضا انه قال عليه السلام ما نحل والد ولدا من نحلة أفضل من أدب حسن (وروت) عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه (وقال) أبو على الدقاق العبد يصل بطاعته الى الجنة وبادبه فى طاعته الى الله تعالى (قال) أبو القاسم القشيرى رحمه الله كان الاستاذ أبو على

المتفيهقون المتشدقون فى الكلام وقالت فاطمة رضى الله عنها (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ألا هلك المتنطعون ثلاث مرات والتنطع هو التعمق والاستقصاء وقال عمر رضى الله عنه ان شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان وجاء عمرو بن سعد بن أبى وقاص الى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يدى حاجته بكلام فقال له سعد ما كنت من حاجتك بابعد منك اليوم انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٣) يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقر الكلأ بالسنتها وكانوا ننكر عليه ما قدمه على الكلام من التشيب والمقدمة المصنوعة المتكلفة وهذا أيضا من آفات اللسان ويدخل فيه كل سجع متكلف وكذلك التفاصح الخارج عن حد العادة وكذلك التكلف بالسجع فى المحاورات اذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة فى الجنين فقال بعض قوم الجانى (٤) كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك بطل فقال أسجعا كسجع الاعراب وأنكر ذلك لان أثر التكلف والتصنع بين عليه بل ينبغى أن يقتصر فى كل شئ على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض وماوراء ذلك تصنع مذموم ولا يدخل فى هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير افراط واغراب فان المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به فاما المحاورات التى تجرى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم ولا باعث عليه الا الرياء واظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه

(الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان)

وهو مذموم ومنهى عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم (٥) اياكم والفحش فان الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش (٦) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال لا تسبوا هؤلاء فانه لا يخلص اليهم شئ مما تقولون وتؤذون الاحياء ألا ان البذاء لؤم وقال صلى الله عليه وسلم (٧) ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذى وقال صلى الله عليه وسلم (٨) الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها وقال صلى الله عليه وسلم (٩) أربعة يؤذون أهل النار فى النار على ما بهم من الاذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له مابال الابعد قد آذانا على ما بنا من الاذى فيقول ان الابعد كان ينظر الى

(١) حديث فاطمة شرار أمتى الذين غذوا فى النعيم الحديث وفيه ويتشدقون ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب

(٢) حديث ألا هلك المتنطعون م من حديث ابن مسعود (٣) حديث سعد يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها رواه أحمد (٤) حديث كيف يدى من لا شرب ولا أكل الحديث م من حديث المغيرة بن شعبة وأبى هريرة وأصلهما عند خ أيضا

(الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان)

(٥) حديث اياكم والفحش الحديث ن فى الكبرى فى التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ورواه ابن حبان من حديث أبى هريرة (٦) حديث النهى عن سب قتلى بدر من المشركين الحديث ابن أبى الدنيا من حديث محمد بن على الباقر مرسلا ورجاله ثقات وللنسائى من حديث ابن عباس باسناد صحيح ان رجلا وقع فى أب للعباس كان فى الجاهلية فلطمه الحديث وفيه لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحيانا (٧) حديث ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان الفاحش ولا البذى ت باسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم وصححه وروى موقوفا قال الدارقطنى فى العلل والموقوف أصح (٨) حديث الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها ابن أبى الدنيا وأبو نعيم فى الحلية من حديث عبد الله بن عمرو (٩) حديث أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الاذى الحديث وفيه ان الابعد كان ينظر الى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث ابن أبى الدنيا من حديث شفى بن ماتع واختلف فى صحبته فذكره أبو نعيم فى الصحابة وذكره خ حب فى التابعين

لا يستند الى شئ فكان يوما فى مجمع فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لانى رأيته غير مستند فتنحى عن الوسادة قليلا فتوهمت انه توقى الوسادة لانه لم يكن عليها خرقة أو سجادة فقال لا أريد الاستناد فتأملت بعد ذلك فعلمت انه لا يستند الى شئ أبدا (وقال) الجلالى البصرى التوحيد يوجب الايمان فمن لا ايمان له لا توحيد له والايمان يوجب الشريعة فمن لا شريعة له لا ايمان له ولا توحيد له والشريعة توجب الادب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا ايمان له ولا توحيد (وقال) بعضهم الزم الادب ظاهرا وباطنا فما أساء أحد الادب ظاهرا الا عوقب ظاهرا وما أساء

كل كلمة قذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة (١) ياعائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء وقال صلى الله عليه وسلم (٢) البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق فيحتمل أن يراد بالبيان كشف مالا يجوز كشفه ويحتمل أيضا المبالغة فى الايضاح حتى ينتهى الى حد التكلف ويحتمل أيضا البيان فى أمور الدين وفى صفات الله تعالى فان القاء ذلك مجملا الى أسماع العوام أولى من المبالغة فى بيانه اذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فاذا أجملت بادرت القلوب الى القبول ولم تضطرب ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحيى الانسان من بيانه فان الاولى فى مثله الاغماض والتغافل دون الكشف والبيان وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ان الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح فى الاسواق وقال جابر بن سمرة (٤) كنت جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم وأبى أمامى فقال صلى الله عليه وسلم ان الفحش والتفاحش ليسا من الاسلام فى شئ وان أحسن الناس اسلاما أحاسنهم أخلاقا وقال ابراهيم بن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة فى صورة كلب أو فى جوف كلب وقال الاحنف بن قيس ألا أخبركم بادواء الداء اللسان البذى والخلق الدنى فهذه مذمة الفحش فاما حده وحقيقته فهو التعبير عن الامور المستقبحة بالعبارات الصريحة وأكثر ذلك يجرى فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به فان لاهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقارنها ويتعلق بها وقال ابن عباس ان الله حى كريم يعفو ويكنو كنى باللمس عن الجماع فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها فى الشتم والتعيير وهذه العبارات متفاوتة فى الفحش وبعضها أفحش من بعض وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها وليس يختص هذا بالوقاع بل الكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوط والخراء وغيرهما فان هذا أيضا مما يخفى وكل ما يخفى يستحيا منه فلا ينبغى أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه فحش وكذلك يستحسن فى العادة الكناية عن النساء فلا يقال قالت زوجتك كذا بل يقال قيل فى الحجرة أو من وراء الستر أو قالت أم الاولاد فالتلطف فى هذه الالفاظ محمود والتصريح فيها يفضى الى الفحش وكذلك من به عيوب يستحيى منها فلا ينبغى أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير بل يقال العارض الذى يشكوه وما يجرى مجراه فالتصريح بذلك داخل فى الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان قال العلاء بن هرون كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ فى منطقه فخرج تحت ابطه خراج فأتيناه نسأله لنرى ما يقول فقلنا من أين خرج فقال من باطن اليد والباعث على الفحش اما قصد الايذاء واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب وقال اعرابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) أوصنى فقال عليك بتقوى الله وان امرؤ عيرك بشئ يعلمه فيك فلا تعيره بشئ تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبن شيأ قال فما سببت شيأ بعده وقال عياض بن حمار (٦) قلت يارسول الله ان الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل على من بأس أن أنتصر منه فقال المتسابان

(١) حديث ياعائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء ابن أبى الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبى النضر عن أبى سلمة عنها (٢) حديث البذاء والبيان شعبتان من النفاق ت وحسنه وك وصححه على شرطهما من حديث أبى امامة وقد تقدم (٣) حديث ان الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصياح فى الاسواق ابن أبى الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف وله وللطبرانى من حديث أسامة بن زيد ان الله لا يحب الفاحش المتفحش واسناده جيد (٤) حديث جابر بن سمرة ان الفحش والتفحش ليسا من الاسلام فى شئ الحديث أحمد وابن أبى الدنيا باسناد صحيح (٥) حديث قال اعرابى أوصنى فقال عليك بتقوى الله وان امرؤ عيرك بشئ تعلمه فيك فلا تعيره بشئ تعلمه فيه الحديث أحمد والطبرانى باسناد جيد من حديث أبى جرى الهجيمى قيل اسمه جابر بن سليم وقيل سليم بن جابر (٦) حديث عياض بن حمار قلت يارسول الله الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل على من

أحد الادب باطنا : الا عوقب باطنا قال بعضهم هو غلام الدقاق نظرت الى غلام أمرد فنظر الى الدقاق وأنا أنظر اليه فقال لتجدن غبها ولو بعد سنين قال فوجدت غبها بعد عشرين سنة ان أنسيت القرآن (وقال) سرى صليت وردى ليلة من الليالى ومددت رجلى فى المحراب فنوديت ياسرى هكذا تجالس الملوك فضممت رجلى ثم قلت وعزتك لا مددت رجلى أبدا وقال الجنيد فبقى ستين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهارا (قال عبد الله) بن المبارك من تهاون بالادب عوقب بحرمان السنن ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ومن تهاون بالفرائض عوقب

شيطانان يتعاويان ويتهارجان وقال صلى الله عليه وسلم (١) سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وقال صلى الله عليه وسلم (٢) المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ملعون من سب والديه وفى رواية من أكبر الكبائر ان يسب الرجل والديه قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه

(الآفة الثامنة اللعن)

اما الحيوان أو جماد أو انسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) المؤمن ليس بلعان وقال صلى الله عليه وسلم (٥) لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم وقال حذيفة ما تلاعن قوم قط الا حق عليهم القول وقال عمران بن حصين (٦) بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره اذ امرأة من الانصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها فقال صلى الله عليه وسلم خذوا ما عليها وأعروها فانها ملعونة قال فكأنى أنظر الى تلك الناقة تمشى بين الناس لا يتعرض لها أحد وقال أبو الدرداء ما لعن أحد الارض الا قالت لعن الله أعصانا لله وقالت عائشة رضى الله عنها سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه وقال يا أبا بكر أصديقين ولعانين كلا ورب الكعبة مرتين أو ثلاثا فاعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال لا أعود وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) ان اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة وقال أنس (٩) كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال صلى الله عليه وسلم يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون وقال ذلك انكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز الا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بان يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين وينبغى أن يتبع فيه لفظ الشرع فان فى اللعنة خطرا لانه حكم على الله عز وجل بانه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أطلعه الله عليه والصفات المقتضية للعن ثلاثة الكفر والبدعة والفسق واللعن فى كل واحدة ثلاث مراتب الاولى اللعن بالوصف الاعم كقولك لعنة الله على الكافرين والمبتدعين والفسقة الثانية اللعن باوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض أو على الزناة والظلمة وآكلى الربا وكل ذلك جائز ولكن فى لعن أوصاف المبتدعة خطر لان معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور فينبغى أن يمنع منه العوام لان ذلك يستدعى المعارضة بمثله ويثير

بأس ان انتصر منه فقال المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران د الطيالسى وأصله عند أحمد (١) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث المستبان ما قالا فعلى البادئ حتى يعتدى المظلوم م من حديث أبى هريرة وقال مالم يعتد (٣) حديث ملعون من سب والديه وفى رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه الحديث أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث ابن عباس باللفظ الاول باسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثانى من حديث عبد الله بن عمرو

(الآفة الثامنة اللعن)

(٤) حديث المؤمن ليس بلعان تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا والترمذى وحسنه من حديث ابن عمر لا يكون المؤمن لعانا (٥) حديث لا تلاعنوا بلعنة الله الحديث ت د من حديث سمرة بن جندب قال ت حسن صحيح (٦) حديث عمران بن حصين بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره اذ امرأة من الانصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها الحديث رواه م (٧) حديث عائشة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه فقال يا أبا بكر لعانين وصديقين الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأى فيه (٨) حديث ان اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة م من حديث أبى الدرداء (٩) حديث أنس كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال

نزاعا

بحر من المعرفة (وسئل السرى) عن مسئلة فى الصبر فجعل يتكلم فيها فدب على رجله عقرب فجعلت تضربه بابرتها فقيل له ألا تدفعها عن نفسك قال أستحى من الله أن أتكلم فى حال ثم أخالف ما أعلم فيه وقيل من ادب رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال زويت لى الارض فرأيت مشارقها ومغاربها ولم يقل رأيت (وقال) أنس بن مالك الادب فى العمل علامة قبول العمل (وقال) ابن عطاء الادب الوقوف مع المستحسنات قيل ما معناه قال أن تعامل الله سرا وعلنا بالادب فاذا كنت كذلك كنت أديبا وان كنت أعجميا ثم أنشد

نزاعا بين الناس وفسادا الثالثة اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنه الله وهو كافر أو فاسق أو مبتدع والتفصيل فيه ان كل شخص ثبت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك فرعون لعنه الله وأبو جهل لعنه الله لانه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه فى زماننا كقولك زيد لعنه الله وهو يهودى مثلا فهذا فيه خطر فانه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا فان قلت يلعن لكونه كافرا فى الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلما فى الحال وان كان يتصور أن يرتد فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله أى ثبته الله على الاسلام الذى هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فان هذا سؤال للكفر وهو فى نفسه كفر بل الجائز أن يقال لعنه الله ان مات على الكفر ولا لعنه الله ان مات على الاسلام وذلك غيب لا يدرى والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر وليس فى ترك اللعن خطر واذا عرفت هذا فى الكافر فهو فى زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى فلعن الاعيان فيه خطر لان الاعيان تنقلب فى الاحوال الا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول فى دعائه على قريش (١) اللهم عليك بابى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة قتلوا على الكفر ببدر حتى ان من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه (٢) اذ روى انه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الامر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون يعنى انهم ربما يسلمون فمن أين تعلم انهم ملعونون وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه أذى على مسلم فان كان لم يجز كما روى (٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضى الله عنه عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبى قحافة فقال أبو بكر يكلمنى هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكفف عن أبى بكر فانصرف ثم أقبل على أبى بكر فقال يا أبا بكر اذا ذكرتم الكفار فعمموا فانكم اذا خصصتم غضب الابناء للآباء فكف الناس عن ذلك (٤) وشرب نعيمان الخمر خمد مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال صلى الله عليه وسلم لا تكن

يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون ابن أبى الدنيا باسناد جيد (١) حديث اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث انه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الامر شئ الشيخان من حديث أنس دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا الحديث وفى رواية لهما قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان الحديث ولهما من حديث أبى هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه الحديث وفيه اللهم العن لحيان ورعلا الحديث وفيه ثم بلغنا انه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الامر شئ لفظ م (٣) حديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه الحديث د فى المراسيل من رواية على بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من فوره ذلك الى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فانه كان يجاهد الله ورسوله الحديث وفيه فاذا سببتم المشركين فسبوهم جميعا (٤) حديث شرب نعيمان الخمر خمد مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا عونا للشيطان على أخيك وفى رواية لا تقل هذا فانه يحب الله ورسوله ابن عبد البر فى الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا ومحمد هذا ولد فى حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك والبخارى من حديث عمر أن رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان

اذا نطقت جاءت بكل مليحة * وان سكتت جاءت بكل مليح

وقال الجريرى منذ عشرين سنة ما مددت رجلى فى الخلوة فان حسن الادب مع الله أحسن وأولى * وقال أبو على ترك الادب موجب للطرد فمن أساء الادب على البساط رد الى الباب ومن أساء الادب على الباب رد الى سياسة الدواب * (الباب الثانى والثلاثون فى آداب الحضرة الالهية لاهل القرب) * كل الآداب تتلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه عليه السلام مجمع الآداب ظاهرا وباطنا وأخبر الله تعالى عن حسن أدبه فى الحضرة بقوله تعالى مازاغ البصر وما طغى وهذه غامضة من

عونا للشيطان على أخيك وفى رواية لا تقل هذا فانه يحب الله ورسوله فنهاه عن ذلك وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز وعلى الجملة ففى لعن الاشخاص خطر فليجتنب ولا خطر فى السكوت عن لعن ابليس مثلا فضلا عن غيره فان قيل هل يجوز لعن يزيد لانه قاتل الحسين أو آمر به قلنا هذا لم يثبت أصلا فلا يجوز أن يقال انه قتله أو أمر به ما لم يثبت فضلا عن اللعنة لانه لا تجوز نسبة مسلم الى كبيرة من غير تحقيق نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا وقتل أبو لؤلؤة عمر رضى الله عنهم فان ذلك ثبت متواترا فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق قال صلى الله عليه وسلم (١) لا يرمى رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق الا ارتدت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ما شهد رجل على رجل بالكفر الا باء به أحدهما ان كان كافرا فهو كما قال وان لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره اياه وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم انه مسلم فان ظن انه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئا لا كافرا وقال معاذ (٣) قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصى اماما عادلا والتعرض للاموات أشد قال مسروق دخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت ما فعل فلان لعنه الله قلت توفى قالت رحمه الله قلت وكيف هذا قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) لا تسبوا الاموات فانهم قد أفضوا الى ما قدموا وقال عليه السلام (٥) لا تسبوا الاموات فتؤذوا به الاحياء وقال عليه السلام (٦) أيها الناس احفظونى فى أصحابى واخوانى وأصهارى ولا تسبوهم أيها الناس اذا مات الميت فاذكروا منه خيرا فان قيل فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله أو الآمر بقتله لعنه الله قلنا الصواب أن يقال قاتل الحسين ان مات قبل التوبة لعنه الله لانه يحتمل أن يموت بعد التوبة فان وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله وهو كافر ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ولا يجوز أن يلعن والقتل كبيرة ولا تنتهى الى رتبة الكفر فاذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس فى السكوت خطر فهو أولى وانما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة واطلاق اللسان بها والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغى أن يطلق اللسان باللعنة الا على من مات على الكفر أو على الاجناس المعروفين باوصافهم دون الاشخاص المعينين فالاشتغال بذكر الله أولى فان لم يكن ففى السكوت سلامة قال مكى بن ابراهيم كنا عند ابن عون فذكر وا بلال بن أبى بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون انما نذكر ملما ارتكب منك فقال انما هما كلمتان تخرجان من صحيفتى يوم القيامة لا اله الا الله ولعن الله فلانا فلأن يخرج من صحيفتى لا اله الا الله أحب الى من أن يخرج منها لعن

يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلده فى الشراب فأتى به يوما فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تلعنوه فوالله ما علمت الا أنه يحب الله ورسوله من حديث أبى هريرة فى رجل شرب ولم يسم وفيه لا تعينوا عليه الشيطان وفى رواية لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم (١) حديث لا يرمى رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق الا ارتدت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك متفق عليه والسياق للبخارى من حديث أبى ذر مع تقديم ذكر الفسق (٢) حديث ما شهد رجل على رجل بالكفر الا أتى أحدهما ان كان كافرا فهو كما قال وان لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره اياه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف (٣) حديث معاذ أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصى اماما عادلا أبو نعيم فى الحلية فى أثناء حديث له طويل (٤) حديث عائشة لا تسبوا الاموات فانهم قد أفضوا الى ما قدموا الخ وذكر المصنف فى أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك فى الزهد والرقائق مع القصة (٥) حديث لا تسبوا الاموات فتؤذوا الاحياء الترمذى من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات الا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم (٦) حديث أيها الناس احفظونى فى أصحابى واخوانى وأصهارى ولا تسبوهم أيها الناس اذا مات الميت فاذكروا منه خيرا أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عياض الانصارى احفظونى فى أصحابى وأصهارى واسناده ضعيف وللشيخين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة لا تسبوا أصحابى ولأبى داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم وللنسائى

غوامض الآداب اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس فى الاعراض والاقبال أعرض عما سوى الله وتوجه الى الله وترك وراء ظهره الارضين والدار العاجلة بحظوظها والسموات والدار الآخرة بحظوظها فما التفت الى ما أعرض عنه ولا لحقه الاسف على الغائب فى اعراضه قال الله تعالى لكيلا تأسوا على مافاتكم فهذا الخطاب للعموم وما زاغ البصر اخبار عن حال النبى عليه السلام بوصف خاص من معنى ما خاطب به العموم فكان مازاغ البصر حاله فى طرف الاعراض وفى

الله

الله فلانا وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أوصني فقال أوصيك أن لا تكون لعانا وقال ابن عمر ان أبغض الناس الى الله كل طعان لعان وقال بعضهم لعن المؤمن يعدل قتله وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا الوقلت انه مرفوع لم أبال وعن أبي قتادة قال (٢) كان يقال من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرب من اللعن الدعاء على الانسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الانسان مثلا لاصحح الله جسمه ولا سلمه الله وما يجرى مجراه فان ذلك مذموم وفي الخبر (٣) ان المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة

(الآفة التاسعة)

الغناء والشعر وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح الا أن التجرد له مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا وعن مسروق انه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر وسئل بعضهم عن شئ من الشعر فقال اجعل مكان هذا ذكرا فان ذكر الله خير من الشعر وعلى الجملة فانشاد الشعر ونظمه ليس بحرام اذا لم يكن فيه كلام مستكره قال صلى الله عليه وسلم (٥) ان من الشعر لحكمة نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب وقد يدخله الكذب وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) حسان بن ثابت الانصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح فانه وان كان كذبا فانه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر

ولو لم يكن في كفه غير روحه * لجاد بها فليتق الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء فان لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا وان كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه قالت عائشة رضي الله عنها (٧) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت جالسة أغزل فنظرت اليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فبهت فنظر الي فقال مالك بهت فقلت يارسول الله نظرت اليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو رآك أبو كبير الهذلي لعلم انك أحق بشعره قال وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي قلت يقول هذين البيتين

طرف الافبال تلقى ما ورد عليه في مقام قاب قوسين بالروح والقلب ثم فر من الله تعالى حياء منه وهيبة واجلالا وطوى نفسه بفراره في مطاوى انكساره وافتقاره لكيلا تنبسط النفس فتطغى فان الطغيان عند الاستغناء وصف النفس قال الله تعالى كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع ومتى نالت قسطا من المنح استغنت وطغت والطغيان يظهر منه فرط البسط والافراط في البسط يسد باب المزيد وطغيان النفس لضيق وعائها عن المواهب فموسى عليه السلام صح له في الحضرة

من حديث عائشة لا تذكروا موتاكم الا بخير واسناده جيد (١) حديث قال رجل أوصني قال أوصيك أن لا تكون لعانا أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني من حديث جرموز الهجيمي وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم (٢) حديث لعن المؤمن كقتله متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك (٣) حديث ان المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة لم أقف له على أصل وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف من دعا على من ظلمه فقد انتصر

(الآفة التاسعة الغناء والشعر)

(٤) حديث لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث ابي سعيد (٥) حديث ان من الشعر لحكمة تقدم في العلم وفي آداب السماع (٦) حديث أمره حسانا أن يهجو المشركين متفق عليه من حديث البراء انه صلى الله عليه وسلم قال لحسان أهجهم وجبريل معك (٧) حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت أغزل قالت فنظرت اليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا الحديث وفيه انشاد عائشة لشعر أبي كبير الهذلي

ومبرأ من كل غبر حيضة * وفساد مرضعة وداء مغيل
واذا نظرت الى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام الى وقبل ما بين عينى وقال جزاك الله خيرا يا عائشة ما سررت منى كسروري منك (١) ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو فى شعره وفى آخره

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الابل ثم رجع وهو من أرضى الناس فقال له صلى الله عليه وسلم أتقول فى الشعر فجعل يعتذر اليه ويقول بابى أنت وأمى انى لأجد للشعر دبيبا على لسانى كدبيب النمل ثم يقرصنى كما يقرص النمل فلا أجد بدا من قول الشعر فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين

(الآفة العاشرة المزاح)

وأصله مذموم منهى عنه الا قدر ايسير يستثنى منه قال صلى الله عليه وسلم (٢) لا تمار أخاك ولا تمازحه فان قلت المماراة فيها ايذاء لان فيها تكذيبا للاخ والصديق أو تجهيلا له وأما المزاح فطيبة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينهى عنه فاعلم أن المنهى عنه الافراط فيه أو المداومة عليه أما المداومة فلانه اشتغال باللعب والهزل فيه واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة وأما الافراط فيه فانه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة فى بعض الاحوال وتسقط المهابة والوقار فما يخلو عن هذه الامور فلا يذم كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (٣) انى لأمزح ولا أقول الا حقا الا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول الا حقا وأما غيره اذا قصد باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى النار أبعد من الثريا وقال عمر رضى الله عنه من كثر ضحكه قلت

ومبرأ من كل غبر حيضة * وفساد مرضعة وداء مغيل
فاذا نظرت الى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل

الى آخر الحديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة (١) حديث لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفى آخره شعره

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس فى المجمع
وما كنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه الحديث مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل انسان منهم مائة من الابل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس

أتجعل نهبى ونهب العبيـ * ـد بين عيينة والأقرع
وما كان بدر ولا حابس * يفوقان مرداس فى المجمع
وما كنت دون امرئ منهما * ومن يخفض اليوم لا يرفع

قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزاد فى رواية وأعطى علقمة بن علاثة مائة وأما زيادة اقطعوا عنى لسانه فليست فى شئ من الكتب المشهورة

(الآفة العاشرة المزاح)

(٢) حديث لا تمار أخاك ولا تمازحه الترمذى وقد تقدم (٣) حديث انى أمزح ولا أقول الا حقا تقدم
(٤) حديث ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا تقدم

أحد طرفى ما زاغ البصر وما التفت الى ما فاته وما طغى متأسفا لحسن أدبه ولكن امتلا من المنح واسترقت النفس السمع وتطلعت الى القسط والحظ فلما حظيت النفس استغنت وطفح عليها ما وصل اليها وضاق نطاقها فتجاوز الحد من فرط البسط وقال أرنى أنظر اليك فمنع ولم يطاق فى فضاء المزيد وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام وهذه دقيقة لأرباب القرب والاحوال السنية فكل قبض يوجد عقوبة لأن كل قبض سد فى وجه باب الفتوح والعقوبة بالقبض أوجبت الافراط فى البسط ولو حصل الاعتدال فى البسط ما وجبت

هيبته ومن مزح استخف به ومن أكثر من شئ عرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ولان الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم (١) لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا وقال رجل لاخيه يا أخي هل أتاك أنك وارد النار قال نعم قال فهل أتاك أنك خارج منها قال لا قال ففيم الضحك قيل فما رئي ضاحكا حتى مات وقال يوسف بن أسباط أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك وقيل أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب بن الورد الى قوم يضحكون في عيد فطر فقال ان كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين وان كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار وقال ابن عباس من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبكي وقال محمد بن واسع اذا رأيت في الجنة رجلا يبكي ألست تعجب من بكائه قيل بلى قال فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري الى ماذا يصير هو أعجب منه فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكا والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) قال القاسم مولى معاوية (٣) أقبل اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك مرارا ثم وقصه فقتله فقيل يا رسول الله ان الاعرابي قد صرعه قلوصه وقد هلك فقال نعم وأفواهكم ملأى من دمه وأما أداء المزاح الى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه من مزح استخف به وقال محمد بن المنكدر قالت لي أمي يا بني لا تمازح الصبيان فتهون عندهم وقال سعيد بن العاص لابنه يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدني فيجترئ عليك وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى اتقوا الله واياكم والمزاح فانه يورث الضغينة ويجر الى القبيح تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به فان ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال وقال عمر رضي الله عنه أتدرون لم سمي المزاح مزاحا قالوا لا قال لانه أزاح صاحبه عن الحق وقيل لكل شئ بذور وبذور العداوة المزاح ويقال المزاح مسلبة للهيبة مقطعة للاصدقاء فان قلت قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه فأقول ان قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول الا حقا ولا تؤذي قلبا ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلا حرج عليك فيه ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الانسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر اليهم والى رقصهم ويتمسك بان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) أذن لعائشة في النظر الى رقص الزنوج في يوم عيد وهو خطأ اذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالاصرار ومن المباحات ما يصير صغيرة بالاصرار فلا ينبغي أن يغفل عن هذا نعم روى أبو هريرة (٥) انهم قالوا يا رسول الله انك تداعبنا فقال اني وان داعبتكم لا أقول الا حقا وقال عطاء (٦) ان رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح فقال نعم قال فما كان مزاحه قال كان مزاحه انه صلى الله عليه وسلم كساذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا فقال لها البسيه واحمدي وجري منه ذيلا كذيل

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا متفق عليه من حديث أنس وعائشة (٢) حديث كان ضحكه التبسم تقدم (٣) حديث القاسم مولى معاوية أقبل اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا الى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل يا رسول الله ان الأعرابي قد صرعه قلوصه فهلك قال نعم وأفواهكم ملأى من دمه ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل (٤) حديث اذنه لعائشة في النظر الى رقص الزنوج في يوم عيد تقدم (٥) حديث أبي هريرة قالوا انك تداعبنا قال اني وان داعبتكم فلا أقول الا حقا الترمذي وحسنه (٦) حديث عطاء ان رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح فقال ابن عباس نعم الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نسائه البسيه واحمدي وجري منه ذيلا كذيل العروس لم أقف عليه

العقوبة بالقبض والاعتدال في البسط بايقاف النازل من المنح على الروح والقلب والايقاف على الروح والقلب بما ذكرناه من حال النبي عليه السلام من تغييب النفس في مطاوي الانكسار فذلك الفرار من الله الى الله وهو غاية الادب حظي به رسول الله عليه الصلاة والسلام فاقو بل بالقبض فدام مزيده وكان قاب قوسين أو أدنى ويشاكل الشرح الذي شرحناه قول أبي العباس ابن عطاء في قوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى قال لم يره بطغيان يميل بل رآه على شرط اعتدال القوى وقال سهل بن عبد الله التستري لم يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شاهد نفسه ولا الى مشاهدتها وانما

كان مشاهدا بكليته لربه يشاهد مايظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لماشرحناه برمز فى ذلك عن سهل بن عبدالله ويؤيد ذلك أيضا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى اجازة قال أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار النيسابورى قال أنا أبو بكر أحمد ابن خلف الشيرازى قال أنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى قال سمعت أبا نصر بن عبدالله ابن على السراج قال أنا أبو الطيب العكى عن أبى محمد الجريرى قال التسرع الى استدراك علم الانقطاع وسيلة

العروس وقال أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم (١) كان من أفكه الناس مع نسائه وروى (٢) أنه كان كثير التبسم وعن الحسن (٣) قال أتت عجوز الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز فبكت فقال انك لست بعجوز يومئذ قال الله تعالى انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا وقال لزيد بن أسلم (٤) ان امرأة يقال لها أم أيمن جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجى يدعوك قال ومن هو أهو الذى بعينه بياض قالت والله ما بعينه بياض فقال بلى ان بعينه بياضا فقالت لا والله فقال صلى الله عليه وسلم ما من أحد الا وبعينه بياض وأراد به البياض المحيط بالحدقة وجاءت امرأة أخرى فقالت (٥) يارسول الله احملنى على بعير فقال بل نحملك على ابن البعير فقالت ما أصنع به انه لا يحملنى فقال صلى الله عليه وسلم ما من بعير الا وهو ابن بعير فكان يمزح به وقال أنس كان لابى طلحة ابن يقال له أبو عمير (٦) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول يا أبا عمير ما فعل النغير لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور وقالت عائشة رضى الله عنها (٧) خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فقال تعالى حتى أسابقك فشددت درعى على بطنى ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقنى وقال هذه مكان ذى المجاز وذلك انه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثنى أبى بشئ فقال اعطينيه فأبيت وسعيت وسعى فى أثرى فلم يدركنى وقالت أيضا (٨) سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته فلما حملت اللحم سابقنى فسبقنى وقال هذه بتلك وقالت أيضا رضى الله عنها (٩) كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة كلى فقالت لا أحبه فقلت والله لتأكلن أو لالطخن به وجهك فقالت ما أنا بآكلته فأخذت بيدى من الصحفة شيأ منه فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بينى وبينها فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد منى فتناولت من الصحفة شيأ فمسحت به وجهى وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك وروى أن الضحاك بن سفيان الكلابى (١٠) كان رجلا دميما قبيحا فلما بايعه النبى صلى الله عليه وسلم قال ان عندى امرأتين أحسن من هذه الحمراء وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلا أنزل لك عن احداهما فتتزوجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أهى أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها اياه لانه كان دميما وروى علقمة عن أبى سلمة (١١) أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن على عليهما السلام فيرى الصبى لسانه فيهش له فقال له عيينة بن بدر الفزارى والله ليكونن

(١) حديث أنس كان من أفكه الناس تقدم (٢) حديث انه كان كثير التبسم تقدم (٣) حديث الحسن لا يدخل الجنة عجوز الترمذى فى الشمائل هكذا مرسلا وأسنده ابن الجوزى فى الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث زيد بن أسلم فى قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت ان زوجى يدعوك أهو الذى بعينه بياض الحديث الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة والمزاح ورواه ابن أبى الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهرى مع اختلاف (٥) حديث قوله لامرأة استحملته نحملك على ابن البعير الحديث أبو داود والترمذى وصححه من حديث أنس بلفظ انا حاملك على ولد الناقة (٦) حديث أنس أبا عمير ما فعل النغير متفق عليه وتقدم فى أخلاق النبوة (٧) حديث عائشة فى مسابقته صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فسبقها وقال هذه مكان ذى المجاز لم أجد له أصلا ولم تكن عائشة معه فى غزوة بدر (٨) حديث عائشة سابقنى فسبقته النسائى وابن ماجه وقد تقدم فى النكاح (٩) حديث عائشة فى لطخ وجه سودة بحريرة ولطخ سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير ابن بكار فى كتاب الفكاهة وأبو يعلى باسناد جيد (١٠) حديث ان الضحاك بن سفيان الكلابى قال عندى امرأتان أحسن من هذه الحمراء أفلا أنزل لك عن احداهما فتتزوجها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أهى أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميما الزبير بن بكار فى الفكاهة من رواية عبدالله بن حسن مرسلا أو معضلا وللدارقطنى نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزارى بعد نزول الحجاب من حديث أبى هريرة (١١) حديث أبى سلمة عن أبى هريرة انه صلى الله عليه وسلم كان يدلع

لى الابن قدتز وج و بقل وجهه وماقبلته قط فقال صلى الله عليه وسلم ان من لا يرحم لا يرحم فأ كثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة اضعف قلوبهم من غير ميل الى هزل وقال صلى الله عليه وسلم (١) مرة لصهيب وبه رمد وهو يأ كل تمرا أتأ كل التمر وأنت رمد فقال انما آكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم قال بعض الرواة حتى نظرت الى نواجذه وروى (٢) ان خوات بن جبير الانصارى كان جالسا الى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أباعبد الله مالك مع النسوة فقال يفتلن ضفيرا لجمل لى شرود قال فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم عاد فقال يا أباعبد الله ما أترك ذلك الجمل الشراد بعد قال فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أتفرر منه كما رأيته حياء منه حتى قدمت المدينة و بعد ما قدمت المدينة قال فرآنى فى المسجد يوما أصلى فجلس الى فطولت فقال لا تطول فانى أنتظرك فلما سلمت قال يا أباعبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد قال فسكت واستحييت فقام وكنت بعد ذلك أتفرر منه حتى لحقنى يوما وهو على حمار وقد جعل رجليه فى شق واحد فقال أباعبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد فقلت والذى بعثك بالحق ماشردت منذ أسلمت فقال الله أكبر الله أكبر اللهم اهد أباعبد الله قال فحسن اسلامه وهداه الله وكان نعيمان الانصارى (٣) رجلا مزاحا فكان يشرب الخمر فى المدينة فيؤتى به الى النبى صلى الله عليه وسلم فيضربه بنعله و يأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة لعنك الله فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا تفعل فانه يحب الله ورسوله وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة الا اشترى منها ثم أتى بها النبى صلى الله عليه وسلم فيقول يارسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فاذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله أعطه ثمن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أولم تهده لنا فيقول يارسول الله انه لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن تأ كل منه فيضحك النبى صلى الله عليه وسلم و يأمر لصاحبه بثمنه فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك الميت للقلب

(الآفة الحادية عشرة)

السخرية والاستهزاء وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على

لسانه للحسن بن على فيرى الصبى لسانه فيهش اليه فقال عيينة بن بدر الفزارى والله ليكونن لى الابن رجلا قد خرج وجهه وماقبلته قط فقال ان من لا يرحم لا يرحم أبو يعلى من هذا الوجه دون مافى آخره من قول عيينة ابن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب الى جده وحكى الخطيب فى المبهمات قولين فى قائل ذلك أحدهما انه عيينة ابن حصن والثانى انه الأقرع بن حابس وعند مسلم من رواية الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة ان الأقرع بن حابس أبصر النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال ان لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم (١) حديث قال لصهيب وبه رمد أتأ كل التمر وأنت رمد فقال انما آكل على الشق الآخر فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات (٢) حديث ان خوات بن جبير كان بالسا الى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا أباعبد الله مالك مع النسوة فقال يفتلن ضفيرا لجمل لى شرود الحديث الطبرانى فى الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات وأدخل بعضهم بين زيد و بين خوات ربيعة بن عمرو (٣) حديث كان نعيمان رجلا مزاحا وكان يشرب فيؤتى به الى النبى صلى الله عليه وسلم فيضرب به الحديث وفيه انه كان يشترى الشئ و يهديه الى النبى صلى الله عليه وسلم ثم يجىء صاحبه فيقول اعطه ثمن متاعه الحديث الزبير بن بكار فى الفكاهة ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا وقد تقدم أوله

(الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء)

والوقوف على حد الانحسار نجاة والالتياذ بالهرب من علم الدنو وصلة واستقباح ترك الجواب ذخيرة والاعتصام من قبول دواعى استماع الخطاب تكلف وخوف فوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم فى حيز الاقبال مساءة والاصغاء الى تلقى ماينفصل عن معدنه بعد والاستسلام عند التلاقى جراءة والانبساط فى محل الانس غرة وهذه الكلمات كلها من آداب الحضرة لاربابها وفى قوله تعالى مازاغ البصر وما طغى وجه آخر ألطف مما سبق مازاغ البصر حيث لم يتخالف عن البصيرة ولم يتقاصر وماطغى لم يسبق البصر البصيرة فيتجاوز حده ويتعدى مقامه بل استقام البصر مع البصيرة

العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول وقد يكون بالاشارة والايماء واذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة قالت عائشة رضى الله عنها (١) حاكيت انسانا فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم والله ما أحب انى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا وقال ابن عباس فى قوله تعالى يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ان الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن والكبيرة القهقهة بذلك وهذا اشارة الى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر وعن عبد الله بن زمعة (٢) أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال علام يضحك أحدكم مما يفعل وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ان المستهزئين بالناس يفتح لاحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجىء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم فيجىء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى ان الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه وقال معاذ بن جبل (٤) قال النبى صلى الله عليه وسلم من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله وكل هذا يرجع الى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغارا له وعليه نبه قوله تعالى عسى أن يكونوا خيرا منهم أى لا تستحقره استصغارا فلعله خير منك وهذا انما يحرم فى حق من يتأذى به فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح وقد سبق ما يذم منه وما يمدح وانما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون وذلك تارة بان يضحك على كلامه اذا تخبط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله اذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته اذا كان قصيرا أو ناقصا لعيب من العيوب فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهى عنها

(الآفة الثانية عشرة)

افشاء السر وهو منهى عنه لما فيه من الايذاء والتهاون بحق المعارف والاصدقاء قال النبى صلى الله عليه وسلم (٥) اذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة وقال (٦) مطلقا الحديث بينكم أمانة وقال الحسن ان من الخيانة أن تحدث بسر أخيك وبروى أن معاوية رضى الله عنه أسر الى الوليد بن عتبة حديثا فقال لا بيه يا أبت ان أمير المؤمنين أسر الى حديثا وما أراه يطوى عنك ما بسطه الى غيرك قال فلا تحدثنى به فان من كتم سره كان الخيار اليه ومن أفشاه كان الخيار عليه قال فقلت يا أبت وان هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه فقال لا والله يا بنى ولكن أحب أن لا تذل لسانك باحاديث السر قال فأتيت معاوية فأخبرته فقال يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ فافشاء السر خيانة وهو حرام اذا كان فيه اضرار ولو لم ان لم يكن فيه اضرار وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر فى كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الاعادة

(الآفة الثالثة عشرة)

الوعد الكاذب فان اللسان سباق الى الوعد ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات

---

(١) حديث عائشة حاكيت انسانا فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما يسرنى انى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا أبو داود والترمذى وصححه (٢) حديث عبد الله بن زمعة وعظهم فى الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدكم مما يفعل متفق عليه (٣) حديث ان المستهزئين بالناس يفتح لاحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجىء بكربه وغمه فاذا جاء أغلق دونه الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث الحسن مرسلا ورويناه فى ثمانيات التجيب من رواية أبى هدبة أحد الهالكين عن أنس (٤) حديث معاذ بن جبل من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله الترمذى دون قوله قد تاب منه وقال حسن غريب وليس اسناده بمتصل قال الترمذى قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه

(الآفة الثانية عشرة افشاء السر)

(٥) حديث اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهى أمانة أبو داود والترمذى وحسنه من حديث جابر

(٦) حديث الحديث بينكم أمانة ابن أبى الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا

(الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب)

والظاهر مع الباطن والقلب مع القالب والنظر مع القدم ففى تقدم النظر على القدم طغيان والمعنى بالنظر علم وبالقدم حال القالب فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانا ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون تقصيرا فلما اعتدلت الاحوال وصار قلبه كقالبه وقالبه كقلبه وظاهره كباطنه وباطنه كظاهره وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره فحيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله ولهذا المعنى انعكس حكم معناه ونوره على ظاهره وأتى البراق ينتهى خطوه حيث ينتهى نظره لا يتخلف قدم البراق عن موضع نظره كما جاء فى حديث المعراج فكان البراق بقالبه مشاكلا لمعناه ومتصفا

النفاق قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود وقال صلى الله عليه وسلم (١) العدة عطية وقال صلى الله عليه وسلم (٢) الوأى مثل الدين أو أفضل والوأى الوعد وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام فى كتابه العزيز فقال انه كان صادق الوعد قيل انه واعد انسانا فى موضع فلم يرجع اليه ذلك الانسان بل نسى فبقى اسمعيل اثنين وعشرين يوما فى انتظاره ولما حضرت عبدالله بن عمر الوفاة قال انه كان خطب الى ابنتى رجل من قريش وقد كان منى اليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق أشهدكم أنى قد زوجته ابنتى (٣) وعن عبدالله بن أبى الخنساء قال بايعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث و بقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال يافتى لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك وقيل لابراهيم الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجىء قال ينتظره الى أن يدخل وقت الصلاة التى تجىء وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) اذا وعد وعدا قال عسى وكان ابن مسعود لا يعد وعدا الا ويقول ان شاء الله وهو الاولى ثم اذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد فلا بد من الوفاء الا أن يتعذر فان كان عند الوعد عازما على أن لا يفى فهذا هو النفاق وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم (٥) ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى وزعم انه مسلم اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان وقال عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله وسلم (٦) أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وهذا يزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وان جرى عليه ما هو صورة النفاق ولكن ينبغى أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته ولا ينبغى أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبى فاعطى اثنين وبقى واحد فاتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألا ترى أثر الرحى بيدى فذكر موعده لابى الهيثم فجعل يقول كيف بموعدى لابى الهيثم فأثره به على فاطمة لما كان قد سبق من موعده له مع انها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة (٨) ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال ان لى عندك موعدا يارسول الله قال صدقت فاختر كم ماشئت فقال أختكم ثمانين ضائنة وراعيها

(١) حديث العدة عطية الطبرانى فى الاوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث الحسن مرسلا (٢) حديث الوأى مثل الدين أو أفضل ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية ابن طيعة مرسلا وقال الوأى يعنى الوعد ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على بسند ضعيف (٣) حديث عبدالله بن أبى الخنساء بايعت النبى صلى الله عليه وسلم فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال يافتى قد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك رواه أبو داود واختلف فى اسناده وقال ابن مهدى ما أظن ابراهيم بن طهمان الا أخطأ فيه (٤) حديث كان اذا وعد وعدا قال عسى لم أجد له أصلا (٥) حديث أبى هريرة ثلاث من كن فيه فهو منافق الحديث وفيه اذا وعد أخلف متفق عليه وقد تقدم (٦) حديث عبد الله بن عمرو أربع من كن فيه كان منافقا الحديث متفق عليه (٧) حديث كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فاتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه الحديث وفيه فجعل يقول كيف بموعدى لابى الهيثم فأثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبى الهيثم فى آداب الاكل وهى عند الترمذى من حديث أبى هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة (٨) حديث انه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال ان لى عندك موعدا قال صدقت فاختر كم ماشئت الحديث وفيه لصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك الحديث ابن حبان والحاكم فى المستدرك من حديث أبى موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الاسناد وفيه

بصفته لقوة حاله ومعناه وأشار فى حديث المعراج الى مقامات الانبياء ورأى فى كل سماء بعض الانبياء اشارة الى تعويقهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته ورأى موسى فى بعض السموات فمن هو فى بعض السموات يكون قوله أرنى أنظر اليك تجاوزا للنظر عن حد القدم وتخلفا للقدم عن النظر وهذا هو الاخلال بأحد الوصفين من قوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى فرسول الله جعل مقترنا قدمه ونظره فى مجال الحياء والتواضع ناظرا الى قدمه قادما على نظره ولو خرج عن مجال الحياء والتواضع وتطاول بالنظر متعديا حد القدم تعوق فى بعض السموات كتعوق غيره من الانبياء فلم يزل صلى الله عليه

قال هي لك وقال احتكمت يسيرا واصاحبة موسى عليه السلام التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه السلام فقالت حكمي أن تردني شابة وأدخل معك الجنة قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلا فقيل أشح من صاحب الثمانين والراعي وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي وفي لفظ آخر اذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد فلا اثم عليه

(الآفة الرابعة عشرة)

الكذب في القول واليمين وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب قال اسمعيل بن واسط سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٢) قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي هذا عام أول ثم بكى وقال اياكم والكذب فانه مع الفجور وهما في النار وقال أبو أمامة (٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الكذب باب من أبواب النفاق وقال الحسن كان يقال ان من النفاق اختلاف السر والعلانية والقول والعمل والمدخل والمخرج وان الاصل الذي بني عليه النفاق الكذب وقال عليه السلام (٤) كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم (٥) لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا (٦) ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا ويقول الآخر والله لا أزيدك على كذا وكذا فمر بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة وقال عليه السلام (٧) الكذب ينقص الرزق وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) ان التجار هم الفجار فقيل يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع قال نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون وقال صلى الله عليه وسلم (٩) ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر

نظر (١) حديث ليس الخلف ان يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفي وفي لفظ آخر اذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد فلا اثم عليه أبو داود والترمذي وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثاني الا انهما قالا فلم يف

(الآفة الرابعة عشرة الكذب في القول واليمين)

(٢) حديث أبي بكر الصديق قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي هذا عام أول ثم بكى وقال اياكم والكذب الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية اسماعيل بن أوسط عن أبي بكر وانما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط واسناده حسن (٣) حديث أبي أمامة ان الكذب باب من أبواب النفاق ابن عدي في الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجهي ضعيف جدا ويغني عنه قوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وحديث أربع من كن فيه كان منافقا قال في كل منهما واذا حدث كذب وهما في الصحيحين وقد تقدما في الآفة التي قبلها (٤) حديث كبرت خيانة ان تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له كاذب البخاري في كتاب الادب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدي ورواه أحمد والطبراني من حديث النواس بن سمعان باسناد جيد (٥) حديث ابن مسعود لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا متفق عليه (٦) حديث مر برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان الحديث وفيه فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة أبو الفتح الازدي في كتاب الاسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمي وهكذا رويناه في أمالي ابن سمعون وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ وقال أبو حاتم هو عبد الله بن ناسخ (٧) حديث الكذب ينقص الرزق أبو الشيخ في طبقات الاصبهانيين من حديث أبي هريرة ورويناه كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر واسناده ضعيف (٨) حديث ان التجار هم الفجار الحديث وفيه ويحدثون فيكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل (٩) حديث ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمسبل ازاره مسلم من حديث أبي ذر

وسلم متجلس حجاله في خفارة أدب حاله حتى خرق حجب السموات فانصبت اليه أقسام القرب انصبابا وانقشعت عنه سحائب الحجب حجابا حجابا حتى استقام على صراط مازاغ البصر وما طغى فمر كالبرق الخاطف الى مخدع الوصل واللطائف وهذا غاية في الادب ونهاية في الارب (قال) أبو محمد بن رويم حين سئل عن أدب المسافر فقال لا يجاوز همه قدمه فحيث وقف قلبه يكون مقره (أخبرنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب اجازة قال أنا عمر بن أحمد قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال ثنا القاضي أبو محمد يحيى بن منصور قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن

اليهم المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل ازاره وقال صلى الله عليه وسلم (١) ما حلف حالف بالله فادخل فيها مثل جناح بعوضة الا كانت نكتة فى قلبه الى يوم القيامة وقال أبو ذر (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة يحبهم الله رجل كان فى فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ورجل كان معه قوم فى سفر أو سرية فاطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل وثلاثة يشنأهم الله التاجر أو البياع الحلاف والفقير المختال والبخيل المنان وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له وقال صلى الله عليه وسلم (٤) رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيده القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فبينما هذا مده رجع الآخر كما كان فقلت للذى أقامنى ماهذا فقال هذا رجل كذاب يعذب فى قبره الى يوم القيامة وعن عبد الله ابن جراد قال (٥) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله هل يزنى المؤمن قال قد يكون ذلك قال يانبى الله هل يكذب المؤمن قال لا ثم اتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وقال أبو سعيد الخدرى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) يدعو فيقول فى دعائه اللهم طهر قلبى من النفاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب وقال صلى الله عليه وسلم (٧) ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر وقال عبد الله بن عامر (٨) جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيتنا وأنا صبى صغير فذهبت لالعب فقالت أمى ياعبد الله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه قالت تمرا فقال أما انك لو لم تفعلى لكتبت عليك كذبة وقال صلى الله عليه وسلم (٩) لو أفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا

---

(١) حديث ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة الا كانت نكتة فى قلبه الى يوم القيامة الترمذى والحاكم وصحح اسناده من حديث عبد الله بن أنيس (٢) حديث أبى ذر ثلاثة يحبهم الله الحديث وفيه وثلاثة يشنأهم الله التاجر أو البائع الحلاف أحمد واللفظ له وفيه ابن الاحمس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائى بلفظ آخر باسناد جيد وللنسائى من حديث أبى هريرة أربعة يبغضهم الله البياع الحلاف الحديث واسناده جيد (٣) حديث ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده (٤) حديث رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيده القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس الحديث البخارى من حديث سمرة بن جندب فى حديث طويل (٥) حديث عبد الله بن جراد انه سأل النبى صلى الله عليه وسلم هل يزنى المؤمن قال قد يكون من ذلك قال هل يكذب قال لا الحديث ابن عبد البر فى التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصرا على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء (٦) حديث أبى سعيد اللهم طهر قلبى من النفاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب هكذا وقع فى نسخ الاحياء عن أبى سعيد وانما هو عن أم معبد كذا رواه الخطيب فى التاريخ دون قوله وفرجى من الزنا وزاد وعملى من الرياء وعينى من الخيانة واسناده ضعيف (٧) حديث ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم الحديث وفيه والامام الكذاب مسلم من حديث أبى هريرة (٨) حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيتنا وأنا صبى صغير فذهبت لألعب فقالت أمى ياعبد الله تعال أعطيك فقال وما أردت ان تعطيه قالت تمرا فقال ان لم تفعلى كتبت عليك كذبة رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم ان عبد الله بن عامر ولد فى حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه قلت وله شاهد من حديث أبى هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات الا أن الزهرى لم يسمع من أبى هريرة (٩) حديث لو أفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا رواه مسلم وتقدم فى أخلاق النبوة

على الترمذى قال حدثنا محمد بن رزام الايلى قال حدثنا محمد بن عطاء الهجيمى قال حدثنا محمد بن نصير عن عطاء ابن أبى رباح عن ابن عباس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية رب أرنى أنظر اليك قال قال ياموسى انه لا يرانى حى الامات ولا يابس الا تدهده ولا رطب الا تفرق انما يرانى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم ومن آداب الحضرة ما قال الشبلى الانبساط بالقول مع الحق ترك الادب وهذا يختص ببعض الاحوال والاشياء دون البعض ليس هو على الاطلاق لأن الله تعالى أمر بالدعاء وانما الامساك عن القول كما أمسك موسى عن

(١) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ثم قعد وقال ألا وقول الزور وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ان العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به وقال أنس (٣) قال النبي صلى الله عليه وسلم تقبلوا الى بست أتقبل لكم بالجنة فقالوا وماهن قال اذا حدث أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم وقال صلى الله عليه وسلم (٤) ان للشيطان كحلا ولعوقا ونشوقا أما لعوقه فالكذب وأما نشوقه فالغضب وأما كحله فالنوم وخطب عمر رضى الله عنه يوما فقال (٥) قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامي هذا فيكم فقال أحسنوا الى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٦) من حدث عني بحديث وهو يرى انه كذب فهو أحد الكاذبين وقال صلى الله عليه وسلم (٧) من حلف على يمين بائم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم (٨) انه رد شهادة رجل في كذبة كذبها وقال صلى الله عليه وسلم (٩) كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم الا الخيانة والكذب وقالت عائشة رضى الله عنها (١٠) ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم انه قد أحدث توبة لله عز وجل منها وقال موسى عليه السلام يارب أي عبادك خير لك عملا قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه وقال لقمان لابنه يابني اياك والكذب فانه شهي كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه وقال عليه السلام في مدح الصدق (١١) أربع اذا كن فيك فلا يضرك مافاتك من الدنيا صدق الحديث وحفظ الأمانة وحسن خلق وعفة طعمة وقال أبو بكر رضى الله عنه (١٢) في خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامي هذا عام أول ثم بكى وقال عليكم بالصدق فانه مع البر وهما في الجنة

---

(١) حديث ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الحديث وفيه ألا وقول الزور متفق عليه من حديث أبي بكرة (٢) حديث ابن عمر ان العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به الترمذي وقال حسن غريب (٣) حديث أنس تقبلوا الى بست أتقبل لكم بالجنة اذا حدث أحدكم فلا يكذب الحديث الحاكم في المستدرك والخرائطي في مكارم الاخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائي ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الاسناد (٤) حديث ان للشيطان كحلا ولعوقا الحديث الطبراني وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم (٥) حديث خطب عمر بالجابية الحديث وفيه ثم يفشو الكذب الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر (٦) حديث من حدث بحديث وهو يرى انه كذب فهو أحد الكاذبين مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب (٧) حديث من حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود (٨) حديث انه رد شهادة رجل في كذبة كذبها ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلا وموسى روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل (٩) حديث على كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن الا الخيانة والكذب ابن أبي شيبة في المصنف من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدي في مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر أيضا وابي أمامة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفا والموقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطني في العلل (١٠) حديث ما كان من خلق الله شئ أشد عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب وانهم كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينحل من صدره حتى يعلم انه قد أحدث لله منها توبة أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات الا انه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره وقد رواه أبو الشيخ في الطبقات فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح (١١) حديث أربع اذا كن فيك فلا يضرك مافاتك من الدنيا صدق الحديث الحاكم والخرائطي في مكارم الاخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة (١٢) حديث أبي بكر عليكم بالصدق

وقال

الانبساط في طلب المآرب والحاجات الدنيوية حتى رفعه الحق مقاما في القرب وأذن له في الانبساط وقال اطلب مني ولو ملحا لعجينك فلما بسط انبسط وقال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير لأنه كان يسأل حوائج الآخرة ويستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها وهو في حجاب الحشمة عن سؤال المحقرات ولهذا مثال في الشاهد فان الملك المعظم يسأل المعظمات ويحتشم في طلب المحقرات فلما رفع بساط حجاب الحشمة صار في مقام خاص من القرب يسأل الحقير كما يسأل الخطير قال ذو النون المصري أدب العارف فوق كل أدب لأن معروفه مؤدب قلبه * وقال بعضهم يقول الحق

وقال معاذ قال لى صلى الله عليه وسلم (١) أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وبذل السلام وخفض الجناح (وأما الآثار) فقد قال على رضى الله عنه أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه ما كذبت كذبة منذ شددت على ازارى وقال عمر رضى الله عنه أحبكم الينا مالم نركم أحسنكم اسما فاذا رأينا كم فأحبكم الينا أحسنكم خلقا فاذا اختبرناكم فأحبكم الينا أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة وعن ميمون بن أبى شبيب قال جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف ان أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وقال الشعبى ما أدرى أيهما أبعد غورا فى النار الكذاب أو البخيل وقال ابن السماك ما أرانى أوجر على ترك الكذب لأنى انما أدعه أنفة وقيل لخالد بن صبيح أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة قال نعم وقال مالك بن دينار قرأت فى بعض الكتب ما من خطيب الا وتعرض خطبته على عمله فان كان صادقا فصدق وان كان كاذبا قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا وقال مالك بن دينار الصدق والكذب يعتركان فى القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك فى شئ فقال له كذبت فقال عمر والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه

(بيان ما رخص فيه من الكذب)

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشئ على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا وقد يتعلق به ضرر غيره وربّ جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه وربما كان واجبا قال ميمون بن مهران الكذب فى بعض المواطن خير من الصدق أرأيت لو أن رجلا سعى خلف انسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فانتهى اليك فقال أرأيت فلانا ما كنت قائلا ألست تقول لم أره وما تصدق به وهذا الكذب واجب * فنقول الكلام وسيلة الى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل اليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام وان أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ان كان تحصيل ذلك القصد مباحا وواجب ان كان المقصود واجبا كما ان عصمة دم المسلم واجبة فهما كان فى الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو اصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه الا بكذب فالكذب مباح الا أنه ينبغى أن يحترز منه ما أمكن لأنه اذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى ان يتداعى الى ما يستغنى عنه والى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما فى الاصل الا لضرورة والذى يدل على الاستثناء ما روى عن أم كلثوم قالت (٢) ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شئ من الكذب الا فى ثلاث الرجل يقول القول يريد به الاصلاح والرجل يقول القول فى الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها وقالت أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نمى خيرا وقالت أسماء بنت يزيد (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الكذب يكتب على ابن آدم الا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما وروى عن أبى كاهل (٥) قال وقع بين اثنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت مالك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ثم قلت أهلكت نفسى وأصلحت بين هذين فأخبرت النبى صلى الله عليه

فانه مع البر وهما فى الجنة ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وقد تقدم بعضه فى أول هذا النوع (١) حديث معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث أبو نعيم فى الحلية وقد تقدم (٢) حديث أم كلثوم ما سمعته يرخص فى شئ من الكذب الا فى ثلاث مسلم وقد تقدم (٣) حديث أم كلثوم أيضا ليس بكذاب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه وقد تقدم والذى قبله عند مسلم بعض هذا (٤) حديث أسماء بنت يزيد كل الكذب يكتب على ابن آدم الا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه (٥) حديث أبى كاهل وقع بين رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام الحديث وفيه يا أبا كاهل اصلح بين الناس رواه الطبرانى

سبحانه وتعالى من ألزمته القيام مع أسمائى وصفاتى ألزمته الادب ومن كشفت له عن حقيقة ذاتى ألزمته العطب فاختر أيهما شئت الادب أو العطب وقول القائل هذا يشير الى أن الاسماء والصفات تستقل بوجود محتاج الى الادب لبقاء رسوم البشرية وحظوظ النفس ومع لمعان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالانوار ويكون معنى العطب التحقق بالفناء وفى ذلك العطب نهاية الارب (وقال) أبو على الدقاق فى قوله تعالى وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين لم يقل ارحنى لانه حفظ أدب الخطاب وقال عيسى عليه السلام ان كنت قلته فقد علمته ولم يقل لم

وسلم فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس أى ولو بالكذب وقال عطاء بن يسار (١) قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى قال لا خير فى الكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك وروى ان ابن أبى عذرة الدولى وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتى يتزوج بهن فطارت له فى الناس من ذلك أحدوثة يكرهها فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الارقم حتى أتى به الى منزله ثم قال لامرأته أنشدك بالله هل تبغضينى قالت لا تنشدنى قال فانى أنشدك الله قالت نعم فقال لابن الارقم أتسمع ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه فقال انكم لتحدثون انى أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الارقم فسأله فأخبره فأرسل الى امرأة ابن أبى عذرة فجاءت هى وعمتها فقال أنت التى تحدثين لزوجك انك تبغضينه فقالت انى أول من تاب وراجع أمر الله تعالى انه ناشدنى فتحرجت ان أكذب أفأكذب يا أمير المؤمنين قال نعم فاكذبى فان كانت احدا كن لتحب أحدنا فلا تحدثه بذلك فان أقل البيوت الذى يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالاسلام والاحساب (٢) وعن النواس بن سمعان الكلابى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالى أراكم تهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة الا أن يكذب الرجل فى الحرب فان الحرب خدعة أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما أو يحدث امرأته يرضيها وقال ثوبان الكذب كله اثم الا ما نفع به مسلما أو دفع عنه ضررا وقال على رضى الله عنه اذا حدثتكم عن النبى صلى الله عليه وسلم فلان أخر من السماء أحب الى من أن أكذب عليه واذا حدثتكم فيما بينى وبينكم فالحرب خدعة فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء وفى معناها ما عداها اذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول ما زنيت وما سرقت وقال صلى الله عليه وسلم (٣) من ارتكب شيأ من هذه القاذورات فليستتر بستر الله وذلك ان اظهار الفاحشة فاحشة أخرى فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وان كان كاذبا وأما عرض غيره فبان يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره وان يصلح بين اثنين وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب اليه وان كانت امرأته لا تطاوعه الا بوعد لا يقدر عليه فيعدها فى الحال تطييبا لقلبها أو يعتذر الى انسان وكان لا يطيب قلبه الا بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محذور فينبغى ان يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط فاذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشد وقعا فى الشرع من الكذب فله الكذب وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق وقد يتقابل الامران بحيث يتردد فيهما وعند ذلك الميل الى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة فان شك فى كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع اليه ولأجل غموض ادراك مراتب المقاصد ينبغى أن يحترز الانسان من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب فاما اذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والاضرار به وأكثر كذب الناس انما هو لحظوظ أنفسهم ثم هو لزيادات المال والجاه ولامور لا يس فواتها محذورا حتى أن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفخر به

(١) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى قال لا خير فى الكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك ابن عبد البر فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا وهو فى الموطأ عن صفوان بن سليم معضلا من غير ذكر عطاء بن يسار (٢) حديث النواس بن سمعان مالى أراكم تهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار كل الكذب مكتوب الحديث أبو بكر بن لال فى مكارم الاخلاق بلفظ تتابعون الى قوله فى النار دون ما بعده فرواه الطبرانى وفيهما شهر بن حوشب (٣) حديث من ارتكب شيأ من هذه القاذورات فليستتر بستر الله الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها فمن ألم بشئ منها فليستتر بستر الله واسناده حسن

أقل رعاية لادب الحضرة * وقال أبو نصر السراج أدب أهل الخصوصية من أهل الدين فى طهارة القلوب ومراعاة الاسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات الى الخواطر والعوارض والبوادى والعوائق واستواء السر والعلانية وحسن الادب فى مواقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور والادب أدبان أدب قول وأدب فعل فمن تقرب الى الله تعالى بادب فعله منعه محبة القلوب (قال ابن المبارك) نحن الى قليل من الادب أحوج منا الى كثير من العلم وقال أيضا الادب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف * وقال النورى من لم يتأدب للوقت فوقته مقت

وتكذب لأجل مراغمة الضرات وذلك حرام وقالت أسماء (١) سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ان لى ضرة وانى أتكثر من زوجى بما لم يفعل أضارها بذلك فهل على شئ فيه فقال صلى الله عليه وسلم المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من تطعم بما لا يطعم أو قال لى وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبى زور يوم القيامة ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لا يتحققه وروايته الحديث الذى لا يثبته اذ غرضه أن يظهر فضل نفسه فهو لذلك يستنكف من أن يقول لا أدرى وهذا حرام ومما يلتحق بالنساء الصبيان فان الصبى اذا كان لا يرغب فى المكتب الا بوعد أو وعيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا نعم روينا فى الاخبار أن ذلك يكتب كذبا ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه لانه انما أبيح بقصد الاصلاح ويتطرق اليه غرور كبير فانه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه وانما يتعلل ظاهرا بالاصلاح فلهذا يكتب وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لاجله هل هو أهم فى الشرع من الصدق أم لا وذلك غامض جدا والحزم تركه الا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كما لو أدى الى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الاحاديث فى فضائل الاعمال وفى التشديد فى المعاصى وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض اذ قال صلى الله عليه وسلم (٣) من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار وهذا لا يرتكب الا لضرورة ولا ضرورة اذ فى الصدق مندوحة عن الكذب ففيما ورد من الآيات والاخبار كفاية عن غيرها وقول القائل ان ذلك قد تكرر على الاسماع وسقط وقعه وما هو جديد فوقعه أعظم فهذا هوس اذ ليس هذا من الاغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ويؤدى فتح بابه الى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلا والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لا يقاومها شئ نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين

(بيان الخلف من الكذب بالمعاريض)

قد نقل عن السلف أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضى الله عنه أما فى المعاريض ما يكفى الرجل عن الكذب وروى ذلك عن ابن عباس وغيره وانما أرادوا بذلك اذا اضطر الانسان الى الكذب فاما اذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ولكن التعريض أهون ومثال التعريض ما روى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال ما رفعت جنبى منذ فارقت الامير الا ما رفعنى الله وقال ابراهيم اذا بلغ الرجل عنك شئ فكرهت أن تكذب فقل ان الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شئ فيكون قوله ما حرف نفى عند المستمع وعنده للابهام وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضى الله عنه فلما رجع قال له امرأته ما جئت به مما يأتى به العمال الى أهلهم وما كان قد أتاها بشئ فقال كان عندى ضاغط قالت كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبى بكر رضى الله عنه فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال بعثت معك ضاغطا قال لم أجد ما أعتذر به اليها الا ذلك فضحك عمر رضى الله عنه وأعطاه شيأ فقال أرضها به ومعنى قوله ضاغطا يعنى رقيبا وأراد به الله تعالى وكان النخعى لا يقول لابنته أشترى لك سكرا بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا فانه بما لا يتفق له ذلك وكان ابراهيم اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو فى الدار قال للجارية قولى له اطلبه فى المسجد ولا تقولى ليس ههنا كيلا يكون كذبا وكان الشعبى اذا طلب فى المنزل وهو يكره خط دائرة وقال للجارية ضعى الاصبع فيها وقولى ليس ههنا وهذا كله فى موضع الحاجة فاما فى غير

(١) حديث أسماء قالت امرأة ان لى ضرة وانى أتكثر من زوجى بما لم يفعل الحديث متفق عليه وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق (٢) حديث من تطعم بما لا يطعم وقال لى وليس له وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار متفق عليه من طرق وقد تقدم فى العلم

وقال ذو النون اذا خرج المريد عن حد استعمال الادب فانه يرجع من حيث جاء وقال ابن المبارك أيضا قد أكثر الناس فى الادب ونحن نقول هو معرفة النفس وهذه اشارة منه الى أن النفس هى منبع الجهالات وترك الادب من مخامرة الجهل فاذا عرف النفس صادف نور العرفان على ما ورد من عرف نفسه فقد عرف ربه وهذا النور لا تظهر النفس بجهالة الا ويقمعها بصريح العلم وحينئذ يتأدب ومن قام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر

(الباب الثالث والثلاثون فى آداب الطهارة ومقدماتها)

قال الله تعالى فى وصف أصحاب الصفة فيه رجال

موضع الحاجة فلا لان هذا تفهيم للكذب وان لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عن عبد الله بن عتبة قال دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلى ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا فقال لي أبي يا بني اتق الكذب وما أشبهه فنهاه عن ذلك لان فيه تقريرا لهم على ظن كاذب لاجل غرض المفاخرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم (١) لا يدخل الجنة عجوز وقوله للاخرى الذي في عين زوجك بياض وللاخرى نحملك على ولد البعير وما أشبهه وأما الكذب الصريح كما فعله نعمان الانصاري مع عثمان في قصة الضرير اذ قال له انه نعمان وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمقى بتغريرهم بان امرأة قد رغبت في تزويجك فان كان فيه ضرر يؤدي الى ايذاء قلب فهو حرام وان لم يكن الا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة ايمانه قال صلى الله عليه وسلم (٢) لا يكمل للمرء الايمان حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه وأما قوله عليه السلام (٣) ان الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها في النار أبعد من الثريا أراد به ما فيه غيبة مسلم أو ايذاء قلب دون محض المزاح ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله طلبتك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مائة مرة فانه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة فان لم يكن طلبه الا مرة واحدة كان كاذبا وان كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وان لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال كل الطعام فيقول لا أشتهيه وذلك منهي عنه وهو حرام ان لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد (٤) قالت أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعي نسوة قالت فوالله ما وجدنا عنده قرى الا قدحا من لبن فشرب ثم ناوله عائشة قالت فاستحيت الجارية فقلت لا تردي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذي منه قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولي صواحبك فقلن لا نشتهيه فقال لا تجمعن جوعا وكذبا قالت فقلت يا رسول الله ان قالت احدانا لشئ تشتهيه لا أشتهيه أيعد ذلك كذبا قال ان الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب قال الليث بن سعد كانت عيناسعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه فيقال له لو مسحت عينيك فيقول وأين قول الطبيب لا تمس عينيك فأقول لا أفعل وهذه مراقبة أهل الورع ومن تركه انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره فيكذب ولا يشعر وعن خوات التيمي قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه فقالت كيف أنت يا بني فجلس الربيع وقال أرضعتيه قالت لا قال ما عليك لو قلت يا ابن أخي فصدقت ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه قال عيسى عليه السلام ان من أعظم

(١) حديث لا يدخل الجنة عجوز وحديث في عين زوجك بياض وحديث نحملك على ولد البعير تقدمت الثلاثة في الآفة العاشرة (٢) حديث لا يستكمل المؤمن ايمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة الدماري وقال فيه نظر وللشيخين من حديث أنس لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وللدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة لا يؤمن عبد الايمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه قال أحمد بن حنبل منكر (٣) حديث ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا تقدم في الآفة الثالثة (٤) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث وفيه قال لا تجمعن جوعا وكذبا ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب فان أسماء بنت عميس كانت اذ ذاك بالحبشة لكن في طبقات الاصبهانيين لأبي الشيخ من رواية عطاء ابن أبي رباح عن أسماء بنت عميس زففنا الى النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه الحديث فاذا كانت غير عائشة

يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قيل في التفسير يحبون أن يتطهروا من الاحداث والجنابات والنجاسات بالماء قال الكلبي هو غسل الادبار بالماء وقال عطاء كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاهل قباء لما نزلت هذه الآية ان الله تعالى قد أثنى عليكم في الطهور فما هو قالوا انا نستنجي بالماء وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله اذا أتى أحدكم الخلاء فليستنج بثلاثة أحجار وهكذا كان الاستنجاء في الابتداء حتى نزلت الآية في أهل قباء قيل لسلمان قد علمكم نبيكم كل شئ حتى الخراءة فقال سلمان

الذنوب عند الله أن يقول العبد ان الله يعلم لما لا يعلم وربما يكذب فى حكاية المنام والاثم فيه عظيم اذ قال عليه السلام (١) ان من أعظم الفرية أن يدعى الرجل الى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم يرأو يقول على مالم أقل وقال عليه السلام (٢) من كذب فى حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقد بينهما أبدا

(الآفة الخامسة عشرة الغيبة والنظر فيها طويل)

فلنذكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه وقال عليه السلام (٣) كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم وقال أبو برزة قال عليه السلام (٤) لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله اخوانا وعن جابر وأبى سعيد (٥) قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا فان الرجل قد يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وان صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه وقال أنس (٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة اسرى بى على أقوام يخمشون وجوههم باظافيرهم فقلت ياجبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم وقال سليم بن جابر (٧) أتيت النبى عليه الصلاة والسلام فقلت علمنى خيرا أنتفع به فقال لا تحقرن من المعروف شيأ ولو ان تصب من دلوك فى اناء المستقى وأن تلقى أخاك ببشر حسن وان أدبر فلا تغتابنه وقال البراء (٨) خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق فى بيوتهن فقال يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته وقيل أوحى الله الى موسى عليه السلام من مات تائبا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار وقال أنس (٩) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم فقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس حتى اذا أمسوا جعل الرجل يجىء فيقول يارسول الله ظللت صائما فاذن لى لافطر فيأذن له والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال

ممن تزوجها بعد خيبر فلا مانع من ذلك (١) حديث ان من أعظم الفرى أن يدعى الرجل الى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم ترياأو يقول على مالم أقل البخارى من حديث واثلة بن الاسقع وله من حديث ابن عمر من أفرى الفرى أن يرى عينيه مالم ترياً (٢) حديث من كذب فى حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد شعيرة البخارى من حديث ابن عباس

(الآفة الخامسة عشرة الغيبة)

(٣) حديث كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه مسلم من حديث أبى هريرة (٤) حديث أبى هريرة لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله اخوانا متفق عليه من حديث أبى هريرة وأنس دون قوله ولا يغتب بعضكم بعضا وقد تقدم فى آداب الصحبة (٥) حديث جابر وأبى سعيد اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت وابن حبان فى الضعفاء وابن مردويه فى التفسير (٦) حديث أنس مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم الحديث أبو داود مسندا ومرسلا والمسند أصح (٧) حديث سليم بن جابر أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علمنى خيرا ينفعنى الله به الحديث أحمد فى المسند وابن أبى الدنيا فى الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحد واذا أدبر فلا يغتابه وفى اسنادهما ضعف (٨) حديث البراء يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين الحديث ابن أبى الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبى برزة باسناد جيد (٩) حديث أنس أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس الحديث فى ذكر المرأتين اللتين اغتابتا فى صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم ابن أبى الدنيا فى الصمت وابن مردويه فى التفسير من رواية يزيد الرقاشى عنه ويزيد ضعيف

أجل نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول أو نستنجى باليمين أو يستنجى أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار أو نستنجى برجيع أو عظم (حدثنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب املاء قال أنا أبو منصور الحريمى قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمرو الهاشمى قال أنا أبو على اللؤلؤى قال أنا أبو داود قال حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا ابن المبارك عن ابن عجلان عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال قال صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فاذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى

يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين وانهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا فاعرض عنه صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه ثم عاوده فقال انهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس اذهب فمرهما ان كانتا صائمتين أن تستقيآ فرجع اليهما فاخبرهما فاستقاءتا فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم فرجع الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لاكلتهما النار وفي رواية أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يارسول الله والله انهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا فقال صلى الله عليه وسلم (١) ائتوني بهما فجاءتا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لاحداهما قيئي فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح وقال للاخرى قيئي فقاءت كذلك فقال ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ماحرم الله عليهما جلست احداهما الى الاخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس وقال أنس (٢) خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه فقال ان الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وأربى الربا عرض الرجل المسلم وقال جابر (٣) كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال انهما يعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يغتاب الناس وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر وقال أما انه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أو مالم ييبسا ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) ماعز في الزنا قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة فقال انهشا منها فقالا يارسول الله ننهش جيفة فقال ما أصبتما من أخيكما آنتن من هذه وكان الصحابة رضي الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الاعمال ويرون خلافه عادة المنافقين وقال أبو هريرة (٥) من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب اليه لحمه في الآخرة وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا فيأكله فيضج ويكلح وروى مرفوعا كذلك وروي أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثا فترك ذلك فقالا لقد بقي فيه منه شئ وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس فخاف في أنفسهما ما قالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام ان كانا صائمين وعن مجاهد أنه قال في ويل لكل همزة لمزة الهمزة الطعان في الناس واللمزة الذي يأكل لحوم الناس وقال قتادة ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث ثلث من الغيبة وثلث من النميمة وثلث من البول وقال الحسن والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الاكلة في الجسد وقال بعضهم أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس وقال ابن عباس اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك وقال أبو هريرة يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه وكان الحسن يقول ابن آدم انك لن تصيب حقيقة الايمان حتى لا تعيب

(١) حديث المرأتين المذكورتين وقال فيه ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ماحرم الله عليهما الحديث أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فاسقط منه ذكر الرجل المبهم (٢) حديث أنس خطبنا فذكر الربا وعظم شانه الحديث وفيه وأربى الربا عرض الرجل المسلم ابن أبي الدنيا بسند ضعيف (٣) حديث جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال اما انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يغتاب الناس الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب باسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس الا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة والطيالسي فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولاحمد والطبراني من حديث أبي بكرة نحوه باسناد جيد (٤) حديث قوله للرجل الذي قال لصاحبه في حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر بجيفة فقال انهشا منها الحديث أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة نحوه باسناد جيد (٥) حديث أبي هريرة من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب اليه لحمه في الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا الحديث ابن مردويه في

الناس

عن الروث والرمة (والفرض) في الاستنجاء شيآن ازالة الخبث وطهارة المزيل وهو أن لا يكون رجيعا وهو الروث ولا مستعملا مرة أخرى ولا رمة وهي عظم الميتة ووتر الاستنجاء سنة فاما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع واستعمال الماء بعد الحجر سنة وقد قيل في الآية يحبون أن يتطهروا ولما سئلوا عن ذلك قالوا كانا نتبع الماء الحجر والاستنجاء بالشمال سنة ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة وهكذا يكون في الصحراء اذا كانت أرضا طاهرة وترابا طاهرا * وكيفية الاستنجاء ان يأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم

الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك فى خاصة نفسك وأحب العباد الى الله من كان هكذا وقال مالك بن دينار مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون ما أنتن ريح هذا الكلب فقال عليه الصلاة والسلام ما أشد بياض أسنانه كأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن غيبة الكلب ونبههم على انه لا يذكر من شئ من خلق الله الا الأحسن وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر فقال له اياك والغيبة فانها ادام كلاب الناس وقال عمر رضى الله عنه عليكم بذكر الله تعالى فانه شفاء وايا كم وذكر الناس فانه داء نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

(بيان معنى الغيبة وحدودها)

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو فى خلقه أو فى فعله أو فى قوله أو فى دينه أو فى دنياه حتى فى ثوبه وداره ودابته * اما البدن فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان * وأما النسب فبأن تقول أبوه نبطى أو هندى أو فاسق أو خسيس أو اسكاف أو زبال أو شئ مما يكرهه كيفما كان * وأما الخلق فبأن تقول هو سيئ الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه * وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس بارا بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لاعراض الناس * وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك انه قليل الادب متهاون بالناس أو لا يرى لاحد على نفسه حقا أو يرى لنفسه الحق على الناس أو انه كثير الكلام كثير الاكل نؤوم ينام فى غير وقت النوم ويجلس فى غير موضعه * وأما فى ثوبه فكقولك انه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب وقال قوم لا غيبة فى الدين لانه ذم ما ذمه الله تعالى فذكره بالمعاصى وذمه بها يجوز بدليل ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ذكرت له امرأة وكثرة صلاتها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال هى فى النار (٢) وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال فما خيرها اذا فهذا فاسد لانهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم الى تعرف الاحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج اليه فى غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والدليل عليه اجماع الامة على ان من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لانه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حد الغيبة وكل هذا وان كان صادقا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه بدليل ما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم (٣) قال هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكرهه قيل أرأيت ان كان فى أخى ما أقوله قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته وقال معاذ بن جبل (٤) ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه فقال صلى الله عليه وسلم اغتبتم أخاكم قالوا يا رسول الله فلنا ما فيه قال ان قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها (٥) انها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت انها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم اغتبتيها وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة

التفسير مرفوعا وموقوفا وفيه محمد بن اسحاق رواه بالعنعنة (١) حديث ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذى جيرانها فقال هى فى النار ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة (٢) حديث ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال فما خيرها اذا الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث أبى جعفر محمد بن على مرسلا وروياه فى أمالى ابن شمعون هكذا (٣) حديث هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكرهه الحديث مسلم من حديث أبى هريرة (٤) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه الحديث الطبرانى بسند ضعيف (٥) حديث عائشة انها ذكرت امرأة فقالت انها قصيرة فقال اغتبتيها رواه أحمد وأصله عند أبى داود والترمذى وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن

المخرج قبل ملاقاة النجاسة ويمره بالمسح ويدير الحجر فى مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع الى موضع يفعل ذلك الى أن ينتهى الى مؤخر المخرج ويأخذ الثانى ويضعه على المؤخر كذلك ويمسح الى المقدمة ويأخذ الثالث ويديره حول المسربة وان استجمر بحجر ذى ثلاث شعب جاز وأما الاستبراء اذا انقطع البول فمد ذكره من أصله ثلاثا الى الحشفة بالرفق ثلاثا يندفق بقية البول ثم ينثره ثلاثا ويحتاط فى الاستبراء بالاستنقاء وهو أن يتنحنح ثلاثا لان العروق ممتدة من الحلق الى الذكر وبالتنحنح تتحرك وتنفذ ما فى مجرى البول

الغيبة والبهتان والافك وكل فى كتاب الله عز وجل فالغيبة ان تقول مافيه والبهتان أن تقول مالبس فيه والافك أن تقول مابلغك وذكر ابن سيرين رجلا فقال ذاك الرجل الاسود ثم قال أستغفر الله انى أرانى قد اغتبته وذكر ابن سيرين ابراهيم النخعى فوضع يده على عينه ولم يقل الاعور وقالت عائشة (١) لايغتاب أحدكم أحدا فانى قلت لامرأة مرة وأنا عند النبى صلى الله عليه وسلم ان هذه لطويلة الذيل فقال لى اقظى اقظى فلفظت مضغة لحم

(بيان أن الغيبة لاتقتصر على اللسان)

اعلم أن الذكر باللسان انما حرم لان فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والاشارة والايماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل مايفهم المقصود فهو داخل فى الغيبة وهو حرام فمن ذلك قول عائشة رضى الله عنها (٢) دخلت علينا امرأة فحاولت أومأت بيدى انها قصيرة فقال عليه السلام اغتبتيها ومن ذلك المحاكاة كأن يمشى متعارجا أو كما يمشى فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لانه أعظم فى التصوير والتفهيم ولما رأى صلى الله عليه وسلم عائشة حاكت امرأة قال (٣) مايسرنى أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا وكذلك الغيبة بالكتابة فان القلم أحد اللسانين وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه فى الكتاب غيبة الا أن يقترن به شئ من الاعذار المجوجة الى ذكره كما سيأتى بيانه وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة انما الغيبة التعرض لشخص معين اما حى واما ميت ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم أو بعض من رأيناه اذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا لان المحذور تفهيمه دون مابه التفهيم فاما اذا لم يفهم عينه جاز كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) اذا كره من انسان شيأ قال مابال أقوام يفعلون كذا وكذا فكان لايعين وقولك بعض من قدم من السفر أو بعض من يدعى العلم ان كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهى غيبة وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فانهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ولايدرون بجهلهم انهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء وذلك مثل أن يذكر عنده انسان فيقول الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل فى طلب الحطام أو يقول نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها وانما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ما كان يقصر فى العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده ان يذم غيره فى ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بان يذم نفسه فيكون مغتابا ومرائيا ومزكيا نفسه فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجهله يظن انه من الصالحين المتعففين عن الغيبة ولذلك يلعب الشيطان باهل الجهل اذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فانه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم ومن ذلك ان يذكر عيب انسان فلا ينتبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصغى اليه ويعلم مايقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسمه آلة له فى تحقيق خبثه وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول ساء نى ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه فيكون كاذبا فى دعوى الاغتمام وفى اظهار الدعاء له بل لو قصد الدعاء لأخفاه فى خلوته عقيب

حذيفة عن عائشة وكذا هو فى الصمت لابن أبى الدنيا والصواب عن أبى حذيفة كما عند أحمد وأبى داود والترمذى واسم أبى حذيفة سلمة بن صهيب (١) حديث عائشة قلت لامرأة ان هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم اقظى فلفظت بضعة من لحم ابن أبى الدنيا وابن مردويه فى التفسير وفى اسناده امرأة لاأعرفها (٢) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت بيدى أى قصيرة فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد اغتبتيها ابن أبى الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات (٣) حديث مايسرنى أنى حكيت ولى كذا وكذا تقدم فى الآفة الحادية عشرة (٤) حديث كان اذا كره من انسان شيأ قال مابال أقوام يفعلون كذا وكذا الحديث أبو داود من حديث عائشة دون قوله وكان لايعيره ورجاله رجال

فان مشى خطوات وزاد فى التنحنح فلا بأس ولكن يراعى حد العلم ولا يجعل للشيطان عليه سبيلا بالوسوسة فيضيع الوقت ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر الى ان لايرى الرطوبة وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال لايزال تظهر منه الرطوبة مادام يمد فيراعى الحد فى ذلك ويراعى الوتر فى ذلك أيضا والمسحات تكون على الارض الطاهرة أو حجر طاهر وان احتاج الى أخذ الحجر لصغره فليأخذ الحجر باليمين والذكر باليسار ويمسح على الحجر وتكون الحركة باليسار لا باليمين لئلا يكون مستنجيا باليمين واذا أراد استعمال الماء انتقل الى موضع آخر ويقنع

صلاته ولو كان يغتم به لاغتم أيضا باظهار ما يكرهه وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه فهو فى كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفى قصده وهو لجهله لا يدرى انه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال اذا جاهروا ومن ذلك الاصغاء الى الغيبة على سبيل التعجب فانه انما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجب ما علمت انه كذلك ما عرفته الى الآن الا باخير وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه فان كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك المغتاب قال صلى الله عليه وسلم (١) المستمع أحد المغتابين وقد روى عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما (٢) ان أحدهما قال لصاحبه ان فلانا النؤم ثم انهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأكلا به الخبز فقال صلى الله عليه وسلم قد ائتدمتما فقالا ما نعلمه قال بلى انكما أكلتما من لحم أخيكما فانظر كيف جعلهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمع وقال للرجلين اللذين قال أحدهما اقعص الرجل كما يقعص الكلب (٣) انهشا من هذه الجيفة فجمع بينهما فالمستمع لا يخرج من اثم الغيبة الا أن ينكر بلسانه أو بقلبه ان خاف وان قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه وان قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ولا يخرجه من الاثم مالم يكرهه بقلبه ولا يكفى فى ذلك ان يشير باليد أى اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه فان ذلك استحقار للمذكور بل ينبغى أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا وقال صلى الله عليه وسلم (٤) من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق وقال أبو الدرداء (٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة وقال أيضا (٦) من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار وقد ورد فى نصرة المسلم فى الغيبة وفى فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها فى كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطول باعادتها

(بيان الاسباب الباعثة على الغيبة)

اعلم ان البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببا ثمانية منها تطرد فى حق العامة وثلاثة تختص باهل الدين والخاصة *(أما الثمانية)* فالاول أن يشفى الغيظ وذلك اذا جرى سبب غضب به عليه فانه اذا هاج غضبه يشتفى بذكر مساويه فيسبق اللسان اليه بالطبع ان لم يكن ثم دين وازع وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقدا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوى فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة * الثانى موافقة الاقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم اذا كانوا يتفكهون بذكر الاعراض فيرى انه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة فى الصحبة وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج الى أن يغضب لغضبهم اظهارا

الصحيح (١) حديث المستمع أحد المغتابين الطبرانى من حديث ابن عمر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع الى الغيبة وهو ضعيف (٢) حديث ان أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه ان فلانا لنؤم ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد ائتدمتما فقالا ما نعلم فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما أبو العباس الدغولى فى الآداب من رواية عبد الرحمن ابن أبى ليلى مرسلا نحوه (٣) حديث انهشا من هذه الميتة قاله للرجلين اللذين قال أحدهما اقعص كما يقعص الكلب تقدم قبل هذا بأثنى عشر حديثا (٤) حديث من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق الطبرانى من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة (٥) حديث أبى الدرداء من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة ابن أبى الدنيا فى الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبرانى من وجه آخر بلفظ رد الله عن وجهه النار يوم القيامة وفى رواية له كان له حجابا من النار وكلاهما ضعيف (٦) حديث من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار أحمد والطبرانى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء

الحجر مالم ينتشر البول على الخشفة وفى ترك الاستنقاء فى الاستبراء وعيد ورد فيما رواه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما هذا فكان لا يستبرئ أو لا يستنزه من البول وأما هذا فكان يمشى بالنميمة ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال لعله يخفف عنهما مالم ييبسا والعسيب الجريد واذا كان فى الصحراء يبعد عن العيون *روى جابر رضى الله عنه أن النبى عليه السلام كان اذا أراد البراز انطلق حتى لا يراه أحد وروى المغيرة بن شعبة

للمساهمة فى السراء والضراء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوى * الثالث أن يستشعر من انسان انه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته أو يبتدئ بذكر مافيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الاول ويستشهد ويقول ما من عادتى الكذب فانى أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت * الرابع أن ينسب الى شئ فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذى فعله وكان من حقه أن يرى نفسه ولا يذكر الذى فعل فلا ينسب غيره اليه أو يذكر غيره بانه كان مشاركا له فى الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه فى فعله * الخامس ارادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف وغرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم انه أعلم منه أو يخبر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك * السادس الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا اليه الا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لانه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه واكرامهم له وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد فان ذلك يستدعى جناية من المغضوب عليه والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق * السابع اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والتعجب * الثامن السخرية والاستهزاء استحقارا له فان ذلك قد يجرى فى الحضور ويجرى أيضا فى الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به * وأما الاسباب الثلاثة التى هى فى الخاصة فهى أعمضها وأدقها لانها شرور خبأها الشيطان فى معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر * الاول أن تنبعث من الدين داعية التعجب فى انكار المنكر والخطأ فى الدين فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فانه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه فى اظهار تعجبه فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدرى ومن ذلك قول الرجل تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهى قبيحة وكيف يجلس بين يدى فلان وهو جاهل * الثانى الرحمة وهو ان يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول مسكين فلان قد غمنى أمره وما ابتلى به فيكون صادقا فى دعوى الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان الى شر من حيث لا يدرى والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه * الثالث الغضب لله تعالى فانه قد يغضب على منكر فارفه انسان اذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يظهره على غيره أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء فهذه الثلاثة مما يغمض درکها على العلماء فضلا عن العوام فانهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب اذا كان لله تعالى كان عذرا فى ذكر الاسم وهو خطأ بل المرخص فى الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتى ذكره وروى عن عامر بن واثلة (١) ان رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال لرجل منهم انى لابغض هذا فى الله تعالى فقال أهل المجلس لبئس ما قلت والله لنغتبنه ثم قالوا يا فلان لرجل منهم قم فأدركه وأخبره بما قال فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال وسأله أن يدعو له فدعاه وسأله فقال قد قلت ذلك فقال صلى الله عليه وسلم لم تبغضه فقال أنا جاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلى صلاة قط الا هذه المكتوبة قال فاسأله يا رسول الله هل رآنى أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها فسأله فقال لا فقال والله ما رأيته يصوم شهر اقط الا هذا الشهر الذى يصومه البر والفاجر قال فاسأله يا رسول الله هل

(١) حديث عامر بن واثلة أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم انى لأبغض هذا فى الله الحديث بطوله وفيه فقال قم فلعله خير منك

رضى الله عنه قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فاتى النبى عليه السلام حاجته فأبعد فى المذهب وروى أن النبى عليه السلام كان يتبوأ لحاجته كما يتبوأ الرجل المنزل وكان يستتر بحائط أو نشز من الارض أو كوم من الحجارة ويجوز أن يستتر الرجل براحلته فى الصحراء أو بذيله اذا حفظ الثوب من الرشاش ويستحب البول فى أرض دمثة أو على تراب مهيل قال أبو موسى كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يبول فأتى دمثا فى أصل جدار فبال ثم قال اذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله وينبغى أن لا يستقبل القبلة

رآنى قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيأ فسأله عنه فقال لا فقال والله ما رأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيأ من ماله فى سبيل الله الا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر قال فاسأله هل رآنى نقصت منها أو ما كست فيها طالبها الذى يسأله فسأله فقال لا فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك

(بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة)

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها انما تعالج بمجموع العلم والعمل وانما علاج كل علة بمضادة سببها فلنفحص عن سببها وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين أحدهما على الجملة والآخر على التفصيل أما على الجملة فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التى رويناها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة فانها تنقل حسناته فى القيامة الى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه فان لم تكن له حسنات نقل اليه من سيئات خصمه وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشبه عنده بآكل الميتة بل العبد يدخل النار بأن ترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل اليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار وانما أقل الدرجات ان تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب قال صلى الله عليه وسلم (١) ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد وروى ان رجلا قال للحسن بلغنى انك تغتابنى فقال ما بلغ من قدرك عندى انى أحكمك فى حسناتى فهما آمن العبد بما ورد من الأخبار فى الغيبة لم يطاق لسانه بها خوفا من ذلك وينفعه أيضا أن يتدبر فى نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم (٢) طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحيى من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره بل ينبغى أن يتحقق ان عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب كعجزه وهذا ان كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره وان كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق فان من ذم صنعة فقد ذم صانعها * قال رجل لحكيم ياقبيح الوجه قال ما كان خالقى وجهى الى فاحسنه واذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه باعظم العيوب فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب بل لو أنصف لعلم ان ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب وينفعه أن يعلم ان تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له فاذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه فهذه معالجات جلية أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة فان علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الاسباب أما الغضب فيعالجه بما سيأتى فى كتاب آفات الغضب وهو أن يقول انى اذا أمضيت غضبى عليه فلعل الله تعالى يمضى غضبه على بسبب الغيبة اذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره وقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) ان لجهنم بابا لا يدخل منه الا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم (٤) من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه وقال صلى الله عليه وسلم (٥) من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك اذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم الا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك

أحمد باسناد صحيح (١) حديث ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد لم أجد له أصلا (٢) حديث طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس البزار من حديث أنس بسند ضعيف (٣) حديث ان لجهنم بابا لا يدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله البزار وابن أبى الدنيا وابن عدى والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٤) حديث من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ورويناه فى الاربعين البلدانية للسافى (٥) حديث من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه الحديث أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس

ولا يستدبرها ولا يستقبل الشمس والقمر ولا يكره استقبال القبلة فى البنيان والأولى اجتنابه لذهاب بعض الفقهاء الى كراهية ذلك فى البنيان أيضا ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض ويتجنب مهاب الرياح احترازا من الرشاش قال رجل لبعض الصحابة من الاعراب وقد خاصمه لا أحسبك تحسن الخراءة فقال بلى وأبيك انى بها لحاذق قال فصفها لى فقال أبعد البشر وأعد المدر وأستقبل الشيح وأستدبر الريح وأقعى اقعاء الظبى وأجفل اجفال النعام يعنى أستقبل أصول النبات من الشيح وغيره وأستدبر الريح احترازا من الرشاش والاقعاء ههنا أن يستوفز على

لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغي أن تغضب لله أيضا على رفقائك اذا ذكروه بالسوء فانهم عصوا ربك بالخوض الذنوب وهي الغيبة وأما تنزيه النفس بنسبة الغير الى الخيانة حيث يستغني عن ذكر الغير فتعالجه بان تعرف ان التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا تدري انك تتخلص من سخط الناس أم لا فتخاص نفسك في الدنيا بالتوهم وتهلك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان وأما عذرك كقولك ان أكلت الحرام فلان يأكله وان قبلت مال السلطان فلان يقبله فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فان من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها الى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر الى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل فهي أيضا تردى نفسها ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر وقالت العنزا كيس مني وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك فينبغي أن تعلم انك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر وربما نقص اعتقادهم فيك اذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيأ * وأما الغيبة لأجل الحسد فهو وجع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذبا بالحسد فما نفعت بذلك حتى أضفت اليه عذاب الآخرة فكنت خاسرا نفسك في الدنيا فصرت أيضا خاسرا في الآخرة لتجمع بين النكالين فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت اليه حسناتك فاذا أنت صديقه وعدو نفسك اذ لا تضره غيبتك وتضرك وتنفعه اذ تنقل اليه حسناتك أو تنقل اليك سيآته ولا تنفعك وقد جمعت الى خبث الحسد جهل الحماقة وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل

واذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه اخزاء غيرك عند الناس باخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيآت من استهزأت به وتساق الى النار لأدهشك ذلك عن اخزاء صاحبك ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك فانك سخرت به عند نفر قليل وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملا من الناس ويسوقك تحت سيآته كما يساق الحمار الى النار مستهزئا بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى اياه عليك وتسلطه على الانتقام منك وأما الرحمة على اثمه فهو حسن ولكن حسدك ابليس فأضلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك اليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبرا لاثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما وتنقلب أنت مستحقا لان تكون مرحوما اذ خبط أجرك ونقصت من حسناتك وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة وانما الشيطان حبب اليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالغيبة وأما التعجب اذا أخرجك الى الغيبة فتعجب من نفسك أنت كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا وهو أن يهتك الله ستره كما هتكت بالتعجب ستر أخيك فاذا علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الامور التي هي من أبواب الايمان فمن قوي ايمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة

* (بيان تحريم الغيبة بالقلب) *

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ولست أعني به الاعتقاد القلب وحكمه على غيره بالسوء فأما الخواطر

وحديث

صدور قدميه والاجفال أن يرفع مجزه * ويقول عند الفراغ من الاستنجاء اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وطهر قلبي من الرياء وحصن فرجي من الفواحش ويكره أن يبول الرجل في المغتسل روى عبد الله بن مغفل أن النبي عليه السلام نهى أن يبول الرجل في مستحمه وقال ان عامة الوسواس منه وقال ابن المبارك يوسع في البول في المستحم اذا جرى فيه الماء واذا كان في البنيان يقدم رجله اليسرى لدخول الخلاء ويقول قبل الدخول بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث * حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردي

وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضا معفو عنه ولكن المنهى عنه ان يظن والظن عبارة عما تركن اليه النفس ويميل اليه القلب فقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم وسبب تحريمه ان أسرار القلوب لا يعلمها الا علام الغيوب فليس لك ان تعتقد فى غيرك سوأ الا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك الا أن تعتقد ما علمته وشاهدته ومالم تشاهده بعينك ولم تسمعه باذنك ثم وقع فى قلبك فانما الشيطان يلقيه اليك فينبغى أن تكذبه فانه أفسق الفساق وقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فلا يجوز تصديق ابليس وان كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به لان الفاسق يتصور ان يصدق فى خبره ولكن لا يجوز لك ان تصدق به حتى ان من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز ان يحد اذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر وجها وماشربها أو حمل عليه قهرا فكل ذلك لاحالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب واساءة الظن بالمسلم بها وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) ان الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء فلا يستباح ظن السوء الا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة فاذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغى أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر فان قلت فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث فنقول امارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده واكرامه والاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) ثلاث فى المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه أى لا يحققه فى نفسه بعقد ولا فعل لا فى القلب ولا فى الجوارح أما فى القلب فبتغييره الى النفرة والكراهة وأما فى الجوارح فبالعمل بموجبه والشيطان قد يقرر على القلب بادنى مخيلة مساءة الناس ويلقى اليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته وأما اذا أخبرك به عدل فمال ظنك الى تصديقه كنت معذورا لانك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل اذ ظننت به الكذب وذلك أيضا من سوء الظن فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحد وتسىء بالآخر نعم ينبغى أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه (٣) فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو فلك عند ذلك أن تتوقف وان كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ولكن تقول فى نفسك المذكور حاله كان عندى فى ستر الله تعالى وكان أمره محجوبا عنى وقد بقى كما كان لم ينكشف لى شئ من أمره وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم فهذا قد يظن انه عدل وليس بعدل فان المغتاب فاسق وان كان ذلك من عادته ردت شهادته الا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا فى أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغى أن تزيد فى مراعاته وتدعوله بالخير فان ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقى اليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه فى السر ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك الى اغتيابه واذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر اليك بعين التعظيم وتنظر اليه بعين الاستحقار وترفع عليه بابداء الوعظ وليكن قصدك تخليصه من الاثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك اذا دخل عليك نقصان فى دينك وينبغى أن يكون تركه لذلك

(١) حديث ان الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر (٢) حديث ثلاث فى المؤمن وله منهن مخرج الطبرانى من حديث حارثة ابن النعمان بسند ضعيف (٣) حديث رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو الترمذى من حديث عائشة وضعفه لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذى غمر لأخيه وفيه ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة ولأبى داود وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة

قال أنا أبو منصور المقرى قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمرو الهاشمى قال أنا أبو على اللؤلؤى قال أنا أبو داود قال ثنا عمر وهو ابن مرزوق البصرى قال ثنا شعبة عن قتادة عن النضر بن أنس عن زيد بن أرقم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان هذه الحشوش محتضرة فاذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث وأراد بالحشوش الكنف وأصل الحش جماعة النخل الكثيف كانوا يقضون حوائجهم اليها قبل أن تتخذ الكنف فى البيوت وقوله محتضرة أى يحضرها الشياطين وفى الجلوس للحاجة يعقد على الرجل

من غير نصحك أحب اليك من تركه بالنصيحة فاذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته وأجر الاعانة له على دينه ومن ثمرات سوء الظن التجسس فان القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضا منهي عنه قال الله تعالى ولا تجسسوا فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة ومعنى التجسس ان لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل الى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه وقد ذكرنا في كتاب الامر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته

(بيان الاعذار المرخصة في الغيبة)

اعلم ان المرخص في ذكر مساوئ الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل اليه الا به فيدفع ذلك اثم الغيبة وهي ستة أمور * الاول التظلم فان من ذكر قاضيا بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا ان لم يكن مظلوما أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم اذ لا يمكنه استيفاء حقه الا به قال صلى الله عليه وسلم (١) ان لصاحب الحق مقالا وقال عليه السلام (٢) مطل الغني ظلم وقال عليه السلام (٣) لي الواجد يحل عقوبته وعرضه * الثاني الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي الى منهج الصلاح كما روي أن عمر رضي الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضي الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام فذهب الى أبي بكر رضي الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر اليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أن أباجندل قد عاقر الخمر بالشام كتب اليه بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب الآية فتاب ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة اذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره وانما اباحة هذا بالقصد الصحيح فان لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما * الثالث الاستفتاء كما يقول للمفتي ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي فكيف طريقي في الخلاص والاسلم التعريض بان يقول ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روي عن هند بنت عتبة انها قالت (٤) للنبي صلى الله عليه وسلم ان أباسفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفآخذ من غير علمه فقال خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها صلى الله عليه وسلم اذ كان قصدها الاستفتاء * الرابع تحذير المسلم من الشر فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره وذلك موضع الغرور اذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك فان في سكوتك ضرر المشتري وفي ذكرك ضرر العبد والمشتري أولى بمراعاة جانبه وكذلك المزكي اذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه ان علم مطعنا وكذلك المستشار في التزويج وايداع الامانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة فان علم انه يترك التزويج بمجرد قوله لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية وان علم انه لا ينزجر الا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) اذكروا من ذكر الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم الامام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه * الخامس أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالاعرج والاعمش فلا اثم على من يقول روى أبو الزناد عن الاعرج وسلمان

وذي الغمر على أخيه (١) حديث لصاحب الحق مقال متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث مطل الغني ظلم متفق عليه من حديثه (٣) حديث لي الواجد يحل عرضه وعقوبته أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الشريد باسناد صحيح (٤) حديث ان هندا قالت ان أباسفيان رجل شحيح متفق عليه من حديث عائشة (٥) حديث اذكروا الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس

البصري ولا يتوانى بيده ولا يخطو في الارض الحائط وقت قعوده ولا يكثر النظر الى عورته الا للحاجة الى ذلك ولا يتكلم فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عوراتهما يتعدان فان الله تعالى يمقت على ذلك ويقول عند خروجه غفرانك الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني ولا يستصحب معه شيأ عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره ولا يدخل حاسر الرأس روت عائشة رضي الله عنها عن أبيها أبي بكر رضي الله عنه أنه قال استحيوا من الله فاني لأدخل الكنيف فالزق ظهري وأغطي رأسي استحياء من ربي عز وجل

عن الاعمش ومايجرى مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ولان ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لوعلمه بعد ان قد صار مشهورا به نعم ان وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ولذلك يقال للاعمى البصير عدو لا عن اسم النقص * السادس أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به فاذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا اثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له وقال عمر رضى الله عنه ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر اذ المستتر لا بد من مراعاة حرمته وقال الصلت بن طريف قلت للحسن الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له قال لا ولا كرامة وقال الحسن ثلاثة لا غيبة لهم صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والامام الجائر فهؤلاء الثلاثة يجمعهم انهم يتظاهرون به ور بما يتفاخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون اظهاره نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم وقال عوف دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال ان الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه وانك اذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج *

(بيان كفارة الغيبة)

اعلم ان الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله اذ المرائى قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفى الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال ور بما استدل فى ذلك بما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) كفارة من اغتبته أن تستغفر له وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بخير وسئل عطاء بن أبى رباح عن التوبة من الغيبة قال أن تمشى الى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فان شئت آخذت بحقك وان شئت عفوت وهذا هو الاصح وقول القائل العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف اذ قد وجب فى العرض حد القذف وتثبت المطالبة به بل فى الحديث الصحيح ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال (٣) من كانت لاخيه عنده مظلمة فى عرض أو مال فليستحلها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولا درهم انما يؤخذ من حسناته فان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته وقالت عائشة رضى الله عنها لامرأة قالت لأخرى انها طويلة الذيل قد اغتبتيها فاستحليها فاذا لا بد من الاستحلال ان قدر عليه فان كان غائبا أو ميتا فينبغى أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات فان قلت فالتحليل هل يجب فأقول لا لأنه تبرع والتبرع فضل وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتنر أن يبالغ فى الثناء عليه والتودد اليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فان لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة فى القيامة وكان بعض السلف لا يحلل قال سعيد بن المسيب لا أحلل من ظلمنى وقال ابن سيرين انى لأحرمها عليه فأحللها له ان الله حرم الغيبة عليه وما كنت لاحلل ما حرم الله أبدا فان قلت فما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم ينبغى أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن فنقول المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالا وما قاله ابن سيرين حسن فى التحليل قبل الغيبة فانه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة فان قلت فما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم (٤) أيعجز أحدكم أن يكون كابى ضمضم كان اذا خرج من بيته قال اللهم انى قد تصدقت بعرضى على الناس

ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا فى الصمت (١) حديث من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ابن عدى وأبو الشيخ فى كتاب ثواب الاعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم (٢) حديث كفارة من اغتبته أن تستغفر له ابن أبى الدنيا فى الصمت والحارث بن أبى اسامة فى مسنده من حديث أنس بسند ضعيف (٣) حديث من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلله الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٤) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كابى ضمضم كان اذا خرج من بيته قال اللهم انى قد تصدقت بعرضى على الناس البزار وابن

(الباب الرابع والثلاثون فى آداب الوضوء وأسراره)

اذا أراد الوضوء يبتدئ بالسواك

(حدثنا) شيخنا أبو النجيب قال أنا أبو عبد الله الطائى قال أنا الحافظ الفراء قال أنا عبد الواحد بن أحمد المليحى قال أنا أبو منصور محمد بن أحمد قال أنا أبو جعفر محمد ابن أحمد بن عبد الجبار قال ثنا حميد ابن زنجويه قال ثنا على بن عبيد قال ثنا محمد بن اسحق عن محمد ابن ابراهيم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن زيد ابن خالد الجهنى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن أشق على أمتى لأخرت العشاء الى ثلث الليل وأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة وروت عائشة رضى الله تعالى

فكيف يتصدق بالعرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فان كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه فنقول معناه انى لا أطلب مظلمة فى القيامة منه ولا أخاصمه والا فلا تصير الغيبة حلالا به ولا تسقط المظلمة عنه لأنه عفو قبل الوجوب الا أنه وعد وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم فان رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق ان له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا وعلى الجملة فالعفو أفضل قال الحسن اذا جثت الامم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم الا العافون عن الناس فى الدنيا وقد قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فقال النبى صلى الله عليه وسلم (١) ياجبريل ماهذا العفو فقال ان الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك وروى عن الحسن أن رجلا قال له ان فلانا قد اغتابك فبعث اليه رطبا على طبق وقال قد بلغنى أنك أهديت الى من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فانى لا أقدر أن أكافئك على التمام

(الآفة السادسة عشرة النميمة)

قال الله تعالى هماز مشاء بنميم ثم قال عتل بعد ذلك زنيم قال عبد الله بن المبارك الزنيم ولد الزنا الذى لا يكتم الحديث وأشار به الى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على انه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل عتل بعد ذلك زنيم والزنيم هو الدعى وقال تعالى ويل لكل همزة لمزة قيل الهمزة النمام وقال تعالى حمالة الحطب قيل انها كانت نمامة حمالة للحديث وقال تعالى فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيأ قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) لا يدخل الجنة نمام وفى حديث آخر لا يدخل الجنة قتات والقتات هو النمام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) أحبكم الى الله أحاسنكم أخلاقا الموطؤن اكنافا الذين يألفون ويؤلفون وان أبغضكم الى الله المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الاخوان الملتمسون للبرآء العثرات وقال صلى الله عليه وسلم (٤) ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون للبرآء العيب وقال أبو ذر (٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة وقال أبو الدرداء (٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار وقال أبو هريرة (٧) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهد على مسلم بشهادة ليس لها هل فليتبوأ مقعده من النار ويقال ان ثلث

السنى فى اليوم والليلة والعقيلى فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلا عند ذكر أبى ضمضم فى الصحابة قلت وانما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلى (١) حديث نزول خذ العفو الآية فقال ياجبريل ماهذا فقال ان الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك تقدم فى رياضة النفس

(الآفة السادسة عشرة النميمة)

(٢) حديث لا يدخل الجنة نمام وفى حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم (٣) حديث أبى هريرة وأحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الطبرانى فى الأوسط والصغير وتقدم فى آداب الصحبة

(٤) حديث ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاؤن بالنميمة الحديث أحمد من حديث أبى مالك الاشعرى وقد تقدم

(٥) حديث أبى ذر من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى مكارم الاخلاق وفيه عبد الله بن مجيون فان يكن القداح فهو متروك الحديث (٦) حديث أبى الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار ابن أبى الدنيا موقوفا على أبى الدرداء ورواه الطبرانى بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم (٧) حديث أبى هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها أصل فليتبوأ مقعده من النار أحمد وابن أبى الدنيا وفى رواية أحمد رجل

عذاب

عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال السواك مطهرة للفم مرضاة للرب وعن حذيفة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك والشوص الدلك ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وكلما تغير الفم من أزم وغيره وأصل الازم امساك الاسنان بعضها على بعض وقيل للسكوت أزم لان الاسنان تنطبق وبذلك يتغير الفم ويكره للصائم بعد الزوال ويستحب له قبل الزوال وأكثر استحبابه مع غسل الجمعة وعند القيام من الليل وينبغى السواك اليابس بالماء ويستاك عرضا وطولا فان اقتصر فعرضا فاذا فرغ من السواك يغسله ويجلس

عذاب القبر من النميمة وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) ان الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقالت سعد من دخلني فقال الجبار جل جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس لا يسكنك مدمن خمر ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو النمام ولا ديوث ولا شرطي ولا مخنث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول على عهد الله ان لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به وروى كعب الاحبار ان بني اسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا فأوحى الله تعالى اليه اني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة فقال موسى يارب من هو دلني عليه حتى أخرجه من بيننا قال يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما فتابوا جميعا فسقوا ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال اني جئتك للذي آتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أثقل منها وعن الارض وما أوسع منها وعن الصخر وما أقسى منه وعن النار وما أحر منها وعن الزمهرير وما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه وعن اليتيم وما أذل منه فقال له الحكيم البهتان على البرىء أثقل من السموات والحق أوسع من الارض والقانع أغنى من البحر والحرص والحسد أحر من النار والحاجة الى القريب اذا لم تنجح أبرد من الزمهرير وقلب الكافر أقسى من الحجر واليتيم اذا بان أمره أذل من اليتيم * (بيان حد النميمة وما يجب في ردها) *

اعلم أن اسم النميمة انما يطلق في الاكثر على من ينم قول الغير الى المقول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه أو كرههما ثالث وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالايماء وسواء كان المنقول من الاعمال أو من الاقوال وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة افشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه بل كل ما رآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه الا ما في حكايته فائدة تسلم أو دفع لمعصية كما اذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له فاما اذا رآه يخفي ماله لنفسه فذكره فهو نميمة وافشاء للسر فان كان ما نم به نقصا وعيبا في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة فالباعث على النميمة اما ارادة السوء للمحكي عنه أو اظهار الحب للمحكي له أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل وكل من حملت اليه النميمة وقيل له ان فلانا قال فيك كذا أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في افساد أمرك أو في مما لأة عدوك أو تقبيح حالك أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور * الاول أن لا يصدقه لان النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة * الثاني أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله قال الله تعالى وأمر بالمعروف وانه عن المنكر * الثالث أن يبغضه في الله تعالى فانه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من يبغضه الله تعالى * الرابع أن لا تظن باخيك الغائب السوء لقول الله تعالى اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم * الخامس أن لا يحملك ما حكي لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعا لقوله تعالى ولا تجسسوا * السادس أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكي نميمته فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا فتكون به نماما وممتابا وتكون قد أتيت ما عنه نهيت وقد روى عن عمر بن العزيز رضي الله عنه انه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيأ فقال له عمر ان شئت نظرنا في أمرك فان كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا وان كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية هماز مشاء بنميم وان شئت عفونا

(١) حديث ابن عمر ان الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي قالت سعد من دخلني قال الجبار وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية فذكر منها ولا قتات وهو النمام لم أجده هكذا اجتمعا ولا جد لا يدخل الجنة عاق لوالديه ولا ديوث وللنسائي من حديث عبد الله بن عمرو لا يدخل الجنة مدمن خمر وللشيخين من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قتات ولهما من حديث جبير بن مطعم لا يدخل الجنة قاطع وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله الجنة قال لها تكلمي تزيني فتزينت فقالت طوبى لمن

للوضوء والأولى أن يكون مستقبل القبلة ويبتدئ بسم الله الرحمن الرحيم ويقول رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ويقول عند غسل اليد اللهم اني أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ويقول عند المضمضة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك ويقول عند الاستنشاق اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأوجدني رائحة الجنة وأنت عني راض ويقول عند الاستنثار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك من روائح النار وسوء الدار ويقول عند

عنك فقال العفو يا أمير المؤمنين لا أعود اليه أبدا * وذكر ان حكيما من الحكماء زاره بعض اخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم قد أبطأت فى الزيارة وأتيت بثلاث جنايات بغضت أخى الى وشغلت قلبى الفارغ واتهمت نفسك الامينة وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاء رجل فقال له سليمان بلغنى انك وقعت فى وقلت كذا وكذا فقال الرجل ما فعلت ولا قلت فقال سليمان ان الذى أخبرنى صادق فقال له الزهرى لا يكون النمام صادقا فقال سليمان صدقت ثم قال للرجل اذهب بسلام وقال الحسن من نم اليك نم عليك وهذا اشارة الى ان النمام ينبغى أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والافساد بين الناس والخديعة وهو ممن يسعى فى قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض وقال تعالى انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق والنمام منهم وقال صلى الله عليه وسلم (١) ان من شرار الناس من اتقاه الناس لشره والنمام منهم وقال (٢) لا يدخل الجنة قاطع قيل وما القاطع قال قاطع بين الناس وهو النمام وقيل قاطع الرحم وروى عن على رضى الله عنه أن رجلا سعى اليه برجل فقال له يا هذا نحن نسأل عما قلت فان كنت صادقا مقتناك وان كنت كاذبا عاقبناك وان شئت أن نقيلك أقلناك فقال أقلنى يا أمير المؤمنين وقيل لمحمد بن كعب القرظى أى خصال المؤمن أوضع له فقال كثرة الكلام وافشاء السر وقبول قول كل أحد وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميرا بلغنى ان فلانا أعلم الامير أنى ذكرته بسوء قال قد كان ذلك قال فاخبرنى بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك قال ما أحب أن أشتم نفسى بلسانى وحسبى انى لم أصدقه فيما قال ولا أقطع عنك الوصال وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس الا منهم وقال مصعب بن الزبير نحن نرى ان قبول السعاية شر من السعاية لان السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شئ فأخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعى فلو كان صادقا فى قوله لكان اثما فى صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة والسعاية هى النميمة الا انها اذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية وقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) الساعى بالناس الى الناس لغير رشدة يعنى ليس بولد حلال ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه فى الكلام وقال انى مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله وان كرهته فان وراءه ما تحب ان قبلته فقال قل فقال يا أمير المؤمنين انه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك فى الله ولم تخافوا الله فيك فلانا منهم على ما ائتمنك الله عليه ولا تصح النهم فيما استحفظك الله اياه فانهم لن يألوا فى الامة خسفا وفى الامانة تضييعا والاعراض قطعا واتها كا أعلى قربهم البغى والنميمة وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة وأنت مسؤل عما أجرموا وليسوا المسؤلين عما أجرمت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فان أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره وسعى رجل بزياد الاعجم الى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل وقال

فأنت امرؤ اما ائتمنتك خاليا * نخنت واما قلت قولا بلا علم

فأنت من الامر الذى كان بيننا * بمنزلة بين الخيانة والاثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد ان الاسوارى ما يزال يذكرك فى قصصه بشر فقال له عمرو يا هذا ما رعيت حق مجالسة

دخلنى ورضى عنه الهى فقال الله عز وجل لا سكنك مخنث ولا نائحة (١) حديث ان من شر الناس من اتقاه الناس لشره متفق عليه من حديث عائشة نحوه (٢) حديث لا يدخل الجنة قاطع متفق عليه من حديث جبير بن مطعم (٣) حديث الساعى بالناس الى الناس لغير رشدة الحاكم من حديث أبى موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة أو فيه شئ منها وقال له أسانيد هذا أمثلها قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر فى التذكرة منكر الرواية قال والحديث لا أصل له وقد ذكر ابن حبان فى الثقات سهل بن عطية ورواه الطبرانى بلفظ لا يسعى على الناس الا ولد بغى والامن فيه عرق منه وزاد بين سهل وبين بلال بن ابى بردة أبا الوليد القرشى

غسل الوجه اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبيض وجهى يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهى يوم تسود وجوه أعدائك وعند غسل اليمين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وآتنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابا يسيرا وعند غسل الشمال اللهم انى أعوذ بك أن تؤتينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى وعند مسح الرأس اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وغشنى برحمتك وأنزل على من بركاتك وأظلنى تحت ظل عرشك يوم لا ظل الا ظل عرشك ويقول عند مسح الأذنين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلنى ممن يسمع القول فيتبع أحسنه اللهم أسمعنى

الرجل حيث نقلت الينا حديثه ولا أديت حق حين أعلمتني عن أخي ما أكره ولكن أعلمه ان الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين * ورفع بعض السعاة الى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقع على ظهرها السعاية قبيحة وان كانت صحيحة فان كنت أجريتها مجرى النصح لخسرانك فيها أفضل من الربح ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا في مستور ولولا انك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك فتوق يا ملعون العيب فان الله أعلم بالغيب الميت رحمه الله واليتيم جبره الله والمال ثمره الله والساعي لعنه الله وقال لقمان لابنه يا بني أوصيك بخلال ان تمسكت بهن لم تزل سيدا ابسط خلقك للقريب والبعيد وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم واحفظ اخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك وبرم خداعك وليكن اخوانك من اذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك وقال بعضهم النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي أثافي الذل وقال بعضهم لو صح ما نقله النمام اليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لانه لم يقابلك بشتمك وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغي أن يتوقى قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا وقال للمشتري ما فيه عيب الا النميمة قال قد رضيت فاشتراه فمكث الغلام أياما ثم قال لزوجة مولاه ان سيدي لا يحبك وهو يريد أن يتسرى عليك فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك ثم قال للزوج ان امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك فتناومت لها فجاءت المرأة بالموسى فظن انها تريد قتله فقام اليها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ووقع القتال بين القبيلتين فنسأل الله حسن التوفيق

(الآفة السابعة عشرة)

كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق قال عمار بن ياسر (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة وقال أبو هريرة (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث وفي لفظ آخر الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وقال أبو هريرة لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينا عند الله وقال مالك بن دينار قرأت في التوراة بطلت الامانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين وقال صلى الله عليه وسلم (٣) أبغض خليقة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم في صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم والذين اذا دعوا الى الله ورسوله كانوا بطآء واذا دعوا الى الشيطان وأمره كانوا سراعا وقال ابن مسعود لا يكونن أحدكم امعة قالوا وما الامعة قال الذي يجري مع كل ريح وأنفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها وقد روي أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه فقال يا أمير المؤمنين انه منهم فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا قال اللهم لا ولا أؤمن منها أحدا بعدك فان قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك فأقول اذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين فان الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي الى حد الاخوة اذ لو تحققت الصداقة لاقتضت

(الآفة السابعة عشرة كلام ذي اللسانين)

(١) حديث عمار بن ياسر من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة البخاري في كتاب الادب المفرد وأبو داود بسند حسن (٢) حديث أبي هريرة تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الحديث متفق عليه بلفظ تجد من شر الناس لفظ البخاري وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف (٣) حديث أبغض خليقة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم في صدورهم فاذا لقوهم

منادي الجنة مع الأبرار ويقول في مسح العنق اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والاغلال ويقول عند غسل قدمه اليمنى اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين ويقول عند اليسرى اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك أن تزل قدمي عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين واذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه الى السماء ويقول أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانك اللهم وبحمدك لا اله الا أنت عملت سوأ وظلمت نفسي أستغفرك وأتوب اليك

معاداة الاعداء كما ذكرنا فى كتاب آداب الصحبة والاخوة نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة اذ يصير نماما بان ينقل من أحد الجانبين فقط فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وان لم ينقل كلاما ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين وكذلك اذا وعد كل واحد منهما بان ينصره وكذلك اذا أثنى على كل واحد منهما فى معاداته وكذلك اذا أثنى على أحدهما وكان اذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين بل ينبغى أن يسكت أو يثنى على المحق من المتعاديين ويثنى عليه فى غيبته وفى حضوره وبين يدى عدوه قيل لابن عمر رضى الله عنهما (١) انا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول صلى الله عليه وسلم وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الامير وعن الثناء عليه فلو استغنى عن الدخول ولكن اذا دخل يخاف ان لم يثن فهو نفاق لانه الذى أحوج نفسه الى ذلك فان كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم (٢) حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل لانه يحوج الى الامراء والى مراعاتهم ومراآتهم فاما اذا ابتلى به لضرورة وخاف ان لم يثن فهو معذور فان اتقاء الشر جائز قال أبو الدرداء رضى الله عنه انا لنكشر فى وجوه أقوام وان قلوبنا لتلعنهم وقالت عائشة رضى الله عنها (٣) استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ثم لما دخل ألان له القول فلما خرج قلت يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول فقال يا عائشة ان شر الناس الذى يكرم اتقاء شره ولكن هذا ورد فى الاقبال وفى الكشر والتبسم فاما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز الا لضرورة أو اكراه يباح الكذب بمثله كما ذكرناه فى آفة الكذب بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كل كلام باطل فان فعل ذلك فهو منافق بل ينبغى أن ينكر فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه

(الآفة الثامنة عشرة)

المدح وهو منهى عنه فى بعض المواضع أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها والمدح يدخله ست آفات أربع فى المادح واثنتان فى الممدوح (فأما المادح) فالاولى أنه قد يفرط فينتهى به الى الكذب قال خالد بن معدان من مدح اماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤس الاشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه الثانية انه قد يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله فيصير به مرائيا منافقا الثالثة انه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه روى (٤) أن رجلا مدح رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ثم قال ان كان أحدكم لا بد مادحا أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أزكى على الله أحدا حسيبه الله ان كان يرى أنه كذلك وهذه الآفة تتطرق الى المدح بالاوصاف المطلقة التى تعرف بالأدلة كقوله انه متقى وورع وزاهد وخير وما يجرى مجراه فأما اذا قال رأيته يصلى بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ومن ذلك قوله انه عدل رضا فان ذلك خفى فلا ينبغى أن يجزم القول فيه

تملقوا لهم الحديث لم أقفه له على أصل (١) حديث قيل لابن عمر انا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره قال كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبرانى من طرق (٢) حديث حب الجاه والمال ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف الا انه قال حب الغناء وقال العشب مكان البقل (٣) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة الحديث وفيه ان شر الناس الذى يكرم اتقاء لشره متفق عليه وقد تقدم فى الآفة التى قبلها

(الآفة الثامنة عشرة المدح)

(٤) حديث ان رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك متفق عليه

فاغفر لى وتب على انك أنت التواب الرحيم اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى صبورا شكورا واجعلنى أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا * وفرائض الوضوء النية عند غسل الوجه وغسل الوجه وحد الوجه من مبتدأ تسطيح الوجه الى منتهى الذقن وما ظهر من اللحية وما استرسل منها ومن الأذن الى الأذن عرضا ويدخل فى الغسل البياض الذى بين الأذنين واللحية وموضع الصلع وما انحسر عنه الشعر وهما النزعتان من الرأس ويستحب غسلهما مع الوجه ويوصل الماء الى شعر التحذيف وهو القدر الذى

الا بعد خبرة باطنه سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل فقال أسافرت معه قال لا قال أخالطته فى المبايعة والمعاملة قال لا قال فأنت جاره صباحه ومساءه قال لا فقال والله الذى لا اله الا هو لا أراك تعرفه * الرابعة انه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان الله تعالى يغضب اذا مدح الفاسق وقال الحسن من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى فى أرضه والظالم الفاسق ينبغى أن يذم ليقتم ولا يمدح ليفرح * (وأما الممدوح فيضره من وجهين) * أحدهما أنه يحدث فيه كبرا وعجبا وهما مهلكان قال الحسن رضى الله عنه كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله اذ أقبل الجارود بن المنذر فقال رجل هذا سيد ربيعة فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال مالى ولك يا أمير المؤمنين قال مالى ولك أما لقد سمعتها قال سمعتها فمه قال خشيت أن يخالط قلبك منها شئ فأحببت أن أطأطئ منك الثانى هو أنه اذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضى عن نفسه ومن أعجب بنفسه قل تشمره وانما ينشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا فاما اذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح وقال صلى الله عليه وسلم (٢) اذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا وقال أيضا لمن مدح رجلا (٣) عقرت الرجل عقرك الله وقال مطرف ما سمعت قط ثناء ولا مدحة الا تصاغرت الى نفسى وقال زياد بن أبى مسلم ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة الا تراءى له الشيطان ولكن المؤمن يراجع فقال ابن المبارك لقد صدق كلاهما أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص وقال صلى الله عليه وسلم (٤) لو مشى رجل الى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه وقال عمر رضى الله عنه المدح هو الذبح وذلك لأن المذبوح هو الذى يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور أولان المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح فلذلك شبهه به فان سلم المدح من هذه الآفات فى حق المادح والممدوح لم يكن به باس بل ربما كان مندوبا اليه ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال (٥) لو وزن ايمان أبى بكر بايمان العالم لرجح وقال فى عمر (٦) لو لم أبعث لبعثت يا عمر وأى ثناء يزيد على هذا ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة وكانوا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر اذ قال صلى الله عليه وسلم (٧) أنا سيد ولد آدم ولا فخر أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم كأن المقبول عند الملك قبولا عظيما انما يفتخر بقبوله اياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال صلى الله عليه وسلم (٨) وجبت لما أثنوا

من حديث أبى بكرة بنحوه وهو فى الصمت لابن أبى الدنيا بلفظ المصنف (١) حديث ان الله يغضب اذا مدح الفاسق ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ورواه أبو يعلى الموصلى وابن عدى بلفظ اذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش قال الذهبى فى الميزان منكر وقد تقدم فى آداب الكسب (٢) حديث اذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا (٣) حديث عقرت الرجل عقرك الله قاله لمن مدح رجلا لم أجد له أصلا (٤) حديث لو مشى رجل الى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه لم أجده أيضا (٥) حديث لو وزن ايمان أبى بكر بايمان العالمين لرجح تقدم فى العلم (٦) حديث لو لم أبعث لبعثت يا عمر أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وهو منكر والمعروف حديث عقبة بن عامر لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب رواه الترمذى وحسنه (٧) حديث أنا سيد ولد آدم ولا فخر الترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وله من حديث عبادة بن الصامت أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر ولمسلم من حديث أبى هريرة أنا سيد ولد آدم يوم القيامة (٨) حديث وجبت قاله لما أثنوا

يزيله الغسل من الوجه ويوصل الماء الى العنفقة والشارب والحاجب والعذار وما عدا ذلك لا يجب نعم اللحية ان كانت خفيفة يجب ايصال الماء الى البشرة وحد الخفيف أن ترى البشرة من تحته وان كانت كثيفة فلا يجب ويجتهد فى تنقية مجتمع الكحل من مقدم العين (الواجب الثالث) غسل اليدين الى المرفقين ويجب ادخال المرفقين فى الغسل ويستحب غسلهما الى انصاف العضدين وان طالت الاظافر حتى خرجت من رؤس الأصابع يجب غسل ما تحتها على الاصح (الواجب الرابع) مسح الرأس ويكفى ما يطلق عليه اسم المسح واستيعاب الرأس بالمسح سنة وهو

على بعض الموتى وقال مجاهد ان لبنى آدم جلساء من الملائكة فاذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة ولك بمثله واذا ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك اربع على نفسك واحمد الله الذى ستر عورتك فهذه آفات المدح

(بيان ما على الممدوح)

اعلم ان على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ولا ينجو منه الا ان يعرف نفسه ويتأمل ما فى خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال فانه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهة المدح باذلال المادح قال صلى الله عليه وسلم (١) احثوا التراب فى وجوه المادحين وقال سفيان بن عيينة لا يضر المدح من عرف نفسه وأثنى على رجل من الصالحين فقال اللهم ان هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى وقال آخر لما أثنى عليه اللهم ان عبدك هذا تقرب الى بمقتك وأنا أشهدك على مقته وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون واجعلنى خيرا مما يظنون وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال أتهلكنى وتهلك نفسك وأثنى رجل على على كرم الله وجهه فى وجهه وكان قد بلغه انه يقع فيه فقال أنا دون ما قلت وفوق ما فى نفسك

(الآفة التاسعة عشرة)

الغفلة عن دقائق الخطأ فى خوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ فى أمور الدين الا العلماء الفصحاء فمن قصر فى علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله بمثاله ما قال حذيفة قال النبى صلى الله عليه وسلم (٢) لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام وقال ابن عباس رضى الله عنهما (٣) جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه فى بعض الأمر فقال ما شاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم أجعلتنى لله عديلا بل ما شاء الله وحده وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٤) من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ومن يعصهما لأنه تسوية وجمع وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل أعوذ بالله وبك ويجوز أن يقول أعوذ بالله ثم بك وأن يقول لولا الله ثم فلان ولا يقول لولا الله وفلان وكره بعضهم أن يقال اللهم أعتقنا من النار وكان يقول العتق يكون بعد الورود وكانوا يستجيرون من النار ويتعوذون من النار وقال رجل اللهم اجعلنى ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة ان الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين وقال ابراهيم اذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير قيل له يوم القيامة حمارا رأيتنى خلقته خنزيرا رأيتنى خلقته وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول لولاه لسرقنا الليلة وقال عمر رضى الله عنه (٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت قال عمر رضى الله عنه فو الله ما حلفت بها منذ سمعتها وقال صلى الله عليه وسلم (٦) لا تسموا العنب كرما انما الكرم الرجل المسلم وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقولن

على بعض الموتى متفق عليه من حديث أنس (١) حديث احثوا فى وجوه المداحين التراب مسلم من حديث المقداد

(الآفة التاسعة عشرة فى الغفلة عن دقائق الخطأ)

(٢) حديث حذيفة لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت الحديث أبو داود والنسائى فى الكبرى بسند صحيح (٣) حديث ابن عباس جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فكلمه فى بعض الامر فقال ما شاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله عدلا قل ما شاء الله وحده النسائى فى الكبرى باسناد حسن وابن ماجه (٤) حديث خطب رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى الحديث مسلم من حديث عدى بن حاتم (٥) حديث عمر ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم متفق عليه (٦) حديث لا تسموا العنب

أحدكم

أن يلصق رأس أصابع اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدم الرأس ويمدهما الى القفا ثم يردهما الى الموضع الذى بدأ منه وينصف بلل الكفين مستقبلا ومستدبرا * والواجب الخامس غسل القدمين ويجب ادخال الكعبين فى الغسل ويستحب غسلهما الى انصاف الساقين ويمنع غسل القدمين من الكعبين ويجب تخليل الاصابع الملتفة فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ويختم بخنصر اليسرى وان كان فى الرجل شقوق يجب ايصال الماء الى باطنها وان ترك فيها عجينا أو شحما يجب ازالة عين ذلك الشئ * الواجب السادس

أحدكم عبدى ولا أمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم اماء الله وليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى ولا يقول المملوك ربى ولا ربتى وليقل سيدى وسيدتى فكلكم عبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى وقال صلى الله عليه وسلم (١) لا تقولوا للفاسق سيدنا فانه ان يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من قال أنا برئ من الاسلام فان كان صادقا فهو كما قال وان كان كاذبا فلن يرجع الى الاسلام سالما فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ولا يمكن حصره ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم انه اذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم (٣) من صمت نجا لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهى على طريق المتكلم فان سكت سلم من الكل وان نطق وتكلم خاطر بنفسه الا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر فان كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم فكن ممن سكت فسلم فالسلامة احدى الغنيمتين

(الآفة العشرون)

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وانها قديمة أو محدثة ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما فى القرآن الا أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب والعامى يفرح بالخوض فى العلم اذ الشيطان يخيل اليه انك من العلماء وأهل الفضل ولا يزال يحبب اليه ذلك حتى يتكلم فى العلم بما هو كفر وهو لا يدرى وكل كبيرة يرتكبها العامى فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والايمان بما ورد به القرآن والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فانه بالاضافة اليه عامى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٤) ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم وقال أنس (٥) سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال سلونى ولا تسألونى عن شئ الا أنبأتكم به فقام اليه رجل فقال يا رسول الله من أبى فقال أبوك حذافة فقام اليه شابان أخوان فقالا يا رسول الله من أبونا فقال أبوكما الذى تدعيان اليه ثم قام اليه رجل آخر فقال يا رسول الله أفى الجنة أنا أم فى النار فقال لا بل فى النار فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا فقام اليه عمر رضى الله عنه فقال رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا فقال اجلس يا عمر رحمك الله انك ما علمت لموفق وفى الحديث (٦) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال واضاعة المال وكثرة السؤال وقال صلى الله عليه وسلم

* الترتيب على النسق المذكور فى كلام الله تعالى
* الواجب السابع التتابع فى القول القديم عند الشافعى رحمه الله تعالى وحد التفريق الذى يقطع التتابع نشاف العضو مع اعتدال الهواء
(وسنن الوضوء ثلاثة عشر)
التسمية فى أول الطهارة وغسل اليدين الى الكوعين والمضمضة والاستنشاق والمبالغة فيهما فيغرغر فى المضمضة حتى يرد الماء الى الغاصمة ويسعد فى الاستنشاق الماء بالنفس الى الخياشيم ويرفق فى ذلك ان كان صائما وتخليل اللحية الكثة وتخليل الاصابع المنفرجة والبداءة بالميامن واطالة الغرة واستيعاب الرأس بالمسح

الكرم انما الكرم الرجل المسلم متفق عليه من حديث أبى هريرة (١) حديث لا تقولوا للمنافق سيدنا الحديث أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح (٢) حديث من قال أنا برئ من الاسلام فان كان صادقا فهو كما قال الحديث النسائى وابن ماجه من حديث بريدة باسناد صحيح (٣) حديث من صمت نجا الترمذى وقد تقدم فى أول آفات اللسان

(الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات الله تعالى)

(٤) حديث ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بسؤالهم الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٥) حديث سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال سلونى فلا تسألونى عن شئ الا أنبأتكم به الحديث متفق عليه مقتصرا على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر ولمسلم من حديث أبى موسى فقام آخر فقال من أبى فقال أبوك سالم مولى شيبة (٦) حديث النهى عن قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة

(١) يوشك الناس يتساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله فاذا قالوا ذلك فقولوا قل هو الله أحد الله الصمد حتى تختموا السورة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم وقال جابر (٢) مانزلت آية المتلاعنين الا لكثرة السؤال وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه اذ قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا قال هذا فراق بينى وبينك وفارقه فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من المثيرات للفتن فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم فى حروف القرآن يضاهى حال من كتب الملك اليه كتابا ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشئ منها وضيع زمانه فى أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لا محالة فكذلك تضييع العامى حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهى قديمة أم حديثة وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى والله تعالى أعلم

(كتاب ذم الغضب والحقد والحسد وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى لا يتكل على عفوه ورحمته الا الراجون * ولا يحذر سوء غضبه وسطوته الا الخائفون * الذى استدرج عباده من حيث لا يعلمون * وساط عليهم الشهوات وأمرهم بترك مايشتهون * وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون * ثم حفهم بالمكاره واللذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون * وامتحن به حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون * وعرفهم انه لا يخفى عليه شئ مما يسرون ومايعلنون * وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون * فقال ماينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون * والصلاة والسلام على محمد رسوله الذى يسير تحت لوائه النبيون * وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديون * والسادة المرضيون * صلاة يوازى عددها عددما كان من خلق الله وماسيكون * ويحظى ببركتها الاولون والآخرون وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فان الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة * وانها لمستكنة فى طى الفؤاد * استكنان الجمر تحت الرماد * ويستخرجها الكبر الدفين فى قلب كل جبار عنيد كاستخراج الحجر النار من الحديد * وقد انكشف للناظرين بنور اليقين * أن الانسان ينزع منه عرق الى الشيطان اللعين * فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال خلقتنى من نار وخلقته من طين * فان شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظى والاستعار * والحركة والاضطراب ومن نتائج الغضب الحقد والحسد والغضب * وبهما هلك من هلك وفسد من فسد * ومفيضهما مامضغة اذا صلحت صلح معها سائر الجسد واذا كان الحقد والحسد والغضب * مما يسوق العبد الى مواطن العطب * فما أحوجه الى معرفة معالجته ومساويه ليحذر ذلك ويتقيه * ويميطه عن القلب ان كان وينفيه * ويعالجه ان رسخ فى قلبه ويداويه * فان من لا يعرف الشر يقع فيه * ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه * مالم يعرف الطريق الذى به يدفع الشر ويقصيه ونحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد فى هذا الكتاب ونجمعها بيان ذم الغضب ثم بيان حقيقة الغضب ثم بيان أن الغضب هل يمكن ازالة أصله بالرياضة أم لا ثم بيان الاسباب المهيجة للغضب ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه ثم بيان فضيلة كظم الغيظ ثم بيان فضيلة الحلم ثم بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام ثم القول فى معنى الحقد وتأتيه وفضيلة العفو والرفق ثم القول فى ذم الحسد وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى ازالته ثم بيان السبب فى كثرة الحسد بين الامثال والاقران والاخوة وبنى العم والاقارب

(١) حديث يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا هذا خلق الله الخلق الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٢) حديث جابر مانزلت آية الملاعنة الا لكثرة السؤال رواه البزار باسناد جيد

(كتاب الغضب والحقد والحسد)

ومسح الأذنين والتثليث وفى القول الجديد التتابع ويجتنب أن يزيد على الثلاث ولا ينفض اليد ولا يتكلم فى أثناء الوضوء ولا يلطم وجهه بالماء لطما وتجديد الوضوء مستحب بشرط أن يصلى بالوضوء ماتيسر والا فمكروه

(الباب الخامس والثلاثون فى آداب أهل الخصوص والصوفية فى الوضوء)

آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الاحكام * أدبهم فى الوضوء حضور القلب فى غسل الاعضاء سمعت بعض الصالحين يقول اذا حضر القلب فى الوضوء يحضر فى الصلاة واذا دخل السهو فيه دخلت الوسوسة فى الصلاة ومن آدابهم استدامة الوضوء والوضوء

ونأكده وقلته فى غيرهم وضعفه ثم بيان الدواء الذى به ينفى مرض الحسد عن القلب ثم بيان القدر الواجب فى نفى الحسد عن القلب وبالله التوفيق

(بيان ذم الغضب)

قال الله تعالى اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الآية ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة (١) أن رجلا قال يارسول الله مرنى بعمل وأقلل قال لا تغضب ثم أعاد عليه فقال لا تغضب وقال ابن عمر (٢) قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لى قولا وأقلله لعلى أعقله فقال لا تغضب فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع الى لا تغضب وعن عبد الله بن عمرو (٣) أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا ينقذنى من غضب الله قال لا تغضب وقال ابن مسعود (٤) قال النبى صلى الله عليه وسلم ما تعدون الصرعة فيكم قلنا الذى لا تصرعه الرجال قال ليس ذلك ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب وقال أبو هريرة (٥) قال النبى صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة وانما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب وقال ابن عمر (٦) قال النبى صلى الله عليه وسلم من كف غضبه ستر الله عورته وقال سليمان بن داود عليهما السلام يابنى اياك وكثرة الغضب فان كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم وعن عكرمة فى قوله تعالى وسيدا وحصورا قال السيد الذى لا يغلبه الغضب وقال أبو الدرداء (٧) قلت يارسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال لا تغضب وقال يحيى لعيسى عليهما السلام لا تغضب قال لا أستطيع أن لا أغضب انما أنا بشر قال لا تقتن مالا قال هذا عيسى وقال صلى الله عليه وسلم (٨) الغضب يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل وقال صلى الله عليه وسلم (٩) ما غضب أحد الا أشفى على جهنم وقال له رجل (١٠) أى شئ أشد قال غضب الله قال فما يبعدنى عن غضب الله قال لا تغضب (الآثار) قال الحسن يا ابن آدم كلما غضبت وثبت ويوشك أن تثب وثبة فتقع فى النار وعن ذى القرنين انه لقى ملكا من الملائكة فقال علمنى علما أزداد به ايمانا ويقينا قال لا تغضب فان الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب فرد الغضب بالكظم وسكنه بالتؤدة واياك والعجلة فانك اذا عجلت أخطأت حظك وكن سهلا لينا للقريب والبعيد ولا تكن جبارا عنيدا وعن وهب بن منبه أن راهبا كان فى صومعته فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع فجاءه حتى ناداه فقال له اقبع فلم يجبه فقال اقبع فانى ان ذهبت ندمت فلم يلتفت اليه فقال انى أنا المسيح قال الراهب وان كنت المسيح فما أصنع بك أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة فلو جئتنا اليوم بغير لم نقبله منك فقال انى الشيطان وقد أردت أن أضلك فلم أستطع فجئتك لتسألنى عما شئت فأخبرك فقال ما أريد أن أسألك عن شئ قال فولى مدبرا فقال الراهب ألا تسمع قال بلى

(١) حديث أبى هريرة ان رجلا قال يارسول الله مرنى بعمل وأقلل قال لا تغضب ثم أعاد عليه فقال لا تغضب رواه البخارى (٢) حديث ابن عمر قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لى قولا وأقلل الحديث نحوه أبو يعلى باسناد حسن (٣) حديث عبد الله بن عمرو سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعدنى من غضب الله قال لا تغضب الطبرانى فى مكارم الاخلاق وابن عبد البر فى التمهيد باسناد حسن وهو عند أحمد وان عبد الله بن عمرو هو السائل (٤) حديث ابن مسعود ما تعدون الصرعة الحديث رواه مسلم (٥) حديث أبى هريرة وليس الشديد بالصرعة الحديث متفق عليه (٦) حديث ابن عمر من كف غضبه ستر الله عورته ابن أبى الدنيا فى كتاب العفو وذم الغضب وفى الصمت وتقدم فى آفات اللسان (٧) حديث أبى الدرداء دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال لا تغضب ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الكبير والأوسط باسناد حسن (٨) حديث الغضب يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف (٩) حديث ما غضب أحد الا أشفى على جهنم البزار وابن عدى من حديث ابن عباس للنار باب لا يدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله واسناده ضعيف وتقدم فى آفات اللسان (١٠) حديث قال رجل أى شئ أشد على قال غضب الله قال فما يبعدنى من غضب الله قال لا تغضب أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالشطر الاخير منه وقد تقدم قبله بست أحاديث

سلاح المؤمن والجوارح اذا كانت فى حماية الوضوء الذى هو أثر شرعى يقل طروق الشيطان عليها * قال عدى بن حاتم ما أقمت صلاة منذ أسلمت الا وأنا على وضوء وقال أنس ابن مالك قدم النبى عليه الصلاة والسلام المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين فقال لى يابنى ان استطعت أن لا تزال على الطهارة فافعل فانه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطى الشهادة فشأن العاقل أن يكون أبدا مستعدا للموت ومن الاستعداد لزوم الطهارة (وحكى) عن الحصرى انه قال مهما أنتبه من الليل لا يحملنى النوم الا بعد ما أقوم وأجدد الوضوء لئلا

قال أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم قال الحدة ان الرجل اذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وقال خيمة الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم واذا رضي جئت حتى أكون في قلبه واذا غضب طرت حتى أكون في رأسه وقال جعفر بن محمد الغضب مفتاح كل شر وقال بعض الانصار رأس الحمق الحدة وقائده الغضب ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم والحلم زين ومنفعة والجهل شين ومضرة والسكوت عن جواب الاحمق جوابه وقال مجاهد قال ابليس ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث اذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا واذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ونبخله بما في يديه وتمنيه بما لا يقدر عليه وقيل لحكيم ما أملك فلانا لنفسه قال اذا لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب وقال بعضهم اياك والغضب فانه يصيرك الى ذلة الاعتذار وقيل اتقوا الغضب فانه يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل وقال عبد الله بن مسعود انظروا الى حلم الرجل عند غضبه وأماناته عند طمعه وما علمك بحلمه اذا لم يغضب وما علمك بأمانته اذا لم يطمع وكتب عمر بن عبد العزيز الى عامله أن لا تعاقب عند غضبك واذا غضبت على رجل فاحبسه فاذا سكن غضبك فاخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا وقال علي بن زيد أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول فاطرق عمر زمانا طويلا ثم قال أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا وقال بعضهم لابنه يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة فأقل الناس غضبا أعقلهم فان كان للدنيا كان دهاء ومكرا وان كان للآخرة كان حلما وعلما فقد قيل الغضب عدو العقل والغضب غول العقل وكان عمر رضي الله عنه اذا خطب قال في خطبته أفلح منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب وقال بعضهم من أطاع شهوته وغضبه قاداه الى النار وقال الحسن من علامات المسلم قوة في دين وحزم في لين وايمان في يقين وعلم في حلم وكيس في رفق واعطاء في حق وقصد في غنى وتجمل في فاقة واحسان في قدرة وتحمل في رفاقة وصبر في شدة لا يغلبه الغضب ولا تجمح به الحمية ولا تغلبه شهوة ولا تفضحه بطنه ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولا يبخل ولا يبذر ولا يسرف ولا يقتر يغفر اذا ظلم ويعفو عن الجاهل نفسه منه في عناء والناس منه في رخاء وقيل لعبد الله بن المبارك أجمل لنا حسن الخلق في كلمة فقال ترك الغضب وقال نبي من الانبياء لمن تبعه من يتكفل لي أن لا يغضب فيكون معي في درجتي ويكون بعدي خليفتي فقال شاب من القوم أنا ثم أعاد عليه فقال الشاب أنا أوفي به فلما مات كان في منزلته بعده وهو ذو الكفل سمي به لأنه تكفل بالغضب ووفى به وقال وهب بن منبه للكفر أربعة أركان الغضب والشهوة والخرق والطمع

(بيان حقيقة الغضب)

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضا للفساد والموتان بأسباب في داخل بدنه وأسباب خارجة عنه أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك الى أجل معلوم سماه في كتابه * أما السبب الداخل فهو انه ركبه من الحرارة والرطوبة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاؤها بخارا يتصاعد منها فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما تحلل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء كالماء كل به في جبر ما انكسر وسد ما انثلم ليكون ذلك حافظا له من الهلاك بهذا السبب * وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الانسان فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها فافتقر الى قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه فخلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها في الانسان وعجنها بطينته فهما صدعن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثارت به ثورانا يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع الى أعالي البدن كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر فلذلك ينصب الى الوجه فيحمر الوجه والعين والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها وانما ينبسط الدم اذا غضب على

يعود الى النوم وأنا على غير طهارة وسمعت من صحب الشيخ علي ابن الهيتمي انه كان يقعد الليل جميعه فان غلبه النوم يكون قاعدا كذلك وكلما نبه يقول لا أكون أسأت الأدب فيقوم ويجدد الوضوء ويصلي ركعتين (وروى) أبو هريرة أن سول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الاسلام فاني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة قال ما عملت عملا في الاسلام أرجى عندي أني لم أتطهر طهرا في ساعة ليل أو نهار الا صليت لربي عز وجل بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي ومن أدبهم في الطهارة ترك الاسراف

من دونه واستشعر القدرة عليه فان صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى جوف القلب وصار حزنا ولذلك يصفر اللون وان كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام وانما تتوجه هذه القوة عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها والى التشفي والانتقام بعد وقوعها والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن الا به ثم ان الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفريط والافراط والاعتدال * أما التفريط فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم وهو الذي يقال فيه انه لا حمية له ولذلك قال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا فهو ناقص جدا وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم الآية وانما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب * وأما الافراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكر ولا اختيار بل يصير في صورة المضطر وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية فرب انسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار كما قال صلى الله عليه وسلم (١) وانما برودة المزاج تطفئه وتكسر سورته * وأما الأسباب الاعتيادية فهو أن يخالط قوما يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية فيقول الواحد منهم أنا الذي لا أصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمرا ومعناه لا عقل في ولا حلم ثم يذكره في معرض الفخر بجهله فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم فيقوى به الغضب ومهما اشتدت نار الغضب وقوي اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة فاذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضبا واذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر اذ ينطفئ نور العقل ويعمى في الحال بدخان الغضب فان معدن الفكر الدماغ ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم الى الدماغ يستولي على معادن الفكر وربما يتعدى الى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه وتسود عليه الدنيا باسرها ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار فاسود جوه وحمي مستقره وامتلا بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانمحى أو انطفأ نوره فلا تثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا ترى فيه صورة ولا يقدر على اطفائه لا من داخل ولا من خارج بل ينبغي أن يصبر الى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ وربما تقوى نار الغضب فتفني الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا كما تقوى النار في الكهف فينشق وتنهد أعاليه على أسفله وذلك لابطال النار ما في جوانبه من القوة الممسكة الجامعة لأجزائه فهكذا حال القلب عند الغضب وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظا اذ في السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها وينظر لها ويسوسها وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته اذ أعماه الغضب وأصمه ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الاطراف وخروج الافعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الاشداق وتحمر الاحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فان الظاهر عنوان الباطن وانما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها الى الظاهر ثانيا فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمر بالمثمرة فهذا أثره في الجسد وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل

(١) حديث الغضب من النار الترمذي من حديث أبي سعيد بسند ضعيف الغضب جمرة في قلب ابن آدم ولابي داود من حديث عطية السعدي ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار

في الماء والوقوف على حد العلم (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الستياقي قال أخبرنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا ابو عيسى الترمذي قال حدثنا محمد ابن بشار قال حدثنا أبو داود قال حدثنا خارجة ابن مصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن عن يحيى بن ضمرة السعدي عن أبي ابن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وساوس الماء قال أبو عبد الله الروذباري ان الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بني آدم فلا يبالي أن يأخذ نصيبه

ويستحي منه فانه عند فتور الغضب وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ وأما أثره على الاعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة فان هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجز عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه وقد يضرب بيده على الارض ويعدو وعدو الواله السكران والمدهوش المتحير وربما يسقط سريعا لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل الغشية وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلا على الارض وقد يكسر المائدة اذا غضب عليها ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول الى متى منك هذا يا كيت وكيت كأنه يخاطب عاقلا حتى ربما فسته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد واضمار السوء والشماتة بالمساءات والحزن بالسرور والعزم على افشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح فهذه ثمرة الغضب المفرط وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الانفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والامة واحتمال الذل من الاخساء وصغر النفس والقماءة وهو أيضا مذموم اذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم وهو خنوثة قال صلى الله عليه وسلم (١) ان سعد الغيور وأنا أغير من سعد وان الله أغير مني وانما خلقت الغيرة لحفظ الانساب ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الانساب ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) خيار أمتي أحداؤها يعني في الدين وقال تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه اذ لا تتم الرياضة الا بتسليط الغضب على الشهوة حتى يغضب على نفسه عند الميل الى الشهوات الخسيسة ففقد الغضب مذموم وانما المحمود غضب ينتظر اشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (٣) خير الأمور أوساطها فمن مال غضبه الى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه ومن مال غضبه الى الافراط حتى جره الى التهور واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف فان عجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله ينبغي أن يأتي بالشر كله ولكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه انه على ما يشاء قدير

(بيان الغضب هل يمكن ازالة أصله بالرياضة أم لا)

اعلم انه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية وزعموا أن الرياضة اليه تتوجه واياه تقصد وظن آخرون انه أصل لا يقبل العلاج وهذا رأي من يظن ان الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغيير وكلا الرأيين ضعيف بل الحق فيه ما نذكره وهو انه ما بقي الانسان يحب شيأ ويكره شيأ فلا يخلو من الغيظ والغضب ومادام يوافقه شئ ويخالفه آخر فلا بد من أن يحب ما يوافقه ويكره ما يخالفه والغضب يتبع ذلك فانه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة واذا قصد بمكروه غضب لا محالة الا أن ما يحبه الانسان ينقسم الى ثلاثة أقسام * الاول ما هو ضرورة في حق الكافة كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب وكذلك اذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته وكذلك اذا أخرج من داره التي هي مسكنه أو أريق ماؤه الذي لعطشه فهذه ضرورات

بأن يزدادوا فيما أمر وابه أو ينقصوا عنه (وحكى) عن ابن الكرنبي انه أصابته جنابة ليلة من الليالي وكانت عليه مرقعة ثخينة غليظة فجاء الى الدجلة وكان برد شديد فحرنت نفسه عن الدخول في الماء لشدة البرد فطرح نفسه في الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال عقدت أن لا أنزعها من بدني حتى تجف على فمكثت عليه شهرا لتخاتها وغلظها أدب بذلك نفسه لما حرنت عن الاتمار لامر الله تعالى * (وقيل) ان سهل بن عبد الله كان يحث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلة صبه على الارض وكان يرى ان في الاكثار من شرب الماء ضعف النفس واماتة الشهوات وكسر القوة

(١) حديث ان سعدا لغيور الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه من حديث المغيرة بنحوه وتقدم في النكاح (٢) حديث خيار أمتي أحداؤها الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بسند ضعيف وزاد الذين اذا غضبوا رجعوا (٣) حديث خير الأمور أوساطها البيهقي في الشعب مرسلا وقد تقدم

لا يخلوا الانسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها * القسم الثانى ماليس ضروريا لاحد من الخلق كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب فان هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور حتى صار الذهب والفضة محبوبين فى أنفسهما فيكنزان ويغضب على من يسرقهما وان كان مستغنيا عنهما فى القوت فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الانسان عن أصل الغيظ عليه فاذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمها ظالم فيجوز أن لا يغضب اذ يجوز أن يكون بصيرا بامر الدنيا فيزهد فى الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها فانه لا يحب وجودها ولو أحب وجودها الغضب على الضرورة بأخذها وأكثر غضب الناس على ماهو غير ضرورى كالجاه والصيت والتصدر فى المجالس والمباهاة فى العلم فمن غلب هذا الحب عليه فلا محالة يغضب اذا زاحمه مزاحم على التصدر فى المحافل ومن لا يحب ذلك فلا يبالى ولو جالس فى صف النعال فلا يغضب اذا جلس غيره فوقه وهذه العادات الرديئة هى التى أكثرت محاب الانسان ومكارهه فأكثرت غضبه وكلما كانت الارادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحط رتبة وأنقص لأن الحاجة صفة نقص فهما كثرت كثر النقص والجاهل أبدا جهده فى أن يزيد فى حاجاته وفى شهواته وهو لا يدرى انه مستكثر من أسباب الغم والحزن حتى ينتهى بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرناء السوء الى أن يغضب لو قيل له انك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير وما يجرى مجراه من الرذائل فالغضب على هذا الجنس ليس بضرورى لأن حبه ليس بضرورى * القسم الثالث ما يكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض كالكتاب مثلا فى حق العالم لأنه مضطر اليه فيحبه فيغضب على من يحرقه ويغرقه وكذلك أدوات الصناعات فى حق المكتسب الذى لا يمكنه التوصل الى القوت الا بها فان ماهو وسيلة الى الضرورى والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا وهذا يختلف بالأشخاص وانما الحب الضرورى ما أشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (١) من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ومن كان بصيرا بحقائق الأمور وسلم له هذه الثلاثة يتصور أن لا يغضب فى غيرها فهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرياضة فى كل واحد منها (أما القسم الأول) فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ولكن لكى يقدر على أن لا يطيع الغضب ولا يستعمله فى الظاهر الا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا فاما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ فى الباطن وينتهى ضعفه الى أن لا يظهر أثره فى الوجه ولكن ذلك شديد جدا وهذا حكم القسم الثالث أيضا الأن ماصار ضروريا فى حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه فى الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه (وأما القسم الثانى) فيمكن التوصل بالرياضة الى الانفكاك عن الغضب عليه اذ يمكن اخراج حبه من القلب وذلك بأن يعلم الانسان ان وطنه القبر ومستقره الآخرة وأن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة وما وراء ذلك عليه وبال فى وطنه ومستقره فيزهد فى الدنيا ويمحو حبها عن قلبه ولو كان للانسان كلب لا يحبه لا يغضب اذا ضرب به غيره فالغضب تبع للحب فالرياضة فى هذا تنتهى الى قمع أصل الغضب وهو نادر جدا وقد تنتهى الى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون فان قلت الضرورى من القسم الاول التألم بفوات المحتاج اليه دون الغضب فمن له شاة مثلا وهى قوته فماتت لا يغضب على أحد وان كان يحصل فيه كراهة وليس من ضرورة كل كراهة غضب فان الانسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصاد والحجام فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الاشياء كلها بيد الله ومنه فلا يغضب على أحد من خلقه اذ يراهم مسخرين فى قبضة قدرته كالقلم فى يد الكاتب ومن وقع ملك بضرب رقبته لم

(١) حديث من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها الترمذى وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن دون قوله بحذافيرها قال الترمذى حسن غريب

ومن أفعال الصوفية الاحتياط فى استبقاء الماء للوضوء (قيل) كان ابراهيم الخواص اذا دخل البادية لا يحمل معه الاركوة من الماء وربما كان لا يشرب منها الا القليل يحفظ الماء للوضوء وقيل انه كان يخرج من مكة الى الكوفة ولا يحتاج الى التيمم يحفظ الماء للوضوء ويقنع بالقليل للشرب * وقيل اذا رأيت الصوفى ليس معه ركوة أو كوز فاعلم انه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى وحكى عن بعضهم انه أدب نفسه فى الطهارة الى حد انه أقام بين ظهرانى جماعة من النساك وهم مجتمعون فى دار فما رآه أحد منهم أنه دخل الخلاء لأنه كان يقضى حاجته اذا خلا الموضع فى وقت يريد تأديب نفسه

يغضب على القسم فلا يغضب على من يذبح شاته التى هى قوته كما لا يغضب على موتها اذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل فيندفع الغضب بغلبة التوحيد ويندفع أيضا بحسن الظن بالله وهو أن يرى أن الكل من الله وان الله لا يقدر له الا ما فيه الخيرة وربما تكون الخيرة فى مرضه وجوعه وجرحه وقتله فلا يغضب كما لا يغضب على الفصاد والحجام لانه يرى أن الخيرة فيه فنقول هذا على هذا الوجه غير محال ولكن غلبة التوحيد الى هذا الحد انما تكون كالبرق الخاطف تغلب فى أحوال مختطفة ولا تدوم ويرجع القلب الى الالتفات الى الوسائط رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم (١) فانه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه حتى قال (٢) اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فايما مسلم سببته أو لعنته أو ضربته فاجعلها منى صلاة عليه وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة وقال عبد الله بن عمرو بن العاص (٣) يا رسول الله اكتب عنك كل ما قلت فى الغضب والرضا فقال أكتب فوالذى بعثنى بالحق نبيا ما يخرج منه الا حق وأشار الى لسانه فلم يقل انى لا أغضب ولكن قال ان الغضب لا يخرجنى عن الحق أى لا أعمل بموجب الغضب وغضبت عائشة رضى الله عنها مرة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) مالك جاءك شيطانك فقالت ومالك شيطان قال بلى ولكنى دعوت الله فأعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بالخير ولم يقل لا شيطان لى وأراد شيطان الغضب لكن قال لا يحمانى على الشر وقال على رضى الله عنه (٥) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب للدنيا فاذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له فكان يغضب على الحق وان كان غضبه لله فهو التفات الى الوسائط على الجملة بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التى لا بد له فى دينه منها فانما غضب لله فلا يمكن الانفكاك عنه نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضرورى اذا كان القلب مشغولا بضرورى أهم منه فلا يكون فى القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره فان استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الاحساس بما عداه وهذا كما ان سليمان لما شتم قال ان خفت موازينى فأنا أشر مما تقول وان ثقلت موازينى لم يضرنى ما تقول فقد كان همه مصروفا الى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال يا هذا قد سمع الله كلامك وان دون الجنة عقبة ان قطعتها لم يضرنى ما تقول وان لم أقطعها فأنا شر مما تقول وسب رجل أبا بكر رضى الله عنه فقال ما ستر الله عنك أكثر فكانه كان مشغولا بالنظر فى تقصير نفسه عن أن يتقى الله حق تقاته ويعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره اياه الى النقصان اذ كان ينظر الى نفسه بعين النقصان وذلك لجلالة قدره وقالت امرأة لمالك بن دينار يا مرائى فقال ما عرفنى غيرك فكانه كان مشغولا بان ينفى عن نفسه آفة الرياء ومنكرا على نفسه ما يلقيه الشيطان اليه فلم يغضب لما نسب اليه وسب رجل الشعبى فقال ان كنت صادقا فغفر الله لى وان كنت كاذبا فغفر الله لك فهذه الاقاويل دالة فى الظاهر على انهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر فى قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الاغلب على قلوبهم فاذا اشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم يغضب حتى تحمر وجنتاه مسلم من حديث جابر كان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه وللحاكم كان اذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه وقد تقدم فى أخلاق النبوة (٢) حديث اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر الحديث مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله أغضب كما يغضب البشر وقال جلدته بدل ضربته وفى رواية اللهم انما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وأصله متفق عليه وتقدم وللمسلم من حديث أنس انما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر ولأبى يعلى من حديث أبى سعيد أو ضربته (٣) حديث عبد الله بن عمرو يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت فى الغضب والرضا قال اكتب فوالذى بعثنى بالحق ما يخرج منه الا حق وأشار الى لسانه أبو داود بنحوه (٤) حديث غضبت عائشة فقال النبى صلى الله عليه وسلم مالك جاءك شيطانك الحديث مسلم من حديث عائشة (٥) حديث على كان لا يغضب للدنيا الحديث الترمذى فى الشمائل وقد تقدم

وقيل مات الخواص فى جامع الرى فى وسط الماء وذلك انه كان به علة البطن وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه فدخله مرة ومات فيه كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة * وقيل كان ابراهيم بن أدهم به قيام فقام فى ليلة واحدة نيفا وسبعين مرة كل مرة يجدد الوضوء ويصلى ركعتين وقيل ان بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الريح الا فى وقت البراز يراعى الادب فى الخلوات واتخاذ المنديل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا ان الوضوء يوزن وأجازه بعضهم ودليلهم ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر قال أنا أبو محمد قال أنا أبو العباس

فاذا يتصور فقد الغيظ اما باشتغال القلب بهم أو بغلبة نظر التوحيد أو بسبب ثالث وهو أن يعلم ان الله يحب منه أن لا يغتاظ فيطفئ شدة حبه لله غيظه وذلك غير محال فى أحوال نادرة وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها كما سيأتى فى كتاب ذم الدنيا ومن أخرج حب المزايا عن القلب تخلص من أكثر أسباب الغضب ومالا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ويهون دفعه نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه انه على كل شئ قدير والحمد لله وحده

(بيان الاسباب المهيجة للغضب)

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها وازالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام أى شئ أشد قال غضب الله قال فما يقرب من غضب الله قال أن تغضب قال فما يبدى الغضب وما ينبته قال عيسى الكبر والفخر والتعزز والحمية والأسباب المهيجة للغضب هى الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وهى بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الاسباب فلا بد من ازالة هذه الاسباب بأضدادها فينبغى أن تميت الزهو بالتواضع وتميت العجب بمعرفتك بنفسك كما سيأتى بيانه فى كتاب الكبر والعجب وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك اذ الناس يجمعهم فى الانتساب أب واحد وانما اختلفوا فى الفضل أشتاتا فبنو آدم جنس واحد وانما الفخر بالفضائل والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهى أصلها ورأسها فاذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والاعضاء الظاهرة والباطنة وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه اذا عرفت ذلك وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والاخلاق الحسنة والعلوم الدينية التى تبلغك الى سعادة الآخرة وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن ايذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مراجعة الجواب وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلبا للعز الاستغناء وترفعا عن ذل الحاجة وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر فى علاجه الى رياضة وتحمل مشقة وحاصل رياضتها يرجع الى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس فاذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضا عن الغضب الذى يتولد منها ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبرهة وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلا حتى تميل النفس اليه وتستحسنه وقد تأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر فى معرض المدح بالشجاعة والنفوس مائلة الى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب الى القلب بسببه وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبا من الصحيح والمرأة أسرع غضبا من الرجل والصبى أسرع غضبا من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل وذو الخلق السيئ والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل فالرذل يغضب لشهوته اذا فاتته اللقمة ولبخله اذا فاتته الحبة حتى انه يغضب على أهله وولده وأصحابه بل القوى من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب بل ينبغى أن يعالج هذا الجاهل بان تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ فان ذلك منقول عن الانبياء والاولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء وضد ذلك منقول عن الاكراد والاتراك والجهلة والاغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم

(١) حديث ليس الشديد بالصرعة تقدم قبله

قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا عبد الله بن وهب عن زيد بن حباب عن أبى معاذ عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خرقة ينشف بها أعضاءه بعد الوضوء * وروى معاذ بن جبل قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه واستقصاء الصوفية فى تطهير البواطن من الصفات الرديئة والاخلاق المذمومة لا الاستقصاء فى طهارة الظاهر الى حد يخرج عن حد العلم وتوضأ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية مع كون النصارى لا يحترزون عن الخمر وأجرى الامر على الظاهر وأصله

الطهارة وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون على الارض من غير سجادة ويمشون حفاة فى الطرق وقد كانوا لايجعلون وقت النوم بينهم وبين التراب حائلا وقد كانوا يقتصرون على الحجر فى الاستنجاء فى بعض الاوقات وكان أمرهم فى الطهارة الظاهرة على التساهل واستقصاؤهم فى الطهارة الباطنة وهكذا شغل الصوفية وقد يكون فى بعض الاشخاص تشدد فى الطهارة ويكون مستند ذلك رعونة النفس فلو اتسخ ثوبه تحرج ولا يبالى بما فى باطنه من الغل والحقد والكبر والعجب والرياء والنفاق ولعله ينكر على الشخص لو داس الارض حافيا مع وجود رخصة

* (بيان علاج الغضب بعد هيجانه) *

ماذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لايهيج فاذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت حتى لايضطر صاحبه الى العمل به على الوجه المذموم وانما يعالج الغضب عند هيجانه بمجموع العلم والعمل * أما العلم فهو ستة أمور * الأول أن يتفكر فى الاخبار التى سنوردها فى فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب فى ثوابه فيمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفى والانتقام وينطفئ عنه غيظه قال مالك بن أوس بن الحدثان غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت ياأمير المؤمنين خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فكان عمر يقول خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فكان يتأمل فى الآية وكان وقافا عند كتاب الله مهما تلى عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وخلى الرجل وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى والكاظمين الغيظ فقال لغلامه خل عنه * الثانى أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو ان يقول قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الانسان فلو أمضيت غضبى عليه لم آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة أحوج ما أكون الى العفو فقد قال تعالى فى بعض الكتب القديمة ياابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفا الى حاجة فأبطأ عليه فلما جاء قال (١) لولا القصاص لأوجعتك أى القصاص فى القيامة وقيل ما كان فى بنى اسرائيل ملك الا ومعه حكيم اذا غضب أعطاه صحيفة فيها الرحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه * الثالث أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعى فى هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا ان كان لايخاف من الآخرة وهذا يرجع الى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض الا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه فى الدنيا فراغته للعلم والعمل ومايعينه على الآخرة فيكون مثابا عليه * الرابع أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب بان يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب ويتفكر فى قبح الغضب فى نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضارى والسبع العادى ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للانبياء والأولياء والعلماء والحكماء ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء فى عادتهم لتميل نفسه الى حب الاقتداء بهؤلاء ان كان قديقى معه مسكة من عقل * الخامس أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه الى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ولابد وان يكون له سبب مثل قول الشيطان له ان هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيرا فى أعين الناس فيقول لنفسه ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزى يوم القيامة والافتضاح اذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبيين فهما كظم الغيظ فينبغى ان يكظمه لله وذلك يعظمه عند الله فى الله وللناس وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن أفلا يحب أن يكون هو القائم اذا نودى يوم القيامة ليقم من أجره على الله فلا يقوم الا من عفا فهذا وأمثاله من معارف الايمان ينبغى أن يقرره على قلبه * السادس ان يعلم ان غضبه من تعجبه من جريان الشئ على وفق مراد الله لا على وفق مراده فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ويوشك ان يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه * وأما العمل فان تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ان يقال عند الغيظ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) اذا غضبت

(١) حديث لولا القصاص لأوجعتك أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف (٢) حديث الأمر بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال كنت جالسا مع النبى صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه الحديث وفيه لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه مايجد فقالوا له ان النبى صلى الله عليه وسلم قال تعوذ بالله من الشيطان الرجيم الحديث (٣) حديث كان اذا غضبت عائشة أخذ بانفها وقال ياعويش قولى اللهم رب النبى محمد اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى الحديث ابن

عائشة أخذ بانفها وقال ياعويش قولى اللهم رب النبى محمد اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن فيستحب ان تقول ذلك فان لم يزل بذلك فاجلس ان كنت قائما واضطجع ان كنت جالسا واقرب من الارض التى منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون فان سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان الغضب جرة توقد فى القلب ألم تروا الى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فاذا وجد أحدكم من ذلك شيأ فان كان قائما فليجلس وان كان جالسا فلينم فان لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فان النار لا يطفئها الا الماء فقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) اذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فانما الغضب من النار وفى رواية ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار وانما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحدكم فليتوضأ وقال ابن عباس (٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غضبت فاسكت وقال أبو هريرة (٤) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غضب وهو قائم جلس واذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه وقال أبو سعيد الخدرى قال النبى صلى الله عليه وسلم (٥) ألا ان الغضب جرة فى قلب ابن آدم ألا ترون الى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيأ فليلصق خده بالأرض وكان هذا اشارة الى السجود وتمكين أعز الاعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذل وتزايل به العزة والزهو الذى هو سبب الغضب وروى أن عمر غضب يوما فدعا بماء فاستنشق وقال ان الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب وقال عروة بن محمد لما استعملت على اليمن قال لى أبى أوليت قلت نعم قال فاذا غضبت فانظر الى السماء فوقك والى الأرض تحتك ثم عظم خالقهما وروى ان أبا ذر قال لرجل يا ابن الحراء فى خصومة بينهما فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٦) يا أبا ذر بلغنى انك اليوم عيرت أخاك بأمه فقال نعم فانطلق أبو ذر ليرضى صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم انك لست بافضل من أحمر فيها ولا أسود الا أن تفضله بعمل ثم قال اذا غضبت فان كنت قائما فاقعد وان كنت قاعدا فاتكئ وان كنت متكئا فاضطجع وقال المعتمر بن سليمان كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا وقال للاول اذا غضبت فاعطنى هذه وقال للثانى اذا سكن بعض غضبى فاعطنى هذه وقال للثالث اذا ذهب غضبى فاعطنى هذه فاشتد غضبه يوما فأعطى الصحيفة الأولى فاذا فيها ما أنت وهذا الغضب انك لست بالله انما أنت

الشرع ولا ينكر عليه أن يتكلم بكلمة غيبة يخرب بها دينه وكل ذلك من قلة العلم وترك التأدب بصحبة الصادقين من العلماء الراسخين وكانوا يكرهون كثرة الدلك فى الاستبراء لانه ربما يسترخى العرق ولا يمسك البول ويتولد منه القطر المفرط (ومن حكايات) المتصوفة فى الوضوء والطهارات أن أبا عمرو الزجاجى جاور بمكة ثلاثين سنة وكان لا يتغوط فى الحرم ويخرج الى الحل وأقل ذلك فرسخ (وقيل) كان بعضهم على وجهه قرح لم يندمل اثنتى عشرة سنة لأن الماء كان يضره وكان مع ذلك لا يدع تجديد الوضوء عند كل فريضة وبعضهم نزل فى عينه الماء فحملوا اليه المداوى وبذلوا

السنى فى اليوم والليلة من حديثها وتقدم فى الأذكار والدعوات (١) حديث ان الغضب جرة توقد فى القلب الحديث الترمذى من حديث أبى سعيد دون قوله توقد وقد تقدم ورواه بهذه اللفظة البيهقى فى الشعب (٢) حديث اذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد الحديث أبو داود من حديث عطية السعدى دون قوله بالماء البارد وهو بلفظ الرواية الثانية التى ذكرها المصنف وقد تقدم (٣) حديث ابن عباس اذا غضبت فاسكت أحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى واللفظ لهما والبيهقى فى شعب الايمان وفيه ليث بن أبى سليم (٤) حديث أبى هريرة كان اذا غضب وهو قائم جلس واذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه ابن أبى الدنيا وفيه من لم يسم ولأحمد باسناد جيد فى أثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائما فجلس ثم اضطجع فقيل له لم جلست ثم اضطجعت فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا اذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فان ذهب عنه الغضب والا فليضطجع والمرفوع عند أبى داود وفيه عنده انقطاع سقط منه أبو الأسود (٥) حديث أبى سعيد ألا ان الغضب جرة فى قلب ابن آدم الحديث الترمذى وقال حسن (٦) حديث أبى ذر أنه قال لرجل يا أبا الحراء فى خصومة بينهما فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم الحديث وفيه فقال يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر الحديث وفيه ثم قال اذا غضبت الى آخره ابن أبى الدنيا فى العفو وذم الغضب باسناد صحيح وفى الصحيحين من حديثه قال كان بينى وبين رجل من اخوانى كلام وكانت أمه اعجمية فعيرته بامه فشكانى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا ذر انك امرؤ فيك جاهلية ولأحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال له انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود الا أن تفضله بتقوى ورجاله ثقات

بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا فكن بعض غضبه فأعطى الثانية فاذا فيها ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء فأعطى الثالثة فاذا فيها خذ الناس بحق الله فانه لا يصلحهم الا ذلك أى لا تعطل الحدود * وغضب المهدى على رجل فقال شيب لا تغضب الله باشد من غضبه لنفسه فقال خلوا سبيله

(فضيلة كظم الغيظ)

قال الله تعالى والكاظمين الغيظ وذكر ذلك فى معرض المدح وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر الى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته وقال صلى الله عليه وسلم (٢) أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة وقال صلى الله عليه وسلم (٣) من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملا الله قلبه يوم القيامة رضا وفى رواية ملا الله قلبه أمنا وايمانا وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) ما جرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله عنهما (٥) قال صلى الله عليه وسلم ان لجهنم بابا لا يدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم (٦) ما من جرعة أحب الى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد الا ملا الله قلبه ايمانا وقال صلى الله عليه وسلم (٧) من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق ويخيره من أى الحور شاء

(الآثار) قال عمر رضى الله عنه من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولو لا يوم القيامة لكان غير ما ترون وقال لقمان لابنه يا بنى لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك وقال أيوب حلم ساعة يدفع شرا كثيرا واجتمع سفيان الثورى وأبو خزيمة البربوعى والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد فأجمعوا على أن أفضل الاعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع وقال رجل لعمر رضى الله عنه والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ألا تسمع أن الله تعالى يقول خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فهذا من الجاهلين فقال عمر صدقت فكأنما كانت نارا فاطفئت وقال محمد بن كعب ثلاث من كن فيه استكمل الايمان بالله اذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل واذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا قدر لم يتناول ما ليس له وجاء رجل الى سلمان فقال يا عبد الله أوصنى قال لا تغضب قال لا أقدر قال فان غضبت فامسك لسانك ويدك

(فضيلة كظم الغيظ)

(١) حديث من كف غضبه كف الله عنه عذابه الحديث الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى شعب الايمان واللفظ له من حديث أنس باسناد ضعيف ولابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر من ملك غضبه وقاه الله عذابه الحديث وقد تقدم فى آفات اللسان (٢) حديث أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة ابن أبى الدنيا من حديث على بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب بالشطر الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسلا باسناد جيد وللبزار والطبرانى فى مكارم الأخلاق واللفظ له من حديث أشدكم أملككم لنفسه عند الغضب وفيه عمران القطان مختلف فيه (٣) حديث من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملا الله قلبه يوم القيامة رضا وفى رواية أمنا وايمانا ابن أبى الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكين بن أبى سراج تكلم فيه ابن حبان وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عن أبيه ورواها ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة وفيه من لم يسم (٤) حديث ابن عمر ما جرع رجل جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله ابن ماجه (٥) حديث ابن عباس ان لجهنم بابا لا يدخل منه الا من شفى غيظه بمعصية الله تقدم فى آفات اللسان (٦) حديث ما من جرعة أحب الى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد الا ملا الله قلبه ايمانا ابن أبى الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلفق من حديث ابن عمر وحديث الصحابى الذى لم يسم وقد تقدما (٧) حديث من كظم غيظا وهو قادر على ان ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء تقدم فى آفات اللسان

له مالا كثير ليداويه فقال المداوى يحتاج الى ترك الوضوء أياما ويكون مستلقيا على قفاه فلم يفعل ذلك واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء

(الباب السادس والثلاثون فى فضيلة الصلاة وكبر شأنها)

(روى) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله تعالى جنة عدن وخلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ثلاثا وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى جبرائيل لدلوك الشمس

حين زالت وصلى
ن الظهر واشتقاق
الصلاة قيل من
الصلى وهو النار
والخشبة المعوجة
اذا أرادوا تقويمها
تعرض على النار
ثم تقوم وفى العبد
اعوجاج لوجود
نفسه الامارة
بالسوء وسبحات
وجه الله الكريم
التى لو كشف
حجابها أحرقت من
أدركته يصيب
بها المصلى من
وهج السطوة
الالهية والعظمة
الربانية مايزول به
اعوجاجه بل
يتحقق به
معراجه فالمصلى
كالمصطلى بالنار
ومن اصطلى بنار
الصلاة وزال بها
اعوجاجه
لايعرض على نار
جهنم الاتحفة
القسم (أخبرنا)
الشيخ العالم
رضى الدين أحمد
ابن اسمعيل
القزوينى اجازة
قال أنا أبو سعيد
محمد بن أبى العباس
ابن محمد بن أبى

(بيان فضيلة الحلم)

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أى تكلف الحلم ولا يحتاج الى كظم الغيظ الا من هاج غيظه ويحتاج فيه الى مجاهدة شديدة ولكن اذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ وان هاج فلا يكون فى كظمه تعب وهو الحلم الطبيعى وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا قال صلى الله عليه وسلم (١) انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخير الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه وأشار بهذا الى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم أشار بهذا الى أن التكبر والتجبر هو الذى يهيج الغضب ويمنع من الحلم واللين وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم (٣) اللهم أغننى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم (٤) ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وماهى يارسول الله قال تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحلم عمن جهل عليك وقال صلى الله عليه وسلم (٥) خمس من سنن المرسلين الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر وقال على كرم الله وجهه (٦) قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وانه ليكتب جبارا عنيدا ومايملك الا أهل بيته وقال أبو هريرة (٧) ان رجلا قال يارسول الله ان لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن اليهم ويسيئون الى ويجهلون على وأحلم عنهم قال ان كان كما تقول فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك المل يعنى به الرمل (٨) وقال رجل من المسلمين اللهم ليس عندى صدقة أتصدق بها فاغفر لرجل أصاب من عرضى شيأ فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى الى النبى صلى الله عليه وسلم انى قد غفرت له وقال صلى الله عليه وسلم (٩) أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم قالوا وما أبو ضمضم قال رجل ممن كان قبلكم كان اذا أصبح يقول اللهم انى تصدقت اليوم بعرضى على من ظلمنى وقيل فى قوله تعالى ربانيين أى حلماء علماء وعن الحسن فى قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا

(فضيلة الحلم)

(١) حديث انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم الحديث الطبرانى والدارقطنى فى العلل من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف (٢) حديث أبى هريرة اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم الحديث ابن السنى فى رياضة المتعلمين بسند ضعيف (٣) حديث كان من دعائه اللهم أغننى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية لم أجد له أصلا (٤) حديث ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وماهى قال تصل من قطعك الحديث الحاكم والبيهقى وقد تقدم (٥) حديث خمس من سنن المرسلين الحياء والعلم والحجامة والسواك والتعطر أبو بكر بن أبى عاصم فى المثانى والآحاد والترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من رواية مليح بن عبد الله الخطمى عن أبيه عن جده وللترمذى وحسنه من حديث أبى أيوب أربع فأسقط الحلم والحجامة وزاد النكاح (٦) حديث على ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم الحديث الطبرانى فى الاوسط بسند ضعيف (٧) حديث أبى هريرة ان رجلا قال يارسول الله ان لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن اليهم ويسيئون الى ويجهلون على وأحلم عنهم الحديث رواه مسلم (٨) حديث قال رجل من المسلمين اللهم ليس عندى صدقة أتصدق بها فأغفر لرجل أصاب من عرضى شيأ فهو صدقة عليه الحديث أبو نعيم فى الصحابة والبيهقى فى الشعب من رواية عبد المجيد بن أبى عبس بن جبر عن أبيه عن جده باسنادين زاد البيهقى عن علية بن زيد وعلية هو الذى قال ذلك كما فى أثناء الحديث وذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب انه رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبى صالح عن أبى هريرة ان رجلا من المسلمين ولم يسمه وقال أظنه أبا ضمضم قلت وليس بابى ضمضم انما هو علية بن زيد وأبو ضمضم ليس له صحبة وانما هو متقدم (٩) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم الحديث تقدم فى آفات اللسان

سلاما قال حلماء ان جهل عليهم لم يجهلوا وقال عطاء بن أبي رباح يمشون على الارض هونا أي حلما وقال ابن أبي حبيب في قوله عز وجل وكهلا قال الكهل منتهى الحلم وقال مجاهد واذا مروا باللغو مروا كراما أي اذا أوذوا صفحوا (١) وروى أن ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ثم تلا ابراهيم بن ميسرة وهو الراوي قوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحليم قلوبهم قلوب العجم وألسنتهم ألسنة العرب وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ليليني منكم ذو والاحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم واياكم وهيشات الاسواق وروى انه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الاشج فأناخ راحلته ثم عقلها وطرح عنه ثوبين كانا عليه وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ثم أقبل يمشي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام (٤) ان فيك يا أشج خلقين يحبهما الله ورسوله قال ما هما بابي أنت وأمي يا رسول الله قال الحلم والاناة فقال خلقان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما فقال بل خلقان جبلك الله عليهما فقال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله وقال صلى الله عليه وسلم (٥) ان الله يحب الحليم الحيي الغني المتعفف أبا العيال التقي ويبغض الفاحش البذي السائل الملحف الغبي وقال ابن عباس (٦) قال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتد بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله عز وجل وحلم يكف به السفيه وخلق يعيش به في الناس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) اذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا الى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم انا نراكم سراعا الى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون لهم ما كان فضلكم فيقولون كنا اذا ظلمنا صبرنا واذا أسيء الينا عفونا واذا جهل علينا حلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين (الآثار) قال عمر رضي الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وقال علي رضي الله عنه ليس الخير ان يكثر مالك وولدك ولكن الخير ان يكثر علمك ويعظم حلمك وان لا تباهي الناس بعبادة الله واذا أحسنت حمدت الله تعالى واذا أسأت استغفرت الله تعالى وقال الحسن اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم وقال أكثم بن صيفي دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر وقال أبو الدرداء أدركت الناس ورقا لا شوك فيه فأصبحوا شوكا لا ورق فيه ان عرفتهم نقدوك وان تركتهم لم يتركوك قالوا كيف نصنع قال تقرضهم من عرضك ليوم فقرك وقال علي رضي الله عنه ان أول ما عوض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل وقال معاوية رحمه الله تعالى لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ولا يبلغ ذلك الا بقوة العلم وقال معاوية لعمرو ابن الاهتم أي الرجال أشجع قال من رد جهله بحلمه قال أي الرجال أسخى قال من بذل دنياه لصلاح دينه وقال أنس

(١) حديث ان ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال النبي صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ابن المبارك في البر والصلة (٢) حديث اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الحليم الحديث أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف (٣) حديث ليليني منكم أولو الاحلام والنهى الحديث مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم فهي عند أبي داود والترمذي وحسنه وهي عند مسلم في حديث آخر لابن مسعود (٤) حديث يا أشج ان فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة الحديث متفق عليه (٥) حديث ان الله يحب الحيي الحليم الغني المتعفف الحديث الطبراني من حديث سعد ان الله يحب العبد التقي الغني الخفي (٦) حديث ابن عباس ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدن بشيء من عمله أبو نعيم في كتاب الايجاز باسناد ضعيف والطبراني من حديث أم سلمة باسناد لين وقد تقدم في آداب الصحبة (٧) حديث اذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس الحديث وفيه اذا جهل علينا حلمنا البيهقي في شعب الايمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال البيهقي في اسناده ضعف

العباس الخليلي قال أنا أبو سعيد الفرخزاذي قال أنا أبو اسحق أحمد بن محمد قال أنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن قال أنا أبو زكريا يحيى بن محمد العنبري قال ثنا جعفر بن أحمد ابن الحافظ قال أنا أحمد بن نصير قال ثنا آدم بن أبي اياس عن ابن سمعان عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فاذا قال العبد بسم الله الرحمن الرحيم قال الله عز وجل مجدني عبدي فاذا قال الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدني عبدي فاذا قال الرحمن الرحيم قال الله

ابن مالك فى قوله تعالى فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم الى قوله عظيم هو الرجل يشتمه أخوه فيقول ان كنت كاذبا فغفر الله لك وان كنت صادقا فغفر الله لى وقال بعضهم شتمت فلانا من أهل البصرة فحلم على فاستعبدنى بهازمانا وقال معاوية لعرابة بن أوس بم سدت قومك يا عرابة قال يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى فى حوائجهم فمن فعل فعلى فهو منى ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصر عنى فانا خير منه وسب رجل ابن عباس رضى الله عنهما فلما فرغ قال يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها فنكس الرجل رأسه واستحى وقال رجل لعمر بن عبد العزيز اشهد أنك من الفاسقين فقال ليس تقبل شهادتك وعن على بن الحسين بن على رضى الله عنهم أنه سبه رجل فرمى اليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم فقال بعضهم جمع له خمس خصال محمودة الحلم واسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعده من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه الى المدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشئ من الدنيا يسير وقال رجل لجعفر بن محمد انه قد وقع بينى وبين قوم منازعة فى أمر وانى أريد أن أتركه فأخشى أن يقال لى ان تركك له ذل فقال جعفر انما الذليل الظالم وقال الخليل بن أحمد كان يقال من أساء فأحسن اليه فقد جعل له حاجزا من قلبه يردعه عن مثل اساءته وقال الاحنف بن قيس لست بحليم ولكنى أتحلم وقال وهب بن منبه من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يجهل يغلب ومن يعجل يخطئ ومن يحرص على الشر لا يسلم ومن لا يدع المراء يشتم ومن لا يكره الشر يأثم ومن يكره الشر يعصم ومن يتبع رضية الله يحفظ ومن يحذر الله يأمن ومن يتول الله يمنع ومن لا يسأل الله يفتقر ومن يأمن مكر الله يخذل ومن يستعن بالله يظفر وقال رجل لمالك بن دينار بلغنى انك ذكرتنى بسوء قال أنت اذا أكرم على من نفسى انى اذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتى وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به وقال رجل لبعض الحكماء والله لاسبنك سيدخل معك فى قبرك فقال معك يدخل لا معى ومر المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيرا فقيل له أنهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا فقال كل ينفق مما عنده وقال لقمان ثلاثة لا يعرفون الا عند ثلاثة لا يعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا الاخ الا عند الحاجة اليه ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم اليه طعاما فخرجت امرأة الحكيم وكانت سيئة الخلق فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم فخرج الصديق مغضبا فتبعه الحكيم وقال له تذكر يوم كنا فى منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحدنا قال نعم قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة فسرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال صدق الحكيم الحلم شفاء من كل ألم وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب فقيل له فى ذلك فقال أتيته مقام حجر نعثرت به فذبحت الغضب وقال محمود الوراق

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب * وان كثرت منه على الجرائم
وما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره * وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فان قال صنت عن * اجابته عرضى وان لام لائم
وأما الذى مثلى فان زل أوهفا * تفضلت ان الفضل بالحلم حاكم

(بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام)

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب وكذلك سائر المعاصى وانما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به وقد فصلناه فى الفقه وأما السب فلا يقابل بمثله اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه وقال

(١) حديث ان امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه أحد من حديث جابر بن مسلم وقد تقدم

تعالى أثنى على عبدى فاذا قال مالك يوم الدين قال فوض الى عبدى فاذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال الله تعالى هذا لعبدى ولعبدى ما سأل فالصلاة صلة بين الرب والعبد وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعا لصولة الربوبية على العبودية وقد ورد أن الله تعالى اذا تجلى لشئ خضع له ومن يتحقق بالصلاة فى الصلاة تلمع له طوالع التجلى فيخشع والفلاح للذين هم فى صلاتهم خاشعون وبانتفاء الخشوع ينتفى الفلاح وقال الله تعالى

المستبان ما قالا فهو على البادئ مالم يعتد المظلوم وقال (١) المستبان شيطانان يتهاتران وشتم رجل (٢) أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر انك كنت ساكتا لما شتمنى فلما تكلمت قمت قال لأن الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لاجلس فى مجلس فيه الشيطان وقال قوم تجوز المقابلة بمالا كذب فيه وانما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيه والافضل تركه ولكنه لا يعصى به والذى يرخص فيه أن تقول من أنت وهل أنت الا من بنى فلان كما قال سعد لابن مسعود وهل أنت الا من بنى هذيل وقال ابن مسعود وهل أنت الا من بنى أمية ومثل قوله يا أحمق قال مطرف كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه الا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض وقال ابن عمر (٣) فى حديث طويل حتى ترى الناس كلهم حمقى فى ذات الله تعالى وكذلك قوله يا جاهل اذ ما من أحد الا وفيه جهل فقد آذاه بما ليس بكذب وكذلك قوله يا سيئ الخلق يا صفيق الوجه يا ثلاثا لاعراض وكان ذلك فيه وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت وما أحقرك فى عينى بما فعلت وأخزاك الله وانتقم منك فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق لما روى انه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام فذكر رجل خالدا عند سعد فقال سعد ما أنا ممن يبلغ دينا يعنى أن يأثم بعضنا فى بعض فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة الى الزنا والفحش والسب ما روت عائشة رضى الله عنها (٤) ان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أرسلن اليه فاطمة فجاءت فقالت يا رسول الله أرسلنى اليك أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة والنبى صلى الله عليه وسلم نائم فقال يا بنية أتحبين ما أحب قالت نعم قال فأحبى هذه فرجعت اليهن فاخبرتهن بذلك فقلن ما أغنيت عنا شيأ فأرسلن زينب ابنة جحش قالت وهى التى كانت تسامينى فى الحب فجاءت فقالت بنت أبى بكر وبنت أبى بكر فمازالت تذكرنى وأنا ساكتة انتظر أن يأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجواب فأذن لى فسببتها حتى جف لسانى فقال النبى صلى الله عليه وسلم كلا انها ابنة أبى بكر يعنى انك لا تقاومينها فى الكلام قط وقولها سببتها ليس المراد به الفحش بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٥) المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم فأثبت للمظلوم انتصارا الى أن يعتدى فهذا القدر هو الذى أباحه هؤلاء وهو رخصة فى الايذاء جزاء على ايذائه السابق ولا تبعد الرخصة فى هذا القدر ولكن الأفضل تركه فانه يجره الى ما وراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع فى الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه فى فورة الغضب ولكن يعود سريعا ومنهم من يكف نفسه فى الابتداء ولكن يحقد على الدوام والناس فى الغضب أربعة فبعضهم كالخلفاء سريع الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضا بطىء الوقود بطىء الخمود وبعضهم بطىء الوقود سريع الخمود وهو الاحمد مالم يتنه الى فتور الحمية والغيرة وبعضهم سريع الوقود بطىء الخمود وهذا هو شرهم وفى الخبر (٦) المؤمن سريع الغضب سريع الرضا فهذه بتلك وقال الشافعى رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان وقد قال أبو سعيد الخدرى (٧) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ان

(١) حديث المستبان شيطانان يتهاتران تقدم (٢) حديث شتم رجل أبا بكر رضى الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام صلى الله عليه وسلم الحديث أبو داود من حديث أبى هريرة متصلا ومرسلا قال البخارى المرسل اصح (٣) حديث ابن عمر فى حديث طويل حتى ترى الناس كأنهم حمقى فى ذات الله عز وجل تقدم فى العلم (٤) حديث عائشة ان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت يا رسول الله أرسلنى أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة الحديث رواه مسلم (٥) حديث المستبان ما قالا فعلى البادئ الحديث رواه مسلم وقد تقدم (٦) حديث المؤمن سريع الغضب سريع الرضى تقدم (٧) حديث أبى سعيد الخدرى ألا ان بنى آدم خلقوا على طبقات الحديث تقدم

وأقم الصلاة لذكرى واذا كانت الصلاة للذكر كيف يقع فيها النسيان قال الله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون فمن قال ولا يعلم ما يقول كيف يصلى وقد نهاه الله عن ذلك فالسكران يقول الشئ لا بحضور عقل والغافل يصلى لا بحضور عقل فهو كالسكران وقيل فى غرائب التفسير فى قوله تعالى فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى قيل نعليك همك بأمر أنك وغمك فالاهتمام بغير الله تعالى سكر فى الصلاة وقيل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم الى السماء فى الصلاة وينظرون يمينا وشمالا فلما نزلت

بنى آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم بطىء الغضب سريع الفىء ومنهم سريع الغضب سريع الفىء فتلك بتلك ومنهم سريع الغضب بطىء الفىء ألا وان خيرهم البطىء الغضب السريع الفىء وشرهم السريع الغضب البطىء الفىء ولما كان الغضب يهيج ويؤثر فى كل انسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحدا فى حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب ولانه ربما يكون متغيظا عليه فيكون متشفيا لغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ فيكون صاحب حظ فينبغى أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه * ورأى عمر رضى الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويعزره فشمه السكران فرجع عمر فقيل له يا أمير المؤمنين لما شممت تركته قال لانه أغضبنى ولو عزرته لكان ذلك لغضبى لنفسى ولم أحب أن أضرب مسلما لحمية نفسى وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه لولا أنك أغضبتنى لعاقبتك

(القول فى معنى الحقد وتناجه وفضيلة العفو والرفق)

اعلم أن الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) المؤمن ليس بحقود فالحقد ثمرة الغضب والحقد ثمر ثمانية أمور الاول الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة ان أصابها وتسر بمصيبة ان نزلت به وهذا من فعل المنافقين وسيأتى ذمه ان شاء الله تعالى * الثانى أن تزيد على اضمار الحسد فى الباطن فتشمت بما أصابه من البلاء * الثالث أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وان طلبك وأقبل عليك * الرابع وهو دونه أن تعرض عنه استصغارا له * الخامس أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سر وهتك ستر وغيره * السادس أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه * السابع ايذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه * الثامن أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة وكل ذلك حرام وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد الى ما تعصى الله به ولكن تستثقله فى الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له أو بترك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وان كان لا يعرضك لعقاب الله (٢) ولما حلف أبو بكر رضى الله عنه أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه لكونه تكلم فى واقعة الافك نزل قوله تعالى ولا يأتل أولو الفضل منكم الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم فقال أبو بكر نعم نحب ذلك وعاد الى الانفاق عليه والاولى أن يبقى على ما كان عليه فان أمكنه أن يزيد فى الاحسان مجاهدة للنفس وارغاما للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين فللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة أحدها ان يستوفى حقه الذى يستحقه من غير زيادة ونقصان وهو العدل * الثانى أن يحسن اليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل * الثالث أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور وهو اختيار الارذل والثانى هو اختيار الصديقين والاول هو منتهى درجات الصالحين ولنذكر الآن فضيلة العفو والاحسان

(فضيلة العفو والاحسان)

اعلم ان معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويبرئ عنه من قصاص أو غرامة وهو غير الحلم وكظم الغيظ فلذلك أفردناه قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال الله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى * وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ثلاث والذى نفسى بيده لو كنت حلافا لحلفت عليهن ما نقص مال من صدقة

(فضيلة العفو)

(١) حديث المؤمن ليس بحقود تقدم فى العلم (٢) حديث لما حلف أبو بكر ان لا ينفق على مسطح نزل قوله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم الآية متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث ثلاث والذى نفسى بيده ان كنت

الذين هم فى صلاتهم خاشعون جعلوا وجوههم حيث يسجدون وما رؤى بعد ذلك أحد منهم ينظر الا الى الارض وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا قام الى الصلاة فانه بين يدى الرحمن فاذا التفت قال له الرب الى من تلتفت الى من هو خير لك منى ابن آدم أقبل الى فأنا خير لك ممن تلتفت اليه وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صليت فصل صلاة مودع فالمصلى سائر الى الله تعالى بقلبه يردع هواه ودنياه وكل شىء

فتصدقوا ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله الا زاده الله بها عزا يوم القيامة ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة الا فتح الله عليه باب فقر وقال صلى الله عليه وسلم (١) التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله والعفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعزكم الله والصدقة لا تزيد المال الا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله وقالت عائشة رضى الله عنها (٢) ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط مالم يتهك من محارم الله فاذا انتهك من محارم الله شئ كان أشدهم في ذلك غضبا وما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما مالم يكن اثما وقال عقبة لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فابتدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي فقال (٣) يا عقبة ألا أخبرك بافضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال صلى الله عليه وسلم (٤) قال موسى عليه السلام يارب أي عبادك أعز عليك قال الذي اذا قدر عفا وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس قال الذي يعفو اذا قدر فاعفوا يعزكم الله وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس وأراد أن يأخذله بمظلمته فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (٥) ان المظلومين هم المفلحون يوم القيامة فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا على من ظلمه فقد انتصر وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) اذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى منادمن تحت العرش ثلاثة أصوات يامعشر الموحدين ان الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض وعن أبي هريرة (٧) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال ماتقولون وماتظنون فقالوا نقول أخ وابن عم حليم رحيم قالوا ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم أقول كما قال يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الاسلام وعن سهيل بن عمرو قال (٨) لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ووضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ثم قال يامعشر قريش ماتقولون وماتظنون قال قلت يارسول الله نقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم رحيم وقد قدرت فقال رسول

حالفا حلفت عليهن ما نقصت صدقة من مال الحديث الترمذي من حديث أبي كبشة الانماري ولمسلم وأبي داود نحوه من حديث أبي هريرة (١) حديث التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله الأصفهاني في الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث عائشة ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط الحديث الترمذي في الشمائل وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم (٣) حديث عقبة بن عامر يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك الحديث ابن أبي الدنيا والطبراني في مكارم الاخلاق والبيهقي في الشعب باسناد ضعيف وقد تقدم (٤) حديث قال موسى يارب أي عبادك أعز عليك قال الذي اذا قدر عفا الخرائطي في مكارم الاخلاق من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة (٥) حديث ان المظلومين هم المفلحون يوم القيامة وفي أوله قصة ابن أبي الدنيا في كتاب الغفو من رواية أبي صالح الحنفي مرسلا (٦) حديث أنس اذا بعث الله عز وجل الخلائق يوم القيامة نادى منادمن تحت العرش ثلاثة أصوات يامعشر الموحدين ان الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض أبو سعيد أحمد بن ابراهيم المقرئ في كتاب التبصرة والتذكرة بلفظ ينادي منادمن بطنان العرش يوم القيامة يا أمة محمد ان الله تعالى يقول ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتوهبوها وادخلوا الجنة برحمتي واسناده ضعيف ورواه الطبراني في الاوسط بلفظ نادى منادياً أهل الجمع تتاركوا المظالم بينكم وتوابكم على ولي من حديث أم هانئ ينادي منادياً أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الثواب (٧) حديث أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال ماتقولون الحديث رواه ابن الجوزي في الوفاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف (٨) حديث سهيل بن عمرو لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ووضع يده على باب

سواه والصلاة في اللغة هي الدعاء فكأن المصلي يدعو الله تعالى بجميع جوارحه فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعو بها ظاهرا وباطنا ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والتقلب وفي الهيآت تملقات متضرع سائل محتاج فاذا دعا بكليته أجابه مولاه لانه وعده فقال ادعوني أستجب لكم كان خالد الربعي يقول عجبت لهذه الآية ادعوني أستجب لكم أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاجابة ليس بينهما شرط والاستجابة والاجابة هي نفوذ دعاء العبد فان الداعي الصادق العالم بمن يدعوه بنور يقينه فتخرق الحجب وتقف الدعوة بين يدي الله تعالى متقاضية لحاجة وخص الله تعالى هذه

الله صلى الله عليه وسلم أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وعن أنس قال (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قيل ومن ذا الذي له على الله أجر قال العافون عن الناس فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بغير حساب وقال ابن مسعود (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لوالي أمر أن يؤتى بحد الا أقامه والله عفو يحب العفو ثم قرأ وليعفوا وليصفحوا الآية وقال جابر ( ) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من جاء بهن مع ايمان دخل من أي أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء من أدى دينا خفيا وقرأ في دبر كل صلاة قل هو الله أحد عشر مرات وعفا عن قاتله قال أبو بكر أو احداهن يارسول الله قال أو احداهن (الآثار) قال ابراهيم التيمي ان الرجل ليظلمني فأرحمه وهذا احسان وراء العفو لانه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وانه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب وقال بعضهم اذا أراد الله أن يتحف عبدا قيض له من يظلمه ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو اليه رجلا ظلمه ويقع فيه فقال له عمر انك أن تلقى الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها وقال يزيد بن ميسرة ان ظلمت تدعو على من ظلمك فان الله تعالى يقول ان آخر يدعو عليك بانك ظلمته فان شئت استجبنا لك وأجبنا عليك وان شئت أخرتكما الى يوم القيامة فيسعكما عفوي وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه كل الظالم الى ظلمه فانه أسرع اليه من دعائك عليه الا أن يتداركه بعمل وقمن أن لا يفعل وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة فينادي من كان له عند الله شئ فليقم فيقوم أهل العفو فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس وعن هشام بن محمد قال أتى النعمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنبا عظيما فعفا عنه والآخر أذنب ذنبا خفيفا فعاقبه وقال

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها
الا ليعرف حلمها * ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة الى أبي جعفر قال فكنت عنده اذ أتى برجل فأمر بقتله فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر فقلت يا أمير المؤمنين ألا أحدثك حديثا سمعته من الحسن قال وما هو قلت سمعته يقول اذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيقوم مناد فينادي من له عند الله يد فليقم فلا يقوم الا من عفا فقال والله لقد سمعته من الحسن فقلت والله لسمعته منه فقال خلينا عنه وقال معاوية عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة فاذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والافضال وروى أن راهبا دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب أرأيت ذا القرنين أكان نبيا فقال لا ولكنه انما أعطي ما أعطي بار بع خصال كن فيه كان اذا قدر عفا واذا وعد وفى واذا حدث صدق ولا يجمع شغل اليوم لغد وقال بعضهم ليس الحليم من ظلم فحلم حتى اذا قدر عفا وقال زياد القدرة تذهب الحفيظة يعني الحقد والغضب وأتى هشام برجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته فقال له هشام وتتكلم أيضا فقال الرجل يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها أفتجادل الله تعالى ولا تتكلم بين يديك كلا ما قال هشام بلى ويحك تكلم وروى ان سارقا

(١) حديث أنس اذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قيل من ذا الذي أجره على الله قال العافون عن الناس الحديث الطبراني في مكارم الاخلاق وفيه الفضل بن يسار ولا يتابع على حديثه (٢) حديث ابن مسعود لا ينبغي لوالي أمر أن يؤتى بحد الا أقامه والله عفو يحب العفو الحديث أحمد والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصحبة (٣) حديث جابر ثلاث من جاء بهن مع ايمان دخل الجنة من أي أبواب الجنة شاء الحديث الطبراني في الاوسط وفي الدعاء بسند ضعيف

الامة بازال فاتحة الكتاب وفيها تقديم الثناء على الدعاء ليكون أسرع الى الاجابة وهي تعاليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء وفاتحة الكتاب هي السبع المثاني والقرآن العظيم قيل سميت مثاني لانها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة نزلت منها فهم آخر بل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة يقرؤها على التردد مع طول الزمان فهم آخر وهكذا المصلون المحققون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها وتقذف لهم كل مرة درر بحارها وقيل سميت مثاني لانها استثنيت من الرسل وهي

دخل خباء عمار بن ياسر بصفين فقيل له اقطعه فانه من أعدائنا فقال بل أستر عليه لعل الله يستر على يوم القيامة وجلس ابن مسعود فى السوق يبتاع طعاما فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت فى عمامته فوجدها قد حلت فقال لقد جلست وانها لمعى فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون اللهم اقطع يد السارق الذى أخذها اللهم افعل به كذا فقال عبد الله اللهم ان كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها وان كان حمله جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه وقال الفضيل ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان جلس الى فى المسجد الحرام ثم قام ليطوف فسرقت دنانير كانت معه فجعل يبكى فقلت أعلى الدنانير تبكى فقال لا ولكن مثلتنى واياه بين يدى الله عز وجل فأشرف عقلى على ادحاض حجته فبكائى رحمة له وقال مالك بن دينار أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فما كلم الحسن الا بمنزلة الفراريج فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به اخوته من بيعهم اياه وطرحهم له فى الجب فقال باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم وذكر ما لقى من كيد النساء ومن الحبس ثم قال أيها الامير ماذا صنع الله به أداله منهم ورفع ذكره وأعلى كلمته وجعله على خزائن الارض فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه قال الحكم فانا أقول لا تثريب عليكم اليوم ولم أجد الا ثوبى هذا لوار يتكم تحته وكتب ابن المقفع الى صديق له يسأله العفو عن بعض اخوانه فلان هارب من زلته الى عفوك لا تذمنك بك واعلم انه لن يزداد الذنب عظما الا ازداد العفو فضلا وأتى عبد الملك بن مروان باسارى ابن الاشعث فقال لرجاء بن حيوة ماترى قال ان الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله ما يحب من العفو فعفا عنهم وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج فأفلت منه فأخذ أخاه فقال له ان جئت بأخيك والا ضربت عنقك فقال لو رأيت ان جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلى سبيلى قال نعم قال فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين ابراهيم وموسى ثم تلا ألم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى فقال زياد خلوا سبيله هذا رجل قد لقن حجته وقيل مكتوب فى الانجيل من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان

﴿ فضيلة الرفق ﴾

اعلم أن الرفق محمود وضده العنف والحدة والعنف نتيجة الغضب والفظاظة والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة وقد يكون سبب الحدة الغضب وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكر ويمنع من التثبت فالرفق فى الامور ثمرة لا يثمرها الا حسن الخلق ولا يحسن الخلق الا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال ولاجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالغ فيه فقال (١) ياعائشة انه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة وقال صلى الله عليه وسلم (٢) اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ان الله ليعطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق واذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق وما من أهل بيت يحرمون الرفق الا حرموا محبة الله تعالى وقالت عائشة رضى الله عنها قال النبى صلى الله عليه وسلم (٤) ان الله رفيق

﴿ فضيلة الرفق ﴾

(١) حديث ياعائشة انه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة الحديث أحمد والعقيلى فى الضعفاء فى ترجمة عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى وضعفه عن القاسم عن عائشة وفى الصحيحين من حديثها ياعائشة ان الله يحب الرفق فى الامر كله (٢) حديث اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق أحمد بسند جيد والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة (٣) حديث ان الله ليعطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق الحديث الطبرانى فى الكبير من حديث جرير باسناد ضعيف (٤) حديث ان الله رفيق يحب الرفق الحديث مسلم من حديث عائشة

سبع آيات * ورؤت أم رومان قالت رآنى أبو بكر وأنا أتميل فى الصلاة فزجرنى زجرا كدت أن أنصرف عن صلاتى ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا قام أحدكم الى الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود فان سكون الاطراف من تمام الصلاة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوذوا بالله من خشوع النفاق قيل وما خشوع النفاق قال خشوع البدن ونفاق القلب فلما تميل اليهود قيل كان موسى يعامل بنى اسرائيل على ظاهر الامور لقلة مافى باطنهم فكان يهيئ الامور ويعظمها ولهذا المعنى أوحى الله تعالى اليه أن يحلى التوراة بالذهب ووقع لى

يحب الرفق ويعطى عليه مالا يعطى على العنف وقال صلى الله عليه وسلم (١) ياعائشة ارفقي فان الله اذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من يحرم الرفق يحرم الخير كله وقال صلى الله عليه وسلم (٣) أيما وال ولى فرفق ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم (٤) تدرون من يحرم على النار يوم القيامة كل هين لين سهل قريب وقال صلى الله عليه وسلم (٥) الرفق يمن والخرق شؤم وقال صلى الله عليه وسلم (٦) التأنى من الله والعجلة من الشيطان وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال (٧) يارسول الله ان الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصصنى منك بخير فقال الحمد لله مرتين أو ثلاثا ثم أقبل عليه فقال هل أنت مستوص مرتين أو ثلاثا قال نعم قال اذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان سوى ذلك فانته وعن عائشة رضى الله عنها انها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) ياعائشة عليك بالرفق فانه لا يدخل فى شئ الا زانه ولا ينزع من شئ الا شانه

(الآثار) بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله فأمرهم أن يوافوه فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس أيتها الرعية ان لنا عليكم حقا النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير أيتها الرعاة ان للرعية عليكم حقا فاعلموا أنه لا شئ أحب الى الله ولا أعز من حلم امام ورفقه وليس جهل أبغض الى الله ولا أغم من جهل امام وخرقه واعلموا انه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهر يه يرزق العافية ممن هو دونه وقال وهب بن منبه الرفق ثنى الحلم وفى الخبر موقوفا ومرفوعا (٩) العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين أخوه والصبر أمير جنوده وقال بعضهم ما أحسن الايمان يزينه العلم وما أحسن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق وما أضيف شئ الى شئ مثل حلم الى علم وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله ما الرفق قال أن تكون ذا اناة فتلين الولاة قال فما الخرق قال معاداة امامك ومناواة من يقدر على ضررك وقال سفيان لأصحابه تدرون ما الرفق قالوا قل يا أبا محمد قال أن تضع الأمور مواضعها الشدة فى موضعها واللين فى موضعه والسيف فى موضعه والسوط فى موضعه وهذه اشارة الى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف فى موضع الندى

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما فى سائر الأخلاق ولكن لما كانت الطباع الى العنف والحدة أميل كانت الحاجة

(١) حديث ياعائشة ارفقي ان الله اذا أراد باهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبى داود ياعائشة ارفقي (٢) حديث من يحرم الرفق يحرم الخير كله مسلم من حديث جرير دون قوله كله فهى عند أبى داود (٣) حديث أيما وال ولى فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة مسلم من حديث عائشة وفى حديث فيه ومن ولى من أمر أمتى شيأ فرفق بهم فارفق به (٤) حديث تدرون على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب الترمذى من حديث ابن مسعود وتقدم فى آداب الصحبة (٥) حديث الرفق يمن والخرق شؤم الطبرانى فى الاوسط من حديث ابن مسعود والبيهقى فى الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف (٦) حديث التأنى من الله والعجلة من الشيطان أبو يعلى من حديث أنس ورواه الترمذى وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة من الله وقد تقدم (٧) حديث أتاه رجل فقال يارسول الله ان الله قد بارك لجميع المسلمين فيك الحديث وفيه فاذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فأمضه الحديث ابن المبارك فى الزهد والرقائق من حديث أبى جعفر هو المسمى عبد الله بن مسور الهاشمى ضعيف جدا ولأبى نعيم فى كتاب الايجاز من رواية اسماعيل الانصارى عن أبيه عن جده اذا هممت بامر فاجلس فتدبر عاقبته واسناده ضعيف (٨) حديث عائشة عليك بالرفق فانه لا يدخل فى شئ الا زانه الحديث رواه مسلم (٩) حديث العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائده والرفق والده أبو الشيخ فى كتاب الثواب وفضائل الاعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث أبى الدرداء وأبى هريرة وكلاهما ضعيف

والله أعلم ان موسى كان يرد عليه الوارد فى صلاته ومحال مناجاته فيموج به باطنه كبحر ساكن تهب عليه الريح فتتلاطم الامواج فكان تمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب اذا هب عليه نسمات الفضل وربما كانت الروح تتطلع الى الحضرة الالهية فتهم بالاستعلاء وللقالب بها تشبث وامتزاج فيضطرب القالب ويتمايل فرأى اليهود ظاهره فتمايلوا من غير حظ لبواطنهم من ذلك ولهذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انكارا على أهل الوسوسة هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بنى اسرائيل حتى شهدت

الى ترغيبهم فى جانب الرفق أكثر فلذلك كثرت نهاء الشرع على جانب الرفق دون العنف وان كان العنف فى محله حسنا كما أن الرفق فى محله حسن فاذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو ألذ من الزبد بالشهد وهكذا قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله وروى أن عمرو بن العاص كتب الى معاوية يعاتبه فى التأنى فكتب اليه معاوية أما بعد فان التفهم فى الخير زيادة رشد وان الرشيد من رشد عن العجلة وان الخائب من خاب عن الاناة وان المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبا وان العجل مخطئ أو كاد أن يكون مخطئا وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالى وعن أبى عون الانصارى قال ما تكلم الناس بكلمة صعبة الا والى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها وقال أبو جزة الكوفى لا تتخذ من الخدم الا ما لا بد منه فان مع كل انسان شيطانا واعلم انهم لا يعطونك بالشدة شيأ الا أعطوك باللين ما هو أفضل منه وقال الحسن المؤمن وقاف متأن وليس كالخاطب ليل فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد فى أكثر الأحوال وأغلب الأمور والحاجة الى العنف قد تقع ولكن على الندور وانما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه فان كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله الى الرفق فان النجح معه فى الاكثر

(القول فى ذم الحسد وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى ازالته)

(بيان ذم الحسد)

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الحقد والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرعه والغضب أصل أصله ثم ان للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى وقد ورد فى ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال صلى الله عليه وسلم فى النهى عن الحسد وأسبابه وثمراته (٢) لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وقال أنس (٣) كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع الرجل وقاله فى اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل فلما قام النبى صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له انى لاحيت أبى فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا فان رأيت أن تؤوينى اليك حتى تمضى الثلاث فعلت فقال نعم فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيأ غير أنه اذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر قال غير أنى ما سمعته يقول الا خيرا فلما مضت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت يا عبد الله لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيرا فما الذى بلغ بك ذلك فقال ما هو الا ما رأيت فلما وليت دعانى فقال ما هو الا ما رأيت غير أنى لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله اياه قال عبد الله فقلت له هى التى بلغت بك وهى التى لا نطيق وقال صلى الله عليه وسلم (٤) ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطيرة والحسد وسأحدثكم بالمخرج

(القول فى ذم الحسد)

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أبو داود من حديث أبى هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا الحديث متفق عليه وقد تقدم (٣) حديث أنس كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة الحديث بطوله وفيه ان ذلك الرجل قال لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله رواه أحمد باسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البزار وسمى الرجل فى رواية له سعدا وفيها ابن لهيعة (٤) حديث ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطعن والحسد الحديث وفى رواية وقل من ينجو منهن ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبى هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهرى وموسى بن يعقوب الزمعى ضعفهما الجمهور والرواية الثانية رواها

أبدانهم وغابت قلوبهم لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه وان الرجل على صلاته دائم ولا يكتب له عشرها اذا كان قلبه ساهيا لاهيا واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة عماد الدين فمن ترك الصلاة فقد كفر فبالصلاة تحقيق العبودية وأداء حق الربوبية وسائر العبادات وسائل الى تحقيق سر الصلاة قال سهل بن عبد الله يحتاج العبد الى السنن الرواتب لتكميل الفرائض ويحتاج الى النوافل لتكميل السنن ويحتاج الى الآداب لتكميل النوافل ومن الأدب ترك الدنيا والذى ذكره سهل هو معنى

من ذلك اذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت فامض واذا حسدت فلا تبغ وفى رواية ثلاثة لا ينجو منهن أحد وقل من ينجو منهن فأثبت فى هذه الرواية امكان النجاة وقال صلى الله عليه وسلم (١) دب اليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء والبغضة هى الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين والذى نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم وقال صلى الله عليه وسلم (٢) كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر وقال صلى الله عليه وسلم (٣) انه سيصيب أمتى داء الامم قالوا وما داء الامم قال الاشر والبطر والتكاثر والتنافس فى الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغى ثم الهرج وقال صلى الله عليه وسلم (٤) لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك وروى أن موسى عليه السلام لما تجلى الى ربه تعالى رأى فى ظل العرش رجلا فغبطه بمكانه فقال ان هذا لكريم على ربه فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال أحدثك من عمله بثلاث كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله وكان لا يعق والديه ولا يمشى بالنميمة وقال زكريا عليه السلام قال الله تعالى الحاسد عدو لنعمتى متسخط لقضائى غير راض بقسمتى التى قسمت بين عبادى وقال صلى الله عليه وسلم (٥) أخوف ما أخاف على أمتى أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون وقال صلى الله عليه وسلم (٦) استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود وقال صلى الله عليه وسلم (٧) ان لنعم الله أعداء فقيل ومن هم فقال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال صلى الله عليه وسلم (٨) ستة يدخلون النار قبل الحساب بستة قيل يارسول الله من هم قال الامراء بالجور والعرب بالعصبية والدهاقين بالتكبر والتجار بالخيانة وأهل الرستاق بالجهالة والعلماء بالحسد (الآثار) قال بعض السلف أول خطيئة كانت هى الحسد حسد ابليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية وحكى أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط فقال انى أريد أن أعظك بشئ فقال وما هو قال اياك والكبر فانه أول ذنب عصى الله به ثم قرأ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس الآية واياك والحرص فانه أخرج

ابن أبى الدنيا أيضا من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف وللطبرانى من حديث حارثة بن النعمان نحوه وتقدم فى آفات اللسان (١) حديث دب اليكم داء الامم الحسد والبغضاء الحديث الترمذى من حديث مولى الزبير عن الزبير (٢) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر أبو مسلم الكشى والبيهقى فى الشعب من رواية يزيد الرقاشى عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطبرانى فى الاوسط من وجه آخر بلفظ كادت الحاجة أن تكون كفرا وفيه ضعف أيضا (٣) حديث انه سيصيب أمتى داء الامم قبلكم قالوا وما داء الامم قال الاشر والبطر الحديث ابن أبى الدنيا فى ذم الحسد والطبرانى فى الاوسط من حديث أبى هريرة باسناد جيد (٤) حديث لا تظهر الشماتة باخيك فيعافيه الله ويبتليك الترمذى من حديث واثلة بن الاسقع وقال حسن غريب وفى رواية ابن أبى الدنيا فيرحمه الله (٥) حديث أخوف ما أخاف على أمتى أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبى عامر الاشعرى وفيه ثابت بن أبى ثابت جهله أبو حاتم وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد ان مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ولهما من حديث عمرو بن عوف البدرى والله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن يبسط عليكم الدنيا الحديث ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو اذا قحمت عليكم فارس والروم الحديث وفيه يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون الحديث ولأحمد والبزار من حديث عمر لا يفتح الدنيا على أحد الا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة (٦) حديث استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود ابن أبى الدنيا والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف (٧) حديث ان لنعم الله أعداء قيل ومن أولئك قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله الطبرانى فى الاوسط من حديث ابن عباس ان لاهل النعم حسادا فاحذروهم (٨) حديث ستة يدخلون النار قبل الحساب بستة قيل يارسول الله من هم قال الأمراء بالجور الحديث وفيه والعلماء بالحسد أبو منصور الديلمى من حديث ابن عمر

ما قال عمر على المنبر ان الرجل ليشيب عارضاه فى الاسلام وما أكمل الله صلاة قيل وكيف ذاك قال لا يتم خشوعها وتواضعها واقباله على الله فيها وقد ورد فى الاخبار ان العبد اذا قام الى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه وان المصلى لينشر عليه البر من عنان السماء الى مفرق رأسه وينادیه مناد لو علم المصلى من يناجى ما التفت أو ما انفتل وقد جمع الله تعالى للمصلين فى كل ركعة ما فرق على أهل السموات فقه ملائكة فى الركوع منهم خلقهم الله

آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والارض يأكل منها الا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ثم قرأ اهبطوا منها الى آخر الآية واياك والحسد فانما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق الآيات واذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فامسك واذا ذكر القدر فاسكت واذا ذكرت النجوم فاسكت وقال بكر بن عبد الله كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول أحسن الى المحسن باحسانه فان المسيء سيكفيكه اساءته فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به الى الملك فقال ان هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم ان الملك أبخر فقال له الملك وكيف يصح ذلك عندي قال تدعوه اليك فانه اذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر فقال له انصرف حتى أنظر فخرج من عند الملك فدعا الرجل الى منزله فاطعمه طعاما فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك على عادته فقال أحسن الى المحسن باحسانه فان المسيء سيكفيكه اساءته فقال له الملك ادن مني فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم فقال الملك في نفسه ما أرى فلانا الا قد صدق قال وكان الملك لا يكتب بخطه الا بجارزة وصلة فكتب له كتابا بخطه الى عامل من عماله اذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبنا وابعث به الي فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الذي سعى به فقال ما هذا الكتاب قال خط الملك لي بصلة فقال هبه لي فقال هو لك فأخذه ومضى به الى العامل فقال العامل في كتابك أن أذبحك وأسلخك قال ان الكتاب ليس هو لي فالله الله في أمري حتى تراجع الملك فقال ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلده تبنا وبعث به ثم عاد الرجل الى الملك كعادته وقال مثل قوله فعجب الملك وقال ما فعل الكتاب فقال لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له قال الملك انه ذكر لي انك تزعم اني أبخر قال ما قلت ذلك قال فلم وضعت يدك على فيك قال لانه أطعمني طعاما فيه ثوم فكرهت أن تشمه قال صدقت ارجع الى مكانك فقد كفاك المسيء اساءته وقال ابن سيرين رحمه الله ما حسدت أحدا على شيء من أمر الدنيا لأنه ان كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة وان كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير الى النار وقال رجل للحسن هل يحسد المؤمن قال ما أنساك بني يعقوب نعم ولكن غمه في صدرك فانه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولا لسانا وقال أبو الدرداء ما أكثر عبد ذكر الموت الا قل فرحه وقل حسده وقال معاوية كل الناس أقدر على رضاه الا حاسد نعمة فانه لا يرضيه الا زوالها ولذلك قيل

كل العداوة قد ترجى اماتتها * الا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقى وقال اعرابي ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد انه يرى النعمة عليك نقمة عليه وقال الحسن يا ابن آدم لم تحسد أخاك فان كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله وان كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره الى النار وقال بعضهم الحاسد لا ينال من المجالس الا منمة وذلا ولا ينال من الملائكة الا لعنة وبغضا ولا ينال من الخلق الا جزعا وغما ولا ينال عند النزع الا شدة وهولا ولا ينال عند الموقف الا فضيحة ونكالا

(بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه)

اعلم انه لا حسد الا على نعمة فاذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان احداهما أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها وهذه الحالة تسمى حسدا فالحسد هو كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه الحالة الثانية ان لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها وهذه تسمى غبطة وقد تختص باسم المنافسة وقد تسمى المنافسة حسدا والحسد منافسة ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ولا حجر في الاسامي بعد فهم المعاني وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) ان المؤمن يغبط والمنافق يحسد فأما الأول فهو حرام بكل حال الا نعمة أصابها فاجر أو كافر

(١) حديث المؤمن يغبط والمنافق يحسد لم أجد له أصلا مرفوعا وانما هو من قول الفضيل ابن عياض كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد

(بيان حقيقة الحسد وحكمه)

لا يرفعون من الركوع الى يوم القيامة وهكذا في السجود والقيام والقعود والعبد المتيقظ يتصفح في ركوعه بصفة الراكعين منهم وفي السجود بصفة الساجدين وفي كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم وفي غير الفريضة ينبغي للمصلي أن يمكث في ركوعه متلذذا بالركوع غير مهتم بالرفع منه فان طرفته سآمة بحكم الجبلة استغفر منها ويستديم تلك الهيئة ويتطلع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ليصير قلبه بلون الهيئة وربما يتراءى للراكع المحقق أنه ان سبق همه في حال الركوع أو السجود الى الرفع منه ما وفى الهيئة حقها فيكون همه

وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وافساد ذات البين وايذاء الخلق فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها فانك لا تحبز والها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته ويدل على تحريم الحسد الاخبار التي نقلناها وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض وذلك لا عذر فيه ولا رخصة وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة والى هذا أشار القرآن بقوله ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وهذا الفرح شماتة والحسد والشماتة يتلازمان وقال تعالى ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم فأخبر تعالى أن جهم زوال نعمة الايمان حسد وقال عز وجل ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء وذكر الله تعالى حسد اخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين افتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم فلما كرهوا حب أبيهم له ساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه فغيبوه عنه وقال تعالى ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون فأثنى عليهم بعدم الحسد وقال تعالى في معرض الانكار أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال تعالى كان الناس أمة واحدة الى قوله الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم قيل في التفسير حسدا وقال تعالى وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فانزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا اذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض قال ابن عباس(١) كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم اذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله الا ما نصرتنا فكانوا ينصرون فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد اسمعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم اياه فقال تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به الى قوله أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أي حسدا وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم (٢) جاء أبي وعمي من عندك يوما فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول انه النبي الذي بشر به موسى قال فترى قال أرى معاداته أيام الحياة فهذا حكم الحسد في التحريم * وأما المنافسة فليست بحرام بل هي اما واجبة واما مندوبة واما مباحة وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد قال قثم بن العباس(٣) لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة قالا لعلي حين قال لهما لا تذهبا اليه فانه لا يؤمر كما عليها فقالا له ما هذا منك الا نفاسة والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك أي هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه اياك فاطمة والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة والذي يدل على اباحة المنافسة قوله تعالى وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وقال تعالى سابقوا الى مغفرة من ربكم وانما المسابقة عند

(١) حديث ابن عباس قوله كانت اليهود قبل ان يبعث النبي صلى الله عليه وسلم اذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله الحديث في نزول قوله تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ابن اسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان اليهود كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره نحوه وهو منقطع (٢) حديث قالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم جاء أبي وعمي من عندك يوما فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول انه النبي الذي بشر به موسى الحديث ابن اسحاق في السيرة قال حدثني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضا (٣) حديث قال قثم بن العباس لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألانه أن يؤمرهما على الصدقة قالا لعلي الحديث هكذا وقع للمصنف انه قثم والفضل وانما هو الفضل والمطلب بن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة بن الحارث قال اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبد المطلب فقالا والله لو بعثنا هذين الغلامين قال لي وللفضل بن عباس ائتيا الى رسول الله صلى الله

الهيئة مستغرقا فيها مشغولا بها عن غيرها من الهيآت فبذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة فان السرعة التي يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتوح ويقف في مهاب النفحات الالهية حتى يتكامل حظ العبد فتنمحي آثاره بحسن الاسترسال ويستقر في مقعد الوصال (وقيل) في الصلاة أربع هيآت وستة أذكار فالهيآت الاربع القيام والقعود والركوع والسجود والاذكار الستة التلاوة والتسبيح والحمد والاستغفار والدعاء والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام فصارت عشرة كاملة تفرق هذه العشرة على عشر صفوف من الملائكة كل صف عشرة

خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان الى خدمة مولاهما اذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال (١) لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس ثم فسر ذلك فى حديث أبى كبشة الانمارى فقال (٢) مثل هذه الامة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لى مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما فى الاجر سواء وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه فى معاصى الله ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لى مثل مال فلان لكنت أنفقه فى مثل ما أنفقه فيه من المعاصى فهما فى الوزر سواء فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله فاذا لاحرج على من يغبط غيره فى نعمة ويشتهى لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له نعم ان كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالايمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة وهو أن يحب أن يكون مثله لانه اذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضيا بالمعصية وذلك حرام وان كانت النعمة من الفضائل كانفاق الاموال فى المكارم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب اليها وان كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة وكل ذلك يرجع الى ارادة مساواته واللحوق به فى النعمة وليس فيها كراهة النعمة وكأن تحت هذه النعمة أمرين أحدهما راحة المنعم عليه والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها فى المباحات نعم ذلك ينقص من الفضائل وينافض الزهد والتوكل والرضا ويحجب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان وههنا دقيقة غامضة وهو أنه اذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه فلا محالة يحب زوال النقصان وانما يزول نقصانه اما بان ينال مثل ذلك أو بان تزول نعمة المحسود فاذا انسد أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر حتى اذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشفى عنده من دوامها اذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فان كان بحيث لو ألقى الامر اليه ورد الى اختياره لسعى فى ازالة النعمة عنه فهو حسود حسدا مذموما وان كان تدعه التقوى عن ازالة ذلك فيعفى عما يجده فى طبعه من الارتياح الى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم (٣) ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن الحسد والظن والطيرة ثم قال وله منهن مخرج اذا حسدت فلا تبغ أى ان وجدت فى قلبك شيأ فلا تعمل به وبعيد أن يكون الانسان مريد اللحاق باخيه فى النعمة فيعجز عنها ثم ينفك عن ميل الى زوال النعمة اذ يجد لا محالة ترجيحا له على دوامها فهذا الحد من المنافسة يزاحم الحسد الحرام فينبغى أن يحتاط فيه فانه موضع الخطر ومامن انسان الا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ويكاد يتجرد ذلك الى الحسد المحظور ان لم يكن قوى الايمان رزين التقوى ومهما كان محركه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك الى الحسد المذموم والى ميل الطبع الى زوال النعمة عن أخيه حتى ينزل هو الى مساواته اذ لم يقدر هو أن يرتقى الى مساواته بادراك النعمة وذلك لا رخصة فيه أصلا بل هو حرام سواء كان فى مقاصد الدين أو مقاصد الدنيا ولكن يعفى عنه فى ذلك مالم يعمل به ان شاء الله تعالى وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له فهذه حقيقة الحسد وأحكامه * وأما مراتبه فاربع (الاولى) أن يحب زوال النعمة عنه

عليه وسلم فكلاهما فذكر الحديث (١) حديث لا حسد الا فى اثنتين الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم فى العلم (٢) حديث أبى كبشة مثل هذه الامة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا الحديث رواه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح (٣) حديث ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن الحسد والظن والطيرة الحديث تقدم غير مرة

الآلاف فيجتمع فى الركعتين مايفرق على مائة ألف من الملائكة

(الباب السابع والثلاثون فى وصف صلاة أهل القرب)

ونذكر فى هذا الفصل كيفية الصلاة بهيآتها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على الكمال بأقصى ما انتهى اليه فهمنا وعلمنا على الوجه مع الاعراض عن نقل الاقوال فى كل شئ من ذلك اذ فى ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والايجاز المقصود فنقول وبالله التوفيق ينبغى للعبد أن يستعد للصلاة قبل دخول وقتها بالوضوء ولا يوقع الوضوء فى وقت الصلاة فذلك من المحافظة عليها ويحتاج فى معرفة الوقت الى معرفة الزوال وتفاوت

وان كان ذلك لا ينتقل اليه وهذا غاية الخبث (الثانية) أن يحب زوال النعمة اليه لرغبته فى تلك النعمة مثل رغبته فى دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها (الثالثة) أن لا يشتهى عينها لنفسه بل يشتهى مثلها فان عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما (الرابعة) أن يشتهى لنفسه مثلها فان لم تحصل فلا يحب زوالها عنه وهذا الاخير هو المعفو عنه ان كان فى الدنيا والمندوب اليه ان كان فى الدين والثالثة فيها مذموم وغير مذموم والثانية أخف من الثالثة والاولى مذموم محض وتسمية الرتبة الثانية حسدا فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم.

(بيان أسباب الحسد والمنافسة)

أما المنافسة فسببها حب ما فيه المنافسة فان كان ذلك أمرا دينيا فسببه حب الله تعالى وحب طاعته وان كان دنيويا فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها وانما نظرنا الآن فى الحسد المذموم ومداخله كثيرة جدا ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب العداوة والتعزز والكبر والتعجب والخوف من فوت المقاصد المحبوبة وحب الرياسة وخبث النفس وبخلها فانه انما يكره النعمة على غيره اما لانه عدوه فلا يريد له الخير وهذا لا يختص بالامثال بل يحسد الخسيس الملك بمعنى انه يحب زوال نعمته لكونه مبغضا له بسبب اساءته اليه أو الى من يحبه واما أن يكون من حيث يعلم انه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه وهو المراد بالتعزز واما أن يكون فى طبعه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتكبر واما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيما فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب واما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بان يتوصل بها الى مزاحمته فى أغراضه واما أن يكون يحب الرياسة التى تنبنى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها واما أن لا يكون بسبب من هذه الاسباب بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ولا بد من شرح هذه الاسباب (السبب الاول) العداوة والبغضاء وهذا أشد أسباب الحسد فان من آذاه شخص بسبب من الاسباب وخالفه فى غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ فى نفسه الحقد والحقد يقتضى التشفى والانتقام فان عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وانها لاجله ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لانه ضد مراده وربما يخطر له انه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما وانما غاية التقى أن لا يبغى وأن يكره ذلك من نفسه فاما أن يبغض انسانا ثم يستوى عنده مسرته ومساءته فهذا غير ممكن وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة اذ قال تعالى واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ان تمسسكم حسنة تسؤهم الآية وكذلك قال تعالى ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر والحسد بسبب البغض ربما يفضى الى التنازع والتقاتل واستغراق العمر فى ازالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجرى مجراه (السبب الثانى) التعزز وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره فاذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علما أو مالا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره فانه قد يرضى بمساواته مثلا ولكن لا يرضى بالترفع عليه (السبب الثالث) الكبر وهو أن يكون فى طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة فى أغراضه فاذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته أو ربما يتشوف الى مساواته أو الى أن يرتفع عليه فيعود متكبرا بعد أن كان متكبرا عليه ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر

(بيان أسباب الحسد والمنافسة)

الاقدام لطول النهار وقصره ويعتبر الزوال بأن الظل مادام فى الانتقاص فهو النصف الاول من النهار فاذا أخذ الظل فى الازدياد فهو النصف الآخر وقد زالت الشمس واذا عرف الزوال وان الشمس على كم قدم تزول يعرف أول الوقت وآخره ووقت العصر ويحتاج الى معرفة المنازل ليعلم طلوع الفجر ويعلم أوقات الليل وشرح ذلك يطول ويحتاج أن يفرد له باب فاذا دخل وقت الصلاة يقدم السنة الراتبة ففى ذلك سر وحكمة وذلك والله أعلم أن العبد تشعث باطنه وتفرق همه لما بلى به من المخالطة من الناس وقيامه

الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قالوا كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطئ رؤسنا(١) فقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أى كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه اذا كان عظيما وقال تعالى يصف قول قريش أهؤلاء من الله عليهم من بيننا كالاستحقار لهم والانفة منهم (السبب الرابع) التعجب كما أخبر الله تعالى عن الامم السالفة اذ قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحى والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلهم فى الخلقة لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الاسباب وقالوا متعجبين أبعث الله بشرا رسولا وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة وقال تعالى أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم الآية (السبب الخامس) الخوف من فوت المقاصد وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد فان كل واحد يحسد صاحبه فى كل نعمة تكون عونا له فى الانفراد بمقصوده ومن هذا الجنس تحاسد الضرات فى التزاحم على مقاصد الزوجية وتحاسد الاخوة فى التزاحم على نيل المنزلة فى قلب الابوين للتوصل به الى مقاصد الكرامة والمال وكذلك تحاسد التلميذين لاستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الاستاذ وتحاسد ندماء الملك وخواصه فى نيل المنزلة من قلبه للتوصل به الى المال والجاه وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة اذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة محصورين اذ يطلب كل واحد منزلة فى قلوبهم للتوصل بهم الى أغراضه (السبب السادس) حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل به الى مقصود وذلك كالرجل الذى يريد أن يكون عديم النظير فى فن من الفنون اذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر فى فنه وانه لا نظير له فانه لو سمع بنظير له فى أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته أو زوال النعمة عنه التى بها يشاركه فى المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ويفرح بسبب تفرده وليس السبب فى هذا عداوة ولا تعززا ولا تكبرا على المحسود ولا خوفا من فوات مقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الناس للتوصل الى مقاصد سوى الرياسة وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم (السبب السابع) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى فانك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال اذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه واذا وصف له اضطراب أمور الناس وادبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به فهو أبدا يحب الادبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة وهذا ليس له سبب ظاهر الا خبث فى النفس ورذالة فى الطبع عليه وقعت الجبلة ومعالجته شديدة لان الحسد الثابت بسائر الاسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيطمع فى ازالتها وهذا خبث فى الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر ازالته اذ يستحيل فى العادة ازالته فهذه هى أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الاسباب أو أكثرها أو جميعها فى شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ويقوى قوة لا يقدر معها على الاخفاء والمجاملة بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جلة من هذه الاسباب وقلما يتجرد سبب واحد منها

(١) حديث سبب نزول قوله تعالى لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ذكره ابن اسحاق فى السيرة وان قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف فنحن عظماء القريتين فأنزل الله فيما بلغنى هذه الآية ورواه أبو محمد بن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسيريهما من حديث ابن عباس الا أنهما قالا مسعود بن عمرو وفى روايه لابن مردويه حبيب بن عمير الثقفى وهو ضعيف

بيان

بمهام المعاش أو سهو جرى بوضع الجبلة أو صرف هم الى أكل أو نوم بمقتضى العادة فاذا قدم السنة ينجذب باطنه الى الصلاة ويتهيأ للمناجاة ويذهب بالسنة الرانبة أثر الغفلة والكدورة من الباطن فينصلح الباطن ويصير مستعدا للفريضة فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات وتطرق النفحات ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله ومن الذنوب عامة وخاصة فالعامة الكبائر والصغائر مما أومأ اليه الشرع ونطق به الكتاب والسنة والخاصة ذنوب حال الشخص فكل عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرفها صاحبها وقيل حسنات

(بيان السبب فى كثرة الحسد بين الامثال والاقران والاخوة وبنى العم والاقارب وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه)

اعلم أن الحسد انما يكثر بين قوم تكثر بينهم الاسباب التى ذكرناها وانما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الاسباب فيهم وتتظاهر اذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لانه قد يمتنع عن قبول التكبر ولانه يتكبر ولانه عدو ولغير ذلك من الاسباب وهذه الاسباب انما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ويتواردون على الاغراض فاذا خالف واحد منهم صاحبه فى غرض من الاغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد فى قلبه فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لغرضه ويكره تمكنه من النعمة التى توصله الى أغراضه وتترادف جملة من هذه الاسباب اذ لا رابطة بين شخصين فى بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدة وكذلك فى محلتين نعم اذا تجاورا فى مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما فيثور من التناقض التنافر والتباغض ومنه تثور بقية أسباب الحسد ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم والتاجر يحسد التاجر بل الاسكاف يحسد الاسكاف ولا يحسد البزاز الا بسبب آخر سوى الاجتماع فى الحرفة ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الاجانب والمرأة تحسد ضرتها وسريةَ زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته لان مقصد البزاز غير مقصد الاسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد اذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها الا بكثرة الزبون وانما ينازعه فيه بزاز آخر اذ حريف البزاز لا يطاوعه الاسكاف بل البزاز ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه الى طرف السوق فلا جرم يكون حسده للجار أكثر وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لان مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب لان التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص فأصل هذه المحاسدات العداوة وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين فلذلك يكثر الحسد بينهما نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت فى جميع أطراف العالم بما هو فيه فانه يحسد كل من هو فى العالم وان بعد ممن يساهمه فى الخصلة التى يتفاخر بها ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا فان الدنيا هى التى تضيق على المتزاحمين اما الآخرة فلا ضيق فيها وانما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سمواته وأرضه لم يحسد غيره اذا عرف ذلك أيضا لان المعرفة لا تضيق عن العارفين بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس وثمرة الاستفادة والافادة فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لان مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا ضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله تعالى ولا ضيق أيضا فيما عند الله تعالى لان أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه وليس فيها مانعة ومزاحمة ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الانس بكثرتهم نعم اذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لان المال أعيان وأجسام اذا وقعت فى يد واحد خلت عنها يد الآخر ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة فيكون ذلك سببا للمحاسدة واذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها وان يفرح بذلك والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل فى يد مالم يرتحل عن اليد الاخرى والعلم فى قلب العالم مستقر ويحل فى قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه والمال أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الانسان جميع ما فى الارض لم يبق بعده مال يتملكه غيره والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه فمن عود نفسه الفكر فى جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك ألذ عنده من كل نعيم ولم يكن ممنوعا منه ولا مزاحما فيه فلا يكون فى قلبه حسد لاحد من الخلق لان غيره أيضا لو عرف مثل معرفته لم

الابرار سيآت المقربين * ثم لا يصلى الاجاعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تفضل صلاة الجاعة صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ثم يستقبل القبلة بظاهره والحضرة الالهية بباطنه ويقرأ قل أعوذ برب الناس ويقرأ فى نفسه آية التوجه وهذا التوجه قبل الصلاة والاستفتاح قبل الصلاة لوجهه الظاهر بانصرافه الى القبلة وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة ثم يرفع يديه حذو منكبيه بحيث تكون كفاه حذو منكبيه وابهاماه عند شحمة أذنيه ورؤس الاصابع مع الأذنين ويضم الأصابع وان نشرها جاز والضم أولى فانه قيل

ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر الى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة فان نعيم العارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته يأمن زوالها وهو أبدا يجني ثمارها فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دانية فهو وان غمض العين الظاهرة فروحه أبدا ترتع في جنة عالية ورياض زاهرة فان فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في العقبى فاذا لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الجنة في الدنيا محاسدة لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة ولا تنال الا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضا فأهل الجنة بالضرورة برآء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعا بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين الى مضيق سجين ولذلك وسم به الشيطان اللعين وذكر من صفاته انه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتباء ولما دعي الى السجود استكبر وأبى وتمرد وعصى فقد عرفت انه لا حسد الا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر الى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الأرض وكل الأرض لا وزن لها بالاضافة الى السماء ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلا فعليك ان كنت بصيرا وعلى نفسك مشفقا أن تطلب نعمة لا تزحمة فيها ولذة لا كدر لها ولا يوجد ذلك في الدنيا الا في معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السموات والأرض ولا ينال ذلك في الآخرة الا بهذه المعرفة أيضا فان كنت لا تشتاق الى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها وفتر عنك رأيك وضعفت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور اذ العنين لا يشتاق الى لذة الوقاع والصبي لا يشتاق الى لذة الملك فان هذه لذات يختص بادراكها الرجال دون الصبيان والمخنثين فكذلك لذة المعرفة يختص بادراكها الرجال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ولا يشتاق الى هذه اللذة غيرهم لأن الشوق بعد الذوق ومن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ومن لم يشتق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين

﴿ بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب ﴾

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب الا بالعلم والعمل والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين وانه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة أما كونه ضررا عليك في الدين فهو انك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته فاستنكرت ذلك واستبشعته وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الايمان وناهيك بهما جناية على الدين وقد انضاف الى ذلك انك غششت رجلا من المؤمنين وتركت نصيحته وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى وشاركت ابليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب وتمحوها كما يمحو الليل النهار وأما كونه ضررا عليك في الدنيا فهو انك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به ولا تزال في كمد وغم اذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى مغموما محروما منشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمك تقدا ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة ان كنت عاقلا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط

النشر نشر الكف لانشر الأصابع ويكبر ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألفا ويجزم أكبر ويجعل المد في الله ولا يبالغ في ضم الهاء من الله ولا يبتدئ بالتكبير الا اذا استقرت اليدان حذو المنكبين ويرسلهما مع التكبير من غير نفض فالوقار اذا سكن القلب تشكلت به الجوارح وتأيدت بالأولى والاصوب ويجمع بين نية الصلاة والتكبير بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلي الصلاة بعينها (وحكى) عن الجنيد أنه قال لكل شئ صفوة وصفوة الصلاة التكبيرة الأولى وانما كانت التكبيرة صفوة لانها موضع النية وأول الصلاة * قال أبو نصر السراج سمعت ابن سالم يقول

الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحمله وألم يقاسيه فهلاك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة وأما انه لا ضرر على المحسود فى دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدره الله تعالى من اقبال ونعمة فلا بد أن يدوم الى أجل معلوم قدره الله سبحانه فلا حيلة فى دفعه بل كل شئ عنده بمقدار ولكل أجل كتاب ولذلك شكا نبى من الأنبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فأوحى الله اليه فرمن قدامها حتى تنقضى أيامها أى ما قدرناه فى الأزل لا سبيل الى تغييره فاصبر حتى تنقضى المدة التى سبق القضاء بدوام اقبالها فيها ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر فى الدنيا ولا يكون عليه اثم فى الآخرة ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى وهذا غاية الجهل فانه بلاء تشتهيه أولا لنفسك فانك أيضا لا تخلو عن عدو بحسدك فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الايمان أيضا لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الايمان قال الله تعالى وكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم اذ ما يريده الحسود لا يكون نعم هو يضل بارادته الضلال لغيره فان ارادة الكفر كفر فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الايمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم وان اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغباوة فان كل واحد من حتى الحساد أيضا يشتهى أن يخص بهذه الخاصية ولست بأولى من غيرك فنعمة الله تعالى عليك فى أن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تكرهها وأما ان المحسود ينتفع به فى الدين والدنيا فواضح أما منفعته فى الدين فهو انه مظلوم من جهتك لا سيما اذا أخرجك الحسد الى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه فهذه هدايا تهديها اليه أعنى انك بذلك تهدى اليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا محروما عن النعمة كما حرمت فى الدنيا عن النعمة فكانك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل نعم كان لله عليه نعمة اذ وفقك للحسنات فنقلتها اليه فأضفت اليه نعمة الى نعمة وأضفت الى نفسك شقاوة الى شقاوة وأما منفعته فى الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين بغمومهم ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد وغاية أمانى أعدائك أن يكونوا فى نعمة وأن تكون فى غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم ولذلك لا يشتهى عدوك موتك بل يشتهى أن تطول حياتك ولكن فى عذاب الحسد لتنظر الى نعمة الله عليه فينقطع قلبك حسدا ولذلك قيل

لا مات أعداؤك بل خلدوا * حتى يروا فيك الذى يكمد

لا زلت محسودا على نعمة * فانما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده فما أنت فيه تلازمه من غم الحسد الا كما يشتهيه عدوك فاذا تأملت هذا عرفت انك عدو نفسك وصديق عدوك اذ تعاطيت ما تضرر به فى الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك فى الدنيا والآخرة وصرت مذموما عند الخالق والخلائق شقيا فى الحال والمآل ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت الى ادخال أعظم سرور على ابليس الذى هو أعدى أعدائك لأنه لما رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذى اختص به عدوك عنك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه فى الثواب بسبب المحبة لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكا فى الخير ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر فى الدين لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك لخاف ابليس ان تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فبغضه اليك حتى لا تلحقه بحبك كلم تلحقه بعملك وقد قال اعرابى للنبى صلى الله عليه وسلم يا رسول الله (١) الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب وقام اعرابى الى رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال هو مع من أحب متفق عليه من حديث ابن مسعود

النية بالله لله ومن الله والآفات التى تدخل فى صلاة العبد بعد النية من العدو ونصيب العدو وان كثر لا يوازن بالنية التى هى لله بالله وان قل (وسئل) أبو سعيد الخراز كيف الدخول فى الصلاة فقال هو ان تقبل على الله تعالى اقبالك عليه يوم القيامة ووقوفك بين يدى الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تناجيه وتعلم بين يدى من أنت واقف فانه الملك العظيم (وقيل) لبعض العارفين كيف تكبر التكبيرة الأولى فقال ينبغى اذا قلت الله أكبر ان يكون مصحوبك فى الله التعظيم مع الالف والهيبة مع اللام والمراقبة والقرب مع الهاء واعلم ان من

وسلم وهو يخطب فقال(١) يارسول الله متى الساعة فقال ما أعددت لها قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام الا أنى أحب الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم أنت مع من أحببت قال أنس فما فرح المسلمون بعد اسلامهم كفرحهم يومئذ اشارة الى ان أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله قال أنس فنحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم ونرجو أن نكون معهم وقال أبو موسى (٢) قلت يارسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلى ويحب الصوام ولا يصوم حتى عد أشياء فقال النبى صلى الله عليه وسلم هو مع من أحب وقال رجل لعمر بن عبد العزيز انه كان يقال ان استطعت أن تكون عالما فكن عالما فان لم تستطع أن تكون عالما فكن متعلما فان لم تستطع أن تكون متعلما فأحبهم فان لم تستطع فلا تبغضهم فقال سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجا فانظر الآن كيف حسدك ابليس ففوت عليك ثواب الحب ثم لم يقنع به حتى بغض اليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أثمت وكيف لا وعساك تحاسد رجلا من أهل العلم وتحب أن يخطئ فى دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم وأى اثم يزيد على ذلك فليتك اذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الاثم وعذاب الآخرة وقد جاء فى الحديث (٣) أهل الجنة ثلاثة المحسن والمحب له والكاف عنه أى من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة فانظر كيف أبعدك ابليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها البتة فقد نفذ فيك حسد ابليس ومانفذ حسدك فى عدوك بل على نفسك بل لو كوشفت بحالك فى يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد فى صورة من يرمى سهما الى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع الى حدقته اليمنى فيقلعها فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمى أشد من الأولى فيرجع الى عينه الأخرى فيعميها فيزداد غيظه فيعود ثالثة فيعود على رأسه فيشجه وعدوه سالم فى كل حال وهو اليه راجع مرة بعد أخرى وأعداؤه حوله يغرحون به ويضحكون عليه وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه بل حالك فى الحسد أقبح من هذا الأن الرمية العائدة لم تفوت الا العينين ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة والحسد يعود بالاثم والاثم لا يفوت بالموت ولعله يسوقه الى غضب الله والى النار فلأن تذهب عينه فى الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النار فانظر كيف انتقم الله من الحاسد اذ أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزل عنه ثم أزالها عن الحاسد اذ السلامة من الاثم نعمة والسلامة من الغم والكمد نعمة وقد زالتا عنه تصديقا لقوله تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله وربما يبتلى بعين ما يشتهيه لعدوه وقلما يشمت شامت بمساءة الا ويبتلى بمثلها حتى قالت عائشة رضى الله عنها ما تمنيت لعثمان شيأ الا نزل بى حتى لو تمنيت له القتل لقتلت فهذا اثم الحسد نفسه فكيف ما يجره اليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق واطلاق اللسان واليد بالفواحش فى القاصى من الاعداء وهو الداء الذى فيه هلك الأمم السالفة فهذه هى الادوية العلمية فهما تفكر الانسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه وعلم انه مهلك نفسه ومفرح عدوه ومسخط ربه ومنغص عيشه * وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يقتضاه الحسد من قول وفعل فينبغى أن يكلف نفسه نقيضه فان بعثه الحسد على القدح فى محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه وان حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار اليه وان بعثه على كف الانعام عليه ألزم نفسه الزيادة فى الانعام عليه فهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد لأن التواضع والثناء والمدح واظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالاحسان ثم ذلك الاحسان يعود

(١) حديث سؤال الاعرابى متى الساعة فقال ما أعددت لها الحديث متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث أبى موسى قلت يارسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلى الحديث وفيه هو مع من أحب متفق عليه من حديث بلفظ آخر مختصرا الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم قال المرء مع من أحب (٣) حديث أهل الجنة ثلاثة المحسن والمحب له والكاف عنه لم أجد له أصلا

الناس من اذا قال الله أكبر غاب فى مطالعة العظمة والكبرياء وامتلا باطنه نورا وصار الكون باسره فى فضاء شرح صدره كخردلة بارض فلاة ثم تلقى الخردلة فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس وما يتخايل فى الباطن من الكون الذى صار بمثابة الخردلة فالقيت فكيف تزاحم الوسوسة وحديث النفس مثل هذا العبد وقد تزاحم مطالعة العظمة والغيبوبة فى ذلك كون النية غير انه لغاية لطف الحال يختص الروح بمطالعة العظمة والقلب يتميز بالنية فتكون النية موجودة بالطف صفاتها مندرجة فى نور العظمة اندراج الكواكب فى ضوء الشمس

الى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولا طبعا آخرا ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له لو تواضعت وأثنيت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وان ذلك مذلة ومهانة وذلك من خدع الشيطان ومكايده بل المجاملة تكلفا كانت أو طبعا تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جدا الا انها مرة على القلوب جدا ولكن النفع في الدواء المر فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء وانما تهون مرارة هذا الدواء أعني التواضع للاعداء والتقرب اليهم بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شئ على خلاف مرادها جهل وعند ذلك يريد مالا يكون اذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة ولا طريق الى الخلاص من هذا الذل الا باحد أمرين اما بان يكون ما تريد أو بان تريد ما يكون والأول ليس اليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه وأما الثاني فللمجاهدة فيه مدخل وتحصيله بالرياضة ممكن فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلي فأما الدواء المفصل فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا يغني وسيأتي تفصيل مداواة هذه الاسباب في مواضعها ان شاء الله تعالى فانها مواد هذا المرض ولا ينقمع المرض الا بقمع المادة فان لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه الا تسكين وتطفئة ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده فانه مادام محبا للجاه فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه ويغمه ذلك لا محالة وانما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده فاما الخلو عنه رأسا فلا يمكنه والله الموفق

(بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب)

اعلم أن المؤذي ممقوت بالطبع ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالبا فاذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوي عندك حسن حال عدوك وسوء حاله بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ولا يزال الشيطان ينازعك الى الحسد له ولكن ان قوي ذلك فيك حتى بعثك على اظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بافعالك الاختيارية فأنت حسود عاص بحسدك وان كففت ظاهرك بالكلية الا أنك بباطنك تحب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فانت أيضا حسود عاص لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل قال الله تعالى ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا وقال عز وجل ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء وقال ان تمسسكم حسنة تسؤهم أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد بل محل الحسد القلب دون الجوارح نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى وانما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح فاما اذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كانك تمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع فقد أديت الواجب عليك ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا فاما تغيير الطبع ليستوي عنده المؤذي والمحسن ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه مادام ملتفتا الى حظوظ الدنيا الا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله فقد ينتهي أمره الى أن لا يلتفت قلبه الى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر الى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة ويرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعال الله ويراهم مسخرين وذلك ان كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ثم يرجع القلب بعد ذلك الى طبعه ويعود العدو الى منازعته أعني الشيطان فانه ينازع بالوسوسة فهما قابل ذلك بكراهته وألزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه وقد ذهب ذاهبون الى أنه لا يأثم اذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روي عن الحسن انه سئل عن الحسد فقال غمه فانه لا يضرك مالم تبده وروي عنه موقوفا ومرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة لا يخلو منهن المؤمن وله منهن مخرج

ثم يقبض بيده اليمنى يده اليسرى ويجعلهما بين السرة والصدر واليمنى لكرامتها تجعل فوق اليسرى ويمد المسبحة والوسطى على الساعد ويقبض بالثلاثة الباقي اليسرى من الطرفين وقد فسر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قوله تعالى فصل لربك وانحر قال انه وضع اليمنى على الشمال تحت الصدر وذلك ان تحت الصدر عرقا يقال له الناحر أي ضع يدك على الناحر وقال بعضهم وانحر أي استقبل القبلة بنحرك وفي ذلك سر خفي يكاشف به من وراء أستار الغيب وذلك ان الله تعالى بلطيف حكمته خلق الآدمي وشرفه وكرمه وجعله محل نظره ومورد وحيه ونخبة ما في

فمخرجه من الحسد أن لا ينبغي والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو وتلك الكراهة تمنعه من البغي والايذاء فان جميع ما ورد من الاخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الافعال فكل من يحب اساءة مسلم فهو حاسد فاذا كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد والاظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والاخبار ومن حيث المعنى اذ يبعد أن يعفى عن العبد في ارادته اساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال أحدها أن تحب مساءتهم بطبعك وتكره حبك لذلك وميل قلبك اليه بعقلك وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في ازالة ذلك الميل منك وهذا معفو عنه قطعا لانه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه * الثاني أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته اما باسانك أو بجوارحك فهذا هو الحسد المحظور قطعا * الثالث وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك ومن غير انكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه وهذا في محل الخلاف والظاهر أنه لا يخلو عن اثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل

(كتاب ذم الدنيا وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها * وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدها وآياتها ووزنوا بحسناتها سيآتها فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ولا بقي مرجوها بمخوفها ولا يسلم طالبها من كسوفها ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها ثم هي قرارة عن طلابها شحيحة باقبالها واذا أقبلت لم يؤمن شرها وبالها ان أحسنت ساعة أساءت سنة وان أساءت مرة جعلتها سنة فدوائر اقبالها على التقارب دائرة وتجارة بنيها خاسرة بائرة وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة فكل مغرور بها الى الذل مصيره وكل متكبر بها الى التحسر مسيره شأنها الهرب من طالبها والطلب لهاربها ومن خدمها فاتته ومن أعرض عنها واتته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ولا ينفك سرورها عن المنغصات سلامتها تعقب السقم وشبابها يسوق الى الهرم ونعيمها لا يثمر الا الحسرة والندم فهي خداعة مكارة طيارة فرارة لا تزال تتزين لطلابها حتى اذا صاروا من أحبابها كشرت لهم عن أنيابها وشوشت عليهم مناظم أسبابها وكشفت لهم عن مكنون عجابها فاذا قتهم قواتل سمامها ورشقتهم بصوائب سهامها بينما أصحابها منها في سرور وانعام اذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد ان ملكت واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيدا كأن لم يغن بالأمس تمنى أصحابها سرورا وتعدهم غرورا حتى يأملون كثيرا ويبنون قصورا فتصبح قصورهم قبورا وجمعهم بورا وسعيهم هباء منثورا ودعاؤهم ثبورا هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا والصلاة على محمد عبده ورسوله المرسل الى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرا وعلى الظالمين نصيرا وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فان الدنيا عدو لله وعدوة لأولياء الله وعدوة لأعداء الله أما عداوتها لله فانها قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله اليها منذ خلقها وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل فانها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها وأما عداوتها لأعداء الله فانها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا اليها فاجتنوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد فهم على فراقها يتحسرون ومن مكايدها

(كتاب ذم الدنيا)

أرضه وسمائه روحانيا وجسمانيا أرضيا سماويا منتصب القامة مرتفع الهيئة فنصفه الأعلى من حد الفؤاد مستودع أسرار السموات ونصفه الأسفل مستودع أسرار الأرض فمحل نفسه ومركزها النصف الاسفل ومحل روحه الروحاني والقلب النصف الاعلى فجواذب الروح مع جواذب النفس يتطاردان ويتحاربان وباعتبار تطاردهما وتغالبهما تكون لمة الملك ولمة الشيطان ووقت الصلاة يكثر التطارد لوجود التجاذب بين الايمان والطبع فيكاشف المصلي الذي صار قلبه سماويا متردد ابين الفناء والبقاء لجواذب النفس متصاعدة من مركزها ولجوارح وتصرفها وحركتها

يستغيثون ولا يغاثون بل يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون واذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بد أولا من معرفة حقيقة الدنيا وماهي وما الحكمة في خلقها مع عداوتها وما مدخل غرورها وشرورها فان من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه ونحن نذكر ذم الدنيا وأمثالها وحقيقتها وتفصيل معانيها وأصناف الاشغال المتعلقة بها ووجه الحاجة الى أصولها وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها ان شاء الله تعالى وهو المعين على ما يرتضيه

(بيان ذم الدنيا)

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم الى الآخرة بل هو مقصود الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا الا لذلك فلا حاجة الى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها وانما نورد بعض الأخبار الواردة فيها فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) مر على شاة ميتة فقال أترون هذه الشاة هينة على أهلها فقالوا من هوانها ألقوها قال والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء وقال صلى الله عليه وسلم (٢) الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ما كان لله منها وقال أبو موسى الأشعري (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقال صلى الله عليه وسلم (٥) حب الدنيا رأس كل خطيئة (٦) وقال زيد بن أرقم كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتي بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته قال ثم مسح عينيه فقالوا يا خليفة رسول الله ما أبكاك قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيأ ولم أر معه أحدا فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك قال هذه الدنيا مثلت لي فقلت لها اليك عني ثم رجعت فقالت انك ان أفلت مني لم يفلت مني من بعدك وقال صلى الله عليه وسلم (٧) يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور وروى (٨) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة فقال هلموا الى الدنيا وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت فقال هذه الدنيا وهذه اشارة الى أن زينة الدنيا ستحاق مثل تلك الخرق وأن الأجسام التي ترى بها ستصير عظاما بالية وقال صلى الله عليه وسلم (٩) ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ان بني

(١) حديث مر على شاة ميتة فقال أترون هذه الشاة هينة على صاحبها الحديث ابن ماجه والحاكم وصححا اسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذي وقال حسن صحيح ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ولمسلم نحوه من حديث جابر (٢) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد الا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم (٤) حديث أبي موسى الأشعري من أحب دنياه أضر بآخرته الحديث أحمد والبزار والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه (٥) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الايمان من طريقه من رواية الحسن مرسلا (٦) حديث زيد بن أرقم كنا مع أبي بكر فدعا بشراب فأتي بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى الحديث وفيه كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيأ الحديث البزار بسند ضعيف نحوه والحاكم وصحح اسناده وابن أبي الدنيا والبيهقي من طريقه بلفظه (٧) حديث يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور ابن أبي الدنيا من حديث ابي جرير مرسلا (٨) حديث انه وقف على مزبلة فقال هلموا الى الدنيا الحديث ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الايمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مرسلا وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه وهو مدلس (٩) حديث ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون الحديث الترمذي

مع معاني الباطن ارتباط وموازنة فبوضع اليمنى على الشمال حصر النفس ومنع من صعود جواذبها وأثر ذلك يظهر بدفع الوسوسة وزوال حديث النفس في الصلاة ثم اذا استولت جواذب الروح وتملكت من الفرق الى القدم عند كمال الانس وتحقق قرة العين واستيلاء سلطان المشاهدة تصير النفس مقهورة ذليلة ويستنير مركزها بنور الروح وتنقطع حينئذ جواذب الحس وعلى قدر استنارة مركز النفس يزول كل العبادة ويستغني حينئذ عن مقاومة النفس ومنع جواذبها بوضع اليمين على الشمال فيسبل حينئذ ولعل لذلك والله أعلم

اسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت لهم وهوا فى الحلية والنساء والطيب والثياب وقال عيسى عليه السلام لا تتخذوا الدينار با فتتخذكم عبيدا اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه فان صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة وقال عليه أفضل الصلاة والسلام يا معشر الحواريين انى قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدى فان من خبث الدنيا أن عصى الله فيها وان من خبث الدنيا ان الآخرة لا تدرك الا بتركها الا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا وربّ شهوة ساعة أورثت أهلها حزنا طويلا وقال أيضا بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء فاما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فانهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة وقال أيضا الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطالبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه وطالب الدنيا تطالبه الآخرة حتى يجىء الموت فيأخذ بعنقه وقال موسى بن يسار (١) قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض اليه من الدنيا وانه منذ خلقها لم ينظر اليها ورى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر فى موكبه والطير تظله والجن والانس عن يمينه وشماله قال فمر بعابد من بنى اسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما قال فسمع سليمان وقال لتسبيحة فى صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود فان ما أعطى ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت وقال صلى الله عليه وسلم (٣) الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا يقين له وقال صلى الله عليه وسلم (٤) من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شئ وألزم الله قلبه أربع خصال همّا لا ينقطع عنه أبدا وشغلا لا يتفرغ منه أبدا وفقرا لا يبلغ غناه أبدا وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا وقال أبو هريرة (٥) قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها فقلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدى وأتى بى واديا من أودية المدينة فاذا مزبلة فيها رؤس أناس وعذرات وخرق وعظام ثم قال يا أبا هريرة هذه الرؤس كانت تحرص حرصكم وتأمل كاملكم ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم هى صائرة رمادا وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتعاموها وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا يتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا * ويروى أن الله عز وجل لما أهبط آدم الى الأرض قال له ابن للخراب ولد للفناء وقال داود بن هلال مكتوب فى صحف ابراهيم عليه السلام يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم انى قذفت فى قلوبهم بغضك والصدود عنك وما خلقت خلقا أهون على منك كل شأنك صغير والى الفناء يصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى

وابن ماجه من حديث أبى سعيد دون قوله ان بنى اسرائيل الخ والشطر الأول متفق عليه ورواه ابن أبى الدنيا من حديث الحسن مرسلا بالزيادة التى فى آخره (١) حديث موسى بن يسار ان الله جل ثناؤه لم يخلق خلقا أبغض اليه من الدنيا وانه منذ خلقها لم ينظر اليها ابن أبى الدنيا من هذا الوجه بلاغا والبيهقى فى الشعب من طريقه وهو مرسل (٢) حديث ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى الحديث مسلم من حديث عبد الله بن الشخير (٣) حديث الدنيا دار من لا دار له الحديث أحمد من حديث عائشة مقتصرا على هذا وعلى قوله ولها يجمع من لا عقل له دون بقيته وزاد ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه ومال من لا مال له واسناده جيد (٤) حديث من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شئ وألزم الله قلبه أربع خصال الحديث الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى ذر دون قوله وألزم الله قلبه الخ وكذلك رواه ابن أبى الدنيا من حديث أنس باسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف (٥) حديث أبى هريرة ألا أريك الدنيا جميعا بما فيها قلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدى وأتى بى واديا من أودية المدينة فاذا مزبلة الحديث لم أجد له أصلا

ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه صلى مسبلا وهو مذهب مالك رحمه الله ثم يقرأ وجهت وجهى الآية وهذا التوجه انقاء لوجه قلبه والذى قبل الصلاة لوجه قالبه ثم يقول سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك اللهم أنت الملك لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعا انه لا يغفر الذنوب الا أنت واهدنى لاحسن الأخلاق فانه لا يهدى لأحسنها الا أنت واصرف عنى سيئها فانه لا يصرف عنى سيئها الا أنت لبيك وسعديك فالخير كله بيديك تباركت وتعاليت

لاحد ولا يدوم لك أحد وان بخل بك صاحبك وشح عليك طوبى للابرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة طوبى لهم ماهم عندى من الجزاء اذا وفدوا الى من قبورهم الا النور يسعى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم مايرجون من رحمتى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لم ينظر اليها وتقول يوم القيامة يارب اجعلنى لأدنى أوليائك اليوم نصيبا فيقول اسكتى يالاشئ انى لم أرضك لهم فى الدنيا أأرضاك لهم اليوم وروى فى أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج السفل ولم يكن ذلك مجعولا فى شئ من أطعمة الجنة الا فى هذه الشجرة فلذلك نهيا عن أكلها قال فجعل يدور فى الجنة فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه فقال له قل له أى شئ تريد قال آدم أريد أن أضع مافى بطنى من الأذى فقيل للملك قل له فى أى مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السرر أم على الانهار أم تحت ظلال الاشجار هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك اهبط الى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم الى النار قالوا يارسول الله مصلين قال نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل فاذا عرض لهم شئ من الدنيا وثبوا عليه وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه (٣) المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه فان الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة والذى نفسى بيده مابعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار وقال عيسى عليه السلام لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار فى اناء واحد وروى ان جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام يا أطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الدنيا فقال كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر وقيل لعيسى عليه السلام لو اتخذت بيتا يكنك قال يكفينا خلقان من كان قبلنا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٤) احذروا الدنيا فانها أسحر من هاروت وماروت وعن الحسن قال (٥) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا ألا انه من رغب فى الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ومن زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية ألا انه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك الا بالقتل والتجبر ولا الغنى الا بالفخر والبخل ولا المحبة الا باتباع الهوى ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة وصبر على الذل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك الا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقا وروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوما فجعل يطلب شيأ يلجأ اليه فوقعت عينه على خيمة من بعيد فأتاها فاذا فيها امرأة فخاد عنها فاذا هو بكهف فى جبل فأتاه فاذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال الهى جعلت لكل شئ مأوى ولم تجعل لى مأوى فأوحى الله تعالى اليه مأواك فى مستقر رحمتى لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدى ولاطعمن فى عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ولآمرن مناديا ينادى أين

(١) حديث الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر اليها الحديث تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسلا ولم أجد باقيه (٢) حديث ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم الى النار الحديث أبو نعيم فى الحلية من حديث سالم مولى أبى حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمى من حديث أنس وهو ضعيف أيضا (٣) حديث المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى الحديث البيهقى فى الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وفيه انقطاع (٤) حديث احذروا الدنيا فانها أسحر من هاروت وماروت ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه من رواية أبى الدرداء الرهاوى مرسلا وقال البيهقى ان بعضهم قال عن أبى الدرداء عن رجل من الصحابة قال الذهبى لا يدرى من أبو الدرداء قال وهذا منكر لا أصل له (٥) حديث الحسن هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى الحديث ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه هكذا

أستغفرك وأتوب اليك ويطرق رأسه فى قيامه ويكون نظره الى موضع السجود ويكمل القيام بانتصاب القامة وترع يسير الانطواء عن الركبتين والخواصر ومعاطف البدن ويقف كأنه ناظر بجميع جسده الى الارض فهذا من خشوع سائر الاجزاء ويتكون الجسد بتكون القلب من الخشوع ويراوح بين القدمين بمقدار أربع أصابع فان ضم الكعبين هو الصفد المنهى عنه ولا يرفع احدى الرجلين فانه الصفن المنهى عنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفن والصفد واذا كان الصفن منهيا عنه ففى زيادة الاعتماد على احدى الرجلين دون الاخرى

الزهاد فى الدنيا زوراعرس الزاهد فى الدنيا عيسى بن مريم وقال عيسى بن مريم عليه السلام ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها ومافيها وتغره ويأمنها ويثق بها وتخذله وويل للمغترين كيف أرتهم مايكرهون وفارقهم مايحبون وجاءهم مايوعدون وويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه وقيل أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ياموسى مالك ولدار الظالمين انها ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك فبئست الدار هى الا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هى ياموسى انى مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) بعث أباعبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال أظنكم سمعتم أن أباعبيدة قدم بشئ قالوا أجل يارسول الله قال فابشروا وأملوا مايسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ان أكثر ما أخاف عليكم مايخرج الله لكم من بركات الارض فقيل مابركات الارض قال زهرة الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم (٣) لاتشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا فتهى عن ذكرها فضلا عن اصابة عينها وقال عمار بن سعيد مر عيسى عليه السلام بقرية فاذا أهلها موتى فى الافنية والطرق فقال يامعشر الحواريين ان هؤلاء ماتوا عن سخطة ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا فقالوا يارو ح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم فسأل الله تعالى فاوحى اليه اذا كان الليل فنادهم يجيبوك فلما كان الليل أشرف على نشز ثم نادى ياأهل القرية فاجابه مجيب لبيك يارو ح الله فقال ماحالكم وماقصتكم قال بتنا فى عافية وأصبحنا فى الهاوية قال وكيف ذاك قال بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصى قال وكيف كان حبكم للدنيا قال حب الصبى لأمه اذا أقبلت فرحنا بها واذا أدبرت حزنا وبكينا عليها قال فما بال أصحابك لم يجيبونى قال لأنهم ملجمون بلجم من نار بايدى ملائكة غلاظ شداد قال فكيف أجبتنى أنت من بينهم قال لأنى كنت فيهم ولم أكن منهم فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم فأنا معلق على شفير جهنم لاأدرى أنجو منها أم أكب فيها فقال المسيح للحواريين لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة وقال أنس (٤) كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لاتسبق فجاء اعرابى بناقة له فسبقها فشق ذلك على المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم انه حق على الله ان لايرفع شيأ من الدنيا الا وضعه وقال عيسى عليه السلام من الذى يبنى على موج البحر دارا تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارا وقيل لعيسى عليه السلام علمنا علما واحدا يحبنا الله عليه قال ابغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى وقال أبو الدرداء (٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة ثم قال أبو الدرداء من قبل نفسه لو تعلمون ما أعلم لخرجتم الى الصعدات تجأرون وتبكون على

مرسلا وفيه ابراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم (١) حديث بعث أباعبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدوم أبى عبيدة متفق عليه من حديث عمرو بن عوف البدرى (٢) حديث أبى سعيد ان أكثر ما أخاف عليكم مايخرج الله لكم من بركات الارض الحديث متفق عليه (٣) حديث لاتشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا البيهقى فى الشعب من طريق ابن أبى الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثى مرسلا (٤) حديث أنس كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لاتسبق الحديث وفيه حق على الله أن لايرفع شيأ من الدنيا الا وضعه البخارى (٥) حديث أبى الدرداء لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة الطبرانى دون قوله ولهانت الخ وزاد وخرجتم الى الصعدات الحديث وزاد الترمذى وابن ماجه من حديث أبى ذر وما تلذذتم بالنساء على الفرش وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفى أفراد البخارى من حديث عائشة

معنى من الصفن فالاولى رعاية الاعتدال فى الاعتماد على الرجلين جميعا ويكره اشتمال الصماء وهو أن يخرج يده من قبل صدره ويجتنب السدل وهو أن يرخى أطراف الثوب الى الارض ففيه معنى الخيلاء وقيل هو الذى يلتف بالثوب ويجعل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك وفى معناه مااذا جعل يديه داخل القميص ويجتنب الكف وهو أن يرفع ثيابه بيديه عند السجود ويكره الاختصار وهو أن يجعل يده على الخاصرة ويكره الصلب وهو وضع اليدين جميعا على الخصرين وتجافى العضدين فاذا وقف فى الصلاة على الهيئة التى ذكرناها اجتنبا

أنفسكم ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا راجع اليها الا مالا بد لكم منه ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الامل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم وصرتم كالذين لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التى لا تدع هواها مخافة مما فى عاقبته مالكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم اخوان على دين الله ما فرق بين أهوائكم الا خبث سرائركم ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم مالكم تناصحون فى أمر الدنيا ولا تناصحون فى أمر الآخرة ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته ما هذا الا من قلة الايمان فى قلوبكم لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموركم فان قلتم حب العاجلة غالب فانا نراكم تدعون العاجل من الدنيا للآجل منها تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف فى طلب أمر لعلكم لا تدركونه فبئس القوم أنتم ما حققتم ايمانكم بما يعرف به الايمان البالغ فيكم فان كنتم فى شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأتونا نبين لكم ولنر يكم من النور ما تطمئن اليه قلوبكم والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم انكم تستبينون صواب الرأى فى دنياكم وتأخذون بالحزم فى أموركم مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم حتى يتبين ذلك فى وجوهكم ويظهر على ألسنتكم وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآتم وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يتبين ذلك فى وجوههم ولا يتغير حالكم انى لارى الله قد تبرأ منكم باقى بعضكم بالسرور وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله فاصطحبتم على الغل ونبتت مراعيكم على الدمن وتصافيتم على رفض الاجل ولوددت ان الله تعالى أراحنى منكم وألحقنى بمن أحب رؤيته ولو كان حيا لم يصابركم فان كان فيكم خير فقد أسمعتكم وان تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا وبالله أستعين على نفسى وعليكم وقال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ارضوا بدنىء الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدنىء الدين مع سلامة الدنيا وفى معناه قيل

أرى رجالا بادنى الدين قد قنعوا * وما أراهم رضوا فى العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام يا طالب الدنيا التبر تركك الدنيا أبر وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (١) لتأتينكم بعدى دنيا تأكل ايمانكم كما تأكل النار الحطب وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام يا موسى لا تركنن الى حب الدنيا فلن تأتينى بكبيرة هى أشد منها ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكى ورجع وهو يبكى فقال موسى يا رب عبدك يبكى من مخافتك فقال يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا (الآثار) قال على رضى الله عنه من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ولا عن النار مهربا أولها من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرفضها وعرف الآخرة فطلبها وقال الحسن رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها الى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافا وقال أيضا رحمه الله من نافسك فى دينك فنافسه ومن نافسك فى دنياك فالقها فى نحره وقال لقمان عليه السلام لابنه يا بنى ان الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل وحشوها الايمان بالله تعالى وشراعها التوكل على الله عز وجل لعلك تنجو وما أراك ناجيا وقال الفضيل طالت فكرتى فى هذه الآية انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا وقال بعض الحكماء انك لن تصبح فى شئ من الدنيا الا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا الا عشاء ليلة وغداء يوم فلا تهلك فى أكلة وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة وان رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار وقيل لبعض الرهبان كيف ترى الدهر قال يخلق الابدان ويجدد الآمال ويقرب المنية ويبعد الامنية قيل فما حال أهله قال من ظفر به تعب ومن فاته نصب وفى ذلك قيل

(١) حديث لتأتينكم بعدى دنيا تأكل ايمانكم كما تأكل النار الحطب لم أجد له أصلا

للمكاره فقد تم القيام وكمله فيقرأ آية التوجه والدعاء كما ذكرنا ثم يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويقولها فى كل ركعة أمام القراءة ويقرأ الفاتحة وما بعدها بحضور قلب وجمع هم ومواطأة بين القلب واللسان بحظ وافر من الوصلة والدنو والهيبة والخشوع والخشية والتعظيم والوقار والمشاهدة والمناجاة وان قرأ بين الفاتحة وما يقرأ بعدها اذا كان اماما فى السكتة الثانية اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ونقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الابيض من الدنس اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد فحسن وان قالها فى

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره * فسوف لعمري عن قليل يلومها
اذا أدبرت كانت على المرء حسرة * وان أقبلت كانت كثيرا همومها

وقال بعض الحكماء كانت الدنيا ولم أكن فيها وتذهب الدنيا ولا أكون فيها فلا أسكن اليها فان عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل اما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية وقال بعضهم من عيب الدنيا انها لا تعطى أحدا ما يستحق لكنها اما أن تزيد واما أن تنقص وقال سفيان أما ترى النعم كانها مغضوب عليها قد وضعت فى غير أهلها وقال أبو سليمان الدارانى من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيأ الا أرادا كثر ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيأ الا أرادا كثر وليس لهذا غاية ولا لهذا غاية وقال رجل لابى حازم أشكو اليك حب الدنيا وليست لى بدار فقال انظر ما آتاكه الله عز وجل منها فلا تأخذه الا من حله ولا تضعه الا فى حقه ولا يضرك حب الدنيا وانما قال هذا لانه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها وقال يحيى بن معاذ الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيأ فيجيء فى طلبه فيأخذك وقال الفضيل لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان ينبغى لنا ان نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى وقال أبو حازم ايا كم والدنيا فانه بلغنى انه يوقف العبد يوم القيامة اذا كان معظما للدنيا فيقال هذا اعظم ما حقره الله وقال ابن مسعود ما أصبح أحد من الناس الا وهو ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مردودة وفى ذلك قيل

وما المال والاهلون الا ودائع * ولابد يوما أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها فذكروا الدنيا فاقبلوا على ذمها فقالت اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ألا من أحب شيأ أكثر من ذكره وقيل لابراهيم بن أدهم كيف أنت فقال

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه * وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضا فى ذلك

أرى طالب الدنيا وان طال عمره * ونال من الدنيا سرورا وأنعما
كبان بنى بنيانه فأقامه * فلما استوى ما قد بناه تهدما

وقيل أيضا فى ذلك

هب الدنيا تساق اليك عفوا * أليس مصير ذاك الى انتقال
وما دنياك الا مثل فىء * أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه يا بنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا وقال مطرف ابن الشخير لا تنظر الى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ولكن انظر الى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم وقال ابن عباس ان الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء جزء للمؤمن وجزء للمنافق وجزء للكافر فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع وقال بعضهم الدنيا جيفة فمن أراد منها شيأ فليصبر على معاشرة الكلاب وفى ذلك قيل

يا خاطب الدنيا الى نفسها * تنح عن خطبتها تسلم
ان التى تخطب غدارة * قريبة العرس من المأتم

وقال أبو الدرداء من هوان الدنيا على الله انه لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها وفى ذلك قيل

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو فى ثياب صديق

وقيل أيضا

يا راقد الليل مسرورا باوله * ان الحوادث قد يطرقن اسحارا
أفنى القرون التى كانت منعمة * كر الجديدين اقبالا وادبارا
كم قد أباد صروف الدهر من ملك * قد كان فى الدهر نفاعا وضرارا
يا من يعانق دنيا لا بقاء لها * يمسى ويصبح فى دنياه سفارا

السكتة الأولى

فحسن روى عن النبى عليه السلام أنه قال ذلك وان كان منفردا يقولها قبل القراءة ويعلم العبدان تلاوته نطق اللسان ومعناها نطق القلب وكل مخاطب لشخص يتكلم بلسانه ولسانه يعبر عما فى قلبه ولو أمكن المتكلم افهام من يكلمه من غير لسان فعل ولكن حيث تعذر الافهام الا بالكلام جعل اللسان ترجمانا فاذا قال باللسان من غير مواطأة القلب فما اللسان ترجمانا ولا القارئ متكلما قاصدا اسماع الله حاجته ولا مستمعا الى الله فاهما عنه سبحانه ما يخاطبه وما عنده غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد ما يقول فينبغى أن يكون

هلا تركت من الدنيا معانقة * حتى تعانق فى الفردوس أبكارا
ان كنت تبغى جنان الخلد تسكنها * فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أتت ابليس جنوده فقالوا قد بعث نبى وأخرجت أمة قال يحبون الدنيا قالوا نعم قال لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالى أن لا يعبدوا الاوثان وانما أغدو عليهم وأروح بثلاث أخذ المال من غير حقه وانفاقه فى غير حقه وامساكه عن غير حقه والشر كله من هذا نبع وقال رجل لعلى كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا قال وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ومن أمن فيها ندم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها افتتن فى حلالها الحساب وفى حرامها العقاب ومتشابهها العتاب وقيل له ذلك مرة أخرى فقال أطول أم أقصر فقيل قصر فقال حلالها حساب وحرامها عذاب وقال مالك بن دينار اتقوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء يعنى الدنيا وقال أبو سليمان الدارانى اذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمها فاذا كانت الدنيا فى القلب لم تزاحمها الآخرة لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ماذكره سيار بن الحكم أصح اذ قال الدنيا والآخرة يجتمعان فى القلب فأيهما غاب كان الآخر تبعا له وقال مالك بن دينار بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك وهذا اقتباس مما قاله على كرم الله وجهه حيث قال الدنيا والآخرة ضرتان فبقدر ما ترضى احداهما تسخط الأخرى وقال الحسن والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى تمشون عليه ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ذهبت الى ذا أو ذهبت الى ذا وقال رجل للحسن ما تقول فى رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ويصل منه أيحسن له أن يتعيش فيه يعنى يتنعم فقال لا لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها الا الكفاف ويقدم ذلك ليوم فقره وقال الفضيل لو ان الدنيا بحذافيرها عرضت على حلالا لا أحاسب عليها فى الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة اذا مر بها ان تصيب ثوبه وقيل لما قدم عمر رضى الله عنه الشام فاستقبلها أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل فسلم وسأله ثم أتى منزله فلم ير فيه الا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر رضى الله عنه لو اتخذت متاعا فقال يا أمير المؤمنين ان هذا يبلغنا المقيل وقال سفيان خذ من الدنيا البدن منك وخذ من الآخرة لقلبك وقال الحسن والله لقد عبدت بنو اسرائيل الاصنام بعد عبادتهم الرحمن بجهلهم للدنيا وقال وهب قرأت فى بعض الكتب الدنيا غنيمة الاكياس وغفلة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا وقال لقمان لابنه يابنى انك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة فانت الى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها وقال سعيد بن مسعود اذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذى يلعب بوجهه وهو لا يشعر وقال عمرو بن العاص على المنبر (١) والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم والله ما مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث الا والذى عليه أكثر من الذى له وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا من قال ذا قاله من خلقها ومن هو أعلم بها اياكم وما شغل من الدنيا فان الدنيا كثيرة الأشغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل الا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب وقال أيضا مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب وحرامها عذاب ان أخذه من حله حوسب به وان أخذه من حرام عذب به ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله يفرح بمصيبته فى دينه ويجزع من مصيبته فى دنياه وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز سلام عليك أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات فأجابه عمر سلام عليك كأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل وقال الفضيل بن عياض الدخول فى الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد وقال بعضهم عجبا لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرح وعجبا لمن يعرف

(١) حديث عمرو بن العاص والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم الحديث الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه

متكلما مناجيا أو مسمعا واعيا فأقل مراتب أهل الخصوص فى الصلاة الجمع بين القلب واللسان فى التلاوة ووراء ذلك أحوال للخواص يطول شرحها (قال بعضهم) ما دخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها غير ما أقول * وقيل لعامر بن عبد الله هل تجد فى الصلاة شيأ من أمور الدنيا فقال لأن تختلف على الاسنة أحب الى من أن أجد فى الصلاة ما تجدون * وقيل لبعضهم هل تحدث نفسك فى الصلاة بشئ من أمور الدنيا فقال لا فى الصلاة ولا فى غيرها ومن الناس من اذا أقبل على الله فى صلاته يتحقق بمعنى الانابة لان الله تعالى قدم الانابة وقال منيبين اليه

أن النار حق كيف يضحك وعجبا لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن اليها وعجبا لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب وقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها فقال سنيات بلاء وسنيات رخاء يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولود ويهلك هالك فلولا المولود لباد الخلق ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها فقال له سل ماشئت قال عمر مضى فتردده أو أجل حضر فتدفعه قال لا أملك ذلك قال لا حاجة لى اليك وقال داود الطائى رحمه الله يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك وانما بلغته بانقضاء أجلك ثم سوّفت بعملك كان منفعته لغيرك وقال بشر من سأل الله الدنيا فانما يسأله طول الوقوف بين يديه وقال أبو حازم ما فى الدنيا شئ يسرك الا وقد أصق الله اليه شيأ يسوءك وقال الحسن لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا الا بحسرات ثلاث انه لم يشبع مما جمع ولم يدرك ما أمل ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه وقيل لبعض العباد قد نلت الغنى فقال انما نال الغنى من عتق من رق الدنيا وقال أبو سليمان لا يصبر عن شهوات الدنيا الا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة وقال مالك بن دينار اصطلحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضا ولا ينهى بعضنا بعضا ولا يدعنا الله على هذا فليت شعرى أى عذاب الله ينزل علينا وقال أبو حازم يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة وقال الحسن أهينوا الدنيا فوالله ما هى لاحد باهنأ منها لمن أهانها وقال أيضا اذا أراد الله بعبد خيرا أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك فاذا نفد أعاد عليه واذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطا وكان بعضهم يقول فى دعائه يا ممسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنك أمسك الدنيا عنى وقال محمد بن المنكدر رأيت لو أن رجلا صام الدهر لا يفطر وقام الليل لا ينام وتصدق بماله وجاهد فى سبيل الله واجتنب محارم الله غير انه يؤتى به يوم القيامة فيقال ان هذا عظم فى عينه ما صغره الله وصغر فى عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا وقال أبو حازم اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة فاما مؤنة الآخرة فانك لا تجد عليها أعوانا وأما مؤنة الدنيا فانك لا تضرب بيدك الى شئ منها الا وجدت فاجرا قد سبقك اليه وقال أبو هريرة الدنيا موقوفة بين السماء والارض كالشن البالى تنادى ربها منذ خلقها الى يوم يفنيها يا رب يا رب لم تبغضنى فيقول لها اسكتى يا لاشئ وقال عبد الله بن المبارك حب الدنيا والذنوب فى القلب قد احتوشته فمتى يصل الخير اليه وقال وهب بن منبه من فرح قلبه بشئ من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ومن غلب علمه هواه فهو الغالب وقيل لبشر مات فلان فقال جمع الدنيا وذهب الى الآخرة ضيع نفسه قيل له انه كان يفعل ويفعل وذكروا أبوابا من البر فقال وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا وقال بعضهم الدنيا تبغض الينا نفسها ونحن نحبها فكيف لو تحببت الينا وقيل لحكيم الدنيا لمن هى قال لمن تركها فقيل الآخرة لمن هى قال لمن طلبها وقال حكيم الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها وقال الجنيد كان الشافعى رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق فى الدنيا وعظ أخاله فى الله وخوفه بالله فقال يا أخى ان الدنيا حمص منزلة ودار مذلة عمرانها الى الخراب صائر وساكنها الى القبور زائر شملها على الفرقة موقوف وغناها الى الفقر مصروف الا كثار فيها اعسار والاعسار فيها يسار فافزع الى الله وارض برزق الله لا تتسلف من دار فنائك الى دار بقائك فان عيشك فى زائل وجدار مائل أكثر من عملك وأقصر من أملك وقال ابراهيم بن أدهم لرجل أدرهم فى المنام أحب اليك أم دينار فى اليقظة فقال دينار فى اليقظة فقال كذبت لأن الذى تحبه فى الدنيا كانك تحبه فى المنام والذى لا تحبه فى الآخرة كانك لا تحبه فى اليقظة وعن اسمعيل بن عياش قال كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون اليك عنا يا خنزيرة فلو وجدوا لها اسما أقبح من هذا لسموها به وقال كعب لتحبين اليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله العقلاء ثلاثة من ترك الدنيا قبل ان تتركه وبنى قبره قبل أن يدخله وأرضى خالقه قبل أن يلقاه وقال أيضا الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله فكيف الوقوع فيها وقال بكر بن عبد الله من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كمطفئ النار بالتبن وقال بندار اذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون فى الزهد

واثقوه وأقيموا الصلاة فينيب الى الله تعالى ويتقى الله تعالى بالتبرى عما سواه ويقيم الصلاة بصدر منشرح بالاسلام وقلب منفسح بنور الانعام فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه ويسمعها بقلبه فتقع الكلمة فى فضاء قلب ليس فيه غيرها فيتملكها القلب بحسن الفهم ولذيذ نعمة الاصغاء ويتشرب بها بحلاوة الاستماع وكمال الوعى ويدرك لطيف معناها وشريف فحواها معانى تلطف عن تفصيل الذكر وتتشكل بخفى الفكر ويصير الظاهر من معانى القرآن قوت النفس فالنفس المطمئنة متعوضة بمعانى القرآن عن

فاعلم انهم فى سخرة الشيطان وقال أيضا من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها يعنى الحرص حتى يصير رمادا ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به ومن أقبل على الله عز وجل أحرقته نيران التوحيد فصار جوهر الاحد لقيمته وقال على كرم الله وجهه انما الدنيا ستة أشياء مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب ومنكوح ومشموم فاشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب وأشرف المشروبات الماء ويستوى فيه البر والفاجر وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال وأشرف المنكوحات المرأة وهى مبال فى مبال وان المرأة لتزين أحسن شئ منها ويراد أقبح شئ منها وأشرف المشموم المسك وهو دم

(بيان المواعظ فى ذم الدنيا وصفتها)

قال بعضهم يا أيها الناس اعملوا على مهل وكونوا من الله على وجل ولا تغتروا بالأمل ونسيان الاجل ولا تركنوا الى الدنيا فانها غدارة خداعة قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بامانيها وتزينت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلية العيون اليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة فكم من عاشق لها قتلت ومطمئن اليها خذلت فانظروا اليها بعين الحقيقة فانها دار كثير بوائقها وذمها خالقها جديدها يبلى ومكلكها يفنى وعزيزها يذل وكثيرها يقل ودهاها يموت وخيرها يفوت فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل أو مدنف ثقيل فهل على الدواء من دليل أو هل الى الطبيب من سبيل فتدعى لك الاطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى وما له أحصى ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم اخوانه ولا يعرف جيرانه وعرق عند ذلك جبينك وتتابع أنينك وثبت يقينك وطمحت جفونك وصدقت ظنونك وتلجلج لسانك وبكى اخوانك وقيل لك هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق وختم على لسانك فلا ينطلق ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الاعضاء ثم عرج بها الى السماء فاجتمع عند ذلك اخوانك وأحضرت أكفانك فغسلوك وكفنوك فانقطع عوادك واستراح حسادك وانصرف أهلك الى مالك وبقيت مرتهنا باعمالك * وقال بعضهم لبعض الملوك ان أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه أو تأتى سلطانه فتهدمه من القواعد أو تدب الى جسمه فتسقمه أو تفجعه بشئ هو ضنين به بين أحبابه فالدنيا أحق بالذم هى الآخذة ما تعطى الراجعة فيما تهب يناهى تضحك صاحبها اذ أضحكت منه غيره ويناهى تبكى له اذ أبكت عليه ويناهى تبسط كفها بالاعطاء اذ بسطتها بالاسترداد فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتعفره بالتراب غدا سواء عليها ذهاب ماذهب وبقاء ما بقى تجد فى الباقى من الذاهب خلفا وترضى بكل من كل بدلا * وكتب الحسن البصرى الى عمر بن عبد العزيز أما بعد فان الدنيا دار ظعن ليست بدار اقامة وانما أنزل آدم عليه السلام من الجنة اليها عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فان الزاد منها تركها والغنى منها فقرها لها فى كل حين قتيل تذل من أعزها وتفقر من جمعها هى كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه فكن فيها كالمداوى جراحه يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة الخداعة التى قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وحلت بآمالها وسوفت بخطابها فاصبحت كالعروس المجلية العيون اليها ناظرة والقلوب عليها واله والنفوس لها عاشقة وهى لأزواجها كلهم قالية فلا الباقى بالماضى معتبر ولا الآخر بالاول مزدجر ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مدكر فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد فشغل فيها به حتى زلت به قدمه فعظمت ندامته وكثرت حسرته واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الفوت بغصته وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد فاحذرها يا أمير المؤمنين وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فان صاحب الدنيا كلما اطمأن منها الى سرور أشخصته الى مكروه السار فى أهلها غار والنافع فيها غدا رضار وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها الى فناء فسرورها

حديثها لكونها معانى ظاهرة متوجهة الى عالم الحكمة والشهادة تقرب مناسبتها من النفس المكونة لاقامة رسم الحكمة ومعانى القرآن الباطنة التى يكاشف بها من الملكوت قوت القلب وتخلص الروح المقدس الى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم وبمثل هذه المطالعة يكون كمال الاستغراق فى لجج الاشواق كما نقل عن مسلم ابن يسار انه صلى ذات يوم فى مسجد البصرة فوقعت اسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق وهو واقف فى الصلاة لم يعلم بذلك ثم اذا أراد الركوع يفصل بين القراءة والركوع ثم يركع منطوى

مشوب بالأحزان لا يرجع منها ماولى وأدبر ولا يدرى ماهو آت فينتظر أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد وابن آدم فيها على خطر ان عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على حذر فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ فالها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر اليها منذ خلقها (١) ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها الا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها اذ كره أن يخالف على الله أمره أو يحب ما أبغضه خالقه أو يرفع ماوضع مليكه فزواها عن الصالحين اختبارا وبسطها لاعدائه اغترارا فيظن المغرور بها المقتدر عليها انه أكرم بها ونسى ماصنع الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم (٢) حين شد الحجر على بطنه ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه جل وعز انه قال لموسى عليه السلام اذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته واذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وان شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فانه كان يقول ادامى الجوع وشعارى الخوف ولباسى الصوف وصلائى فى الشتاء مشارق الشمس وسراجى القمر ودابتى رجلاى وطعامى وفاكهتى ما أنبتت الارض أيت وليس لى شئ وأصبح وليس لى شئ وليس على الارض أحد أغنى منى وقال وهب بن منبه لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام الى فرعون قال لا يروعنكما لباسه الذى لبس من الدنيا فان ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس الا باذنى ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فانما هى زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين فلو شئت ان أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما فعلت ولكنى أرغب بكما عن ذلك فازوى ذلك عنكما وكذلك أفعل بأوليائى انى لاذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة وانى لأجنبهم ملاذها كما يجنب الراعى الشفيق ابله عن منازل الغرة وماذاك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا انما يزين لى أوليائى بالذل والخوف والخضوع والتقوى تنبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم فهى ثيابهم التى يلبسون ودثارهم الذى يظهرون وضميرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التى بها يفوزون ورجاؤهم الذى اياه يأملون ومجدهم الذى به يفخرون وسيماهم التى بها يعرفون فاذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل لهم قلبك ولسانك واعلم انه من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ثم أنا الثائر له يوم القيامة * وخطب على كرم الله وجهه يوما خطبة فقال فيها اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها فلا تغرنكم الحياة الدنيا فانها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة وكل مافيها الى زوال وهى بين أهلها دول وسجال لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها بينا أهلها منها فى رخاء وسرور اذ هم منها فى بلاء وغرور أحوال مختلفة وتارات منصرفة العيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم وانما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها موفور واعلموا عباد الله انكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارا وأشد منكم بطشا وأعمر ديارا وأبعد آثارا فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة الصخور والاحجار المسندة فى القبور اللاطئة الملحدة فحلها مغترب

(١) حديث الحسن وكتب به الى عمر بن عبد العزيز عرضت أى الدنيا على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها الحديث ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورواه أحمد والطبرانى متصلا من حديث أبى مويهبة فى أثناء حديث فيه انى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة الحديث وسنده صحيح وللترمذى من حديث أبى امامة عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا الحديث (٢) حديث الحسن مرسلا فى شده الحجر على بطنه ابن أبى الدنيا أيضا هكذا وللبخارى من حديث أنس رفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين وقال حديث غريب

القامة والنصف الاسفل بحاله فى القيام من غير انطواء الركبتين ويجافى مرفقيه عن جنبيه ويمد عنقه مع ظهره ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الاصابع (روى) مصعب ابن سعد قال صليت الى جنب سعد بن مالك فجعلت يدى بين ركبتى وبين فخذى وطبقتهما فضرب يدى وقال اضرب بكفيك على ركبتيك وقال يابنى انا كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نضرب بالاكف على الركب ويقول سبحان ربى العظيم ثلاثا وهو أدنى الكمال والكمال أن يقول احدى عشرة وما يأتى به من العدد يكون بعد التمكن من

وساكنها

وسا كنها مغترب بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين لا يستانسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والاخوان على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودو الدار وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكله البلا وأكلتهم الجنادل والثرى وأصبحوا بعد الحياة أمواتا وبعد نضارة العيش رفاتا فجع بهم الاحباب وسكنوا تحت التراب وظعنوا فليس لهم اياب هيهات هيهات كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون فكان قد صرتم الى ما صاروا اليه من البلا والوحدة في دار المثوى وارتهنتم في ذلك المضجع وضمكم ذلك المستودع فكيف بكم لو عاينتم الامور وبعثرت القبور وحصل ما في الصدور وأوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل فطارت القلوب لاشفاقها من سالف الذنوب وهتكت عنكم الحجب والاستار وظهرت منكم العيوب والاسرار هنالك تجزى كل نفس بما كسبت ان الله عز وجل يقول ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى وقال تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه الآية جعلنا الله وايا كم عاملين بكتابه متبعين لاوليائه حتى يحلنا وايا كم دار المقامة من فضله انه حميد مجيد * وقال بعض الحكماء الايام سهام والناس أغراض والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الايام بك وسرعة الليالي في بدنك لو كشف لك عما أحدثت الايام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت مر الساعة بك ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار وبالسلو عن غوائل الدنيا وجدطع لذاتها وانها لامر من العلقم اذا مجنها الحكيم وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها وما تأتي به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ اللهم أرشدنا الى الصواب وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال الدنيا وقتك الذي يرجع اليك فيه طرفك لان ما مضى عنك فقد فاتك ادراكه وما لم يأت فلا علم لك به والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته وتطويه ساعاته وأحداثه تتوالى على الانسان بالتغيير والنقصان والدهر موكل بتشتيت الجماعات وانحرام الشمل وتنقل الدول والامل طويل والعمر قصير والى الله تصير الامور وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال يا أيها الناس انكم خلقتم لامر ان كنتم تصدقون به فانكم حمقى وان كنتم تكذبون به فانكم هلكى انما خلقتم للابد ولكنكم من دار الى دار تنقلون عباد الله انكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص ومن شرابكم شرق لا تصفو لكم نعمة تسرون بها الا بفراق أخرى تكرهون فراقها فاعملوا لما أنتم صائرون اليه وخالدون فيه ثم غلبه البكاء ونزل وقال على كرم الله وجهه في خطبته أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التارك لكم وان كنت لا تحبون تركها المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها فانما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقا وكأنهم قد قطعوه وأفضوا الى علم فكأنهم بلغوه وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي الى الغاية وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فانه الى انقطاع ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فانه الى زوال عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس بمغفول عنه وقال محمد بن الحسين لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والادب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا وانه لم يرضها لاوليائه وانها عنده حقيرة قليلة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها وحذر أصحابه من فتنتها أكلوا منها قصدا وقدموا فضلا وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلهي ولبسوا من الثياب ما ستر العورة وأكلوا من الطعام أدناه مما سد الجوعة ونظروا الى الدنيا بعين انها فانية والى الآخرة انها باقية فتزودوا من الدنيا كزاد الراكب فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة ونظروا الى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون اليها باعينهم فارتحلوا اليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون اليها بابدانهم تعبوا قليلا وتنعموا طويلا كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم

﴿بيان صفة الدنيا بالامثلة﴾

اعلم ان الدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء تنظر اليها فتراها ساكنة مستقرة وهي سائرة سيرا عنيفا ومرتحلة ارتحالا سريعا ولكن الناظر اليها قد لا يحس بحركتها فيظن أن اليها وانما يحس عند

الزكوع ومن غير أن يمزج آخر ذلك بالرفع ويرفع يديه للركوع والرفع من الركوع ويكون في ركوعه ناظرا نحو قدميه فهو أقرب الى الخشوع من النظر الى موضع السجود وانما ينظر الى موضع سجوده في قيامه ويقول بعد التسبيح اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري وعظمي ومخي وعصبي ويكون قلبه في الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والانخبات ثم يرفع رأسه قائلا سمع الله لمن حمده عالما بقلبه ما يقول فاذا استوى قائما يحمد ويقول ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ما شئت

انقضائها ومثالها الظل فانه متحرك ساكن متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر لا تدرك حركته بالبصر الظاهر بل بالبصيرة الباطنة ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال

أحلام نوم أو كظل زائل * ان اللبيب بمثلها لا يخدع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يمثل كثيرا ويقول

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها * ان اغترارا بظل زائل حمق

وقيل ان هذا من قوله ويقال ان أعرابيا نزل بقوم فقدموا اليه طعاما فأكل ثم قام الى ظل خيمة لهم فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فاصابته الشمس فانتبه فقام وهو يقول

الا انما الدنيا كظل ثنية * ولا بد يوما أن ظلك زائل

وكذلك قيل وان امرأ دنياه أكبر همه * لمستمسك منها بحبل غرور

(مثال آخر للدنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثم الافلاس منها بعد افلاتها) تشبه خيالات المنام وأضغاث الاحلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون وقال يونس بن عبيد ما شبهت نفسي في الدنيا الا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فبينما هو كذلك اذ انتبه فكذلك الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فاذا ليس بايديهم شئ مما كانوا اليه وفرحوا به وقيل لبعض الحكماء أي شئ أشبه بالدنيا قال أحلام النائم * (مثال آخر للدنيا في عداوتها لاهلها واهلاكها لبنيها) اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولا والتوصل الى الاهلاك آخرا وهي كامرأة تتزين للخطاب حتى اذا نكحتهم ذبحتهم وقد روى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة فقال لها كم تزوجت قالت لا أحصيهم قال فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك قالت بل كلهم قتلت فقال عيسى عليه السلام بؤسا لازواجك الباقين كيف لا يعتبرون بازواجك الماضين كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر (مثال آخر للدنيا في مخالفة ظاهرها لباطنها) اعلم ان الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها فاذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها وتجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها وقال العلاء بن زياد رأيت في المنام عجوزا كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون اليها فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم اليها واقبالهم عليها فقلت لها ويلك من أنت قالت أوما تعرفني قلت لا أدري من أنت قالت أنا الدنيا قلت أعوذ بالله منك شر قالت ان أحببت ان تعاد من شري فابغض الدرهم وقال أبو بكر بن عياش رأيت الدنيا في النوم عجوزا مشوهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون فلما كانت بحذائي أقبلت علي فقالت لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء ثم بكى أبو بكر وقال رأيت هذا قبل ان أقدم الى بغداد وقال الفضيل بن عياض قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلائق فيقال لهم أتعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال هذه الدنيا التي تناحرتم عليها بها تقاطعتم الارحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادي أي رب أين أتباعي وأشياعي فيقول الله عز وجل ألحقوا بها أتباعها وأشياعها وقال الفضيل بلغني ان رجلا عرج بروحه فاذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلي والثياب واذا لا يمر بها أحد الا جرحته فاذا هي أدبرت كانت أحسن شئ رآه الناس واذا هي أقبلت كانت أقبح شئ رآه الناس عجوز شمطاء زرقاء عمشاء قال فقلت أعوذ بالله منك قالت لا والله لا يعيذك الله مني حتى تبغض الدرهم قال فقلت من أنت قالت أنا الدنيا * (مثال آخر للدنيا وعبور الانسان بها) * اعلم ان الاحوال ثلاثة حالة لم تكن فيها شيأ وهي ما قبل وجودك الى الازل وحالة لا تكون فيها مشاهدا للدنيا وهي ما بعد موتك الى الابد وحالة متوسطة بين الابد والازل

(١) حديث الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون لم أجد له أصلا

من شئ بعد ثم يقول أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد فان أطال في النافلة القيام بعد الرفع من الركوع فليقل لربي الحمد مكررا ذلك مهما شاء فاما في الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحد زيادة بينة ويقنع في الرفع من الركوع بتمام الاعتدال باقامة الصلب (ورد) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا ينظر الله الى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود ثم يهوي ساجدا ويكون في هويه مكبرا مستيقظا حاضرا خاشعا عالما بما يهوي فيه وإليه وله فمن

وهى أيام حياتك فى الدنيا فانظر الى مقدار طولها وانسبه الى طرفى الازل والابد حتى تعلم انه أقل من منزل قصير فى سفر بعيد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) مالى وللدنيا وانما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب سار فى يوم صائف فرفعت له شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن اليها ولم يبال كيف انقضت أيامه فى ضر وضيق أو فى سعة ورفاهية بل لا يبنى لبنة على لبنة تو فى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة (٣) ورأى بعض الصحابة يبنى بيتا من جص فقال أرى الامر أعجل من هذا وأنكر ذلك والى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وهو مثال واضح فان الحياة الدنيا معبر الى الآخرة والمهد هو الميل الاول على رأس القنطرة واللحد هو الميل الآخر وبينهما مسافة محدودة فمن الناس من قطع نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثها ومنهم من قطع ثلثيها ومنهم من لم يبق له الا خطوة واحدة وهو غافل عنها وكيفما كان فلا بد له من العبور والبناء على القنطرة وتزيينها باصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان

*(مثال آخر للدنيا فى اين موردها وخشونة مصدرها) اعلم ان أوائل الدنيا تبدو هينة لينة يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها وهيهات فان الخوض فى الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد وقد كتب على رضى الله عنه الى سلمان الفارسى يمثلها فقال مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها فاعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام *(مثال آخر للدنيا فى تعذر الخلاص من تبعاتها بعد الخوض فيها) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) انما مثل صاحب الدنيا كالماشى فى الماء هل يستطيع الذى يمشى فى الماء ان لا تبتل قدماه وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا انهم يخوضون فى نعيم الدنيا بابدانهم وقلوبهم منها مطهرة وعلائقها عن بواطنهم منقطعة وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا انما هم فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها فكما أن المشى على الماء يقتضى بللا لا محالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضى علاقة وظامة فى القلب بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة قال عيسى عليه السلام بحق أقول لكم كما ينظر المريض الى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا وبحق أقول لكم ان الدابة اذا لم تركب وتمتهن تصعب ويتغير خلقها كذلك القلوب اذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ وبحق أقول لكم ان الزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٥) انما بقى من الدنيا بلاء وفتنة وانما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء اذا طاب أعلاه طاب أسفله واذا خبث أعلاه خبث أسفله *(مثال آخر لما بقى من الدنيا وفلته بالاضافة الى ماسبق)* قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله الى آخره فبقى

(١) حديث مالى وللدنيا انما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب الحديث الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس (٢) حديث ما وضع لبنة على لبنة الحديث ابن حبان فى الثقات وللطبرانى فى الاوسط من حديث عائشة بسند ضعيف من سأل عنى أو سره أن ينظر الى فلينظر الى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة الحديث (٣) حديث رأى بعض أصحابه يبنى بيتا من جص فقال أرى الامر أعجل من هذا أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح (٤) حديث انما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشى فى الماء الحديث ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من رواية الحسن قال بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره ووصله البيهقى فى الشعب وفى الزهد من رواية الحسن عن أنس (٥) حديث انما بقى من الدنيا بلاء وفتنة الحديث ابن ماجه من حديث معاوية فرقه فى موضعين ورجاله ثقات (٦) حديث مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله الى آخره أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب وأبو نعيم فى الحلية

الساجدين من يكاشف أنه يهوى الى تخوم الارضين متغيبا فى أجزاء الملك لامتلاء قلبه من الحياء واستشعار روحه عظيم الكبرياء كما ورد أن جبرائيل عليه السلام تستر بخافية من جناحه حياء من الله تعالى ومن الساجدين من يكاشف أنه يطوى بسجوده بساط الكون والمكان ويسرح قلبه فى فضاء الكشف والعيان فتهوى دون هويه أطباق السموات وتمحى لقوة شهوده تماثيل الكائنات ويسجد على طرف رداء العظمة وذاك أقصى ما ينتهى اليه طائر الهمة البشرية وتفنى بالوصول اليه القوى الانسانية ويتفاوت الانبياء والاولياء فى مراتب

متعلقا بخيط فى آخره فيوشك ذلك الخيط ان ينقطع * (مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها الى بعض حتى الهلاك) * قال عيسى عليه السلام مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله (مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها) اعلم ان شهوات الدنيا فى القلب لذيذة كشهوات الاطعمة فى المعدة وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للاطعمة اللذيذة اذا بلغت فى المعدة غايتها وكما ان الطعام كلما كان ألذ طعما وأكثر دسما وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتنا فكذلك كل شهوة فى القلب هى أشهى وألذ وأقوى فتنتها وكراهتها والتأذى بها عند الموت أشد بل هى فى الدنيا مشاهدة فان من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده فتكون مصيبته وألمه وتفجعه فى كل ما فقد بقدر لذته به وحبه له وحرصه عليه فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر ولا معنى للموت الا فقد ما فى الدنيا وقد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم (١) قال للضحاك بن سفيان الكلابى ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقرح ثم تشرب عليه اللبن والماء قال بلى قال فالام يصير قال الى ما قد علمت يا رسول الله قال فان الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير اليه طعام ابن آدم وقال أبى بن كعب (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الدنيا ضربت مثلا لابن آدم فانظر الى ما يخرج من ابن آدم وان قرح وملحه الام يصير وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ان الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا وان قرحه وملحه وقال الحسن قد رأيتهم يطيبونه بالافاويه والطيب ثم يرمون به حيث رأيتم وقد قال الله عز وجل فلينظر الانسان الى طعامه قال ابن عباس الى رجيعه وقال رجل لابن عمر انى أريد أن أسألك وأستحيى قال فلا تستحى وأسأل قال اذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر الى ذلك منه قال نعم ان الملك يقول له انظر الى ما بخلت به انظر الى ما ذا صار وكان بشر بن كعب يقول انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم الى مزبلة فيقول انظروا الى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم * (مثال آخر فى نسبة الدنيا الى الآخرة) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) ما الدنيا فى الآخرة الا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر أحدكم بم يرجع اليه (مثال آخر للدنيا وأهلها فى اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها) اعلم ان أهل الدنيا مثلهم فى غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم الى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج الى قضاء الحاجة وحذرهم المقام وخوفهم مرور السفينة واستعجالها فتفرقوا فى نواحى الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر الى السفينة فصادف المكان خاليا فاختار أوسع الاماكن وألينها وأوفقها لمراده وبعضهم توقف فى الجزيرة ينظر الى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها الملتفة ونغمات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة وصار يلحظ من بريتها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الالوان والاشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها وعجائب صورها ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع اليها فلم يصادف الا مكانا ضيقا حرجا فاستقر فيه وبعضهم أكب على تلك الاصداف والاحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه باهمالها فاستصحب منها جملة فلم يجد فى السفينة الا مكانا ضيقا وزاده ما حمله من الحجارة ضيقا وصار ثقيلا عليه وو بال الافندم على أخذه

والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أنس بسند ضعيف (١) حديث انه قال للضحاك بن سفيان الكلابى ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقرح الحديث وفيه فان الله ضرب مثل الدنيا لما يصير اليه طعام ابن آدم أحمد والطبرانى من حديثه بنحوه وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه (٢) حديث أبى بن كعب ان الدنيا ضربت مثلا لابن آدم الحديث الطبرانى وابن حبان بلفظ ان مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلا ورواه عبد الله بن أحمد فى زياداته بلفظ جعل (٣) حديث ان الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا الحديث الشطر الاول منه غريب والشطر الاخير هو الذى تقدم من حديث الضحاك بن سفيان ان الله ضرب ما يخرج من بنى آدم مثلا للدنيا (٤) حديث ما الدنيا فى الآخرة الا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع اليه مسلم من حديث المستورد بن شداد

العظمة واستشعار كنهها الكل منهم على قدره حظ من ذلك وفوق كل ذى علم عليم ومن الساجدين من يتسع وعاؤه وينتشر ضياؤه ويحظى بالصنفين ويبسط الجناحين فيتواضع بقلبه اجلالا ويرفع بروحه اكراما وافضالا فيجتمع له الانس والهيبة والحضور والغيبة والفرار والقرار والاسرار والجهار فيكون فى سجوده سابحا فى بحر شهوده لم يتخلف منه عوم السجود شعرة كما قال سيد البشر فى سجوده سجد لك سوادى وخيالى ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها الطوع للروح والقلب لما فيهما من الاهلية والكره من النفس لما فيها من

ولم يقدر على رميه ولم يجده كما الوضعه فحمله فى السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذه وليس ينفعه التأسف وبعضهم توج الغياض ونسى المركب وبعد فى متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله باكل تلك الثمار واستشمام تلك الانوار والتفرج بين تلك الاشجار وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات والنكبات ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه وغصن يجرح بدنه وشوكة تدخل فى رجله وصوت هائل يفزع منه وعوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ويمنعه عن الانصراف لو أراده فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف مثقلا بما معه ولم يجد فى المركب موضعا فبقى فى الشط حتى مات جوعا وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة فمنهم من افترسته السباع ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ومنهم من مات فى الاوحال ومنهم من نهشته الحيات فتفرقوا كالجيف المنتنة وأما من وصل الى المركب بثقل ما أخذه من الازهار والاحجار فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه فلم يلبث أن ذبلت تلك الازهار وكدت تلك الالوان والاحجار فظهر نتن رائحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها فلم يجد حيلة الا ان ألقاها فى البحر هربا منها وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته الى الوطن الا بعد ان ظهرت عليه الاسقام بتلك الروائح فبلغ سقيما مدبرا ومن رجع قريبا ما فاته الا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة ولكن لما وصل الى الوطن استراح ومن رجع أولا وجد المكان الاوسع ووصل الى الوطن سالما فهذا مثال أهل الدنيا فى اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم وما أقبح من يزعم انه بصير عاقل أن تغره أحجار الارض وهى الذهب والفضة وهشيم النبت وهى زينة الدنيا وشئ من ذلك لا يصحبه عند الموت بل يصير كلا ووبالا عليه وهو فى الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه وهذه حال الخلق كلهم الا من عصمه الله عز وجل ﴿مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف ايمانهم﴾ قال الحسن رحمه الله (١) بلغنى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه انما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى اذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقى أنفدوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهرانى المفازة ولا زاد ولا حولة فايقنوا بالهلكة فبينما هم كذلك اذ خرج عليهم رجل فى حلة تقطر رأسه فقالوا هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا الا من قريب فلما انتهى اليهم قال يا هؤلاء فقالوا يا هذا فقال علام أنتم فقالوا على ما ترى فقال أرأيتم ان هديتكم الى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون قالوا لا نعصيك شيأ قال عهودكم ومواثيقكم بالله فاعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيأ قال فاوردهم ماء رواء ورياضا خضرا فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال يا هؤلاء قالوا يا هذا قال الرحيل قالوا الى أين قال الى ماء ليس كمائكم والى رياض ليست كرياضكم فقال أكثرهم والله ما وجدنا هذا حتى ظننا انا لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا وقالت طائفة وهم أقلهم ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله أن لا تعصوه شيأ وقد صدقكم فى أول حديثه فوالله ليصدقنكم فى آخره فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم عدو فاصبحوا بين أسير وقتيل ﴿مثال آخر لتنعم الناس بالدنيا ثم تفجعهم على فراقها﴾ اعلم ان مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيأ دارا وزينها وهو يدعو الى داره على الترتيب قوما واحدا بعد واحد فدخل واحد داره فقدم اليه طبق ذهب عليه بخور وريا حين ليشمه ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه ويأخذه فجهل رسمه وظن انه قد وهب ذلك منه فتعلق به قلبه لما ظن انه له فلما استرجع منه نحر وتفجع ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب وانشراح صدر وكذلك من عرف سنة الله فى الدنيا علم انها دار ضيافة سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون

(١) حديث الحسن بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه انما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء الحديث ابن أبى الدنيا هكذا بطوله ولاحمد والبزار والطبرانى من حديث ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى النائم ملكان الحديث وفيه فقال أى أحد الملكين ان مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا الى رأس مفازة فذكر نحوه أخصر منه واسناده حسن

الاجنبية ويقول فى سجوده سبحان ربى الأعلى ثلاثا الى العشر الذى هو الكمال ويكون فى السجود مفتوح العينين لانهما يسجدان وفى الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه ويكون ناظرا نحو أرنبة أنفه فى السجود فهو أبلغ فى الخشوع للساجد ويباشر بكفيه المصلى ولا يلفهما فى الثوب ويكون رأسه بين كفيه ويداه حذو منكبيه غير متيامن ومتياسر بهما ويقول بعد التسبيح اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين

بالعوارى ولا يصرفون اليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وجوده

(بيان حقيقة الدنيا وماهيتها فى حق العبد)

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هى وما الذى ينبغى أن يجتنب منها وما الذى لا يجتنب فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هى فنقول دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك فالقريب الدانى منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت والمتراخى المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت فكل ما لك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهى الدنيا فى حقك الا أن جميع ما لك اليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام *(القسم الاول)* ما يصحبك فى الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيآن العلم والعمل فقط وأعنى بالعلم العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه والعلم بشريعة نبيه وأعنى بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله تعالى وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الاشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح فى لذته لانه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظا عاجلا فى الدنيا ولكنا اذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلا بل قلنا انه من الآخرة وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه حتى قال بعضهم ما أخاف من الموت الا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل وكان آخر يقول اللهم ارزقنى قوة الصلاة والركوع والسجود فى القبر فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو ولكنا لسنا نعنى بالدنيا المذمومة ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) حبب الى من دنياكم ثلاث النساء والطيب وقرة عينى فى الصلاة فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا وكذلك كل ما يدخل فى الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود انما يكون فى الدنيا فلذلك أضافها الى الدنيا الا أنا لسنا فى هذا الكتاب نتعرض الا للدنيا المذمومة فنقول هذه ليست من الدنيا *(القسم الثانى)* وهو المقابل له على الطرف الاقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له فى الآخرة أصلا كالتلذذ بالمعاصى كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات والضرورات الداخلة فى جملة الرفاهية والرعونات كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث والغلمان والجوارى والخيول والمواشى والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائذ الاطعمة فحظ العبد من هذا كله هى الدنيا المذمومة وفيما يعد فضولا أو فى محل الحاجة نظر طويل اذ روى عن عمر رضى الله عنه انه استعمل أبا الدرداء على حمص فاتخذ كنيفا أنفق عليه درهمين فكتب اليه عمر من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عويمر قد كان لك فى بناء فارس والروم ما تكتفى به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها فاذا أتاك كتابى هذا فقد سيرتك الى دمشق أنت وأهلك فلم يزل بها حتى مات فهذا رآه فضولا من الدنيا فتأمل فيه *(القسم الثالث)* وهو متوسط بين الطرفين كل حظ فى العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن وكل ما لا بد منه ليتأتى للانسان البقاء والصحة التى بها يتوصل الى العلم والعمل وهذا ليس من الدنيا كالقسم الاول لانه معين على القسم الاول ووسيلة اليه فهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولا للدنيا ولم يضر به من أبناء الدنيا وان كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثانى وصار من جملة الدنيا ولا يبقى مع العبد عند الموت الا ثلاث صفات صفاء القلب أعنى طهارته عن الاكدار وأنسه بذكر الله تعالى وحبه لله عز وجل وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان الا بالكف عن شهوات الدنيا والانس لا يحصل الا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه

وروى أمير المؤمنين على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده ذلك وان قال سبوح قدوس رب الملائكة والروح فمن روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده ذلك ويجافى مرفقيه عن جنبيه ويوجه أصابعه فى السجود نحو القبلة ويضم أصابع كفيه مع الابهام ولا يفرش ذراعيه على الارض ثم يرفع رأسه مكبرا ويجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى موجها بالاصابع الى القبلة ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف

(١) حديث حبب الى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرة عينى فى الصلاة النسائى والحاكم من حديث أنس دون قوله ثلاث وتقدم فى النكاح

والحب لا يحصل الا بالمعرفة ولا تحصل معرفة الله الا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت * أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهي من المنجيات اذ تكون جنة بين العبد و بين عذاب الله كما ورد في الاخبار (١) ان أعمال العبد تناضل عنه فاذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه واذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه الحديث وأما الانس والحب فهما من المسعدات وهما موصلان العبد الى لذة اللقاء والمشاهدة وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت الى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة فيصير القبر روضة من رياض الجنة وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له الا محبوب واحد وكانت العوائق تعوقه عن دوام الانس بدوام ذكره ومطالعة جماله فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلي بينه و بين محبوبه فقدم عليه مسرورا سليما من الموانع آمنا من العوائق وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب الا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه و بينه وسدت عليه طرق الحيلة في الرجوع اليه ولذلك قيل

ما حال من كان له واحد * غيب عنه ذلك الواحد

وليس الموت عدما انما هو فراق لمحاب الدنيا وقدوم على الله تعالى فاذا سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث وهي الذكر والفكر والعمل الذي يقطعه عن شهوات الدنيا و يبغض اليه ملاذها و يقطعه عنها وكل ذلك لا يمكن الا بصحة البدن وصحة البدن لا تنال الا بقوت وملبس ومسكن و يحتاج كل واحد الى أسباب فالقدر الذي لا بد منه من هذه الثلاثة اذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة وان أخذ ذلك لحظ النفس وعلى قصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها الا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم الى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة و يسمى ذلك حراما والى ما يحول بينه و بين الدرجات العلا و يعرضه لطول الحساب و يسمى ذلك حلالا والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لاجل المحاسبة أيضا عذاب (٢) فمن نوقش الحساب عذب اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حلالها حساب وحرامها عذاب وقد قال أيضا حلالها عذاب الا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام بل لو لم يكن الحساب لكان ما يفوت من الدرجات العلا في الجنة وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها لحظوظ حقيرة خسيسة لا بقاء لها هو أيضا عذاب وقس به حالك في الدنيا اذا نظرت الى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية كيف يتقطع قلبك عليها حسرات مع علمك بانها سعادات منصرمة لا بقاء لها ومنغصة بكدورات لا صفاء لها فما حالك في فوات سعادة لا يحيط الوصف بعظمتها وتنقطع الدهور دون غايتها فكل من تنعم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر الى خضرة أو شرب ماء بارد فانه ينقص من حظه في الآخرة أضعافه وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه (٤) هذا من النعيم الذي تسئل عنه أشار به الى الماء البارد والتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار وكل ذلك من نقصان الحظ ولذلك قال عمر رضي الله عنه اعزلوا عني حسابها حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بعسل فاداره في كفه ثم امتنع عن شربه فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة الا ما أعان على تقوى الله فان ذلك القدر ليس من الدنيا وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدنيا أشد حتى ان عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه اذ تمثل له ابليس وقال رغبت في الدنيا وحتى ان سليمان

(١) حديث مناضلة أعمال العبد عنه فاذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل فدفع عنه الحديث الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن المخزومي ضعفه البخاري وأبو حاتم ولا حديث أسماء بنت أبي بكر اذا دخل الانسان قبره فان كان مؤمنا أحرز به عمله الصلاة والصيام الحديث واسناده صحيح

(٢) حديث من نوقش الحساب عذب متفق من حديث عائشة (٣) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه موقوفا على علي بن أبي طالب باسناد منقطع بلفظ وحرامها النار ولم أجده مرفوعا (٤) حديث هذا من النعيم الذي تسئل عنه تقدم في الاطعمة

ضمهما
وتفريجهما
ويقول رب
اغفر لي وارحمني
واهدني واجبرني
وعافني واعف
عني ولا يطيل
هذه الجلسة في
الفريضة أما في
النافلة فلا بأس
مهما أطال قائلا
رب اغفر وارحم
مكررا ذلك ثم
يسجد السجدة
الثانية مكبرا
ويكره الاقعاء في
العقود وهو ههنا
أن يضع أليتيه
على عقبيه ثم اذا
أراد النهوض الى
الركعة الثانية
يجلس جلسة
خفيفة للاستراحة
ويفعل في بقية
الركعات هكذا
ثم يتشهد وفي
الصلاة سر المعراج
وهو معراج
القلوب والتشهد
مقر الوصول
بعد قطع مسافات
الهيآت على
تدريج طبقات
السموات

عليه السلام فى ملكه كان يطعم الناس لذائذ الاطعمة وهو يأكل خبز الشعير فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهانا وشدة فان الصبر عن لذائذ الاطعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد ولهذا روى أن الله تعالى (١) زوى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما (٢) وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الانبياء والاولياء ثم الامثل فالامثل كل ذلك نظرا لهم وامتنانا عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ويلزمه ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحبا له لا بخلا عليه وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا فان قلت فما الذى هو لله فاقول الاشياء ثلاثة أقسام منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذى يعبر عنه بالمعاصى والمحظورات وأنواع التنعمات فى المباحات وهى الدنيا المحضة المذمومة فهى الدنيا صورة ومعنى ومنها ما صورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة الفكر والذكر والكف عن الشهوات فان هذه الثلاثة اذا جرت سرا ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهى لله وليست من الدنيا وان كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق باظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والاشتهار بالزهد فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وان كان يظن بصورته أنه لله تعالى ومنها ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله وذلك كالاكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده فان كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا وان كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وان كانت صورته صورة الدنيا قال صلى الله عليه وسلم (٣) من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافا عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد فاذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لا حاجة اليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى واليه الاشارة بقوله تعالى ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى ومجامع الهوى خمسة أمور وهى ما جمعه الله تعالى فى قوله انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد والاعيان التى تحصل منها هذه الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا وقدر ضرورة القوت وما لا بد منه من مسكن وملبس هو لله ان قصد به وجه الله والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة وطرفان وواسطة طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر فان الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه وينبغى أن يحذر منه وبينهما وسائط متشابهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه والحزم فى الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة ما أمكن اقتداء بالانبياء والاولياء عليهم السلام اذ كانوا يردون أنفسهم الى حد الضرورة حتى ان أويسا القرنى كان يظن أهله انه مجنون لشدة تضييقه على نفسه فبنوا له بيتا على باب دارهم فكان يأتى عليهم السنة والسنتان والثلاث لا يرون له وجها وكان يخرج أول الاذان ويأتى الى منزله بعد العشاء الآخرة وكان طعامه أن يلتقط النوى وكلما أصاب حشفة خبأها لافطاره وان لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى بثمنه ما يقوته وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الاكسية فيغسلها فى الفرات ويلفق بعضها الى بعض ثم يلبسها فكان ذلك

والتحيات سلام على رب البريات فليذهن لما يقول ويتأدب مع من يقول ويدر كيف يقول ويسلم على النبى صلى الله عليه وسلم وليمثله بين عينى قلبه ويسلم على عباد الله الصالحين فلا يبقى عبد فى السماء ولا فى الارض من عباد الله الا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصية الفطرية ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى مقبوضة الاصابع الا المسبحة ويرفع المسبحة فى الشهادة فى الا الله لا فى كلمة النفى ولا يرفعها منتصبة بل مائلة برأسها الى الفخذ منطوية فهذه هيئة خشوع المسبحة ودليل سراية خشوع القلب اليها ويدعو فى آخر صلاته لنفسه

(١) حديث زوى الله الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما محمد بن خفيف فى شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال قلت يا رسول الله عجبا لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك الحديث وهو من طريق ابن اسحاق معنعنا وللترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله الحديث قال الترمذى حسن صحيح (٢) حديث كان يشد الحجر على بطنه من الجوع تقدم (٣) حديث من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان الحديث أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

لباسه وكان ربما مر الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون فيقول لهم يا اخوتاه ان كنتم ولا بد أن ترمونى فارمونى بالحجارة صغارا فانى أخاف أن تدموا عقبى فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء فهكذا كانت سيرته ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال (١) انى لاجد نفس الرحمن من جانب اليمن اشارة اليه رحمه الله ولما ولى الخلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال أيها الناس من كان منكم من العراق فليقم قال فقاموا فقال اجلسوا الا من كان من أهل الكوفة فجلسوا فقال اجلسوا الا من كان من مراد فجلسوا فقال اجلسوا الا من كان من قرن فجلسوا كلهم الا رجلا واحدا فقال له عمر أقرنى أنت فقال نعم فقال أتعرف أويس بن عامر القرنى فوصفه له فقال نعم وماذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين والله ما فينا أحق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه فبكى عمر رضى الله عنه ثم قال ما قلت ما قلت الا لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يقول يدخل فى شفاعته مثل ربيعة ومضر فقال هرم بن حيان لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لى هم الا أن أطلب أويسا القرنى وأسأل عنه حتى سقطت عليه جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه قال فعرفته بالنعت الذى نعت لى فاذا رجل لحيم شديد الادمة محلوق الرأس كث اللحية متغير جدا كريه الوجه متهيب المنظر قال فسلمت عليه فرد على السلام ونظر الى فقلت حياك الله من رجل ومددت يدى لاصافحه فأبى أن يصافحنى فقلت رحمك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحمك الله ثم خنقتنى العبرة من حبى اياه ورقتى عليه اذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى فقال وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان كيف أنت يا أخى ومن دلك على قال قلت الله فقال لا اله الا الله سبحان الله ان كان وعدر بنا لمفعولا قال فعجبت حين عرفنى ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رآنى فقلت من أين عرفت اسمى واسم أبى وما رأيتك قبل اليوم قال نبأنى العليم الخبير وعرفت روحى روحك حين كلمت نفسى نفسك ان الارواح لها أنفس كما نفس الاجساد وان المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ويتصابون بروح الله وان لم يلتقوا يتعارفون ويتكلمون وان نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل قال فلت حدثنى رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث أسمعه منك قال انى لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لى معه صحبة بابى وأمى رسول الله ولكن رأيت رجالا قد صحبوه وبلغنى من حديثه كما بلغك ولست أحب أن أفتح على نفسى هذا الباب أن أكون محدثا أو مفتيا أو قاضيا فى نفسى شغل عن الناس يا هرم بن حيان فقلت يا أخى اقرأ على آية من القرآن أسمعها منك وادع لى بدعوات وأوصنى بوصية أحفظها عنك فانى أحبك فى الله حبا شديدا قال فقام وأخذ بيدى على شاطئ الفرات ثم قال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم بكى ثم قال قال ربى والحق قول ربى وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه ثم قرأ وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون حتى انتهى الى قوله انه هو العزيز الرحيم فشهق شهقة ظننت انه قد غشى عليه ثم قال يا ابن حيان مات أبوك حيان وبوشك ان تموت فاما الى جنة واما الى نار ومات أبوك آدم ومات أمك حواء ومات نوح ومات ابراهيم خليل الرحمن ومات موسى نجى الرحمن ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم رسول رب العالمين ومات أبو بكر خليفة المسلمين ومات عمر بن الخطاب أخى وصفيى ثم قال يا عمراه يا عمراه قال فقلت رحمك الله ان عمر لم يمت قال فقد نعاه الى ربى ونعى الى نفسى ثم قال أنا وأنت فى الموتى كأنه قد كان ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم دعا بدعوات خفيات ثم قال هذه وصيتى اياك يا هرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت الى نفسى ونفسك عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين

(١) حديث انى لاجد نفس الرحمن من جانب اليمن أشار به الى أويس القرنى تقدم فى قواعد العقائد لم أجد له أصلا

(٢) حديث عمر يدخل الجنة فى شفاعته مثل ربيعة ومضر يرد أويسا وروياه فى جزء ابن السماك من حديث أبى أمامة يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر واسناده حسن وليس فيه ذكر لأويس بل فى آخره فكان المشيخة يرون ان ذلك الرجل عثمان بن عفان

وللمؤمنين وان كان اماما ينبغى أن لا ينفرد بالدعاء بل يدعو لنفسه ولمن وراءه فان الامام المتيقظ فى الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراءه أصحاب الحوائج يسأل لهم ويعرض حاجاتهم والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا وبهذا وصفهم الله تعالى فى كلامه بقوله سبحانه كأنهم بنيان مرصوص وفى وصف هذه الامة فى الكتب السالفة صفهم فى صلاتهم كصفهم فى قتالهم (حدثنا) بذلك شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى املاء قال أنا أبو عبد الرحمن محمد ابن عيسى بن شعيب المالينى قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن بن

ما بقيت وانذر قومك اذا رجعت اليهم وانصح للامة جميعا واياك ان تفارق الجماعة فيدشبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل النار يوم القيامة ادع لى ولنفسك ثم قال اللهم ان هذا يزعم أنه يحبنى فيك وزارنى من أجلك فعرفنى وجهه فى الجنة وأدخله على فى دارك دار السلام واحفظه مادام فى الدنيا حيثما كان وضم عليه ضيعته وأرضه من الدنيا باليسير وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا واجعله مما أعطيته من نعمائك من الشاكرين واجزه عنى خير الجزاء ثم قال استودعك الله يا هرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبنى فانى أكره الشهرة والوحدة أحب الى انى كثيرا لهم شديد الغم مع هؤلاء الناس مادمت حيا فلا تسأل عنى ولا تطلبنى واعلم انك منى على بال وان لم أرك ولم ترنى فاذكرنى وادع لى فانى سأذكرك وأدعو لك ان شاء الله انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا فرصت أن أمشى معه ساعة فابى على وفارقته فبكى وأبكانى وجعلت أنظر فى قفاه حتى دخل بعض السكك ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحدا يخبرنى عنه بشئ رحمه الله وغفر له فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا وقد عرفت مما سبق فى بيان الدنيا ومن سيرة الانبياء والاولياء أن حد الدنيا كل ما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء الا ما كان لله عز وجل من ذلك وضد الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لاجل قوة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا ويتبين هذا بمثال وهو ان الحاج اذا حلف انه فى طريق الحج لا يشتغل بغير الحج بل يتعرد له ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل ما لابد للحج منه لم يحنث فى يمينه ولم يكن مشغولا بغير الحج فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا نعم اذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشئ من هذه الاسباب كان منحرفا عن الآخرة ويخشى على قلبه القسوة قال الطنافسى كنت على باب بنى شيبة فى المسجد الحرام سبعة أيام طاويا فسمعت فى الليلة الثامنة منادیا وأنا بين اليقظة والنوم ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج اليه أعمى الله عين قلبه فهذا بيان حقيقة الدنيا فى حقك فاعلم ذلك ترشد ان شاء الله تعالى

(بيان حقيقة الدنيا فى نفسها وأشغالها التى استغرقت هم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم)

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللانسان فيها حظ وله فى اصلاحها شغل فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك أما الاعيان الموجودة التى الدنيا عبارة عنها فهى الارض وما عليها قال الله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا فالارض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ويجمع ما على الارض ثلاثة أقسام المعادن والنبات والحيوان أما النبات فيطلبه الآدمى للاقتيات والتداوى وأما المعادن فيطلبها للآلات والاوانى كالنحاس والرصاص وللنقد كالذهب والفضة ولغير ذلك من المقاصد وأما الحيوان فينقسم الى الانسان والبهائم أما البهائم فيطلب منها لحومها للمآكل وظهورها للمركب والزينة وأما الانسان فقد يطلب الآدمى أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان أو ليتمتع بهم كالجوارى والنسوان ويطلب قلوب الناس ليملكها بان يغرس فيها التعظيم والاكرام وهو الذى يعبر عنه بالجاه اذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين فهذه هى الاعيان التى يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى فى قوله زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين وهذا من الانس والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ والياقيت وغيرها والخيل المسومة والانعام وهى البهائم والحيوانات والحرث وهو النبات والزرع فهذه هى أعيان الدنيا الا أن لها مع العبد علاقتين علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه اليها حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا ويدخل فى هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر وهذه هى الدنيا الباطنة وأما الظاهرة فهى الاعيان التى ذكرناها * العلاقة الثانية مع البدن وهو اشتغاله

محمد المظفر الواعظ قال أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسى قال أنا أبو عمران عيسى بن عمر ابن العباس السمرقندى قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال أنا مجاهد بن موسى قال ثنا معن هو ابن عيسى انه سأل كعب الاحبار كيف تجد نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة قال نجد محمد بن عبد الله يولد بمكة ويهاجر لطيبة ويكون ملكه بالشام وليس بفحاش ولا سخاب فى الاسواق ولا يكافئ بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر أمته الحامدون يحمدون الله فى كل سراء ويكبرون الله

باصلاح هذه الاعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها والخلق انما نسوا أنفسهم وما آبهم ومنقلبهم بالدنيا لطائفتين العلاقتين علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الاعيان التي سميناها دنيا لم تخلق الا لعلف الدابة التي يسير بها الى الله تعالى وأعني بالدابة البدن فانه لا يبقى الا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج الا بعلف وماء وجلال ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب ويحمل اليها أنواع الحشيش ويبرد لها الماء بالثلج حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل الا القدر الذي يقوى به على المشي فيتعهده وقلبه الى الكعبة والحج وانما يلتفت الى الناقة بقدر الضرورة فكذلك البصير في سفر الآخرة لا يشتغل بتعهد البدن الا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء الا لضرورة ولا فرق بين ادخال الطعام في البطن وبين اخراجه من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن ومن همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها وأكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن فان القوت ضروري وأمر المسكن والملبس أهون ولو عرفوا سبب الحاجة الى هذه الامور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا وانما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم واتصل بعضها ببعض وتداعت الى غير نهاية محدودة فتاهوا في كثرة الاشغال ونسوا مقاصدها ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا وكيفية حدوث الحاجة اليها وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تتضح لك أشغال الدنيا كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنستهم عاقبة أمورهم فنقول الاشغال الدنيوية هي الحرف والصناعات والاعمال التي ترى الخلق منكبين عليها وسبب كثرة الاشغال هو أن الانسان مضطر الى ثلاث القوت والمسكن والملبس فالقوت للغذاء والبقاء والملبس لدفع الحر والبرد والمسكن لدفع الحر والبرد ولدفع أسباب الهلاك عن الاهل والمال ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحا بحيث يستغني عن صنعة الانسان فيه نعم خلق ذلك للبهائم فان النبات يغذي الحيوان من غير طبخ والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغني عن البناء ويقنع بالصحراء ولباسها شعورها وجلودها فتستغني عن اللباس والانسان ليس كذلك فحدثت الحاجة لذلك الى خمس صناعات هي أصول الصناعات وأوائل الاشغال الدنيوية وهي الفلاحة والرعاية والاقتناص والحياكة والبناء أما البناء فللمسكن والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة فللملبس والفلاحة للمطعم والرعاية للمواشي والخيل أيضا للمطعم والمركب والاقتناص نعني به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب فالفلاح يحصل النباتات والراعي يحفظ الحيوانات ويستنتجها والمقتنص يحصل ما نبت وتنتج بنفسه من غير صنع آدمي وكذلك يأخذ من معادن الارض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي ونعني بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات واشغال عدة ثم هذه الصناعات تفتقر الى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناص والآلات انما تؤخذ اما من النبات وهو الاخشاب أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما أو من جلود الحيوانات فحدثت الحاجة الى ثلاثة أنواع أخر من الصناعات النجارة والحدادة والخرز وهؤلاء هم عمال الآلات ونعني بالنجار كل عامل في الخشب كيفما كان وبالحداد كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والابرى وغيرهما وغرضنا ذكر الاجناس فاما آحاد الحرف فكثيرة وأما الخراز فنعني به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها فهذه أمهات الصناعات ثم ان الانسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر الى الاجتماع مع غيره من جنسه وذلك لسببين أحدهما حاجته الى النسل لبقاء جنس الانسان ولا يكون ذلك الا باجتماع الذكر والانثى وعشرتهما والثاني التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد فان الاجتماع يفضي الى الولد لا محالة والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت ثم ليس يكفيه الاجتماع مع الاهل والولد في المنزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل

على كل نجد
يوضؤن أطرافهم
ويأتزرون في
أوساطهم يصفون
في صلاتهم كما
يصفون في قتالهم
دويهم في
مساجدهم
كدوي النحل
يسمع مناديهم
في جو السماء
فالامام في الصلاة
مقدمة الصف في
محاربة الشيطان
فهو أولى المصلين
بالخشوع
والاتيان بوظائف
الادب ظاهرا
وباطنا والمصلون
المتيقظون كلما
اجتمعت ظواهرهم
تجتمع بواطنهم
وتتناصر وتتعاضد
وتسري من
البعض الى البعض
أنوار وبركات بل
جميع المسلمين
المصلين في أقطار
الارض بينهم
تعاضد وتناصر
بحسب القلوب
ونسب الاسلام
ورابطة الايمان
بل يعمدهم الله

واحد بصناعة فان الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج الى آلاتها وتحتاج الآلة الى حداد ونجار ويحتاج الطعام الى طحان وخباز وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر الى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة فلذلك امتنع عيش الانسان وحده وحدثت الحاجة الى الاجتماع ثم لو اجتمعوا فى صحراء مكشوفة لتأذوا بالحر والبرد والمطر واللصوص فافتقروا الى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبما معه من الآلات والاثاث والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل فافتقر أهل المنازل الى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل فحدثت البلاد لهذه الضرورة ثم مهما اجتمع الناس فى المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات اذ تحدث رياسة وولاية للزوج على الزوجة وولاية للابوين على الولد لانه ضعيف يحتاج الى قوام به ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى الى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم اذ ليس لها قوة المخاصمة وان ظلمت فاما المرأة فتخاصم الزوج والولد يخاصم الابوين هذا فى المنزل وأما أهل البلد أيضا فيتعاملون فى الحاجات ويتنازعون فيها ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعى والاراضى والمياه وهى لا تفى باغراضهم فيتنازعون لا محالة ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولو ترك ضائعا لهلك ولو وكل نفقده الى الجميع لتخاذلوا ولوخص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى فمنها صناعة المساحة التى بها تعرف مقادير الارض لتمكن القسمة بينهم بالعدل ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة ومنها الحاجة الى الفقه وهو معرفة القانون الذى ينبغى أن يضبط به الخلق ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى فى المعاملات وشروطها فهذه أمور سياسة لا بد منها ولا يشتغل بها الا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والهداية واذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ويحتاجون الى المعاش ويحتاج أهل البلد اليهم اذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الاعداء مثلا تعطلت الصناعات ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستضر الناس فمست الحاجة الى أن يصرف الى معايشهم وأرزاقهم الاموال الضائعة التى لا مالك لها ان كانت أو تصرف الغنائم اليهم ان كانت العداوة مع الكفار فان كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح وان أرادوا التوسع فمست الحاجة لا محالة الى أن يمدهم أهل البلد باموالهم ليمدوهم بالحراسة فتحدث الحاجة الى الخراج ثم يتولد بسبب الحاجة الى الخراج الحاجة لصناعات أخر اذ يحتاج الى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الاموال وهم العمال والى من يستوفى منهم بالرفق وهم الجباة والمستخرجون والى من يجمع عنده ليحفظه الى وقت التفرقة وهم الخزان والى من يفرق عليهم بالعدل وهو الفارض للعساكر وهذه الاعمال لو تولاها عدد لا تجمعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة الى ملك يدبرهم وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصا ويختار لكل واحد ما يليق به ويراعى النصفة فى أخذ الخراج وإعطائه واستعمال الجند فى الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعيين جهات الحرب ونصب الامير والقائد على كل طائفة منهم الى غير ذلك من صناعات الملك فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذى يراقبهم بالعين الكاتبة ويدبرهم الحاجة الى الكتاب والخزان والحساب والجباة والعمال ثم هؤلاء أيضا يحتاجون الى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف فتحدث الحاجة الى مال الفرع مع مال الاصل وهو المسمى فرع الخراج وعند هذا يكون الناس فى الصناعات ثلاث طوائف الفلاحون والرعاة والمحترفون والثانية الجندية الحماة بالسيوف والثالثة المترددون بين الطائفتين فى الاخذ والعطاء وهم العمال والجباة وأمثالهم فانظر كيف ابتدأ الامر من حاجة القوت والملبس والمسكن والى ماذا انتهى وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب الا وينفتح بسببه أبواب أخر وهكذا تتناهى الى غير حد محصور وكأنها هاوية لا نهاية

لعمقها

تعالى بالملائكة الكرام كما أمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المسومين فحاجتهم الى محاربة الشيطان أمس من حاجتهم الى محاربة الكفار ولهذا كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فتتداركهم الاملاك بل بانفاسهم الصادقة تماسك الافلاك فاذا أراد الخروج من الصلاة يسلم على يمينه وينوى مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على الملائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمنى الجن ويجعل خده مينا لمن على يمينه بالواء عنقه ويفصل بين هذا السلام والسلام عن

لعمقها من وقع فى مهواة منها سقط منها الى أخرى وهكذا على التوالى فهذه هى الحرف والصناعات الا أنها لا تتم الا بالاموال والآلات والمال عبارة عن أعيان الارض وما عليها مما ينتفع به وأعلاها الاغذية ثم الامكنة التى يأوى الانسان اليها وهى الدور ثم الامكنة التى يسعى فيها للتعيش كالحوانيت والاسواق والمزارع ثم الكسوة ثم أثاث البيت وآلاته ثم آلات الآلات وقد يكون فى الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد والبقر آلة الحراثة والفرس آلة الركوب فى الحرب ثم يحدث من ذلك حاجة البيع فان الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة فبالضرورة يحتاج الفلاح اليهما ويحتاجان الى الفلاح فيحتاج أحدهما أن يبذل ما عنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة الا أن النجار مثلا اذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح فى ذلك الوقت الى آلته فلا يبيعه والفلاح اذا طلب الآلة من النجار بالطعام ربما كان عنده طعام فى ذلك الوقت فلا يحتاج اليه فتتعوق الاغراض فاضطروا الى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات والى أبيات يجمع اليها ما يحمل الفلاحون فيشتريه منهم صاحب الابيات ليترصد به أرباب الحاجات فظهرت لذلك الاسواق والمخازن فيحمل الفلاح الحبوب فاذا لم يصادف محتاجا باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها فى انتظار أرباب الحاجات طمعا فى الربح وكذلك فى جميع الامتعة والاموال ثم يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشترون من القرى الاطعمة ومن البلاد الآلات وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنتظم أمور الناس فى البلاد بسببهم اذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام فالبعض يحتاج الى البعض فيحوج الى النقل فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وباعثهم عليه حرص جمع المال لا محالة فيتعبون طول الليل والنهار فى الاسفار لغرض غيرهم ونصيبهم منها جمع المال الذى يأكله لا محالة غيرهم اما قاطع طريق واما سلطان ظالم ولكن جعل الله تعالى فى غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة ولو عقل الناس وارتفعت همهم لزهدوا فى الدنيا ولو فعلوا ذلك لبطلت المعايش ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد أيضا ثم هذه الاموال التى تنقل لا يقدر الانسان على حملها فتحتاج الى دواب تحملها وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الاجارة ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة الى النقدين فان من يريد أن يشترى طعاما بثوب فمن أين يدرى المقدار الذى يساويه من الطعام كم هو والمعاملة تجرى فى أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تتناسب فلا بد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الاموال ثم يحتاج الى مال يطول بقاؤه لان الحاجة اليه تدوم وأبقى الاموال المعادن فاتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس ثم مست الحاجة الى الضرب والنقش والتقدير فمست الحاجة الى دار الضرب والصيارفة وهكذا تتداعى الاشغال والاعمال بعضها الى بعض حتى انتهت الى ما تراه فهذه أشغال الخلق وهى معاشهم وشئ من هذه الحرف لا يمكن مباشرته الا بنوع تعلم وتعب فى الابتداء وفى الناس من يغفل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لعجزه عن الحرف فيحتاج الى أن يأكل مما يسعى فيه غيره فيحدث منه حرفتان خسيستان اللصوصية والكدية اذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعى غيرهما ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا الى صرف عقولهم فى استنباط الحيل والتدابير * أما اللصوص فمنهم من يطلب أعوانا ويكون فى يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالاعراب والاكراد * وأما الضعفاء منهم فيفزعون الى الحيل اما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة واما بان يكون طرارا أو سلالا الى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تتبعه الافكار المصروفة الى استنباطها * وأما المكدى فانه اذا طلب ما سعى فيه غيره وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعطى شيأ فافتقروا الى حيلة فى استخراج الاموال وتمهيد العذر لانفسهم فى البطالة فاحتالوا لانتحل

يساره فقد ورد النهى عن المواصلة والمواصلة خمس اثنتان تختص بالامام وهو ان لا يوصل القراءة بالتكبير والركوع بالقراءة واثنتان على المأموم وهو ان لا يوصل تكبيرة الاحرام بتكبيرة الامام ولا تسليمه بتسليمه وواحدة على الامام والمأمومين وهو ان لا يوصل تسليم الفرض بتسليم النفل ويجزم التسليم ولا يمد مد ما يدعو بعد التسليم بما يشاء من أمر دينه ودنياه ويدعو قبل التسليم أيضا فى صلب الصلاة فانه يستجاب ومن أقام الصلوات الخمس فى جماعة فقد ملا البر والبحر عبادة وكل المقامات والاحوال زبدتها الصلوات الخمس

بالعجز اما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون واما بالتعامى والتفالج والتجانن والتمارض واظهار ذلك بانواع من الحيل مع بيان ان تلك محنة أصابت من غير استحقاق ليكون ذلك سبب الرحمة وجماعة يلقمون أفواها وأفعالا يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها فيسخو برفع اليد عن قليل من المال فى حال التعجب ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبذة والافعال المضحكة وقد يكون بالاشعار الغريبة والكلام المنثور المسجع مع حسن الصوت والشعر الموزون أشد تأثيرا فى النفس لاسيما اذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كاشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت أو الذى يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبالين فى الاسواق وصنعة مايشبه العوض وليس بعوض كبيع التعويذات والحشيش الذى يخيل بائعه انها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال وكاصحاب القرعة والفال من المنجمين ويدخل فى هذا الجنس الوعاظ والمكدون على رؤس المنابر اذ الم يكن وراءهم طائل علمى وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بانواع الكدية وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لاجل المعيشة فهذه هى أشغال الخلق وأعمالهم التى أكبوا عليها وجرهم الى ذلك كله الحاجة الى القوت والكسوة ولكنهم نسوا فى أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم وما آبهم فتاهوا وضلوا وسبق الى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه * فطائفة غلبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر الى عاقبة أمورهم فقالوا المقصود أن نعيش أياما فى الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ثم نكسب حتى نأكل فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تنعم فى الدنيا ولا قدم فى الدين فانه يتعب نهارا ليأكل ويأكل ليلا ليتعب نهارا وذلك كسير السوانى فهو سفر لاينقطع الا بالموت * وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا لامر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الانسان بالعمل ولا يتنعم فى الدنيا بل السعادة فى ان يقضى وطره من شهوة الدنيا وهى شهوة البطن والفرج فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا همهم الى اتباع النسوان وجمع لذائذ الاطعمة يأكلون كما تأكل الانعام ويظنون انهم اذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر * وطائفة ظنوا ان السعادة فى كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز فاسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم فى الجمع فهم يتعبون فى الاسفار طول الليل والنهار ويترددون فى الاعمال الشاقة ويكتسبون ويجمعون ولا يأكلون الا قدر الضرورة شحا وبخلا عليها أن تنقص وهذه لذتهم وفى ذلك دأبهم وحركتهم الى ان يدركهم الموت فيبقى تحت الارض أو يظفر به من يأكله فى الشهوات واللذات فيكون للجامع تعبه ووباله وللآكل لذته ثم الذين يجمعون ينظرون الى أمثال ذلك ولا يعتبرون * وطائفة ظنوا أن السعادة فى حسن الاسم وانطلاق الالسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة فهؤلاء يتعبون فى كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم فى المطعم والمشرب ويصرفون جميع مالهم الى الملابس الحسنة والدواب النفيسة ويزخرفون أبواب الدور ومايقع عليها أبصار الناس حتى يقال انه غنى وانه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هى السعادة فهمتهم فى نهارهم وليلهم فى تعهد موقع نظر الناس * وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة فى الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير فصرفوا همهم الى استجرار الناس الى الطاعة بطلب الولايات وتقلد الاعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ويرون أنهم اذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة وأن ذلك غاية المطلب وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكر فى آخرتهم ومعادهم * ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل وانما جرهم الى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ونسوا ما تراد له هذه الامور الثلاثة والقدر الذى يكفى منها وانجرت بهم أوائل

فى جماعة وهى سر الدين وكفارة المؤمن وتمحيص للخطايا على ما أخبرنا شيخنا شيخ الاسلام ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله اجازة قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك ابن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن ابن على الجوهرى اجازة قال أنا أبو عمر محمد بن العباس بن زكريا قال ثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال ثنا الحسين بن الحسن المروزى قال أنا عبد الله ابن المبارك قال أنا يحيى بن عبد الله قال سمعت أبى يقول سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس كفارات للخطايا واقرؤا

أسبابها الى أواخرها وتداعى بهم ذلك الى مهاو لم يمكنهم الرقى منها فمن عرف وجه الحاجة الى هذه الاسباب والاشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض فى شغل وحرفة وعمل الا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك وذلك ان سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الاشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمة الى الاستعداد له وان تعدى به قدر الضرورة كثرت الاشغال وتداعى البعض الى البعض وتسلسل الى غير نهاية فتتشعب به الهموم ومن تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا فلا يبالى الله فى أى واد أهلكه منها فهذا شأن المنهمكين فى أشغال الدنيا وتنبه لذلك طائفة فاعرضوا عن الدنيا فحسدهم الشيطان ولم يتركهم وأضلهم فى الاعراض أيضا حتى انقسموا الى طوائف فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل اليها سواء تعبد فى الدنيا أو لم يتعبد فرأوا أن الصواب فى أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا واليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يتهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالاحراق ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لا بد أولا من اماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية وأن السعادة فى قطع الشهوة والغضب ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة وبعضهم فسد عقله وجن وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق فى العبادة وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تلبيس لا أصل له فوقع فى الالحاد وظهر لبعضهم ان هذا التعب كله لله وان الله تعالى مستغن عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص ولا تزيده عبادة متعبد فعادوا الى الشهوات وسلكوا مسالك الاباحة وطووا بساط الشرع والاحكام وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد وظن طائفة أخرى أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها الى معرفة الله تعالى فاذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة فتركوا السعى والعبادة وزعموا انه ارتفع محلهم فى معرفة الله سبحانه عن أن يتهنوا بالتكاليف وانما التكليف على عوام الخلق ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول احصاؤها الى ما يبلغ نيفا وسبعين فرقة وانما الناجى منها فرقة واحدة وهى السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية اما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد واما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة بل يتبع العدل ولا يترك كل شئ من الدنيا ولا يطلب كل شئ من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد ومن الكسوة كذلك حتى اذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر وبقى ملازما لسياسة الشهوات ومراقبا لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك الا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فانه عليه السلام (١) لما قال الناجى منها واحدة قالوا يا رسول الله ومن هم قال أهل السنة والجماعة فقيل ومن أهل السنة والجماعة قال ما أنا عليه وأصحابى وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذى فصلناه من قبل فانهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين وما كانوا يتركبون ويهجرون الدنيا بالكلية وما كان لهم فى الامور تفريط ولا افراط بل كان أمرهم بين ذلك قواما وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الامور الى الله تعالى كما سبق ذكره فى مواضع والله أعلم تم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(١) حديث افتراق الامة وفيه الناجى منهم واحدة قالوا ومن هم قال أهل السنة والجماعة الحديث الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه تفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار الا ملة واحدة فقالوا من هى يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابى ولابى داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث انس وعوف بن مالك وهى الجماعة وأسانيدها جياد

ان شئتم ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين (الباب الثامن والثلاثون فى ذكر آداب الصلاة وأسرارها) أحسن آداب المصلى أن لا يكون مشغول القلب بشئ قل أو كثر لان الاكياس لم يرفضوا الدنيا الا ليقيموا الصلاة كما أمروا لان الدنيا وأشغالها لما كانت شاغلة للقلب رفضوها غيرة على محل المناجاة ورغبة فى أوطان القربات واذعانا بالباطن لرب البريات لان حضور الصلاة بالظاهر اذعان الظاهر وفراغ القلب فى الصلاة عما سوى الله تعالى اذعان الباطن فلم يروا حضور الظاهر وتخلف الباطن حتى لا يختل اذعانهم

فتنخرم عبوديتهم فيجتنب ان يكون باطنه مرتهنا بشئ ويدخل الصلاة (وقيل) من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ولهذا ورد اذا حضر العشاء والعشاء فقدموا العشاء على العشاء ولا يصلى وهو حاقن يطالبه البول ولا حازق يطالبه الغائط والحازق أيضا ضيق الخف ولا يصلى أيضا وخفه ضيق يشغل قلبه فقد قيل لا رأى لحازق قيل الذى يكون معه ضيق وفى الجملة ليس من الأدب أن يصلى وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الاشياء التى ذكرناها والاهتمام المفرط والغضب (وفى الخبر)

(كتاب ذم البخل وذم حب المال وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط * وكاشف الضر بعد القنوط * الذى خلق الخلق * ووسع الرزق * وأفاض على العاملين أصناف الاموال * وابتلاهم فيها بتقلب الاحوال * ورددهم فيها بين العسر واليسر والغنى والفقر والطمع واليأس والثروة والافلاس والعجز والاستطاعة والحرص والقناعة والبخل والجود والفرح بالموجود والاسف على المفقود والايثار والانفاق والتوسع والاملاق والتبذير والتقتير والرضا بالقليل واستحقار الكثير كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملا وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلا وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا واتخذ الدنيا ذخيرا وخولا والصلاة على محمد الذى نسخ بملته ملا وطوى بشريعته أديانا ونحلا وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللا وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فان فتن الدنيا كثيرة الشعب والاطراف واسعة الارجاء والاكناف ولكن الاموال أعظم فتنها وأطم محنها وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لاحد عنها ثم اذا وجدت فلا سلامة منها فان فقد المال حصل منه الفقر الذى يكاد أن يكون كفرا وان وجد حصل منه الطغيان الذى لا تكون عاقبة أمره الا خسرا وبالجملة فهى لا تخلو من الفوائد والآفات وفوائدها من المنجيات وآفاتها من المهلكات وتمييز خيرها عن شرها من المعوصات التى لا يقوى عليها الا ذو البصائر فى الدين من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترين وشرح ذلك مهم على الانفراد فان ما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا فى المال خاصة بل فى الدنيا عامة اذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل والمال بعض أجزاء الدنيا والجاه بعضها واتباع شهوة البطن والفرج بعضها وتشفى الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها والكبر وطلب العلو بعضها ولما أبعاض كثيرة ويجمعها كل ما كان للانسان فيه حظ عاجل ونظرنا الآن فى هذا الكتاب فى المال وحده اذ فيه آفات وغوائل وللانسان من فقده صفة الفقر ومن وجوده وصف الغنى وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان ثم للفاقد حالتان القناعة والحرص واحداهما مذمومة والاخرى محمودة وللحريص حالتان طمع فيما فى أيدى الناس وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق والطمع شر الحالتين وللواجد حالتان امساك بحكم البخل والشح وانفاق واحداهما مذمومة والاخرى محمودة وللمنفق حالتان تبذير واقتصاد والمحمود هو الاقتصاد وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم ونحن نشرح ذلك فى أربعة عشر فصلا ان شاء الله تعالى وهو بيان ذم المال ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته ثم ذم الحرص والطمع ثم علاج الحرص والطمع ثم فضيلة السخاء ثم حكايات الاسخياء ثم ذم البخل ثم حكايات البخلاء ثم الايثار وفضله ثم حد السخاء والبخل ثم علاج البخل ثم مجموع الوظائف فى المال ثم ذم الغنى ومدح الفقر ان شاء الله تعالى

(بيان ذم المال وكراهة حبه)

قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وقال تعالى انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسرانا عظيما وقال عز وجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الآية وقال تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وقال تعالى ألهاكم التكاثر * وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ما ذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر افسادا فيها من حب الشرف والمال والجاه فى دين الرجل المسلم وقال صلى الله عليه وسلم

(كتاب ذم البخل وحب المال)

(١) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ الجاه بدل الشرف (٢) حديث ما ذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر فسادا لها من حب المال والجاه فى دين الرجل المسلم الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا جائعان مكان ضاريان

(١) هلك المكثرون الامن قال به فى عباد الله هكذا وهكذا وقليل ماهم (٢) وقيل يارسول الله أى أمتك شر قال الاغنياء وقال صلى الله عليه وسلم (٣) سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ويركبون فره الخيل وألوانها وينكحون أجل النساء وألوانها ويلبسون أجمل الثياب وألوانهالهم بطون من القليل لا تشبع وأنفس بالكثير لا تقنع عاكفين على الدنيا يغدون ويروحون اليها اتخذوها آلهة من دون الههم ورب ادون ربهم الى أمرها يتهون ولهواهم يتبعون فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزمان من عقب عقبكم وخالف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الاسلام وقال صلى الله عليه وسلم (٤) دعوا الدنيا لاهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر وقال صلى الله عليه وسلم (٥) يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ما أكلت فافنيت أو لبست فابليت أو تصدقت فامضيت (٦) وقال رجل يارسول الله مالى لا أحب الموت فقال هل معك من مال قال نعم يارسول الله قال قدم مالك فان قلب المؤمن مع ماله ان قدمه أحب ان يلحقه وان خلفه أحب أن يتخلف معه وقال صلى الله عليه وسلم (٧) أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه الى قبض روحه والثانى الى قبره والثالث الى محشره فالذى يتبعه الى قبض روحه فهو ماله والذى يتبعه الى قبره فهو أهله والذى يتبعه الى محشره فهو عمله وقال الحواريون لعيسى عليه السلام مالك تمشى على الماء ولا نقدر على ذلك فقال لهم ما منزلة الدينار والدرهم عندكم قالوا حسنة قال لكنهما والمدر عندى سواء (٨) وكتب سلمان الفارسى الى أبى الدرداء رضى الله عنهما يا أخى اياك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدى شكره فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله امض فقد أديت

لا يدخل أحدكم فى الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان فلا ينبغى للعبد أن يتلبس بالصلاة الا وهو على أتم الهيآت وأحسن لبسة المصلى سكون الاطراف وعدم الالتفات والاطراق ووضع اليمين على الشمال فأحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدى ملك عزيز وفى رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز وأرباب العزيمة يتركون الحركة فى الصلاة جملة وقد حركت يدى فى الصلاة وعندى شخص من الصالحين فلما انصرفت من الصلاة أنكر على وقال عندنا ان العبد اذا وقف فى الصلاة ينبغى أن يبقى جامدا مجمدا لا يتحرك

ولم يقولا فى زربية وقالا الشرف بدل الجاه قال الترمذى حسن صحيح وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد ماذئبان ضاريان فى زربية غنم الحديث وللبزار من حديث أبى هريرة ضاريان جائعان واسناد الطبرانى فيهما ضعيف

(١) حديث هلك الأكثرون الامن قال به فى عباد الله هكذا وهكذا الحديث الطبرانى من حديث عبد الرحمن ابن أبزى بلفظ المكثرون ولم يقل فى عباد الله ورواه أحمد من حديث أبى سعيد بلفظ المكثرون وهو متفق عليه من حديث أبى ذر بلفظ هم الأخسرون فقال أبوذر من هم فقال هم الأكثرون أموالا الامن قال هكذا الحديث

(٢) حديث قيل يارسول الله أى أمتك شر قال الاغنياء غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث عبد الله بن جعفر شرار أمتى الذين ولدوا فى النعيم وغذوا به يأكلون من الطعام ألوانا وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السرى فى الزهد له من رواية عروة بن رويم مرسلا وللبزار من حديث أبى هريرة بسند ضعيف ان من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم وتنبت عليه أجسامهم (٣) حديث سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها وينكحون أجل النساء وألوانها الحديث بطوله الطبرانى فى الكبير والاوسط من حديث أبى امامة سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون فى الكلام أولئك شرار أمتى وسنده ضعيف ولم أجد لباقيه أصلا (٤) حديث دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر البزار من حديث أنس وفيه هانئ بن المتوكل ضعفه ابن حبان (٥) حديث يقول العبد مالى مالى الحديث مسلم من حديث عبد الله بن الشخير وأبى هريرة وقد تقدم (٦) حديث قال رجل يارسول الله مالى لا أحب الموت الحديث لم أقف عليه (٧) حديث أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه الى قبض روحه والثانى الى قبره الحديث أحمد والطبرانى فى الكبير والاوسط من حديث النعمان بن بشير باسناد جيد نحوه ورواه أبو داود الطيالسى وأبو الشيخ فى كتاب الثواب والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضا وفى الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد الحديث (٨) حديث كتب سلمان الى أبى الدرداء وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه الحديث قلت ليس هو من حديث سلمان انما هو من حديث أبى

حق الله في ثم يجاء بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله ويلك ألا أديت حق الله في فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور وكل ما أوردناه في كتاب الزهد والفقر في ذم الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه الى ذم المال فلا نطول بتكريره وكذا كل ماذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم لان المال أعظم أركان الدنيا وانما نذكر الآن ما ورد في المال خاصة قال صلى الله عليه وسلم (١) اذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم وقال الناس ما خلف وقال صلى الله عليه وسلم (٢) لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا ﴿الآثار﴾ روي ان رجلا نال من أبي الدرداء وأراه سوأ فقال اللهم من نعل بي سوأ فاصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر لانه لابد وأن يفضي الى الطغيان ووضع على كرم الله وجهه درهما على كفه ثم قال أما انك مالم تخرج عني لا تنفعني وروي أن عمر رضي الله عنه أرسل الى زينب بنت جحش بعطائها فقالت ماهذا قالوا أرسل اليك عمر بن الخطاب قالت غفر الله له ثم لمت ستراكان لها فقطعته وجعلته صررا وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها ثم رفعت يديها وقالت اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقا به وقال الحسن والله ما أعز الدرهم أحدا الا أذله الله وقيل ان أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما ابليس ثم وضعهما على جبهته ثم قبلهما وقال من أحبكما فهو عبدي حقا وقال سمبط بن عجلان ان الدراهم والدنانير أزمة المنافقين يقلدون بها الى النار وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب فان لم تحسن رقيته فلا تأخذه فانه ان لدغك فتلك سمه قيل وما رقيته قال أخذه من حله ووضعه في حقه وقال العلاء بن زياد تمثلت لي الدنيا وعليها من كل زينة فقلت أعوذ بالله من شرك فقالت ان سرك أن يعيذك الله مني فابغض الدرهم والدينار وذلك لان الدرهم والدينار هما الدنيا كلها اذ يتوصل بهما الى جميع أصنافها فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفي ذلك قيل

انى وجدت فلا تظنوا غيره * أن التورع عند هذا الدرهم
فاذا قدرت عليه ثم تركته * فاعلم بان تقاك تقوى المسلم

وفي ذلك قيل أيضا لا يغرنك من المرء قميص رقعه * أو ازار فوق عظم الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه * أثر قد خلعه أره الدرهم تعرف * حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال يا أمير المؤمنين صنعت صنيعا لم يصنعه أحد قبلك تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار وكان له ثلاثة عشر من الولد فقال عمر أقعدوني فاقعدوه فقال أما قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما فاني لم أمنعهم حقا لهم ولم أعطهم حقا لغيرهم وانما ولدي أحد رجلين اما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين واما عاص لله فلا أبالي على ما وقع وروي أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالا كثيرا فقيل له لو ادخرته لولدك من بعدك قال لا ولكني أدخره لنفسي عند ربي وأدخر ربي لولدي ويروى أن رجلا قال لابي عبد ربه يا أخي لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير فاخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم وقال يحيى بن معاذ مصيبتان لم يسمع الاولون والآخرون بمثلهما العبد في ماله عند موته قيل وما هما قال يؤخذ منه كله ويسئل عنه كله

﴿بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم﴾

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيرا في مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعز ان ترك خيرا الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) نعم المال الصالح للرجل الصالح وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال اذ لا يمكن الوصول اليهما الا به وقال تعالى ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وقال تعالى ممتنا على عباده ويمددكم بأموال وبنين

---

(١) حديث اذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم الحديث البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ببلغ به وقد تقدم في آداب الصحبة من حديث ابن مسعود بلفظ فترغبوا (٢) حديث لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا الترمذي والحاكم وصححا اسناده من حديث عمرو بن الدرداء أنه كتب الى سلمان كذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل الدنيا المال وهو منقطع (٣) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن

منه شئ (وقد) جاء في الخبر سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والحكاك والالتفات والعبث بالشئ من الشيطان أيضا وقيل السهو والشك (وقد روى) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال ان الخشوع في الصلاة أن لا يعرف المصلي من على يمينه وشماله (ونقل عن سفيان) أنه قال من لم يخشع فسدت صلاته وروى عن معاذ ابن جبل أشد من ذلك قال من عرف من عن يمينه وشماله في الصلاة متعمدا فلا صلاة له وقال بعض العلماء من قرأ كلمة مكتوبة في حائط أو بساط في صلاته فصلاته

ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا وقال صلى الله عليه وسلم (١) كاد الفقر أن يكون كفرا وهو ثناء على المال ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح الا بان تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغوائله حتى ينكشف لك انه خير من وجه وشر من وجه وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر فانه ليس بخير محض ولا هو شر محض بل هو سبب للامرين جميعا وماهذا وصفه فيمدح لا محالة تارة ويذم أخرى ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه فى كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم والقدر المقنع فيه هو أن مقصد الاكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التى هى النعيم الدائم والملك المقيم والقصد الى هذا أب الكرام والاكياس اذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) من أكرم الناس وأكيسهم فقال أكثرهم للموت ذكرا وأشدهم له استعدادا وهذه السعادة لا تنال الا بثلاث وسائل فى الدنيا وهى الفضائل النفسية كالعلم وحسن الخلق والفضائل البدنية كالصحة والسلامة والفضائل الخارجة عن البدن كالمال وسائر الاسباب وأعلاها النفسية ثم البدنية ثم الخارجة فالخارجة أخسها والمال من جملة الخارجات وأدناها الدراهم والدنانير فانهما خادمان ولا خادم لهما ومرادان لغيرهما ولا يرادان لذاتهما اذ النفس هى الجوهر النفيس المطلوب سعادتها وانما تخدم العلم والمعرفة ومكارم الاخلاق لتحصلها صفة فى ذاتها والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والاعضاء والمطاعم والملابس تخدم البدن وقد سبق أن المقصود من المطاعم ابقاء البدن ومن المناكح ابقاء النسل ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه وانه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التى هى ضرورة بقاء البدن الذى هو ضرورة كمال النفس الذى هو خير ومن عرف فائدة الشئ وغايته ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتا اليها غير ناس لها فقد أحسن وانتفع وكان ما حصل له الغرض محمودا فى حقه فاذا المال آلة ووسيلة الى مقصود صحيح ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة الى مقاصد فاسدة وهى المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة وتسد سبيل العلم والعمل فهو اذا محمود مذموم محمود بالاضافة الى المقصد المحمود ومذموم بالاضافة الى المقصد المذموم (٣) فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر كما ورد به الخبر ولما كانت الطباع مائلة الى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهلا لها وآلة اليها عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الانبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة السلام (٤) اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا فلم يطلب من الدنيا الا ما يتمحض خيره وقال اللهم (٥) أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين واستعاذ ابراهيم صلى الله عليه وسلم فقال واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة اذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الالهية فى شئ من هذه الجمادة اذ قد كفى قبل النبوة عبادتها مع الصغر وانما معنى عبادتهما حبهما والاغترار بهما والركون اليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم (٦) تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم تعس ولا انتعش واذا شيك فلا انتقش فبين أن محبهما عابد لهما ومن عبد حجرا فهو عابد صنم بل كل من كان عبد الغير الله فهو عابد صنم أى من قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم وهو شرك الا أن الشرك شركان شرك خفى

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا أبو مسلم اللينى فى سننه والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أنس وقد تقدم فى كتاب ذم الغضب (٢) حديث من أكرم الناس وأكيسهم أكثرهم للموت ذكرا الحديث ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ أى المؤمنين أكيس ورواه ابن أبى الدنيا فى الموت بلفظ المصنف واسناده جيد (٣) حديث من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر تقدم قبله بتسعة أحاديث وهو بقية احذروا الدنيا (٤) حديث اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا متفق عليه من حديث أبى هريرة (٥) حديث اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا والترمذى من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث أبى سعيد وقد تقدم (٦) حديث تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم الحديث البخارى من حديث أبى هريرة ولم يقل وانتقش وانما علق آخره بلفظ تعس وانتكس ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم

(١٠٢) قال بعضهم لان ذلك عدوه عملا وقيل فى تفسير قوله تعالى والذين هم على صلاتهم دائمون قيل هو سكون الاطراف والطمأنينة (قال) بعضهم اذا كبرت التكبيرة الاولى فاعلم ان الله ناظر الى شخصك عالم بما فى ضميرك ومثل فى صلاتك الجنة عن يمينك والنار عن شمالك وانما ذكرنا أن تمثل الجنة والنار لان القلب اذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه الوسواس فيكون هذا التمثيل تداويا للقلب لدفع الوسوسة (أخبرنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى اجازة قال أنا عمر ابن أحمد الصفار قال أنا أبو بكر

لا يوجب الخلود فى النار وقلما ينفك عنه المؤمنون فانه أخفى من دبيب النمل وشرك جلى يوجب الخلود فى النار نعوذ بالله من الجميع

﴿ بيان تفصيل آفات المال وفوائده ﴾

اعلم ان المال مثل حية فيها سم وترياق ففوائده ترياقه وغوائله سمه ومن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره ﴿ أما الفوائد ﴾ فهى تنقسم الى دنيوية ودينية أما الدنيوية فلا حاجة الى ذكرها فان معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها وأما الدينية فتنحصر جميعها فى ثلاثة أنواع ﴿ النوع الاول ﴾ أن ينفقه على نفسه اما فى عبادة أو فى الاستعانة على عبادة أما فى العبادة فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فانه لا يتوصل اليهما الا بالمال وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلهما واما فيما يقويه على العبادة فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة فان هذه الحاجات اذا لم تتيسر كان القلب مصروفا الى تدبيرها فلا يتفرغ للدين وما لا يتوصل الى العبادة الا به فهو عبادة فاخذ الكفاية من الدنيا لاجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية ولا يدخل فى هذا التنعم والزيادة على الحاجة فان ذلك من حظوظ الدنيا فقط ﴿ النوع الثانى ﴾ ما يصرفه الى الناس وهو أربعة أقسام الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام * أما الصدقة فلا يخفى ثوابها وانها تطفئ غضب الرب تعالى وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم * وأما المروءة فنعنى بها صرف المال الى الاغنياء والاشراف فى ضيافة وهدية واعانة وما يجرى مجراها فان هذه لا تسمى صدقة بل الصدقة ما يسلم الى المحتاج الا أن هذا من الفوائد الدينية اذ به يكتسب العبد الاخوان والاصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الاسخياء فلا يوصف بالجود الا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة وهذا أيضا مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة فى الهدايا والضيافات واطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة فى مصارفها * وأما وقاية العرض فنعنى به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم وهو أيضا مع نجز فائدته فى العاجلة من الحظوظ الدينية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التى تحمل فى المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة * وأما الاستخدام فهو أن الاعمال التى يحتاج اليها الانسان لتهيئة أسبابه كثيرة ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذى هو أعلى مقامات السالكين ومن لا مال له فيفتقر الى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطبخه وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذى يحتاج اليه وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فانت متعوب اذا اشتغلت به اذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر ما لا يتصور أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت فى غيره خسران ﴿ النوع الثالث ﴾ ما لا يصرفه الى انسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الحباب فى الطريق وغير ذلك من الاوقاف المرصدة للخيرات وهى من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين الى أوقات متمادية وناهيك بها خيرا فهذه جملة فوائد المال فى الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول الى العز والمجد بين الخلق وكثرة الاخوان والاعوان والاصدقاء والوقار والكرامة فى القلوب فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية ﴿ وأما الافات ﴾ فدينية ودنيوية أما الدينية فثلاث ﴿ الأولى ﴾ أن تجرا الى المعاصى فان الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد ومهما كان الانسان آيسا عن نوع من المعصية لم تتحرك داعيته فاذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته والمال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصى وارتكاب الفجور فان اقتحم ما اشتهاه هلك وان صبر وقع فى شدة اذ الصبر مع القدرة أشد وفتنة السراء أعظم من فتنة

(١) حديث ما وقى المرء عرضه به فهو صدقة أبو يعلى من حديث جابر وقد تقدم

ابن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا الحسين الفارسى يقول سمعت محمد بن الحسين يقول قال سهل من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان فاما من باشر باطنه صفو اليقين ونور المعرفة فيستغنى بشاهده عن تمثيل مشاهدة قال أبو سعيد الخراز اذا ركع فالادب فى ركوعه ان ينتصب ويدنو ويتدلى فى ركوعه حتى لا يبقى منه مفصل الا وهو منتصب نحو العرش العظيم ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون فى قلبه شئ أعظم من الله ويصغر فى نفسه حتى يكون أقل من الهباء واذا رفع رأسه وجد الله يعلم انه

الضراء ﴿الثانية﴾ انه يجر الى التنعم فى المباحات وهذا أول الدرجات فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير و يلبس الثوب الخشن و يترك لذائذ الاطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فى ملكه فاحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا و يمرن عليها نفسه فيصير التنعم مألوفا عنده ومحبوبا بالا يصبر عنه و يجره البعض منه الى البعض فاذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل اليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات و يخوض فى المراآة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الاخلاق الرديئة ليقتنظم له أمر دنياه و يتيسر له تنعمه فان من كثر ماله كثرت حاجته الى الناس ومن احتاج الى الناس فلا بد وأن يناقضهم و يعصى الله فى طلب رضاهم فان سلم الانسان من الآفة الاولى وهى مباشرة الخطوط فلا يسلم عن هذه أصلا ومن الحاجة الى الخلق تثور العداوة والصداقة و ينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصى التى تخص القلب واللسان ولا يخلو عن التعدى أيضا الى سائر الجوارح وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة الى حفظه واصلاحه ﴿الثالثة﴾ وهى التى لا ينفك عنها أحد وهو أنه يلهيه اصلاح ماله عن ذكر الله تعالى وكل ما يشغل العبد عن الله فهو خسران ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام فى المال ثلاث آفات أن يأخذه من غير حله فقيل ان أخذه من حله فقال يضعه فى غير حقه فقيل ان وضعه فى حقه فقال يشغله اصلاحه عن الله تعالى وهذا هو الداء العضال فان أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله والتفكر فى جلاله وذلك يستدعى قلبا فارغا وصاحب الضيعة يمسى و يصبح متفكرا فى خصومة الفلاح ومحاسبته وفى خصومة الشركاء ومنازعتهم فى الماء والحدود وخصومة أعوان السلطان فى الخراج وخصومة الاجراء على التقصير فى العمارة وخصومة الفلاحين فى خيانتهم وسرقتهم وصاحب التجارة يكون متفكرا فى خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره فى العمل وتضييعه للمال وكذلك صاحب المواشى وهكذا سائر أصناف الاموال وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنوز تحت الارض ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف اليه وفى كيفية حفظه وفى الخوف مما يعثر عليه وفى دفع أطماع الناس عنه وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها والذى معه قوت يومه فى سلامة من جميع ذلك فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الاموال فى الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب فى دفع الحساد وتجشم المصاعب فى حفظ المال وكسبه فاذا تر باقى المال أخذ القوت منه وصرف الباقى الى الخيرات وما عدا ذلك سموم آفات نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه انه على ذلك قدير

﴿بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما فى أيدى الناس﴾

اعلم أن الفقر محمود كما أوردناه فى كتاب الفقر ولكن ينبغى أن يكون الفقير قانعا منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت الى ما فى أيديهم ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك الا بان يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن و يقتصر على أقله قدرا وأخسه نوعا و يرد أمله الى يومه أو الى شهره ولا يشغل قلبه بما بعد شهر فان تشوق الى الكثير أو طول أمله فانه عز القناعة وتدنس لامحالة بالطمع وذل الحرص وجره الحرص والطمع الى مساوى الاخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروآت وقد جبل الآدمى على الحرص والطمع وقلة القناعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب و يتوب الله على من تاب (٢) وعن أبى واقد الليثى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أوحى اليه أتيناه بعلمنا مما أوحى اليه فجئته ذات يوم فقال ان الله عز وجل يقول انا أنزلنا المال لاقام الصلاة وايتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من ذهب لاحب أن يكون له ثان ولو كان له الثانى لاحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف

(١) حديث لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس

(٢) حديث أبى واقد الليثى ان الله عز وجل يقول انا أنزلنا المال لاقام الصلاة وايتاء الزكاة الحديث أحمد والبيهقى فى الشعب بسند صحيح

سبحانه وتعالى يسمع ذلك (وقال) أيضا ويكون معه من الخشية ما يكاد يذوب به (قال) السراج اذا أخذ العبد فى التلاوة فالادب فى ذلك أن يشاهد و يسمع قلبه كانه يسمع من الله تعالى أو كانه يقرأ على الله تعالى وقال السراج أيضا من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ونفى كل شئ غير الله تعالى فاذا قاموا الى الصلاة بحضور القلب فكانهم قاموا من الصلاة الى الصلاة فيكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا فى الصلاة بهما فاذا خرجوا من الصلاة رجعوا الى حالهم من حضور القلب فكانهم أبدا فى

ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب (١) وقال أبو موسى الاشعرى نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب وقال صلى الله عليه وسلم (٢) منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال وقال صلى الله عليه وسلم (٣) يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الامل وحب المال وكما قال ولما كانت هذه جبلة للآدمى مضلة وغريزة مهلكة أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة فقال صلى الله عليه وسلم (٤) طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقال صلى الله عليه وسلم (٥) ما من أحد فقير ولا غنى الا ود يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا فى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ( ) ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس ونهى عن شدة الحرص والمبالغة فى الطلب فقال (٦) ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب فانه ليس لعبد الا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال أى عبادك أغنى قال أقنعهم بما أعطيته قال فأيهم أعدل قال من أنصف من نفسه وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) ان روح القدس نفث فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب وقال أبو هريرة قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة اذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩) كن ورعا تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الانصارى أن اعرابيا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله عظنى وأوجز فقال (١٠) اذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدا وأجمع اليأس مما فى أيدى الناس وقال عوف بن مالك الاشجعى كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (١١) تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال ألا تبايعون رسول الله قلنا ألا نبايعون رسول الله قلنا أوليس قد بايعناك يا رسول الله ثم قال ألا تبايعون رسول الله فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك قال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وتصلوا الخمس وان تسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيأ قال

(١) حديث أبى موسى نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال الحديث مسلم مع اختلاف دون قوله ان الله يؤيد هذا الدين ورواه بهذه الزيادة الطبرانى وفيه على بن زيد متكلم فيه (٢) حديث منهومان لا يشبعان الحديث الطبرانى من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٣) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحديث متفق عليه من حديث أنس (٤) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى من حديث فضالة بن عبيد ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه (٥) حديث ما من أحد غنى ولا فقير الا ود يوم القيامة انه كان أوتى فى الدنيا قوتا ابن ماجه من رواية نفيع بن الحارث عن أنس ونفيع ضعيف (٦) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس متفق عليه من حديث أبى هريرة (٧) حديث ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب فانه ليس لعبد الا ما كتب له الحاكم من حديث جابر بنحوه وصحح اسناده وقد تقدم فى آداب الكسب والمعاش (٨) حديث ابن مسعود ان روح القدس نفث فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها الحديث ابن أبى الدنيا فى القناعة والحاكم مع اختلاف وقد تقدم فيه (٩) حديث أبى هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس الحديث ابن ماجه وقد تقدم (١٠) حديث أبى أيوب اذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه واجمع اليأس مما فى أيدى الناس ابن ماجه وتقدم فى الصلاة وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال صحيح الاسناد (١١) حديث عوف بن مالك كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال ألا تبايعون الحديث وفيه ولا تسألوا الناس مسلم من حديثه ولم يقل فقال قائل ولا قال تسمعوا وقال سوط أحدهم وهى عند أبى داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف

الصلاة فهذا هو أدب الصلاة وقيل كان بعضهم لا يتهيأ له حفظ العدد من كمال استغراقه وكان يجلس واحد من أصحابه يعد عليه كم ركعة صلى (وقيل) للصلاة أربع شعب حضور القلب فى المحراب وشهود العقل عند الملك الوهاب وخشوع القلب بلا ارتياب وخضوع الاركان بلا ارتقاب لان عند حضور القلب رفع الحجاب وعند شهود العقل رفع العتاب وعند حضور النفس فتح الابواب وعند خضوع الاركان وجود الثواب فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصل لاه ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مصل ساه ومن أتاها بلا

فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحدا أن يناوله اياه (الآثار) قال عمر رضى الله عنه ان الطمع فقر وان اليأس غنى وانه من ييأس عما فى أيدى الناس استغنى عنهم وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وفى ذلك قيل

العيش ساعات تمر * وخطوب أيام تكر * اقنع بعيشك ترضه
واترك هواك تعيش حر * فلرب حتف ساقه * ذهب ويا قوت ودر

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتج الى أحد وقال سفيان خير دنياكم مالم تبتلوا به وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم وقال ابن مسعود ما من يوم الا وملك ينادى يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال سميط بن عجلان انما بطنك يا ابن آدم شبر فى شبر فلم يدخلك النار وقيل لحكيم ما مالك قال التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس عما فى أيدى الناس ويروى ان الله عز وجل قال يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا القوت واذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فانا اليك محسن وقال ابن مسعود اذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا ولا يأتى الرجل فيقول انك وانك فيقطع ظهره فانما يأتيه ما قسم له من الرزق أو مارزق وكتب بعض بنى أمية الى أبى حازم يعزم عليه الارفع اليه حوائجه فكتب اليه قد رفعت حوائجى الى مولاى فما أعطانى منها قبلت وما أمسك عنى قنعت وقيل لبعض الحكماء أى شئ أسر للعاقل وأيما شئ أعون على دفع الحزن فقال أسرها اليه ما قدم من صالح العمل وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء وقال بعض الحكماء وجدت أطول الناس غما الحسود وأهناهم عيشا القنوع وأصبرهم على الاذى الحريص اذا طمع وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفى ذلك قيل

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة * أن الذى قسم الارزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه * والوجه منه جديد ليس يخلقه
ان القناعة من يحلل بساحتها * لم يلق فى دهره شيأ يؤرقه

وقد قيل أيضا

حتى متى أنا فى حل وترحال * وطول سعى وادبار واقبال
ونازح الدار لا أنفك مغتربا * عن الاحبة لا يدرون ما حالى
بمشرق الارض طورا ثم مغربها * لا يخطر الموت من حرصى على بالى
ولو قنعت أتانى الرزق فى دعة * ان القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال عمر رضى الله عنه ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى حلتان لشتائى وقيظى وما يسعنى من الظهر لحجى وعمرتى وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بارفعهم ولا باوضعهم فوالله ما أدرى أيحل ذلك أم لا كائنه شك فى أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التى تجب القناعة بها وعاتب أعرابى أخاه على الحرص فقال يا أخى أنت طالب ومطلوب يطلبك من لا تفوته وتطلب أنت ما قد كفيته وكأن ما غاب عنك قد كشف لك وما أنت فيه قد نقلت عنه كأنك يا أخى لم تر حريصا محروما وزاهدا مرزوقا وفى ذلك قيل

أراك يزيدك الاثراء حرصا * على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية ان صرت يوما * اليها قلت حسبى قد رضيت

وقال الشعبى حكى أن رجلا صاد قنبرة فقالت ما تريد أن تصنع بى قال أذبحك وآكلك قالت والله ما أشفى من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هى خير لك من أكلى أما واحدة فاعلمك وأنا فى يدك وأما الثانية فاذا صرت على الشجرة وأما الثالثة فاذا صرت على الجبل قال هات الاولى قالت لا تلهفن على ما فاتك فخلاها فلما صارت على الشجرة قال هات الثانية قالت لا تصدقن بما لا يكون انه يكون ثم طارت فصارت على الجبل فقالت ياشقى لو ذبحتنى لاخرجت من حوصلتى درتين زنة كل درة عشرون مثقالا قال فعض على شفته وتلهف وقال هات

خضوع النفس فهو مصل خاطئ ومن أتاها بلا خشوع الاركان فهو مصل جاف ومن أتاها كما وصف فهو مصل واف (وقد ورد) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام العبد الى الصلاة المكتوبة مقبلا على الله بقلبه وسمعه وبصره انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وان الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصابها وبغسل يديه خطيئة أصابها وبغسل رجليه خطيئة أصابها حتى يدخل فى صلاته وليس عليه وزر (وذكرت) السرقة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى السرقة أقبح فقالوا الله ورسوله أعلم

الثالثة قالت أنت قد نسبت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ألا أقول لك لا تلهفن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أنا لحي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالا فكيف يكون في حوصلتي درتان كل واحدة عشرون مثقالا ثم طارت فذهبت وهذا مثال لفرط طمع الآدمي فانه يعميه عن درك الحق حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون وقال ابن السماك ان الرجاء حبل في قلبك وقيد في رجلك فاخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك وقال أبو محمد اليزيدي دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب فلما رآني تبسم فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين قال نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتهما وقد أضفت اليهما ثالثا وأنشدني

اذا سد باب عنك من دون حاجة * فدعه لاخرى ينفتح لك بابها
فان قراب البطن يكفيك ماؤه * ويكفيك سوآت الامور اجتنابها
ولا تك مبذا للعرض واجتنب * ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد اذ وعوها وعقلوها قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج وقال رجل للفضيل فسر لي قول كعب قال يطمع الرجل في الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه وأما الشره فشره النفس في هذا وفي هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء ويكون لك الى هذا حاجة والى هذا حاجة فاذا قضاها لك خزم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له فمن حبك للدنيا سلمت عليه اذا مرضت به وعدته اذا مرض لم تسلم عليه الله عز وجل ولم تعده لله فلو لم يكن لك اليه حاجة كان خيرا لك ثم قال هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان قال بعض الحكماء من عجيب أمر الانسان انه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له من أين تأكل قال من بيدر اللطيف الخبير الذي خلق الرحا وأتيها بالطحين وأومأ بيده الى رحا أضراسه فسبحان القدير الخبير

﴿ بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة ﴾

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان الصبر والعلم والعمل ومجموع ذلك خمسة أمور * الاول وهو العمل الاقتصاد في المعيشة والرفق في الانفاق فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخرج ما أمكنه ويرد نفسه الى ما لا بد له منه فمن كثر خرجه واتسع انفاقه لم تمكنه القناعة بل ان كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن ويقنع بأي طعام كان ويقلل من الادام ما أمكنه ويوطن نفسه عليه وان كان له عيال فيرد كل واحد الى هذا القدر فان هذا القدر يتيسر بأدنى جهد ويمكن معه الاجمال في الطلب والاقتصاد في المعيشة وهو الاصل في القناعة ونعني به الرفق في الانفاق وترك الخرق فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان الله يحب الرفق في الامر كله وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ما عال من اقتصد وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب وروى أن رجلا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الارض وهو يقول ان من فقهك رفقك في معيشتك وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزأ من النبوة وفي الخبر

(١) حديث ان الله يحب الرفق في الأمر كله متفق عليه من حديث عائشة وتقدم (٢) حديث ما عال من اقتصد أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ مقتصد (٣) حديث ثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث ابن عباس الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزأ من النبوة أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال السمت الصالح وقال من خمسة وعشرين ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال التؤدة بدل

فقال ان أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته قالوا كيف يسرق الرجل من صلاته قال لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها (وروى) عن أبي عمرو بن العلاء انه قدم للامامة فقال لا أصلح فلما ألحوا عليه كبر فغشي عليه فتقدموا اماما آخر فلما أفاق سئل فقال لما قلت استووا هتف بي هاتف هل استويت أنت مع الله قط (وقال) عليه السلام ان العبد اذا أحسن الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت حفظك الله كما حفظتني ثم صعدت ولها نور حتى تنتهي الى السماء وحتى تصل الى الله

القدير

فتشفع لصاحبها واذا أضاعها قالت ضيعك الله كما ضيعتنى ثم صعدت وظاظمة حتى تنتهى الى أبواب السماء فتغلق دونها ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها (وقال أبو سليمان الدارانى) اذا وقف العبد فى الصلاة يقول الله تعالى ارفعوا الحجب فيما بينى وبين عبدى فاذا التفت يقول الله ارخوها فيما بينى وبينه وخلوا عبدى وما اختار لنفسه (وقال أبو بكر الوراق) ربما أصلى ركعتين فانصرف منهما وأنا أستحى من الله حياء رجل انصرف من الزنا قوله هذا العظيم الادب عنده ومعرفة كل انسان بادب

(١) التدبير نصف المعيشة وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله وقال صلى الله عليه وسلم (٣) اذا أردت أمر افعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا والتؤدة فى الانفاق من أهم الامور * الثانى انه اذا تيسر له فى الحال ما يكفيه فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لاجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الامل والتحقق بان الرزق الذى قدر له لابد وأن يأتيه وان لم يشتد حرصه فان شدة الحرص ليست هى السبب لوصول الارزاق بل ينبغى أن يكون واثقا بوعد الله تعالى اذ قال عز وجل ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها وذلك لان الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول ان لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج الى احتمال الذل فى السؤال فلا يزال طول العمر يتعبه فى الطلب خوفا من التعب ويضحك عليه فى احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله لتوهم تعب فى ثانى الحال وربما لا يكون وفى مثله قيل

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله * مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما (٤) لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما فان الانسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين فقال له (٥) لا تكثر همك ما يقدر يكن وما ترزق يأتك وقال صلى الله عليه وسلم (٦) ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب فانه ليس لعبد الا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة ولا ينفك الانسان عن الحرص الا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى فى تقدير أرزاق العباد وان ذلك يحصل لا محالة مع الاجمال فى الطلب بل ينبغى أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب فاذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغى أن يضطرب قلبه لاجله وقال صلى الله عليه وسلم (٧) أبى الله أن يرزق عبده المؤمن الا من حيث لا يحتسب وقال سفيان اتق الله فما رأيت تقيا محتاجا أى لا يترك التقى فاقدا لضرورته بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا اليه رزقه وقال المفضل الضبى قلت لاعرابى من أين معاشك قال نذر الحاج قلت فاذا صدروا فبكى وقال لو لم نعش الا من حيث ندرى لم نعش وقال أبو حازم رضى الله عنه وجدت الدنيا شيئين شيأ منهما هو لى فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السموات والارض وشيأ منهما هو لغيرى فذلك لم أنله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقى يمنع الذى لغيرى منى كما يمنع الذى لى من غيرى ففى أى هذين أفنى عمرى فهذا دواء من جهة المعرفة لابد منه لدفع تخويف الشيطان وانذاره بالفقر * الثالث أن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل فاذا تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته الى القناعة لانه فى الحرص لا يخلو من تعب وفى الطمع لا يخلو من ذل وليس فى القناعة الا ألم الصبر عن الشهوات والفضول وهذا

الهدى الصالح وقال من أربعة (١) حديث التدبير نصف المعيشة رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلى ووثقه ابن معين (٢) حديث من اقتصد أغناه الله الحديث البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله ومن ذكر الله أحبه الله وشيخه فيه عمر ان بن هارون البصرى قال الذهبى شيخ لا يعرف حاله أتى بخبر منكر أى هذا الحديث ولا حمد وأبى يعلى فى حديث لابى سعيد ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله (٣) حديث اذا أردت أمر افعليك بالتؤدة حتى يجعل الله فيه فرجا ومخرجا رواه ابن المبارك فى البر والصلة وقد تقدم (٤) حديث لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما الحديث ابن ماجه من حديث حبة وسواء ابنى خالد وقد تقدم (٥) حديث لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك قاله لابن مسعود أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف فى صحبته ورواه الاصفهانى فى الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمر والمغافرى مرسلا (٦) حديث ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب الحديث تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا (٧) حديث أبى الله ان يرزق عبده المؤمن الا من حيث لا يحتسب ابن حبان فى الضعفاء من حديث على باسناد واه ورواه ابن الجوزى فى

ألم لا يطلع عليه أحد الا الله وفيه ثواب الآخرة وذلك مما يضاف اليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق فان من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته الى الناس فلا يمكنه دعوتهم الى الحق و يلزمه المداهنة وذلك يهلك دينه ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الايمان قال صلى الله عليه وسلم (١) عز المؤمن استغناؤه عن الناس ففي القناعة الحرية والعز ولذلك قيل استغن عمن شئت تكن نظيره واحتج الى من شئت تكن أسيره وأحسن الى من شئت تكن أميره * الرابع أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى من الاكراد والاعراب الاجلاف ومن لا دين لهم ولا عقل ثم ينظر الى أحوال الانبياء والاولياء والى سمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين و يستمع أحاديثهم و يطالع أحوالهم و يخبر عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير فانه ان تنعم في البطن فالحمار أكثر أكلا منه وان تنعم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه وان تزين في الملبس والخيل ففي اليهود من هو أعلى زينة منه وان قنع بالقليل ورضي بهلم يساهمه في رتبته الا الانبياء والاولياء * الخامس أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرنا في آفات المال وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع وما في خلو اليد من الامن والفراغ و يتأمل ما ذكرناه في آفات المال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة الى خمسمائة عام فانه اذا لم يقنع بما يكفيه ألحق بزمرة الاغنياء وأخر من جريدة الفقراء و يتم ذلك بان ينظر أبدا الى من دونه في الدنيا الى من فوقه فان الشيطان أبدا يصرف نظره في الدنيا الى من فوقه فيقول لم تفتر عن الطلب وأرباب الاموال يتنعمون في المطاعم والملابس و يصرف نظره في الدين الى من دونه فيقول ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تميز عنهم قال أبو ذر (٢) أوصاني خليلي صلوات الله عليه أن أنظر الى من هو دوني لا الى من هو فوقي أي في الدنيا وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) اذا نظر أحدكم الى من فضل الله عليه في المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه فبهذه الامور يقدر على اكتساب خلق القناعة وعماد الامر الصبر وقصر الامل وأن يعلم ان غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع دهر اطويلا فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه في انتظار الشفاء

﴿ بيان فضيلة السخاء ﴾

اعلم ان المال ان كان مفقودا فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص وان كان موجودا فينبغي أن يكون حاله الايثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل فان السخاء من أخلاق الانبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم (٤) حيث قال السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية الى الارض فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن الى الجنة وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه

الموضوعات (١) حديث عز المؤمن استغناؤه عن الناس الطبراني في الأوسط والحاكم وصحح اسناده وأبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية من حديث سهل بن سعد ان جبريل قاله للنبي صلى الله عليه وسلم في أثناء حديث وفيه زافر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه وجعله القضاعي في مسند الشهاب من قول النبي صلى الله عليه وسلم (٢) حديث أبي ذر أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم أن أنظر الى من هو دوني ولا أنظر لمن هو فوقي أحمد وابن حبان في أثناء حديث وقد تقدم (٣) حديث أبي هريرة اذا نظر أحدكم الى من فضل الله عليه في المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه متفق عليه وقد تقدم (٤) حديث السخاء شجرة في الجنة الحديث ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عدي والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة وسيأتي بعده وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد

الصلاة على قدر حظه من القرب (وقيل) لموسى ابن جعفر ان الناس أفسدوا عليك الصلاة بمرهم بين يديك قال ان الذي أصلي له أقرب الى من الذي يمشي بين يدي (وقيل) كان زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما اذا أراد أن يخرج الى الصلاة لا يعرف من تغير لونه فيقال له في ذلك فيقول أتدرون بين يدي من أريد أن أقف (وروى) عمار بن ياسر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يكتب للعبد من صلاته الا ما يعقل وقد ورد في لفظ آخر منكم من يصلي الصلاة كاملة ومنكم من يصلي النصف

وسلم

وسلم (١) قال جبريل عليه السلام قال الله تعالى ان هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق فاكرموه بهما ما استطعتم وفى رواية فاكرموه بهما ما صحبتموه وعن عائشة الصديقة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ما جبل الله تعالى وليا له الا على حسن الخلق والسخاء وعن جابر قال قيل يارسول الله أى الاعمال أفضل (٣) قال الصبر والسماحة وقال عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل فاما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل واذا أراد الله بعبد خيرا استعمله فى قضاء حوائج الناس وروى المقدام بن شريح عن أبيه عن جده (٥) قال قلت يارسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال ان من موجبات المغفرة بذل الطعام وافشاء السلام وحسن الكلام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) السخاء شجرة فى الجنة فمن كان سخيا أخذ بغصن منها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله الجنة والشح شجرة فى النار فمن كان شحيحا أخذ بغصن من أغصانها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله النار وقال أبو سعيد الخدرى قال النبى صلى الله عليه وسلم (٧) يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم فانى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فانى جعلت فيهم سخطى وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) تجافوا عن ذنب السخى فان الله آخذ

(١) حديث جابر مرفوعا وحكاية عن جبريل عن الله تعالى ان هذا دين رضيته لنفسى ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق الدارقطنى فى المستجاد وقد تقدم (٢) حديث عائشة ما جعل الله وليا له الا على السخاء وحسن الخلق الدارقطنى فى المستجاد دون قوله وحسن الخلق بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بقية عن يوسف بن أبى السفر عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة ويوسف ضعيف جدا (٣) حديث جابر أى الايمان أفضل قال الصبر والسماحة أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء بلفظ سئل عن الايمان وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عنبسة بلفظ ما الايمان قال الصبر والسماحة وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقى فى الزهد بلفظ أى الاعمال أفضل قال الصبر والسماحة وحسن الخلق واسناده صحيح (٤) حديث عبد الله بن عمر وخلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله فاما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء الحديث أبو منصور الديلمى دون قوله فى آخره واذا أراد الله بعبد خيرا وقال فيه الشجاعة بدل حسن الخلق وفيه محمد بن يونس الكديمى كذبه أبو داود وموسى بن هارون وغيرهما ووثقه الخطيب وروى الاصفهانى جميع الحديث موقوفا على عبد الله بن عمرو وروى الديلمى أيضا من حديث أنس اذا أراد الله بعبده خيرا صير حوائج الناس اليه وفيه يحيى بن شبيب ضعفه ابن حبان (٥) حديث المقدام بن شريح عن أبيه عن جده ان من موجبات المغفرة بذل الطعام وافشاء السلام وحسن الكلام الطبرانى بلفظ بذل السلام وحسن الكلام وفى رواية له يوجب الجنة اطعام الطعام وافشاء السلام وفى رواية له عليك بحسن الكلام وبذل الطعام (٦) حديث أبى هريرة السخاء شجرة فى الجنة الحديث وفيه والشح شجرة فى النار الحديث الدارقطنى فى المستجاد وفيه عبد العزيز بن عمران الزهرى ضعيف جدا (٧) حديث أبى سعيد يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم الحديث ابن حبان فى الضعفاء والخرائطى فى مكارم الاخلاق والطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن مروان السدى الصغير ضعيف ورواه العقيلى فى الضعفاء فجعله عبد الرحمن السدى وقال انه مجهول وتابع محمد بن مروان السدى عليه عبد الملك بن الخطاب وقد غمزه ابن القطان وتابعه عليه عبد الغفار بن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لا بأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجانى والازدى ورواه الحاكم من حديث على وقال انه صحيح الاسناد وليس كما قال (٨) حديث ابن عباس تجافوا عن ذنب السخى فان الله آخذ بيده كلما عثر الطبرانى فى الأوسط والخرائطى فى مكارم الاخلاق وقال الخرائطى أقيلوا السخى زلته وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه ورواه الطبرانى فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه باسناد ضعيف

والثلث والربع والخمس حتى يبلغ العشر قال الخواص ينبغى للرجل أن ينوى نوافله لنقصان فرائضه فان لم ينوها لم يحسب له منها شئ بالغنا ان الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة يقول الله تعالى مثلكم كمثل العبد السوء بدأ بالهدية قبل قضاء الدين (وقال) أيضا انقطع الخلق عن الله تعالى بخصلتين احداهما انهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض والثانية انهم عملوا أعمالا بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملا الا بالصدق واصابة الحق وفتح العين فى الصلاة أولى من

بيده كلما عثر وقال ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم (١) الرزق الى مطعم الطعام أسرع من السكين الى ذروة البعير وان الله تعالى ليباهى بمطعم الطعام الملائكة عليهم السلام وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ان الله جواد يحب الجواد ويحب مكارم الاخلاق ويكره سفسافها وقال أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) لم يسأل على الاسلام شيأ الا أعطاه وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع الى قومه فقال ياقوم أسلموا فان محمدا يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة وقال ابن عمر قال صلى الله عليه وسلم (٤) ان لله عبادا يختصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله تعالى عنه وحولها الى غيره وعن الهلالى قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه يارسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فما بال هذا من بينهم فقال صلى الله عليه وسلم نزل على جبريل فقال اقتل هؤلاء واترك هذا فان الله تعالى شكر له سخاء فيه وقال صلى الله عليه وسلم (٦) ان لكل شئ ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح وعن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء وقال صلى الله عليه وسلم (٨) من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال وقال عيسى عليه السلام استكثر وا من شئ لا تأكله النار قيل وماهو قال المعروف وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩) الجنة دار الاسخياء وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٠) ان السخى

تغميض العين الا أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع وان تثاءب فى الصلاة يضم شفتيه بقدر الامكان ولا يلزق ذقنه بصدره ولا يزاحم فى الصلاة غيره (قيل) ذهب المزحوم بصلاة المزاحم (وقيل) من ترك الصف الاول مخافة أن يضيق على أهله فقام فى الثانى أعطاه الله مثل ثواب الصف الاول من غير أن ينقص من أجورهم شئ (وقيل) ان ابراهيم الخليل عليه السلام كان اذا قام الى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل (وروت) عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق الدارقطنى (١) حديث ابن مسعود الرزق الى مطعم الطعام أسرع من السكين الى ذروة البعير الحديث لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ الخير أسرع الى البيت الذى يغشى وفى حديث ابن عباس يؤكل فيه من الشفرة الى سنام البعير ولأبى الشيخ فى كتاب الثواب من حديث جابر الرزق الى أهل البيت الذى فيه السخاء الحديث وكلها ضعيفة (٢) حديث ان الله جواد يحب الجود ويحب معالى الأمور ويكره سفسافها الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز وهذا مرسل وللطبرانى فى الكبير والاوسط والحاكم والبيهقى من حديث سهل ابن سعد ان الله كريم يحب الكرم ويحب معالى الامور وفى الكبير والبيهقى معالى الاخلاق الحديث واسناده صحيح وتقدم آخر الحديث فى أخلاق النبوة (٣) حديث أنس لم يسأل على الاسلام شيأ الا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين الحديث مسلم وتقدم فى أخلاق النبوة (٤) حديث ابن عمر ان لله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد الحديث الطبرانى فى الكبير والاوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتى وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن أبى عثمان عبد الله بن زيد الحمصى ضعفه الأزدى (٥) حديث الهلالى أتى النبى صلى الله عليه وسلم باسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا الحديث وفيه فان الله شكر له سخاء فيه لم أجد له أصلا (٦) حديث ان لكل شئ ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح لم أقف له على أصل (٧) حديث نافع عن ابن عمر طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وأبو على الصدفى فى عواليه وقال رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان وانهم لمشاهير ثقات الا مقدام بن داود فان أهل مصر تكلموا فيه (٨) حديث من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بلفظ ما عظمت نعمة الله على عبد الا فذكره وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث عمر باسناد منقطع وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين ورواه العقيلى من حديث ابن عباس قال ابن عدى يروى من وجوه كلها غير محفوظة (٩) حديث عائشة الجنة دار الاسخياء ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى قال الدارقطنى لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات وقال الذهبى حديث منكر ما آفته سوى جعفر قلت رواه الدارقطنى فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقرى وهو ضعيف جدا (١٠) حديث أبى هريرة ان السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة الحديث الترمذى وقال غريب

قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار وان البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار وجاهل سخي أحب الى الله من عالم بخيل وأدوأ الداء البخل وقال صلى الله عليه وسلم (١) اصنع المعروف الى من هو أهله والى من ليس بأهله فان أصبت أهله فقد أصبت أهله وان لم تصب أهله فأنت من أهله وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ان بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الانفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ان الله عز وجل جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب اليهم المعروف وحبب اليهم فعاله ووجه طلاب المعروف اليهم ويسر عليهم اعطاءه كما يسر الغيث الى البلدة الجدبة فيحييها ويحيي بها أهلها وقال صلى الله عليه وسلم (٤) كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها وقال صلى الله عليه وسلم (٥) كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب اغاثة اللهفان وقال صلى الله عليه وسلم (٦) كل معروف فعلته الى غني أو فقير صدقة وروى أن الله تعالى أوحى الى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فانه سخي وقال جابر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) بعثا عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم ان الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت ﴿الآثار﴾ قال علي كرم الله وجهه اذا أقبلت عليك الدنيا فانفق منها فانها لا تفنى واذا أدبرت عنك فانفق منها فانها لا تبقى وأنشد

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف
وان تولت فأحرى أن تجود بها * فالحمد منها اذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهم عن المروءة والنجدة والكرم فقال أما المروءة فحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن المنازعة والاقدام في الكراهية * وأما النجدة فالذب عن الجار والصبر

ولم يذكر فيه وأدوأ الداء البخل ورواه بهذه الزيادة الدارقطني فيه (١) حديث اصنع المعروف الى أهله والى من ليس من أهله الحديث الدارقطني في المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلا وتقدم في آداب المعيشة (٢) حديث ان بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسماحة الأنفس الحديث الدارقطني في المستجاد وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس وفيه محمد بن عبد العزيز بن المبارك الدينوري أورد ابن عدي له مناكير وفي الميزان انه ضعيف منكر الحديث ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح المري متكلم فيه (٣) حديث أبي سعيد ان الله جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب اليهم المعروف الحديث الدارقطني في المستجاد من رواية أبي هرون العبدي عنه وأبو هرون ضعيف ورواه الحاكم من حديث علي وصححه (٤) حديث كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة الحديث ابن عدي والدارقطني في المستجاد والخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالي ونقه ابن معين وضعفه الجمهور والجملة الأولى منه عند البخاري من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة (٥) حديث كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب اغاثة اللهفان الدارقطني في المستجاد من رواية الحجاج بن ارطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضا وفيها زياد النميري ضعيف (٦) حديث كل معروف فعلته الى غني أو فقير صدقة الدارقطني فيه من حديث أبي سعيد وجابر والطبراني والخرائطي كلاهما في مكارم الاخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر باسنادين ضعيفين (٧) حديث جابر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا عليهم قيس ابن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم الحديث وفيه فقال ان الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت الدارقطني فيه من رواية أبي حمزة الجبري عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله

كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل حتى كان يسمع في بعض سكك المدينة (وسئل) الجنيد ما فريضة الصلاة قال قطع العلائق وجمع الهم والحضور بين يدي الله وقال الحسن ماذا يعز عليك من أمر دينك اذا هانت عليك صلاتك (وقيل) أوحى الله تعالى الى بعض الانبياء فقال اذا دخلت الصلاة فهبلي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع فاني قريب (وقال) أبو الخير الاقطع رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله أوصني فقال يا أبا الخير عليك بالصلاة فاني

فى المواطن وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والاطعام فى المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل * ورفع رجل الى الحسن بن على رضى الله عنهما رقعة فقال حاجتك مقضية فقيل له يا ابن رسول الله لو نظرت فى رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألنى الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدى حتى اقرأ رقعته وقال ابن السماك عجبت لمن يشترى المماليك بماله ولا يشترى الاحرار بمعروفه وسئل بعض الاعراب من سيدكم فقال من احتمل شحنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا وقال على بن الحسين رضى الله عنهما من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخيا وانما السخى من يبتدئ بحقوق الله تعالى فى أهل طاعته ولا تنازعه نفسه الى حب الشكر له اذا كان يقينه بثواب الله تاما وقيل للحسن البصرى ما السخاء فقال أن تجود بمالك فى الله عز وجل قيل فما الحزم قال أن تمنع مالك فيه قيل فما الاسراف قال الانفاق لحب الرياسة وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه لا مال أعون من العقل ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهرة كالمشاورة ألا وان الله عز وجل يقول انى جواد كريم لا يجاورنى لئيم واللؤم من الكفر وأهل الكفر فى النار والجود والكرم من الايمان وأهل الايمان فى الجنة وقال حذيفة رضى الله عنه رب فاجر فى دينه أخرق فى معيشته يدخل الجنة بسماحته وروى ان الاحنف بن قيس رأى رجلا فى يده درهم فقال لمن هذا الدرهم فقال لى فقال أما انه ليس لك حتى يخرج من يدك وفى معناه قيل

أنت للمال اذا أمسكته * فاذا أنفقته فالمال لك

وسمى واصل بن عطاء الغزال لانه كان يجلس الى الغزالين فاذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيأ وقال الاصمعى كتب الحسن بن على الى الحسين بن على رضوان الله عليهم يعتب عليه فى اعطاء الشعراء فكتب اليه خير المال ماوقى به العرض وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء قال السخاء البر بالاخوان والجود بالمال قال وورث أبى خمسين ألف درهم فبعث بها صررا الى اخوانه وقال قد كنت أسأل الله تعالى لاخوانى الجنة فى صلاتى أفأبخل عليهم بالمال وقال الحسن بذل المجهود فى بذل الموجود منتهى الجود وقيل لبعض الحكماء من أحب الناس اليك قال من كثرت أياديه عندى قيل فان لم يكن قال من كثرت أيادى عنده وقال عبد العزيز بن مروان اذا الرجل أمكننى من نفسه حتى أضع معروفى عنده فيده عندى مثل يدى عنده وقال المهدى لشبيب بن شبة كيف رأيت الناس فى دارى فقال يا أمير المؤمنين ان الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال

ان الصنيعة لا تكون صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع
فاذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها * لله أو لذوى القرابة أودع

فقال عبد الله بن جعفر ان هذين البيتين ليغلان الناس ولكن أمطر المعروف مطرا فان أصاب الكرام كانوا له أهلا وان أصاب اللئام كنت له أهلا

﴿ حكايات الاسخياء ﴾

عن محمد بن المنكدر عن أم درة وكانت تخدم عائشة رضى الله عنها قالت ان معاوية بعث اليها بمال فى غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس فلما أمست قالت يا جارية هلمى فطورى فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لو كنت ذكرتنى لفعلت * وعن أبان بن عثمان قال أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال يقول لكم عبيد الله تغدوا عندى اليوم فأتوه حتى ملؤا عليه الدار فقال ما هذا فاخبر الخبر فأمر عبيد الله بشراء فاكهة وأمر قوما فطبخوا وخبزوا وقدمت الفاكهة اليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائدة فأكلوا حتى صدروا فقال عبيد الله لكلانة أموجود لنا هذا كل يوم قالوا نعم قال فليتغد عندنا هؤلاء فى كل يوم * وقال مصعب بن الزبير حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة فقال الحسين بن على لاخيه الحسن لا تلقه ولا تسلم عليه فلما خرج معاوية

استوصيت ربى فاوصانى بالصلاة وقال لى ان أقرب ما أكون منك وأنت تصلى (وقال ابن عباس) رضى الله عنهما ركعتان فى تفكر خير من قيام ليلة (وقيل) ان محمد ابن يوسف الفرغانى رأى حاتما الاصم واقفا يعظ الناس فقال له يا حاتم أراك تعظ الناس أفتحسن أن تصلى قال نعم قال كيف تصلى قال أقوم بالامر وأمشى بالخشية وأدخل بالهيبة وأكبر بالعظمة وأقرأ بالترتيل وأركع بالخشوع وأسجد بالتواضع وأقعد للتشهد بالتمام وأسلم على السنة وأسلمها الى ربى وأحفظها أيام حياتى وأرجع باللوم على نفسى وأخاف أن لا تقبل منى وأرجو

قال الحسن ان علينا دينا فلا بد لنا من اتيانه فركب فى أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه فمر واعليه ببختى عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا وتخلف عن الابل وقوم يسوقونه فقال معاوية ما هذا فذكر له فقال اصرفوه بما عليه الى أبى محمد * وعن واقد بن محمد الواقدى قال حدثنى أبى انه رفع رقعة الى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه فوقع المأمون على ظهر رقعته انك رجل اجتمع فيك خصلتان السخاء والحياء فاما السخاء فهو الذى أطاق ما فى يديك وأما الحياء فهو الذى يمنعك عن تبليغنا ما أنت عليه وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فان كنت قد أصبت فازدد فى بسط يدك وان لم أكن قد أصبت فجنايتك على نفسك وأنت حدثتنى وكنت على قضاء الرشيد عن محمد بن اسحق عن الزهرى عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم (١) قال للزبير بن العوام يا زبير اعلم ان مفاتيح أرزاق العباد بازاء العرش يبعث الله عز وجل الى كل عبد بقدر نفقته فمن كثر كثر له ومن قلل قلل له وأنت أعلم قال الواقدى فوالله لما ذكرة المأمون اياى بالحديث أحب الى من الجائزة وهى مائة ألف درهم * وسأل رجل الحسن بن على رضى الله عنهما حاجة . فقال له يا هذا حق سؤالك اياى بعظم لدى ومعرفتى بما يجب لك تكبر على ويدى تعجز عن نيلك بما أنت أهله والكثير فى ذات الله تعالى قليل ومالى لمكى وفاء لشكرك فان قبلت الميسور ورفعت عنى مؤنة الاحتمال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك فعلت فقال يا ابن رسول الله أقبل وأشكر العطية وأعذر على المنع فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم فاحضر خمسين ألفا قال فما فعلت بالخمسمائة دينار قال هى عندى قال أحضرها فاحضرها فدفع الدنانير والدراهم الى الرجل وقال هات من يحملها لك فاتاه بحمالين فدفع اليه الحسن رداءه لكراء الحالين فقال له مواليه والله ما عندنا درهم فقال أرجو أن يكون لى عند الله أجر عظيم * واجتمع قراء البصرة الى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا الناجار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقا فأخرج منه ستة بدر فقال احملوا فحملوا فقال ابن عباس ما انصفناه اعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنا عن عبادة ربه وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا * وحكى انه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال والله لا علمن الشيطان انى عدوه فعال محاويجهم الى أن رخصت الاسعار ثم عزل عنهم فرحل والتجار عليه ألف ألف درهم فرهنهم بها حلى نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف فلما تغنر عليه ارتجاعها كتب اليهم يبيعها ودفع الفاضل منها عن حقوقهم الى من لم تنله صلاته * وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا فقال له رجل بحق على بن أبى طالب لما وهبت لى نحلتك بموضع كذا وكذا فقال فعلت وحقه لاعطينك ما يليها وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر والله ما عندى ما أعطيك ولكن قدمنى الى القاضى وادع على بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها ثم احبسنى فان أهلى لا يتركونى محبوسا ففعل ذلك فلم يمس حتى دفع اليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس * وكان معن بن زائدة عاملا على العراقين بالبصرة فحضر بابه شاعر فاقام مدة وأراد الدخول على معن فلم يتهيأ له فقال يوما لبعض خدام معن اذا دخل الامير البستان فعرفنى فلما دخل الامير البستان أعلمه فكتب الشاعر بيتا على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فاذا مكتوب عليها

أيا جود معن ناج معنا بحاجتى * فقال الى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه فدعى بالرجل فقال له كيف قلت فقاله فامر له بعشر بدر فاخذها ووضع الامير الخشبة

(١) حديث أنس يا زبير اعلم ان مفاتيح أرزاق العباد بازاء العرش الحديث وفى أوله قصة مع المأمون الدارقطنى فيه وفى اسناده الواقدى عن محمد بن اسحاق عن الزهرى بالعنعنة ولا يصح

ان تقبل منى وأنا بين الخوف والرجاء وأشكر من علمنى وأعلمها من سألنى وأحمد ربى اذ هدانى فقال محمد بن يوسف مثلك يصلح أن يكون واعظا وقوله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى قيل من حب الدنيا وقيل من الاهتمام وقال عليه السلام من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشئ من الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وقال أيضا ان الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتنادم وترفع يديك وتقول اللهم اللهم فمن لا يفعل ذلك فهى خداج أى ناقصة * وقد ورد ان المؤمن اذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان فى أقطار الارض خوفا

تحت بساطه فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع اليه مائة ألف درهم فلما أخذها الرجل تفكر وخاف أن ياخذ منه ما أعطاه فخرج فلما كان فى اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن حق على ان أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار * وقال أبو الحسن المدائنى خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجا فافتقاهم أنقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز فى خباء لها فقالوا هل من شراب فقالت نعم فاناخوا اليها وليس لها الا شويهة فى كسر الخيمة فقالت احلبوها وامتذقوا لبنها ففعلوا ذلك ثم قالوا لها هل من طعام قالت لا الا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيئ لكم ما تأكلون فقام اليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فاذا رجعنا سالمين فألمى بنا فانا صانعون بك خيرا ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فاخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال ويلك تذبحين شاتى لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش قال ثم بعد مدة ألجأتهما الحاجة الى دخول المدينة فدخلاها وجعلا ينقلان البعر اليها ويبيعانه ويتعيشان بثمنه فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فاذا الحسن بن على جالس على باب داره فعرف العجوز وهى له منكرة فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها يا أمة الله أتعرفينى قالت لا قال أنا ضيفك يوم كذا وكذا فقالت العجوز بابى أنت وأمى أنت هو قال نعم ثم أمر الحسن فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة وأمر لها معها بألف دينار وبعث بهما مع غلامه الى الحسين فقال لها الحسين بكم وصلك أخى قالت بالف شاة وألف دينار فامر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بهما مع غلامه الى عبد الله بن جعفر فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين قالت بألفى شاة وألفى دينار فامر لها عبد الله بالفى شاة وألفى دينار وقال لها لو بدأت بى لاعتبتهما فرجعت العجوز الى زوجها بار بعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار * وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده فقام اليه غلام من ثقيف فمشى الى جانبه فقال له عبد الله ألك حاجة يا غلام قال صلاحك وفلاحك رأيتك تمشى وحدك فقلت أقيك بنفسى وأعوذ بالله ان طار بجنابك مكروه فاخذ عبد الله بيده ومشى معه الى منزله ثم دعا بألف دينار فدفعها الى الغلام وقال استنفق هذه فنعم ما أدبك أهلك * وحكى ان قوما من العرب جاؤا الى قبر بعض أسخيائهم للزيارة فنزلوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاؤا من سفر بعيد فرأى رجل منهم فى النوم صاحب القبر وهو يقول له هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبى وكان السخى الميت قد خلف نجيبا معروفا به ولهذا الرجل بعير سمين فقال له فى النوم نعم فباعه فى النوم بعيره بنجيبه فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل الى بعيره فنحره فى النوم فانتبه الرجل من نومه فاذا الدم يشج من نحر بعيره فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق استقبلهم ركب فقال رجل منهم من فلان بن فلان منكم باسم ذلك الرجل فقال أنا فقال هل بعت من فلان بن فلان شيأ وذكر الميت صاحب القبر قال نعم بعت منه بغيرى بنجيبه فى النوم فقال خذ هذا نجيبه ثم قال هو أبى وقد رأيته فى النوم وهو يقول ان كنت ابنى فادفع نجيبى الى فلان بن فلان وسماه * وقدم رجل من قريش من السفر فمر برجل من الاعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض فقال ياهذا أعنا على الدهر فقال الرجل لغلامه ما بقى معك من النفقة فادفعه اليه فصب الغلام فى حجر الاعرابى أربعة آلاف درهم فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف فبكى فقال له الرجل ما يبكيك لعلك استقللت ما أعطيناك قال لا ولكن ذكرت ما تأكل الارض من كرمك فابكانى * واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبى معيط داره التى فى السوق بتسعين ألف درهم فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لاهله ما هؤلاء قالوا يبكون لدارهم فقال يا غلام انتهم فاعلمهم ان المال والدار لهم جميعا * وقيل بعث هرون الرشيد الى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار فبلغ ذلك الليث بن سعد فانفذ اليه ألف دينار فغضب هرون وقال اعطيته خمسمائة وتعطيه ألفا وأنت من رعيتى فقال يا أمير المؤمنين ان لى من غلتى كل يوم ألف دينار فاستحييت أن أعطى مثله أقل من دخل يوم وحكى انه لم تجب

منه لانه تأهب للدخول على الملك فاذا كبر حجب عنه ابليس قيل بضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر اليه وواجهه الجبار بوجهه فاذا قال الله أكبر اطلع الملك فى قلبه فاذا لم يكن فى قلبه أكبر من الله تعالى يقول صدقت الله فى قلبك كما تقول وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ويكشف له بذلك النور ملكوت السموات والارض ويكتب له حشو ذلك النور حسنات وان الجاهل الغافل اذا قام الى الصلاة احتوشته الشياطين كما تحتوش الذباب على نقطة العسل فاذا كبر اطلع الله على قلبه فاذا كان شئ فى قلبه

عليه

عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار * وحكى ان امرأة سألت الليث بن سعد رحمة الله عليه شيأ من عسل فامر لها بازق من عسل فقيل له انها كانت تقنع بدون هذا فقال انها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا * وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينا وقال الاعمش اشتكت شاة عندى فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ويسألنى هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها وكان تحتى لبد أجلس عليه فاذا خرج قال خذ ما تحت اللبد حتى وصل الى فى علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت ان الشاة لم تبرأ وقال عبد الملك بن مروان لاسماء بن خارجة بلغنى عنك خصال خذ ثنى بها فقال هى من غيرى أحسن منها منى فقال عزمت عليك الا حدثتنى بها فقال يا أمير المؤمنين ما مددت رجلى بين يدى جليس لى قط ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قوما الا كانوا أمن على منى عليهم ولا نصب لى رجل وجهه قط يسألنى شيأ فاستكثرت شيأ اعطيته اياه ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلا جوادا فاذا لم يجد شيأ كتب لمن سأله صكا على نفسه حتى يخرج عطاؤه فلما نظر اليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال

انى سمعت مع الصباح مناديا * يامن يعين على الفتى المعوان

ثم قال ما حاجتك قال دينى قال وكم هو قال ثلاثون ألف دينار قال لك دينك ومثله وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ اخوانه فقيل له انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع الاخوان من الزيارة ثم أمر مناديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه برىء قال فانكسرت درجته بالعشى لكثرة من زاره وعاده * وعن أبى اسحق قال صليت الفجر فى مسجد الاشعث بالكوفة أطلب غريما لى فلما صليت وضع بين يدى حلة ونعلان فقلت لست من أهل هذا المسجد فقالوا ان الاشعث بن قيس الكندى قدم البارحة من مكة فامر لكل من صلى فى المسجد بحلة ونعلين وقال الشيخ أبو سعد الحركوشى النيسابورى رحمه الله سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول سمعت الشافعى المجاور بمكة يقول كان بمصر رجل عرف بان يجمع للفقراء شيأ فولد لبعضهم مولود قال فجئت اليه وقلت له ولدلى مولود وليس معى شئ فقام معى ودخل على جماعة فلم يفتح بشئ فجاء الى قبر رجل وجلس عنده وقال رحمك الله كنت تفعل وتصنع وانى درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شئ لمولود فلم يتفق لى شئ قال ثم قام وأخرج دينارا وقسمه نصفين وناولنى نصفه وقال هذا دين علينا الى أن يفتح عليك بشئ قال فاخذته وانصرفت فاصلحت ما اتفق لى به قال فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص فى منامه فقال سمعت جميع ما قلت وليس لنا اذن فى الجواب ولكن أحضر منزلى وقل لاولادى يحفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها الى هذا الرجل فلما كان من الغد تقدم الى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له اجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاؤا بها فوضعوها بين يديه فقال هذا مالكم وليس لرؤياى حكم فقالوا هو يتسخى ميتا ولا نتسخى نحن أحياء فلما ألحوا عليه حمل الدنانير الى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة قال فاخذ منها دينارا فكسره نصفين فاعطاه النصف الذى أقرضه وحمل النصف الاخر وقال يكفينى هذا وتصدق به على الفقراء فقال أبو سعيد فلا أدرى أى هؤلاء أسخى * وروى أن الشافعى رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال مروا فلانا يغسلنى فلما توفى بلغه خبر وفاته فحضر وقال ائتونى بتذكرته فاتى بها فنظر فيها فاذا على الشافعى سبعون ألف درهم دين فكتبها على نفسه وقضاها عنه وقال هذا غسلى اياه أى أراد به هذا وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشى لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلونى عليه فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سيما الخير وآثار الفضل فقلت بلغ أثره فى الخير اليهم وظهرت بركته فيهم مستدلا بقوله تعالى وكان أبوهما صالحا وقال الشافعى رحمه الله لا أزال أحب حماد بن أبى سليمان لشئ بلغنى عنه انه كان ذات يوم راكبا حماره فمر به فانقطع زره فمر على خياط فأراد أن ينزل اليه ليسوى زره فقال الخياط والله لا نزلت فقام الخياط اليه

أكبر من الله تعالى عنده يقول له كذبت ليس الله تعالى أكبر فى قلبك كما تقول فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه من الملكوت فيزداد ذلك الحجاب صلابة ويلتقم الشيطان قلبه فلا يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس اليه ويزين حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه * وفى الخبر لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء والقلوب الصافية التى كمل أدبها لكمال أدب قوالبها تصير سماوية تدخل بالتكبير فى السماء كما تدخل فى

فسوى زره فأخرج اليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها الى الخياط واعتذر اليه من قلتها وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه

يا طف قلبي على مال أجود به * على المقلين من أهل المروآت
ان اعتذاري الى من جاء يسألني * ما ليس عندي لمن احدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال أخرج رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال يا ربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر اليه عني وقال الربيع سمعت الحميدي يقول قدم الشافعي من صنعاء الى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شئ * وعن أبي ثور قال أراد الشافعي الخروج الى مكة ومعه مال وكان قلما يمسك شيأ من سماحته فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك قال فخرج ثم قدم علينا فسألته عن ذلك المال فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفتي بأصلها وقد وقفت أكثرها ولكني بنيت بمني مضربا يكون لاصحابنا اذا حجوا أن ينزلوا فيه وانشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول

أرى نفسي تتوق الى أمور * يقصر دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل * ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون فلما عاد اليه عاتبه المأمون في ذلك فقال يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء ظن بالمعبود فوصله بمائة ألف أخرى * وقام رجل الى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى فقال له سعيد ما يبكيك قال أبكي على الارض أن تأكل مثلك فأمر له بمائة ألف أخرى * ودخل أبو تمام على ابراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلا فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه وقال عسى أن أقوم من مرضي فأكافئه فأقام شهرين فأوحشه طول المقام فكتب اليه يقول

ان حراما قبول مدحتنا * وترك ما نرتجي من الصفد
كالدراهم والدنانير في البيع حرام الا يدا بيد

فلما وصل البيتان الى ابراهيم قال لحاجبه كم أقام بالباب قال شهرين قال أعطه ثلاثين ألفا وجئني بدواة فكتب اليه

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا * قد لا ولو أمهلتنا لم تقلل
نخذ القليل وكن كأنك لم تقل * ونقول نحن كأنا لم نفعل

وروي انه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم فخرج عثمان يوما الى المسجد فقال له طلحة قد تهيأ مالك فاقبضه فقال هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك * وقالت سعدى بنت عوف دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلا فقلت له مالك فقال اجتمع عندي مال وقد غمني فقلت وما يغمك ادع قومك فقال يا غلام على بقومي فقسمه فيهم فسألت الخادم كم كان قال أربعمائة ألف * وجاء اعرابي الى طلحة فسأله وتقرب اليه برحم فقال ان هذه الرحم ما سألني بها أحد قبلك ان لي أرضا قد أعطاني بها عثمان ثلثمائة ألف فان شئت فاقبضها وان شئت بعتها من عثمان ودفعت اليك الثمن فقال الثمن فباعها من عثمان ودفع اليه الثمن * وقيل بكى على كرم الله وجهه يوما فقيل ما يبكيك فقال لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام أخاف أن يكون الله قد أهانني * وأتى رجل صديقا له فدق عليه الباب فقال ما جاء بك قال على أربعمائة درهم دين فوزن أربعمائة درهم وأخرجها اليه وعاد يبكي فقالت امرأته لم أعطيته اذ شق عليك فقال انما أبكي لاني لم أتفقد حاله حتى احتاج الى مفاتحتي فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين

﴿ بيان ذم البخل ﴾

قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وقال تعالى ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من

الصلاة والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين فالقلب السماوي لا سبيل للشيطان اليه فتبقى هواجس نفسانية عند ذلك لانقطع بالتحصن بالسماء كانقطاع تصرف الشيطان والقلوب المرادة بالقرب تدرج بالتقريب وتعرج في طبقات السموات وفي كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شئ من ظلمة النفس وبقدر ذلك يقل الهاجس الى أن يتجاوز السموات ويقف أمام العرش فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش وتندرج ظلمات النفس في نور القلب اندراج

فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وقال تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وقال صلى الله عليه وسلم (١) اياكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وقال صلى الله عليه وسلم (٢) اياكم والشح فانه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم وقال صلى الله عليه وسلم (٣) لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيئ الملكة وفي رواية ولا جبار وفي رواية ولا منان وقال صلى الله عليه وسلم (٤) ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه وقال صلى الله عليه وسلم (٥) ان الله يبغض ثلاثة الشيخ الزاني والبخيل المنان والمعيل المختال وقال صلى الله عليه وسلم (٦) مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما الى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق شيأ الا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيأ الا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع وقال صلى الله عليه وسلم (٧) خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق وقال صلى الله عليه وسلم (٨) اللهم اني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد الى أرذل العمر وقال صلى الله عليه وسلم (٩) اياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واياكم والفحش ان الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش واياكم والشح فانما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وقال صلى الله عليه وسلم (١٠) شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكته باكية فقالت واشهيداه فقال صلى الله عليه وسلم (١١) وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه وقال جبير بن مطعم

(١) حديث اياكم والشح الحديث مسلم من حديث جابر بلفظ واتقوا الشح فان الشح الحديث ولابي داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو اياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا

(٢) حديث اياكم والشح فانه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ حرماتهم مكان أرحامهم وقال صحيح على شرط مسلم (٣) حديث لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيئ الملكة وفي رواية ولا منان أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله ولا منان فهي عند الترمذي وله ولابن ماجه لا يدخل الجنة سيئ الملكة

(٤) حديث ثلاث مهلكات الحديث تقدم في العلم (٥) حديث ان الله يبغض ثلاثا الشيخ الزاني والبخيل المنان والفقير المختال الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله البخيل المنان وقال فيه الغني الظلوم وقد تقدم وللطبراني في الاوسط من حديث علي ان الله ليبغض الغني الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال وسنده ضعيف (٦) حديث مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب (٨) حديث اللهم اني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن الحديث البخاري من حديث سعد وتقدم في الاذكار (٩) حديث اياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة الحديث الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله امرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا قال عوضا عنهما وبالبخل فبخلوا وبالفجور ففجروا وكذا رواه أبو داود مقتصرا على ذكر الشح وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث ولمسلم من حديث جابر اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش (١٠) حديث شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع أبو داود من حديث جابر بسند جيد (١١) حديث وما يدريك انه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وللبيهقي في الشعب من حديث أنس ان أمه قالت ليهنك الشهادة وهو عند الترمذي الا أن رجلا قال له ابشر بالجنة

الليل في النهار وتتأدى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب (وما ذكرنا) من أدب الصلاة يسير من كثير وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكمل من ذكرنا وقد غلط أقوام وظنوا ان المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى واذا حصل الذكر فأي حاجة الى الصلاة وسلكوا طرقا من الضلال وركنوا الى أباطيل الخيال ومحوا الرسوم والاحكام ورفضوا الحلال والحرام وقوم آخرون سلكوا في ذلك طريقا أدتهم الى نقصان الحال حيث سلموا من الضلال لانهم اعترفوا بالفرائض وأنكروا فضل النوافل واغتروا

(١) بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفله من خيبر اذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الاعراب يسألونه حتى اضطروه الى سمرة فخطفت رداءه فوقف صلى الله عليه وسلم فقال أعطونى ردائى فوالذى نفسى بيده لو كان لى عدد هذه العضاه نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا وقال عمر رضى الله عنه (٢) قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما فقلت غير هؤلاء كانوا أحق به منهم فقال انهم يخيرونى بين أن يسألونى بالفحش أو يبخلونى ولست ببا خل وقال أبو سعيد الخدرى (٣) دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه ثمن بعير فاعطاهما دينارين فخرجا من عنده فلقيهما عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فاثنيا وقالا معروفا وشكرا ما صنع بهما فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره بما قالا فقال صلى الله عليه وسلم لكن فلان أعطيته ما بين عشرة الى مائة ولم يقل ذلك ان أحدكم ليسألنى فينطاق فى مسألته متأبطها وهى نار فقال عمر فلم تعطيهم ما هو نار فقال يأبون الا أن يسألونى و يأبى الله لى البخل وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) الجود من جود الله تعالى فجودوا يجدكم الله ألا ان الله عز وجل خلق الجود فجعله فى صورة رجل وجعل رأسه راسخا فى أصل شجرة طوبى وشد أغصانها بأغصان سدرة المنتهى ودلى بعض أغصانها الى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة ألا ان السخاء من الايمان والايمان فى الجنة وخلق البخل من مقته وجعل رأسه راسخا فى أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها الى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار ألا ان البخل من الكفر والكفر فى النار وقال صلى الله عليه وسلم (٥) السخاء شجرة تنبت فى الجنة فلا يلج الجنة الا سخى والبخل شجرة تنبت فى النار فلا يلج النار الا بخيل وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) لو فدينى لحيان من سيدكم يا بنى لحيان قالوا سيدنا جد بن قيس الا انه رجل فيه بخل فقال صلى الله عليه وسلم وأى داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجوح وفى رواية انهم قالوا سيدنا جد بن قيس فقال بم تسودونه قالوا انا كثر نا مالا وانا على ذلك لنرى منه البخل فقال عليه السلام وأى داء أدوأ من البخل ليس ذلك سيدكم قالوا فمن سيدنا يا رسول الله قال سيدكم بشر بن البراء وقال على رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) ان الله يبغض البخيل فى حياته السخى عند موته وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) السخى الجهول أحب الى الله من العابد البخيل وقال أيضا قال صلى الله عليه وسلم (٩) الشح

(١) حديث جبير بن مطعم بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفله من حنين علقت الأعراب به الحديث البخارى وتقدم فى أخلاق النبوة (٢) حديث عمر قسم النبى صلى الله عليه وسلم قسما الحديث وفيه ولست ببا خل مسلم (٣) حديث أبى سعيد فى الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقيهما عمر فاثنيا وقالا معروفا الحديث وفيه و يأبى الله لى البخل رواه أحمد وأبو يعلى والبزار نحوه ولم يقل أحدا نهما سألاه ثمن بعير ورواه البزار من رواية أبى سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات (٤) حديث ابن عباس الجود من جود الله فجودوا يجدكم الله لكم الحديث بطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده ولم أقف له على اسناد (٥) حديث السخاء شجرة تنبت فى الجنة فلا يلج فى الجنة الا سخى الحديث تقدم دون قوله فلا يلج فى الجنة الى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرجه ولده فى مسنده (٦) حديث أبى هريرة من سيدكم يا بنى لحيان قالوا سيدنا جد بن قيس الحديث الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ يا بنى سلمة وقال سيدكم بشر بن البراء وأما الرواية التى قال فيها سيدكم عمرو بن الجوح فرواها الطبرانى فى الصغير من حديث كعب بن مالك باسناد حسن (٧) حديث على ان الله ليبغض البخيل فى حياته السخى عند موته ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده ولم أجد له اسنادا (٨) حديث أبى هريرة السخى الجهول أحب الى الله من العابد البخيل الترمذى بلفظ والجاهل سخى وهو بقية حديث ان السخى قريب من الله وقد تقدم (٩) حديث أبى هريرة لا يجتمع الشح والايمان فى قلب عبد النسائى

يسير روح الحال وأهملوا فضل الاعمال ولم يعلموا ان لله فى كل هيئة من الهيئات وكل حركة من الحركات أسرارا وحكما لا توجد فى شئ من الاذكار فالاحوال والاعمال روح وجسمان ومادام العبد فى دار الدنيا اعراضه عن الاعمال عين الطغيان فالاعمال تزكو بالاحوال والاحوال تنمو بالاعمال

(الباب التاسع والثلاثون فى فضل الصوم وحسن أثره)

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر نصف الايمان والصوم نصف الصبر وقيل ما فى عمل ابن آدم شئ الا ويذهب برد المظالم الا الصوم فانه لا يدخله

والايمان لايجتمعان فى قلب عبد وقال أيضا (١) خصلتان لايجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الخلق وقال صلى الله عليه وسلم (٢) لاينبغى لمؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا وقال صلى الله عليه وسلم (٣) يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أظلم عند الله من الشح حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله لايدخل الجنة شحيح ولا بخيل وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) كان يطوف بالبيت فاذا رجل متعلق باستار الكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت الا غفرت لى ذنبى فقال صلى الله عليه وسلم وماذنبك صفه لى فقال هو أعظم من أن أصفه لك فقال و يحك ذنبك أعظم أم الارضون فقال بل ذنبى أعظم يارسول الله قال فذنبك أعظم أم الجبال قال بل ذنبى أعظم يارسول الله قال فذنبك أعظم أم البحار قال بل ذنبى أعظم يارسول الله قال فذنبك أعظم أم السموات قال بل ذنبى أعظم يارسول الله قال فذنبك أعظم أم العرش قال بل ذنبى أعظم يارسول الله قال فذنبك أعظم أم الله قال بل الله أعظم وأعلى قال و يحك فصف لى ذنبك قال يارسول الله انى رجل ذو ثروة من المال وان السائل ليأتينى يسألنى فكأنما يستقيلنى بشعلة من نار فقال صلى الله عليه وسلم اليك عنى لاتحرقنى بنارك فوالذى بعثنى بالهداية والكرامة لو قمت بين الركن والمقام ثم صليت ألفى ألف عام ثم بكيت حتى تجرى من دموعك الانهار وتسقى بها الاشجار ثم مت وأنت لئيم لأكبك الله فى النار و يحك أما علمت ان البخل كفر وان الكفر فى النار و يحك أما علمت ان الله تعالى يقول ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴿الآثار﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما لما خلق الله جنة عدن قال لها تزينى فتزينت ثم قال لها اظهرى أنهارك فاظهرت عين السلسبيل وعين الكافور وعين التسنيم فتفجر منها فى الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن ثم قال لها أظهرى سررك وحجالك وكراسيك وحليك وحللك وحور عينك فاظهرت فنظر اليها فقال تكلمى فقالت طوبى لمن دخلنى فقال الله تعالى وعزتى لا أسكنك بخيلا وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز أف للبخيل لو كان البخل قميصا لبسته ولو كان طريقا ماسلكته وقال طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه انا لنعد بأموالنا مايعد البخلاء لكننا نصبر وقال محمد بن المنكدر كان يقال اذا أراد الله بقوم شرا أمر عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بايدى بخلائهم وقال على كرم الله وجهه فى خطبته انه سيأتى على الناس زمان عضوض يعض الموسر على مافى يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ولا تنسوا الفضل بينكم وقال عبد الله بن عمر والشح أشد من البخل لان الشحيح هو الذى يشح على مافى يد غيره حتى يأخذه و يشح بمافى يده فيحبسه والبخيل هو الذى يبخل بمافى يده وقال الشعبى لاأدرى أيهما أبعد غورا فى نار جهنم البخل أو الكذب وقيل ورد على أنوشروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندى تكلم فقال خير الناس من الفى سخيا وعند الغضب وقورا وفى القول متأنيا وفى الرفعة متواضعا وعلى كل ذى رحم مشفقا وقام الرومى فقال من كان بخيلا ورث عدوه ماله ومن قل شكر لم ينل النجح وأهل الكذب مذمومون وأهل النميمة يموتون فقراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه وقال الضحاك فى قوله تعالى انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا قال البخل أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة فى سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى وقال كعب مامن صباح الا وقد وكل به ملكان ينادیان اللهم عجل لممسك تلفا وعجل لمنفق خلفا وقال الاصمعى سمعت اعرابيا وقد وصف رجلا فقال لقد صغر فلان فى عينى لعظم الدنيا فى عينه وكأنما يرى السائل ملك الموت اذا أتاه وقال أبو حنيفة رحمه الله لا أرى أن أعدل بخيلا لان البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن فمن كان هكذا لا يكون مأمون الامانة وقال على كرم الله

قصاص و يقول الله تعالى يوم القيامة هذا لى فلا يقتص أحد منه شيأ (وفى الخبر) الصوم لى وأنا أجزى به قيل أضافه الى نفسه لان فيه خلقا من أخلاق الصمدية وأيضا لانه من أعمال السر من قبيل الترك لايطلع عليه أحد الا الله وقيل فى تفسير قوله تعالى الساجحون الصائمون لانهم ساحوا الى الله تعالى بجوعهم وعطشهم وقيل فى قوله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب هم الصائمون لان الصبر اسم من أسماء الصوم و يفرغ للصائم افراغا و يجازف له مجازفة وقيل أحد الوجوه فى قوله تعالى فلا

وفى اسناده اختلاف (١) حديث خصلتان لاتجتمعان فى مؤمن الحديث الترمذى من حديث أبى سعيد وقد تقدم (٢) حديث لاينبغى لمؤمن أن يكون جبانا ولا بخيلا لم أره بهذا اللفظ (٣) حديث يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أظلم من الشح الحديث وفيه لايدخل الجنة شحيح ولا بخيل لم أجده بتمامه وللترمذى من حديث أبى بكر لايدخل الجنة بخيل وقد تقدم (٤) حديث كان يطوف بالبيت فاذا رجل متعلق باستار الكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت الا غفرت لى الحديث فى ذم البخل وفيه قال اليك عنى لاتحرقنى

وجهه والله ما استقصى كريم قط حتى قال الله تعالى عرف بعضه وأعرض عن بعض وقال الجاحظ ما بقي من اللذات الا ثلاث ذم البخلاء وأكل القديد وحك الجرب وقال بشر بن الحرث البخيل لا غيبة له قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) انك اذا بخيل ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) فقالوا صوامة قوامة الا أن فيها بخلا قال فما خيرها اذا وقال بشر النظر الى البخيل يقسي القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين وقال يحيى بن معاذ ما في القلب للاسخياء الا حب ولو كانوا اشرارا وللبخلاء الا بغض ولو كانوا أبرارا وقال ابن المعتز أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام ابليس في صورته فقال له يا ابليس اخبرني باحب الناس اليك وأبغض الناس اليك قال أحب الناس الى المؤمن البخيل وأبغض الناس الى الفاسق السخي قال له لم قال لان البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله ثم ولي وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك

﴿ حكايات البخلاء ﴾

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل فدعاه بعض جيرانه وقدم اليه طباهجة بيض فاكل منه فاكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت فجعل يتلوى فلما جهده الامر وصف حاله للطبيب فقال لا بأس عليك تفيأ ما أكلت فقال هاه أتفيأ طباهجة بيض الموت ولا ذلك * وقيل أقبل أعرابي يطلب رجلا وبين يديه تين فعطى التين بكسائه فجلس الاعرابي فقال له الرجل هل تحسن من القرآن شيأ قال نعم فقرأ والزيتون وطور سينين فقال وأين التين قال هو تحت كسائك * ودعا بعضهم أخاله ولم يطعمه شيأ فحبسه الى العصر حتى اشتد جوعه وأخذه مثل الجنون فاخذ صاحب البيت العود وقال له يحياني أي صوت تشتهي أن أسمعك قال صوت المقلي * ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلا قبيح البخل فسئل نسيب له كان يعرفه عنه فقال له قائل صف لي مائدته فقال هي فترى فتروحافه منقورة من حب الخشخاش قيل فمن يحضرها قال الكرام الكاتبون قال فما يأكل معه أحد قال بلى الذباب فقال سوأتك بدت وأنت خاص به وثوبك مخرق قال أنا والله ما أقدر على ابرة أخيطه بها ولو ملك محمد بيتا من بغداد الى النوبنة عملوا ابرا تم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يطلبون منه ابرة ويسألونه اعارتهم اياها ليخيط بها قميص يوسف الذي قدمن دبر ما فعل * ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلا حتى يقرم اليه فاذا قرم اليه أرسل غلامه فاشترى له رأسا فأكله فقيل له نراك لا تاكل الا الرؤس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك قال نعم الرأس أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبنني فيه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه ان مس عينا أو أذنا أو خدا وقفت على ذلك وآكل منه ألوانا عينه لونا وأذنه لونا ولسانه لونا وغلصمته لونا ودماغه لونا وأكفي مؤنة طبخه فقد اجتمعت لي فيه مرافق وخرج يوما يريد الخليفة المهدي فقالت له امرأة من أهله مالي عليك ان رجعت بالجائزة فقال ان أعطيت مائة ألف أعطيتك درهما فاعطى ستين ألفا فاعطاها أربعة دوانق واشترى مرة لحما بدرهم فدعاه صديق له فرد اللحم الى القصاب بنقصان دانق وقال أكره الاسراف * وكان للاعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول لو دخلت فاكلت كسرة وملحا فيأبى عليه الاعمش فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الاعمش فقال سر بنا فدخل منزله فقرب اليه كسرة وملحا فجاء سائل فقال له رب المنزل بورك فيك فاعاد عليه المسألة فقال له بورك فيك فلما سأل الثالثة قال له اذهب والا والله خرجت اليك بالعصا قال فناداه الاعمش وقال اذهب ويحك فلا والله ما رأيت أحدا أصدق مواعيد منه هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح فلا والله ما زادني عليهما

﴿ بيان الايثار وفضله ﴾

اعلم ان السخاء والبخل كل منهما ينقسم الى درجات فارفع درجة السخاء الايثار وهو أن يجود بالمال مع الحاجة اليه وانما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج اليه لمحتاج أو لغير محتاج والبذل مع الحاجة أشد وكان السخاوة قد تنتهي

(١) حديث انك لبخيل ٧ (٢) حديث مدحت امرأة عند النبي

٧ قول العراقي انك لبخيل هكذا بالنسخ من غير ذكر راو ولم يخرجه الشارح أيضا فلينظر له مصححه

نعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون كان عملهم الصوم (وقال) يحيى بن معاذ اذا ابتلى المريد بكثرة الاكل بكت عليه عليه الملائكة رحمة له ومن ابتلى بحرص الاكل فقد أحرق بنار الشهوة وفي نفس ابن آدم أنف عضو من الشر كلها في كف الشيطان متعلق بها فاذا جوع بطنه وأخذ حلقه وراض نفسه يبس كل عضو او احترق بنار الجوع وفر الشيطان من ظله واذا أشبع بطنه وترك حلقه في لذائذ الشهوات فقد رطب أعضاءه وأمكن الشيطان والشبع نهر في النفس ترده الشياطين والجوع نهر في

الى ان يسخو الانسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهى الى ان يبخل على نفسه مع الحاجة فكم من بخيل يمسك المال و يمرض فلا يتداوى و يشتهى الشهوة فلا يمنعه منها الا البخل بالثمن ولو وجدها مجانا لأكلها فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة وذلك يؤثر على نفسه غيره مع انه محتاج اليه فانظر ما بين الرجلين فان الاخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الايثار درجة فى السخاء وقد أثنى الله على الصحابة رضى الله عنهم به فقال و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وقال النبى صلى الله عليه وسلم (١) أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له وقالت عائشة رضى الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا (٣) ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيأ فدخل عليه رجل من الانصار فذهب بالضيف الى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يمد يده الى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد عجب الله من صنيعكم الليلة الى ضيفكم ونزلت و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى والايثار أعلى درجات السخاء وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى عظيما فقال تعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال سهل بن عبد الله التسترى قال موسى عليه السلام يارب أرنى بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته فقال يا موسى انك لن تطيق ذلك ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلى جميع خلقى قال فكشف له عن ملكوت السموات فنظر الى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى فقال يارب بماذا بلغت به الى هذه الكرامة قال بخلق اختصصته به من بينهم وهو الايثار يا موسى لا يأتينى أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره الا استحييت من محاسبته و بوأته من جنتى حيث يشاء وقيل خرج عبد الله بن جعفر الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه اذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى اليه الغلام بقرص فأكله ثم رمى اليه الثانى والثالث فأكله وعبد الله ينظر اليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت به هذا الكلب قال ما هى بارض كلاب انه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت أن أشبع وهو جائع قال فما أنت صانع اليوم قال أطوى يومى هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء ان هذا الغلام لأسخى منى فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فاعتق الغلام ووهبه منه وقال عمر رضى الله عنه أهدى الى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال ان أخى كان أحوج منى اليه فبعث به اليه فلم يزل كل واحد يبعث به الى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع الى الاول وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) فاوحى الله

---

(١) حديث أيما رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له ابن حبان فى الضعفاء وأبو الشيخ فى الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم (٢) حديث عائشة ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية ولو شئنا لشبعنا ولكنا نؤثر على أنفسنا البيهقى فى الشعب بلفظ ولكنه كان يؤثر على نفسه وأول الحديث عند مسلم بلفظ ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز بر حتى مضى لسبيله وللشيخين ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليال تباعا حتى قبض زاد مسلم من طعام (٣) حديث نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيأ فدخل عليه رجل من الانصار فذهب به الى أهله الحديث فى نزول قوله تعالى و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة متفق عليه من حديث أبى هريرة (٤) حديث بات على على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فاوحى الله الى جبريل وميكائيل انى آخيت بينكما وجعلت عمر أحد كما أطول من الآخر الحديث فى نزول قوله تعالى ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله أحمد مختصرا من حديث ابن عباس شرى على نفسه فلبس ثوب النبى صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه الحديث وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أقف لهذه الزيادة على أصل وفيه أبو بلج مختلف فيه والحديث منكر

الروح ترده الملائكة وينهزم الشيطان من جائع نائم فكيف اذا كان قائما ويعانق الشيطان شبعانا قائما فكيف اذا كان نائما فقلب المريد الصادق يصرخ الى الله تعالى من طلب النفس الطعام والشراب * دخل رجل الى الطيالسى وهو يأكل خبزا يابسا قد بله بالماء مع ملح جريش فقال له كيف تشتهى هذا قال أدعه حتى اشتهيه (وقيل) من أسرف فى مطعمه ومشربه يعجل الصغار والذل اليه فى دنياه قبل آخرته (وقال) بعضهم الباب العظيم الذى يدخل منه الى الله تعالى قطع الغذاء (وقال بشر) ان الجوع

تعالى الى جبريل وميكائيل عليهما السلام انى آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فايكما يؤثر صاحبه بالحياة فاختارا كلاهما الحياة وأحبها فاوحى الله عزوجل اليهما أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب آخيت بينه وبين نبيى محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة اهبطا الى الارض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبريل عليه السلام يقول بخ بخ من مثلك يا ابن أبى طالب والله تعالى يباهى بك الملائكة فانزل الله تعالى ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤف بالعباد وعن أبى الحسن الانطاكى انه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفسا وكانوا فى قرية بقرب الرى ولم أر غفة معدودة لم تشبع جميعهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام فلما رفع فاذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيأ ايثارا لصاحبه على نفسه وروى ان شعبة جاءه سائل وليس عنده شئ فنزع خشبة من سقف بيته فاعطاه ثم اعتذر اليه وقال حذيفة العدوى انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فاشار الى أن نعم فاذا رجل يقول آه فاشار ابن عمى الى أن انطلق به اليه قال فجئته فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع به آخر فقال آه فاشار هشام انطلق به اليه فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين وقال عباس بن دهقان ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها الا بشر بن الحرث فانه أتاه رجل فى مرضه فشكا اليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه اياه واستعار ثوبا فمات فيه وعن بعض الصوفية قال كا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا الى باب الجهاد فتبعنا كلب من البلد فلما بلغنا ظاهر الباب اذا نحن بدابة ميتة فصعدنا الى موضع عال وقعدنا فلما نظر الكلب الى الميتة رجع الى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلبا فجاء الى تلك الميتة وقعدنا حيه ووقعت الكلاب فى الميتة فما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر اليها حتى أكلت الميتة وبقى العظم ورجعت الكلاب الى البلد فقام ذلك الكلب وجاء الى تلك العظام فأكل مما بقى عليها قليلا ثم انصرف وقد ذكرنا جملة من أخبار الايثار وأحوال الاولياء فى كتاب الفقر والزهد فلا حاجة الى الاعادة ههنا وبالله التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عزوجل

﴿بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما﴾

لعلك تقول قد عرف بشواهد الشرع ان البخل من المهلكات ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الانسان بخيلا ومامن انسان الا وهو يرى نفسه سخيا وربما يراه غيره بخيلا وقد يصدر فعل من انسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل ومامن انسان الا ويجد من نفسه حبا للمال ولاجله يحفظ المال ويمسكه فان كان يصير بامساك المال بخيلا فاذا لا ينفك أحد عن البخل واذا كان الامساك مطلقا لا يوجب البخل ولا معنى للبخل الا الامساك فما البخل الذى يوجب الهلاك وما حد السخاء الذى يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها فنقول قد قال قائلون حد البخل منع الواجب فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل وهذا غير كاف فان من يرد اللحم مثلا الى القصاب والخبز للخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فانه يعد بخيلا بالاتفاق وكذلك من يسلم الى عياله القدر الذى يفرضه القاضى ثم يضايقهم فى لقمة ازدادوها عليه أو تمرة أكلوها من ماله يعد بخيلا ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يأكل معه فاخفاه عنه عد بخيلا وقال قائلون البخيل هو الذى يستصعب العطية وهو أيضا قاصر فانه ان أريد به انه يستصعب كل عطية فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها ويستصعب ما فوق ذلك وان أريد به انه يستصعب بعض العطايا فما من جواد الا وقد يستصعب بعض العطايا وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم فهذا لا يوجب الحكم بالبخل وكذلك تكلموا فى الجود فقيل الجود عطاء بلا من واسعاف من غير روية وقيل الجود عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل وقيل الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن وقيل الجود عطاء على رؤية ان المال لله تعالى والعبد لله عزوجل

يصفى الفؤاد ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق وقال ذوالنون ما أكلت حتى شبعت ولا شربت حتى رويت الا عصيت الله أو هممت بمعصية وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت كان يأتى علينا الشهر ونصف شهر ما ندخل بيتنا نارا لا لمصباح ولا لغيره قال قلت سبحان الله فبأى شئ كنتم تعيشون قالت بالتمر والماء وكان لنا جيران من الانصار بزاهم الله خيرا كانت لهم منائح فربما واسونا بشئ (وروى) أن حفصة بنت عمر رضى الله عنهما قالت لابيها ان الله قد أوسع الرزق فلو

فيعطى عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر وقيل من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الاكثر وأبقى لنفسه شيأ فهو صاحب جود ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب ايثار ومن لم يبذل شيأ فهو صاحب بخل وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل بل نقول المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ويمكن امساكه عن الصرف الى ما خلق للصرف اليه ويمكن بذله بالصرف الى ما لا يحسن الصرف اليه ويمكن التصرف فيه بالعدل وهو ان يحفظ حيث يجب الحفظ ويبذل حيث يجب البذل فالامساك حيث يجب البذل بخل والبذل حيث يجب الامساك تبذير وبينهما وسط وهو المحمود وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه اذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بالسخاء وقد قيل له ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وقال تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فالجود وسط بين الاسراف والاقتار وبين البسط والقبض وهو ان يقدر بذله وامساكه بقدر الواجب ولا يكفي ان يفعل ذلك بجوارحه مالم يكن قلبه طيبا به غير منازع له فيه فان بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متسخ وليس بسخي بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال الا من حيث يراد المال له وهو صرفه الى ما يجب صرفه اليه فان قلت فقد صار هذا موقوفا على معرفة الواجب فما الذي يجب بذله فاقول ان الواجب قسمان واجب بالشرع وواجب بالمروءة والعادة والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة فان منع واحدا منهما فهو بخيل ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل كالذي يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة أو يؤذيهما ولكنه يشق عليه فانه بخيل بالطبع وانما يتسخى بالتكلف أو الذي يتيمم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطي من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخل * وأما واجب المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات فان ذلك مستقبح واستقباح ذلك يختلف بالاحوال والاشخاص فمن كثر ماله استقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ومماليكه ما لا يستقبح مع الاجانب ويستقبح من الجار ما لا يستقبح مع البعيد ويستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح في المعاملة فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب اذ يستقبح في الاطعمة ما لا يستقبح في غيرها ويستقبح في شراء الكفن مثلا أو شراء الاضحية أو شراء خبز الصدقة ما لا يستقبح في غيره من المضايقة وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبي وبمن منه المضايقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع اما بحكم الشرع واما بحكم المروءة وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره ولعل حد البخل هو امساك المال عن غرض ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال فان صيانة الدين أهم من حفظ المال فمانع الزكاة والنفقة بخيل وصيانة المروءة أهم من حفظ المال والمضايق في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه هاتك ستر المروءة لحب المال فهو بخيل ثم تبقى درجة أخرى وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ المروءة ولكن معه مال كثير قد جمعه ليس يصرفه الى الصدقات والى المحتاجين فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدة على نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعا لدرجاته في الآخرة وامساك المال عن هذا الغرض بخل عند الاكياس وليس يبخل عند عوام الخلق وذلك لان نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون امساكه لدفع نوائب الزمان مهما ورد مما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه ان كان في جواره محتاج فمنعه وقال قد أديت الزكاة الواجبة وليس على غيري ويختلف استباحة ذلك باختلاف مقدار ماله وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرأ من البخل نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات فاذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه اليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير ودرجات ذلك لا تحصر وبعض الناس أجود من بعض فاصطناع

أكلت طعاما أكثر من طعامك ولبست ثيابا ألين من ثيابك فقال اني أخاصمك الى نفسك ألم يكن من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا يقول مرارا فبكت فقال قد أخبرتك والله لا شاركنه في عيشه الشديد لعلي أصيب عيشة الرخاء وقال بعضهم ما تخلف لعمر دقيقا الا وأناله عاص (وقالت) عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من خبز بر حتى مضى لسبيله وقالت عائشة رضي الله عنها أدبنا أقرع باب الملكوت يفتح لكم قالوا كيف ندم قالت بالجوع والعطش والظمأ (وقيل) ظهر ابليس

المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فان من طمع فى الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد فانه يشترى المدح بماله والمدح لذيذ وهو مقصود فى نفسه والجود هو بذل الشئ من غير عوض هذا هو الحقيقة ولا يتصور ذلك الا من الله تعالى وأما الآدمى فاسم الجود عليه مجاز اذ لا يبذل الشئ الا لغرض ولكنه اذا لم يكن غرضه الا الثواب فى الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جوادا فان كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا أو من ملامة الخلق أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه فكل ذلك ليس من الجود لانه مضطر اليه بهذه البواعث وهى أعواض مجلبة له عليه فهو معتاض لا جواد كما روى عن بعض المتعبدات انها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت هل فيكم من أسأله عن مسألة فقالوا لها سلى عما شئت وأشاروا الى حبان بن هلال فقالت ما السخاء عندكم قالوا العطاء والبذل والايثار قالت هذا السخاء فى الدنيا فما السخاء فى الدين قالوا أن نعبد الله سبحانه سخية بها أنفسنا غير مكرهة قالت فتريدون على ذلك أجرا قالوا نعم قالت ولم قالوا لان الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها قالت سبحان الله فاذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فبأى شئ تسخيتم عليه قالوا لها فما السخاء عندك يرحمك الله قالت السخاء عندى أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين لا تريدون على ذلك أجرا حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها انكم تريدون شيأ بشئ ان هذا فى الدنيا لقبيح وقالت بعض المتعبدات أتحسبون أن السخاء فى الدرهم والدينار فقط قيل ففيم قالت السخاء عندى فى المهج وقال المحاسبى السخاء فى الدين ان تسخو بنفسك تتلفها لله عز وجل وتسخو قلبك ببذل مهجتك واهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير اكراه ولا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا وان كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله حتى يكون مولاك هو الذى يفعل لك ما لا تحسن أن تختاره لنفسك

﴿بيان علاج البخل﴾

اعلم ان البخل سببه حب المال وحب المال سببان * أحدهما حب الشهوات التى لا وصول اليها الا بالمال مع طول الامل فان الانسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما انه كان لا يبخل بماله اذ القدر الذى يحتاج اليه فى يوم أو فى شهر أو فى سنة قريب وان كان قصير الامل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الامل فانه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لاجلهم ولذلك قال عليه السلام (١) الولد مبخلة مجبنة مجهلة فاذا انضاف الى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجىء الرزق قوى البخل لا محالة * السبب الثانى أن يحب عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره اذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه باخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار محبا للدنانير عاشقا لها يلتذ بوجودها فى يده وبقدرته عليها فيكنزها تحت الارض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ومع هذا فلا تسمح نفسه بان يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما فى كبر السن وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصا فاحب رسوله لنفسه ثم نسى محبوبه واشتغل برسوله فان الدنانير رسول يبلغ الى الحاجات فصارت محبوبة لذلك لان الموصل الى اللذيذ لذيذ ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب فى نفسه وهو غاية الضلال بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل الامن حيث قضاء حاجته به فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة فهذه أسباب حب المال وانما علاج كل علة بمضادة سببها فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر وتعالج طول الامل بكثرة ذكر الموت والنظر فى موت الاقران وطول تعبهم فى جمع المال وضياعه بعدهم وتعالج التفات القلب الى الولد بان خالقه خالق معه رزقه وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن

(١) حديث الولد مبخلة زاد فى رواية محزنة ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله محزنة رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبزار من حديث أبى سعيد والحاكم من حديث الاسود بن خلف واسناده صحيح

ليحيى بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق فقال ما هذه قال الشهوات التى أصيب بها ابن آدم قال هل تجد لى فيها شهوة قال لا غير انك شبعت ليلة فثقلناك عن الصلاة والذكر فقال لاجرم انى لا أشبع أبدا قال ابليس لاجرم انى لا أنصح أحدا أبدا ﴿وقال﴾ شقيق العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلاتها الجوع وقال لقمان لابنه اذا ملئت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة (وقال) الحسن لا تجمعوا بين الادمين فانه من طعام المنافقين وقال بعضهم أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت

ورث

وزرث وبان يعلم انه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده يخبر وينقلب هو الى شر وان ولده ان كان تقيا صالحا فالله كافيه وان كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية وترجع مظالمته اليه ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل فى الاخبار الواردة فى ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم ومن الادوية النافعة كثرة التأمل فى أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له فانه ما من بخيل الا ويستقبح البخل من غيره ويستثقل كل بخيل من أصحابه فيعلم انه مستثقل ومستقذر فى قلوب الناس مثل سائر البخلاء فى قلبه ويعالج أيضا قلبه بان يتفكر فى مقاصد المال وانه لماذا خلق ولا يحفظ من المال الا بقدر حاجته اليه والباقى يدخره لنفسه فى الآخرة بان يحصل له ثواب بذله فهذه الادوية من جهة المعرفة والعلم فاذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الامساك فى الدنيا والآخرة هاجت رغبته فى البذل ان كان عاقلا فان تحركت الشهوة فينبغى أن يجيب الخاطر الاول ولا يتوقف فان الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه * حكى أن أبا الحسن البوشنجى كان ذات يوم فى الخلاء فدعا تلميذا له وقال انزع عنى القميص وادفعه الى فلان فقال هلا صبرت حتى تخرج قال لم آمن على نفسى أن تتغير وكان قد خطر لى بذله ولا تزول صفة البخل الا بالبذل تكلفا كما لا يزول العشق الا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقره حتى اذا سافر وفارق تكلفا وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه فكذلك الذى يريد علاج البخل ينبغى أن يفارق المال تكلفا بان يبذله بل لو رماه فى الماء كان أولى به من امساكه اياه مع الحيلة ومن لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا فى حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال كما قد يسلى الصبى عند الفطام عن الثدى باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخلى واللعب ولكن لينفك عن الثدى اليه ثم ينقل عنه الى غيره فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغى أن يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورته بها ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر رعونتها به الا ان هذا مفيد فى حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء فيبدل الاقوى بالاضعف فان كان الجاه محبوبا عنده كالمال فلا فائدة فيه فانه يقلع من علة ويزيد فى أخرى مثلها الا ان علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لاجل الرياء فبذلك يتبين ان الرياء أغلب عليه فان كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغى أن يبذل فان ذلك يدل على ان مرض البخل أغلب على قلبه ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال ان الميت تستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الديدان البعض حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضا حتى ترجع الى اثنتين قويتين عظيمتين ثم لا تزالان تتقاتلان الى أن تغلب احداهما الاخرى فتأكلها وتسمن بها ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها الى أن تموت فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها ويجعل الاضعف قوتا للاقوى الى أن لا يبقى الا واحدة ثم تقع العناية بمحوها واذا بتها بالمجاهدة وهو منع القوت عنها ومنع القوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها فانها تقتضى لا محالة أعمالا واذا خولفت خمدت الصفات وماتت مثل البخل فانه يقتضى امساك المال فاذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعا وسقط التعب فيه فان علاج البخل بعلم وعمل فالعلم يرجع الى معرفة آفة البخل وفائدة الجود والعمل يرجع الى الجود والبذل على سبيل التكلف ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمى ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه واذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة كالمرض الذى يمنع معرفة الدواء وامكان استعماله فانه لا حيلة فيه الا الصبر الى الموت وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية فى معالجة علة البخل فى المريدين أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم وكان اذا توهم فى مريد فرحه بزاويته ومافيها نقله الى زاوية غيرها ونقل زاوية غيره اليه وأخرجه عن جميع ما ملكه واذا رآه يلتفت الى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها الى غيره ويلبسه ثوبا خلقا لا يميل اليه قلبه فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها فان كان له ألف متاع كان له ألف

معدته ألوان الاغذية فيكره للمريد أن يوالى فى الافطار أكثر من أربعة أيام فان النفس عند ذلك تركن الى العادة وتتسع بالشهوة (وقيل) الدنيا بطنك فعلى قدر زهدك فى بطنك زهدك فى الدنيا وقال عليه السلام ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطن حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه وقال فتح الموصلى صحبت ثلاثين شيخا كل يوصينى عند مفارقتى اياه بترك عشرة الاحداث وقلة الاكل

(الباب الاربعون فى اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والافطار) جمع من المشايخ

محبوب ولذلك اذا سرق كل واحد منه ألم به مصيبة بقدر حبه له فاذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لانه كان يحب الكل وقد سلب عنه بل هو فى حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك * حمل الى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده كيف ترى هذا قال أراه مصيبة أو فقرا قال كيف قال ان كسر كان مصيبة لا جبر لها وان سرق صرت فقيرا اليه ولم تجد مثله وقد كنت قبل أن يحمل اليك فى أمن من المصيبة والفقر ثم اتفق يوما أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال صدق الحكيم ليته لم يحمل الينا وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فان الدنيا عدوة لاعداء الله اذ تسوقهم الى النار وعدوة أولياء الله اذ تغمهم بالصبر عنها وعدوة الله اذ تقطع طريقه على عباده وعدوة نفسها فانها تأكل نفسها فان المال لا يحفظ الا بالخزائن والحراس والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها الا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى يفنى ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح به ولم يأخذ منه الا بقدر حاجته ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لان ما أمسكه لحاجته فليس ببخل وما لا يحتاج اليه فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله بل هو كالماء على شط الدجلة اذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة *

﴿بيان مجموع الوظائف التى على العبد فى ماله﴾

اعلم ان المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه ومثاله مثال حية يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدرى ولا يخلو أحد عن سم المال الا بالمحافظة على خمس وظائف ﴿الاولى﴾ أن يعرف مقصود المال وانه لماذا خلق وانه لم يحتاج اليه حتى يكتسب ولا يحفظ الا قدر الحاجة ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه ﴿الثانية﴾ أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ويجتنب الجهات المكروهة القادحة فى المروءة كالهدايا التى فيها شوائب الرشوة وكالسؤال الذى فيه الذلة وهتك المروءة وما يجرى مجراه ﴿الثالثة﴾ فى المقدار الذى يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل بل القدر الواجب ومعياره الحاجة والحاجة ملبس ومسكن ومطعم والكل واحد ثلاث درجات أدنى وأوسط وأعلى ومادام مائلا الى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة كان محقوا يجىء من جملة المحقين وان جاوز ذلك وقع فى هاوية لا آخر لعمقها وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات فى كتاب الزهد ﴿الرابعة﴾ أن يراعى جهة المخرج ويقتصد فى الانفاق غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه فيضع ماله كتسبه من حله فى حقه ولا يضعه فى غير حقه فان الاثم فى الاخذ من غير حقه والوضع فى غير حقه سواء ﴿الخامسة﴾ أن يصلح نيته فى الاخذ والترك والانفاق والامساك فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقارا له اذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ولذلك قال على رضى الله عنه لو أن رجلا أخذ جميع ما فى الارض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو معينا على العبادة فان أبعد الحركات عن العبادة الاكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة فاذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة فى حقك وكذلك ينبغى أن تكون نيتك فى كل ما يحفظك من قميص وازار وفراش وآنية لان كل ذلك مما يحتاج اليه فى الدين وما فضل من الحاجة ينبغى أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ولا يمنعه منه عند حاجته فمن فعل ذلك فهو الذى أخذ من حية المال جوهرها وترياقها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال ولكن لا يتأتى ذلك الا لمن رسخ فى الدين قدمه وعظم فيه علمه والعامى اذا تشبه بالعالم فى الاستكثار من المال وزعم انه يشبه أغنياء الصحابة شابه الصبى الذى يرى المعلم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترياقها فيقتدى به ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جلدها فيأخذها اقتداء به فتقتله فى الحال الا ان قتيل الحية يدرى انه قتيل وقتيل المال قد لا يعرف وقد شبهت الدنيا بالحية فقيل

هى دنيا كحية تنفث السـ * ـم وان كانت الجسة لانت

الصوفية كانوا يديمون الصوم فى السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى (وكان) أبو عبد الله بن جابر قد صام نيفا وخمسين سنة لا يفطر فى السفر والحضر فجهد به أصحابه يوما فافطر فاعتل من ذلك أياما فاذا رأى المريد صلاح قلبه فى دوام الصوم فليصم دائما ويدع للافطار جانبا فهو عون حسن له على ما يريد ﴿روى﴾ أبو موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين أى لم يكن له فيها موضع وكره قوم صوم الدهر وقد ورد فى ذلك ما رواه أبو قتادة

وكما يستحيل كما أن يتشبه الاعمى بالبصير فى تخطى تلل الجبال وأطراف البحار والطرق المشوكة فمحال أن يتشبه العامى بالعالم الكامل فى تناول المال

﴿ بيان ذم الغنى ومدح الفقر ﴾

اعلم ان الناس قد اختلفوا فى تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر وقد أوردنا ذلك فى كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه ولكنا فى هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة من غير التفات الى تفصيل الاحوال ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحرث المحاسبى رضى الله عنه فى بعض كتبه فى الرد على بعض العلماء من الاغنياء حيث احتج باغنياء الصحابة وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم والمحاسبى رحمه الله حبر الامة فى علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الاعمال وأغوار العبادات وكلامه جدير بان يحكى على وجهه وقد قال بعد كلام له فى الرد على علماء السوء بلغنا ان عيسى بن مريم عليه السلام قال ياعلماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ماتؤمرون وتدرسون مالا تعملون فياسوء ماتحكمون تتوبون بالقول والاماني وتعملون بالهوى ومايغنى عنكم ان تنتوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لاتكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل فى صدوركم ياعبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق أقول لكم ان قلوبكم تبكى من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب اليكم من صلاح الآخرة فاى الناس أخسر منكم لو تعلمون ويلكم حتام تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون فى محل المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بافواهكم وأجوافكم منه وحشة متعطلة ياعبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كاحرار كرام توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلمكم الى الملك الديان عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم ثم قال الحرث رحمه الله اخوانى فهؤلاء علماء السوء شياطين الانس وفتنة على الناس رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم فى العاجل عار وشين وفى الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الكريم بفضله وبعد فانى رأيت الهالك المؤثر للدنيا سروره ممزوج بالتنغيص فيتفجر عنه أنواع الهموم وفنون المعاصى والى البوار والتلف مصيره فرح الهالك برجاء فلم تبق له دنياه ولم يسلم له دينه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين فياطالما من مصيبة ماأفظعها ورزية ماأجلها ألا فراقبوا الله اخوانى ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله فانهم يتكالبون على الدنيا ثم يطالبون لانفسهم المعاذير والحجج ويزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال فيتزينون المغرورون بذكر الصحابة ليعذروهم الناس على جمع المال ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون ويحك أيها المفتون ان احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتهلك لانك متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة فقد اغتبت السادة ونسبتهم الى أمر عظيم ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد ازدريت محمدا والمرسلين ونسبتهم الى قلة الرغبة والزهد فى هذا الخير الذى رغبت فيه أنت وأصحابك من جمع المال ونسبتهم الى الجهل اذ لم يجمعوا المال كما جمعت ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للامة اذ نهاهم (١) عن جمع المال وقد علم أن جمع المال خير للامة فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد كان للامة ناصحا وعليهم مشفقا وبهم رؤفا ومتى زعمت أن جمع

(١) حديث النهى عن جمع المال ابن عدى من حديث ابن مسعود مأوحى الله الى أن أجمع المال وأكون من التاجرين الحديث ولأبى نعيم والخطيب فى التاريخ والبيهقى فى الزهد من حديث الحارث بن سويد فى أثناء الحديث لاتجمعوا

قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف بمن صام الدهر قال لاصام ولا أفطر وأول قوم ان صوم الدهر هو أن لا يفطر العيدين وأيام التشريق فهو الذى يكره واذا أفطر هذه الايام فليس هو الصوم الذى كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما وقد ورد أفضل الصيام صوم أخى داود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما واستحسن ذلك قوم من الصالحين ليكون بين حال الصبر وحال الشكر * ومنهم من كان يصوم يومين ويفطر يوما أو يصوم يوما ويفطر يومين

المال أفضل فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم ان جمع المال خير لهم أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل فى الجمع فلذلك نهاهم عنه وأنت عليم بما فى المال من الخير والفضل فلذلك رغبت فى الاستكثار كلا بل أنت أعلم بموضع الخير والفضل من ربك تعالى الله عن جهلك أيها المفتون تدبر بعقلك ما دهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ويحك ماينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ود عبد الرحمن بن عوف فى القيامة انه لم يؤت من الدنيا الا قوتا ولقد بلغنى انه لما توفى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك فقال كعب سبحان الله وما تخافون على عبد الرحمن كسب طيبا وأنفق طيبا وترك طيبا فبلغ ذلك أبا ذر فخرج مغضبا يريد كعبا فمر بعظم لحى بعير فأخذه بيده ثم انطلق يريد كعبا فقيل لكعب ان أبا ذر يطلبك فخرج هاربا حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر وأقبل أبو ذر يقص الاثر فى طلب كعب حتى انتهى الى دار عثمان فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هاربا من أبى ذر فقال له أبو ذر هيه يا ابن اليهودية تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما نحو أحد وأنا معه فقال يا أبا ذر فقلت لبيك يارسول الله فقال (١) الا أكثرون هم الاقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وقليل ماهم ثم قال يا أبا ذر قلت نعم يارسول الله بأبى أنت وأمى قال مايسرنى أن لى مثل أحد أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه قيراطين قلت أو قنطارين يارسول الله قال بل قيراطان ثم قال يا أبا ذر أنت تريد الاكثر وأنا أريد الاقل فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف كذبت وكذب من قال فلم يرد عليه خوفا حتى خرج * وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضى الله عنها ما هذا قيل عير قدمت لعبد الرحمن قالت صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يقول انى رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيا ولم أر أحدا من الاغنياء يدخلها معهم الا عبد الرحمن بن عوف رأيته يدخلها معهم حبوا فقال عبد الرحمن ان العير وما عليها فى سبيل الله وان أرقاءها أحرار لعلى أن أدخلها معهم سعيا وبلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم (٣) قال لعبد الرحمن بن عوف أما انك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى وما كدت أن تدخلها الا حبوا * ويحك أيها المفتون فما احتجاجك بالمال وهذا عبد الرحمن فى فضله وتقواه وصنائعه المعروف وبذله الاموال فى سبيل الله مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) وبشراه بالجنة أيضا ونعف فى عرضات القيامة

ومنهم من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة (وقيل) كان سهل بن عبد الله يأكل فى كل خمسة عشر يوما مرة وفى رمضان يأكل أكلة واحدة وكان يفطر بالماء القراح للسنة (وحكى) عن الجنيد انه كان يصوم على الدوام فاذا دخل عليه اخوانه أفطر معهم ويقول ليس فضل المساعدة مع الاخوان بأقل من فضل الصوم غير أن هذا الافطار يحتاج الى علم فقد يكون الداعى الى ذلك شره النفس لا نية الموافقة وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب وسمعت شيخنا يقول لى سنين

مالا تأكلون وكلاهما ضعيف (١) حديث أبى ذر الا كثرون هم الاقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا الحديث متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التى فى أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف كسب طيبا وترك طيبا وانكار أبى ذر عليه فلم أقف على هذه الزيادة الا فى قول الحارث بن أسد المحاسبى بلغنى كما ذكره المصنف وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخصر من هذا ولفظ كعب اذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعبا وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أحب لو كان هذا الجبل لى ذهبا الحديث وفيه ابن لهيعة (٢) حديث عائشة رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين شعثا الحديث فى أن عبد الرحمن ابن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد مختصرا فى كون عبد الرحمن يدخل حبوا دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين وفيه عمارة بن زاذان مختلف فيه الحديث (٣) حديث انه قال له أما انك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى وما كدت أن تدخلها الا حبوا البزار من حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبد الرحمن ابن عوف يا ابن عوف انك من الاغنياء ولن تدخل الجنة الا زحفا وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيف فيه خالد ابن أبى مالك ضعفه الجمهور (٤) حديث بشر النبى صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنة الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديثه أبو بكر فى الجنة الحديث وفيه وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة وهو عند الاربعة

وأهوالها بسبب مال كسبه من حلال للتعفف واصطناع المعروف وأنفق منه فصداوأعطى فى سبيل الله سمحا منع من السعى الى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يحبو فى آثارهم حبوا فماظنك بأمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا وبعد فالعجب كل العجب لك يامفتون تمرغ فى تخاليط الشبهات والسحت وتتكالب على أوساخ الناس وتتقلب فى الشهوات والزينة والمباهاة وتتقلب فى فتن الدنيا ثم تحتج بعبد الرحمن وتزعم انك ان جمعت المال ففد جمعه الصحابة كانك أشبهت السلف وفعلهم و يحك ان هذا من قياس ابليس ومن فتياه لاوليائه وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف لتعرف فضائحك وفضل الصحابة ولعمرى لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل فى سبيل الله فكسبوا حلالا وأكلوا طيبا وأنفقوا قصدا وقدموا فضلا ولم يمنعوا منها حقا ولم يبخلوا بها لكنهم جادوا لله بأكثرها وجاد بعضهم بجميعها وفى الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا فبالله أكذلك أنت والله انك لبعيد الشبه بالقوم و بعد فان أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين ومن خوف الفقر آمنين و بالله فى أرزاقهم واثقين و بمقادير الله مسرورين وفى البلاء راضين وفى الرخاء شاكرين وفى الضراء صابرين وفى السراء حامدين وكانوا لله متواضعين وعن حب العلو والتكاثر ورعين لم ينالوا من الدنيا الا المباح لهم ورضوا بالبلغة منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهها وتجرعوا مرارتها وزهدوا فى نعيمها وزهراتها فبالله أكذلك أنت ولقد بلغنا أنهم كانوا اذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته من الله واذا رأوا الفقر مقبلا قالوا مرحبا بشعار الصالحين و بلغنا ان بعضهم كان اذا أصبح وعنده عياله شئ أصبح كئيبا حزينا واذا لم يكن عنده شئ أصبح فرحا مسرورا فقيل له ان الناس اذا لم يكن عندهم شئ حزنوا واذا كان عندهم شئ فرحوا وأنت لست كذلك قال انى اذا أصبحت وليس عندعيالى شئ فرحت اذ كان لى برسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة واذا كان عندعيالى شئ اغتممت اذ لم يكن لى بآل محمد اسوة و بلغنا انهم كانوا اذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا مالنا وللدنيا ومايرادبها فكأنهم على جناح خوف واذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا الآن تعاهد نار بنا فهذه أحوال السلف ونعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا فبالله أكذلك أنت انك لبعيد الشبه بالقوم وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضد الاحوالهم وذلك انك تطغى عند الغنى وتبطر عند الرخاء وتمرح عند السراء وتغفل عن شكر ذى النعماء وتقنط عند الضراء وتسخط عند البلاء ولا ترضى بالقضاء نعم وتبغض الفقر وتأنف من المسكنة وذلك فخر المرسلين وأنت تأنف من فخرهم وأنت تدخر المال وتجمعه خوفا من الفقر وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه وكفى به اثما وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) قال شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم قربت عليه أجسامهم و بلغنا أن بعض أهل العلم قال ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وأنت فى غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيا لها حسرة ومصيبة نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة فى الدنيا وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر لقى الله وهو عليه غضبان وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك حين أردت التكاثر والعلو نعم وعساك المكث فى الدنيا أحب اليك من النقلة الى جوار الله فأنت تكره لقاء الله والله للقائك أكره وأنت فى غفلة وعساك تاسف على مافاتك من عرض الدنيا وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة شهر وقيل سنة وأنت تاسف على مافاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله نعم ولعلك تخرج من دينك احيانا لتوفير دنياك وتفرح باقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سرورا بها وقد بلغنا أن رسول الله صلى

من حديث سعيد بن زيد قال البخارى والترمذى وهذا أصح (١) حديث شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم الحديث تقدم ذكره فى أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة

ما أكلت شيأ بشهوة نفس ابتداء واستدعاء بل يقدم الى الشئ فأراه من فضل الله ونعمته وفعله فاوافق الحق فى فعله (وذكر) انه فى ذات يوم اشتهى الطعام ولم يحضر ومن عادته تقديم الطعام اليه قال ففتحت باب البيت الذى فيه الطعام وأخذت رمانة لآكلها فدخلت السنور وأخذت دجاجة كانت هناك فقلت هذا عقوبة لى على تصرفى فى أخذ الرمانة (ورأيت) الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام فى اليوم مرات أى وقت أحضر الطعام أكل منه ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق لان حاله مع الله كان ترك الاختيار فى

الله عليه وسلم (١) قال من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه وبلغنا أن بعض أهل العلم قال انك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا وتحاسب بفرحك فى الدنيا اذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى وعساك تعنى بأمور دنياك أضعاف ما تعنى بامور آخرتك وعساك ترى مصيبتك فى معاصيك أهون من مصيبتك فى انتقاص دنياك نعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب وعساك تبذل للناس ما جمعت من الاوساخ كلها للعلو والرفعة فى الدنيا وعساك ترضى المخلوقين مساخط الله تعالى كما تكرم وتعظم و يحك فكان احتقار الله تعالى لك فى القيامة أهون عليك من احتقار الناس اياك وعساك تخفى من المخلوقين مساويك ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها فكان الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس فكأن العبيد أعلى عندك قدرا من الله تعالى الله عن جهلك فكيف تنطق عند ذوى الألباب وهذه المثالب فيك أف لك متلوثا بالاقذار وتحتج بمال الابرار هيهات هيهات ما أبعدك عن السلف الاخيار والله لقد بلغنى انهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ان الذى لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم وكانوا للزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبائر المعاصى فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم وليتك أشفقت من سيئاتك كما شفقوا على حسناتهم ان لا تقبل ليت صومك على مثال افطارهم وليت اجتهادك فى العبادة على مثل فتورهم ونومهم وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم وقد بلغنى عن بعض الصحابة أنه قال غنيمة الصديقين مافاتهم من الدنيا ونهمتهم مازوى عنهم منها فان لم يكن كذلك فليس معهم فى الدنيا ولا معهم فى الآخرة فسبحان الله كم بين الفريقين من التفاوت فريق خيار الصحابة فى العلو عند الله وفريق أمثالكم فى السفالة أو يعفو الله الكريم بفضله و بعد فانك ان زعمت انك متأس بالصحابة بجمع المال للتعفف والبذل فى سبيل الله فتدبر أمرك و يحك هل تجد من الحلال فى دهرك كما وجدوا فى دهرهم أو تحسب انك محتاط فى طلب الحلال كما احتاطوا لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام أفتطمع من نفسك فى مثل هذا الاحتياط لا ورب الكعبة ما احسبك كذلك و يحك كن على يقين ان جمع المال لاعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر فى اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت والحرام وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) قال من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام أيها المغرور أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات و بذلها فى سبيل الله وسبيل البر بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال لأن تدع درهما واحدا مخافة أن لا يكون حلالا خير لك من أن تتصدق بالف دينار من شبهة لا تدرى أيحل لك أم لا فان زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات وانما تجمع المال يزعمك من الحلال للبذل فى سبيل الله و يحك ان كنت كما زعمت بالغا فى الورع فلا تتعرض للحساب فان خيار الصحابة خافوا المسألة و بلغنا أن بعض الصحابة قال ما سرنى أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها فى طاعة الله ولم يشغلنى الكسب عن صلاة الجماعة قالوا وما ذاك رحمك الله قال لانى غنى عن مقام يوم القيامة فيقول عبدى من أين اكتسبت وفى أى شئ أنفقت فهؤلاء المتقون كانوا فى جدة الاسلام والحلال موجود لديهم تركوا المال وجلا من الحساب مخافة أن لا يقوم خير المال بشره وأنت بغاية الامن والحلال فى دهرك مفقود تتكالب على الاوساخ ثم تزعم انك تجمع المال من الحلال و يحك أين الحلال فتجمعه و بعد فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه أفتطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شئ من الحق فى أمرك وأحوالك لئن

(١) حديث من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه لم أجده الا بلاغا للحارث بن أسد المحاسبى كما ذكره المصنف عنه (٢) حديث من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم فى كتاب الحلال والحرام أول الحديث

ما كوله وملبوسه وجميع تصاريفه وكان حاله الوقوف مع فعل الحق وقد كان له فى ذلك بداية يعز مثلها حتى نقل انه كان يبقى أياما لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه ولا يتسبب الى تناول شئ وينتظر فعل الحق لسياقه الرزق اليه ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان ثم ان الله تعالى أظهر حاله وأقام له الاصحاب والتلامذة وكانوا يتكلفون الاطعمة ويأتون بها اليه وهو يرى فى ذلك فضل الحق والموافقة سمعته يقول أصبح كل يوم وأحب ما الى الصوم وينقض الحق على محبتى الصوم بفعله فاوافق الحق فى

ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الامارة بالسوء ويحك انى لك ناصح أرى لك أن تقنع بالبلغة ولا تجمع المال لاعمال البر ولا تتعرض للحساب فانه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) انه قال من نوقش الحساب عذب وقال عليه السلام (٢) يؤتى برجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به الى النار ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به الى النار ويؤتى برجل قد جمع مالا من حرام وأنفقه فى حلال فيقال اذهبوا به الى النار ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه فى حلال فيقال له قف لعلك قصرت فى طلب هذا بشئ مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها وفرطت فى شئ من ركوعها وسجودها ووضوئها فيقول لا يارب كسبت من حلال وأنفقت فى حلال ولم اضيع شيأ مما فرضت على فيقال لعلك اختلت فى هذا المال فى شئ من مركب أو ثوب باهيت به فيقول لا يارب لم اختل ولم اباه فى شئ فيقال لعلك منعت حق أحد أمرتك ان تعطيه من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فيقول لا يارب كسبت من حلال وأنفقت فى حلال ولم اضيع شيأ مما فرضت على ولم اختل ولم اباه ولم اضيع حق أحد أمرتنى ان اعطيه قال فيجىء أولئك فيخاصمونه فيقولون يارب أعطيته وأغنيته وجعلته بين أظهرنا وامرته ان يعطينا فان كان اعطاهم وما ضيع مع ذلك شيأ من الفرائض ولم يختل فى شئ فيقال قف الآن هات شكر كل نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لذة فلا يزال يسئل ويحك فمن ذا الذى يتعرض لهذه المسألة التى كانت لهذا الرجل الذى تقلب فى الحلال وقام بالحقوق كلها وأدى الفرائض بحدودها حوسب هذه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا وتخاليطها وشبهاتها وشهواتها وزينتها ويحك لاجل هذه المسائل يخاف المتقون ان يتلبسوا بالدنيا فرضوا بالكفاف منها وعملوا بانواع البر من كسب المال فالك ويحك بهؤلاء الاخيار اسوة فان أبيت ذلك وزعمت انك بالغ فى الورع والتقوى ولم تجمع المال الا من حلال بزعمك للتعفف والبذل فى سبيل الله ولم تنفق شيأ من الحلال الا بحق ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله ولم تسخط الله فى شئ من سرائرك وعلانيتك ويحك فان كنت كذلك ولست كذلك فقد ينبغى لك أن ترضى بالبلغة وتعتزل ذوى الاموال اذا وقفوا للسؤال وتسبق مع الرعيل الاول فى زمرة المصطفى لا حبس عليك للمسألة والحساب فاما سلامة واما عطب فانه بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) قال يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام وقال عليه السلام (٤) يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيأكلون ويتمتعون والآخرون جثاة على ركبهم فيقول قبلكم طلبتى أنتم حكام الناس وملوكهم فأروني ماذا صنعتم فيما أعطيتكم وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ما سرنى ان لى حمر النعم ولا أكون فى الرعيل الاول مع محمد عليه السلام وحزبه يا قوم فاستبقوا السباق مع المخفين فى زمرة المرسلين عليهم السلام وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجل المتقين (٥) لقد بلغنى أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضى الله عنه عطش فاستسقى فأتى بشربة من ماء وعسل فلما ذاقها خنقته العبرة ثم بكى وأبكى ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد فى البكاء فلما أكثر البكاء قيل له أكل هذا من أجل هذه الشربة قال نعم بينا أنا

(١) حديث من نوقش الحساب عذب متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به الى النار بطوله لم أقف له على أصل (٣) حديث يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد بلفظ فقراء مكان صعاليك ولهما وللنسائى فى الكبرى من حديث أبى هريرة يدخل الفقراء الجنة الحديث ولمسلم من حديث عبد الله ابن عمر ان فقراء المهاجرين يسبقون الاغنياء الى الجنة بأربعين خريفا (٤) حديث يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون الحديث لم أر له أصلا (٥) حديث ان بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتى بشربة ماء وعسل الحديث فى دفع النبى صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه وقوله اليك عنى الحديث البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال كنا عند أبى بكر فدعا بشراب فأتى بماء وعسل الحديث قال الحاكم صحيح الاسناد قلت

فعله (وحكى) عن بعض الصادقين من أهل واسط انه صام سنين كثيرة وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس الا فى رمضان (وقال) أبو نصر السراج أنكر قوم هذه المخالفة وان كان الصوم تطوعا واستحسنه آخرون لان صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع وأن لا يتمتع برؤية الصوم ووقع لى ان هذا ان قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم فقد تمتع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم وهذا يتسلسل والاليق بموافقة العلم امضاء الصوم قال الله تعالى ولا تبطلوا أعمالكم ولكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون والصدق محمود لعينه كيف

ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ومامعه أحد فى البيت غيرى فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول اليك عنى فقلت له فداك أبى وأمى ما أرى بين يديك أحدا فمن تخاطب فقال هذه الدنيا تطاولت الى بعنقها ورأسها فقالت لى يامحمد خذنى فقلت اليك عنى فقالت ان تنج منى يامحمد فانه لاينجو منى من بعدك فاخاف أن تكون هذه قد لحقتنى تقطعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ياقوم فهؤلاء الاخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة من حلال و يحك أنت فى أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لاتخشى الانقطاع أف لك ما أعظم جهلك و يحك فان تخلفت فى القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد المصطفى لتنظرن الى أهوال جزعت منها الملائكة والانبياء ولئن قصرت عن السباق فليطولن عليك اللحاق ولئن أردت الكثرة لتصيرن الى حساب عسير ولئن لم تقنع بالقليل لتصيرن الى وقوف طويل وصراخ وعويل ولئن رضيت باحوال المتخلفين لتقطعن عن أصحاب اليمين وعن رسول رب العالمين ولتبطئن عن نعيم المتنعمين ولئن خالفت أحوال المتقين لتكونن من المحتبسين فى أهوال يوم الدين فتدبر و يحك ياسمعت و بعدفان زعمت انك فى مثال خيار السلف فقنع بالقليل زاهدا فى الحلال بذول لمالك مؤثر على نفسك لاتخشى الفقر ولاتدخر شيأ لغدك مبغض للتكاثر والغنى راض بالفقر والبلا فرح بالقلة والمسكنة مسرور بالذل والضعة كاره للعلو والرفعة قوى فى أمرك لايتغير عن الرشد قلبك قد حاسبت نفسك فى الله وأحكمت أمورك كلها على ماوافق رضوان الله ولن توقف فى المسألة ولن يحاسب مثلك من المتقين وانما تجمع المال الحلال للبذل فى سبيل الله و يحك أيها المغرور فتدبر الامر وأمعن النظر أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكار والفكر والاعتبار أسلم للدين وأيسر للحساب وأخف للمسألة وآمن من روعات القيامة وأجزل للثواب وأعلى لقدرك عند الله اضعافا بلغنا عن بعض الصحابة انه قال لو أن رجلا فى حجره دنانير يعطيها والآخر يذكر الله لكان الذاكر أفضل * وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لاعمال البر قال تركها أبر به و بلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين أحدهما طلب الدنيا حلالا فاصابها فوصل بها رحمه وقدم لنفسه وأما الآخر فانه جانبها فلم يطلبها ولم يقتنها فايهما أفضل قال بعيد والله ما بينهما الذى جانبها أفضل كما بين مشارق الارض ومغاربها و يحك فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها ولك فى العاجل ان تركت الاشتغال بالمال أن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك وأنعم لعيشك وأرضى لبالك وأقل لهمومك فما عذرك فى جمع المال وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لاعمال البر نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال فى سبيل الله فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل فى الآجل * و بعد فلو كان فى جمع المال فضل عظيم لوجب عليك فى مكارم الاخلاق ان تتأسى بنبيك اذ هداك الله به وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا و يحك تدبر ما سمعت وكن على يقين ان السعادة والفوز فى مجانبة الدنيا فسر مع لواء المصطفى سابقا الى جنة المأوى فانه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) قال سادات المؤمنين فى الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء واذا استقرض لم يجد قرضا وليس له فضل كسوة الا ما يواريه ولم يقدر على أن يكتسب ما يغنيه يمسى مع ذلك و يصبح راضيا عن ربه فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ألا يا أخى منى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فانك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعه لا ولكنك خوفا من الفقر تجمعه وللتنعم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمعة والتعظم والتكرمة تجمعه ثم تزعم انك لاعمال البر تجمع المال و يحك راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور و يحك ان كنت مفتونا بحب المال والدنيا فكن مقرا أن الفضل والخير فى الرضا بالبلغة ومجانبة الفضول نعم وكن عند جمع المال مزريا على نفسك معترفا

كان والصادق فى خفارة صدقه كيف تقلب وقال بعضهم اذا رأيت الصوفى يصوم صوم التطوع فاتهمه فانه قد اجتمع معه شئ من الدنيا وقيل اذا كان جماعة متوافقين اشكالا وفيهم مريد يحثونه على الصيام فان لم يساعدوه يهتموا لافطاره و يتكلفوا له رفقا به ولا يحملوا حاله على حالهم وان كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه ويفطرون لافطاره الا من يأمره الشيخ بغير ذلك * وقيل ان بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه حتى ينظر الشاب اليه فيتأدب به و يصوم بصيامه وحكى عن أبى الحسن المكى انه كان يصوم الدهر وكان مقيما

(١) حديث سادات المؤمنين فى الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء الحديث عزاه صاحب مسند الفردوس للطبرانى من رواية أبى حازم عن أبى هريرة مختصرا بلفظ سادة الفقراء بل ضعيف وقد تقدم قبل هذا فى هذا الكتاب

باساءتك وجلا من الحساب فذلك أنجى لك وأقرب الى الفضل من طلب الحج لجمع المال * اخوانى اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجودا وكانوا مع ذلك من أورع الناس وأزهدهم فى المباح لهم ونحن فى دهر الحلال فيه مفقود وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة فأما جمع المال فى دهرنا فأعاذنا الله واياكم منه وبعد فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم دهينا ورب السماء بادواء النفوس واهوائها وعن قريب يكون الورود فيا سعادة المخفين يوم النشور وحزن طويل لاهل التكاثر والتخاليط وقد نصحت لكم ان قبلتم والقابلون لهذا قليل وفقنا الله واياكم لكل خير برحمته آمين * هذا آخر كلامه وفيه كفاية فى اظهار فضل الفقر على الغنى ولا مزيد عليه ويشهد لذلك جميع الاخبار التى أوردناها فى كتاب ذم الدنيا وفى كتاب الفقر والزهد ويشهد له أيضا ما روى عن أبى امامة الباهلى (١) ان ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال يا ثعلبة أما لك فى أسوة أما ترضى أن تكون مثل نبى الله تعالى أما والذى نفسى بيده لو شئت أن تسير معى الجبال ذهبا وفضة لسارت قال والذى بعثك بالحق نبيا لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه ولافعلن ولأفعلن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى الجماعة ويدع ماسواهما ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة الا الجمعة وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الاخبار فى المدينة وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال ما فعل ثعلبة بن حاطب فقيل يارسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة وأخبر بأمره كله فقال يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة قال وأنزل الله تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة ورجلا من بنى سليم على الصدقة وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين وقال مر ابثعلبة بن حاطب و بفلان رجل من بنى سليم وخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الاجزية ما هذه الاجزية ما هذه الا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا الى فانطلقا نحو السليمى فسمع بهما فقام الى خيار أسنان ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا لا يجب عليك ذلك وما نريد أن تأخذ هذا منك قال بلى خذوها نفسى بها طيبة وانما هى لتأخذوها فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال أروانى كتابكما فنظر فيه فقال هذه أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيى فانطلقا حتى أتيا النبى صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال يا ويح ثعلبة قبل أن يكلماه ودعا للسليمى فأخبراه بالذى صنع ثعلبة وبالذى صنع السليمى فانزل الله تعالى فى ثعلبة ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ما أنزل الله فيه فخرج حتى أتى ثعلبة فقال لا أم لك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال ان الله منعنى أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك أمرتك فلم تطعنى فلما أبى أن يقبل منه شيأ رجع الى منزله فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بها الى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فأبى أن يقبلها منه وجاء بها الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأبى أن يقبلها منه وتوفى ثعلبة بعد فى خلافة عثمان فهذا طغيان المال وشؤمه وقد عرفته من هذا الحديث ولاجل بركة الفقر وشؤم

(١) حديث أبى امامة أن ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه الحديث بطوله الطبرانى بسند ضعيف فى الجنة الحديث ولم أره فى معاجم الطبرانى

بالبصرة وكان لا يأكل الخبز الا ليلة الجمعة وكان قوته فى كل شهر أربع دوانيق يعمل بيده حبال الليف ويبيعها وكان الشيخ أبو الحسن بن سالم يقول لا أسلم عليه الا أن يفطر ويأكل وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية له فى ذلك لانه كان مشهورا بين الناس وقال بعضهم ما أخلص لله عبد قط الا أحب ان يكون فى جب لا يعرف ومن أكل فضلا من الطعام أخرج فضلا من الكلام وقيل أقام أبو الحسن التنيسى بالحرم مع أصحابه سبعة أيام لم يأكلوا فخرج بعض أصحابه ليتطهر فرأى قشر بطيخ فاخذه

الغنى آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولاهل بيته حتى روى عن عمران بن حصين رضى الله عنه أنه قال كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) منزلة وجاه فقال يا عمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله فقام وقمت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يارسول الله قال أنا ومن معى قالت ومن معك يارسول الله فقال عمران بن حصين فقالت والذى بعثك بالحق نبيا ماعلى الا عباءة فقال اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدى فقد واريته فكيف برأسى فألقى اليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدى بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليك يابنتاه كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على ما بى انى لست أقدر على طعام آكله فقد أجهدنى الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعى يابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث وانى لاكرم على الله منك ولو سألت ربى لاطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها ابشرى فوالله انك لسيدة نساء أهل الجنة فقالت فاين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران فقال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وخديجة سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك انكن فى بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ثم قال لها اقنعى بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة فانظر الآن الى حال فاطمة رضى الله عنها وهى بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر وتركت المال ومن راقب أحوال الانبياء والاولياء وأقوالهم وماورد من أخبارهم وآثارهم لم يشك فى ان فقد المال أفضل من وجوده وان صرف الى الخيرات اذا قل مافيه مع أداء الحقوق والتوقى من الشبهات والصرف الى الخيرات اشتغال الهم باصلاحه وانصرافه عن ذكر الله اذ لا ذكر الا مع الفراغ ولا فراغ مع شغل المال وقد روى عن جرير عن ليث قال صحب رجل عيسى بن مريم عليه السلام فقال أكون معك وأصحبك فانطلقا فاتيا الى شط نهر فجاسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين وبقى رغيف ثالث فقام عيسى عليه السلام الى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف فقال للرجل من أخذ الرغيف فقال لا أدرى قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها قال فدعا أحدهما فاتاه فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذاك الرجل ثم قال للخشف قم باذن الله فقام فذهب فقال للرجل أسألك بالذى أراك هذه الاية من أخذ الرغيف فقال لا أدرى ثم انتهيا الى وادى ماء فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء فلما جاوزا قال له أسألك بالذى أراك هذه الآية من أخذ الرغيف فقال لا أدرى فانتهيا الى مفازة فجلسا فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ثم قال كن ذهبا باذن الله تعالى فصار ذهبا فقسمه ثلاثة أثلاث ثم قال ثلث لى وثلث لك وثلث لمن أخذ الرغيف فقال أنا الذى أخذت الرغيف فقال كله لك وفارقه عيسى عليه السلام فانتهى اليه رجلان فى المفازة ومعه المال فاراد أن يأخذاه منه ويقتلاه فقال هو بيننا أثلاثا فابعثوا أحدكم الى القرية حتى يشترى لنا طعاما فأكلوا كلهم قال فبعثوا أحدهم فقال الذى بعث لا ينبغى أن أقاسم هؤلاء هذا المال لكنى أضع فى هذا الطعام سما فاقتلهما وآخذ المال وحدى قال ففعل وقال ذانك الرجلان لاى شئ نجعل لهذا ثلث المال ولكن اذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا قال فلما رجع اليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا فبقى ذلك المال فى المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لاصحابه هذه الدنيا فاحذروها * وحكى ان ذا القرنين أتى على أمة من الامم ليس بأيديهم شئ مما يستمتع به الناس من

(١) حديث عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بطوله وفيه لقد زوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة لم أجده من حديث عمران ولا جده والطبرانى من حديث معقل بن يسار وضأت النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال هل لك فى فاطمة تعودها الحديث وفيه أما ترضين ان زوجتك أقدمهم سلما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما واسناده صحيح

وأكله فرآه انسان فاتبع أثره وجاء برفق فوضعه بين يدى القوم فقال الشيخ من جنى منكم هذه الجناية فقال الرجل أنا وجدت قشر بطيخ فأكلته فقال كن أنت مع جنايتك ورفقك فقال أنا تائب من جنايتى فقال لا كلام بعد التوبة وكانوا يتعبون صيام أيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر روى ان آدم عليه السلام لما أهبط الى الارض اسود جسده من أثر المعصية فلما تاب الله عليه أمره ان يصوم أيام البيض فابيض ثلث جسده بكل يوم صامه حتى ابيض جميع جسده بصيام أيام البيض

دنياهم

دنياهم فداحتفروا قبورا فاذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم وقد قيض لهم فى ذلك معايش من نبات الارض وأرسل ذو القرنين الى ملكهم فقال له أجب ذا القرنين فقال مالى اليه حاجة فان كان له حاجة فليأتنى فقال ذو القرنين صدق فاقبل اليه ذو القرنين وقال له أرسلت اليك لتأتينى فأبيت فها أنا قد جئت فقال لو كان لى اليك حاجة لأتيتك فقال له ذو القرنين مالى أراكم على حالة لم أر أحدا من الامم عليها قال وماذاك قال ليس لكم دنيا ولا شئ أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما قالوا انما كرهناهما لان أحدا لم يعط منهما شيأ الا ناقت نفسه ودعته الى ما هو أفضل منه فقال ما بالكم فداحتفرتم قبورا فاذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصليتم عندها قالوا أردنا اذا نظرنا اليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الامل قال وأراكم لا طعام لكم الا البقل من الارض أفلا اتخذتم البهائم من الانعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها ورأينا فى نبات الارض بلاغا وانما يكفى ابن آدم أدنى العيش من الطعام وأيما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعما كائنا ما كان من الطعام ثم بسط ملك تلك الارض يده خلف ذى القرنين فتناول ججمة فقال ياذا القرنين أتدرى من هذا قال لا ومن هو قال ملك من ملوك الارض أعطاه الله سلطانا على أهل الارض فغشم وظلم وعتا فلما رأى الله سبحانه ذلك منه حسمه بالموت فصار كالحجر الملقى وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته ثم تناول ججمة أخرى بالية فقال ياذا القرنين هل تدرى من هذا قال لا أدرى ومن هو قال هذا ملك ملكه الله بعده فكان يرى ما يصنع الذى قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر بالعدل فى أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته ثم أهوى الى ججمة ذى القرنين فقال وهذه الججمة قد كانت كهذين فانظر ياذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذو القرنين هل لك فى صحبتى فأتخذك أخا ووزيرا وشريكا فيما آتانى الله من هذا المال قال ما أصلح أنا وأنت فى مكان ولا أن نكون جميعا قال ذو القرنين ولم قال من أجل ان الناس كلهم لك عدو ولى صديق قال ولم قال يعادونك لما فى يديك من الملك والمال والدنيا ولا أجد أحدا يعادينى لرفضى لذلك ولما عندى من الحاجة وقلة الشئ قال فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ومتعظا به فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ما قدمناه من قبل وبالله التوفيق تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ويليه كتاب ذم الجاه والرياء

﴿كتاب ذم الجاه والرياء وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتاب احياء علوم الدين﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله علام الغيوب المطلع على سرائر القلوب المتجاوز عن كبائر الذنوب العالم بما تجنه الضمائر من خفايا العيوب البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات الذى لا يقبل من الاعمال الا ما كمل ورفى وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا فانه المنفرد بالملكوت فهو أغنى الاغنياء عن الشرك والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والافك وسلم تسليما كثيرا ﴿أما بعد﴾ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية التى هى أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سراة العلماء فضلا عن عامة العباد والاتقياء وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها وانما يتجلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد السالوك سبيل الآخرة فانهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وقطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحلوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع فى المعاصى الظاهرة الواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة الى التظاهر بالخير واظهار العمل

﴿كتاب ذم الجاه والرياء﴾

(١) حديث ان أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس وقالا الشرك بدل الرياء وفسراه بالرياء قال الحاكم صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه وهو عند ابن المبارك فى الزهد ومن

ويستحبون صوم النصف الاول من شعبان وافطار نصفه الاخير وان واصل بين شعبان ورمضان فلا بأس به ولكن ان لم يكن صام فلا يستقبل رمضان بيوم أو يومين وكان يكره بعضهم ان يصام رجب جميعه كراهة المضاهاة برمضان ويستحب صوم العشر من ذى الحجة والعشر من المحرم ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن يصام من الاشهر الحرم وورد فى الخبر من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت بعده من النار سبعمائة عام

(الباب الحادى والاربعون فى آداب الصوم ومهامه) آداب الصوفية فى الصوم ضبط

والعلم فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة الى لذة القبول عند الخالق ونظرهم اليه بعين الوقار والتعظيم فسارعت الى اظهار الطاعة وتوصلت الى اطلاع الخالق ولم تقنع باطلاع الخالق وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده وعلمت انهم اذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحلمه مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا فى التقريظ والاطراء ونظروا اليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا فى بركة دعائه وحرصوا على اتباع رأيه وفتاحوه بالخدمة والسلام وأكرموه فى المحافل غاية الاكرام وسامحوه فى البيع والمعاملات وقدموه فى المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له فى أغراضه موقرين فأصابت النفس فى ذلك لذة هى أعظم اللذات وشهوة هى أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصى والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لادراكها فى الباطن لذة المذلات وشهوة الشهوات فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية وانما حياته بهذه الشهوة الخفية التى تعمى عن دركها العقول النافذة القوية ويرى أنه مخلص فى طاعة الله ومجتنب لمحارم الله والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد وتصنعا للخلق وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجود الاعمال وقد أثبتت اسمه فى جريدة المنافقين وهو يظن انه عند الله من المقربين وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها الا الصديقون وهو هاوة لا يرقى منها الا المقربون ولذلك قيل آخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة واذا كان الرياء هو الداء الدفين الذى هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول فى سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه ويتضح الغرض منه فى ترتيب الكتاب على شطرين ﴿الشطر الاول﴾ فى حب الجاه والشهرة وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول وبيان ذم الجاه وبيان معنى الجاه وحقيقته وبيان السبب فى كونه محبوبا أشد من حب المال وبيان أن الجاه كمال وهمى وليس بكمال حقيقى وبيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم وبيان السبب فى حب المدح والثناء وكراهية الذم وبيان العلاج فى حب الجاه وبيان علاج حب المدح وبيان علاج كراهة الذم وبيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم فهى اثنا عشر فصلا منها تنشأ معانى الرياء فلا بد من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه

﴿بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت﴾

اعلم أصلحك الله ان أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم بل المحمود الخمول الا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه قال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) حسب امرئ من الشر أن يشير الناس اليه بالاصابع فى دينه ودنياه الا من عصمه الله وقال جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) بحسب المرء من الشر الا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس اليه بالاصابع فى دينه ودنياه ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ولقد ذكر الحسن رحمه الله للحديث تأويلا ولا بأس به اذ روى هذا الحديث فقيل له يا أبا سعيد ان الناس اذا رأوك أشاروا اليك بالاصابع فقال انه لم يعن هذا وانما عنى به المبتدع فى دينه والفاسق فى دنياه وقال على كرم الله وجهه تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلم واكتم واصمت تسلم تسر الابرار وتغيظ الفجار وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله ما صدق الله من أحب الشهرة وقال أيوب السختيانى والله ما صدق الله عبد الا سره أن لا يشعر بمكانه وعن خالد بن معدان انه كان اذا كثرت حلقته

طريقه عند البيهقى فى الشعب بلفظ المصنف (١) حديث انس حسب امرئ من الشر الا من عصمه أن يشير الناس اليه بالاصابع فى دينه ودنياه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف (٢) حديث جابر بحسب امرئ من الشر الحديث مثله وزاد فى آخره ان الله لا ينظر الى صوركم الحديث هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبى هريرة رواه الطبرانى فى الاوسط والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرا على الزيادة التى فى آخره وروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ كفى بالمرء اثما ورواه ابن يونس فى تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر بلفظ هلاك الرجل وفساد دينه بالبدعة ودنياه بالفسق واسنادهما

الظاهر والباطن وكف الجوارح عن الآثام كمنع النفس عن الطعام ثم كف النفس عن الاهتمام بالأقسام (سمعت) ان بعض الصالحين بالعراق كان طريقه وطريق أصحابه انهم كانوا يصومون وكلما فتح عليهم قبل وقت الافطار يخرجونه ولا يفطرون الا على ما فتح لهم وقت الافطار وليس من الادب ان يمسك المريد عن المباح ويفطر بحرام الآثام (قال) أبو الدرداء يا حبذا نوم الاكياس وفطرهم كيف يغبنون قيام الحمق وصيامهم ولذرة من ذى يقين وتقوى أفضل من أمثال الجبال من أعمال المغترين ومن

فضيلة الصوم وأدبه أن يقلل الطعام عن الحد الذى كان يأكله وهو مفطر والا فاذا جمع الاكلات باكلة واحدة فقد أدرك بها مافوت ومقصود الصوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع وأخذهم من الطعام قدر الضرورة لعلمهم أن الاقتصار على الضرورة يجذب النفس من سائر الافعال والاقوال الى الضرورة والنفس من طبعها أنها اذا اقهرت لله تعالى فى شئ واحد على الضرورة تأدى ذلك الى سائر أحوالها فيصير بالاكل للصوم ضرورة والقول والفعل ضرورة وهذا باب كبير من أبواب الخير لاهل الله تعالى يجب رعايته

فام مخافة الشهرة وعن أبى العالية انه كان اذا جلس اليه أكثر من ثلاثة قام ورأى طلحة قوما يمشون معه نحوا من عشرة فقال ذباب طمع وفراش نار وقال سليم بن حنظلة بينا نحن حول أبى بن كعب نمشى خلفه اذ رآه عمر فعلاه بالدرة فقال انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع فقال ان هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع وعن الحسن قال خرج ابن مسعود يوما من منزله فاتبعه ناس فالتفت اليهم فقال علام تتبعونى فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان وقال الحسن ان خفق النعال حول الرجال قلما تابث عليه قلوب الحمقى وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال هل لكم من حاجة والا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن وروى أن رجلا صحب ابن محيريز فى سفر فلما فارقه قال أوصنى فقال ان استطعت أن تعرف ولا تعرف وتمشى ولا يمشى اليك وتسأل ولا تسئل فافعل وخرج أيوب فى سفر فشيعه ناس كثيرون فقال لولا انى أعلم ان الله يعلم من قلبى انى لهذا كاره لخشيت المقت من الله عز وجل وقال معمر عابت أيوب على طول قميصه فقال ان الشهرة فيما مضى كانت فى طوله وهى اليوم فى تشميره وقال بعضهم كنت مع أبى قلابة اذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال اياكم وهذا الحمار الناهق يشير به الى طلب الشهرة وقال الثورى كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة اذ الابصار تمتد اليهما جميعا وقال رجل لبشر بن الحرث أوصنى فقال أخل ذكرك وطيب مطعمك وكان حوشب يبكى ويقول بلغ اسمى مسجد الجامع وقال بشر ما أعرف رجلا أحب أن يعرف الا ذهب دينه وافتضح وقال أيضا ما يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس رحمة الله عليه وعليهم أجمعين

﴿ بيان فضيلة الخمول ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وقال ابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم (٢) رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره لو قال اللهم انى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيأ وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لابره وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ وقال أبو هريرة قال صلى الله عليه وسلم (٤) ان أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له الذين اذا استأذنوا على الامراء لم يؤذن لهم واذا خطبوا النساء لم ينكحوا واذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتخالج فى صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم وقال صلى الله عليه وسلم (٥) ان من أمتى من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه اياه ولو سأله درهما لم يعطه اياه ولو سأله فلسا لم يعطه اياه ولو سأل الله تعالى الجنة لاعطاه اياها ولو سأله الدنيا لم يعطه اياها وما منعها اياه الا لهوانها عليه رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره وروى أن عمر رضى الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكى عند

ضعيف (١) حديث رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك مسلم من حديث أبى هريرة رب أشعث مدفوع بالابواب لو أقسم على الله لأبره وللحاكم رب أشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره وقال صحيح الاسناد ولأبى نعيم فى الحلية من حديث أنس بسند ضعيف رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه (٢) حديث ابن مسعود رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابر دلو قال اللهم انى أسألك الجنة لاعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيأ ابن أبى الدنيا وعن طريقه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف (٣) حديث ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب (٤) حديث أبى هريرة ان أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له الذين اذا استأذنوا على الامراء لم يؤذن لهم الحديث ٧ (٥) حديث ان من أمتى من لو أتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه اياه الحديث الطبرانى فى الاوسط من حديث ثوبان باسناد صحيح دون قوله ولو سأله الدنيا لم يعطه اياها وما منعها اياه الا هوانه عليه

---

٧ قول العراقى لم يؤذن لهم الحديث هكذا فى النسخ من غير راو وقال الشارح بيض له العراقى فليعلم

قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما يبكيك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يقول ان اليسير من الرياء شرك وان الله يحب الاتقياء الاخفياء الذين ان غابوا لم يفتقدوا وان حضروا لم يعرفوا اولئك بهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة وقال محمد بن سويد قط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له لازم المسجد النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هم فى دعائهم اذ جاء هم رجل عليه طمران خلقان فصلى ركعتين أو جز فيهما ثم بسط يديه فقال يارب أقسمت عليك الا أمطرت علينا الساعة فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق فقال يارب ان كنت تعلم انهم قد اكتفوا فارفع عنهم فسكن وتبع الرجل صاحبه الذى استسقى حتى عرف منزله ثم بكر عليه فخرج اليه فقال انى أتيتك فى حاجة فقال ما هى قال تخصنى بدعوة قال سبحان الله أنت أنت وتسألنى أن أخصك بدعوة ثم قال ما الذى بلغك ما رأيت قال أطعت الله فيما أمرنى ونهانى فسألت الله فأعطانى وقال ابن مسعود كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب تعرفون فى أهل السماء وتخفون فى أهل الارض وقال أبو امامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يقول الله تعالى ان أغبط أوليائى عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر وكان غامضا فى الناس لا يشار اليه بالاصابع ثم صبر على ذلك قال ثم نقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أحب عباد الله الى الله الغرباء قيل ومن الغرباء قال الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة الى المسيح عليه السلام وقال الفضيل بن عياض بلغنى ان الله تعالى يقول فى بعض ما يمن به على عبده ألم أنعم عليك ألم أسترك ألم أخل ذكرك وكان الخليل ابن أحمد يقول اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك واجعلنى عند نفسى من أوضع خلقك واجعلنى عند الناس من أوسط خلقك وقال الثورى وجدت قلبى يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء وقال ابراهيم بن أدهم ما قرت عينى يوما فى الدنيا قط الا مرة بت ليلة فى بعض مساجد قرى الشام وكان بى البطن فجرنى المؤذن برجلى حتى أخرجنى من المسجد وقال الفضيل ان قدرت على أن لا تعرف فافعل وما عليك أن لا تعرف وما عليك أن لا يثنى عليك وما عليك أن تكون مذموما عند الناس اذا كنت محمودا عند الله تعالى فهذه الآثار والاخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول وانما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة فى القلوب وحب الجاه هو منشأ كل فساد فان قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الانبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء فكيف فاتهم فضيلة الخمول فاعلم ان المذموم طلب الشهرة فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الاقوياء وهم كالغريق الضعيف اذا كان معه جماعة من الغرقى فالاولى به أن لا يعرفه أحد منهم فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم وأما القوى فالاولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك

﴿ بيان ذم حب الجاه ﴾

قال الله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا جمع بين ارادة الفساد والعلو وبين ان الدار الآخرة للخالى عن الارادتين جميعا وقال عز وجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون وهذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه فانه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها وقال

(١) حديث معاذ بن جبل ان اليسير من الرياء شرك وان الله يحب الاتقياء الاخفياء الحديث الطبرانى والحاكم واللفظ له وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الرزقى متروك (٢) حديث أبى امامة ان أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ الحديث الترمذى وابن ماجه باسنادين ضعيفين

وافتقاده ولا يخص بعلم الضرورة وفائدتها وطلبها الاعبد يريد الله تعالى أن يقربه ويدنيه ويصطفيه ويربيه ويمتنع فى صومه من ملاعبة الاهل بالملامسة فان ذلك أنزه للصوم ويتسحر استعمالا للسنة وهو أدعى الى امضاء الصوم لمعنيين أحدهما عود بركة السنة عليه والثانى التقوية بالطعام على الصيام (روى) أنس ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تسحروا فان فى السحور بركة ويعجل الفطر عملا بالسنة فان لم يرد تناول الطعام الا بعد العشاء ويريد احياء ما بين العشاءين يفطر بالماء أو على أعداد من الزبيب أو التمر

رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأسرع افسادا من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم وقال صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه (٣) انما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه

﴿ بيان معنى الجاه وحقيقته ﴾

اعلم ان الجاه والمال هما ركنا الدنيا ومعنى المال ملك الاعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها وكما أن الغنى هو الذي يملك الدراهم والدنانير أي يقدر عليهما ليتوصل بهما الى الاغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس أي يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه وما آربه وكما انه يكتسب الاموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ولا تصير القلوب مسخرة الا بالمعارف والاعتقادات فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا في نفسه بل يكفي أن يكون كمالا عنده وفي اعتقاده وقد يعتقد ما ليس كمالا كمالا ويذعن قلبه للموصوف به انقيادا ضروريا بحسب اعتقاده فان انقياد القلب حال للقلب وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعاومها وتخيلاتها وكما ان محب المال يطلب ملك الارقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترق الاحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم يملك قلوبهم بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم لان المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ولو خلي ورأيه انسل عن الطاعة وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويبغي أن تكون له الاحرار عبيدا بالطبع والطوع مع الفرح بالعبودية والطاعة له فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير فاذا معنى الجاه قيام المنزلة في قلوب الناس أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم وبقدر اذعان القلوب تكون قدرته على القلوب وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والاطراء فان المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده فيثني عليه وكالخدمة والاعانة فانه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه وكالايثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب ومعنى قيام الجاه في القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص اما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو قوة في بدن أو شئ مما يعتقده الناس كمالا فان هذه الاوصاف كلها تعظم محله في القلوب فتكون سببا لقيام الجاه والله تعالى أعلم

﴿ بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب الا بشديد المجاهدة ﴾

اعلم أن السبب الذي يقتضي كون الذهب والفضة وسائر أنواع الاموال محبوبا هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوبا بل يقتضي أن يكون أحب من المال كما يقتضي أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المقدار وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض في أعيانهما اذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس وانما هي والحصباء بمثابة واحدة ولكنهما محبوبان لانهما وسيلة الى جميع المحاب وذريعة الى قضاء الشهوات فكذلك الجاه لان معنى الجاه ملك القلوب وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الانسان بها الى سائر أغراضه فكذلك ملك قلوب الاحرار والقدرة على استخدامها يفيد قدرة على التوصل الى جميع الاغراض فالاشتراك في السبب

(١) حديث المال والجاه ينبتان النفاق الحديث تقدم في أول هذا الباب ولم أجده (٢) حديث ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم الحديث تقدم أيضا هناك (٣) حديث انما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم في العلم من حديث أنس ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع الحديث ولابي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف حب الثناء من الناس يعمي ويصم

أو يأكل لقيمات ان كانت النفس تنازع ليصفو له الوقت بين العشاءين فاحياء ذلك له فضل كثير والافيقتصر على الماء لاجل السنة (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر التريافي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا اسحق بن موسى الانصاري قال ثنا الوليد بن مسلم عن الاوزاعي عن قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه قال الله عز وجل

اقتضى الاشتراك فى المحبة وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال وملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه * الاول أن التوصل بالجاه الى المال أيسر من التوصل بالمال الى الجاه فالعالم أو الزاهد الذى تقرر له جاه فى القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له فان أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال وأما لرجل الخسيس الذى لا يتصف بصفة كمال اذا وجد كنزا ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال الى الجاه لم يتيسر له فاذا الجاه آلة ووسيلة الى المال فمن ملك الجاه فقد ملك المال ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال فلذلك صار الجاه أحب * الثانى هو أن المال معرض للبلاوى والتلف بان يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة ويحتاج فيه الى الحفظة والحراس والخزائن ويتطرق اليه أخطار كثيرة وأما القلوب اذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهى على التحقيق خزائن عتيدة لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدى النهاب والغصاب وأثبت الاموال العقار ولا يؤمن فيه لغصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ وأما خزائن القلوب فهى محفوظة محروسة بأنفسها والجاه فى أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها نعم انما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاوله فعله * الثالث ان ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة الى تعب ومقاساة فان القلوب اذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره افصحت الالسنة لا محالة بما فيها فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضا له ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر لان ذلك اذا استطار فى الاقطار اقتنص القلوب ودعاها الى الاذعان والتعظيم فلا يزال يسرى من واحد الى واحد ويتزايد وليس له مرد معين وأما المال فمن ملك منه شيأ فهو مالكه ولا يقدر على استنمائه الا بتعب ومقاساة والجاه أبدا فى النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف ولهذا اذا عظم الجاه وانتشر الصيت واطلقت الالسنة بالثناء استحقرت الاموال فى مقابلته فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال واذا فصلت كثرت وجوه الترجيح * فان قلت فالاشكال قائم فى المال والجاه جميعا فلا ينبغى أن يحب الانسان المال والجاه نعم القدر الذى يتوصل به الى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم كالمحتاج الى الملبس والمسكن والمطعم أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة اذا كان لا يتوصل الى دفع العقوبة عن نفسه الا بمال أو جاه فحبه للمال والجاه معلوم اذ كل مالا يتوصل الى المحبوب الا به فهو محبوب وفى الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الاموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا وكذلك يحب الانسان اتساع الجاه وانتشار الصيت الى أقاصى البلاد التى يعلم قطعا انه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ومع اليأس من ذلك فانه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت فى الطبع ويكاد يظن أن ذلك جهل فانه حب لما لا فائدة فيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة فنقول نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب وله سببان أحدهما جلى تدركه الكافة والآخر خفى وهو أعظم السببين ولكنه أدق فهما وأخفاهما وأبعدهما عن افهام الاذكياء فضلا عن الاغبياء وذلك لاستمداده من عرق خفى فى النفس وطبيعة مستكنة فى الطبع لا يكاد يقف عليها الا الغواصون فأما السبب الاول فهو دفع ألم الخوف لان الشفيق بسوء الظن مولع والانسان وان كان مكفيا فى الحال فانه طويل الامل ويخطر بباله أن المال الذى فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج الى غيره فاذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف الا الامن الحاصل بوجود مال آخر يفزع اليه ان أصابت هذا المال جائحة فهو أبدا الشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدر طول الحياة ويقدر هجوم الحاجات ويقدر امكان تطرق الآفات الى الاموال ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال حتى ان أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال فلذلك لم يكن لمثله موقف الى أن يملك جميع ما فى الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) منهومان لا يشبعان

أحب عبادى الى أعجلهم فطرا وقال عليه السلام لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر * والافطار قبل الصلاة سنة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر على جرعة من ماء أو مذقة من لبن أو تمرات (وفى الخبر) كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش قيل هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على الحرام وقيل هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغيبة (قال) سفيان من اغتاب فسد صومه * وعن مجاهد خصلتان تفسدان الصوم الغيبة والكذب قال الشيخ أبو طالب

(١) حديث منهومان لا يشبعان الحديث الطبرانى من حديث ابى مسعود بسند ضعيف والبزار والطبرانى فى الاوسط

منهوم العلم ومنهوم المال ومثل هذه العلة تطرد فى حبه قيام المنزلة والجاه فى قلوب الاباعد عن وطنه و بلده فانه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم الى وطنه و يحتاج الى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكنا ولم يكن احتياجه اليهم مستحيلا احالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه فى قلو بهم لما فيه من الامن من هذا الخوف * وأما السبب الثانى وهو الاقوى أن الروح أمر ربانى به وصفه الله تعالى اذ قال سبحانه ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ومعنى كونه ربانيا انه من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة فى اظهاره[1] اذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلا الى صفات بهيمية كالأكل والوقاع والى صفات سبعية كالقتل والضرب والايذاء والى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والاغواء والى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء وذلك لانه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها فهو لما فيه من الأمر الربانى يحب الربوبية بالطبع ومعنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال فصار الكمال من صفات الالهية فصار محبوبا بالطبع للانسان والكمال بالتفرد بالوجود فان المشاركة فى الوجود نقص لا محالة فكمال الشمس فى أنها موجودة وحدها فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا فى حقها اذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية والمنفرد بالوجود هو الله تعالى اذ ليس معه موجود سواه فان ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته بل هو قائم به فلم يكن موجودا معه لان المعية توجب المساواة فى الرتبة والمساواة فى الرتبة نقصان فى الكمال بل الكامل من لا نظير له فى رتبته وكما أن اشراق نور الشمس فى أقطار الآفاق ليس نقصانا فى الشمس بل هو من جملة كمالها وانما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها فى الرتبة مع الاستغناء عنها فكذلك وجود كل ما فى العالم يرجع الى اشراق أنوار القدرة فيكون تابعا ولا يكون متبوعا فاذا معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال وكل انسان فانه بطبعه محب لان يكون هو المنفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية ما من انسان الا وفى باطنه ما صرح به فرعون من قوله أنا ربكم الاعلى ولكنه ليس يجد له مجالا وهو كما قال فان العبودية قهر على النفس والربوبية محبوبة بالطبع وذلك للنسبة الربانية التى أومأ اليها قوله تعالى قل الروح من أمر ربى ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فهى محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته ومبغض للهلاك الذى هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته وانما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود فى الاستيلاء على كل الموجودات فان أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فان لم يكن منك فأن تكون مستوليا عليه فصار الاستيلاء على الكل محبوبا بالطبع لانه نوع كمال وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته و يحب كمال ذاته و يلتذ به الا أن الاستيلاء على الشئ بالقدرة على التأثير فيه وعلى تغييره بحسب الارادة وكونه مسخرا لك تردده كيف تشاء فأحب الانسان أن يكون له استيلاء على كل الاشياء الموجودة معه الا أن الموجودات منقسمة الى ما لا يقبل التغيير فى نفسه كذات الله تعالى وصفاته والى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولى عليه قدرة الخلق كالافلاك والكواكب وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين وكالجبال والبحار وما تحت الجبال والبحار والى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالارض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها قلوب الناس فانها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات فاذا انقسمت الموجودات الى ما يقدر الانسان على التصرف فيه كالارضيات والى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات أحب الانسان أن يستولى على السموات بالعلم والاحاطة والاطلاع على أسرارها فان ذلك نوع استيلاء اذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم والعالم كالمستولى عليه فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والافلاك

المكى قرن الله الاستماع الى الباطل والقول بالاثم . بأكل الحرام فقال سماعون للكذب أكالون للسحت (وورد) فى الخبر ان امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تهلكا فبعثتا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذنانه فى الافطار فأرسل اليهما قدحا وقال قولوا لهما قيئا فيه ما أكلتما فقاءت احداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا وقاءت الاخرى مثل ذلك حتى ملأتاه فعجب الناس من ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتان صامتا

من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم (١) حديث انه صلى الله عليه وسلم لم يظهر سر الروح البخارى من حديث ابن مسعود وقد تقدم

والكواكب وجميع عجائب السموات وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لان ذلك نوع استيلاء عليها والاستيلاء نوع كمال وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة الى معرفة طريق الصنعة فيها كمن يعجز عن وضع الشطرنج فانه قد يشتهي ان يعرف اللعب به وانه كيف وضع وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشعبذة أو جر الثقيل أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشتاق الى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم ان علمه واما القسم الثاني وهو الارضيات التي يقدر الانسان عليها فانه يحب بالطبع ان يستولي عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان أجساد وأرواح أما الاجساد فهي الدراهم والدنانير والامتعة فيحب أن يكون قادرا عليها يفعل فيها ما يشاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع فان ذلك قدرة والقدرة كمال والكمال من صفات الربوبية والربوبية محبوبة بالطبع فلذلك أحب الاموال وان كان لا يحتاج اليها في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه وكذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الاشخاص الاحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستخدار وان لم يملك قلوبهم فانها بمالم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ويقوم القهر منزلته فيها فان الحشمة القهرية أيضا لذيذة لما فيها من القدرة * القسم الثاني نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الارض فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها التكون مسخرة له متصرفة تحت اشارته وارادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية والقلوب انما تتسخر بالحب ولا تحب الا باعتقاد الكمال فان كل كمال محبوب لان الكمال من الصفات الالهية والصفات الالهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الانسان وهو الذي لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله فانه محل الايمان والمعرفة وهو الواصل الى لقاء الله تعالى والساعي اليه فاذا معنى الجاه تسخر القلوب ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية فاذا محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة والمال والجاه من أسباب القدرة ولانهاية للمعلومات ولانهاية للمقدورات ومادام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن والنقصان لا يزول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم منهومان لا يشبعان فاذا مطلوب القلوب الكمال والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور فسرور كل انسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوبا وهو أمر وراء كونه محبوبا بالاجل التوصل الى قضاء الشهوات فان هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات بل يحب الانسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به الى الاغراض بل ربما يفوت عليه جملة من الاغراض والشهوات ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات لان في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية فكان محبوبا بالطبع الا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها ان شاء الله تعالى

﴿بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له﴾

قد عرفت انه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود الا في العلم والقدرة ولكن الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي وبيانه أن كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه * أحدها من حيث كثرة المعلومات وسعتها فانه محيط بجميع المعلومات فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب الى الله تعالى * الثاني من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به وكون المعلوم مكشوفا به كشفا تاما فان المعلومات مكشوفة لله تعالى باتم أنواع الكشف على ما هي عليه فلذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات العلوم كان أقرب الى الله تعالى * الثالث من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول فان علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب كان أقرب الى الله تعالى والمعلومات قسمان متغيرات وأزليات ﴿أما المتغيرات﴾ فمثالها العلم بكون زيد في الدار فانه علم له معلوم ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان فينقلب جهلا فيكون نقصانا لا كمالا فكلما اعتقدت اعتقادا

وأفطرنا على ما حرم الله عليهما وقال عليه الصلاة والسلام اذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل فان امرؤ شاتمه فليقل اني صائم (وفي الخبر) أن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم امانته (والصوفي) الذي لا يرجع الى معلوم ولا يدري متى يساق اليه الرزق فاذا ساق الله اليه الرزق تناوله بالادب وهو دائم المراقبة لوقته وهو في افطاره أفضل من الذي له معلوم معد فان كان مع ذلك يصوم فقد أكل الفضل (حكي) عن رويم قال اجتزت في الهاجرة ببعض سكك بغداد فعطشت فتقدمت الى باب دار فاستسقيت فاذا جارية قد

موافقا وتصورأن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصا ويعود علمك جهلا ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم كعلمك مثلا بارتفاع جبل ومساحة أرض وبعدد البلاد وتباعد ما بينها من الاميال والفراسخ وسائر ما يذكر في المسالك والممالك وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الاعصار والامم والعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال الى حال فليس فيه كمال لا في الحال ولا يبقى كمالا في القلب ﴿القسم الثاني﴾ هو المعلومات الازلية وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات فان هذه معلومات أزلية أبدية اذ لا يستحيل الواجب قط جائزا ولا الجائز محالا ولا المحال واجبا فكل هذه الاقسام داخلة في معرفة الله وبما يجب له وما يستحيل في صفاته ويجوز في أفعاله فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السموات والارض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى ويبقى كمالا للنفس بعد الموت وتكون هذه المعرفة نورا للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل الى كشف مالم ينكشف في الدنيا كما ان من معه سراج خفي فانه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه فيكمل النور بذلك النور الخفي على سبيل الاستتمام ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها بل كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض فاذا الاستعادة الا في معرفة الله تعالى وأما ما عدا ذلك من المعارف فنهاما لا فائدة له أصلا كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما ومنها ما له منفعة في الاعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والاخبار فان معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفية العبادات والاعمال التي تفيد تزكية النفس ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية الى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى قد أفلح من زكاها وقال عز وجل والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل الى تحقيق معرفة الله تعالى وانما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات اذ الموجودات كلها من أفعاله فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقدرة والارادة والحكمة فهي من تكملة معرفة الله تعالى هذا حكم كمال العلم اذ كرناه وان لم يكن لائقا باحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال ﴿ وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقي للعبد بل للعبد علم حقيقي وليس له قدرة حقيقية وانما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الاشياء عقيب ارادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة باحداث الله كما قررناه في كتاب الصبر والشكر وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربع المنجيات فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله الى الله تعالى فاما كمال القدرة فلا نعم له كمال من جهة القدرة بالاضافة الى الحال وهي وسيلة له الى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشي وحواسه للادراك فان هذه القوى آلة للوصول بها الى حقيقة كمال العلم وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى الى القدرة بالمال والجاه للتوصل به الى المطعم والمشرب والملبس والمسكن وذلك الى قدر معلوم فان لم يستعمله للوصول به الى معرفة جلال الله فلا خير فيه البتة الا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب ومن ظن ذلك كمالا فقد جهل فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل فانهم يظنون أن القدرة على الاجساد بقهر الحشمة وعلى أعيان الاموال بسعة الغنى وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال فاما اعتقاد ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية أما العلم فما ذكرناه من معرفة الله تعالى وأما الحرية فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبها بالملائكة الذين لا تستفزهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب فان دفع آثار الشهوة والغضب عن

خرجت ومعها كوز جديد ملآن من الماء المبرد فلما أردت أن أتناول من يدها قالت صوني ويشرب بالنهار وضربت بالكوز على الارض وانصرفت قال روبم فاستحييت من ذلك ونذرت أن لا أفطر أبدا * والجماعة الذين كرهوا دوام الصوم كرهوه لمكان ان النفس اذا ألفت الصوم وتعودته اشتد عليها الافطار وهكذا بتعودها الافطار تكره الصوم فيرون الفضل في أن لا تركن النفس الى عادة ورأوا ان افطار يوم وصوم يوم أشد على النفس * ومن أدب الفقراء ان الواحد اذا كان بين جمع وفي

النفس من الكمال الذى هو من صفات الملائكة ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان الى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه ومنزلته عند الله أعظم وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة وانما نورده فى أقسام الكمال لان حقيقته ترجع الى عدم ونقصان فان التغير نقصان اذهو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها والهلاك نقص فى اللذات وفى صفات الكمال فاذا الكمالات ثلاثة ان عددنا عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كالا كمال العلم وكمال الحرية وأعنى به عدم العبودية للشهوات وارادة الاسباب الدنيوية وكمال القدرة للعبد طريق الى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية ولاطريق له الى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته اذ قدرته على أعيان الاموال وعلى استسخار القلوب والابدان تنقطع بالموت ومعرفته وحريته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كمالا فيه ووسيلة الى القرب من الله تعالى فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان فاقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال وهو الكمال الذى لا يسلم وان سلم فلا بقاء له وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذى اذا حصل كان أبديا لا انقطاع له وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا فالعلم والحرية هى الباقيات الصالحات التى تبقى كمالا فى النفس والمال والجاه هو الذى ينقضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض الآية وقال تعالى واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء الى قوله فاصبح هشيما تذروه الرياح وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا وكل مالا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظنى لا أصل له وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل واليه أشار أبو الطيب بقوله

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله ✽ مخافة فقر فالذى فعل الفقر

الا قدر البلغة منهما الى الكمال الحقيقى اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك

✽ بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم ✽

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم ملك الاموال فانه عرض من أعراض الحياة الدنيا وينقطع بالموت كالمال والدنيا مزرعة الآخرة فكل ما خلق فى الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة وكما انه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق والانسان كما لا يستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذى يبتاع به الطعام فكذلك لا يخلو عن الحاجة الى خادم يخدمه ورفيق يعينه واستاذ يرشده وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الاشرار فحبه لان يكون له فى قلب خادمه من المحل ما يدعوه الى الخدمة ليس بمذموم وحبه لان يكون له فى قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم وحبه لان يكون له فى قلب استاذه من المحل ما يحسن به ارشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم وحبه لان يكون له من المحل فى قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم فان الجاه وسيلة الى الاغراض كالمال فلا فرق بينهما الا أن التحقيق فى هذا يفضى الى أن لا يكون المال والجاه باعيانهما محبوبين له بل ينزل ذلك منزلة حب الانسان أن يكون له فى داره بيت ماء لانه مضطر اليه لقضاء حاجته ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء فهذا على التحقيق ليس محبا لبيت الماء فكل ما يراد للتوصل به الى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل اليه وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث انه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به وقد يحب الانسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفى الشهوة لبقى مستصحبا لنكاحها فهذا هو الحب دون الاول وكذلك الجاه والمال قد يحب كل واحد منهما على هذين

الوجهين

صحبة جماعة لا يصوم الا باذنهم وانما كان ذلك لان قلوب الجمع متعلقة بفطوره وهم على غير معلوم فان صام باذن الجمع وفتح عليهم بشئ لا يلزمهم ادخاره للصائم مع العلم بان الجمع المفطرين يحتاجون الى ذلك فان الله تعالى يأتى للصائم برزقه الا أن يكون الصائم يحتاج الى الرفق لضعف حاله أو ضعف بنيته لشيخوخة أو غير ذلك وهكذا الصائم لا يليق أن يأخذ نصيبه فيدخره لان ذلك من ضعف الحال فان كان ضعيفا يعترف بحاله وضعفه فيدخره والذى ذكرناه لاقوام هم على غير معلوم

الوجهين فجهما لاجل التوصل بهما الى مهمات البدن غير مذموم وجهما لاعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان مالم يحمله الحب على مباشرة معصية ومالم يتوصل الى اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور ومالم يتوصل الى اكتسابه بعبادة فان التوصل الى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام واليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي فان قات طلبه المنزلة والجاه فى قلب استاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمره مباح على الاطلاق كيفما كان أو يباح الى حد مخصوص على وجه مخصوص فأقول يطلب ذلك على ثلاثة أوجه وجهان منه مباحان ووجه محظور أما الوجه المحظور فهو أن يطلب قيام المنزلة فى قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها مثل العلم والورع والنسب فيظهر لهم أنه علوى أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك فهذا حرام لانه كذب وتلبيس اما بالقول أو بالمعاملة * وأما أحد المباحين فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم فانه طلب المنزلة فى قلبه بكونه حفيظا عليما وكان محتاجا اليه وكان صادقا فيه * والثانى أن يطلب اخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به فهذا أيضا مباح لان حفظ الستر على القبائح جائز ولا يجوز هتك الستر واظهار القبيح وهذا ليس فيه تلبيس بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة فى العلم به كالذى يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقى اليه أنه ورع فان قوله انى ورع تلبيس وعدم اقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فان ذلك رياء وهو ملبس اذ يخيل اليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله فكيف يكون مخلصا فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية وذلك يجرى مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس فى عوض أو فى غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع فان ملك القلوب أعظم من ملك الاموال

﴿بيان السبب فى حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع اليه وبغضها للذم ونفرتها منه﴾

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب ﴿السبب الاول﴾ وهو الاقوى شعور النفس بالكمال فانا بينا أن الكمال محبوب وكل محبوب فادراكه لذيذ فهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها فان الوصف الذى به مدح لا يخلو اما أن يكون جليا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه فان كان جليا ظاهرا محسوسا كانت اللذة به أقل ولكنه لا يخلو عن لذة كثنائه عليه بانه طويل القامة أبيض اللون فان هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته فاذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة وان كان ذلك الوصف مما يتطرق اليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحسن المطلق فان الانسان ربما يكون شاكا فى كمال حسنه وفى كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقا الى زوال هذا الشك بان يصير مستيقنا لكونه عديم النظير فى هذه الامور اذ تطمئن نفسه اليه فاذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذته وانما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف فى القول الا عن تحقيق وذلك كفرح التلميذ بثناء استاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فانه فى غاية اللذة وان صدر ممن يجازف فى الكلام أو لا يكون بصيرا بذلك الوصف ضعفت اللذة وبهذه العلة يبغض الذم أيضا ويكرهه لانه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت والشعور به مؤلم ولذلك يعظم الالم اذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه فى المدح ﴿السبب الثانى﴾ ان المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وانه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والاكابر وتضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شئ فان القدرة عليه بملك قلبه قدرة على

فأما الصوفية المتحيون فى رباط على معلوم فالاليق بحالهم الصيام ولا يلزمهم موافقة الجمع فى الافطار وهذا يظهر فى جمع منهم لهم معلوم يقدم لهم بالنهار فأما اذا كانوا على غير معلوم فقد قيل مساعدة الصوام للمفطرين أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوام وأمر القوم مبناه على الصدق ومن الصدق افتقاد النية وأحوال النفس فكل ما صحت النية فيه من الصوم والافطار والموافقة وترك الموافقة فهو الافضل فاما من حيث السنة فمن يوافق له وجه اذا كان صائما وأفطر للموافقة وان صام ولم يوافق فله وجه * فأما وجه من يفطر

أمر حقير فلا يدل المدح الا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضا يكره الذم ويتألم به القلب واذا كان من الاكابر كانت تكايته أعظم لان الفائت به أعظم ﴿السبب الثالث﴾ أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه لاسيما اذا كان ذلك ممن يلتفت الى قوله ويعتد بثنائه وهذا مختص بثناء يقع على الملا فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثنى أجدر بان يلتفت الى قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس ﴿السبب الرابع﴾ أن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح الى اطلاق اللسان بالثناء على الممدوح اما عن طوع واما عن قهر فان الحشمة أيضا لذيذة لما فيها من القهر والقدرة وهذه اللذة تحصل وان كان المادح لا يعتقد فى الباطن ما مدح به ولكن كونه مضطرا الى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد فهذه الاسباب الاربعة قد تجمع فى مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ وقد تفترق فتنقص اللذة بها أما العلة الاولى وهى استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق فى قوله كما اذا مدح بانه نسيب أو سخى أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك فتزول اللذة التى سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات فان كان يعلم ان المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه الى النطق بالثناء فان لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلا لذة لفوات الاسباب الثلاثة فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم ونعود الى ذكر ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة فان ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته اذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض والله الموفق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى

﴿بيان علاج حب الجاه﴾

اعلم ان من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفا بالتودد اليهم والمرا آة لاجلهم ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا الى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ويجر ذلك لا محالة الى التساهل فى العبادات والمرا آة بها والى اقتحام المحظورات للتوصل الى اقتناص القلوب ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وافسادهما للدين بذئبين ضاريين وقال عليه السلام انه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل اذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب المنزلة فى قلوب الناس فيضطر الى النفاق معهم والى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها وذلك هو عين النفاق فحب الجاه اذن من المهلكات فيجب علاجه وازالته عن القلب فانه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال وعلاجه مركب من علم وعمل أما العلم فهو أن يعلم السبب الذى لاجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم وقد بينا ان ذلك ان صفا وسلم فآخره الموت فليس هو من الباقيات الصالحات بل لو سجد له كل من على بسيط الارض من المشرق الى المغرب فالى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ويكون حاله كحال من مات قبله من ذوى الجاه مع المتواضعين له فهذا لا ينبغى أن يترك به الدين الذى هو الحياة الابدية التى لا انقطاع لها ومن فهم الكمال الحقيقى والكمال الوهمى كما سبق صغر الجاه فى عينه الا ان ذلك انما يصغر فى عين من ينظر الى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده ويكون حاله كحال الحسن البصرى حين كتب الى عمر بن عبد العزيز أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كائنا وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب فى جوابه أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل فهؤلاء كان التفاتهم الى العاقبة فكان عملهم لها بالتقوى اذ علموا أن العاقبة للمتقين فاستهانوا بالجاه والمال فى الدنيا وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها الى مشاهدة العواقب ولذلك قال تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى وقال عز وجل كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة فمن هذا حده

فينبغى

ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أبيه أبى الفضل الحافظ المقدسى قال أنا أبو الفضل محمد بن عبد الله قال أنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوى قال أنا أبو بكر محمد بن حمدويه قال ثنا عبد الله ابن حماد قال ثنا عبد الله بن صالح قال حدثنى عطاء ابن خالد عن حماد ابن حميد عن محمد بن المنكدر عن أبى سعيد الخدرى قال اصطنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه طعاما فلما قدم اليهم قال رجل من القوم انى صائم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاكم أخوكم وتكلف

فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة وهو أن يتفكر في الاخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا فان كل ذي جاه محسود ومقصود بالايذاء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب والقلوب أشد تغيرا من القدر في غليانها وهي مترددة بين الاقبال والاعراض فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر فانه لا ثبات له والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الاعداء كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه فلا يفي في الدنيا مرجوها بمخوفها فضلا عما يفوت في الآخرة فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة وأما من نفذت بصيرته وقوي ايمانه فلا يلتفت الى الدنيا فهذا هو العلاج من حيث العلم * وأما من حيث العمل فاسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول وبرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق وهذا هو مذهب الملامتية اذا قتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه وهذا غير جائز لمن يقتدى به فانه يوهن الدين في قلوب المسلمين وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لاجل ذلك بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس كما روي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد فلما علم بقربه منه استدعى طعاما وبقلا وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة فلما نظر اليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد الحمد لله الذي صرفك عني ومنهم من شرب شرابا حلالا في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه الا ان أرباب الاحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا اصلاح قلوبهم فيه ثم يتدارك كون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم فانه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه فدخل حماما ولبس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا انه طرار وهجروه وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة الى موضع الخمول فان المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته فانه ربما يظن انه ليس محبا لذلك الجاه وهو مغرور وانما سكنت نفسه لانها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه الى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت وربما توصلت الى الاعتذار عن ذلك واماطة ذلك الغبار عن قلوبهم وربما يحتاج في ازالة ذلك عن قلوبهم الى كذب وتلبيس ولا يبالي به وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فان فتنة الجاه أعظم ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس مادام يطمع في الناس فاذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأسا أصبح الناس كلهم عنده كالاراذل فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لانه لا يراهم ولا يطمع فيهم ولا يقطع الطمع عن الناس الا بالقناعة فمن قنع استغنى عن الناس واذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن ولا يتم ترك الجاه الا بالقناعة وقطع الطمع ويستعين على جميع ذلك بالاخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول والذل مثل قولهم المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة أو علة وينظر في أحوال السلف وايثارهم للذل على العز ورغبتهم في ثواب الآخرة رضي الله عنهم أجمعين

﴿ بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم ﴾

اعلم ان أكثر الناس انما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفا من الذم وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقه ملاحظة الاسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم ﴿ أما السبب الاول ﴾ فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه أن ترجع الى عقلك وتقول لنفسك هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا فان كنت متصفا بها فهي اما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع واما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والاعراض الدنيوية فان كانت من

لكم ثم تقول الى صائم افطر واقض يوما مكانه * وأما وجه من لا يوافق فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكلوا وبلال صائم فقال رسول الله نأكل رزقنا ورزق بلال في الجنة فاذا علم أن هنالك قلبا يتأذى وفضلا يرجى من موافقته من يغتنم موافقته يفطر بحسن النية لا بحكم الطبع وتقاضيه فان لم يجد هذا المعنى لا ينبغي أن يتلبس عليه الشره وداعية النفس بالنية فليتم صومه وقد تكون الاجابة لداعية النفس لاقتضاء حق أخيه * ومن أحسن آداب

الاعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الارض الذى يصير على القرب هشيما تذروه الرياح وهذا من قلة العقل بل العاقل يقول كما قال المتنبى

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغى أن يفرح الانسان بعروض الدنيا وان فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها وان كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغى أن لا يفرح بها لان الخاتمة غير معلومة وهذا انما يقتضى الفرح لانه يقرب عند الله زلفى وخطر الخاتمة باق ففى الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما فى الدنيا بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور ثم ان كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح فان اللذة فى استشعار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغى أن تفرح بالمدح والمدح لا يزيدك فضلا وان كانت الصفة التى مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون ومثالك مثال من يهز أبه انسان ويقول سبحان الله ما أكثر العطر الذى فى أحشائه وما أطيب الروائح التى تفوح منه اذا قضى حاجته وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الاقذار والانتان ثم يفرح بذلك فكذلك اذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل سريرتك واقذار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل فاذا المادح ان صدق فليكن فرحك بصفتك التى هى من فضل الله عليك وان كذب فينبغى أن يغمك ذلك ولا تفرح به ﴿وأما السبب الثانى﴾ وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سببا لتسخير قلب آخر فهذا يرجع الى حب الجاه والمنزلة فى القلوب وقد سبق وجه معالجته وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله وبان تعلم أن طلبك المنزلة فى قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله فكيف تفرح به ﴿وأما السبب الثالث﴾ وهو الخشمة التى اضطرت المادح الى المدح فهو أيضا يرجع الى قدرة عارضة لاثبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغى أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به كما نقل ذلك عن السلف لان آفة المدح على الممدوح عظيمة كما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان قال بعض السلف من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل فى بطنه وقال بعضهم اذا قيل لك نعم الرجل أنت فكان أحب اليك من أن يقال لك بئس الرجل أنت فأنت والله بئس الرجل وروى فى بعض الاخبار فان صح فهو قاصم للظهور(١) أن رجلا أثنى على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت فمات على ذلك دخل النار وقال صلى الله عليه وسلم (٢) مرة للمادح ويحك قصمت ظهره لو سمعك ما أفلح الى يوم القيامة وقال عليه السلام (٣) ألا لا تمادحوا واذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به حتى ان بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شئ فقال أنت يا أمير المؤمنين خير منى وأعلم فغضب وقال انى لم آمرك بان تزكينى وقيل لبعض الصحابة لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله فغضب وقال انى لا حسبك عراقيا وقال بعضهم لمادح اللهم ان عبدك تقرب الى بمقتك فاشهدك على مقته وانما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض اليهم مدح الخلق لان الممدوح هو المقرب عند الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى فى النار مع الاشرار فهذا الممدوح ان كان عند الله من أهل النار فأعظم جهله اذا فرح بمدح غيره وان كان من أهل الجنة فلا ينبغى أن يفرح الا بفضل الله تعالى وثنائه عليه اذ ليس أمره بيد الخلق ومهما علم أن الارزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته الى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه والله الموفق للصواب برحمته

(١) حديث ان رجلا أثنى على رجل خيرا فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت ومات على ذلك دخل النار لم أجد له أصلا (٢) حديث ويحك قطعت ظهره الحديث قاله للمادح تقدم (٣) حديث ألا

الفقير الطالب انه اذا أفطر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيرا عن هيئته ونفسه متثبطة عن أداء وظائف العبادة فيعالج مزاج القلب المتغير بإذهاب التغير عنه وبذيب الطعام بركعات يصليها أو بآيات يتلوها أو بأذكار واستغفار يأتى به فقد ورد فى الخبر أذيبوا طعامكم بالذكر * ومن مهام آداب الصوم كتمانه مهما أمكن الا أن يكون ممكنا من الاخلاص فلا يبالى ظهر أم بطن

﴿الباب الثانى والاربعون فى ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة﴾

الصوفى يحسن نيته وصحة مقصده

﴿بيان علاج كراهة الذم﴾

قد سبق ان العلة فى كراهة الذم هو ضد العلة فى حب المدح فعلاجه أيضا يفهم منه والقول الوجيز فيه أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال اما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة واما أن يكون صادقا ولكن قصده الايذاء والتعنت واما أن يكون كاذبا فان كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغى أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغى أن تتقلد منته فان من أهدى اليك عيوبك فقد أرشدك الى المهالك حتى تتقيه فينبغى أن تفرح به وتشتغل بازالة الصفة المذمومة عن نفسك ان قدرت عليها فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك اياه فانه غاية الجهل وان كان قصده التعنت فانت قد انتفعت بقوله اذ أرشدك الى عيبك ان كنت جاهلا به أو ذكرك عيبك ان كنت غافلا عنه أو وقعه فى عينك لينبعث حرصك على ازالته ان كنت قد استحسنته وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ماسمعته من المذمة فهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ماوث بالعذرة وأنت لا تدرى ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحزر قبتك لتلوثك مجلسه بالعذرة فقال لك قائل أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك فينبغى أن تفرح به لان تنبيهك بقوله غنيمة وجميع مساوى الاخلاق مهلكة فى الآخرة والانسان انما يعرفها من قول أعدائه فينبغى أن تغتنمه وأما قصد العدو التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به * الحالة الثالثة أن يفترى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى فينبغى أن لا تكدر ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر فى ثلاثة أمور أحدها انك ان خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه وماستره الله من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالى اذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت برىء منه والثانى ان ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت برىء منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اغتابك فقد أهدى اليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك فبالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التى تقرب بك الى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله وأما الثالث فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الاليم فلا ينبغى أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول اللهم أهلكه بل ينبغى أن تقول اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه كما قال صلى الله عليه وسلم (١) اللهم اغفر لقومى اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون لما أن كسر رباعيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة ثم أحدوا عابراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له فى ذلك فقال علمت انى مأجور بسببه وما نالنى منه الا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسببى ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع فان من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك فى قلبك وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ومادام الطمع قائما كان حب الجاه والمدح فى قلب من طمعت فيه غالبا وكانت همتك الى تحصيل المنزلة فى قلبه مصروفة ولا ينال ذلك الا بهدم الدين فلا ينبغى أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم فى سلامة دينه فان ذلك بعيد جدا

﴿بيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم﴾

اعلم ان للناس أربعة أحوال بالاضافة الى الذام والمادح * الحالة الاولى أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية فى هذا الباب * الحالة الثانية أن يمتعض فى الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن اظهار السرور وهذا من النقصان الا انه بالاضافة الى ما قبله كمال * الحالة الثالثة وهى أول درجات الكمال أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة وهذا قد يظنه بعض

لا تمادحوا واذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب تقدم دون قوله ألا لا تمادحوا (١) حديث اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون قاله الماضر به قومه البيهقى فى دلائل النبوة وقد تقدم والحديث فى الصحيح انه

ودفور علمه واتيانه بآدابه تصير عاداته عبادة والصوفى موهوب وقته لله ويريد حياته لله كما قال الله تعالى لنبيه آمرا له قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين فتدخل على الصوفى أمور العادة لموضع حاجته وضرورة بشريته ويحف بعاداته نور يقظته وحسن نيته فتتنور العادات وتتشكل بالعبادات ولهذا ورد نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح هذا مع كون النوم عين الغفلة ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة فتناول الطعام أصل كبير

العباد بنفسه ويكون مغرورا ان لم يمتحن نفسه بعلاماته وعلاماته أن لا يجد فى نفسه استثقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده فى المادح وأن لا يجد فى نفسه زيادة هزة ونشاط فى قضاء حوائج المادح فوق ما يجده فى قضاء حاجة الذام وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح وأن لا يكون موت المادح المطرى له أشد نكاية فى قلبه من موت الذام وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفى عينه من زلة الذام فهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستوى الامن كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن فى قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات ور بما شعر العابد بميل قلبه الى المادح دون الذام والشيطان يحسن له ذلك ويقول الذام قد عصى الله بمذمتك والمادح قد أطاع الله بمدحك فكيف تسوى بينهما وانما استثقالك للذام من الدين المحض وهذا محض التلبيس فان العابد لو تفكر علم أن فى الناس من ارتكب من كبائر المعاصى أكثر مما ارتكب الذام فى مذمته ثم انه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم ويعلم ان المادح الذى مدحه لا يخلو عن مذمة غيره ولا يجد فى نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه والمذمة من حيث انها معصية لا تختلف بان يكون هو المذموم أو غيره فاذا العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يمتعض ثم ان الشيطان يخيل اليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه فيزيده ذلك بعدا من الله ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس فاكثر عباداته تعب ضائع يفوت عليه الدنيا ويخسره فى الآخرة وفيهم قال الله تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * الحالة الرابعة وهى الصدق فى العبادة أن يكره المدح ويمقت المادح اذ يعلم انه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له فى الدين ويحب الذام اذ يعلم أنه مهد اليه عيبه ومرشده الى مهمه ومهد اليه حسناته فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى وقد روى فى بعض الاخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا ان صح اذ روى أنه صلى الله عليه وسلم (٢) قال ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف الامن فقيل يا رسول الله الامن فقال الامن تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة وهذا شديد جدا وغاية أمثالنا الطمع فى الحالة الثانية وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح ولا يظهر ذلك بالقول والعمل فاما الحالة الثالثة وهى التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها ثم ان طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فانها لا تنفى بها لانها لابد وأن تتسارع الى اكرام المادح وقضاء حاجاته وتتثاقل على اكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه ولا نقدر على أن نسوى بينهما فى الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه فى سريرة القلب ومن قدر على التسوية بين المادح والذام فى ظاهر الفعل فهو جدير بان يتخذ قدوة فى هذا الزمان ان وجد فانه الكبريت الاحمر يتصدث الناس به ولا يرى فكيف بما بعده من المرتبتين وكل واحدة من هذه الرتب أيضا فيها درجات أما الدرجات فى المدح فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت فيتوصل الى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائى بالعبادات ولا يبالى بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذا من الهالكين ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ولا يباشر المحظورات وهذا على شفا جرف هار فان حدود الكلام الذى يستميل به القلوب وحدود الاعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد فهو قريب من الهالكين جدا ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها ولكن اذا مدح سبق السرور الى قلبه فان لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور

يحتاج الى علوم كثيرة لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية وتعلق أثره بالقلب والقالب وبه قوام البدن باجراء سنة الله تعالى بذلك والقالب مركب القلب وبهما عمارة الدنيا والآخرة (وقد ورد) أرض الجنة قيعان ثباتها التسبيح والتقديس والقالب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الاخرة وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين والله تعالى ركب الادمى بلطيف حكمته من أخص

صلى الله عليه وسلم قاله حكاية عن نبى من الانبياء حين ضربه قومه (١) حديث رأس التواضع ان يكره أن يذكر بالبر والتقوى لم أجد له أصلا (٢) حديث ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف الحديث لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس ويل لمن لبس الصوف تخالف فعله قوله ولم يخرجه ولده فى مسنده

الى الرتبة التى قبلها وان جاهد نفسه فى ذلك وكلف قلبه الكراهية و بغض السرور اليه بالتفكر فى آفات المدح فهو فى خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه ومنهم من اذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم به ولم يؤثر فيه وهذا على خبر وان كان قد بقى عليه بقية من الاخلاص ومنهم من يكره المدح اذا سمعه ولكن لا ينتهى به الى أن يغضب على المادح وينكر عليه وأقصى درجاته ان يكره و يغضب و يظهر الغضب وهو صادق فيه لان يظهر الغضب وقلبه محب له فان ذلك عين النفاق لانه يريد ان يظهر من نفسه الاخلاص والصدق وهو مفلس عنه وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الاحوال فى حق الذام وأول درجاته اظهار الغضب وآخرها اظهار الفرح ولا يكون الفرح واظهاره الا ممن فى قلبه حنق وحقد على نفسه لتمرد ها عليه وكثرة عيو بها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة فيبغضها ببغض العدو والانسان يفرح بمن يذم عدوه وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح اذا سمع ذمها و يشكر الذام على ذلك و يعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيو بها فيكون ذلك كالتشفى له من نفسه و يكون غنيمة عنده اذا صار بالمذمة أوضع فى أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الناس واذا سيقت اليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون خير العيو به التى هو عاجز عن اماطتها ولو جاهد المريد نفسه طول عمره فى هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره و بينه و بين السعادة عقبات كثيرة هذه احداها ولا يقطع شيأ منها الا بالمجاهدة الشديدة فى العمر الطو يل

﴿الشطر الثانى من الكتاب فى طلب الجاه والمنزلة بالعبادات﴾

وهو الرياء وفيه بيان ذم الرياء و بيان حقيقة الرياء ومايراءى به و بيان درجات الرياء و بيان الرياء الخفى و بيان مايحبط العمل من الرياء ومالا يحبط و بيان دواء الرياء وعلاجه و بيان الرخصة فى اظهار الطاعات و بيان الرخصة فى كتمان الذنوب و بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات و بيان مايصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق و بيان مايجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة و بعدها وهى عشرة فصول و بالله التوفيق

﴿بيان ذم الرياء﴾

اعلم ان الرياء حرام والمرائى عند الله ممقوت وقد شهدت لذلك الآيات والاخبار والآثار ﴿أما الآيات﴾ فقوله تعالى فو يل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن وقوله عز وجل والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور قال مجاهد هم أهل الرياء وقال تعالى انما نطعمكم لوجه الله لا نر يد منكم جزاء ولا شكورا فمدح المخلصين بنفى كل ارادة سوى وجه الله والرياء ضده وقال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (١) نزل ذلك فيمن يطلب الاجر والحمد بعباداته وأعماله ﴿وأما الاخبار﴾ فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال يارسول الله فيم النجاة فقال أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس (٢) وقال أبو هر يرة فى حديث الثلاثة المقتول فى سبيل الله والمتصدق بماله والقارئ لكتاب الله كما أوردناه فى كتاب الاخلاص وان الله عز وجل يقول لكل واحد منهم كذبت بل أردت ان يقال فلان جواد كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع كذبت بل أردت ان يقال فلان قارئ فاخبر صلى الله عليه وسلم انهم لم يثابوا وان رياءهم هو الذى أحبط أعمالهم وقال ابن عمر رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم (٣) من راءى راءى الله به ومن سمع

(١) حديث نزول قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه الآية فيمن يطلب الآخرة والحمد بعبادته وأعماله الحاكم من حديث طاوس قال رجل انى أقف الموقف ابتغى وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية هكذا فى نسختى من المستدرك ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هر يرة والبزار من حديث معاذ بسند ضعيف من صام رياء فقد أشرك الحديث وفيه انه صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية (٢) حديث أبى هر يرة فى الثلاثة المقتول فى سبيل الله والمتصدق بماله والقارئ لكتابه فان الله يقول لكل واحد منهم كذبت رواه مسلم وسيأتى فى كتاب الاخلاص

(٣) حديث ابن عمر من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله وأما حديث

جواهر الجسمانيات والروحانيات وجعله مستودع خلاصة الارضين والسموات وجعل عالم الشهادة ومافيها من النبات والحيوان لقوام بدن الآدمى قال الله تعالى خلق لكم مافى الارض جميعا فكون الطبائع وهى الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة وكون بواسطتها النبات وجعل النبات قواما للحيوانات وجعل الحيوانات مسخرة للآدمى يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه فالطعام يصل الى المعدة وفى المعدة طباع أربع وفى الطعام طباع أربع فاذا أراد الله اعتدال

سمع الله به وفى حديث آخر طويل (١) ان الله تعالى يقول للملائكته ان هذا لم يرد نى بعمله فاجعلوه فى سجين وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر يارسول الله قال الرياء يقول الله عزوجل يوم القيامة اذا جازى العباد باعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء وقال صلى الله عليه وسلم (٣) استعيذوا بالله عزوجل من جب الحزن قيل وما هو يارسول الله قال وادى جهنم أعد للقراء المرائين وقال صلى الله عليه وسلم (٤) يقول الله عزوجل من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برىء وأنا أغنى الاغنياء عن الشرك وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم واذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله واذا صلى فيرخ ستر بابه فان الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٥) لا يقبل الله عزوجل عملا فيه مثقال ذرة من رياء وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكى ما يبكيك قال حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعنى النبى صلى الله عليه وسلم (٦) يقول ان أدنى الرياء شرك وقال صلى الله عليه وسلم (٧) أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية وهى أيضا ترجع الى خطايا الرياء ودقائقه وقال صلى الله عليه وسلم (٨) ان فى ظل العرش يوم لا ظل الا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد يخفيها عن شماله ولذلك ورد (٩) ان فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا وقال صلى الله عليه وسلم (١٠) ان المرائى ينادى عليه يوم القيامة يافاجر ياغادر يامرائى ضل عملك وحبط أجرك اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له (١١) وقال شداد بن أوس رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يبكى فقلت ما يبكيك يارسول الله قال انى تخوفت على أمتى الشرك أما انهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولكنهم يراؤن باعمالهم وقال صلى الله عليه

مزاج البدن أخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام فتأخذ الحرارة للبرودة والرطوبة لليبوسة فيعتدل المزاج ويأمن الاعوجاج واذا أراد الله تعالى افناء قالب وتخريب بنية أخذت كل طبيعة جنسها من المأكول فتميل الطبائع ويضطرب المزاج ويسقم البدن ذلك تقدير العزيز العليم (روى) عن وهب بن منبه قال وجدت فى التوراة صفة آدم عليه السلام انى خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء من رطب ويابس وبارد وسخن وذلك لانى خلقته من التراب وهو

ابن عمر فرواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره وفى الزهد لابن المبارك ومسند أحمد وابن منيع انه من حديث عبد الله بن عمرو

(١) حديث ان الله يقول للملائكة ان هذا لم يرد نى بعمله فاجعلوه فى سجين ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى الاخلاص وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلا ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات (٢) حديث ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر الحديث أحمد والبيهقى فى الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبرانى من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج (٣) حديث استعيذوا بالله من جب الحزن قيل وما هو قال وادى جهنم أعد للقراء المرائين الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة وضعفه ابن عدى (٤) حديث يقول الله من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله الحديث مالك واللفظ له من حديث أبى هريرة دون قوله وأنا منه برىء ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضا وهى عند ابن ماجه بسند صحيح (٥) حديث لا يقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من رياء لم أجد له هكذا (٦) حديث معاذ ان أدنى الرياء شرك الطبرانى هكذا والحاكم بلفظ ان اليسير من الرياء شرك وقد تقدم قبل هذه الورقة (٧) حديث أخوف ما أخاف عليكم الرياء الحديث تقدم فى أول هذا الكتاب (٨) حديث ان فى ظل العرش يوم لا ظل الا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله متفق عليه من حديث أبى هريرة بنحوه فى حديث سبعة يظلهم الله فى ظله (٩) حديث تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء ان الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به فى السر يضعف أجره سبعين ضعفا قال البيهقى هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب الاخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف يفضل الذكر الخفى الذى لا تسمعه الحفظة على الذكر الذى تسمعه الحفظة سبعين درجة (١٠) حديث ان المرائى ينادى يوم القيامة يافاجر ياغادر يامرائى ضل عملك وحبط أجرك الحديث ابن أبى الدنيا من رواية جبلة اليحصبى عن صحابى لم يسم وزاد يا كافر يا خاسر ولم يقل يامرائى واسناده ضعيف (١١) حديث شداد بن أوس انى

وسلم (١) لما خلق الله الارض مادت باهلها فخلق الجبال فصيرها أوتادا للارض فقالت الملائكة ما خلق ربنا خلقا هو أشد من الجبال فخلق الله الحديد فقطع الجبال ثم خلق النار فأذابت الحديد ثم أمر الله الماء باطفاء النار وأمر الريح فكدرت الماء فاختلفت الملائكة فقالت نسأل الله تعالى فقالوا يا ربنا أشد ما خلقت من خلقك قال الله تعالى لم أخلق خلقا هو أشد على من قلب ابن آدم حين يتصدق بصدقة بيمينه فيخفيها عن شماله فهذا أشد خلقا خلقته وروى عبد الله بن المبارك باسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لي يا معاذ قلت لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال انى محدثك حديثا ان أنت حفظته نفعك وان أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة يا معاذ (٢) ان الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والارض ثم خلق السموات فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها قد جللها عظما فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح الى حين أمسى له نور كنور الشمس حتى اذا صعدت به الى السماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني الى غيري قال ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمر به فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به الى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري انه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يتوهج نورا من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به الى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري انه كان يتكبر على الناس في مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد زهر كما يزهر الكوكب الدري له دوى من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به ظهره وبطنه أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري انه كان اذا عمل عملا أدخل العجب في عمله قال وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة الى أهلها فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد انه كان يحسد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا من العبادة يحسدهم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزون به الى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه كان لا يرحم انسانا قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر أضر به بل كان يشمت به أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري قال وتصعد الحفظة بعمل العبد الى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد وورع له دوى كدوى الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به الى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به جوار حه اقفلوا به على قلبه انى أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي انه أراد به عمله غير الله تعالى انه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكرا عند العلماء

يابس ورطوبته من الماء وحرارته من قبل النفس وبرودته من قبل الروح وخلقت في الجسد بعد هذا الخلق الاول أربعة أنواع من الخلق هن ملاك الجسم باذني وبهن قوامه فلا يقوم الجسم الا بهن ولا تقوم منهن واحدة الا باخرى منهن المرة السوداء والمرة الصفراء والدم والبلغم ثم أسكنت بعض هذا الخلق في بعض فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء ومسكن الرطوبة في المرة الصفراء ومسكن الحرارة في الدم ومسكن البرودة في البلغم فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الاربع التي

تخوفت على أمتي الشرك الحديث ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريبا (١) حديث لما خلق الله الارض مادت بأهلها الحديث وفيه لم أخلق خلقا هو أشد من ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب (٢) حديث معاذ الطويل ان الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والارض فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها الحديث بطوله في صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاه المصنف الى رواية عبد الله بن المبارك باسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه في الزهد وفي اسناده كما ذكر من لم يسم ورواه ابن الجوزي في الموضوعات

وصيتا فى المدائن أمرنى ربى أن لا أدع عملا يجاوزنى الى غيرى وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائى قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها الى الله عز وجل فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله قال فيقول الله لهم أنتم الحفظة على عمل عبدى وأنا الرقيب على نفسه انه لم يردنى بهذا العمل وأراد به غيرى فعليه لعنتى فتقول الملائكة كلهم عليه لعنتك ولعنتنا وتقول السموات كلها عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السموات السبع والارض ومن فيهن قال معاذ قلت يارسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال اقتدى وان كان فى عملك نقص يامعاذ حافظ على لسانك من الوقيعة فى اخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تزك نفسك بذمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا فى عمل الآخرة ولا تتكبر فى مجلسك لكى يحذر الناس من سوء خلقك ولا تناج رجلا وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة فى النار قال تعالى والناشطات نشطا أتدرى من هن يامعاذ قلت ماهن بابى أنت وأمى يارسول الله قال كلاب فى النار تنشط اللحم والعظم قلت بابى أنت وأمى يارسول الله فمن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها قال يامعاذ انه ليسير على من يسره الله عليه قال فما رأيتنى أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما فى هذا الحديث (وأما الآثار) فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأ طئ رقبته فقال ياصاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع فى الرقاب انما الخشوع فى القلوب ورأى أبو امامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده فقال أنت أنت لو كان هذا فى بيتك وقال على كرم الله وجهه للمرائى ثلاث علامات يكسل اذا كان وحده وينشط اذا كان فى الناس ويزيد فى العمل اذا أثنى عليه وينقص اذا ذم وقال رجل لعبادة ابن الصامت أقاتل بسيفى فى سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس قال لا شئ لك فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول لا شئ لك ثم قال فى الثالثة ان الله يقول أنا أغنى الاغنياء عن الشرك الحديث وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال ان أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر فقال له أتحب أن تمقت قال لا قال فاذا عملت لله عملا فأخلصه وقال الضحاك لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقولن هذا لله وللرحم فان الله تعالى لا شريك له وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له اقتص منى فقال لا بل أدعها لله ولك فقال له عمر ما صنعت شيأ اما أن تدعها لى فاعرف ذلك أو تدعها لله وحده فقال ودعتها لله وحده فقال فنعم اذن وقال الحسن لقد صحبت أقواما ان كان أحدهم ليتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها الا مخافة الشهرة وان كان أحدهم ليمر فيرى الاذى فى الطريق فما يمنعه ان ينحيه الا مخافة الشهرة ويقال ان المرائى ينادى يوم القيامة بار بعة أسماء يامرائى ياغادر ياخاسر بافاجر اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا وقال الفضيل بن عياض كانوا يراؤن بما يعملون وصاروا اليوم يراؤن بما لا يعملون وقال عكرمة ان الله يعطى العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لان النية لا رياء فيها وقال الحسن رضى الله عنه المرائى يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الازدياء فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه وقال قتادة اذا راءى العبد يقول الله تعالى انظروا الى عبدى يستهزئ بى وقال مالك بن دينار القراء ثلاثة قراء الرحمن وقراء الدنيا وقراء الملوك وان محمد بن واسع من قراء الرحمن وقال الفضيل من أراد ان ينظر الى مراء فلينظر الى وقال محمد بن المبارك الصورى أظهر السمت بالليل فانه أشرف من سمتك بالنهار لان السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين وقال أبو سليمان التوقى عن العمل أشد من العمل وقال ابن المبارك ان كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان فقيل له وكيف ذاك قال يحب أن يذكر أنه مجاور بمكة وقال ابراهيم بن أدهم ما صدق الله من أراد أن يشتهر

﴿بيان حقيقة الرياء ومايراءى به﴾

جعلتها ملاكه وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربعا لا يزيد ولا ينقص كملت صحته واعتدلت بنيته فان زادت منهن واحدة عليهن هزمتهن ومالت بهن ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها حتى يضعف عن طاقتهن ويعجز عن مقدارهن فأهم الامور فى الطعام أن يكون حلالا وكل ما لا يذمه الشرع حلال رخصة ورحمة من الله لعباده ولولا رخصة الشرع كبر الامر وأتعب طلب الحلال * ومن أدب الصوفية رؤية المنعم على النعمة وأن يبتدئ بغسل اليد قبل الطعام قال رسول الله صلى الله عليه

اعلم ان الرياء مشتق من الرؤية والسمعة مشتقة من السماع وانما الرياء أصله طلب المنزلة فى قلوب الناس بإراءتهم خصال الخير الا أن الجاه والمنزلة تطلب فى القلب باعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات واظهارها فمدار الرياء هو ارادة العباد بطاعة الله فالمرائى هو العابد والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم والمراءى به هو الخصال التى قصد المرائى اظهارها والرياء هو قصده اظهار ذلك والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهى مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو البدن والزى والقول والعمل والاتباع والاشياء الخارجة وكذلك أهل الدنيا يراؤن بهذه الاسباب الخمسة الا أن طلب الجاه وقصد الرياء باعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات ﴿ القسم الاول الرياء فى الدين بالبدن ﴾ وذلك باظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة وليدل بالنحول على قلة الاكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين وكذلك يرائى بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر وهذه الأسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الامور فاراحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعوه النفس الى اظهارها لنيل تلك الراحة ويقرب من هذا خفض الصوت واغارة العينين وذبول الشفتين ليستدل بذلك على انه مواظب على الصوم وانه وقار الشرع هو الذى خفض من صوته أو ضعف الجوع هو الذى ضعف من قوته وعن هذا قال المسيح عليه السلام اذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه وكذلك روى عن أبى هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء ولذلك قال ابن مسعود أصبحوا صيامامدهنين فهذه مراآة أهل الدين بالبدن فاما أهل الدنيا فيراؤن باظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الاعضاء وتناسبها ﴿ الثانى الرياء بالهيئة والزى ﴾ أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب واطراق الرأس فى المشى والهدء فى الحركة وابقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها الى قريب من الساق وتقصير الاكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقا كل ذلك يرائى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله الصالحين ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الافلاس من حقائق التصوف فى الباطن ومنه التقنع بالازار فوق العمامة واسبال الرداء على العينين ليرى به انه قد انتهى تقشفه الى الحذر من غبار الطريق ولتنصرف اليه الاعين بسبب تميزه بتلك العلامة ومنه البراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم انه من أهل العلم والمراؤن بالزى على طبقات فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح باظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائى بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها انه غير مكترث بالدنيا ولو كلف ان يلبس ثوبا وسطا نظيفا مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدله من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب فى الدنيا وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة ازدرتهم أعين الملوك والاغنياء فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا فلذلك يطلبون الاصواف الدقيقة والاكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والفوط الرفيعة فيلبسونها ولعل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب أحد الاغنياء ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين وهؤلاء ان كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفا من السقوط من أعين الملوك والاغنياء ولو كلفوا لبس الديبق والكتان الدقيق الابيض والمقصب المعلم وان كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم ذلك عليهم خوفا من ان يقول أهل الصلاح قد رغبوا فى زى أهل الدنيا وكل طبقة منهم رأى مغزلته فى زى مخصوص فيثقل عليه الانتقال الى ما دونه أو الى ما فوقه وان كان مباحا خيفة من المذمة وأما أهل الدنيا فمراآتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل فى الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره

وسلم الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر وانما كان موجبا لنفى الفقر لان غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالادب وذلك من شكر النعمة والشكر يستوجب المزيد فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة مذهبا للفقر وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحب أن يكثر خير بيته فليتوضأ اذا حضر غداؤه ثم يسمى الله تعالى فقوله تعالى ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه تفسيره تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان واختلف الشافعى وأبو حنيفة رحمهما الله فى

الخيول و بالثياب المصبغة والطيالسة النفيسة وذلك ظاهر بين الناس فانهم يلبسون فى بيوتهم الثياب الخشنة و يشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة مالم يبالغوا فى الزينة ﴿الثالث الرياء بالقول﴾ ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الاخبار والآثار لاجل الاستعمال فى المحاورة واظهار الغزارة العلم ودلالة على شدة العناية باحوال السلف الصالحين وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس والامر بالمعروف والنهى عن المنكر بمشهد الخلق واظهار الغضب للمنكرات واظهار الاسف على مقارفة الناس للمعاصى وتضعيف الصوت فى الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدل بذلك على الخوف والحزن وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروى الحديث بيان خلل فى لفظه ليعرف انه بصير بالاحاديث والمبادرة الى أن الحديث صحيح أوغير صحيح لاظهار الفضل فيه والمجادلة على قصد افحام الخصم ليظهر للناس قوته فى علم الدين والرياء بالقول كثير وأنواعه لاتنحصر وأما أهل الدنيا فمراآتهم بالقول بحفظ الاشعار والامثال والتفاصح فى العبارات وحفظ النحو الغريب للاغراب على أهل الفضل واظهار التودد الى الناس لاستمالة القلوب ﴿الرابع الرياء بالعمل﴾ كمراآة المصلى بطول القيام ومد الظهر وطول السجود والركوع واطراق الرأس وترك الالتفات واظهار الهدء والسكون وتسوية القدمين واليدين وكذلك بالصوم والغزو والحج و بالصدقة و باطعام الطعام و بالاخبات فى المشى عند اللقاء كارخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار فى الكلام حتى ان المرائى قد يسرع فى المشى الى حاجته فاذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع الى الوقار واطراق الرأس خوفا من أن ينسبه الى العجلة وقلة الوقار فان غاب الرجل عاد الى عجلته فاذا رآه عاد الى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون مجددا لخشوع له بل هو لاطلاع انسان عليه يخشى أن لايعتقد فيه انه من العباد والصلحاء ومنهم من اذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته فى الخلوة مشيته بمرأى من الناس فيكلف نفسه المشية الحسنة فى الخلوة حتى اذا رآه الناس لم يفتقر الى التغيير و يظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رياؤه فانه صار فى خلوته أيضا مرائيا فانه انما يحسن مشيته فى الخلوة ليكون كذلك فى الملا لا لخوف من الله وحياء منه وأما أهل الدنيا فمراآتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطا والاخذ بأطراف الذيل وادارة العطفين ليدل بذلك على الجاه والحشمة ﴿الخامس المراآة بالاصحاب والزائرين والمخالطين﴾ كالذى يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ليقال ان فلانا قد زار فلانا أو عابدا من العباد ليقال ان أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون اليه أو ملكا من الملوك أو عاملا من عمال السلطان ليقال انهم يتبركون به لعظم رتبته فى الدين وكالذى يكثر ذكر الشيوخ ليرى انه لقى شيوخا كثيرة واستفاد منهم فيباهى بشيوخه ومباهاته ومراآته تترشح منه عند مخاصمته فيقول لغيره ومن لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلانا وفلانا ودرت البلاد وخدمت الشيوخ وما يجرى مجراه فهذه مجامع مايرائى به المراؤن وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة فى قلوب العباد ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه فكم من راهب انزوى الى ديره سنين كثيرة وكم من عابد اعتزل الى قلة جبل مدة مديدة وانما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه فى قلوب الخلق ولو عرف انهم نسبوه الى جريمة فى ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله يراءه ساحته بل يشتد لذلك غمه و يسعى بكل حيلة فى ازالة ذلك من قلوبهم مع انه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه فانه لذيذ كما ذكرناه فى أسبابه فانه نوع قدرة وكمال فى الحال وان كان سريع الزوال لايغتر به الا الجهال ولكن أكثر الناس جهال ومن المرائين من لايقنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك اطلاق اللسان بالثناء والحمد ومنهم من يريد انتشار الصيت فى البلاد لتكثر الرحلة اليه ومنهم يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة ومنهم من يقصد التوصل بذلك الى جمع حطام وكسب مال ولو من الاوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراؤن بالاسباب التى ذكرناها فهذه حقيقة الرياء ومابه يقع الرياء فان قلت فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل فاقول فيه تفصيل فان الرياء هو طلب الجاه وهو اما ان

وجوب ذلك وفهم الصوفى من ذلك بعد القيام بظاهر التفسير أن لا يأكل الطعام الا مقرونا بالذكر فقرنه فريضة وقته وأدبه و يرى أن تناول الطعام والماء ينتج من اقامة النفس ومتابعة هواها ويرى ذكر الله تعالى دواءه وترياقه (روت) عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل الطعام فى ستة نفر من أصحابه فجاء اعرابى فأكله بلقمتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما انه لو كان يسمى الله لكفاكم فاذا أكل أحدكم طعاما فليقل

يكون بالعبادات أو بغير العبادات فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث انه طلب منزلة فى قلوب العباد ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج اليه الانسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود وهو الذى طلبه يوسف عليه السلام حيث قال انى حفيظ عليم وكما أن المال فيه سم نافع ودرياق نافع فكذلك الجاه وكما أن كثير المال يلهى و يطغى و ينسى ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال وكما انا لا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام الا اذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز نعم انصراف الهم الى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم الى كثرة المال ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصى القلب واللسان وغيرها وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله ان زال فلا ضرر فيه فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين ولكن انصراف الهم الى طلب الجاه نقصان فى الدين ولا يوصف بالتحريم فعلى هذا نقول تحسين الثوب الذى يلبسه الانسان عند الخروج الى الناس مرآة وهو ليس بحرام لانه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم والدليل عليه ما روى عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أراد أن يخرج يوما الى الصحابة فكان ينظر فى حب الماء و يسوى عمامته وشعره فقالت أو تفعل ذلك يا رسول الله قال نعم ان الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لاخوانه اذا خرج اليهم نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة لانه كان مأمورا بدعوة الخلق وترغيبهم فى الاتباع واستمالة قلوبهم ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا فى اتباعه فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم فان أعين عوام الخلق تمتد الى الظواهر دون السرائر فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه فى أعينهم حذرا من ذمهم ولومهم واستروحا الى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمرا مباحا اذ للانسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الانس بالاخوان ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم فاذا المرآة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة وقد تكون طاعة وقد تكون مذمومة وذلك بحسب الغرض المطلوب بها ولذلك نقول الرجل اذا أنفق ماله على جماعة من الاغنياء لا فى معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخى فهذا مرآة وليس بحرام وكذلك أمثاله أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائى فيه حالتان احداهما أن لا يكون له قصد الا الرياء المحض دون الاجر وهذا يبطل عبادته لان الاعمال بالنيات وهذا ليس يقصد العبادة ثم لا يقتصر على احباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصى بذلك و يأثم كما دلت عليه الاخبار والآيات والمعنى فيه أمران أحدهما يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لانه خيل اليهم انه مخلص مطيع لله وانه من أهل الدين وليس كذلك والتلبيس فى أمر الدنيا حرام أيضا حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس انه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر * والثانى يتعلق بالله وهو انه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله ولذلك قال قتادة اذا راءى العبد قال الله للملائكة انظروا اليه كيف يستهزئ بى ومثاله أن يمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وانما وقوفه لملاحظة جارية من جوارى الملك أو غلام من غلمانه فإن هذا استهزاء بالملك اذ لم يقصد التقرب الى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبدا من عبيده فاى استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مرآة عبد ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعا وهل ذلك الا لانه يظن ان ذلك العبد أقدر على تحصيل اغراضه من الله وانه أولى بالتقرب اليه من الله اذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى فهذا من كبائر المهلكات ولهذا سماه رسول الله صلى الله

(١) حديث عائشة أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر فى حب الماء و يسوى عمامته وشعره الحديث ابن عدى فى الكامل وقد تقدم فى الطهارة

بسم الله فان نسى أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره ويستحب أن يقول فى أول لقمة بسم الله وفى الثانية بسم الله الرحمن وفى الثالثة يتم ويشرب الماء بثلاثة أنفاس يقول فى أول نفس الحمد لله اذا شرب وفى الثانية الحمد لله رب العالمين وفى الثالثة الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم وكما ان للعدة طباعا تتقدر كما ذكرناه بموافقة طباع الطعام فللقلب أيضا مزاج وطباع لأرباب التفقد والرعايا واليقظة يعرف انحراف مزاج القلب من اللقمة المتناولة تارة تحدث

عليه وسلم (١) الشرك الاصغر نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض كما سيأتي بيانه فى درجات الرياء ان شاء الله تعالى ولا يخلو شئ منه عن اثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراآة ولو لم يكن فى الرياء الا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية فانه وان لم يقصد التقرب الى الله فقد قصد غير الله ولعمرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا الا أن الرياء هو الكفر الخفى لان المرائى عظم فى قلبه الناس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقى تعظيم الخلق كان ذلك قريبا من الشرك الا انه ان قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده باظهاره من نفسه صورة التعظيم لله فعن هذا كان شركا خفيا لا شركا جليا وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه الا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله وما آله أكثر مما يملكه الله تعالى فلذلك عمد بل بوجهه عن الله اليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ولو وكله الله تعالى اليهم فى الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه فان العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا فكيف يملكون لغيرهم هذا فى الدنيا فكيف فى يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ بل تقول الانبياء فيه نفسى نفسى فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس فلا ينبغى أن نشك فى أن المرائى بطاعة الله فى سخط الله من حيث النقل والقياس جميعا هذا اذا لم يقصد الاجر فأما اذا قصد الاجر والحمد جميعا فى صدقته أو صلاته فهو الشرك الذى يناقض الاخلاص وقد ذكرنا حكمه فى كتاب الاخلاص ويدل على ما نقلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت انه لا أجر له فيه أصلا

﴿ بيان درجات الرياء ﴾

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه وأركانه ثلاثة المراءى به والمراءى لاجله ونفس قصد الرياء ﴿ الركن الاول ﴾ نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو اما أن يكون مجردا دون ارادة عبادة الله تعالى والثواب واما أن يكون مع ارادة الثواب فان كان كذلك فلا يخلو اما أن تكون ارادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لارادة العبادة فتكون الدرجات أربعا * الاولى وهى أغلظها ان لا يكون مراده الثواب أصلا كالذى يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلى بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس فهذا اجرد قصده الى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولو خلا بنفسه لما أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء * الثانية أن يكون له قصد الثواب أيضا ولكن قصد اضعيفا بحيث لو كان فى الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل فهذا قريب مما قبله وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا ينفى عنه المقت والاثم * الثالثة أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأسا برأس لا له ولا عليه أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الاخبار تدل على انه لا يسلم وقد تكلمنا عليه فى كتاب الاخلاص * الرابعة أن يكون اطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذى نظنه والعلم عند الله انه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى أنا أغنى الاغنياء عن الشرك فهو محمول على ما اذا تساوى القصدان أو كان

من اللقمة حرارة الطيش بالنهوض الى الفضول وتارة تحدث فى القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت وتارة تحدث رطوبة السهو والغفلة وتارة يبوسة الهم والحزن بسبب الحظوظ العاجلة فهذه كلها عوارض يتفطن لها المتيقظ ويرى تغير القالب بهذه العوارض تغير مزاج القلب عن الاعتدال والاعتدال كما هو مهم طلبه للقالب فللقلب أهم وأولى وتطرق الانحراف الى القلب أسرع منه الى القالب ومن الانحراف ما يسقم به القلب فيموت لموت القالب

(١) حديث سمى الرياء الشرك الاصغر أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبرانى من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج فجعله فى مسند رافع وتقدم قريبا وللحاكم وصحح اسناده من حديث شداد بن أوس كانا نعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر

فصد الرياء أرجح * الركن الثانى * المراءى به وهو الطاعات وذلك ينقسم الى الرياء باصول العبادات والى الرياء بأوصافها * القسم الاول وهو الاغلظ الرياء بالاصول وهو على ثلاث درجات * الاولى الرياء بأصل الايمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد فى النار وهو الذى يظهر كلمتى الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه يرائى بظاهر الاسلام وهو الذى ذكره الله تعالى فى كتابه فى مواضع شتى كقوله عزوجل اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون أى فى دلالتهم بقولهم على ضمائرهم وقال تعالى ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها الآية وقال تعالى واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ وقال تعالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا مذبذبين بين ذلك والآيات فيهم كثيرة وكان النفاق يكثر فى ابتداء الاسلام ممن يدخل فى ظاهر الاسلام ابتداء لغرض وذلك مما يقل فى زماننا ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا الى قول الملحدة أو يعتقد طى بساط الشرع والاحكام ميلا الى أهل الاباحة أو يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلافه فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين فى النار وليس وراء هذا الرياء رياء وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين فانهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر * الثانية الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الاول بكثير ومثاله أن يكون مال الرجل فى يد غيره فيأمره باخراج الزكاة خوفا من ذمه والله يعلم منه انه لو كان فى يده لما أخرجها أو يدخل وقت الصلاة وهو فى جمع وعادته ترك الصلاة فى الخلوة وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهى خلوة من الخلق ليفطر وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة ولكن خوفا من الناس أو يغزو أو يحج كذلك فهذا مراء معه أصل الايمان بالله يعتقد انه لا معبود سواه ولو كلف ان يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند اطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب اليه من منزلته عند الخالق وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ورغبته فى محمدتهم أشد من رغبته فى ثواب الله وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وان كان غير منسل عن أصل الايمان من حيث الاعتقاد * الثالثة أن لا يرائى بالايمان ولا بالفرائض ولكنه يرائى بالنوافل والسنن التى لو تركها لا يعصى ولكنه يكسل عنها فى الخلوة لفتور رغبته فى ثوابها ولا يثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ثم يبعثه الرياء على فعلها وذلك كحضور الجماعة فى الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت وكالتهجد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس فقد يفعل المرائى جلية ذلك خوفا من المذمة أو طلبا للحمدة ويعلم الله تعالى منه انه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض فهذا أيضا عظيم ولكنه دون ما قبله فان الذى قبله آثر حمد الخالق على حمد الخالق وهذا أيضا قد فعل ذلك واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق فكان ذم الخالق أعظم عنده من عقاب الله وأما هذا فلم يفعل ذلك لانه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها وكأنه على الشطر من الاول وعقابه نصف عقابه فهذا هو الرياء باصول العبادات * القسم الثانى الرياء باوصاف العبادات لا باصولها وهو أيضا على ثلاث درجات * الأولى أن يرائى بفعل مافى تركه نقصان العبادة كالذى غرضه ان يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة فاذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتم القعود بين السجدتين وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها به عزوجل أى أنه ليس يبالى باطلاع الله عليه فى الخلوة فاذا اطلع عليه آدمى أحسن الصلاة ومن جلس بين يدى انسان متربعا أو متكئا فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديما للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة وهذا حال المرائى بتحسين الصلاة فى الملأ دون الخلوة وكذلك الذى يعتاد اخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الردىء فاذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث

واسم الله تعالى دواء نافع مجرب يقى الاسواء ويذهب الداء ويجلب الشفاء * حكى أن الشيخ محمدا الغزالى لما رجع الى طوس رصف له فى بعض القرى عبد صالح فقصده زائرا فصادفه وهو فى صحراء له يبذر الحنطة فى الارض فلما رأى الشيخ محمدا جاء اليه وأقبل عليه فجاء رجل من أصحابه وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ فى ذلك وقت اشتغاله بالغزالى فامتنع ولم يعطه البذر فسأله الغزالى عن سبب امتناعه فقال لانى أبذر هذا البذر بقلب حاضر ولسان ذاكر أرجو

لاجل الخلق لا كالعبادة الصوم خوفا من المذمة فهذا أيضا من الرياء المحظور لان فيه تقديما للمخلوقين على الخالق ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات فان قال المرائى انما فعلت ذلك صيانة لالسنتهم عن الغيبة فانهم اذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة وانما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس وليس الامر كذلك فان ضررك من نقصان صلاتك وهى خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر وما أنت فى هذا الا كمن يهدى وصيفة الى ملك لينال منه فضلا وولاية يتقلدها فيهديها اليه وهى عوراء قبيحة مقطوعة الاطراف ولا يبالى به اذا كان الملك وحده واذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفا من مذمة غلمانه وذلك محال بل من يراعى جانب غلام الملك ينبغى أن تكون مراقبته للملك أكثر نعم للمرائى فيه حالتان احداهما أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعا والثانية أن يقول ليس يحضرنى الاخلاص فى تحسين الركوع والسجود ولو خففت كانت صلاتى عند الله ناقصة وآذانى الناس بذمهم وغيبتهم فاستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثوابا فهو خير من ان أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر والصحيح ان الواجب عليه أن يحسن ويخلص فان لم تحضره النية فينبغى أن يستمر على عادته فى الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراآة بطاعة الله فان ذلك استهزاء كما سبق * الدرجة الثانية أن يرائى بفعل مالا نقصان فى تركه ولكن فعله فى حكم التكملة والتتمة لعبادته كالتطويل فى الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة الى التكبيرة الاولى وتحسين الاعتدال والزيادة فى القراءة على السورة المعتادة وكذلك كثرة الخلوة فى صوم رمضان وطول الصمت واختيار الاجود على الجيد فى الزكاة واعتاق الرقبة الغالية فى الكفارة وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه الثالثة أن يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الاول وتوجهه الى يمين الامام ومايجرى مجراه وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالى أين وقف ومتى يحرم بالصلاة فهذه درجات الرياء بالاضافة الى مايرائى به وبعضه أشد من بعض والكل مذموم ﴿ الركن الثالث ﴾ المراءى لاجله فان للمرائى مقصود الامحالة وانما يرائى لادراك مال أو جاه أو غرض من الاغراض لا محالة وله أيضا ثلاث درجات * الاولى وهى أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية كالذى يرائى بعباداته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالامانة فيولى القضاء أو الاوقاف أو الوصايا أو مال الايتام فيأخذها أو يسلم اليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها أو تسلم اليه الاموال التى تنفق فى طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها أو يتوصل بها الى استتباع الحجيج ويتوصل بقوتهم الى مقاصده الفاسدة فى المعاصى وقد يظهر بعضهم زى التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وانما قصده التحبب الى امرأة أو غلام لاجل الفجور وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة فى سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان أو يخرج الى الحج ومقصوده الظفر بمن فى الرفقة من امرأة أو غلام وهؤلاء أبغض المرائين الى الله تعالى لانهم جعلوا طاعة ربهم سلما الى معصيته واتخذوها آلة ومتجرا وبضاعة لهم فى فسقهم ويقرب من هؤلاء وان كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفى التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفى التهمة كالذى جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال انه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحيل مال غيره وكذلك من ينسب الى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع واظهار التقوى * الثانية أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالذى يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الاموال ويرغب فى نكاحه النساء فيقصد اما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة وكالذى يرغب فى أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم

البركة فيه لكل من يتناول منه شيأ فلا أحب أن أسلمه الى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر (وكان) بعض الفقراء عند الأكل يشرع فى تلاوة سورة من القرآن يحضر الوقت بذلك حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر ولا يعقب الطعام مكروه ويتغير مزاج القلب وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى يقول أنا آكل وأنا أصلى يشير الى حضور القلب فى الطعام وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله لئلا يتفرق همه وقت الاكل ويرى للذكر وحضور

والعبادة ليرغب فى تزويجه ابنته فهذا رياء محظور لانه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الاول فان المطلوب بهذا مباح فى نفسه * الثالثة أن لا يقصد نيل حظ وادراك مال أو نكاح ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر اليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد انه من جملة العامة كالذى يمشى مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشى ويترك العجلة كيلا يقال انه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار وكذلك ان سبق الى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء واظهار الحزن ويقول ما أعظم غفلة الآدمى عن نفسه والله يعلم منه انه لو كان فى خلوة لما كان يثقل عليه ذلك وانما يخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير وكالذى يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب الى الكسل و يلحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيأ من ذلك وكالذى يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو فى الاشهر الحرم فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس انه غير صائم فاذا ظنوا به الصوم امتنع عن الاكل لاجله أو يدعى الى طعام فيمتنع ليظن انه صائم وقد لا يصرح بانى صائم ولكن يقول لى عذر وهو جمع بين خبيثين فانه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء وانه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيا فيريد أن يقال انه ساتر لعبادته ثم ان اضطر الى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا تصريحا أو تعريضا بان يتعلل بمرض يقتضى فرط العطش و يمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطييبا لقلب فلان ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشربه كى لا يظن به أنه يعتذر رياء ولكنه يصبر ثم يذكر عذره فى معرض حكاية عرضا مثل أن يقول ان فلانا يحب للاخوان شديد الرغبة فى أن يأكل الانسان من طعامه وقد ألح على اليوم ولم أجد بدا من تطييب قلبه ومثل أن يقول ان أمى ضعيفة القلب مشفقة على تظن أنى لو صمت يوما مرضت فلا تدعنى أصوم فهذا ومايجرى مجراه من آفات الرياء فلا يسبق الى اللسان الا رسوخ عرق الرياء فى الباطن أما المخلص فانه لا يبالى كيف نظر الخلق اليه فان لم يكن له رغبة فى الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبسا وان كان له رغبة فى الصوم لله فمنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره وقد يخطر له أن فى اظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور وسيأتى شرح ذلك وشروطه فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه وهو من أشد المهلكات وان من شدته أن فيه شوائب هى أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر يزل فيه فحول العلماء فضلا عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم

﴿ بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل ﴾

اعلم ان الرياء جلى وخفى فالجلى هو الذى يبعث على العمل و يحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه وأخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرده الا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله كالذى يعتاد التهجد كل ليلة و يثقل عليه فاذا نزل عنده ضيف نشط له وخف عليه وعلم انه لو لا رجاء الثواب لكان لا يصلى لمجرد رياء الضيفان وأخفى من ذلك ما لا يؤثر فى العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب ومهما لم يؤثر فى ابتداء العمل لم يمكن أن يعرف الا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص فى عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه و يرده و يتم العمل كذلك ولكن اذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة وهذا السرور يدل على رياء خفى منه يرشح السرور ولولا التفات القلب الى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس فلقد كان الرياء مستكنا فى القلب استكنان النار فى الحجر فاظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ثم اذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفى من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية فيتقاضى تقاضيا خفيا ان يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض والقاء الكلام عرضا وان كان لا يدعو الى التصريح وقد يخفى فلا يدعو الى الاظهار

القلب فى الاكل أثرا كبيرا لا يسعه الاهمال له ومن الذكر عند الاكل الفكر فيما هيأ الله تعالى من الاسنان المعينة على الاكل فمنها الكاسرة ومنها القاطعة ومنها الطاحنة وما جعل الله تعالى من الماء الحلو فى الفم حتى لا يتغير الذوق كما جعل ماء العين ما لحا لما كان شحما حتى لا يفسد وكيف جعل الندواة تنبع من أرجاء اللسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ وكيف جعل القوة الهاضمة مسلطة على الطعام تفصله وتجزئه متعلقا مددها بالكبد والكبد بمثابة النار والمعدة بمثابة القدر وعلى

بالنطق تعريضا وتصريحا ولكن بالشمائل كاظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك اذا رأى الناس أحب أن يبدؤه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان فان قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع انه لم يطلع عليه ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن خاليا عن شوب خفي من الرياء[1] أخفى من دبيب النمل وكل ذلك يوشك أن يحبط الاجر ولا يسلم منه الا الصديقون وقد روى عن علي كرم الله وجهه انه قال ان الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ألم يكن يرخص عليكم السعر ألم تكونوا تبتدؤن بالسلام ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج وفي الحديث لا أجر لكم فاستوفيتم أجوركم وقال عبد الله بن المبارك روى عن وهب ابن منبه انه قال ان رجلا من السواح قال لاصحابه انا انما فارقنا الاموال والاولاد مخافة الطغيان فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الاموال في أموالهم لان أحدنا اذا التقى أحب أن يعظم لمكان دينه وان سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وان اشترى شيأ أحب أن يرخص عليه لمكان دينه فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فاذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس فقال السائح ما هذا قيل هذا الملك قد أظلك فقال للغلام ائتني بطعام فاتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا فقال الملك أين صاحبكم فقالوا هذا قال كيف أنت قال كالناس وفي حديث آخر بخير فقال الملك ما عند هذا من خير فانصرف عنه فقال السائح الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على اخفائها أعظم مما يحرص الناس على اخفاء فواحشهم كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة باخلاصهم على ملا من الخلق اذ علموا ان الله لا يقبل في القيامة الا الخالص وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وانه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجزي والد عن ولده ويشتغل الصديقون بانفسهم فيقول كل واحد نفسي نفسي فضلا عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله اذا توجهوا الى مكة فانهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربي الخالص لعلمهم بان أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والنبهرج والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزع اليه ولا حميم يتمسك به فلا ينجي الا الخالص من النقد فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يتزودونه له من التقوى فاذا شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته انسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فانه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا فلو كان مخلصا فانما بعلم الله لا لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين فاذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفي ولكن ليس كل شوب محبطا للاجر مفسدا للعمل بل فيه تفصيل فان قلت فانا نرى أحدا ينفك عن السرور اذا عرفت طاعاته فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم فنقول أولا كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم الى محمود والى مذموم فاما المحمود فاربعة أقسام الاول أن يكون قصده اخفاء الطاعة والاخلاص لله ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره اليه والطافه به فانه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة

قد فساد الكبد تقل الهاضمة ويفسد الطعام ولا ينفصل ولا يصل الى كل عضو نصيبه وهكذا تأثير الاعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين ويطول شرح ذلك فمن أراد الاعتبار فليطالع تشريح الاعضاء ليرى العجب من قدرة الله تعالى من تعاضد الاعضاء وتعاونها وتعلق بعضها بالبعض في اصلاح الغذاء واستجذاب القوة منه للاعضاء وانتسامه الى الدم والثفل واللبن لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين فتبارك الله أحسن الخالقين فالفكر

(١) حديث في الرياء شوائب أخفى من دبيب النمل أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الاشعري اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من دبيب النمل ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق وضعفه هو والدارقطني

ولا لطف أعظم من ستر القبيح واظهار الجميل فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم وقد قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا فكانه ظهر له انه عند الله مقبول ففرح به * الثانى أن يستدل باظهار الله الجميل وستره القبيح عليه فى الدنيا انه كذلك يفعل فى الآخرة اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ما ستر الله على عبد ذنبا فى الدنيا الا ستره عليه فى الآخرة فيكون الاول فرحا بالقبول فى الحال من غير ملاحظة المستقبل وهذا التفات الى المستقبل * الثالث أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به فى الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا وأجر السر بما قصده أولا ومن اقتدى به فى طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شئ وتوقع ذلك جدير بان يكون سبب السرور فان ظهور مخايل الرجاء لذيذ وموجب للسرور لا محالة * الرابع أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله فى مدحهم وبحبهم للطيع ويميل قلوبهم الى الطاعة اذ من أهل الايمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه الى الرياء ولا يحمده عليه فهذا فرح بحسن ايمان عباد الله وعلامة الاخلاص فى هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم اياه * وأما المذموم وهو الخامس فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالاكرام فى مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم

﴿ بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لا يحبط ﴾

فنقول فيه اذا عقد العبد العبادة على الاخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو اما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ فان ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير اظهار فهذا لا يفسد العمل اذ العمل قد تم على نعت الاخلاص سالما عن الرياء فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثره لا سيما اذا لم يتكلف هو اظهاره والتحدث به ولم يتم اظهاره وذكره ولكن اتفق ظهوره باظهار الله ولم يكن منه الا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه نعم لو تم العمل على الاخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة فى الاظهار فقصد به وأظهره فهذا مخوف وفى الآثار والاخبار ما يدل على أنه يحبط فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول قرأت البارحة البقرة فقال ذلك حظه منها وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) انه قال لرجل قال له صمت الدهر يا رسول الله فقال له ما صمت ولا أفطرت فقال بعضهم انما قال ذلك لانه أظهره وقيل هو اشارة الى كراهة صوم الدهر وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به اذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل بل الاقيس أن يقال انه مثاب على عمله الذى مضى ومعاقب على مراآته بطاعة الله بعد الفراغ منها بخلاف ما لو تغير عقده الى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فان ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل وأما اذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا وكان قد عقد على الاخلاص ولكن ورد فى أثنائها وارد الرياء فلا يخلو اما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر فى العمل واما أن يكون رياء باعثا على العمل فان كان باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره ومثاله أن يكون فى تطوع فتجددت له نظارة أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهى أن ينظر اليه أو يذكر شيأ نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفا من مذمة الناس فقد حبط

(١) حديث ما ستر الله على عبد فى الدنيا الا ستر عليه فى الآخرة مسلم من حديث أبى هريرة (٢) حديث قال لرجل قال صمت الدهر ما صمت ولا أفطرت مسلم من حديث أبى قتادة قال عمر يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر قال لا صام ولا أفطر وللطبرانى من حديث أسماء بنت يزيد فى أثناء حديث فيه فقال رجل انى صائم قال بعض القوم انه لا يفطر انه يصوم كل يوم قال النبى صلى الله عليه وسلم لا صام ولا أفطر من صام الابد ولم أجده بلفظ الخطاب

فى ذلك وقت الطعام وتعرف لطيف الحكم والقدر فيه من الذكر وما يذهب داء الطعام المغير لمزاج القلب أن يدعو فى أول الطعام ويسأل الله تعالى ان يجعله عونا على الطاعة ويكون من دعائه اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وما رزقتنا مما تحب اجعله عونا لنا على ما تحب وما زويت عنا مما تحب اجعله فراغا لنا فيما تحب (الباب الثالث والاربعون فى آداب الاكل) فمن ذلك أن يبتدى بالملح ويختم به روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لعلى رضى الله عنه يا على ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح فان الملح شفاء

أجره وعليه الاعادة ان كان فى فريضة وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) العمل كالوعاء اذا طاب آخره طاب أوله أى النظر الى خاتمته وروى أنه (٢) من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذى كان قبله وهذا منزل على الصلاة فى هذه الصورة لا على الصدقة ولا على القراءة فان كل جزء من ذلك مفرد فما يطرأ يفسد الباقى دون الماضى والصوم والحج من قبيل الصلاة وأما اذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الاتمام لاجل الثواب كما لو حضر جماعة فى أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لاجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا فهذا رياء قد أثر فى العمل وانتهض باعثا على الحركات فان غلب حتى امحق معه الاحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغمورا فهذا أيضا ينبغى أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه لانا نكتفى بالنية السابقة عند الاحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظرا الى حالة العقد والى بقاء قصد أصل الثواب وان ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه ولقد ذهب الحرث المحاسبى رحمه الله تعالى الى الاحباط فى أمر هو أهون من هذا وقال اذا لم يرد الا مجرد السرور باطلاع الناس يعنى سرورا هو كحب المنزلة والجاه قال قد اختلف الناس فى هذا فصارت فرقة الى أنه محبط لانه نقض العزم الاول وركن الى حمد المخلوقين ولم يختم عمله بالاخلاص وانما يتم العمل بخاتمته ثم قال ولا أقطع عليه بالحبط وان لم يتزيد فى العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس والاغلب على قلبى أنه يحبط اذا ختم عمله بالرياء ثم قال فان قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى انهما حالتان فاذا كانت الاولى لله لم تضره الثانية وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله (٣) أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى قال لك أجران أجر السر وأجر العلانية ثم تكلم على الخبر والاثر فقال أما الحسن فانه أراد بقوله لا يضره أى لا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله ولم يقل اذا عقد الرياء بعد عقد الاخلاص لم يضره وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طو بل يرجع حاصله الى ثلاثة أوجه * أحدها أنه يحتمل انه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس فى الحديث انه قبل الفراغ * الثانى انه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل لا سرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة بدليل انه جعل له به أجرا ولا ذاهب من الامة الى أن للسرور بالمحمدة أجرا وغايته أن يعفى عنه فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائى أجران * والثالث أنه قال أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل الى أبى هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبى صالح ومنهم من يرفعه فالحكم بالعمومات الواردة فى الرياء أولى هذا ما ذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلا الى الاحباط والاقيس عندنا ان هذا القدر اذا لم يظهر أثره فى العمل بل بقى العمل صادرا عن باعث الدين وانما انضاف اليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لانه لم ينعدم به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الاتمام وأما الاخبار التى وردت فى الرياء فهى محمولة على ما اذا لم يرد به الا الخلق وأما ما ورد فى الشركة فهو محمول على ما اذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه أما اذا كان ضعيفا بالاضافة اليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الاعمال ولا ينبغى أن يفسد الصلاة ولا يبعد أيضا أن يقال ان الذى أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله والخالص ما لا يشوبه شئ فلا يكون مؤديا للواجب

(١) حديث العمل كالوعاء اذا طاب آخره طاب أوله ابن ماجه من حديث معاوية بن أبى سفيان بلفظ اذا طاب أسفله طاب أعلاه وقد تقدم (٢) حديث من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذى كان قبله لم أجد بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به ورواه مسلم من حديث ابن عباس (٣) حديث ان رجلا قال أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى فقال لك أجران الحديث البيهقى فى شعب الايمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذى وابن حبان من رواية ذكوان عن أبى هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فاذا اطلع عليه أعجبه قال له أجر السر والعلانية قال الترمذى غريب وقال انه روى عن أبى صالح وهو ذكر انه مرسل

من سبعين داء منها الجنون والجذام والبرص ووجع البطن ووجع الاضراس وروت عائشة رضى الله عنها قالت لدغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ابهامه من رجله اليسرى لدغة فقال على بذلك الابيض الذى يكون فى العجين فجئنا بملح فوضعه فى كفه ثم لعق منه ثلاث لعقات ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه ويستحب الاجتماع على الطعام وهو سنة الصوفية فى الربط وغيرها (روى جابر) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من أحب الطعام الى الله تعالى ما كثرت عليه الايدى وروى انه قيل يا رسول

مع هذا الثوب والعلم عند الله فيه وقد ذكرنا في كتاب الاخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن فليرجع اليه فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة اما قبل الفراغ أو بعد الفراغ ﴿القسم الثالث﴾ الذي يقارن حال العقد بان يبتدئ الصلاة على قصد الرياء فان استمر عليه حتى سلم فلا خلاف في انه يقضي ولا يعتد بصلاته وان ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه قالت فرقة لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف وقالت فرقة تلزمه اعادة الافعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة لان التحريم عقد والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا وقالت فرقة لا يلزمه اعادة شئ بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الاخلاص والنظر الى خاتمة العبادة كما لو ابتدأ بالاخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فاذا أزيل العارض عاد الى الأصل فقالوا ان الصلاة والركوع والسجود لا تكون لله ولو سجد لغير الله لكان كافرا ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار الى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه اعادة الركوع والسجود دون الافتتاح لان الركوع والسجود ان لم يصح صارت أفعالا زائدة في الصلاة فتفسد الصلاة وكذلك قول من يقول لو ختم بالاخلاص صح نظرا الى الآخر فهو أيضا ضعيف لان الرياء يقدح في النية وأولى الاوقات بمراعاة أحكام النية حالة الافتتاح فالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال ان كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الامر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده وذلك فيمن اذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلي لاجل الناس فهذه صلاة لا نية فيها اذ النية عبارة عن اجابة باعث الدين وههنا لا باعث ولا اجابة فأما اذا كان بحيث لولا الناس أيضا كان يصلي الا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان فهذا اما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج فان كان في صدقة فقد عصى باجابة باعث الرياء وأطاع باجابة باعث الثواب فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر وان كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل الى النية فلا يخلو اما أن تكون فرضا أو نفلا فان كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه اذ اجتمع في قلبه الباعثان ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى ان من صلى التراويح وتبين من قرائن حاله ان قصده الرياء باظهار حسن القراءة ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا في بيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به فان المصير الى هذا بعيد جدا بل يظن بالمسلم انه يقصد الثواب أيضا بتطويله فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به وان اقترن به قصد آخر هو به عاص فأما اذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وانما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه لان الايجاب لم ينهض باعثا في حقه بمجرده واستقلاله وان كان كل باعث مستقلا حتى لو لم يكن باعث الرياء لادى الفرائض ولو لم يكن باعث الفرض لانشأ صلاة تطوعا لاجل الرياء فهذا محل النظر وهو محتمل جدا فيحتمل أن يقال ان الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الامر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه كما لو صلى في دار مغصوبة فانه وان كان عاصيا بايقاع الصلاة في الدار المغصوبة فانه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة أما اذا كان الرياء في المبادرة مثلا دون أصل الصلاة مثل من بادر الى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخر الى وسط الوقت ولولا الفرض لكان لا يبتدئ صلاة لاجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به لان باعث أصل الصلاة من حيث انها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت فهذا أبعد عن القدح في النية هذا في رياء يكون باعثا على العمل وحاملا عليه وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه اذا لم يبلغ أثره الى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة فهذا ما نراه لائقا بقانون الفقه والمسألة

الله انا نأكل ولا نشبع قال لعلكم تفترقون على طعامكم اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه ومن عادة الصوفية الاكل على السفر وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (أخبرنا) الشيخ أبو زرعة عن المقومي باسناده الى ابن ماجه الحافظ القزويني قال أنا محمد بن المثنى قال ثنا معاذ ابن هشام قال ثنا أبي عن يونس ابن الفرات عن قتادة عن أنس ابن مالك قال ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة قال فعلام كانوا يأكلون قال على السفر ويصغر اللقمة ويجود الاكل

غامضة من حيث ان الفقهاء لم يتعرضوا لها فى فن الفقه والذين خاضوا فيها وتصرفوا فى الفاظها لاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء فى صحة الصلاة وفسادها بل جلهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الاخلاص على افساد العبادات بأدنى الخواطر وماذكرناه هو الاقصد فيما تراه والعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم

﴿ بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه ﴾

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للاعمال وسبب للمقت عند الله تعالى وانه من كبائر المهلكات وماهذا وصفه يجدير بالتشمير عن ساق الجد فى ازالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق فلا شفاء الا فى شرب الادوية المرة البشعة وهذه مجاهدة يضطر اليها العباد كلهم اذ الصبى يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتد العين الى الخلق كثير الطمع فيهم فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك فى نفسه وانما يشعر بكونه مهلكا بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء فى قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قمعه الا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات فلا ينفك أحد عن الحاجة الى هذه المجاهدة ولكنها تشق أولا وتخف آخرا وفى علاجه مقامان أحدهما قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه والثانى دفع مايخطر منه فى الحال ﴿ المقام الاول ﴾ فى قلع عروقه واستئصال أصوله وأصله حب المنزلة والجاه واذا فصل رجع الى ثلاثة أصول وهى لذة المحمدة والفرار من ألم الذم والطمع فيما فى أيدى الناس ويشهد للرياء بهذه الاسباب وانها الباعثة للمرائى ماروى أبو موسى أن أعرابيا سأل النبى صلى الله عليه وسلم (١) فقال يارسول الله الرجل يقاتل حمية ومعناه انه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب وقال والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر فى القلوب والرجل يقاتل للذكر وهذا هو الحمد باللسان فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وقال ابن مسعود اذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم فلان يقاتل للذكر وفلان يقاتل للملك والقتال للملك اشارة الى الطمع فى الدنيا وقال عمر رضى الله عنه يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من غزا لا ينوى الا عقالا فله مانوى فهذا اشارة الى الطمع وقد لا يشتهى الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الاسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فانه يتصدق بالقليل كى لا يبخل وهو ليس يطمع فى الحمد وقد سبقه غيره وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفا من الذم وهو لا يطمع فى الحمد وقد هجم غيره على صف القتال ولكن اذا أيس من الحمد كره الذم وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلى ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع فى الحمد وقد يقدر الانسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج اليه خيفة من أن يذم بالجهل ويفتى بغير علم ويدعى العلم بالحديث وهو به جاهل كل ذلك حذرا من الذم فهذه الامور الثلاثة هى التى تحرك المرائى الى الرياء وعلاجه ماذكرناه فى الشطر الاول من الكتاب على الجملة ولكنا نذكر الآن مايخص الرياء وليس يخفى أن الانسان انما يقصد الشئ ويرغب فيه لظنه انه خير له ونافع ولذيذا مافى الحال واما فى المآل فان علم أنه لذيذ فى الحال ولكنه ضار فى المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن اذا بان له أن فيه سما أعرض عنه فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم مافيه من المضرة ومهما عرف العبد مضرة الرياء ومايفوته من صلاح قلبه ومايحرم عنه فى الحال من التوفيق وفى الآخرة من المنزلة عند الله ومايتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزى الظاهر حيث ينادى على رؤس الخلائق يافاجر ياغادر يامرائى أما استحييت اذا اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله وتحببت الى العباد بالتبغض الى الله وتزينت لهم بالشين عند الله وتقربت اليهم بالبعد من الله وتحمدت

(١) حديث أبى موسى أن أعرابيا قال يارسول الله الرجل يقاتل حمية الحديث متفق عليه (٢) حديث من غزا لا ينوى الا عقالا فله مانوى النسائى وقد تقدم

بالمضغ وينظر بين يديه ولا يطالع وجوه الآكلين ويقعد على رجله اليسرى وينصب اليمنى ويجلس جلسة التواضع غير متكئ ولا متعزز نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل الرجل متكئا (وروى) أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فجثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه يأكل فقال أعرابى ماهذه الجلسة يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلقنى عبدا ولم يجعلنى جبارا عنيدا * ولا يبتدئ بالطعام حتى يبدأ المقدم أو الشيخ روى حذيفة قال كنا اذا حضرنا مع رسول الله صلى

اليهم بالتذمم عند الله وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله أما كان أحد أهون عليك من الله فهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الاعمال مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص فاذا فسد بالرياء حول الى كفة السيئات فترجح به وبهوى الى النار فلو لم يكن في الرياء الا احباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا في معرفة ضرره وان كان مع ذلك سائر حسناته راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين وقد حط عنهم بسبب الرياء ورد الى صف النعال من مراتب الاولياء هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق فان رضا الناس غاية لا تدرك فكل ما يرضي به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعضهم ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا عليه ثم أي غرض له في مدحهم وايثار ذم الله لاجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والاعطاء وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق الا الله ومن طمع في الخلق لم ينل من الذل والخيبة وان وصل الى المراد لم ينل عن المنة والمهانة فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ واذا أصاب فلا تنفي لذته بألم منته ومذلته وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيأ لم يكتبه عليه الله ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار ان كان من أهل الجنة ولا يبغضه الى الله ان كان محمودا عند الله ولا يزيده مقتا ان كان ممقوتا عند الله فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا فاذا قرر في قلبه آفة هذه الاسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه فان العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء واظهار الاخلاص لمقته وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه الى الناس ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله ولو أخلص لله لكشف الله لهم اخلاصه وحببه اليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر من بني تميم (١) ان مدحي زين وان ذمي شين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبت ذاك الله الذي لا اله الا هو اذ لا زين الا في مدحه ولا شين الا في ذمه فأي خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار وأي شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقربين فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات واجتمع همه وانصرف الى الله قلبه وتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق وانعطف من اخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتدلل له منهج الاخلاص فهذا وما قدمناه في الشطر الاول هي الادوية العامية القالعة مغارس الرياء ﴿وأما الدواء العملي﴾ فهو أن يعود نفسه اخفاء العبادات واغلاق الابواب دونها كما تغلق الابواب دون الفواحش حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس الى طلب علم غير الله به وقد روي أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا فلم يرخص في اظهار هذا القدر لان في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها فلا دواء للرياء مثل الاخفاء وذلك يشق في بداية المجاهدة واذا اصبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمده به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب والله لا يضيع أجر المحسنين وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴿المقام الثاني﴾ في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك

(١) حديث قال شاعر من بني تميم ان مدحي زين وان ذمي شين فقال كذبت ذاك الله حم من حديث الاقرع بن حابس وهو قائل ذلك دون قوله كذبت ورجاله ثقات الا أني لا أعرف لابي سلمة بن عبد الرحمن سماعا من الاقرع ورواه الترمذي من حديث البراء وحسنه بلفظ فقال رجل ان حمدي

الله صلى الله عليه وسلم طعاما لم يضع أحد نايده حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأكل باليمين روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليأكل أحدكم بيمينه وليشرب بيمينه وليأخذ بيمينه وليعط بيمينه فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويأخذ بشماله ويعطي بشماله وان كان المأكول تمرا أو ماله عجم لا يجمع من ذلك ما يرمي ومايؤكل على الطبق ولا في كفه بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه ولا يأكل من ذروة الثريد روي عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

لابد من تعلمه أيضا فان من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع واسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه فى أثناء العبادات بل يعارضه بخطرات الرياء ولا تنقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لا ينمحى بالكلية فلا بد وأن يقشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء وخواطر الرياء ثلاثة قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدريج فالاول العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس فى حمدهم وحصول المنزلة عندهم ثم يتلوه هيجان الرغبة فى قبول النفس له والركون اليه وعقد الضمير على تحقيقه فالاول معرفة والثانى حالة تسمى الشهوة والرغبة والثالث فعل يسمى العزم وتصميم العقد وانما كمال القوة فى دفع الخاطر الاول وورده قبل أن يتلوه الثانى فاذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأى فائدة فى علم غيره فان هاجت الرغبة الى لذة الحمد بذكر مارسخ فى قلبه من آفة الرياء وتعرضه لمقت عند الله فى القيامة وخيبته فى أحوج أوقاته الى أعماله فكما ان معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة فى الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة اذ يتفكر فى تعرضه لمقت الله وعقابه الاليم والشهوة تدعوه الى القبول والكراهة تدعوه الى الاباء والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما فاذا لا بد فى رد الرياء من ثلاثة أمور المعرفة والكراهة والاباء وقد يشرع العبد فى العبادة على عزم الاخلاص ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التى كان الضمير منطويا عليها وانما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى فى القلب متسع لغيره فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته اذ لم يبق موضع فى القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم وهو كالذى يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجرى من الاسباب ما يشتد به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلئ قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب واليه أشار جابر بقوله (١) بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين حتى نودى يا أصحاب الشجرة فرجعوا وذلك لان القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكروا وأكثروا الشهوات التى تهجم فجأة هكذا تكون اذ تنسى معرفة مضرته الداخلة فى عقد الايمان ومهما نسى المعرفة لم تظهر الكراهة فان الكراهة ثمرة المعرفة وقد يتذكر الانسان فيعلم أن الخاطر الذى خطر له هو خاطر الرياء الذى يعرضه لسخط الله ولكن يستمر عليه لشدة شهوته فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال فيسوف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكر فى ذلك لشدة الشهوة فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه الى فعله الا رياء الخلق وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر عليه فتكون الحجة عليه أوكد اذ قبل داعى الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموما عند الله ولا تنفعه معرفته اذا خلت المعرفة عن الكراهة وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعى الرياء ويعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالاضافة الى قوة الشهوة وهذا أيضا لا ينتفع بكراهته اذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل فاذا لا فائدة الا فى اجتماع الثلاث وهى المعرفة والكراهة والاباء فالاباء ثمرة الكراهة والكراهة ثمرة المعرفة وقوة المعرفة بحسب قوة الايمان ونور العلم وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل فى آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة وبعض ذلك ينتج بعضا وثمره وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب لان حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هى التى تغطى القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر فى العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم فان قلت فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الاباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل

(١) حديث جابر بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر الحديث مسلم مختصرا دون ذكر يوم حنين فرواه مسلم من حديث العباس

قال اذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه فان البركة تنزل فى وسطه * ولا يعيب الطعام روى أبو هريرة رضى الله عنه قال ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط ان اشتهاه أكله والا تركه واذا سقطت اللقمة يأكلها فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الاذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان ويلعق أصابعه فقد روى جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا أكل أحدكم الطعام فلا يمسح أصابعه فانه لا يدرى فى أى طعامه تكون

الطبع اليه وحبه له ومنازعته اياه الا أنه كاره لحبه وميله اليه وغير محبب اليه فهل يكون فى زمرة المرائين فاعلم أن الله لم يكلف العباد الا ما تطيق وليس فى طاقة العبد منع الشيطان عن تزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل الى الشهوات ولا ينزع اليها وانما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استشارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الايمان بالله واليوم الآخر فاذا فعل ذلك فهو الغاية فى أداء ما كلف به ويدل على ذلك من الاخبار ما روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) شكوا اليه وقالوا تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوى بنا الريح فى مكان سحيق أحب الينا من أن نتكلم بها فقال عليه السلام أوقد وجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الايمان ولم يجدوا الا الوسواس والكراهة له ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الايمان الوسوسة فلم يبق الا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة والرياء وان كان عظيما فهو دون الوسوسة فى حق الله تعالى فاذا اندفع ضرر الاعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الاصغر أولى وكذلك يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عباس أنه قال (٢) الحمد لله الذى رد كيد الشيطان الى الوسوسة وقال أبو حازم ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو من عدوك وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه فاذا وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالاباء والكراهة والخواطر التى هى العلوم والتذكرات والتخيلات للاسباب المهيجة للرياء هى من الشيطان والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس والكراهة من الايمان ومن آثار العقل الا أن للشيطان ههنا مكيدة وهى أنه اذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل اليه أن صلاح قلبه فى الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته فى الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الاخلاص وحضور القلب لان الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصانا فى منزلته عند الله * والمتخلصون عن الرياء فى دفع خواطر الرياء على أربع مراتب * الاولى أن يرده على الشيطان فيكذبه ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه وهو على التحقيق نقصان لانه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذى هو بصدده وانصرف الى قتال قطاع الطريق والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان فى السلوك * الثانية أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان فى السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته * الثالثة أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا لان ذلك وقفة وان قلت بل يكون قد قرر فى عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحبا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة * الرابعة أن يكون قد علم أن الشيطان سيحده عند جريان أسباب الرياء فيكون قد عزم على أنه مهما تزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الاخلاص والاشتغال بالله واخفاء الصدقة والعبادة غيظا للشيطان وذلك هو الذى يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع * يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له ان فلانا يذكرك فقال والله لأغيظن من أمره قيل ومن أمره قال الشيطان اللهم اغفر له أى لأغيظنه بأن أطيع الله فيه ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد فى حسناته * وقال ابراهيم التيمى ان الشيطان ليدعو العبد الى الباب من الاثم فلا يطيعه ويحدث عند ذلك خيرا فاذا رآه كذلك تركه وقال أيضا اذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك واذا رآك مداوما ملك وقلاك وضرب الحرث المحاسبى رحمه الله لهذه الاربعة مثالا أحسن فيه فقال مثالهم كأربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلا وهداية ورشادا فحدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق فتقدم الى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه الى مجلس ضلال فأبى فلما عرف اباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره فلما مر الثانى عليه نهاه

(١) حديث شكوى الصحابة ما يعرض فى قلوبهم وقوله ذلك صريح الايمان مسلم من حديث ابن مسعود مختصرا سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال ذلك محض الايمان والنسائى فى اليوم والليلة وابن حبان فى صحيحه ورواه النسائى فيه من حديث عائشة (٢) حديث ابن عباس الحمد لله الذى رد كيد

البركة وهكذا أمر عليه السلام باسلات القصعة وهو مسحها من الطعام قال أنس رضى الله عنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلات القصعة ولا ينفخ فى الطعام فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال النفخ فى الطعام يذهب بالبركة وروى عبد الله بن عباس أنه قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفخ فى طعام ولا فى شراب ولا يتنفس فى الاناء فليس من الادب ذلك والخجل والبقل على السفرة من السنة قيل ان الملائكة تحضر المائدة اذا كان عليها بقل روت

واستوقفه فوقف فدفع فى نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه ومر به الثالث فلم يلتفت اليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله بل استمر على ما كان فخاب منه رجاؤه بالكلية فمر الرابع فلم يتوقف له وأراد أن يغيظه فزاد فى عجلته وترك التأنى فى المشى فيوشك ان عاد وامر واعليه مرة أخرى أن يعاود الجميع الا هذا الاخير فانه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله فان قلت فاذا كان الشيطان لا تؤمن تزغاته فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه انتظار الورود أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه قلنا اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه فذهبت فرقة من أهل البصرة الى أن الاقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لانهم انقطعوا الى الله واشتغلوا بحبه فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم كما أيس من ضعفاء العباد فى الدعوة الى الخمر والزنا فصارت ملاذ الدنيا عندهم وان كانت مباحة كالخمر والخنزير فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبق للشيطان اليهم سبيل فلا حاجة بهم الى الحذر وذهبت فرقة من أهل الشام الى أن الترصد للحذر منه انما يحتاج اليه من قل يقينه ونقص توكله فمن أيقن بأن لا شريك لله فى تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم ان الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون الا ما أراده الله فهو الضار والنافع والعارف يستحيى منه ان يحذر غيره فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر وقالت فرقة من أهل العلم لا بد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الاقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلوا قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا اذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وساوس الشيطان وتزغاته فكيف يتخلص غيرهم وليس كل وساوس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا بل فى صفات الله تعالى وأسمائه وفى تحسين البدع والضلال وغير ذلك ولا ينجو أحد من الخطر فيه ولذلك قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته وقال النبى صلى الله عليه وسلم (١) انه ليغان على قلبى (٢) مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره الا بخير فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء عليهم السلام فهو مغرور ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء فى الجنة التى هى دار الامن والسرور بعد أن قال الله لهما ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ومع انه لم ينهه الا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد فذا لم يأمن نبى من الانبياء وهو فى الجنة دار الامن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغيره أن يأمن فى دار الدنيا وهى منبع المحن والفتن ومعدن الملاذ والشهوات المنهى عنها وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى هذا من عمل الشيطان ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة وقال عز وجل انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم وانفرد آن من أوله الى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدعى الامن منه وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافى الاشتغال بحب الله فان من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم وقال تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل فاذا لزمك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى ولذلك قال ابن محيريز صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك فأشار الى الشيطان فكيف وليس فى الغفلة عن عداوة الكافر الا قتل هو شهادة وفى اهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الاليم فليس من الاشتغال بالله الاعراض عما حذر الله وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية فى ظنهم أن ذلك قادح فى التوكل فان أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح فى توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقدح فى التوكل الخوف مما خوف الله به

أم سعد رضى الله عنها قالت دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها وأنا عندها فقال هل من غداء فقالت عندنا خبز وتمر وخل فقال عليه السلام نعم الادام الخل اللهم بارك فى الخل فانه كان ادام الانبياء قبلى ولم يفقر بيت فيه خل ولا يصمت على الطعام فهو من سيرة الاعاجم ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين ففيه نهى ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجمع فقد ورد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة

الشيطان الى الوسوسة أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بلفظ كيده (١) حديث انه ليغان على قلبى تقدم (٢) حديث ان شيطانه أسلم فلا يأمر الا بخير تقدم أيضا

والحذر مما أمر بالحذر منه وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الاسباب بالكلية وقوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل لا يناقض امتثال التوكل مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحيي والمميت هو الله تعالى فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله ويرى الأسباب وسائط مسخرة كما ذكرناه في التوكل وهذا ما اختاره الحرث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغتروا علمهم ويظنون أن ما يهجم عليهم من الاحوال في بعض الاوقات من الاستغراق بالله تعالى يستمر على الدوام وهو بعيد ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم اذا حذرنا الله تعالى العدو فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصد له فانا ان غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا وقال قوم ان ذلك يؤدي الى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال أهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة الى الحذر منه فنجمع بين الأمرين فانا ان نسيناه ربما عرض من حيث لا نحتسب وان تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله فالجمع أولى وقال العلماء المحققون غلط الفريقان أما الاول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله فلا يخفى غلطه وانما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الاشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو ثم يؤدي ذلك الى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى فاذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بادماننا ذكره وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الاولى اذ جعت في القلب بين ذكر الله والشيطان وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ابليس وغيره فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته فاذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكب عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان فانه اذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر مع أنه بالنوم غافل عنه فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو اذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ودفعوا بالذكر شر العدو واستضاؤا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه تركه جاريا اليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا تجف البئر من الماء القذر والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سدا وملأها بالماء الصافي فاذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كافة ومؤنة وزيادة تعب

﴿ بيان الرخصة في قصد اظهار الطاعات ﴾

اعلم أن في الاسرار للاعمال فائدة الاخلاص والنجاة من الرياء وفي الاظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء قال الحسن قد علم المسلمون ان السر أحرز للعملين ولكن في الاظهار أيضا فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم والاظهار قسمان أحدهما في نفس العمل والآخر بالتحدث بما عمل ﴿ القسم الاول ﴾ اظهار نفس العمل كالصدقة في الملا لترغيب الناس فيها كما روي عن الانصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال

ولا يرفع يده وان شبع حتى يفرغ القوم وليتعلل فان الرجل يخجل جليسه فيقبض يده وعسى أن يكون له في الطعام حاجة * واذا وضع الخبز لا ينتظر غيره فقد روى أبو موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا الخبز فان الله تعالى سخر لكم بركات السماء والارض والحديد والبقر وابن آدم ومن أحسن الادب وأهمه أن لا يأكل الا بعد الجوع ويمسك عن الطعام قبل الشبع فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه ومن عادة

النبي صلى الله عليه وسلم (١) من سنّ سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه وتجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ولكن الاقتداء فى الصدقة على الطباع أغلب نعم الغازى اذا هم بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لان الغزو فى أصله من أعمال العلانية لا يمكن اسراره فالمبادرة اليه ليست من الاعلان بل هو تحريض مجرد وكذلك الرجل قد يرفع صوته فى الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به فكل عمل لا يمكن اسراره كالحج والجهاد والجمعة فالافضل المبادرة اليه واظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء وأما ما يمكن اسراره كالصدقة والصلاة فان كان اظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ويرغب الناس فى الصدقة فالسر أفضل لان الايذاء حرام فان لم يكن فيه ايذاء فقد اختلف الناس فى الأفضل فقال قوم السر أفضل من العلانية وان كان فى العلانية قدوة وقال قوم السر أفضل من علانية لا قدوة فيها أما العلانية للقدوة فأفضل من السر ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء باظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين ويدل عليه قوله عليه السلام لأجرها وأجر من عمل بها وقد روى فى الحديث (٢) ان عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية اذا استن به على عمل السر سبعين ضعفا البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء مقتصرا على الشطر الأول بنحوه وقال هذا من افراد بقية عن شيوخه المجهولين وقد تقدم قبل هذا بنحو ورقتين وله من حديث ابن عمر عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء وقال تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة يفضل أو يضاعف الذكر الخفى الذى لا يسمعه الحفظة على الذى تسمعه بسبعين ضعفا وقال تفرد به معاوية ابن يحيى الصدفى وهو ضعيف

(١) حديث من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه وفى أوله قصة مسلم من حديث جرير ابن عبد الله البجلى (٢) حديث ان عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية اذا استن به على عمل السر سبعين ضعفا البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء مقتصرا على الشطر الأول بنحوه وقال هذا من افراد بقية عن شيوخه المجهولين وقد تقدم قبل هذا بنحو ورقتين وله من حديث ابن عمر عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء وقال تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة يفضل أو يضاعف الذكر الخفى الذى لا يسمعه الحفظة على الذى تسمعه بسبعين ضعفا وقال تفرد به معاوية ابن يحيى الصدفى وهو ضعيف

الصوفية أن يلقم الخادم اذا لم يجلس مع القوم وهو سنة روى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم اذا جاء أحدكم خادمه بطعام فان لم يجلسه معه فليناوله أكلة أو أكلتين فانه ولى حره ودخانه واذا فرغ من الطعام نحمد الله تعالى روى أبو سعيد قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أكل طعاما قال الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من أكل طعاما فقال الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة

على القلب غالب وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيأ والسلامة في الاخفاء وفي الاظهار من الاخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا فالحذر من الاظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء ﴿القسم الثاني﴾ أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ وحكمه حكم اظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشد لان مؤنة النطق خفيفة على اللسان وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في اظهار الدعاوى عظيمة الا أنه لو تطرق اليه الرياء لم يؤثر في افساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون والحكم فيه أن من قوي قلبه وتم اخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز بل هو مندوب اليه ان صفت النية وسلمت عن جميع الآفات لانه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء قال سعد بن معاذ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولا قط الا علمت أنه حق وقال عمر رضي الله عنه ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لاني لا أدري أيهما خير لي وقال ابن مسعود ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها وقال عثمان رضي الله عنه (١) ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال شداد بن أوس ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها غير هذه وكان قد قال لغلامه اتقنا بالسفرة لنبعث بها حتى ندرك الغداء وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت لا تبكوا علي فاني ما أحدثت ذنبا منذ أسلمت وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ما قضى الله في بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره وما أصبح لي هوى الا في مواقع قدر الله فهذا كله اظهار لأحوال شريفة وفيها غاية المرآة اذا صدرت ممن يرائي بها وفيها غاية الترغيب اذا صدرت ممن يقتدى به فذلك على قصد الاقتداء جائز للاقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يسد باب اظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء بل اظهار المرائي للعبادة اذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي فكم من مخلص كان سبب اخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله وقد روي أنه كان يجتاز الانسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت فصنف بعضهم كتابا في دقائق الرياء فتركوا ذلك وتركت الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف فاظهار المرائي فيه خير كثير لغيره اذا لم يعرف رياؤه (٢) وان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم كما ورد في الاخبار وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم والله تعالى أعلم

﴿بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليه وكراهة ذمهم له﴾

اعلم أن الاصل في الاخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضي الله عنه لرجل عليك بعمل العلانية قال يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية قال ما اذا اطلع عليك لم تستحي منه وقال أبو مسلم الخولاني ما عملت عملا أبالي أن يطلع الناس عليه الا اتياني أهلي والبول والغائط الا أن هذه درجة عظيمة لا يناها كل واحد ولا يخلو الانسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لاسيما ما تحتاج به الخواطر في الشهوات والاماني والله مطلع على جميع ذلك فارادة العبد لاخفائها عن العبيد بما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي وأما الصادق الذي لا يرائي فله ستر المعاصي ويصح قصده فيه ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه ﴿الأول﴾ أن

(١) حديث عثمان قوله ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو يعلى الموصلي في معجمه باسناد ضعيف من رواية أنس عنه في أثناء حديث وان عثمان قال يا رسول الله فذكره بلفظ منذ بايعتك قال هو ذاك يا عثمان (٢) حديث ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم هما حديثان فالأول متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح وتقدم

غفر له ما تقدم من ذنبه ويتخلل فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تخللوا فانه نظافة والنظافة تدعو الى الايمان والايمان مع صاحبه في الجنة ويغسل يديه فقد روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بات وفي يده غمر لم يغسل فاصابه شئ فلا يلومن الا نفسه ومن السنة غسل الايدي في طست واحد روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترعوا الطست وخالفوا المجوس ويستحب مسح العين ببلل اليد (وروى) أبو هريرة قال قال رسول الله صلى

يفرح بستر الله عليه واذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره فى القيامة اذ ورد فى الخبر (١) أن من ستر الله عليه فى الدنيا ذنبا ستره الله عليه فى الآخرة وهذا غم ينشأ من قوة الايمان ﴿الثانى﴾ انه قد علم ان الله تعالى يكره ظهور المعاصى ويحب سترها كما قال صلى الله عليه وسلم (٢) من ارتكب شيأ من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فهو وان عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله وهذا ينشأ من قوة الايمان بكراهة الله لظهور المعاصى وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا ويغتم بسببه ﴿الثالث﴾ أن يكره ذم الناس له به من حيث ان ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى فان الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشتغل عن الطاعة وبهذه العلة أيضا ينبغى أن يكره الحمد الذى يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر وهذا أيضا من قوة الايمان اذ صدق الرغبة فى فراغ القلب لأجل الطاعة من الايمان ﴿الرابع﴾ أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه فان الذم مؤلم للقلب كما ان الضرب مؤلم للبدن وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الانسان به عاص وانما يعصى اذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته الى ما لا يجوز حذرا من ذمهم وليس يجب على الانسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به نعم كمال الصدق فى أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوى عنده ذامه ومادحه لعلمه أن الضار والنافع هو الله وان العباد كلهم عاجزون وذلك قليل جدا وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان ورب تألم بالذم محمود اذا كان الذام من أهل البصيرة فى الدين فانهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان فى الدين فكيف لا يغتم به نعم الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع كأنه يحب أن يحمد بالورع ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره فان وجد ذلك فى نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فلهذا ستر حذرا من ذلك ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم وانما مراده أن يتركه الناس حمدا وذما فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم اذا الحمد يطلب اللذة وعدم اللذة لا يؤلم وأما الذم فانه مؤلم فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة فى الحال وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه الأمر واحد وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله فان ذلك غاية النقصان فى الدين بل ينبغى أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر ﴿الخامس﴾ أن يكره الذم من حيث ان الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الايمان وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع ﴿السادس﴾ أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر اذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم فان الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وان كان ممن يؤمن شره وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الاسباب فلهذا أن يستر ذلك حذرا منه ﴿السابع﴾ مجرد الحياء فانه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر وهو خاتق كريم يحدث فى أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحيى من القبائح اذا شوهدت منه وهو وصف محمود اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) الحياء خير كله وقال صلى الله عليه وسلم (٤) الحياء شعبة من الايمان وقال صلى الله عليه وسلم (٥) الحياء لا يأتى الا بخير وقال صلى الله عليه وسلم (٦) ان الله يحب الحيى الحليم فالذى يفسق ولا يبالى أن يظهر فسقه للناس جمع الى الفسق التهتك والوقاحة وفقد الحياء فهو أشد حالا ممن يستتر ويستحيى الا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه

(١) حديث ان من ستر عليه فى الدنيا يستر عليه فى الآخرة تقدم قبيل هذا بورقة (٢) حديث من ارتكب من هذه القاذورات شيأ فليستتر بستر الله الحاكم فى المستدرك وقد تقدم (٣) حديث الحياء خير كله مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٤) حديث الحياء شعبة من الايمان متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٥) حديث الحياء لا يأتى الا بخير متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٦) حديث ان الله يحب الحيى الحليم الطبرانى من حديث فاطمة وللبزار من حديث أبى هريرة ان الله يحب الغنى الحليم المتعفف وفيه ليث ابن أبى سليم مختلف فيه

الله عليه وسلم اذا توضأتم فأشربوا أعينكم الماء ولا تنفضوا أيديكم فانها مراوح الشياطين قيل لابى هريرة فى الوضوء وغيره قال نعم فى الوضوء وغيره وفى غسل اليد يأخذ الاشنان باليمين وفى الخلال لا يزدر ما يخرج بالخلال من الاسنان وأما ما يلوكه باللسان فلا بأس به ويجتنب التصنع فى أكل الطعام ويكون أكله بين الجمع كأكله منفردا فان الرياء يدخل على العبد فى كل شئ وصف لبعض العلماء بعض العباد فلم يثن عليه قيل له تعلم به بأسا قال نعم رأيته يتصنع فى الاكل ومن تصنع فى الاكل

به اشتباها عظيما فقل من يتفطن له و يدعى كل مراء انه مستحى وان سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب بل الحياء خاق ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقيبه داعية الرياء وداعية الاخلاص و يتصور أن يخلص معه و يتصور أن يرائى معه و بيانه ان الرجل يطلب من صديق له قرضا ونفسه لا تسخو باقراضه الا أنه يستحيى من رده وعلم انه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحيى ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب فله عند ذلك أحوال أحدها أن يشافهه بالرد الصريح ولا يبالى فينسب الى قلة الحياء وهذا فعل من لا حياء له فان المستحيى اما أن يتعلل أو يقرض فان أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال أحدها أن يمزج الرياء بالحياء بان يهيج الحياء فيقبح عنده الرد فيهيج خاطر الرياء و يقول ينبغى أن تعطى حتى يثنى عليك و يحمدك و ينشر اسمك بالسخاء أو ينبغى أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك الى البخل فاذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء * الثانى أن يتعذر عليه الرد بالحياء و يبقى فى نفسه البخل فيتعذر الاعطاء فيهيج داعى الاخلاص و يقول له ان الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وادخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى فتسخو النفس بالاعطاء لذلك فهذا مخلص هيج الحياء اخلاصه * الثالث أن لا يكون له رغبة فى الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لحمدته لانه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فاعطاه بمحض الحياء وهو ما يجده فى قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده ولجاءه من لا يستحى منه من الاجانب أو الاراذل لكان يرده وان كثر الحمد والثواب فيه فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا الا فى القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب والمرائى يستحى من المباحات أيضا حتى انه يرى مستعجلا فى المشى فيعود الى الهدو أو ضاحكا فيرجع الى الانقباض و يزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء وقد قيل ان بعض الحياء ضعف وهو صحيح والمراد به الحياء مما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وامامة الناس فى الصلاة وهو فى الصبيان والنساء محمود وفى العقلاء غير محمود وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحيى من شيبته أن تنكر عليه لان من اجلال الله اجلال ذى الشيبة المسلم وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن تستحيى من الله فلا تضيع الامر بالمعروف فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لا يقدر عليه فهذه هى الاسباب التى يجوز لاجلها ستر القبائح والذنوب ﴿ الثامن ﴾ أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرئ عليه غيره و يقتدى به وهذه العلة الواحدة فقط هى الجارية فى اظهار الطاعة وهو القدوة و يختص ذلك بالائمة أو بمن يقتدى به و بهذه العلة ينبغى أيضا أن يخفى العاصى أيضا معصيته من أهله وولده لانهم يتعلمون منه ففى ستر الذنوب هذه الاعذار الثمانية وليس فى اظهار الطاعة عذر الا هذا العذر الواحد ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل الى الناس أنه ورع كان مرائيا كما اذا قصد ذلك باظهار الطاعة فان قلت فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم اياه بسببه وقد قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم (١) دلنى على ما يحبنى الله عليه و يحبنى الناس قال ازهد فى الدنيا يحبك الله وانبذ اليهم هذا الحطام يحبوك فنقول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمودا وقد يكون مذموما فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك فانه تعالى اذا أحب عبدا حببه فى قلوب عباده والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها فان ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة فحبك ذلك كحبك المال لان ملك القلوب وسيلة الى الاغراض كذلك الاموال فلا فرق بينهما

﴿ بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات ﴾

اعلم ان من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان بل الحق فيما يترك من الاعمال وما لا يترك خوف الآفات ما نذكره وهو أن الطاعات تنقسم الى ما لالذة فى عينه كالصلاة والصوم

(١) حديث قال رجل دلنى على ما يحبنى الله عليه و يحبنى الناس قال ازهد فى الدنيا يحبك الله الحديث ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ وازهد فيما فى أيدى الناس وقد تقدم

لا يؤمن عليه التصنع فى العمل وان كان الطعام حلالا فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم أطعمنا طيبا واستعملنا صالحا وان كان شبهة يقول الحمد لله على كل حال اللهم صل على محمد ولا تجعله عونا على معصيتك وليكثر الاستغفار والحزن و يبكى على أكل الشبهة ولا يضحك فليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك و يقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولا يلاف قريش و يجتنب الدخول على قوم فى وقت أكلهم فقد ورد من مشى الى

والحج والغزو فانها مقاساة ومجاهدات انما تصير لذيذة من حيث انها توصل الى حمد الناس وحمد الناس لذيذ وذلك عند اطلاع الناس عليه والى ماهو لذيذ وهو أكثر مالا يقتصر على البدن بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وامامة الصلاة والتذكير والتدريس وانفاق المال على الخلق وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة ﴿القسم﴾ الاول الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها كالصوم والصلاة والحج فخطرات الرياء فيها ثلاث احداها ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين فهذا مما ينبغي أن يترك لانه معصية لا طاعة فيه فانه تدرع بصورة الطاعة الى طلب المنزلة فان قدر الانسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها ألا تستحيين من مولاك لا تسخين بالعمل لاجله وتسخين بالعمل لاجل عباده حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل الثانية أن ينبعث لاجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها فلا ينبغي أن يترك العمل لانه وجد باعثا دينيا فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الاخلاص بالمعالجات التي ذكرناها من الزام النفس كراهة الرياء والاباء عن القبول الثالثة أن يعقد على الاخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع الى عقد الاخلاص ويرد نفسه اليه قهرا حتى يتم العمل لان الشيطان يدعوك أولا الى ترك العمل فاذا لم تجب واشتغلت فيدعوك الى الرياء فاذا لم تجب ودفعت بقي يقول لك هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء وتعبك ضائع فاي فائدة لك في عمل لا اخلاص فيه حتى يحملك بذلك على ترك العمل فاذا تركته فقد حصلت غرضه ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائيا كمن سلم اليه مولاه حنطة فيها زوان وقال خلصها من الزوان وتنقها منه تنقية بالغة فيترك أصل العمل ويقول أخاف ان اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقيا فترك العمل من أجله وترك الاخلاص مع أصل العمل فلا معنى له ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا انه مراء فيعصون الله به فهذا من مكايد الشيطان لانه أولا أساء الظن بالمسلمين وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ثم ان كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة وترك العمل خوفا من قولهم انه مراء هو عين الرياء فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فما له ولقولهم قالوا انه مراء أو قالوا انه مخلص وأي فرق بين أن يترك العمل خوفا من أن يقال انه مراء وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال انه غافل مقصر بل ترك العمل أشد من ذلك فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بان يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له الآن يقول الناس انك تركت العمل ليقال انه مخلص لا يشتهي الشهرة فيضطرك بذلك الى أن تهرب فان هربت ودخلت سربا تحت الارض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه بل لا نجاة منه الا بان تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو انه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا لتلزم الكراهة والاباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي وان نزغ العدو نازغ الطبع فان ذلك لا ينقطع وترك العمل لاجل ذلك يجر الى البطالة وترك الخيرات فما دمت تجد باعثا دينيا على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء وألزم قلبك الحياء من الله اذا دعتك نفسك الى ان تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك ولواطع الخلق على قلبك وانك تريد حمدهم لمقتوك بل ان قدرت على ان تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك ففعل فان قال لك الشيطان أنت مراء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء واباءه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى وان لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفا ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد فمن شرع في العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب فان قلت فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة روى ان ابراهيم النخعي دخل عليه انسان وهو يقرأ فاطبق المصحف وترك القراءة وقال لا يرى هذا انا نقرأ كل ساعة وقال ابراهيم التيمي اذا أعجبك الكلام فاسكت واذا أعجبك السكوت فتكلم وقال الحسن

طعام لم يدع اليه مشى فاسقاوا أكل حراما وسمعنا لفظا آخر دخل سارقا وخرج مغيرا الا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه الى باب الدار ولا يخرج الضيف بغير اذن صاحب الدار ويجتنب المضيف التكلف الا أن يكون له نية فيه من كثرة الانفاق ولا يفعل ذلك حياء وتكلفا واذا أكل عند قوم طعاما فليقل عند فراغه ان كان بعد المغرب أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الابرار وصلت عليكم الملائكة (وروى) أيضا عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا

ان كان أحدهم ليمر بالاذى مايمنعه من دفعه الا كراهة الشهرة وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه الى الضحك مخافة الشهرة وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة قلنا هذا يعارضه ماورد من اظهار الطاعات ممن لا يحصى واظهار الحسن البصرى هذا الكلام فى معرض الوعظ أقرب الى خوف الشهرة من البكاء واماطة الاذى عن الطريق ثم لم يتركه وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام فى الافضل والافضل انما يقدر عليه الاقوياء دون الضعفاء فالافضل أن يتم العمل ويجتهد فى الاخلاص ولا يتركه وأرباب الاعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الافضل لشدة الخوف فالاقتداء ينبغى أن يكون بالاقوياء واما اطباق ابراهيم النخعى المصحف فيمكن ان يكون لعلمه بانه سيحتاج الى ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بكلمته فرأى ان لا يراه فى القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود اليه بعد ذلك واما ترك دفع الاذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة واقبال الناس عليه وشغلهم اياه عن عبادات هى أكبر من رفع خشبة من الطريق فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هى أكبر منها لا بمجرد خوف الرياء واما قول التميمى اذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة فى الحكايات وغيرها فان ذلك يورث العجب وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح الى مباح حذرا من العجب فاما الكلام الحق المندوب اليه فلم ينص عليه على ان الآفة مما تعظم فى الكلام فهو واقع فى القسم الثانى وانما كلامنا فى العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات ثم كلام الحسن فى تركهم البكاء واماطة الاذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الافضل ولا يدركون هذه الدقائق وانما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة وزجرا عن طلبها ﴿القسم الثانى﴾ مايتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والاخطار وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم انفاق المال أما الخلافة والامارة فهى من أفضل العبادات اذا كان ذلك مع العدل والاخلاص وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (١) ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما فاعظم بعبادة يوازى يوم منها عبادة ستين سنة وقال صلى الله عليه وسلم (٢) أول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط أحدهم وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل أحدهم وقال صلى الله عليه وسلم (٤) أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة امام عادل رواه أبو سعيد الخدرى فالامارة والخلافة من أعظم العبادات ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيها من عظيم الخطر اذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الامر وهو أعظم ملاذ الدنيا فاذا صارت الولاية محبوبة كان الوالى ساعيا فى حظ نفسه ويوشك ان يتبع هواه فيمتنع من كل مايقدح فى جاهه وولايته وان كان حقا ويقدم على مايزيد فى مكانته وان كان باطلا وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنه بمفهوم الحديث الذى ذكرناه ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضى الله عنه يقول من يأخذها بما فيها وكيف لا وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (٥) ما من والى عشرة الا جاء يوم القيامة مغلولة يده الى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره رواه معقل بن يسار وولاه عمر ولاية فقال يا أمير المؤمنين أشر على قال اجلس واكتم على وروى

(١) حديث ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما الطبرانى والبيهقى من حديث ابن عباس وقد تقدم (٢) حديث أول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط مسلم من حديث عياض بن حماد أهل الجنة ثلاث ذو سلطان مقسط الحديث ولم أر فيه ذكر الأولية (٣) حديث أبى هريرة ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل تقدم (٤) حديث أبى سعيد الخدرى أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة امام عادل الاصبهانى فى الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفى وهو ضعيف عنه وفيه أيضا اسحاق بن ابراهيم الديباجى ضعيف أيضا (٥) حديث ما من والى عشرة الا جاء يوم القيامة يده مغلولة الى عنقه لا يفكها الا عدله أحمد من حديث عبادة بن الصامت ورواه أحمد والبزار من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة وفيها يزيد بن أبى زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبزار

باثمين ولا فجار يصلون بالليل ويصومون بالنهار كان بعض الصحابة يقول ذلك * ومن الادب أن لا يستحقر ما يقدم له من طعام وكان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ماندرى أيهم أعظم وزرا الذى يحتقر ما يقدم اليه أو الذى يحتقر ما عنده ان يقدمه * ويكره أكل طعام المباهاة وما تكلف للاعراس والتعازى فاعمل للنوائح لا لتؤكل وما عمل لاهل العزاء لا بأس به وما يجرى مجراه واذا علم الرجل من حال أخيه انه يفرح بالانبساط اليه فى التصرف فى شئ من طعامه فلا حرج ان

الحسن أن رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم (١) فقال للنبي خرلى قال اجلس وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة اذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم (٢) يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وان أوتيتها عن مسألة وكلت اليها وقال أبو بكر رضى الله عنه لرافع بن عمر لا تأمر على اثنين ثم ولى هو الخلافة فقام بها فقال له رافع ألم تقل لى لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله يعنى لعنه الله ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الامارة مع ما ورد من النهى عنها متناقضا وليس كذلك بل الحق فيه ان الخواص الاقوياء فى الدين لا ينبغى أن يمتنعوا من تقلد الولايات وأن الضعفاء لا ينبغى أن يدوروا بها فليهلكوا وأعنى بالقوى الذى لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه فى الله لومة لائم وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا فى الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم فهؤلاء لا يحركهم الا الحق ولا يسكنهم الا الحق ولو زهقت فيه أرواحهم فهم أهل نيل الفضل فى الامارة والخلافة ومن علم انه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض فى الولايات ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات فى غير الولايات ولكن خاف عليها أن تتغير اذا ذاقت لذة الولاية وان تستحلى الجاه وتستلذ نفاذ الامر فتكره العزل فيداهن خيفة من العزل فهذا قد اختلف العلماء فى انه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية فقال قائلون لا يجب لان هذا خوف أمر فى المستقبل وهو فى الحال لم يعهد نفسه الا قوية فى ملازمة الحق وترك لذات النفس والصحيح ان عليه الاحتراز لان النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف اذا أظهرت التردد والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع فالعزل مؤلم وهو كما قيل العزل طلاق الرجال فاذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه الى المداهنة واهمال الحق وتهوى بها فى قعر جهنم ولا يستطيع النزوع منه الى الموت الا أن يعزل قهرا وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية ومهما مالت النفس الى طلب الولاية وجلت على السؤال والطلب فهو امارة الشر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) انا لا نولى أمرنا من سألنا فاذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف علمت أن نهى أبى بكر رافعا عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض * وأما القضاء فهو وان كان دون الخلافة والامارة فهو فى معناهما فان كل ذى ولاية أمير أى له أمر نافذ والامارة محبوبة بالطبع والثواب فى القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (٤) القضاة ثلاثة قاضيان فى النار وقاض فى الجنة وقال عليه السلام (٥) من استقضى فقد ذبح بغير سكين فحكمه حكم الامارة ينبغى أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها موزن فى عينه وليتقلده الاقوياء الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضى على القضاء الا بمداهنتهم واهمال بعض الحقوق لاجلهم ولاجل المتعلقين بهم

يأكل من طعامه بغير اذنه قال الله تعالى أو صديقكم (قيل) دخل قوم على سفيان الثورى فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وأكلوا فدخل سفيان ففرح وقال ذكرتمونى أخلاق السلف هكذا كانوا ومن دعى الى طعام فالاجابة من السنة وأوكد ذلك الوليمة وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبرا وذلك خطأ وان عمل ذلك تصنعا ورياء فهو أقل من التكبر (روى) أن الحسن بن على مر بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق وقد نثروا كسرا على الارض وهو على

وأبو يعلى والطبرانى فى الاوسط من حديث أبى هريرة ورواه البزار والطبرانى من حديث بريدة والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبى الدرداء مامن والى ثلاثة الا لقى الله مغلولة يمينه الحديث وقد عزى المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار مامن عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة الا لم يرح رائحة الجنة متفق عليه (١) حديث الحسن ان رجلا ولاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال للنبى صلى الله عليه وسلم خرلى قال اجلس الطبرانى موصولا من حديث عصمة هو ابن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكرة يحدث بالاباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضا من حديث ابن عمر بلفظ الزم بيتك وفيه الغراب ابن أبى الغراب ضعفه ابن معين وابن عدى وقال أبو حاتم صدوق (٢) حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تسل الامارة الحديث متفق عليه (٣) حديث انا لا نولى أمرنا من سألناه متفق عليه من حديث أبى موسى (٤) حديث القضاة ثلاثة الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وتقدم فى العلم واسناده صحيح (٥) حديث من استقضى فقد ذبح بغير سكين أصحاب السنن من حديث أبى هريرة بلفظ من جعل قاضيا وفى رواية من ولى القضاء

اذ يعلم انه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه فليس له أن يتقلد القضاء وان تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصا له في الاهمال أصلا بل اذا عزل سقطت العهدة عنه فينبغي أن يفرح بالعزل ان كان يقضي لله فان لم تسمح نفسه بذلك فهو اذا يقضي لاتباع الهوى والشيطان فكيف يرتقب عليه ثوابا وهو مع الظلمة في الدرك الاسفل من النار * وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الاسانيد العالية وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فآفته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا اليه سبيلا وكانوا يقولون حدثنا باب من أبواب الدنيا ومن قال حدثنا فقد قال أوسعوا لي ودفن بشر كذا وكذا قطرة من الحديث وقال يمنعني من الحديث أني أشتهي أن احدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم واقبالهم عليه لذة لا تواز يها لذة فاذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه الى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وان كان باطلا ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وان كان حقا ويصير مصروف الهمة بالكلية الى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثا وحكمة الا ويكون فرحه به من حيث انه يصلح لان يذكره على رأس المنبر وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث انه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولا ثم يقول اذا أنعم الله علي بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فاقصها ليشاركني في نفعها اخواني المسلمون فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات فمن لا باعث له الا طلب الجاه والمنزلة والاكل بالدين والتفاخر والتكاثر فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه الى أن ترتاض نفسه وتقوى في الدين همته ويأمن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود اليه فان قلت مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق فنقول قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) عن طلب الامارة وتوعد عليها حتى قال (٢) انكم تحرصون على الامارة وانها حسرة وندامة يوم القيامة الا من أخذها بحقها وقال (٣) نعمت المرضعة وبئست الفاطمة ومعلوم أن السلطنة والامارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا وثار القتال بين الخلق وزال الامن وخربت البلاد وتعطلت المعايش فلم نهى عنها مع ذلك وضرب عمر رضي الله عنه أبي بن كعب حين رأى قوما يتبعونه وهو في ذلك يقول أبي سيد المسلمين وكان يقرأ عليه القرآن فمنع من أن يتبعوه وقال ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس اذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه فقال أتمنعني من نصح الناس فقال أخشى أن تتفيخ حتى تبلغ الثريا اذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس اليه في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى وفي كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما فاما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدي الى اندراس العلم فهو غلط اذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) عن القضاء لم يؤد الى تعطيل القضاء بل الرياسة وحبها يضطر الخلق الى طلبها وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والاغلال عن طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لافلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين باقوام لا اخلاق لهم فلا تشغل قلبك بامر الناس فان الله لا يضيعهم وانظر لنفسك ثم اني أقول مع هذا اذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا فليس في النهي عنه الا امتناع بعضهم والا فيعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فان لم يكن

واسناده صحيح (١) حديث النهي عن طلب الامارة هو حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تسل الامارة وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث (٢) حديث انكم تحرصون على الامارة وانها حسرة يوم القيامة وندامة الا من أخذها بحقها البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله الا من أخذها بحقها وزاد في آخره فنعمت المرضعة و بئست الفاطمة ودون قوله حسرة وهي في صحيح ابن حبان (٣) حديث نعمت المرضعة و بئست الفاطمة البخاري من حديث أبي هريرة وهو بقية الحديث الذي قبله ورواه ابن حبان بلفظ فبئست المرضعة و بئست الفاطمة (٤) حديث النهي عن القضاء مسلم من حديث أبي ذر لا تأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم

بغلته فلما مر بهم سلم عليهم فردوا عليه السلام وقالوا هلم الغداء يا ابن رسول الله فقال نعم ان الله لا يحب المتكبرين ثم ثنى وركه فنزل عن دابته وقعد معهم على الارض وأقبل يأكل ثم سلم عليهم وركب وكان يقال الاكل مع الاخوان أفضل من الاكل مع العيال (وروى) أن هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير وأمر أن يقدم له طعام فلما أكل صب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال يا أبا معاوية تدري من صب على يدك قال لا قال أمير المؤمنين قال يا أمير المؤمنين انما أكرمت

فى البلد الا واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته فى الظاهر وتخييله الى العوام انه انما يريد الله بوعظه وانه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له اشتغل وجاهد نفسك فان قال لست أقدر على نفسى فنقول اشتغل وجاهد لانا نعلم انه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم اذ لا قائم به غيره ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده فنجعله فداء للقوم ونقول لعل هذا هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم ثم الواعظ هو الذى يرغب فى الآخرة ويزهد فى الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته فاما ما أحدثه الوعاظ فى هذه الاعصار من الكلمات المزخرفة والالفاظ المسجعة المقرونة بالاشعار مما ليس فيه تعظيم لامر الدين وتخويف للمسلمين بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصى بطيارات النكت فيجب اخلاء البلاد منهم فانهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان وانما كلامنا فى واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن فى نفسه حب القبول ولا يقصد غيره وفيما أوردناه فى كتاب العلم من الوعيد الوارد فى حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله ولهذا قال المسيح عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون وتدرسون ما لا تعملون فيا سوءتا تحكمون تتوبون بالقول والاماني وتعملون بالهوى ومايخفى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل فى صدوركم يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق أقول لكم ان قلوبكم تبكى من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم فصلاح الدنيا أحب اليكم من صلاح الآخرة فاى ناس أخس منكم لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمارين وتنهجون فى محلة المتعبرين كأنكم تدعون أهل الدنيا لتركوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بافواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كاحرار كرام توشك الدنيا ان تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم يدفعكم العلم من خلفكم ثم يسلمكم الى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم وقد روى الحرث المحاسبى هذا الحديث فى بعض كتبه ثم قال هؤلاء علماء السوء شياطين الانس وفتنة على الناس رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم فى العاجل عار وشين وفى الآخرة هم الخاسرون فان قلت فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد فى العلم والوعظ رغائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها وقال صلى الله عليه وسلم (٣) أيما داع دعا الى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه الى غير ذلك من فضائل العلم فينبغى أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واترك مراآة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء فى الصلاة لا تترك العمل ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك فاعلم ان فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والامارة ولا نقول لاحد من عباد الله اترك العلم اذ ليس فى نفس العلم آفة وانما الآفة فى اظهاره بالتصدى للوعظ والتدريس ورواية الحديث ولا نقول له أيضا اتركه مادام يجد فى نفسه باعثا دينيا ممزوجا ببواعث الرياء أما اذا لم يحركه الا الرياء فترك الاظهار أنفع له وأسلم وكذلك نوافل الصلوات اذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها أما اذا خطر له وساوس الرياء فى أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة لان آفة الرياء فى العبادات ضعيفة وانما تعظم فى الولايات وفى التصدى للمناصب

العلم وأجلته فأجلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم

﴿الباب الرابع والاربعون فى ذكر أدبهم فى اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه﴾

اللباس من حاجات النفس وضرورتها لدفع الحر والبرد كما ان الطعام من حاجات النفس لدفع الجوع وكما ان النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزيادات والشهوات فهكذا فى اللباس تتفنن فيه ولها فيه أهوية متنوعة ومآرب مختلفة فالصوفى يرد النفس فى اللباس الى متابعة صريح العلم (قيل) لبعض الصوفية ثوبك ممزق قال ولكنه

(١) حديث ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم النسائى وقد تقدم قريبا (٢) حديث لان يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ خير لك من حمر النعم وقد تقدم فى العلم (٣) حديث أيما داع دعا الى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه ابن ماجه من حديث أنس بزيادة فى أوله ولمسلم من حديث أبى هريرة من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه الحديث

الكبيرة فى العلم و بالجملة فالمراتب ثلاث * الاولى الولايات والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة * الثانية الصوم والصلاة والحج والغزو وقد تعرض لها أقو ياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع اتمام العمل لله بادنى قوة * الثالثة وهى متوسطة بين الرتبتين وهو التصدى لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس والآفات فيها أقل مما فى الولايات وأكثر مما فى الصلاة فالصلاة ينبغى أن لا يتركها الضعيف والقوى ولكن يدفع خاطر الرياء والولايات ينبغى أن يتركها الضعفاء وأسادون الاقوياء ومناصب العلم بينهما ومن جرب آفات منصب العلم علم انه بالولاة أشبه وأن الحذر منه فى حق الضعيف أسلم والله أعلم وههنا رتبة رابعة وهى جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين فان فى الانفاق واظهار السخاء استجلابا للثناء وفى ادخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس والآفات فيها أيضا كثيرة ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة فى الدنيا وان من الزهد تركها قربة الى الله تعالى وقال أبو الدرداء ما يسرنى انى أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها أما انى لا أحرم البيع والشراء ولكنى أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وقد اختلف العلماء فقال قوم اذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل وقال قوم الجلوس فى دوام ذكر الله أفضل والاخذ والاعطاء يشغل عن الله وقد قال المسيح عليه السلام يا طالب الدنيا اليم بها تركك لها أبر وقال أقل ما فيه أن يشغله اصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل وهذا فيمن سلم من الآفات فاما من يتعرض لآفة الرياء فتركه لها أبر والاشتغال بالذكر لا خلاف فى أنه أفضل و بالجملة ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات والاحب أن يعمل و يدفع الآفات فان عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه وليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل اليه الطبع و بالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو فى الاكثر أضر عليه لان النفس لا تشير الا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل اليه وان كان لا يبعد ذلك أيضا فى بعض الاحوال وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفى واثبات فهو موكول الى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع ما يريبه الى ما لا يريبه ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل ولا خلاف فى أن تفرقة المال فى المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من امساكه وانما الخلاف فيمن يحتاج الى الكسب أن الأفضل الكسب والانفاق أو التجرد للذكر وذلك لما فى الكسب من الآفات فاما المال الحاصل من الحلال فتفرقته أفضل من امساكه بكل حال فان قلت فبأى علامة تعرف العالم والواعظ انه صادق مخلص فى وعظه غير مرتد برياء الناس فاعلم أن لذلك علامات احداها أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا أو أغزر منه علما والناس له أشد قبولا فرح به ولم يحسده نعم لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه والاخرى أن الاكابر اذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل يبقى كما كان عليه فينظر الى الخلق بعين واحدة والاخرى أن لا يحب اتباع الناس له فى الطريق والمشى خلفه فى الاسواق ولذلك علامات كثيرة يطول احصاؤها وقد روى عن سعيد بن أبى مروان قال كنت جالسا الى جنب الحسن اذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر فدخل المسجد على برذونه فجعل يلتفت فى المسجد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن فلما رآه الحسن متوجها اليه تجافى له عن ناحية مجلسه قال سعيد وتجافيت له أيضا عن ناحية مجلسى حتى صار بينى و بين الحسن فرجة ومجلس للحجاج فجاء الحجاج حتى جلس بينى و بينه والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به فى كل يوم فما قطع الحسن كلامه قال سعيد فقلت فى نفسى لا بأون الحسن اليوم ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج اليه أن يزيد فى كلامه يتقرب اليه أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه فتكلم الحسن كلاما واحدا نحوا مما كان يتكلم به فى كل يوم حتى انتهى الى آخر كلامه فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال

من وجه حلال وقيل له وهو وسخ قال ولكنه طاهر فنظر الصادق فى ثوبه أن يكون من وجه حلال لانه ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا أى لا فريضة ولا نافلة ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهرا لان طهارة الثوب شرط فى صحة الصلاة وما عدا هذين النظرين فنظره فى كونه يدفع الحر والبرد لان ذلك مصلحة النفس و بعد ذلك ما تدعو النفس اليه فكله

صدق الشيخ وبر فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها حلقا وعادة فانه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أن مجالس الذكر رياض الجنة ولولا ما حلناه من أمر الناس ما غابت قونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها قال ثم افترا الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته فلما فرغ طفق فقام فجاء رجل من أهل الشام الى مجلس الحسن حين قام الحجاج فقال عباد الله المسلمين ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير وانى أغزو فأكلف فرسا وبغلا وأكلف فسطاطا وان لي ثلثمائة درهم من العطاء وان لي سبع بنات من العيال فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه والحسن مكب فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم فاذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابة وعلى البغال السباقة واذا أغزى أخاه أغزاه طوبارا جلافا فقر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده فقام رجل من أهل الشام كان جالسا الى الحسن فسعى به الى الحجاج وحكى له كلامه فلم يلبث الحسن ان أتته رسل الحجاج فقالوا أجب الامير فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به فلم يلبث الحسن أن رجع الى مجلسه وهو يتبسم وقلما رأيته فاغرا فاه يضحك انما كان يتبسم فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الامانة وقال انما تجالسون بالامانة كأنكم تظنون أن الخيانة ليست الا في الدينار والدرهم ان الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن الى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا الى شرارة من نار انى أتيت هذا الرجل فقال أقصر عليك من لسانك وقولك اذا غزا عدو الله كذا وكذا واذا أغزى أخاه أغزاه كذا الا أبالك تحرض علينا الناس أما انا على ذلك لانتهم نصيحتك فاقصر عليك من لسانك قال فدفعه الله عني وركب الحسن حمارا يريد المنزل فبينما هو يسير اذ التفت فرأى قوما يتبعونه فوقف فقال هل لكم من حاجة أو تسألون عن شئ والا فارجعوا فما يبتغي هذا من قلب العبد فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم انهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين

﴿ بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح ﴾

اعلم ان الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة فاذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده أو يصلي مع انه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلا وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط فهذا رياء وان الواجب ترك الموافقة وليس كذلك على الاطلاق بل له تفصيل لان كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الاشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة أو تندفع العوائق والاشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الاسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير أو تمكنه من التمتع بزوجته أو المحادثة مع أهله وأقاربه أو الاشتغال باولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه فاذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير كمشاهدته اياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا فانه ينظر اليهم فينافسهم ويشق عليه ان يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم وفي منزله ربما يغلبه النوم وربما يضاف اليه انه في منزله على الدوام والنفس لا تسمح بالتهجد دائما وتسمح به تهجدا وقتا قليلا فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه أطايب الاطعمة ويشق عليه الصبر عنها فاذا أعوزته تلك الاطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم فان الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين فاذا سلم منها قوي

(١) حديث ان مجالس الذكر رياض الجنة تقدم في الاذكار والدعوات

فضول وزيادة ونظر الى الخلق والصادق لا ينبغي أن يلبس الثوب الا لله وهو ستر العورة أو لنفسه لدفع الحر والبرد (وحكي) ان سفيان الثوري رضي الله عنه خرج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقلوبا فقيل له ولم يعلم بذلك فهم أن يخلعه ويغيره ثم تركه وقال حيث لبسته نويت أني ألبسه لله والآن فما أغيره الا لنظر الخلق فلا أنقض النية الاولى بهذه والصوفية خصوا بطهارة الاخلاق وما رزقوا طهارة الاخلاق الا بالصلاحية والاهلية والاستعداد الذي هيأه الله تعالى لنفوسهم

الباعث فهذا وأمثاله من الاسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول لا تعمل فانك تكون مرائيا اذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة وقد تكون رغبته في الزيادة لاجل رؤيتهم وخوفا من ذمهم ونسبتهم اياه الى الكسل لا سيما اذا كانوا يظنون به انه يقوم الليل فان نفسه لا تسمح بان يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته وعند ذلك قد يقول الشيطان صل فانك مخلص ولست تصلي لاجلهم بل لله وانما كنت لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق وانما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم وهذا أمر مشتبه الا على ذوي البصائر فاذا عرف ان المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة لانه يعصي الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله وان كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق وعلامة ذلك ان يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه فان سخت نفسه فليصل فان باعثه الحق وان كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك فان باعثه الرياء وكذلك قد يحضر الانسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل يوم ويمكن أن يكون ذلك لحب جمعهم ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب اقبالهم على الله تعالى وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس الى حب الحمد فهما علم ان الغالب على قلبه ارادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه بالكراهية ويشتغل بالعبادة وكذلك قد يبكي جماعة فينظر اليهم فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى لا من الرياء ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق اذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكافا ذلك محمود وعلامة الصدق فيه ان يعرض على نفسه انه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا فان لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فانما خوفه من ان يقال انه قاسي القلب فينبغي ان يترك التباكي قال لقمان عليه السلام لابنه لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر وكذلك الصيحة والتنفس والانين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الاحوال تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه فيتكلف التنفس والانين ويتحازن وذلك محمود وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك فان تجردت هذه الداعية فهي الرياء وان اقترنت بداعية الحزن فان أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه وان قبل ذلك وركن اليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لسخط الله تعالى به وقد يكون أصل الانين عن الحزن ولكن يمده ويزيد في رفع الصوت فتلك الزيادة رياء وهو محظور لانها في حكم الابتداء المجرد الرياء فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله فيدعو الى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ولكن يحفظ أثرها على الوجه لاجل الرياء وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ثم يستحيي أن يقال له انه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة فيزعق ويتواجد تكافا لما يرى انه سقط لكونه مغشيا عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعا فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة وانما هي كبرق خاطف فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعا فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه فيستديم اظهار الضعف والانين فيتكئ على غيره يرى انه يضعف عن القيام ويتمايل في المشي ويقرب الخطا ليظهر انه ضعيف عن سرعة المشي فهذه كلها مكايد الشيطان ونزغات النفس فاذا خطرت فعلاجها أن يتذكر ان الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلعوا على ضميره لمقتوه والله مطلع على ضميره وهوله أشد مقتا كما روي عن ذي النون رحمه الله انه قام وزعق فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر

وفي طهارة الاخلاق وتعاضدها تناسب واقع لوجود تناسب هيئة النفس وتناسب هيئة النفس هو المشار اليه بقوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فالتناسب هو التسوية فمن المناسب أن يكون لباسهم مشاكلا لطعامهم وطعامهم مشاكلا لكلامهم وكلامهم مشاكلا لمنامهم لان التناسب الواقع في النفس مقيد بالعلم والتشابه والتماثل في الاحوال يحكم به العلم ومتصوفة الزمان ملتزمون بشئ من التناسب مع مزج الهوى وما عندهم من التطلع الى التناسب رشح حال سلفهم في وجود التناسب

التكلف فقال ياشيخ الذى يراك حين تقوم بجلس الشيخ وكل ذلك من أعمال المنافقين وقد جاء فى الخبر تعوذوا (١) بالله من خشوع النفاق وانما خشوع النفاق ان تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه فان ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراآة فهذه خواطر ترد على القلب متضادة متوادفة متقاربة وهى مع تقاربها متشابهة فراقب قلبك فى كل ما يخطر لك وانظر ماهو ومن أين هو فان كان لله فامضه واحذر مع ذلك أن يكون قد خفى عليك شئ من الرياء الذى هو كدبيب النمل وكن على وجل من عبادتك أهى مقبولة ام لا لخوفك على الاخلاص فيها واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون الى جدهم بعد الشروع بالاخلاص فان ذلك مما يكثر جدا فاذا خطر لك فتفكر فى اطلاع الله عليك ومقته لك وتذكر ماقاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام اذ قال يا أيوب اما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التى كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته وقول بعضهم أعوذ بك ان يرى الناس انى اخشاك وأنت لى ماقت وكان من دعاء على بن الحسين رضى الله عنهما اللهم انى أعوذ بك ان تحسن فى لامعة العيون علانيتى وتقبح لك فيما اخلو سريرتى محافظا على رياء الناس من نفسى ومضيعا لما أنت مطلع عليه منى أبدى للناس أحسن أمرى وأفضى اليك بأسوأ عملى تقربا الى الناس بحسناتى وفرارا منهم اليك يسيآتى فيحل بى مقتك ويجب على غضبك أعذنى من ذلك يارب العالمين وقد قال أحد الثلاثة نفر لايوب عليه السلام يا أيوب ألم تعلم ان الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات الى الرحمن تسود وجوههم فهذه جل آفات الرياء فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ففى الخبر (١) ان للرياء سبعين بابا وقد عرفت ان بعضه أغمض من بعض حتى ان بعضه مثل دبيب النمل وبعضه أخفى من دبيب النمل وكيف يدرك ماهو أخفى من دبيب النمل الا بشدة التفقد والمراقبة وليته أدرك بعد بذل المجهود فكيف يطمع فى ادراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه واحسانه

﴿بيان ماينبغى للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه﴾

اعلم ان أولى مايلزم المريد قلبه فى سائر أوقاته القناعة بعلم الله فى جميع طاعاته ولا يقنع بعلم الله الا من لا يخاف الا الله ولا يرجو الا الله فاما من خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله فان كان فى هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والايمان لما فيه من خطر التعرض للمقت وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التى لا يقدر عليها غيره فان النفس عند ذلك تكاد تغلى حرصا على الافشاء وتقول مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك فما فى الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى باخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك ففى مثل هذا الامر ينبغى ان يثبت قدمه ويتذكر فى مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثوابا من عباده ويعلم ان اظهاره لغيره محبب اليه وسقوط عند الله واحباط للعمل العظيم فيقول وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون لى على رزق ولا أجل فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغى

(١) حديث تعوذوا بالله من خشوع النفاق البيهقى فى الشعب من حديث أبى بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الايادى ضعفه أحمد وابن معين (٢) حديث الرياء سبعون بابا هكذا ذكر المصنف هذا الحديث هنا وكانه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه انه الرياء بالمثناة وانما هو الربا بالموحدة والمرسوم كتابته بالواو والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ الربا سبعون حوبا أيسرها ان ينكح الرجل أمه وفى اسناده أبو معشر واسمه نجيح مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضا من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الربا ثلاثة وسبعون بابا واسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين فى أبواب التجارات وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ الربا بضع وسبعون بابا والشرك مثل ذلك وهذه الزيادة قد يستدل بها على انه الرياء

قال أبو سليمان الدارانى يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم وشهوته فى بطنه بخمسة دراهم أنكر ذلك لعدم التناسب فمن خشن ثوبه ينبغى أن يكون مأكوله من جنسه واذا اختلف الثوب والمأكول يدل على وجود انحراف لوجود هوى كامن فى أحد الطرفين اما فى طرف الثوب لموضع نظر الخلق واما فى طرف المأكول لفرط الشره وكلا الوصفين مرض يحتاج الى المداواة ليعود الى حد الاعتدال لبس أبو سليمان الدارانى ثوبا غسيلا فقال له أحمد لو لبست ثوبا أجود من

أن ييأس عنه فيقول انما يقدر على الاخلاص الاقوياء فاما المخلطون فليس ذلك من شأنهم فيترك المجاهدة فى الاخلاص لان المخلط الى ذلك أحوج من المتقى لان المتقى ان فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة الى الجبران بالنوافل فان لم تسلم صار ماخوذا بالفرائض وهلك به فالمخلط الى الاخلاص أحوج * وقد روى تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم (١) أنه قال يحاسب العبد يوم القيامة فان نقص فرضه قيل انظروا هل له من تطوع فان كان له تطوع أكمل به فرضه وان لم يكن له تطوع أخذ بطرفيه فالقى فى النار فيأتى المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده فى جبر الفرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك الا بخلوص النوافل وأما المتقى فجهده فى زيادة الدرجات فان حبط تطوعه بقى من حسناته ما يترجح على السيئات فيدخل الجنة فاذا ينبغى ان يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به واذا فعل جميع ذلك فينبغى أن يكون وجلا من عمله خائفا أن تفر بما دا خله من الرياء الخفى مالم يقف عليه فيكون شاكا فى قبوله ورده مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها وردعمله بسببها ويكون هذا الشك والخوف فى دوام عمله وبعده الا فى ابتداء العقد بل ينبغى أن يكون متيقنا فى الابتداء أنه مخلص ما يريد بعمله الا الله حتى يصح عمله فاذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لانه استيقن انه دخل بالاخلاص يقين والرياء شك وخوفه لذلك الشك جدير بان يكفر خاطر الرياء ان كان قد سبق وهو غافل عنه والذى يتقرب الى الله بالسعى فى حوائج الناس وافادة العلم ينبغى أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه فان ذلك يحبط الاجر فهما توقع من المتعلم مساعدة فى شغل وخدمة أو مرافقة فى المشى فى الطريق ليستكثر باستتباعه أو تردد امنه فى حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له عند غيره نعم ان لم يتوقع هو ولم يقصد الا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره اذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ولا يستبعده منه لو قطعه ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا حتى ان بعضهم وقع فى بئر فجاء قوم فأدلوا حبلا ليرفعوه فخفف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثا خيفة أن يحبط أجره وقال شقيق البلخى أهديت لسفيان الثورى ثوبا فرده على فقلت له يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده على قال علمت ذاك ولكن أخوك يسمع منى الحديث فأخاف ان يلين قلبى لاخيك أكثر مما يلين لغيره وجاء رجل الى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقا لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيرا فقال له يا أبا عبد الله فى نفسك من أبى شئ فقال يرحم الله أباك كان وكان وأثنى عليه فقال يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار هذا المال الى فاحب ان تأخذه تستعين بها على عيالك قال فقبل سفيان ذلك قال فلما خرج قال لولده يا مبارك الحقه فرده على فرجع فقال أحب أن تأخذ مالك فلم يزل به حتى رده عليه وكأنه كانت أخوته مع أبيه فى الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك قال ولده فلما خرج لم أملك نفسى أن جئت اليه فقلت ويلك أى شئ قابلك هذا حجارة عد أنه ليس لك عيال أما ترحمنى أما ترحم اخوتك أما ترحم عيالنا فأكثرت عليه فقال لى يا مبارك تأكلها أنت هنيأ مريأ وأسئل عنها أنا فاذا يجب على العالم ان يلزم قلبه طلب الثواب من الله فى اهتداء الناس به فقط ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق وربما يظن أن له أن يرائى بطاعته لينال عند المعلم رتبة فيتعلم منه وهو خطأ لان ارادته

هذا فقال ليت قلبى فى القلوب مثل قميصى فى الثياب فكان الفقراء يلبسون المرقع وربما كانوا يأخذون الخرق من المزابل ويرقعون بها ثوبهم وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح وهؤلاء بما كان لهم معلوم يرجعون اليه فكما كانت رقاعهم من المزابل كانت لقمهم من الأبواب (وكان) أبو عبد الله الرقاعى مثابرا على الفقر والتوكل ثلاثين سنة وكان اذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم فيقال له فى ذلك فيقول أنتم تأكلون بحق التوكل وأنا آكل بحق

بالمثناة لاقترانه مع الشرك والله أعلم (١) حديث تميم الدارى فى اكمال فريضة الصلاة بالتطوع أبو داود وابن ماجه وتقدم فى الصلاة

بطاعته غير الله خسران فى الحال والعلم ور بما يفيد ر بما لا يفيد فكيف يخسر فى الحال عملا نقدا على توهم علم وذلك غير جائز بل ينبغى أن يتعلم لله و يعبد الله و يخدم المعلم لله لا ليكون له فى قلبه منزلة ان كان يريد ان يكون تعلمه طاعة فان العباد أمروا أن لا يعبدوا الا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغى أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما الا من حيث ان رضا الله عنه فى رضا الوالدين ولا يجوز له أن يراءى بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فان ذلك معصية فى الحال وسيكشف الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضا وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغى له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله فان ذلك يغرس الرياء فى صدره حتى تتيسر عليه العبادات فى خلوته به وانما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدرى انه المخلف للعمل عليه قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه فى صومعته فقلت يا سمعان منذ كم أنت فى صومعتك قال منذ سبعين سنة قلت فما طعامك قال يا حنيفى وما دعاك الى هذا قلت أحببت أن أعلم قال فى كل ليلة حصة قلت فما الذى يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحصة قال ترى الدير الذى بحذائك قلت نعم قال انهم يأتونى فى كل سنة يوما واحدا فيزينون صومعتى و يطوفون حولها و يعظمونى فكلما تثاقلت نفسى عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة فانا أحتمل جهد سنة لعز ساعة فاحتمل يا حنيفى جهد ساعة لعز الابد فوقر فى قلبى المعرفة فقال حسبك أوأزيدك قلت بلى قال انزل عن الصومعة فنزلت فادلى لى ركوة فيها عشرون حصة فقال لى ادخل الدير فقد رأيت اليك فلما دخلت الدير اجتمع على النصارى فقالوا يا حنيفى ما الذى أدلى اليك الشيخ قلت من قوته قالوا فما تصنع به ونحن أحق به ثم قالوا سوم قلت عشرون دينارا فاعطونى عشرين دينارا فرجعت الى الشيخ فقال يا حنيفى ما الذى صنعت قلت بعته منهم قال بكم قلت بعشرين دينارا قال أخطأت لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لاعطوك هذا عز من لا تعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده يا حنيفى أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة والمقصود ان استشعار النفس عز العظمة فى القلوب يكون باعثا فى الخلوة وقد لا يشعر العبد به فينبغى أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغير واعن اعتقادهم له لم يجزع ولم يضق به ذرعا الا كراهة ضعيفة ان وجدها فى قلبه فيردها فى الحال بعقله وايمانه فانه لو كان فى عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعا ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه فان دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن اذا قدر على رده بكراهة العقل والايمان و بادر الى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون اليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه الا أن يزيد عند مشاهدتهم فى الخشوع والانقباض كى لا ينبسطوا اليه فذلك لا بأس به ولكن فيه غرور اذ النفس قد تكون شهوتها الخفية اظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فيطالبها فى دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه انما حصل بان يعدو كثيرا أو يضحك كثيرا أو يأكل كثيرا فتسمح نفسه بذلك فاذا لم تسمح وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك الا من تقرر فى قلبه انه ليس فى الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الارض وحده لكان يعمله فلا يلتفت قلبه الى الخلق الا خطرات ضعيفة لا يشق عليه ازالتها فاذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق ومن علامة الصدق فيه انه لو كان له صاحبان أحدهما غنى والآخر فقير فلا يجد عند اقبال الغنى زيادة هزة فى نفسه لاكرامه الا اذا كان فى الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرما له بذلك الوصف لا بالغنى فمن كان استراحه الى مشاهدة الاغنياء أكثر فهو مرائ أو طماع والا فالنظر الى الفقراء يزيد فى الرغبة الى الآخرة و يحبب الى القلب المسكنة والنظر الى الاغنياء بخلافه فكيف استراح بالنظر الى الغنى أكثر مما يستراح الى الفقير وقد حكى أنه لم ير الاغنياء فى مجلس أذل منهم فيه فى مجلس سفيان الثورى كان يجلسهم وراء الصف و يقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء فى مجلسه نعم لك زيادة اكرام للغنى اذا كان أقرب اليك

المسكنة ثم يخرج بين العشاءين يطلب الكسر من الأبواب وهذا شأن من لا يرجع الى معلوم ولا يدخل تحت منة (حكى) أن جماعة من أصحاب المرقعات دخلوا على بشر ابن الحرث فقال لهم يا قوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزى فانكم تعرفون به وتكرمون له فسكتوا كلهم فقال له غلام منهم الحمد لله الذى جعلنا ممن يعرف به و يكرم له والله ليظهرن هذا الزى حتى يكون الدين كله لله فقال له بشر أحسنت يا غلام مثلك من يلبس المرقعة فكان أحدهم يبقى زمانه لا يطوى له ثوب ولا يملك غير ثوبه الذى عليه

أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة فى فقير لكنت لا تقدم الغنى عليه فى اكرام وتوقير البتة فان الفقير اكرم على الله من الغنى فايشارك له لا يكون الا طمعا فى غناه وريائه ثم اذا سويت بينهما فى المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغنى أكثر مما تظهره للفقير وانما ذلك رياء خفى أو طمع خفى كما قال ابن السماك لجارية له مالى اذا أتيت بغداد فتحت لى الحكمة فقالت الطمع يشحذ لسانك وقد صدقت فان اللسان ينطلق عند الغنى بما لا ينطلق به عند الفقير وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير ومكايد النفس وخفاياها فى هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها الا أن تخرج ما سوى الله من قلبك وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة فى أيام متقاربة وتكون فى الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات ولكن فى بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه فى كل ساعة لو اتسع فى الشهوات وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه فلما غرف ذلك جالس الاطباء وحارف الصيادلة وعود نفسه شرب الادوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتمائه فهما نازعته نفسه الى شهوة تفكر فى توالى الاوجاع والآلام عليه وأداء ذلك الى الموت المفرق بينه وبين مملكته الموجب لشماتة الاعداء به ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذى هو سبب التمتع بملكه ونعيمه فى عيش هنىء وبدن صحيح وقلب رخى وأمر نافذ فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له فى آخرته وهى لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى منها بالقليل واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف وترك المؤانسة بالخلق خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ورجاء أن ينجو من عذابه فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وايمانه بعاقبة أمره وبما أعده من النعيم المقيم فى رضوان الله أبد الآباد ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عونا وبهم رؤفا وعليهم عطوفا ولوشاء لأغناهم عن التعب والنصب ولكن أراد أن يبلوهم ويعرف صدق ارادتهم حكمة منه وعدلا ثم اذا تحمل التعب فى بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الاعباء وسهل عليه الصبر وحبب اليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على اماتة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمده بمعونته فان الكريم لا يضيع سعى الراجى ولا يخيب أمل المحب وهو الذى يقول من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ويقول تعالى لقد طال شوق الابرار الى لقائى وانى الى لقائهم أشد شوقا فليظهر العبد فى البداية جده وصدقه واخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ثورأفته ورحمته ثم كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده

﴿ كتاب ذم الكبر والعجب وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلى الذى لا يضعه عن مجده واضع الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع الغنى الذى ليس له شريك ولا منازع القادر الذى بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه وحصر ألسن الانبياء وصفه وثناؤه وارتفع عن حد قدرتهم احصاؤه واستقصاؤه فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه وكسر ظهور الاكاسرة عزه وعلاؤه وقصر أيدى القياصرة عظمته وكبرياؤه فالعظمة ازاره والكبرياء ردآؤه ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فاعجزه دواؤه جل جلاله وتقدست أسماؤه والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وارجاؤه وعلى آله

﴿ كتاب ذم الكبر والعجب ﴾

(وروى) أن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه لبس قميصا اشتراه بثلاثة دراهم ثم قطع كمه من رؤس أصابعه وروى عنه أنه قال لعمر ابن الخطاب ان أردت أن تلقى صاحبك فرقع قميصك واخصف نعلك وقصر أملك وكل دون الشبع (وحكى) عن الجريرى قال كان فى جامع بغداد رجل لا تكاد تجده الا فى ثوب واحد فى الشتاء والصيف فسئل عن ذلك فقال قد كنت ولعت بكثرة لبس الثياب فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأنى دخلت الجنة فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقراء على

وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليما كثيرا ﴿أما بعد﴾ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) قال الله تعالى الكبر ياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى فيهما قصمته وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه فالكبر والعجب داآن مهلكان والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان وهما عند الله ممقوتان بغيضان واذا كان القصد فى هذا الربع من كتاب احياء علوم الدين شرح المهلكات وجب ايضاح الكبر والعجب فانهما من قبائح المرديات ونحن نستقصى بيانهما من الكتاب فى شطرين شطر فى الكبر وشطر فى العجب ﴿الشطر الأول﴾ من الكتاب فى الكبر وفيه بيان ذم الكبر وبيان ذم الاختيال وبيان فضيلة التواضع وبيان حقيقة التكبر وآفته وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر وبيان مايه التكبر وبيان البواعث على التكبر وبيان أخلاق المتواضعين ومافيه يظهر التكبر وبيان علاج الكبر وبيان امتحان النفس فى خلق الكبر وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه

﴿بيان ذم الكبر﴾

قد ذم الله الكبر فى مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق وقال عز وجل كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وقال تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد وقال تعالى انه لا يحب المستكبرين وقال تعالى لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا وقال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين وذم الكبر فى القرآن كثير وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) يقول الله تعالى الكبر ياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال التقى عبد الله ابن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكى فقالوا مايبكيك ياأبا عبد الرحمن فقال هذا يعنى عبد الله بن عمرو زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) يقول من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما للطير والانس والجن والبهائم أخرجوا فخرجوا فى مائتى ألف من الانس ومائتى ألف من الجن فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح فى السموات ثم خفض حتى مست أقدامه البحر فسمع صوتا لو كان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته وقال صلى الله عليه وسلم (٧) يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول

(١) حديث قال الله تعالى الكبر ياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى فيهما قصمته الحاكم فى المستدرك دون ذكر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم فى العلم وسيأتى بعد حديثين بلفظ آخر (٢) حديث ثلاث مهلكات الحديث البزار والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضا (٣) حديث لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل فى قلبه مثقال حبة من ايمان مسلم من حديث ابن مسعود (٤) حديث أبى هريرة يقول الله تعالى الكبر ياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له وقال أبو داود قذفته فى النار وقال مسلم غذبته وقال رداؤه وازاره بالغيبة وزاد مع أبى هريرة أبا سعيد أيضا (٥) حديث عبد الله بن عمرو من كبر ومن كان فى قلبه مثقال حبة من كبر كبه الله فى النار على وجهه أحمد والبيهقى فى شعب الايمان من طريقه باسناد صحيح (٦) حديث لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين الحديث الترمذى وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله من العذاب (٧) حديث يخرج من النار عنق له أذنان الحديث الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح غريب

مائدة فأردت أن أجلس معهم فاذا بجماعة من الملائكة أخذوا بيدى وأقاموني وقالوا لى هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك قميصان فلا تجلس معهم فانتبهت ونذرت أن لا ألبس الا ثوبا واحدا الى أن ألقى الله تعالى (وقيل) مات أبو يزيد ولم يترك الا قميصه الذى كان عليه وكان عارية فردوه الى صاحبه (وحكى) لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا انه بقى زمانا لا يلبس الثوب الا مستأجرا حتى انه لم يلبس على ملك نفسه شيأ (وقال أبو حفص الحداد) اذا رأيت وضاءة الفقير فى ثوبه فلا ترجو خيره

وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله الها آخر وبالمصورين وقال صلى الله عليه وسلم (١) لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيئ الملكة وقال صلى الله عليه وسلم (١) تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة مالى لا يدخلنى الا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم فقال الله للجنة انما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار انما أنت عذابى أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها وقال صلى الله عليه وسلم (٣) بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى وعن ثابت أنه قال (٤) بلغنا انه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت وقال عبد الله بن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) قال ان نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال انى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا اله الا الله فان السموات والاراضين ومافيهن لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لا اله الا الله فى الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ولو أن السموات والاراضين ومافيهن كانتا حلقة فوضعت لا اله الا الله عليها لقصمتها وآمركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شئ وبها يرزق كل شئ وقال المسيح عليه السلام طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا وقال صلى الله عليه وسلم (٦) أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون وقال صلى الله عليه وسلم (٧) ان أحبكم الينا وأقربكم منا فى الآخرة أحاسنكم أخلاقا وان أبغضكم الينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون قالوا يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون قال المتكبرون وقال صلى الله عليه وسلم (٨) يحشر المتكبرون يوم القيامة فى مثل صور الذر تطؤهم الناس ذرا فى مثل صور الرجال يعلوهم كل شئ من الصغار ثم يساقون الى سجن فى جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الانيار يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم (٩) يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى وعن محمد بن واسع قال دخلت على بلال بن أبى بردة فقلت له يا بلال ان أباك حدثنى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم (١٠) أنه قال ان فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار

(١) حديث لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيئ الملكة تقدم فى أسباب الكسب والمعاش والمعروف غائر مكان جبار (٢) حديث تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٣) حديث بئس العبد عبد تجبر واعتدى الحديث الترمذى من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس اسناده بالقوى ورواه الحاكم فى المستدرك وصححه ورواه البيهقى فى الشعب من حديث نعيم ابن همار وضعفه (٤) حديث ثابت بلغنا انه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت البيهقى فى الشعب هكذا مرسلا بلفظ تجبر (٥) حديث عبد الله بن عمرو ان نوحا لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال انى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك والكبر الحديث أحمد والبخارى فى كتاب الأدب والحاكم بزيادة فى نقله قال صحيح الاسناد (٦) حديث أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع وهذه الزيادة عندهما من حديث عبد الله بن عمرو فى الصحيحين من حديث حارثة بن وهب الخزاعى ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر (٧) حديث ان أحبكم الينا وأقربكم منا أحاسنكم أخلاقا الحديث أحمد من حديث أبى ثعلبة الخشنى بلفظ الى ومنى وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبى ثعلبة وقد تقدم فى رياضة النفس أول الحديث (٨) حديث يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا فى صور الرجال الحديث الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال حسن غريب (٩) حديث أبى هريرة يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر الحديث البزار هكذا مختصرا دون قوله الجبارون واسناده حسن (١٠) حديث أبى موسى ان فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله ان يسكنه كل جبار أبو يعلى والطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد قلت فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورده فى الضعفاء هذا الحديث

وقيل مات ابن الكرنبى وكان أستاذ الجنيدى وعليه مرقعته قيل كان وزن فردكمه ونخاريصه ثلاثة عشر رطلا فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتخشن وقد يكون جمع من الصالحين يتكلفون لبس غير المرقع وزى الفقراء ويكون نيتهم فى ذلك ستر الحال أو خوف عدم النهوض بواجب حق المرقعة (وقيل) كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم وله بيت فرش فيه الرمل لعله كان ينام عليه بلا وطاء وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب

فاياك يابلال أن تكون ممن يسكنه وقال صلى الله عليه وسلم (١) ان فى النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم وقال صلى الله عليه وسلم (٢) اللهم انى أعوذ بك من نفخة الكبر ياء وقال (٣) من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاث دخل الجنة الكبر والدين والغلول (الآثار) قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين فان صغير المسلمين عند الله كبير وقال وهب لما خلق الله جنة عدن نظر اليها فقال أنت حرام على كل متكبر وكان الاحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب مادرجليه فلم يقبضهما وقعد الاحنف فرحه بعض الرحمة فرأى أثر ذلك فى وجهه فقال عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين وقال الحسن العجب من ابن آدم يغسل أخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات وقد قيل فى وفى أنفسكم أفلا تبصرون هو سبيل الغائط والبول وقال محمد بن الحسين بن على ما دخل قلب امرئ شئ من الكبر قط الا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر وسئل سليمان عن السيئة التى لا تنفع معها حسنة فقال الكبر وقال النعمان ابن بشير على المنبر ان للشيطان مصالى وفخوخا وان من مصالى الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر باعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى فى غير ذات الله نسأل الله تعالى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة بمنه وكرمه

﴿ بيان ذم الاختيال واظهار آثار الكبر فى المشى وجر الثياب ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) لا ينظر الله الى رجل يجر ازاره بطرا وقال صلى الله عليه وسلم (٥) بينما رجل يتبختر فى بردته اذ أعجبته نفسه فخسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله اليه يوم القيامة وقال زيد بن أسلم دخلت على ابن عمر فر به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول أى بنى ارفع ازارك فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) يقول لا ينظر الله الى من جر ازاره خيلاء وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليه وقال يقول الله تعالى ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللارض منك وئيد جمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة وقال صلى الله عليه وسلم (٨) اذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس

---

(١) حديث ان فى النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم البيهقى فى الشعب من حديث أنس وقال تواريت مكان قصرا وقال فيقفل مكان يطبق وفيه أبان بن أبى عياش وهو ضعيف (٢) حديث اللهم انى أعوذ بك من نفخة الكبر ياء لم أره بهذا اللفظ وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة ولاصحاب السنن من حديث أبى سعيد الخدرى نحوه تكلم فيه أبو داود وقال الترمذى هو أشهر حديث فى هذا الباب (٣) حديث من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاث دخل الجنة الكبر والدين والغلول الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق للمشهور فى الرواية انه الكبر بالموحدة والراء لكن ذكر ابن الجوزى فى جامع المسانيد عن الدارقطنى قال انما هو الكنز بالنون والزاى وكذلك أيضا ذكر ابن مردويه الحديث فى تفسير والذين يكنزون الذهب والفضة (٤) حديث لا ينظر الله الى من جر ازاره بطرا متفق عليه من حديث أبى هريرة (٥) حديث بينما رجل يتبختر فى برديه قد أعجبته نفسه الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٦) حديث ابن عمر لا ينظر الله الى من جر ازاره خيلاء رواه مسلم مقتصرا على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله بن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم ان المار رجل من بنى ليث غير مسمى (٧) حديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول الله ابن آدم أيعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه الحديث ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث بشر بن جحاش (٨) حديث اذا مشت أمتى المطيطاء الحديث الترمذى وابن حبان فى صحيحه من حديث ابن عمر المطيطاء بضم الميم وفتح الطاء بن المهملتين بينهما مثناة من تحت مصغرا ولم يستعمل مكبرا

والروم

حائلا ويكون لبس أبى حفص الناعم بعلم ونية يلقى الله تعالى بصحتها وهكذا الصادقون ان لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم فى ذلك فلا يعترض عليهم غير أن لبس الخشن والمرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقلل من الدنيا وزهرتها وبهجتها وقد ورد من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حلل الجنة وأما لبس الناعم فلا يصلح الا لعالم بحاله بصير بصفات نفسه متفقد خفى شهوات النفس يلقى الله تعالى بحسن النية فى ذلك فلحسن النية فى ذلك

والروم سلط الله بعضهم على بعض قال ابن الاعرابى هى مشية فيها اختيال وقال صلى الله عليه وسلم (١) من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان (الآثار) عن أبى بكر الهذلى قال بينا نحن مع الحسن اذ مر علينا ابن الاهتم يريد المقصورة وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشى يتبختر اذ نظر اليه الحسن نظرة فقال أف أف شاخ بانفه ثانى عطفه مصعر خده ينظر فى عطفيه أى حيق أنت تنظر فى عطفيك فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حق الله منها والله ان يمشى أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون فى كل عضو من أعضائه نعمة وللشيطان به لفتة فسمع ابن الاهتم فرجع يعتذر اليه فقال لا تعتذر الى وتب الى ربك أما سمعت قول الله تعالى ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له ابن آدم مجب بشبابه محب لشمائله كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك ويحك داو قلبك فان حاجة الله الى العباد صلاح قلوبهم * وروى أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر اليه طاوس وهو يختال فى مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثم قال ليست هذه مشيتك من فى بطنه خرء فقال عمر كالمعتذر ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها ورأى محمد ابن واسع ولده يختال فدعاه وقال أتدرى من أنت أما أمك فاشتريتها بمائتى درهم وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين مثله ورأى ابن عمر رجلا يجر ازاره فقال ان للشيطان اخوانا كررها مرتين أو ثلاثا ويروى أن مطرف بن عبد الله ابن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر فى جبة خز فقال ياعبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله فقال له المهلب أما تعرفنى فقال بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة فقضى المهلب وترك مشيته تلك وقال مجاهد فى قوله تعالى ثم ذهب الى أهله يتمطى أى يتبختر واذا قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم

﴿ بيان فضيلة التواضع ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ما من أحد الا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها فان هو رفع نفسه جبذاها ثم قالا اللهم ضعه وان وضع نفسه قالا اللهم ارفعه وقال صلى الله عليه وسلم (٤) طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة وأنفق مالا جمعه فى غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة وعن أبى سلمة المدينى عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) عندنا بقباء وكان صائما فأتيناه عند افطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيأ من عسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال ماهذا قلنا يارسول الله جعلنا فيه شيأ من عسل فوضعه وقال أما انى لا أحرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وروى أن النبى صلى

(١) حديث من تعظم فى نفسه واختال فى مشيه لقى الله وهو عليه غضبان أحمد والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر (٢) حديث ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا الحديث مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٣) حديث ما من أحد الا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها الحديث العقيلى فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة والبيهقى أيضا من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف (٤) حديث طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة الحديث البغوى وابن قانع والطبرانى من حديث ركب المصرى والبزار من حديث أنس وقد تقدم بعضه فى العلم وبعضه فى آفات اللسان (٥) حديث أبى سلمة المدينى عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائما الحديث وفيه من تواضع رفعه الله الحديث رواه البزار من رواية طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ولم يقل بقبا وقال الذهبى فى الميزان انه خبر منكر وقد تقدم ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فيه لبن وعسل الحديث وفيه اما انى لا أزعم أنه حرام الحديث وفيه ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبى سعيد دون قوله ومن بذر أفقره الله وذكر افيه قوله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وتقدم فى ذم الدنيا

وجوه متعددة يطول شرحها ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب بعينه لا لخشونته ولا لنعومته بل يلبس ما يدخله الحق عليه فيكون بحكم الوقت وهذا حسن وأحسن من ذلك انه يتفقد نفسه فيه فان رأى للنفس شرها وشهوة خفية أو جلية فى الثوب الذى أدخله الله عليه يخرجه الا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار فعند ذلك لا يسعه الا أن يلبس الثوب الذى ساقه الله اليه وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى رحمه الله لا يتقيد بهيئة من الملبوس بل كان يلبس

الله عليه وسلم (١) كان فى نفر من أصحابه فى بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكره منها فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ثم قال له اطعم فكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكره فلما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها وقال صلى الله عليه وسلم (٢) خيرنى ربى بين أمرين أن أكون عبدا رسولا أو ملكا نبيا فلم أدر أيهما أختار وكان صفيى من الملائكة جبريل فرفعت رأسى اليه فقال تواضع لربك فقلت عبدا رسولا وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام انما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتعاظم على خلقى وألزم قلبه خوفى وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلى وقال صلى الله عليه وسلم (٣) الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى وقال المسيح عليه السلام طوبى للمتواضعين فى الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس فى الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للمطهرة قلوبهم فى الدنيا هم الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة وقال بعضهم بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم (٤) قال اذا هدى الله عبدا للاسلام وحسن صورته وجعله فى موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا فذلك من صفوة الله وقال صلى الله عليه وسلم (٥) أربع لا يعطيهن الله الا من أحب الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد فى الدنيا وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة وقال صلى الله عليه وسلم (٧) التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) كان يطعم فجاء رجل أسود به جدرى قد تقشر فجعل لا يجلس الى أحد الا قام من جنبه فأجلسه النبى صلى الله عليه وسلم الى جنبه وقال صلى الله عليه وسلم (٩) انه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشئ فى يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه وقال النبى صلى الله عليه وسلم (١٠) لاصحابه يوما مالى لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة قال التواضع وقال صلى الله عليه وسلم (١١) اذا رأيتم المتواضعين من أمتى فتواضعوا لهم واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك لهم مذلة

(١) حديث السائل الذى كان به زمانة منكرة وانه صلى الله عليه وسلم أجلسه على فخذه ثم قال اطعم الحديث لم أجد له أصلا والموجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذى غريب (٢) حديث خيرنى ربى بين أمرين عبدا رسولا وملكا نبيا الحديث أبو يعلى من حديث عائشة والطبرانى من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف (٣) حديث الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين مرسلا وأسنده الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الاسناد (٤) حديث اذا هدى الله عبدا للاسلام وحسن صورته الحديث الطبرانى موقوفا على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودى مختلف فيه (٥) حديث أربع لا يعطيهن الله الا من يحب الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد فى الدنيا الطبرانى والحاكم من حديث أنس أربع لا يصبن الا بحجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشئ قال الحاكم صحيح الاسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان يروى الموضوعات ثم روى له هذا الحديث (٦) حديث ابن عباس اذا تواضع العبد رفع الله رأسه الى السماء السابعة البيهقى فى الشعب نحوه وفيه زمعة بن صالح ضعفه الجمهور (٧) حديث ان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة الحديث الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جدا ورواه ابن عدى من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياطى وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف (٨) حديث كان يطعم فجاء رجل أسود به جدرى فجعل لا يجلس الى أحد الا قام من جنبه فأجلسه النبى صلى الله عليه وسلم الى جنبه لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم (٩) حديث انه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشئ فى يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه غريب (١٠) حديث مالى لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة قال التواضع غريب أيضا (١١) حديث اذا رأيتم المتواضعين من أمتى فتواضعوا لهم واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك لهم مذلة وصغار غريب أيضا

ما يتفق من غير تعمد تكلف واختيار وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنانير ويلبس العمامة بدانق وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة وبنطياس وكان الشيخ على بن الهيتى يلبس لبس فقراء السواد وكان أبو بكر الفراء بزنجان يلبس فراوخشنا كآحاد العوام ولكل فى لبسه وهيئته نية صالحة وشرح تفاوت الاقدام فى ذلك يطول (وكان) الشيخ أبو السعود رحمه الله يترك الاختيار وقد يساق اليه الثوب الناعم فيلبسه وكان يقال له ربما يسبق الى

وصغار

ومعنار (الآثار) قال عمر رضى الله عنه ان العبد اذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال امش رفعك الله واذا تكبر وعدا طوره رصه الله فى الارض وقال اخسأ خسأك الله فهو فى نفسه كبير وفى أعين الناس حقير حتى انه لاحقر عندهم من الخنزير وقال جرير بن عبد الله انتهيت مرة الى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بظلها له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه ثم ان الرجل استيقظ فاذا هو سلمان الفارسى فذكرت له ما صنعت فقال لى يا جرير تواضع لله فى الدنيا فانه من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة يا جرير أتدرى ما ظلمة النار يوم القيامة قلت لا قال انه ظلم الناس بعضهم بعضا فى الدنيا وقالت عائشة رضى الله عنها انكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع وقال يوسف بن أسباط يجزى قليل الورع من كثير العمل ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو فقال أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبى قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته وقال ابن المبارك رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه انه ليس له بدنياه عليك فضل وقال قتادة من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أو علما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالا يوم القيامة وقيل أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام اذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك وقال كعب ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فشكر هالله وتواضع بها لله الا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ورفع له بها درجة فى الآخرة وما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله الا منعه الله نفعها فى الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه ان شاء أو يتجاوز عنه وقيل لعبد الملك بن مروان أى الرجال أفضل قال من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة ودخل ابن السماك على هرون فقال يا أمير المؤمنين ان تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك فقال ما أحسن ما قلت فقال يا أمير المؤمنين ان امرأ آتاه الله جمالا فى خلقته وموضعا فى حسبه وبسط له فى ذات يده فعف فى جماله وواسى من ماله وتواضع فى حسبه كتب فى ديوان الله من خالص أولياء الله فدعا هرون بدواة وقرطاس وكتبه بيده وكان سليمان بن داود عليهما السلام اذا أصبح تصفح وجوه الاغنياء والاشراف حتى يجىء الى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين مع مساكين وقال بعضهم كما تكره أن يراك الاغنياء فى الثياب الدون فكذلك فاكره ان يراك الفقراء فى الثياب المرتفعة وروى انه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن أتدرون ما التواضع التواضع ان تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما الا رأيت له عليك فضلا وقال مجاهد ان الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شمخت الجبال وتطاولت وتواضع الجودى فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال أبو سليمان ان الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام خصه من بينهم بالكلام وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت معهم انى أخشى انهم حرموا بسببى ويقال أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه وقال زياد النميرى الزاهد بغير تواضع كالشجرة التى لا تثمر وقال مالك بن دينار لو أن منادا ينادى بباب المسجد ليخرج شركم رجلا والله ما كان أحد يسبقنى الى الباب الا رجل بفضل قوة أو سعى قال فلما بلغ ابن المبارك قوله قال بهذا صار مالك مالكا وقال الفضيل من أحب الرياسة لم يفلح أبدا وقال موسى بن القاسم كانت عند نازلة وريح حمراء فذهبت الى محمد بن مقاتل فقلت يا أبا عبد الله أنت امامنا فادع الله عز وجل لنا فبكى ثم قال ليتنى لم أكن سبب هلاككم قال فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال ان الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل وجاء رجل الى الشبلى رحمه الله فقال له ما أنت وكان هذا دأبه وعادته فقال أنا النقطة التى تحت الباء فقال له الشبلى أبا دلف شاهدك أو تجعل لنفسك موضعا وقال الشبلى فى بعض كلامه ذلى عطل ذل اليهود ويقال من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب وعن أبى الفتح بن شخرف قال رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى المنام فقلت له يا أبا الحسن عظنى فقال لى ما أحسن التواضع بالاغنياء فى مجالس الفقراء رغبة منهم فى ثواب الله وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الاغنياء ثقة منهم بالله عز وجل وقال أبو سليمان لا يتواضع العبد حتى

بواطن بعض الناس الانكار عليك فى لبسك هذا الثوب فيقول لا تلقى الا أحد رجلين رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع فنقول له هل ترى ان ثوبنا يكرهه الشرع أو يحرمه فيقول لا ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزيمة فنقول له هل ترى لنا فيما لبسنا اختيارا أو ترى عندنا فيه شهوة فيقول لا وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن ولكن يحب أن يختار الله له هيئة مخصوصة فيكثر اللجأ الى الله والافتقار اليه ويسأله أن يريه أحب الزى الى الله تعالى وأصلحه

يعرف نفسه وقال أبو يزيد مادام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر فقيل له فمتى يكون متواضعا قال اذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا وتواضع كل انسان على قدر معرفته بربه عزوجل ومعرفته بنفسه وقال أبو سليمان لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كما تضاءى عند نفسي ما قدروا عليه وقال عروة بن الورد التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها الا التواضع وقال يحيى بن خالد البرمكي الشريف اذا تنسك تواضع والسفيه اذا تنسك تعاظم وقال يحيى بن معاذ التكبر على ذوي التكبر عليك بماله تواضع ويقال التواضع في الخلق كلهم حسن وفي الاغنياء أحسن والتكبر في الخلق كلهم قبيح وفي الفقراء أقبح ويقال لا عز لامن تذلل لله عزوجل ولا رفعة لامن تواضع لله عزوجل ولا أمن لامن خاف الله عزوجل ولا ربح لامن ابتاع نفسه من الله عزوجل وقال أبو علي الجوزجاني النفس مجبولة بالكبر والحرص والحسد فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة واذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك فاذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصرة الله تعالى واذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عزوجل واذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عزوجل * وعن الجنيد رحمه الله انه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولا أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم (أنه قال يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم ما تكلمت عليكم وقال الجنيد أيضا التواضع عند أهل التوحيد تكبر ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيأ حتى يضعها أو يرفعها وعن عمرو بن شيبة قال كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان واذا هم يعنفون الناس قال ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فاذا أنا برجل خاف حاسر طويل الشعر قال فجعلت أنظر اليه وأتأمله فقال لي مالك تنظر الى فقلت له شبهتك برجل رأيته بمكة ووصفت له الصفة فقال له أنا ذلك الرجل فقلت ما فعل الله بك فقال اني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس وقال المغيرة كان أبو اهيم النخعي هيبة الامير وكان يقول ان زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء وكان عطاء السلمي اذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض وقال هذا من أجلي يصيبكم لومات عطاء لاستراح الناس وكان بشر الحافي يقول سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله ما ترجوه فقال ان الرجاء يكون بعد المعرفة فاين المعرفة وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوما فقال سلمان لكني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتي الميزان فان ثقل فانا كريم وان خف فانا لئيم وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين والشرف في التواضع نسأل الله الكريم حسن التوفيق

﴿ بيان حقيقة الكبر وآفته ﴾

اعلم أن الكبر ينقسم الى باطن وظاهر فالباطن هو خلق في النفس والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح واسم الكبر بالخلق الباطن أحق وأما الاعمال فانها ثمرات لذلك الخلق وخلق الكبر موجب للاعمال ولذلك اذا ظهر على الجوارح يقال تكبر واذا لم يظهر يقال في نفسه كبر فالاصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فان الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي فان العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الانسان الا وحده تصور أن يكون معجبا ولا يتصور أن يكون متكبرا الا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبرا ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا فانه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه

(٨) حديث يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم الترمذي من حديث أبي هريرة اذا اتخذ الفيء دولا الحديث وفيه كان زعيم القوم أرذلهم الحديث وقال غريب وله من حديث علي بن أبي طالب اذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فذكر منها وكان زعيم القوم أرذلهم ولأبي نعيم في الحلية من حديث حذيفة من اقتراب

فلا يتكبر عليه ولا يكفي أن يستحقر غيره فانه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل ينبغي ان يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون الى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون الى العقيدة هو خلق الكبر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) أعوذ بك من نفخة الكبرياء وكذلك قال عمر أخشى ان تتنفخ حتى تبلغ الثريا للذي استأذنه ان يعظ بعد صلاة الصبح فكأن الانسان مهما رأى نفسه بهذه العين وهو الاستعظام كبر وانتفخ وتعزز فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات وتسمى أيضا عزة وتعظما ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى ان في صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه قال عظمة لم يبلغوها فسر الكبر بتلك العظمة ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرا فانه مهما عظم عنده قدره بالاضافة الى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ورأى ان حقه ان يقوم مائلا بين يديه ان اشتد كبره فان كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته فان كان دون ذلك فيأنف من مساواته وتقدم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر ان يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه وان جاج أو ناظر أنف ان يرد عليه وان وعظ استنكف من القبول وان وعظ عنف في النصح وان رد عليه شئ من قوله غضب وان علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم وينظر الى العامة كأنه ينظر الى الحمير استجهالا لهم واستحقارا والاعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة الى تعدادها فانها مشهورة فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة وفيه يهلك الخواص من الخلق وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر وانما صار حجابا دون الجنة لانه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها وتلك الاخلاق هي أبواب الجنة والكبر وعزة النفس يغلق تلك الابواب كلها لانه لا يقدر على ان يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شئ من العز ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ولا يقدر ان يدوم على الصدق وفيه العز ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ولا يسلم من الازراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم الا وصاحب العز والكبر مضطر اليه ليحفظ به عزه وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزه فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه والاخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع الى البعض لا محالة وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين قال الله تعالى والملائكة باسطو أيديهم الى قوله وكنتم عن آياته تستكبرون ثم قال ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ثم أخبر ان أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على الله تعالى فقال ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا وقال تعالى فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وقال عز وجل يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين وقال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين وقال تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق قيل في التفسير سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت وقال ابن جريج سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها ولذلك قال المسيح عليه السلام ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت

الطهارة محجوبا مرادا يسارع الله تعالى الى مراده ومحابه غيران ههنا مزلة قدم لكثير من المدعين (حكي) عن يحيى بن معاذ الرازي انه كان يلبس الصوف والخلقان في ابتداء أمره ثم صار في آخر عمره يلبس الناعم فقيل لابي يزيد ذلك فقال مسكين يحيى لم يصبر على الدون فكيف يصبر على التعب ومن الناس من يسبق اليه علم ماسوف يدخل عليه من الملبوس فيلبسه محمودا فيه وكل أحوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو

الساعة اثنان وسبعون خصلة فذكرها منها وفيها مفرح بن فضالة ضعيف (١) حديث أعوذ بك من نفخة الكبرياء تقدم فيه (٢) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر تقدم فيه

على الصفا كذلك الحكمة تعمل فى قلب المتواضع ولا تعمل فى قلب المتكبر ألا ترون أن من شمخ برأسه الى السقف شجه ومن طأطأ أظله وأكنه فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق فى حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال (١) من سفه الحق وغمص الناس

﴿ بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه ﴾

اعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه وقد خاق الانسان ظلوما جهولا فتارة يتكبر على الخالق وتارة يتكبر على الخلق فاذا التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام * الاول التكبر على الله وذلك هو أفحش أنواع الكبر ولا مشارك له الا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمروذ فانه كان يحدث نفسه بان يقاتل رب السماء وكما يحكى عن جماعة من الجهلة بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره فانه لتكبره قال أنا ربكم الاعلى اذا استنكف أن يكون عبد الله ولذلك قال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين وقال تعالى لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون الآية وقال تعالى واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا * القسم الثانى التكبر على الرسل من حيث تعززا النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى فى ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان انه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله عن قولهم أنؤمن لبشرين مثلنا وقولهم ان أنتم الا بشر مثلنا ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا وقالوا لولا أنزل عليه ملك وقال فرعون فيما أخبر الله عنه وجاء معه الملائكة مقترنين وقال الله تعالى واستكبر هو وجنوده فى الارض بغير الحق فتكبره على الله وعلى رسله جميعا قال وهب قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاور هامان فقال هامان بينا أنت رب تعبد اذ صرت عبدا تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قال قتادة عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفى طلبوا من هو أعظم رياسة من النبى صلى الله عليه وسلم اذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله الينا فقال تعالى أهم يقسمون رحمة ربك وقال الله تعالى ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أى استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) كيف نجلس اليك وعندك هؤلاء أشاروا الى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم وتكبروا عن مجالستهم فانزل الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى الى قوله ما عليك من حسابهم وقال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم اذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار قيل يعنون عمارا وبلالا وصهيبا والمقداد رضى الله عنهم ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة لجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبرا عنهم فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقال وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وان كان دونه ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع

(١) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس مسلم من حديث ابن مسعود فى اثناء حديث وقال بطر الحق وغمط الناس ورواه الترمذى فقال من بطر الحق وغمص الناس وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقى فى الشعب من حديث أبى ريحانة هكذا (٢) حديث قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نجلس اليك وعندك هؤلاء الحديث فى نزول قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم مسلم من حديث سعد بن أبى وقاص الا انه قال فقال المشركون وقال ابن ماجه قالت قريش

أهدى سبيلا ولبس الخشن من الثياب هو الاحب والاولى والاسلم للعبد والابعد من الآفات (قال مسلمة بن عبد الملك) دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده فى مرضه فرأيت قميصه وسخا فقلت لامرأته فاطمة اغسلوا ثياب أمير المؤمنين فقالت نفعل ان شاء الله قال ثم عدته فاذا القميص على حاله فقلت يا فاطمة ألم آمركم ان تغسلوه قالت والله ماله قميص غيره هذا (وقال) سالم كان عمر بن عبد العزيز من أين الناس لباسا من قبل ان يسلم اليه الخلافة فلما سلم اليه الخلافة ضرب رأسه بين

لرسوله

لرسوله * القسم الثالث التكبر على العباد وذلك بأن يستعظم نفسه و يستحقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه الى الترفع عليهم فيزدريهم و يستصغرهم و يأنف من مساواتهم وهذا وان كان دون الاول والثانى فهو أيضا عظيم من وجهين * أحدهما ان الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق الا بالملك القادر فاما العبد المملوك الضعيف العاجز الذى لا يقدر على شئ فمن أين يليق بحاله الكبر فهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لا تليق الا بجلاله ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه و يجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزى والنكال وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه والى هذا المعنى الاشارة بقوله تعالى العظمة ازارى والكبر ياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته أى انه خاص صفتى ولا يليق الا بى والمنازع فيه منازع فى صفة من صفاتى واذا كان الكبر على عباده لا يليق الا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه اذ الذى يسترذل خواص غلمان الملك و يستخدمهم و يترفع عليهم و يستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له فى بعض أموره وان لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون ما هو الفرق بين منازعة الملك فى استصغار بعض عبيده واستخدامهم و بين منازعته فى أصل الملك * الوجه الثانى الذى تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو الى مخالفة الله تعالى فى أوامره لان المتكبر اذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده ولذلك ترى المناظرين فى مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم انهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين اذ وصفهم الله تعالى فقال وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فكل من يناظر للغلبة والافحام لا ليغتنم الحق اذا ظفر به فقد شاركهم فى هذا الخلق وكذلك يحمل ذلك على الانفة من قبول الوعظ كما قال الله تعالى واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال انا لله وانا اليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف فقتل فقام آخر فقال تقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فقتل المتكبر الذى خالفه والذى أمره كبرا وقال ابن مسعود كفى بالرجل اثما اذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك وقال صلى الله عليه وسلم (١) لرجل كل بيمينك قال لا أستطيع فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا استطعت فما منعه الا كبره قال فما رفعها بعد ذلك أى اعتلت يده فاذا تكبره على الخلق عظيم لانه سيدعوه الى التكبر على أمر الله وانما ضرب ابليس مثلا لهذا وما حكاه من أحواله الا ليعتبر به فانه قال أنا خير منه وهذا الكبر بالنسب لانه قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذى أمره الله تعالى به وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجره ذلك الى التكبر على أمر الله تعالى فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين اذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال يا رسول الله (٢) انى امرؤ قد حبب الى من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو فقال صلى الله عليه وسلم لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس وفى حديث آخر (٣) من سفه الحق وقوله وغمص الناس أى ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه وهذه الآفة الاولى وسفه الحق هو رده وهى الآفة الثانية فكل من رأى انه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر اليه بعين الاستصغار أورد الحق

(١) حديث قال لرجل كل بيمينك قال لا أستطيع فقال لا استطعت الحديث مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (٢) حديث قول ثابت بن قيس بن شماس انى امرؤ قد حبب الى من الجمال ما ترى الحديث وفيه الكبر من بطر الحق وغمص الناس مسلم والترمذى وقد تقدم قبله بحديثين (٣) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس تقدم معه

ركبتيه وبكى ثم دعا باطمار له رثة فلبسها (وقيل) لما مات أبو الدرداء وجد فى ثوبه أربعون رقعة وكان عطاؤه أربعة آلاف (وقال زيد بن وهب) لبس على ابن أبى طالب قميصا رازيا وكان اذا مد كمه بلغ أطراف أصابعه فعابه الخوارج بذلك فقال أتعيبونى على لباس هو أبعد من الكبر وأجدر ان يقتدى بى المسلم (وقيل) كان عمر رضى الله عنه اذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدرة وقال دعوا هذه البراقات للنساء (وروى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال نوروا قلوبكم بلباس الصوف

وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله

﴿ بيان مابه التكبر ﴾

اعلم أنه لا يتكبر الا من استعظم نفسه ولا يستعظمها الا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال وجماع ذلك يرجع الى كمال ديني أو دنيوي فالديني هو العلم والعمل والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الانصار فهذه سبعة أسباب ﴿الاول﴾ العلم وما أسرع الكبر الى العلماء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) آفة العلم الخيلاء فلا يابث العالم أن يتعزز بعزة العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر اليهم نظره الى البهائم ويستجهلهم ويتوقع أن يبدؤه بالسلام فان بدأ واحدا منهم بالسلام أو رد عليه بيشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويد اعليه يلزمه شكرها واعتقد انه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله وانه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه شكرا له على صنيعه بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه فان قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو اجراؤه وكأن تعليمه العلم صنيعة منه اليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم هذا فيما يتعاق بالدنيا أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الانسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم وهذا العلم يزيد خوفا وتواضعا وتخشعا ويقتضي أن يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله عليه بالعلم وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال أبو الدرداء من ازداد علما ازداد وجعا وهو كما قال * فان قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا فاعلم ان لذلك سببين * أحدهما أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما حقيقيا وانما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والامن قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فاما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات فاذا تجرد الانسان لها حتى امتلأ منها امتلا بها كبرا ونفاقا وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة وهذه تورث التواضع غالبا * السبب الثاني أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ردىء النفس سيء الاخلاق فانه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر فاذا خاض في العلم أي علم كان صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره وقد ضرب وهب لهذا مثلا فقال العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشرب به الاشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا وهذا الان من كانت همته الكبر وهو جاهل فاذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا واذا كان الرجل خائفا مع جهله فازداد علما علم ان الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا واشفاقا وذلا وتواضعا فالعلم من أعظم ما يتكبر به ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وقال عز وجل ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ووصف

(١) حديث آفة العلم الخيلاء قلت هكذا ذكره المصنف والمعروف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسند ضعيف وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس آفة الجمال الخيلاء وفيه الحسين بن عبد الحميد الكوفي لا يدري من هو حدث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان

فانه منلة في الدنيا ونور في الآخرة واياكم ان تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم احتذى نعلين فلما نظر اليهما أعجبه حسنهما فسجد لله تعالى فقيل له في ذلك فقال خشيت ان يعرض عني ربي فتواضعت له لاجرم لا يبيتان في منزلي لما تخوفت المقت من الله تعالى من أجلهما فاخرجهما فدفعهما الى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له نعلان مخصوفتان وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس الصوف واحتذى المخصوف وأكل مع العبيد واذا كانت النفس محل

أولياءه فقال أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضى الله عنه (١) يكون قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا ثم التفت الى أصحابه وقال أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار ولذلك قال عمر رضى الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقى علمكم بجهلكم ولذلك استأذن تميم الدارى عمر رضى الله عنه فى القصص فأبى أن يأذن له وقال له انه الذبح واستأذنه رجل كان امام قوم أنه اذا سلم من صلاته ذكرهم فقال انى أخاف أن تتفخ حتى تبلغ الثريا وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال لتلمسن اماما غيرى أو لتصلن وحدانا فانى رأيت فى نفسى انه ليس فى القوم أفضل منى فاذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الامة فأعز على بسيط الارض عالما يستحق أن يقال له عالم ثم انه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه فان وجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغى أن يفارق بل يكون النظر اليه عبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله ولو عرفنا ذلك ولو فى أقصى الصين لسعينا اليه رجاء أن تشملنا بركته وتسرى الينا سيرته وسجيته وهيهات فانى يسمح آخر الزمان بمثلهم فهم أرباب الاقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا فى القرن الاول ومن يليهم بل يعز فى زماننا عالم يحتاج فى نفسه الاسف والحزن على فوات هذه الخصلة فذلك أيضا اما معدوم واما عزيز ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (٢) سيأتى على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه نجا لكان جديرا بنا أن نقتحم والعياذ بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا ومن لنا أيضا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه وليتنا تمسكنا بعشر عشره فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبيح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله ﴿الثانى﴾ العمل والعبادة وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم فى الدين والدنيا أما فى الدنيا فهو انهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم فى المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس فى الحظوظ الى جميع ما ذكرناه فى حق العلماء وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق وأما فى الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك بتحقيقا مهما رأى ذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) اذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم وانما قال ذلك لان هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره قال صلى الله عليه وسلم (٤) كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجوله مالا يرجوه لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم اياه لله فهم يتقربون الى الله تعالى بالدنو منه وهو يتمقت الى الله بالتنزه والتباعد منهم كأنه مترفع عن مجالستهم فما أجدرهم اذا أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله الى درجته فى العمل وما أجدره اذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله الى حد الاهمال كما روى أن رجلا فى بنى اسرائيل كان يقال له خليع بنى اسرائيل لكثرة فساده مر برجل آخر يقال له عابد بنى اسرائيل وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع فى نفسه أنا خليع بنى اسرائيل وهذا عابد بنى اسرائيل فلو جلست اليه لعل الله يرحمنى فجلس اليه فقال العابد أنا عابد بنى اسرائيل وهذا خليع بنى اسرائيل فكيف يجالس الى فأنف منه وقال له قم عنى فأوحى الله الى نبى ذلك الزمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد وفى رواية أخرى فتحولت الغمامة الى رأس الخليع وهذا يعرفك ان الله تعالى انما يريد من العبيد قلوبهم فاجاهل

(١) حديث العباس يكون قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا الحديث ابن المبارك فى الزهد والرقائق (٢) حديث سيأتى على الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم عليه نجا أحمد من رواية رجل عن أبى ذر (٣) حديث اذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم مسلم من حديث أبى هريرة (٤) حديث كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ امرؤ من الشر

لآفات فالوقوف على دسائسها وخفى شهواتها وكامن هواها عسر جدا فالاليق والاجدر والاولى الاخذ بالاحوط وترك ما يريب الى ما لا يريب ولا يجوز للعبد الدخول فى السعة الابعد اتقان علم السعة وكمال تزكية النفس وذاك اذا غابت النفس بغيبة هواها المتبع وتخاصت النية وتسدد التصرف بعلم صريح واضح وللعزيمة أقوام يركبونها ويراعونها لا يرون النزول الى الرخص خوفا من فوت فضيلة الزهد فى الدنيا واللباس الناعم من الدنيا (وقد قيل) من رق توبه رق دينه وقد يرخص

العاصى اذا تواضع هيبة لله وذل خوفا منه فقد أطاع الله بقلبه فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب وكذلك روى أن رجلا فى بنى اسرائيل أتى عابدا من بنى اسرائيل (١) فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله اليه أيها المتألى على بل أنت لا يغفر الله لك وكذلك قال الحسن وحتى أن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب المطرز الخز أى ان صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل له وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضا قلما ينفك عنها كثير من العباد وهو انه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك فى أنه صار ممقوتا عند الله ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب والاغترار بالله وقد ينتهى الحق والغباوة ببعضهم الى أن يتعدى ويقول سترون ما يجرى عليه واذا أصيب بنكبة زعم ان ذلك من كرامته وأن الله ما أراد به الا شفاء غليله والانتقام له منه مع انه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله وعرف جماعة آذوا الانبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ثم ان الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم فى الدنيا بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه فى الدنيا ولا فى الآخرة ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيا به وانه قد انتقم له بما لا ينتقم لانبيا به به ولعله فى مقت الله باعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين وأما الاكياس من العباد فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمى حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة ما يصيب الناس ما يصيبهم الا بسببى ولومات عطاء لتخاصوا وما قاله الاخر بعد انصرافه من عرفات كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كونى فيهم فانظر الى الفرق بين الرجلين هذا يتقى الله ظاهرا وباطنا وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه وذاك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة للشيطان به ثم انه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزما انه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله فان الجهل أفحش المعاصى وأعظم شئ يبعد العبد عن الله وحكمه لنفسه بانه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ولذلك روى ان رجلا ذكر بخير للنبى صلى الله عليه وسلم (٢) فاقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذى ذكرناه لك فقال انى أرى فى وجهه سفعة من الشيطان فسلم ووقف على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أسألك بالله حدثتك نفسك ان ليس فى القوم أفضل منك قال اللهم نعم فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن فى قلبه سفعة فى وجهه وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد الا من عصمه الله لكن العلماء والعباد فى آفة الكبر على ثلاث درجات * الدرجة الاولى أن يكون الكبر مستقرا فى قلبه يرى نفسه خيرا من غيره الا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه وهذا قد رسخ فى قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية * الثانية أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع فى المجالس والتقدم على الاقران واظهار الانكار على من يقصر فى حقه وأدنى ذلك فى العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم وفى العابد ان يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه متنزه عن الناس مستذر لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين ان الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ولا فى الوجه حتى يعبس ولا فى الخد حتى يصعر ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ولا فى الذيل حتى يضم انما الورع فى القلوب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) التقوى ههنا وأشار الى صدره فقد كان رسول الله صلى الله

فى ذلك لمن لا يلتزم بالزهد ويقف على رخصة الشرع (روى) علقمة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من الكبر فقال رجل ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا فقال النبى عليه السلام ان الله جميل يحب الجمال فتكون هذه الرخصة فى حق من يلبسه لا بهوى نفسه فى ذلك غير مفتخر به ومختال فأما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكاثر بها فقد ورد فيه وعيد (روى) أبو هريرة أن رسول الله صلى

(١) حديث الرجل من بنى اسرائيل الذى وطئ على رقبة عابد من بنى اسرائيل وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك الحديث أبو داود والحاكم من حديث أبى هريرة فى قصة العابد الذى قال للعاصى والله لا يغفر الله لك أبدا وهو بغير هذه السياقة واسناده حسن (٢) حديث ان رجلا ذكر بخير للنبى صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذى ذكرناه لك فقال انى أرى فى وجهه سفعة من الشيطان الحديث أحمد والبزار والدارقطنى من حديث أنس (٣) حديث التقوى ههنا وأشار الى صدره مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم

عليه وسلم (١) أكرم الخلق واتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا ولذلك قال الحرث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبني من القراء كل طليق مضحاك فاما الذي تلقاه يبشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه فلا أكثر الله في المسلمين مثله ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فاحوالهم أخف حالا ممن هو في الرتبة الثالثة وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه الى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الاحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل أما العابد فانه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد من هو وما عمله ومن أين زهده فيطول اللسان فيهم بالتنقص ثم يثني على نفسه ويقول اني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن في كل يوم وفلان ينام سحرا ولا يكثر القراءة وما يجري مجراه وقد يزكي نفسه ضمنا فيقول قصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض أو ما يجري مجراه يدعي الكرامة لنفسه وأما مباهاته فهو انه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي وان كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر لهم قوته وعجزهم وكذلك يشتد في العبادة خوفا من ان يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله وأما العالم فانه يتفاخر ويقول أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا ومن أنت وما فضلك ومن لقيت وما الذي سمعت من الحديث كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه وأما مباهاته فهو انه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الالفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الاقران ويتعظم عليهم ويحفظ الاحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوءه اذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى انه أعظم منه فهذا كله اخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه فليت شعري من الذي عرف هذه الاخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انه من أهل النار وانما العظيم من خلا عن هذا ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له ان لك عندنا قدرا مالم تر لنفسك قدرا فان رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا فهذا هو التكبر بالعلم والعمل

﴿الثالث﴾ التكبر بالحسب والنسب فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وان كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له موال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره يا نبطي ويا هندي ويا أرمني من أنت ومن أبوك فانا فلان بن فلان وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر الي ومع مثلي تتكلم وما يجري مجراه وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وان كان صالحا وعاقلا الا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الاحوال فان غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روى عن أبي ذر أنه قال قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم (٣) فقلت له يا ابن السوداء فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل فقال أبو ذر رجعه الله فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء وان ذلك خطأ وجهل وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر باخمص قدم من تكبر عليه اذ عرف

(١) حديث كان أكرم الخلق واتقاهم الحديث تقدم في كتاب أخلاق النبوة (٢) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر تقدم (٣) حديث أبي ذر قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء الحديث ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له

الله عليه وسلم قال ازرة المؤمن الى نصف الساق فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من الكعبين فهو في النار من جر ازاره بطرا لم ينظر الله اليه يوم القيامة فبينما رجل ممن كان قبلكم يتبختر في ردائه اذ أعجبه رداؤه فخسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة والاحوال تختلف ومن صح حاله بصحة علمه صحت نيته في مأكوله وملبوسه وسائر تصاريفه وفي كل الاحوال يستقيم ويتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى وبقدر ذلك تستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى

﴿الباب الخامس

أن العز لا يقمعه الا الذل ومن ذلك ماروى أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم (١) فقال أحدهما للآخر أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك فقال النبي صلى الله عليه وسلم افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام قل للذى افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدوف بأنافها النتن ﴿الرابع﴾ التفاخر بالجمال وذلك أكثر مايجرى بين النساء ويدعو ذلك الى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ماروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم (٢) فقلت بيدى هكذا أى انها قصيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها وهذا منشؤه خفاء الكبر لانها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة فى جنب نفسها فقالت ماقالت ﴿الخامس﴾ الكبر بالمال وذلك يجرى بين الملوك فى خزائنهم وبين التجار فى بضائعهم وبين الدهاقين فى أراضيهم وبين المتجملين فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له أنت مسكين ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت ومامعك وأنا أنفق فى اليوم مالا تأكله فى سنة وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى والية الاشارة بقوله تعالى فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا حتى أجابه فقال ان ترنى أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ثم بين الله عاقبة أمره بقوله ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ومن ذلك تكبر قارون اذ قال تعالى اخبارا عن تكبره فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم ﴿السادس﴾ الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف ﴿السابع﴾ التكبر بالاتباع والانصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والاقارب والبنين ويجرى ذلك بين الملوك فى الكثرة بالجنود وبين العلماء فى الكثرة بالمستفيدين وبالجملة فكل ماهو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالا وان لم يكن فى نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به حتى ان المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته فى صنعة المخنثين لانه يرى ذلك كمالا فيفتخر به وان لم يكن فعله الا نكالا وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه ان ذلك كمال وان كان مخطئا فيه فهذه مجامع مايتكبر به العباد بعضهم على بعض فيتكبر من يدلى بشئ منه على من لا يدلى به أو على من يدلى بما هو دونه فى اعتقاده وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعالم الذى يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه انه هو الاعلم وحسن اعتقاده فى نفسه نسأل الله العون بلطفه ورحمته انه على كل شئ قدير

﴿بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له﴾

اعلم أن الكبر خلق باطن وأما يظهر من الاخلاق والافعال فهى ثمرة ونتيجة وينبغى أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذى هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير وهذا الباطن له موجب واحد

والاربعون فى ذكر فضل قيام الليل ﴿قال الله تعالى اذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان نزلت هذه الآية فى المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على كثيب من الرمل تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب وسبقهم المشركون الى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليها وأصبح المسلمون بين محدث وجنب وأصابهم الظمأ فوسوس لهم الشيطان انكم تزعمون انكم على الحق وفيكم نبى الله وقد غلب المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف

انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود الا أن تفضله بتقوى (١) حديث ان رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أب لك الحديث عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند من حديث أبى بن كعب باسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى فقط (٢) حديث ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان الحديث أبو داود والترمذى وحسنه وابن حبان من حديث أبى هريرة (٣) حديث عائشة دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدى هكذا أى انها قصيرة الحديث تقدم فى آفات اللسان

وهو العجب الذى يتعلق بالمتكبر كما سيأتى معناه فانه اذا أعجب بنفسه و بعلمه أو بشئ من أسبابه استعظم نفسه وتكبر وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة سبب فى المتكبر وسبب فى المتكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما أما السبب الذى فى المتكبر فهو العجب والذى يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد والذى يتعلق بغيرهما هو الرياء فتصير الاسباب بهذا الاعتبار أربعة العجب والحقد والحسد والرياء * أما العجب فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر فى الأعمال والاقوال والاحوال * وأما الحقد فانه يحمل على التكبر من غير عجب كالذى يتكبر على من يرى انه مثله أو فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقدا ورسخ فى قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وان كان عنده مستحقا للتواضع فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الاكابر لحقده عليه أو بغضه له و يحمله ذلك على رد الحق اذا جاء من جهته وعلى الانفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد فى التقدم عليه وان علم انه لا يستحق ذلك وعلى أن لا يستحله وان ظلمه فلا يعتذر اليه وان جنى عليه ولا يسأله عما هو جاهل به وأما الحسد فانه أيضا يوجب البغض للمحسود وان لم يكن من جهته ايذاء وسبب يقتضى الغضب والحقد و يدعو الحسد أيضا الى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم فكم من جاهل يشتاق الى العلم وقد يقى فى رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقار به حسدا و بغيا عليه فهو يعرض عنه و يتكبر عليه مع معرفته بانه يستحق التواضع بفضل علمه ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله باخلاق المتكبرين وان كان فى باطنه ليس يرى نفسه فوقه * وأما الرياء فهو أيضا يدعو الى أخلاق المتكبرين حتى ان الرجل لينا ظر من يعلم انه أفضل منه وليس بينه و بينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له فى الاستفادة خيفة من أن يقول الناس انه أفضل منه فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه وأما الذى يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فانه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث وكذلك قد ينتمى الى نسب شريف كاذبا وهو يعلم انه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب الى ذلك النسب و يترفع عليه فى المجالس و يتقدم عليه فى الطرق ولا يرضى بمساواته فى الكرامة والتوقير وهو عالم باطنا بانه لا يستحق ذلك ولا كبر فى باطنه لمعرفته بانه كاذب فى دعوى النسب ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين وكأن اسم المتكبر انما يطلق فى الاكثر على من يفعل هذه الافعال عن كبر فى الباطن صادر عن العجب والنظر الى الغير بعين الاحتقار وهو ان سمى متكبرا فلاجل التشبه بافعال الكبر نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم

﴿ بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر ﴾

اعلم ان التكبر يظهر فى شمائل الرجل كصعر فى وجهه ونظره شزرا واطراقه رأسه وجلوسه متربعا أو متكئا وفى أقواله حتى فى صوته ونغمته وصيغته فى الايراد و يظهر فى مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته وفى تعاطيه لافعاله وفى سائر تقلباته فى أحواله وأقواله وأعماله فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر فى بعض و يتواضع فى بعض فمنها التكبر بان يحب قيام الناس له أو بين يديه وقد قال على كرم الله وجهه من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى رجل قاعد و بين يديه قوم قيام وقال أنس (١) لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك * ومنها أن لا يمشى الا ومعه غيره يمشى خلفه قال أبو الدرداء لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشى خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده اذ كان لا يتميز عنهم فى صورة ظاهرة ومشى قوم خلف الحسن البصرى فنعهم وقال ما يبقى هذا من قلب العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) فى بعض الاوقات يمشى مع بعض الاصحاب فيأمرهم بالتقدم و يمشى فى

(١) حديث أنس لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له الحديث تقدم فى آداب الصحبة وفى أخلاق النبوة (٢) حديث كان فى بعض الأوقات يمشى مع الاصحاب

ترجون الظفر عليهم فأنزل الله تعالى مطرا من السماء سال منه الوادى فشرب المسلمون منه واغتسلوا وتوضؤا وسقوا الدواب وملؤا الاسقية ولبد الارض حتى ثبت به الاقدام قال الله تعالى و يثبت به الاقدام اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم أمدهم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين ونكل آية من القرآن ظهر و بطن وحد ومطلع والله تعالى كما جعل النعاس رحمة وأمنة للصحابة خاصة فى تلك الواقعة والحادثة فهو رحمة تعم المؤمنين والنعاس قسم صالح من الاقسام العاجلة للمريدين وهو أمنة لقلوبهم

عن منازعات النفس لان النفس بالنوم تستريح ولا تشكو الكلال والتعب اذ فى شكايتها وتعبها تكدير القلب وباحترامها بالنوم بشرط العلم والاعتدال راحة القلب لما بين القلب والنفس من المواطأة عند طمأنينتها للمريدين السالكين فقد قيل ينبغى أن يكون ثلث الليل والنهار نوما حتى لا يضطرب الجسد فيكون ثمان ساعات للنوم ساعتين من ذلك يجعلهما المريد بالنهار وست ساعات بالليل ويزيد فى أحدهما وينقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره فى الشتاء والصيف وقد يكون بحسن

غمارهم اما التعليم غيره أو لينفى عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب (١) كما أخرج الثوب الجديد فى الصلاة وأبدله بالخليج لاحد هذين المعنيين * ومنها أن لا يزور غيره وان كان يحصل من زيارته خير لغيره فى الدين وهو ضد التواضع روى ان سفيان الثورى قدم الرملة فبعث اليه ابراهيم بن أدهم أن تعال فحدثنا فجاء سفيان فقيل له يا أبا اسحق تبعث اليه بمثل هذا فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه الا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه قال ابن وهب جلست الى عبد العزيز بن أبى رواد فمس فخذى فحذى فخذه فتحيت نفسى عنه فأخذ ثيابى فجرنى الى نفسه وقال لى لم تفعلون بى ما تفعلون بى بالجبارة وانى لا أعرف رجلا منكم شر امنى وقال أنس (٢) كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعاولين ويتحاشى عنهم وهو من الكبر (٣) دخل رجل وعليه جدرى قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون فجاء جلس الى أحد الاقام من جنبه فأجلسه النبى صلى الله عليه وسلم الى جنبه وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذوما ولا أبرص ولا مبتلى الا أقعدهم على مائدته * ومنها ان لا يتعاطى بيده شغلا فى بيته والتواضع خلافه روى ان عمر ابن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم الى المصباح فأصلحه فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه قال أفأنبه الغلام فقال هى أول نومة نامها فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتا فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين فقال ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص منى شئ وخير الناس من كان عند الله متواضعا * ومنها أن لا يأخذ متاعه (٤) ويحمله الى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وقال على كرم الله وجهه لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شئ الى عياله وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير يحمل سطلا له من خشب الى الحمام وقال ثابت بن أبى مالك رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال أوسع الطريق للامير يا ابن أبى مالك وعن الاصبغ ابن نباتة قال كأنى أنظر الى عمر رضى الله عنه معلقا الجراب فى يده اليسرى وفى يده اليمنى الدرة يدور فى الاسواق حتى دخل رحله وقال بعضهم رأيت عليا رضى الله عنه قد اشترى لحما بدرهم فحمله فى ملحفته فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال لا أبو العيال أحق أن يحمل * ومنها اللباس اذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (٥) البذاذة من الايمان فقال هرون سألت معنا عن البذاذة فقال هو الدون من اللباس وقال زيد بن وهب رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج الى السوق وبيده الدرة وعليه ازار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم وعوتب على كرم الله وجهه فى ازار مرقوع فقال يقتدى به المؤمن ويخشع له القلب وقال عيسى عليه السلام جودة الثياب خيلاء فى القلب وقال طاوس انى لاغسل ثوبى هذين فانكر قلبى ما دام ناقيين ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بالف دينار فيقول ما أجودها ولا خشونة فيها فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما أجوده لولا لينه فقيل له أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين

فيأمرهم بالتقدم أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى امامة بسند ضعيف جدا انه خرج يمشى الى البقيع فتبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال انى سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع فى نفسى شئ من الكبر وهو منكر فيه جماعة ضعفاء (١) حديث اخراجه الثوب الجديد فى الصلاة وابداله بالخليج قلت المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق أو نزع الخميصة ولبس الأنبجانية وكلاهما تقدم فى الصلاة (٢) حديث أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث تقدم فى آداب المعيشة (٣) حديث الرجل الذى به جدرى واجلاسه الى جنبه تقدم قريبا (٤) حديث حمله متاعه الى بيته أبو يعلى من حديث أبى هريرة فى شمائله للسراويل وحمله وتقدم (٥) حديث البذاذة من الايمان أبو داود وابن ماجه من حديث أبى امامة بن ثعلبة وقد تقدم

فقال ان لى نفسا ذواقة تواقة وانها لم تذق من الدنيا طبقة الا تاقت الى الطبقة التى فوقها حتى اذا ذاقت الخلافة وهى أرفع الطباق تاقت الى ما عند الله عز وجل وقال سعيد بن سويد صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ان الله قد أعطاك فلو لبست فنكس رأسه مليا ثم رفع رأسه فقال ان أفضل القصد عند الجدة وان أفضل العفو عند القدرة وقال صلى الله عليه وسلم (١) من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله وابتغاء لمرضاته كان حقا على الله أن يدخره عبقرى الجنة فان قلت فقد قال عيسى عليه السلام جودة الثياب خيلاء القلب وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم (٢) عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس فكيف طريق الجمع بينهما فاعلم ان الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر فى حق كل أحد فى كل حال وهو الذى أشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) من حال ثابت بن قيس اذ قال انى امرؤ حبب الى من الجمال ما ترى فعرف ان ميله الى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره فانه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر وقد يكون ذلك من الكبر كما ان الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل اذا رآه الناس ولا يبالى اذا انفرد بنفسه كيف كان وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال فى كل شئ ولو فى خلوته وحتى فى سنور داره فذلك ليس من التكبر فاذا انقسمت الاحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الاحوال على ان قوله خيلاء القلب يعنى قد تورث خيلاء فى القلب وقول نبينا صلى الله عليه وسلم انه ليس من الكبر يعنى ان الكبر لا يوجبه ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثا للكبر وبالجملة فالاحوال تختلف فى مثل هذا والمحبوب الوسط من اللباس الذى لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة وقد قال صلى الله عليه وسلم (٤) كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير سرف ولا مخيلة (٥) ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده وقال بكر بن عبد الله المزنى البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية وانما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح وقد قال عيسى عليه السلام مالكم تأتونى وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية ومنها ان يتواضع بالاحتمال اذا سب وأوذى وأخذ حقه فذلك هو الاصل وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الاذى فى كتاب الغضب والحسد وبالجملة فجامع حسن الاخلاق والتواضع سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فيه فينبغى ان يقتدى به ومنه ينبغى أن يتعلم وقد قال أبو سلمة قلت لابى سعيد الخدرى ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال يا ابن أخى كل لله واشرب لله والبس لله وكل شئ من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف وعالج فى بيتك من الخدمة (٦) ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته كان يعالف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه اذا أعيا ويشترى الشئ من السوق ولا يمنعه الحياء ان يعلقه بيده أو يجعله فى طرف ثوبه وينقلب الى أهله بصافح الغنى والفقير

(١) حديث من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله الحديث أبو سعيد المالينى فى مسند الصوفية وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس من ترك زينة لله الحديث وفى اسناده نظر (٢) حديث سئل عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال لا الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث ان ثابت بن قيس قال للنبى صلى الله عليه وسلم انى امرؤ حبب الى الجمال الحديث هو الذى قبله سمى فيه السائل وقد تقدم (٤) حديث كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير اسراف ولا مخيلة النسائى وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) حديث ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده الترمذى وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضا وقد جعلهما المصنف حديثا واحدا (٦) حديث أبى سعيد الخدرى وعائشة قال الخدرى لأبى سلمة عالج فى بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج فى بيته كان يعلف الناضح الحديث وفيه قال أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك عن أبى سعيد فقالت ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك انه لم يمتلئ قط شبعا الحديث بطوله لم أقف لهما على اسناد

الارادة وصدق الطلب ينقص النوم عن قدر الثلث ولا يضر ذلك اذا صار بالتدريج عادة وقد يحمل ثقل السهر وقلة النوم وجود الروح والانس فان النوم طبعه بارد رطب ينفع الجسد والدماغ ويسكن من الحرارة واليبس الحادث فى المزاج فان نقص عن الثلث يضر بالدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم فاذا ناب عن النوم روح القلب وأنسه لا يضر نقصانه لان طبيعة الروح والانس بادرة رطبة كطبيعة النوم وقد تقصر مدة طول الليل بوجود الروح فتصير بالروح أوقات الليل

والكبير والصغير ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه لا يستحيي من أن يجيب اذا دعي وان كان أشعث أغبر ولا يحقر ما دعي اليه وان لم يجد الا حشف الدقل لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداءين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذي قربى ومسلم رقيق القلب دائم الاطراق لم يبشم قط من شبع ولم يمد يده من طمع قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ما أخطأ منه حرفا ولقد قصر اذما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا ولم يبث الى أحد شكوى وان كانت الفاقة لاحب اليه من اليسار والغنى وان كان ليظل جائعا يلتوي ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء ان يسأل ربه فيؤتى بكنوز الارض وثمارها وغدرها من مشارق الارض ومغاربها لفعل ور بما بكيت رحمة له مما أوتي من الجوع فامسح بطنه بيدي وأقول نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة اخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فاجدني استحيي ان ترفهت في معيشتي ان يقصر بي دونهم فاصبر أياما يسيرة أحب الي من أن ينقص حظي غدا في الآخرة وما من شئ أحب الي من اللحوق باخواني واخلائي قالت عائشة رضي الله عنها فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة اخلاق المتواضعين فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشد جهله فلقد كان أعظم خلق الله منصبا في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة الا في الاقتداء به ولذلك قال عمر رضي الله عنه انا قوم أعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العز في غيره لما عوتب في بذاذة هيئته عند دخوله الشام وقال أبو الدرداء اعلم ان لله عبادا يقال لهم الابدال خلف من الانبياء هم أوتاد الارض فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع في غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه وهم أربعون صديقا أو ثلاثون رجلا قلوبهم على مثل يقين ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه واعلم يا أخي أنهم لا يلعنون شيأ ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحدا ولا يحرصون على الدنيا هم أطيب الناس خبرا وألينهم عريكة وأسخاهم نفسا علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ليسوا اليوم في خشية وغدا في غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة قلوبهم تصعد ارتياحا الى الله واشتياقا اليه وقدما في استباق الخيرات أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون قال الراوي فقلت يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد على من تلك الصفة وكيف لي ان أبلغها فقال ما ينك وبين أن تكون في أوسعها الا أن تكون تبغض الدنيا فانك اذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك واذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة واعلم يا ابن أخي ان ذلك في كتاب الله تعالى المنزل ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون قال يحيى بن كثير فنظرنا في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يا رب العالمين فانه لا يصلح لحبك الا من ارتضيته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له ﴾

اعلم ان الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شئ منه وازالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الادوية القامعة له وفي معالجته مقامان أحدهما استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب

الطويلة كالقصيرة كما يقال سنة الوصل سنة وسنة الهجر سنة فيقصر الليل لاهل الروح (نقل) عن علي ابن بكار أنه قال منذ أربعين سنة ما أحزنني الاطلوع الفجر وقيل لبعضهم كيف أنت والليل قال ما راعيته قط يريني وجهه ثم ينصرف وما تأملته وقال أبو سليمان الداراني أهل الليل في ليلهم أشد لذة من أهل اللهو في لهوهم وقال بعضهم ليس في الدنيا شئ يشبه نعيم أهل الجنة الا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة فحلاوة المناجاة ثواب عاجل لاهل الليل (وقال) بعض

الثانى دفع العارض منه بالاسباب الخاصة التى بها يتكبر الانسان على غيره (المقام الأول) فى استئصال أصله وعلاجه علمى وعملى ولا يتم الشفاء الا بمجموعهما أما العلمى فهو أن يعرف نفسه و يعرف ربه تعالى و يكفيه ذلك فى ازالة الكبر فانه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم انه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل وانه لا يليق به الا التواضع والذلة والمهانة واذا عرف ربه علم انه لا تليق العظمة والكبرياء الا بالله أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول ولكا نذكر من ذلك ما ينفع فى اثارة التواضع والمذلة و يكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله فان فى القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى قتل الانسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره فقد أشارت الآية الى أول خلق الانسان والى آخر أمره والى وسطه فلينظر الانسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الانسان فهو انه لم يكن شيأ مذكورا وقد كان فى حيز العدم دهورا بل لم يكن لعدمه أول وأى شئ أخس وأقل من المحو والعدم وقد كان كذلك فى القدم ثم خلقه الله من أرذل الاشياء ثم من أقذرها اذ قد خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعله عظما ثم كسا العظم لحما فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيأ مذكورا فما صار شيأ مذكورا الا وهو على أخس الاوصاف والنعوت اذ لم يخلق فى ابتدائه كاملا بل خلقه جادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم فبدأ بموته قبل حياته و بضعفه قبل قوته و بجهله قبل علمه و بعماه قبل بصره و بصممه قبل سمعه و ببكمه قبل نطقه و بضلالته قبل هداه و بفقره قبل غناه و بعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ومعنى قوله هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه كذلك خلقه أولا ثم امتن عليه فقال ثم السبيل يسره وهذا اشارة الى ما تيسر له فى مدة حياته الى الموت وكذلك قال من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا ومعناه انه أحياه بعد ان كان جادا ميتا ترابا أولا ونطفة ثانيا وأسمعه بعد ما كان أصم و بصره بعد ما كان فاقد البصر وقواه بعد الضعف وعلمه بعد الجهل وخلق له الاعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها وأغناه بعد الفقر وأشبعه بعد الجوع وكساه بعد العرى وهداه بعد الضلال فانظر كيف دبره وصوره والى السبيل كيف يسره والى طغيان الانسان ما أكفره والى جهل الانسان كيف أظهره فقال أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون فانظر الى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة الى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد الموت وناطقا بعد البكم و بصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وعالما بعد الجهل ومهديا بعد الضلال وقادرا بعد العجز وغنيا بعد الفقر فكان فى ذاته لا شئ وأى شئ أخس من لا شئ وأى قلة أقل من العدم المحض ثم صار بالله شيأ وانما خلقه من التراب الذليل الذى يوطأ بالاقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه وانما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه و يعلم بها عظمته وجلاله وانه لا يليق الكبرياء الا به جل وعلا ولذلك امتن عليه فقال ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين وعرف خسته أولا فقال ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة ثم ذكر منته عليه فقال فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولا بالاختراع فمن كان هذا بدأه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الاخساء وأضعف الضعفاء ولكن هذه عادة الخسيس اذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة الا بالله نعم لو أكمله وفوض اليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى ولكنه سلط عليه فى دوام وجوده الامراض الهائلة والاسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة من المرة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى رضى أم سخط فيجوع كرها و يعطش كرها و يمرض كرها و يموت كرها لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا يريد ان يعلم الشئ

العارفين ان الله تعالى يطلع على قلوب المستيقظين فى الاسحار فيملؤها نورا فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم الفوائد الى قلوب الغافلين وقد ورد ان الله تعالى أوحى فى بعض ما أوحى الى بعض أنبيائه ان لى عبادا يحبونى وأحبهم و يشتاقون الى وأشتاق اليهم و يذكرونى وأذكرهم وينظرون الى وأنظر اليهم فان حنوت طريقهم أحببتك وان عدلت عن ذلك مقتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه و يحنون الى غروب الشمس كما تحن الطير الى

فيجهله ويريد أن يذكر الشئ فينساه ويريد أن ينسى الشئ ويغفل عنه فلا يغفل عنه ويريد أن يصرف قلبه الى ما يهمه فيجول فى أودية الوساوس والافكار بالاضطرار فلا يملك قلبه ولا نفسه نفسه ويشتهى الشئ وربما يكون هلاكه فيه ويكره الشئ وربما تكون حياته فيه يستلذ الاطعمة وتهلكه وتردیه ويستبشع الادوية وهى تنفعه وتحييه ولا يامن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه فى دنياه فهو مضطر ذليل ان ترك بقى وان اختطف فنى عبد مملوك لا يقدر على شئ من نفسه ولا شئ من غيره فاى شئ أذل منه لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله فهذا أوسط أحواله فليتأمله وأما آخره ومورده فهو الموت المشار اليه بقوله تعالى ثم أماته فاقبره ثم اذا شاء أنشره ومعناه انه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وادراكه وحركته فيعود جمادا كما كان أول مرة لا يبقى الا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان فى الاول نطفة مذرة ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميما رفاتا ويأكل الدود أجزاءه فيبتدئ بحدقتيه فيقلعهما وبخديه فيقطعهما وبسائر أجزائه فيصير رونا فى اجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل انسان ويهرب منه لشدة الانتان وأحسن أحواله ان يعود الى ما كان فيصير ترابا يعمل منه الكيزان ويعمر منه البنيان فيصير مفقودا بعدما كان موجودا وصار كأن لم يغن بالامس حصيدا كما كان فى أول أمره أمدا ممدودا وليته بقى كذلك فما أحسنه لو ترك ترابا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ويخرج الى أهوال القيامة فينظر الى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وارض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر اليها المجرم فيتحسر ويرى صحائف منشورة فيقال له اقرأ كتابك فيقول وما هو فيقال كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر باسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود فدنسيت ذلك واحصاه الله عليك فهلم الى الحساب واستعد للجواب أو تساق الى دار العذاب فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل ان تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه فاذا شاهده قال يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى ثم اذا شاء أنشره فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم بل ماله وللفرح فى لحظة واحدة فضلا عن البطر والاشر فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولوظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار ان يكون كلبا أو خنزيرا ليصير مع البهائم ترابا ولا يكون انسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا وان كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع اذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب فى النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ولو وجدوا ريح نتنه لماتوا من نتنه ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يسقى منه فى بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة فمن هذا حاله فى العاقبة الا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيأ حتى يعتقد له فضلا وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة الا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة الا بالله أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط وحبس فى السجن وهو ينتظر أن يخرج الى العرض وتقام عليه العقوبة على ملا من الخلق وليس يدرى أيعفى عنه أم لا كيف يكون ذله فى السجن أفترى أنه يتكبر على من فى السجن ومامن عبد مذنب الا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدرى كيف يكون آخر أمره فيكفيه ذلك حزنا وخوفا واشفاقا ومهانة وذلا فهذا هو العلاج العلمى القامع لاصل الكبر وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله

أوكارها فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا لى أقدامهم وافترشوا لى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا الى بانعامى فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك بعينى ما يتحملون من أجلى وبسمعى ما يشكون من حبى أول ما أعطيهم أن أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم والثانى لو كانت السموات السبع والارضون وما فيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم والثالث أقبل بوجهى عليهم أفترى من أقبلت بوجهى عليه أيعلم أحد ما أريد ان أعطيه

صلى الله عليه وسلم (١) حتى أنه كان يأكل على الارض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وقيل لسلمان لم لا تلبس ثوبا جديدا فقال انما أنا عبد فاذا أعتقت يوما لبست جديدا أشار به الى العتق فى الآخرة ولا يتم التواضع بعد المعرفة الا بالعمل ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالايمان وبالصلاة جميعا وقيل الصلاة عماد الدين وفى الصلاة أسرار لاجلها كانت عمادا ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع والسجود وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحنى لاخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لاصلاحه حتى (٢) قال حكيم بن حزام بايعت النبى صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر الا قائما فبايعه النبى صلى الله عليه وسلم عليه ثم فقه وكمل ايمانه بعد ذلك فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والوضعة أمر وابه لتنكسر بذلك خيلاؤهم وبزول كبرهم ويستقر التواضع فى قلوبهم وبه أمر سائر الخلق فان الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذى يقتضيه التواضع فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الافعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقا فان القلوب لا تتخلق بالاخلاق المحمودة الا بالعلم والعمل جميعا وذلك لخفاء العلاقة بين القلب والجوارح وسر الارتباط الذى بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت ﴿المقام الثانى﴾ فيما يعرض من التكبر بالاسباب السبعة المذكورة وقد ذكرنا فى كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقى هو العلم والعمل فاما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمى فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر ولكن نذكر طريق العلاج من العلم والعمل فى جميع الاسباب السبعة * الاول النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين أحدهما أن هذا جهل من حيث انه تعزز بكمال غيره ولذلك قيل

لئن فخرت يا باء ذوى شرف * لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب ان كان خسيسا فى صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره بل لو كان الذى ينسب اليه حيا لكان له أن يقول الفضل لى ومن أنت وانما أنت دودة خلقت من بول أفترى أن الدودة التى خلقت من بول انسان أشرف من الدودة التى من بول فرس هيهات بل هما متساويان والشرف للانسان لا للدودة * الثانى أن يعرف نسبه الحقيقى فيعرف أباه وجده فان أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين فمن أصله التراب المهين الذى يداس بالاقدام ثم خمر طينه حتى صار حمأ مسنونا كيف يتكبر وأخس الاشياء ما اليه انتسابه اذ يقال يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقذر من المضغة فان كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول افتخر بالقريب دون البعيد فالنطفة والمضغة أقرب اليه من الاب فليحقر نفسه بذلك ثم ان كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالاب الاعلى من التراب فمن أين رفعته واذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده فاذا أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل وهذه غاية خسة النسب فالاصل يوطأ بالاقدام والفصل تغسل منه الابدان فهذا هو النسب الحقيقى للانسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عنده نفسه من بنى هاشم وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك اذ أخبره عدول لا يشك فى قولهم انه ابن هندى حجام يتعاطى القاذورات وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك فى صدقهم أفترى أن ذلك يبقى شيأ من كبره لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزى لخسته فى شغل عن أن يتكبر على غيره فهذا حال البصير اذا تفكر فى أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب اذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم

(١) حديث كان يأكل على الارض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد تقدم فى آداب المعيشة (٢) حديث حكيم بن حزام بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر الا قائما الحديث رواه أحمد مقتصرا على هذا وفيه ارسال خفى

فالصادق المريد اذا خلا فى ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره ويصير نهاره فى حماية ليله وذلك لامتلاء قلبه بالانوار فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الانوار المجتمعة من الليل ويصير قالبه فى قبة من قباب الحق مسددا حركاته موفرة سكناته * وقد ورد من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار ويجوز أن يكون لمعنيين أحدهما ان المشكاة تستنير بالمصباح فاذا صار سراج اليقين فى القلب يزهر بكثرة زيت العمل بالليل فيزداد المصباح اشراقا وتكتسب

به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم فكيف اذا عرف أنه فى نفسه من التراب والدم والاشياء القذرة التى يتنزه عنها وفى نفسه * السبب الثانى التكبر بالجمال ودواؤه أن ينظر الى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر الى الظاهر نظر البهائم ومهما نظر الى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال فانه وكل به الاقذار فى جميع أجزائه الرحيع فى أمعائه والبول فى مثانته والمخاط فى أنفه والبزاق فى فيه والوسخ فى أذنيه والدم فى عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت ابطه يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين ويتردد كل يوم الى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلا عن أن يمسه أو يشمه كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا فى حال توسطه وفى أول أمره خلق من الاقذار الشنيعة الصور من النطفة ودم الحيض وأخرج من مجرى الاقذار اذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مغيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القذر قال أنس رحمه الله كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقذرنا ينا أنفسنا ويقول خرج أحدكم من مجرى البول مرتين وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز ما هذه مشية من فى بطنه خرء اذرآه يتبختر وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه ولو ترك نفسه فى حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الانتان والاقذار وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التى لا تتعهد نفسها قط فاذا نظر أنه خلق من أقذار وأسكن فى أقذار وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الاقذار لم يفتخر بجماله الذى هو كخضراء الدمن وكالنور الازهار فى البوادى فبينما هو كذلك اذ صار هشيما تذروه الرياح كيف ولو كان جماله باقيا وعن هذه القبائح خاليا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح اذ لم يكن قبح القبيح اليه فينفيه ولا كان جمال الجميل اليه حتى يحمد عليه كيف ولا بقاء له بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدرى أو قرحة أو سبب من الاسباب فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الاسباب فعرفة هذه الامور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها * السبب الثالث التكبر بالقوة والايدى ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والامراض وأنه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل وأنه لو سلبه الذباب شيأ لم يستنقذه منه وان بقة لو دخلت فى أنفه أو نملة دخلت فى أذنه لقتلته وان شوكة لو دخلت فى رجله لاعجزته وان حمى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر فى مدة فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغى أن يفتخر بقوته ثم ان قوى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأى افتخار فى صفة يسبقك فيها البهائم * السبب الرابع والخامس الغنى وكثرة المال وفى معناه كثرة الاتباع والانصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الانسان لا كالجمال والقوة والعلم وهذا أقبح أنواع الكبر فان المتكبر بماله كانه متكبر بفرسه وداره ولومات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة فى نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر فان تغير عليه كان أذل الخلق وكل متكبر بامر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل فاف لشرف يسبقك به اليهودى وأف لشرف يأخذه السارق فى لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا فهذه أسباب ليست فى ذاته وما هو فى ذاته ليس اليه دوام وجوده وهو فى الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل وكل ما ليس اليك فليس لك وشئ من هذه الامور ليس اليك بل الى واهبه ان أبقاه بقى لك وان استرجعه زال عنك وما أنت الا عبد مملوك لا تقدر على شئ ومن عرف ذلك لابد وأن يزول كبره ومثاله أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحريته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه اذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وان أبويه كانا مملوكين له فعلم ذلك وحكم به الحاكم فجاء مالكه فاخذه وأخذ جميع ما فى يده وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه فى أمواله وتقصيره فى طلب مالكه ليعرف أن له مالكا ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا فى منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو فى كل حال على وجل من كل واحدة منها وقد

مشكاة القالب نور اوضياء كان يقول سهل بن عبد الله اليقين نار والاقرار فتيلة والعمل زيت وقد قال الله تعالى سيماهم فى وجوههم من أثر السجود وقال تعالى مثل نوره كمشكاة فيها مصباح فنور اليقين من نور الله فى زجاجة القلب يزداد ضياء بزيت العمل فتبقى زجاجة القلب كالكوكب الدرى وتنعكس أنوار الزجاجة على مشكاة القالب وأيضا بين القلب بنار النور ويسرى لينه الى القالب فيلين القالب للين القلب فيتشابهان لوجود اللين الذى عمهما قال الله تعالى ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وصف الجلود باللين كما

وكماله

يق لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا فى الخلاص البتة أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكماله أم تذل نفسه و يخضع وهذا حال كل عاقل بصير فانه يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته و بدنه وأعضاءه وماله وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هى كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته اذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة فهذا طريق علاج التكبر بالاسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل فانهما كالان فى النفس جديران بأن يفرح بهما ولكن التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفى كما سنذكره * السبب السادس الكبر بالعلم وهو أعظم الآفات وأغلب الادواء وأبعدها عن قبول العلاج الا بشدة شديدة وجهد جهيد وذلك لان قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما بل لا قدر لهما أصلا الا اذا كان معهما علم وعمل ولذلك قال كعب الاحبار ان للعلم طغيانا كطغيان المال وكذلك قال عمر رضى الله عنه العالم اذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالاضافة الى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم ولن يقدر العالم على دفع الكبر الا بمعرفة أمرين أحدهما أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد وانه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم فان من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم بجنايته أخف اذ لم يقض حق نعمة الله عليه فى العلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا أراد به علماء اليهود وقال فى بلعم بن باعوراء واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها حتى بلغ فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث قال ابن عباس رضى الله عنهما أوتى بلعم كتابا فاخلد الى شهوات الارض أى سكن حبه اليها فمثله بالكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أى سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته و يكفى العالم هذا الخطر فاى عالم لم يتبع شهوته وأى عالم لم يأمر بالخير الذى لا يأتيه فهما خطر للعالم عظم قدره بالاضافة الى الجاهل فليتفكر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده فان خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره فهذا بذاك وهو كالملك المخاطر بروحه فى ملكه لكثرة أعدائه فانه اذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرا فكم من عالم يشتهى فى الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه فهذا الخطر يمنع من التكبر فانه ان كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه فكيف يتكبر من هذا حاله فلا ينبغى أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول ياليتنى لم تلدنى أمى و يا أخذ الآخر تبنة من الارض و يقول ياليتنى كنت هذه التبنة و يقول الآخر ليتنى كنت طيرا أوكل و يقول الآخر ليتنى لم أك شيأ مذكورا كل ذلك خوفا من خطر العاقبة فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب ومهما أطال فكره فى الخطر الذى هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كأنه شر الخلق ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها فترك بعضها وأدخل النقصان فى بعضها وشك فى بعضها أنه هل أداها على ما ترتضيه سيده أم لا فاخبره مخبر أن سيده أرسل اليه رسولا يخرجه من كل ما هو فيه عريا ذليلا و يلقيه على بابه فى الحر والشمس زمانا طويلا حتى اذا ضاق عليه الامر و بلغ به المجهود أمر برفع حسابه وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثم أمر به الى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدرى من أى الفريقين يكون فاذا تفكر فى ذلك انكسرت نفسه وذل و بطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب فكذلك العالم اذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه

(١) حديث يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه الحديث متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بلفظ يؤتى بالرجل وتقدم فى العلم

وصف القلوب باللين فاذا امتلا القلب بالنور ولان القالب بما يسرى فيه من الانس والسرور يندرج الزمان والمكان فى نور القلب و يندرج فيه الكلم والآيات والسور وتشرق الارض أرض القالب بنور ربها اذ يصير القلب سماء والقالب أرضا ولذة تلاوة كلام الله فى محل المناجاة تستركون الكائنات والكلام المجيد بكونه ينوب عن سائر الوجود فى مزاحمة صفو الشهود فلا يبقى حينئذ للنفس حديث ولا يسمع للهاجس حسيس وفى مثل هذه الحالة يتصور تلاوة القرآن من فاتحته الى خاتمته من غير وسوسة

وحديث نفس وذلك هو الفضل العظيم * الوجه الثانى لقوله عليه السلام من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار معناه أن وجوه أموره التى يتوجه اليها تحسن وتتداركه المعونة من الله الكريم فى تصاريفه ويكون معانا فى مصدره وموارده فيحسن وجه مقاصده وأفعاله ويتنظم فى سلك السداد مسددا أقواله لان الاقوال تستقيم باستقامة القلب

(الباب السادس والاربعون فى ذكر الاسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم)

فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب

و بذنوب فى باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره وعلم ما هو بصدد من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة * الامر الثانى أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق الا بالله عز وجل وحده وأنه اذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له ان لك عندى قدرا مالم ترلنفسك قدرا فان رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندى فلا بد وان يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه وهذا يزيل التكبر عن قلبه وان كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلا أو تصور ذلك وبهذا زال التكبر عن الانبياء عليهم السلام اذ علموا أن من نازع الله تعالى فى رداء الكبرياء قصمه وقد أمرهم الله بان يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم فهذا أيضا مما يبعثه على التواضع لا محالة فان قلت فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى وكيف يغنيه ان يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم ان خطر الفاسق والمبتدع أكثر فاعلم ان ذلك انما يمكن بالتفكر فى خطر الخاتمة بل لو نظر الى كافر لم يمكنه ان يتكبر عليه اذ يتصور ان يسلم الكافر فيختم له بالايمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله فى الآخرة والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدرى ذلك فكم من مسلم نظر الى عمر رضى الله عنه قبل اسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الاسلام وفاق جميع المسلمين الا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل الا الى العاقبة وجميع الفضائل فى الدنيا تراد للعاقبة فاذا من حق العبد ان لا يتكبر على أحد بل ان نظر الى جاهل قال هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر منى وان نظر الى عالم قال هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله وان نظر الى كبير هو أكبر منه سنا قال هذا قد أطاع الله قبلى فكيف أكون مثله وان نظر الى صغير قال انى عصيت الله قبله فكيف أكون مثله وان نظر الى مبتدع أو كافر قال ما يدرينى لعله يختم له بالاسلام و يختم لى بما هو عليه الآن فليس دوام الهداية الى كما لم يكن ابتداؤها الى فبملاحظة الخاتمة يقدر على ان ينفى الكبر عن نفسه وكل ذلك بان يعلم ان الكمال فى سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر فى الدنيا مما لا بقاء له ولعمرى هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة الى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته لا ان يشتغل بخوف غيره فان الشفيق بسوء الظن مولع وشفقة كل انسان على نفسه فاذا حبس جماعة فى جناية ووعدوا بان تضرب رقابهم لم يتفرغوا التكبر بعضهم على بعض وان عمهم الخطر اذ شغل كل واحد هم نفسه عن الالتفات الى هم غيره حتى كأن كل واحد هو وحده فى مصيبته وخطره فان قلت فكيف أبغض المبتدع فى الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض فاعلم ان هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق اذ يمتزج غضبك لله فى انكار البدعة والفسق بكبر النفس والادلال بالعلم والورع فكم من عابد جاهل وعالم مغرور اذا رأى فاسقا جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عنه بكبر باطن فى نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله كما وقع لعابد بنى اسرائيل مع خليعهم وذلك لان الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فان الغضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب وأحدهما يثمر الآخر و بوجبه وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما الا الموفقون والذى يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور أحدها التفاتك الى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عندك قدرك فى عينك والثانى أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث انها نعمة من الله تعالى عليك فله المنة فيه لا لك فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك واذا لم تعجب لم تتكبر والثالث ملاحظة ابهام عاقبتك وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء و يختم له بالحسنى حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه فان قلت فكيف أغضب مع هذه الاحوال فاقول تغضب لمولاك وسيدك اذا أمرك أن تغضب له لا لنفسك وأنت فى غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من

خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة وأعرفك ذلك بمثال لتعلم انه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فاقول اذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه وأمره أن يضرب به مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ويغضب عليه فان كان الغلام محبا مطيعا لمولاه فلا يجد بدا من أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الادب وانما يغضب عليه لمولاه ولانه أمره به ولانه يريد التقرب بامتثال أمره اليه ولانه جرى من ولده ما يكره مولاه فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه لان الولد أعز لا محالة من الغلام فاذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع فكذلك يمكنك ان تنظر الى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما فى الآخرة عند الله أعظم لما سابق لهما من الحسنى فى الازل ولما سبق لك من سوء القضاء فى الازل وأنت غافل عنه ومع ذلك فتغضب بحكم الامر محبة لمولاك اذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك فى الآخرة فهكذا يكون بغض العلماء الاكياس فينضم اليه الخوف والتواضع وأما المغرور فانه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة وذلك غاية الغرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الامر ﴿السبب السابع﴾ التكبر بالورع والعبادة وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد وسببه أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغى أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم وقد قال تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقال صلى الله عليه وسلم (١) فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى الى غير ذلك مما ورد فى فضل العلم فان قال العابد ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر فيقال له أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه وكل واحد منهما ممكن وقد وردت الاخبار بما يشهد لذلك واذا كان هذا الامر غائبا عنه لم يجز له أن يحتقر العالم بل يجب عليه التواضع له فان قلت فان صح هذا فينبغى أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى فاعلم ان ذلك كان يمكننا لو علم العالم عاقبة أمره وخاتمة الامر مشكوك فيها فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقته به واذا كان هذا ممكنا كان على نفسه خائفا فاذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه وقد كفاه أمر نفسه لا أمر غيره فينبغى أن يكون الغالب عليه فى حق نفسه الخوف وفى حق غيره الرجاء وذلك يمنعه من التكبر بكل حال فهذا حال العابد مع العالم فاما مع غير العالم فهم منقسمون فى حقه الى مستورين والى مكشوفين فينبغى أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله وأما المكشوف حاله ان لم يظهر لك من الذنوب الا ما تزيد عليه ذنوبك فى طول عمرك فلا ينبغى أن تتكبر عليه ولا يمكن أن تقول هو أكثر منى ذنبا لان عدد ذنوبك فى طول عمرك وذنوب غيرك فى طول العمر لا تقدر على احصائها حتى تعلم الكثرة نعم يمكن أن تعلم ان ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والزنا ومع ذلك فلا ينبغى أن تتكبر عليه اذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة فى صفات الله تعالى وتخيل الخطا فى ذلك كل ذلك شديد عند الله فربما جرى عليك فى باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عنده ممقوتا وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب لله واخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات فهذا ممكن والامكان البعيد فيما عليك ينبغى أن يكون قريبا عندك أن كنت مشفقا على نفسك فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف فى حقك فانه لا تزر وازرة وزر أخرى وعذاب غيرك لا يخفف شيأ من عذابك فاذا تفكرت فى هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلى على ادنى رجل من أصحابى الترمذى من حديث أبى أمامة وتقدم فى العلم

الشمس بتجديد الوضوء ويقعد مستقبل القبلة منتظرا مجيء الليل وصلاة المغرب مقبلا فى ذلك على أنواع الاذكار ومن أولاها التسبيح والاستغفار قال الله تعالى لنبيه واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار ومن ذلك أن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر وأفضل ذلك الصلاة فانه اذا واصل بين العشاءين ينغسل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة فى أوقات النهار من رؤية الخلق ومخالطتهم وسماع كلامهم فان ذلك كله له أثر وخدش فى القلوب حتى النظر اليهم يعقب كدرا فى القلب

نفسك فوق غيرك وقد قال وهب بن منبه ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال العاشرة وما العاشرة بها ساد مجده وبها علا ذكره أن يرى الناس كلهم خيرا منه وانما الناس عنده فرقتان فرقة هي أفضل منه وأرفع وفرقة هي شر منه وأدنى فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه ان رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به وان رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه الا خائفا من العاقبة ويقول لعل بر هذا الباطن فذلك خير له ولا أدري لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له باحسن الاعمال ويرى ظاهر فذلك شر لي فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فاحبطتها ثم قال فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه فهذا كلامه وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء في الازل بشقوته فما له سبيل الى أن يتكبر بحال من الاحوال نعم اذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة كما روي ان عابدا أوى الى جبل فقيل له في النوم ائت فلانا الاسكاف فسله أن يدعو لك فاتاه فسأله عن عمله فاخبره انه يصوم النهار ويكتسب فيتصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه فرجع وهو يقول ان هذا لحسن ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله فاتى في النوم ثانيا فقيل له ائت فلانا الاسكاف فقل له ما هذا الصفار الذي بوجهك فاتاه فسأله فقال له ما رأيت أحدا من الناس الا وقع لي أنه سينجو وأهلك أنا فقال العابد بهذه والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون أي انهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون وقال تعالى انا كنا قبل في أهلنا مشفقين وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدؤب بالاشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم من خشيته مشفقون فمتى زال الاشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الازل وينكشف عند خاتمة الاجل غلب الامن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الامن والامن مهلك والتواضع دليل الخوف وهو مسعد فاذن ما يفسده العابد باضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر اليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الاعمال فهذه معارف يهتز لها داء الكبر عن القلب لا غير الا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كذبة فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها ونسيت وعدها فعن هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بافعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وان كانت الامتحانات كثيرة * الامتحان الاول أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه فان ظهر شئ من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه واخراجه الحق فذلك يدل على ان فيه كبرا دفينا فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وان الكبر لا يليق الا بالله تعالى وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطاوع اللسان بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلا عنه جزاك الله خيرا كما نهتني له فالحكمة ضالة المؤمن فاذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها فاذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعا وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر فان كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملا فليس فيه كبر وانما فيه رياء فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ويذكر القلب بان منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق الى غير ذلك من أدوية الرياء وان ثقل عليه في الخلوة والملا جميعا ففيه الكبر والرياء جميعا ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني فليعالج كلا الداءين فانهما جميعا مهلكان * الامتحان الثاني أن يجتمع مع الاقران والامثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم فان ثقل عليه ذلك فهو متكبر فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس

بدركه من يرزق صفاء القلب فيكون أثر النظر الى الخلق للبصيرة كالقذى في العين للبصر وبالمواصلة بين العشاءين يرجى ذهاب ذلك الاثر ومن ذلك ترك الحديث بعد العشاء الآخرة فان الحديث في ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث في القلب من مواصلة العشاءين ويفيد عن قيام الليل سيما اذا كان عريا عن يقظة القلب ثم تجديد الوضوء بعد العشاء الاخرة أيضا معين على قيام الليل * حكي لي بعض الفقراء عن شيخ له بخراسان أنه كان يغتسل في الليل ثلاث مرات مرة بعد العشاء

في صف النعال أو يجعل بينه و بين الاقران بعض الارذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فان ذلك يخف على نفوس المتكبرين اذ يوهمون انهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر باظهار التواضع أيضا بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم الى صف النعال فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن * الامتحان الثالث أن يجيب دعوة الفقير و يمر الى السوق في حاجة الرفقاء والاقارب فان ثقل ذلك عليه فهو كبر فان هذه الافعال من مكارم الاخلاق والثواب عليها جزيل فتنفور النفس عنها ليس الا لخبث في الباطن فليشتغل بازالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر * الامتحان الرابع أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق الى البيت فان أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء فان كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر وان كان لا يثقل عليه الا مع مشاهدة الناس فهو رياء وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له ان لم تتدارك وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الاجساد مع أن الاجساد قد كتب عليها الموت لا محالة والقلوب لا تدرك السعادة الا بسلامتها اذ قال تعالى الا من أتى الله بقلب سليم ويروى عن عبد الله بن سلام انه حمل حزمة حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في غلمانك و بنيك ما يكفيك قال أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الانفة حتى جربها أهي صادقة أم كاذبة وفي الخبر(١) من حمل الفاكهة أو الشئ فقد برئ من الكبر * الامتحان الخامس أن يلبس ثيابا بذلة فان نفور النفس عن ذلك في الملا رياء وفي الخلوة كبر وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه له مسح يلبسه بالليل وقد قال صلى الله عليه وسلم(٢) من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر وقال عليه السلام(٣) انما أنا عبد آكل بالارض وألبس الصوف وأعقل البعير وألعق أصابعي وأجيب دعوة المملوك فمن رغب عن سنتي فليس مني وروى أن أبا موسى الاشعري قيل له ان أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم فلبس عباءة فصلى فيها بالناس وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملا فهو الرياء وما يكون في الخلوة فهو الكبر فاعرف فان من لا يعرف الشر لا يتقيه ومن لا يدرك المرض لا يداويه

﴿ بيان غاية الرياضة في خلق التواضع ﴾

اعلم أن هذا الخلق كسائر الاخلاق له طرفان و واسطة فطرفه الذي يميل الى الزيادة يسمى تكبرا وطرفه الذي يميل الى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة والوسط يسمى تواضعا والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس فان كلا طرفي الامور ذميم وأحب الامور الى الله تعالى أوساطها فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع أي وضع شيأ من قدره الذي يستحقه والعالم اذا دخل عليه اسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وغدا الى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهذا أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل وهو أن يعطي كل ذي حق حقه فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لاقرانه ومن يقرب من درجته فاما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال واجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره فاذا سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للاقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه فان خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع وان كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير نقل ومن غير روية فان خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى

(١) حديث من حمل الشئ والفاكهة فقد برئ من الكبر البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بلفظ من حمل بضاعته (٢) حديث من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي اسناده القاسم اليعمري ضعيف جدا (٣) حديث انما أنا عبد آكل بالارض وألبس الصوف الحديث تقدم بعضه ولم أجد بقيته

الآخرة ومرة في أثناء الليل بعد الانتباه من النوم ومرة قبل الصبح فللوضوء والغسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر في تيسير قيام الليل ومن ذلك التعود على الذكر أو القيام بالصلاة حتى يغلب النوم فان التعود على ذلك يعين على سرعة الانتباه الا أن يكون واثقا من نفسه وعادته فيتعمل للنوم و يستجلبه ليقوم في وقته المعهود والافالنوم عن الغلبة هو الذي يصلح للمريدين والطالبين و بهذا وصف المحبون قيل نومهم نوم الغرقى وأكلهم أكل المرضى وكلامهم ضرورة فمن نام عن غلبة بهم مجتمع متعلق

أحب التملق والتخاسس فقد خرج الى طرف النقصان فليرفع نفسه اذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه الى أن يعود الى الوسط الذى هو الصراط المستقيم وذلك غامض فى هذا الخلق وفى سائر الاخلاق والميل عن الوسط الى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل الى طرف الزيادة بالتكبر كما أن الميل الى طرف التبذير فى المال أحد عند الناس من الميل الى طرف البخل فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر والمحمود المطلق هو العدل ووضع الامور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع

﴿الشطر الثانى من الكتاب﴾ فى العجب وفيه بيان ذم العجب وآفاته وبيان حقيقة العجب والادلال وحدهما وبيان علاج العجب على الجملة وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

﴿بيان ذم العجب وآفاته﴾

اعلم أن العجب مذموم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ ذكر ذلك فى معرض الانكار وقال عز وجل وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فرد على الكفار فى اعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وهذا أيضا يرجع الى العجب بالعمل وقد يعجب الانسان بعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه وقال صلى الله عليه وسلم (١) ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وقال لابى ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الامة فقال (٢) اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك وقال ابن مسعود الهلاك فى اثنتين القنوط والعجب وانما جمع بينهما لان السعادة لا تنال الا بالسعى والطلب والجد والتشمر والقانط لا يسعى ولا يطلب والمعجب يعتقد انه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى فالموجود لا يطلب والمحال لا يطلب والسعادة موجودة فى اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة فى اعتقاد القانط فمن ههنا جمع بينهما وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم قال ابن جريج معناه اذا عملت خيرا فلا تقل عملت وقال زيد بن أسلم لا تبرؤها أى لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه فكأنه أعجبه فعله العظيم اذ فداه بروحه حتى جرح فتفرس ذلك عمر فيه فقال ما زال يعرف فى طلحة نأومنذ أصيبت اصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والنأو هو العجب فى اللغة الا أنه لم ينقل فيه انه أظهره واحتقر مسلما ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس أين أنت من طلحة قال ذلك رجل فيه نخوة فاذا كان لا يتخاص من العجب أمثالهم فكيف يتخاص الضعفاء ان لم يأخذوا حذرهم وقال مطرف لان أبيت نائما وأصبح نادما أحب الى من أن أبيت قائما وأصبح معجبا وقال صلى الله عليه وسلم (٤) لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب فجعل العجب أكبر الذنوب وكان بشر بن منصور من الذين اذا رؤا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لما واظبته على العبادة فأطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر فلما انصرف عن الصلاة قال له لا يعجبنك ما رأيت منى فان ابليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار الى ما صار اليه وقيل لعائشة رضى الله عنها متى يكون الرجل مسيئا قالت اذا ظن انه محسن وقد قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى

بقيام الليل يوفق لقيام الليل وانما النفس اذا أطمعت ووطنت على النوم استرسلت فيه واذا أزعجت بصدق العزيمة لا تسترسل فى الاستقرار وهذا الانزعاج فى النفس بصدق العزيمة هو التجافى الذى قال الله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع لان الهم بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنب والمضجع نبوا وتجافيا وقد قيل للنفس نظران نظر الى تحت لاستيفاء الاقسام البدنية ونظر الى فوق لاستيفاء الاقسام العلوية الروحانية فارباب العزيمة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم الى فوق الى

(١) حديث ثلاث مهلكات الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث أبى ثعلبة اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وقد تقدم (٣) حديث وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه البخارى من رواية قيس بن أبى حازم قال رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى صلى الله عليه وسلم (٤) حديث لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبى الصهباء قال البخارى منكر الحديث وقال أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس

والمنّ نتيجة استعظام الصدقة واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا ان العجب مذموم جدا!

﴿بيان آفة العجب﴾

اعلم ان آفات العجب كثيرة فان العجب يدعو الى الكبر لانه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى هذا مع أمر الله تعالى فالعجب يدعو الى نسيان الذنوب واهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه انه مستغن عن تفقدها فينساها ومايتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له وأما العبادات والأعمال فانه يستعظمها و يتبجح بها و يمن على الله بفعلها و ينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ثم اذا أعجب بها عمى عن آفاتها ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا فان الأعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب فلما تنفع وانما يتفقد من يغلب عليه الاشفاق والخوف دون العجب والمعجب يغتر بنفسه و برأيه و يأمن مكر الله وعذابه و يظن انه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة من نعمه وعطية من عطاياه و يخرجه العجب الى أن يثني على نفسه و يحمدها و يزكيها وان أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه و يستنكف من سؤال من هو أعلم منه ور بما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر الى غيره بعين الاستجهال و يصر على خطئه فان كان رأيه فى أمر دنيوى فيحقق فيه وان كان فى أمر دينى لا سيما فيما يتعلق باصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله الى الحق فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات ومن أعظم آفاته أن يفتر فى السعى لظنه انه قد فاز وانه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته

﴿بيان حقيقة العجب والادلال وحدهما﴾

اعلم ان العجب انما يكون بوصف هو كمال لا محالة وللعالم بكمال نفسه فى علم وعمل ومال وغيره حالتان احداهما أن يكون خائفا على زواله ومشفقا على تكدره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب والاخرى أن لا يكون خائفا من زواله لكن يكون فرحا به من حيث انه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث اضافته الى نفسه وهذا أيضا ليس بمعجب وله حالة ثالثة هى العجب وهى أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنا اليه و يكون فرحه به من حيث انه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث انه عطية من الله تعالى ونعمة منه فيكون فرحه به من حيث انه صفته ومنسوب اليه بانه له لا من حيث انه منسوب الى الله تعالى بأنه منه فهما غلب على قلبه انه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه فاذا العجب هو استعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم فان انضاف الى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا واستبعد أن يجرى عليه مكروه استبعادا يدعو على استبعاده ما يجرى على الفساق سمى هذا ادلالا بالعمل فكأنه يرى لنفسه على الله دالة وكذلك قد يعطى غيره شيأ فيستعظمه و يمن عليه فيكون معجبا فان استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه وقال قتادة فى قوله تعالى ولا تمنن تستكثر أى لا تدل بعملك وفى الخبر(١) ان صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ولان تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكى وأنت مدل بعملك والادلال وراء العجب فلا مدل الا وهو معجب ورب معجب لا يدل اذ العجب يحصل بلا استعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه والادلال لا يتم الا مع توقع جزاء فان توقع اجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله لانه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق و يتعجب من رد دعاء نفسه لذلك فهذا هو العجب

(١) حديث ان صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه الحديث لم أجد له أصلا من حديث أبى سعيد بسند ضعيف جدا

الاقسام العاوية الرحمانية فاعطوا النفوس حقها من النوم ومنعوها حظها فالنفس بما فيها مركوز من الترابية والجمادية ترسب وتستحلس وتستلذ النوم قال الله تعالى هو الذى خلقكم من تراب وللآدمى بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له والرسوب صفة التراب والكسل والتقاعد والتناوم بسبب ذلك طبيعة فى الانسان فارباب الهمة أهل العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم فى قوله تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون

والادلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه والله تعالى أعلم

﴿بيان علاج العجب على الجملة﴾

اعلم ان علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق واصلاحهم فان العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب ومالا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه فنقول الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب انما يعجب به من حيث انه فيه فهو محله ومجراه أو من حيث انه منه و بسببه و بقدرته وقوته فان كان يعجب به من حيث انه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل لان المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الايجاد والتحصيل فكيف يعجب بما ليس اليه وان كان يعجب به من حيث انه هو منه واليه وباختياره حصل و بقدرته تم فينبغي أن يتأمل في قدرته وارادته وأعضائه وسائر الاسباب التي بها تتم عمله انها من أين كانت له فان كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون اعجابه بجود الله وكرمه وفضله اذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فهما برز الملك لغلامه ونظر اليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة فينبغي أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وايثاره من غير استحقاق واعجابه بنفسه من أين وماسببه ولا ينبغي أن يعجب هو بنفسه نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر الا لسبب فلولا أنه تفطن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الايثار بالخلعة ولما آثرني بها فيقال وتلك الصفة أيضا هي من خلعة الملك وعطيته التي خصك بها من غيرك من غير وسيلة أوهي عطية غيره فان كانت من عطية الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به فاعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول انما أعطاني غلاما لاني صاحب فرس فاما غيري فلا فرس له فيقال وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر فاذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك وأما ان كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد ان تعجب بتلك الصفة وهذا يتصور في حق الملوك ولا يتصور في حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بايجاد الموصوف والصفة فانك ان أعجبت بعبادتك وقلت وفقني للعبادة لحبي له فيقال ومن خلق الحب في قلبك فستقول هو فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك اذ لا وسيلة لك ولا علاقة فيكون الاعجاب بجوده اذا نعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك فاذا لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه لان كل ذلك من فضل الله وانما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده والمحل أيضا من فضله وجوده فان قلت لا يمكنني أن أجهل أعمالي وانى أنا عملتها فانى أنتظر عليها ثوابا ولولا انها عملي لما انتظرت ثوابا فان كانت الاعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب وان كانت الاعمال مني و بقدرتي فكيف لا أعجب بها فاعلم ان جوابك من وجهين أحدهما هو صريح الحق والآخر فيه مسامحة أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك وارادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه فما عملت اذ عملت وما صليت اذ صليت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى فهذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من أبصار العين بل خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الارادة ولو أردت ان تنفي شيأ من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ثم خلق الحركات في أعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع الا انه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القلب ارادة ولم يخلق ارادة ما لم يخلق علما بالمراد ولم يخلق علما ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم فتدبره في الخلق شيأ بعد شيء هو الذي خيل لك انك أوجدت عملك وقد غلطت وايضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل

حكم هؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم فهم لموضع علمهم أزعجوا النفوس عن مقار طبيعتها ورقوها بالنظر الى الملذات الروحانية الى ذرا حقيقتها فتجافت جنوبهم عن المضاجع وخرجوا من صفة الغافل الهاجع (ومن ذلك) أن يغير العادة فان كان ذا وسادة يترك الوسادة وان كان ذا وطاء يترك الوطاء وقد كان بعضهم يقول لأن أرى في بيتي شيطانا أحب الى من أن أرى وسادة فانها تدعوني الى النوم ولتغيير العادة في الوسادة والغطاء والوطاء تأثير في ذلك ومن ترك شيأ من ذلك والله عالم بنيته وعزيمته

هو من خلق الله سيأتى تقريره فى كتاب الشكر فانه ألبق به فارجع اليه ونحن الآن نزيل اشكالك بالجواب الثانى الذى فيه مسامحة ما وهو ان تحسب ان العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ولا يتصور العمل الا بوجودك ووجود عملك وارادتك وقدرتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لامنك فان كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل فالعبادات خزائن بها يتوصل الى السعادات ومفاتيحها القدرة والارادة والعلم وهى بيد الله لا محالة أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة فى قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك ان تنظر الى دينار مما فيها ولو أعطاك المفتاح لاخذته من قريب بان تبسط يدك اليه فتأخذه فقط فاذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت يدك وأخذتها كان اعجابك باعطاء الخازن المفاتيح أو بما اليك من مد اليد وأخذها فلا تشك فى انك ترى ذلك نعمة من الخازن لان المؤنة فى تحريك اليد بأخذ المال قريبة وانما الشأن كله فى تسليم المفاتيح فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الارادة الجازمة وحركت الدواعى والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف حتى لم يبق صارف الا دفع ولا باعث الا وكل بك فالعمل هين عليك وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شئ منها اليك فمن العجائب ان تعجب بنفسك ولا تعجب بمن اليه الامر كله ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه فى ايثاره اياك على الفساق من عباده اذ سلط دواعى الفساد على الفساق وصرفها عنك وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وساطها عليك حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصى بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصى وأشقاه بعدله فما أعجب اعجابك بنفسه اذا عرفت ذلك فاذا لا تنصرف قدرتك الى المقدور الا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا الى مخالفتها فكأنه الذى اضطرك الى الفعل ان كنت فاعلا لتحقيقا فله الشكر والمنة لا لك وسيأتى فى كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به انه لا فاعل الا الله ولا خالق سواه والعجب ممن يتعجب اذا رزقه الله عقلا وأفقره ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول كيف منعنى قوت يومى وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل حتى يكاد يرى هذا ظلما ولا يدرى المغرور انه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه فى ظاهر الحال اذ يقول الجاهل الفقير يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتنى منهما فهلا جمعتهما لى أو هلا رزقتنى أحدهما والى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له ما بال العقلاء فقراء فقال ان عقل الرجل محسوب عليه من رزقه والعجب أن العاقل الفقير يرى بعين الجاهل الغنى أحسن حالا من نفسه ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك لامتنع عنه فاذا ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر فلم يتعجب من ذلك والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الدمية القبيحة فتتعجب وتقول كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح ولا تدرى المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها وانها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال فاذن نعمة الله عليها أكبر وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه يارب لم حرمتنى الدنيا وأعطيتها الجهال كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول أيها الملك لم لا تعطينى الغلام وأنا صاحب فرس فيقول كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس فهب أنى ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتى عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل وبزوال ذلك بالعلم المحقق بان العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق وهذا ينفى العجب والادلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله اذ يعلم ان ذلك من الله تعالى ولذلك قال داود عليه السلام يارب ما تأتى ليلة الا وانسان من آل داود قائم ولا يأتى يوم الا وانسان من آل داود صائم

يشبه على ذلك بتيسير مارام (ومن ذلك) خفة المعدة من الطعام ثم تناول ما يأكل من الطعام اذا اقترن بذكر الله ويقظة الباطن أعان على قيام الليل لان بالذكر يذهب داؤه فان وجد للطعام ثقلا على المعدة ينبغى أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر فلا ينام حتى يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار (قال) بعضهم لان أنقص من عشائى لقمة أحب الى من أن أقوم ليلة والأحوط أن يوتر قبل النوم فانه لا يدرى ماذا يحدث وبعد طهوره وسواكه عنده ولا يدخل النوم الا وهو

وفى رواية ما مر ساعة من ليل أو نهار الا وتابد من آل داود يعبدك اما يصلى واما يصوم واما يذكرك فأوحى الله تعالى اليه يا داود ومن أين لهم ذلك ان ذلك لم يكن الا فى ولولا عونى اياك ما قويت وسأكلك الى نفسك قال ابن عباس انما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله اذ أضافه الى آل داود مدلا به حتى وكل الى نفسه فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم وقال داود يارب ان بنى اسرائيل يسألونك بابراهيم واسحق ويعقوب فقال انى ابتليتهم فصبروا فقال يارب وأنا ان ابتليتنى صبرت تأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى فانى لم أخبرهم بأى شئ أبتليهم ولا فى أى شهر ولا فى أى يوم وأنا مخبرك فى سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غدا بامرأة فاحذر نفسك فوقع فيما وقع فيه وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لا نغلب اليوم من قلة وكلوا الى أنفسهم فقال تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * وروى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال الهى انك ابتليتنى بهذا البلاء وما ورد على أمر الا آثرت هواك على هواى فنودى من غمامة بعشرة آلاف صوت يا أيوب أنى لك ذلك أى من أين لك ذلك قال فأخذ رمادا ووضعه على رأسه وقال منك يارب منك يارب فرجع من نسيانه الى اضافة ذلك الى الله تعالى ولهذا قال الله تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا وقال النبى صلى الله عليه وسلم لاصحابه وهم خير الناس (٢) ما منكم من أحد ينجيه عمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابا وتبنا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم فكيف يكون لذى بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه فاذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الاعجاب بها بل هو ينظر الى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الايمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل فيخاف من ذلك فيقول ان من لا يبالى أن يحرم من غير جناية ويعطى من غير وسيلة لا يبالى أن يعود ويسترجع ما وهب فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء وهذا لا يبقى معه عجب بحال والله تعالى أعلم -

﴿ بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه ﴾

اعلم أن العجب بالاسباب التى بها يتكبر كما ذكرناه وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأى الخطأ الذى يزين له بجهله فما به العجب ثمانية أقسام * الأول أن يعجب ببدنه فى جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته وبالجملة تفصيل خلقته فيلتفت الى جمال نفسه وينسى انه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال فى كل حال وعلاجه ما ذكرناه فى الكبر بالجمال وهو التفكر فى أقذار باطنه وفى أول أمره وفى آخره وفى الوجوه الجميلة والابدان الناعمة انها كيف تمزقت فى التراب وأنتنت فى القبور حتى استقذرتها الطباع * الثانى البطش والقوة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم من أشد منا قوة وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام فنقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت فى عنقه وقد يتكل المؤمن أيضا على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال (٣) لاطوفن الليلة على مائة امرأة ولم يقل ان شاء الله تعالى فحرم ما أراد من الولد وكذلك قول داود عليه السلام ان ابتليتنى صبرت وكان اعجابا منه بالقوة فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر ويورث العجب بالقوة الهجوم فى الحروب والقاء النفس فى التهلكة والمبادرة الى الضرب

(١) حديث قولهم يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة البيهقى فى دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلا أن رجلا قال يوم حنين لن نغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم ولابن مردويه فى تفسيره من حديث أنس لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا اليوم نقاتل فنروا فيه الفرح بن فضالة ضعفه الجمهور (٢) حديث ما منكم من أحد ينجيه عمله الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٣) حديث قال سليمان لأطوفن الليلة بمائة امرأة الحديث البخارى من حديث أبى هريرة

على الطهارة (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه الى العرش فكانت رؤياه صادقة وان لم ينم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ فتكون المنامات أضغاث أحلام لا تصدق والمريد المتأهل اذا نام فى الفراش مع الزوجة ينتقض وضوءه بالمس ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة مالم يسترسل فى التذاذ النفس بالمس ولا يعدم يقظة القلب فأما اذا استرسل فى الالتذاذ وغفل فتحجب الروح أيضا لمكان صلافته ومن الطهارة التى تثمر صدق الرؤيا

والفتل لكل من قصده بالسوء وعلاجه ماذكرناه وهو أن يعلم أن حي يوم تضعف قوته وانه اذا أعجب بهار بما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه * الثالث العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ويخرج الى قلة الاصغاء الى أهل العلم اعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل واستحقارا لهم واهانة وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ويتفكر انه بادنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه فلا يأمن أن يسلب عقله ان أعجب به ولم يقم بشكره وليستقصر عقله وعلمه وليعلم أنه ما أوتى من العلم الا قليلا وان اتسع علمه وان ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى وان يتهم عقله وينظر الى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدرى فان القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله فينبغى أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ومن أعدائه لا من أصدقائه فان من يداهنه يثنى عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه الا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجبا * الرابع العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية حتى يظن بعضهم انه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وانه مغفور له ويتخيل بعضهم ان جميع الخلق له موال وعبيد وعلاجه ان يعلم انه مهما خالف آباءه فى أفعالهم وأخلاقهم وظن انه ملحق بهم فقد جهل وان اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والازراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به وقد ساواهم فى النسب وشاركهم فى القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر وكانوا عند الله شرا من الكلاب وأخس من الخازير ولذلك قال تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى أى لا تفاوت فى أنسابكم لاجتماعكم فى أصل واحد ثم ذكر فائدة النسب فقال وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ثم بين ان الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ان أكرمكم عند الله أتقاكم ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (١) من أكرم الناس من أكيس الناس لم يقل من ينتمى الى نسبى ولكن قال أكرمهم أكثرهم للموت ذكرا وأشدهم له استعدادا وانما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد ابن أسيد هذا العبد الاسود يؤذن فقال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٢) ان الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية أى كبرها كلكم بنو آدم وآدم من تراب وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٣) يا معشر قريش لا تأتى الناس بالاعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فأقول هكذا أى أعرض عنكم فبين انهم ان مالوا الى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش ولما نزل قوله تعالى (٤) وأنذر عشيرتك الاقربين ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعملا لانفسكما فانى لا أغنى عنكما من الله شيأ فمن عرف هذه الامور وعلم ان شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم فى التقوى والتواضع والا كان طاعنا فى نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى اليهم ولم يشبههم فى التواضع والتقوى والخوف والاشفاق فان قلت فقد قال صلى الله عليه وسلم (٥) بعد قوله لفاطمة وصفية انى لا أغنى عنكما من الله شيأ الا

(١) حديث لما قيل له من أكرم الناس من أكيس الناس قال أكثرهم للموت ذكرا الحديث ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله وأكرم الناس وهو بهذه الزيادة عند ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت آخر الكتاب (٢) حديث ان الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية الحديث أبو داود والترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة ورواه الترمذى أيضا من حديث ابن عمر وقال غريب (٣) حديث يا معشر قريش لا يأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم الحديث الطبرانى من حديث عمران بن حصين الا انه قال يا معشر بنى هاشم وسنده ضعيف (٤) حديث لما نزل قوله تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة (٥) حديث قوله بعد قوله المتقدم لفاطمة وصفية الا ان لكما رحما سأبلها ببلالها مسلم

طهارة الباطن عن خدش الهوى وكدورة محبة الدنيا والتنزه عن انجاس الغل والحقد والحسد وقد ورد من أوى الى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم واذا طهرت النفس عن الرذائل انجلت مرآة القلب وقابل اللوح المحفوظ فى النوم وانتقشت فيه عجائب الغيب وغرائب الأنباء ففى الصديقين من يكون له فى منامه مكالمة ومحادثة فيأمره الله تعالى وينهاه ويفهمه فى المنام ويعرفه ويكون موضع ما يفتح له فى نومه من الأمر والنهى كالأمر والنهى الظاهر يعصى الله تعالى

أن لكم رحماً بلها ببلالها وقال عليه الصلاة والسلام (١) أترجو سليم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب فذلك يدل على انه سيخص قرابته بالشفاعة فاعلم ان كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والنسب أيضا جدير بأن يرجو لكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه فانه ان يغضب عليه فلا يأذن لاحد في شفاعته لان الذنوب منقسمة الى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له والى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة كالذنوب عند ملوك الدنيا فان كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك فمن الذنوب ما لا تنجي منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى وبقوله من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه وبقوله ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له وبقوله فما تنفعهم شفاعة الشافعين واذا انقسمت الذنوب الى ما يشفع فيه والى ما لا يشفع فيه وجب الخوف والاشفاق لا محالة ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشا بالطاعة ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها عن المعصية ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتتكمل لذاتها في الآخرة فالانهماك في الذنوب وترك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتمادا على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره وذلك جهل لان سعي الطبيب وهمته وحذقه تنفع في ازالة بعض الامراض لا في كلها فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرد الطب بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الامراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الانبياء والصلحاء للاقارب والاجانب فانه كذلك قطعا وذلك لا يزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اياهم بالجنة خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم * الخامس العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وانهم الممقوتون عند الله تعالى ولو نظر الى صورهم في النار وأتتانهم واقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب اليهم ولأنكر على من نسبه اليهم استقذارا واستحقارا لهم ولو انكشف له ذلهم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرونهم على وجوههم الى جهنم في مظالم العباد لتبرأ الى الله منهم ولكان انتسابه الى الكلاب والخنازير أحب اليه من الانتساب اليهم فحق أولاد الظلمة ان عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم ان كانوا مسلمين فأما العجب بنسبهم فجهل محض * السادس العجب بكثرة العدد من الاولاد والخدم والغلمان والعشيرة والاقارب والانصار والاتباع كما قال الكفار نحن أكثر أموالا وأولادا وكما قال المؤمنون يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وان كلهم عبيد عجزة لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ثم كيف يعجب بهم وانهم سيفترقون عنه اذا مات فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير فيسلمونه الى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيأ وهو في أحوج أوقاته اليهم وكذلك يهربون منه يوم القيامة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه الآية فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط الا عملك وفضل الله تعالى فكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك * السابع العجب بالمال كما قال تعالى اخبارا عن صاحب الجنتين اذ قال أنا

ان أخل بهما بل تكون هذه الأوامر آكد وأعظم وفعالان المخالفات الظاهرة تمحوها التوبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وهذه أوامر خاصة تتعلق بحاله فيما بينه وبين الله تعالى فاذا أخل بها يخشى أن ينقطع عليه طريق الارادة ويكون في ذلك الرجوع عن الله واستيجاب مقام المقت فان ابتلى العبد في بعض الأحايين بكسل وفتور عزيمة يمنع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث يمسح أعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج بهذا القدر عن زمرة الغافلين حيث تقاعد عن فعل

من حديث أبي هريرة بلفظ غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها (١) حديث أترجو سليم شفاعتي ولا ترجوها بنو عبد المطلب الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر وفيه اصرم بن حوشب عن اسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جدا

أكثر منك مالا وأعز نفرا ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) رجلا غنيا جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام أخشيت أن يعدو اليك فقره وذلك للعجب بالغنى وعلاجه أن يتفكر فى آفات المال وكثرة حقوقه وعظم غوائله وينظر الى فضيلة الفقراء وسبقهم الى الجنة فى القيامة والى ان المال غادور ائح ولا أصل له والى أن فى اليهود من يزيد عليه فى المال والى قوله عليه الصلاة والسلام (٢) بينما رجل يتبختر فى حلته قد أعجبته نفسه اذ أمر الله الارض فأخذته فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة أشار به الى عقوبة اعجابه بماله ونفسه وقال أبو ذر كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) فدخل المسجد فقال لى يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت رأسى فاذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال ارفع رأسك فرفعت رأسى فاذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لى يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الارض مثل هذا وجميع ما ذكرناه فى كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الاغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره فى القيام بحقوق المال فى أخذه من حله ووضعه فى حقه ومن لا يفعل ذلك فصيره الى الخزى والبوار فكيف يعجب بماله * الثامن العجب بالرأى الخطأ قال الله تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا وقال تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) أن ذلك يغلب على آخر هذه الامة وبذلك هلكت الامم السالفة اذ افترقت فرقا فكل مججب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون وجميع أهل البدع والضلال انما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق اليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لان صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ولا يعالج الداء الذى لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا الا ان العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه الا اذا كان معجبا برأيه وجهله فانه لا يصغى الى العارف وربما فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته فى اعتقاده وانما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا لا يغتر به الا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلى صحيح جامع لشروط الادلة ولن يعرف الانسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها الا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمر فى الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لاهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الامور والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره فى العلم أن لا يخوض فى المذاهب ولا يصغى اليها ولا يسمعها ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل بل يقول آمنا وصدقنا ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصى وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الاعمال فان خاض فى المذاهب والبدع والتعصب فى العقائد هلك من حيث لا يشعر هذا حق كل من عزم على أن يشتغل فى عمره بشئ غير العلم فاما الذى عزم على التجرد للعلم فاول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الامر فيه والوصول الى اليقين والمعرفة فى أكثر المطالب شديد لا يقدر عليه الا الاقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدا فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده

(١) حديث رأى النبى صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس لجنبه فقير فانقبض منه الحديث رواه أحمد فى الزهد (٢) حديث بينما رجل فى حلة قد أعجبته نفسه الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٣) حديث أبى ذر كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لى يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت رأسى الحديث وفيه هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا ابن حبان فى صحيحه (٤) حديث انه يغلب على آخر هذه الامة الاعجاب بالرأى هو حديث أبى ثعلبة المتقدم فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وهو عند أبى داود والترمذى

المتيقظين وهكذا اذا كسل عن القيام عقيب الانتباه يجتهد أن يستاك ويمسح أعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج فى تقلباته وانتباهاته عن زمرة الغافلين ففى ذلك فضل كثير لمن كثر نومه وقل قيامه (روى) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل نوم وعند الانتباه منه ويستقبل القبلة فى نومه وهو على نوعين فاما على جنبه الأيمن كالملحود واما على ظهره مستقبلا للقبلة كالميت المسجى ويقول باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه اللهم ان أمسكت

وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ كتاب ذم الغرور وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذي بيده مقاليد الامور وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور مخرج أوليائه من الظلمات الى النور ومورد أعدائه ورطات الغرور والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور صلاة تتوالى على ممر الدهور ومكر الساعات والشهور ﴿ أما بعد ﴾ فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الايمان والمعرفة ولا وسيلة اليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ولا داعي اليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة فالاكياس وأرباب البصائر قلوبهم كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور والمغترون قلوبهم كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فالاكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للاسلام والهدى والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا واذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فاتخذ منها حذره وبنى على الحزم والبصيرة أمره ونحن نشرح أجناس مجاري الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادي الامور الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها ونشير الى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها فان ذلك وان كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصا وفرق المغترين كثيرة ولكن يجمعهم أربعة أصناف الصنف الاول من العلماء الصنف الثاني من العباد الصنف الثالث من المتصوفة الصنف الرابع من أرباب الاموال والمغترون كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة فمنهم من رأى المنكر معروفا كالذي يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه ومنهم من يترك الاهم ويشتغل بغيره ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر كالذي يكون همه في الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف الى غير ذلك من مداخل لا تتضح الا بتفصيل الفرق وضرب الامثلة ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده

﴿ بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته ﴾

اعلم ان قوله تعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور وقوله تعالى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الاماني الآية كاف في ذم الغرور وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) حديث نوم الاكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الارض من المغترين وقال صلى الله عليه وسلم (٢) الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور لان الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل اذ

﴿ كتاب ذم الغرور ﴾

(١) حديث حبذا نوم الأكياس وفطرهم الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول أبي الدرداء بنحوه وفيه انقطاع وفي بعض الروايات أبي الورد موضع أبي الدرداء ولم أجده مرفوعا (٢) حديث الكيس من دان

نفسي فاغفرها وارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين اللهم اني أسلمت نفسي اليك ووجهت وجهي اليك وفوضت أمري اليك وألجأت ظهري اليك رهبة منك ورغبة اليك لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك الحمد لله الذي حكم فقهر الحمد لله الذي بطن فخبر الحمد لله الذي ملك فقدر الحمد لله الذي هو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير اللهم اني أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك

الجهل هو ان يعتقد الشئ ويراه على خلاف ماهو به والغرور هو جهل الا ان كل جهل ليس بغرور بل يستدعى الغرور مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به وهو الذى يغره فهما كان المجهول المعتقد شيأ يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن انها دليل ولا تكون دليلا سمى الجهل الحاصل به غرورا فالغرور هو سكون النفس الى مايوافق الهوى ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير امافى العاجل أوفى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطؤن فيه فأكثر الناس اذا مغرورون وان اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق فنورد لهما أمثلة لحقيقة الغرور ﴿المثال الاول﴾ غرور الكفار فمنهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور أما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا النقد خير من النسيئة والدنيا نقد والآخرة نسيئة فهى اذا خير فلا بد من ايثارها قالوا اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا نترك اليقين بالشك وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس حيث قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين والى هؤلاء الاشارة بقوله تعالى أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون وعلاج هذا الغرور اما بتصديق الايمان واما بالبرهان أما التصديق بمجرد الايمان فهو ان يصدق الله تعالى فى قوله ماعندكم ينفد وماعند الله باق وفى قوله عزوجل وماعند الله خير وقوله والآخرة خير وأبقى وقوله وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور وقوله فلا تغرنكم الحياة الدنيا وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان ومنهم من قال (٢) نشدتك الله أبعثك الله رسولا فكان يقول نعم فيصدق وهذا ايمان العامة وهو يخرج من الغرور وينزل هذا منزلة تصديق الصبى والده فى ان حضور المكتب خير من حضور الملعب مع انه لا يدرى وجه كونه خيرا وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو ان يعرف وجه فساد هذا القياس الذى نظمه فى قلبه الشيطان فان كل مغرور فلغروره سبب وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع فى النفس ويورث السكون اليه وان كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بالفاظ العلماء فالقياس الذى نظمه الشيطان فيه أصلان أحدهما أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح والآخر قوله ان النقد خير من النسيئة وهذا محل التلبيس فليس الامر كذلك بل ان كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود فهو خير وان كان أقل منها فالنسيئة خير فان الكافر المغرور يبذل فى تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه واذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الاطعمة ترك ذلك فى الحال خوفا من ألم المرض فى المستقبل فقد ترك النقد ورضى بالنسيئة والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون فى الاسفار نقدا لاجل الراحة والربح نسيئة فان كان عشرة فى ثانى الحال خيرا من واحد فى الحال فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها الى مدة الآخرة فان أقصى عمر الانسان مائة سنة وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة فكأنه ترك واحدا يأخذ ألف ألف بل

وشر عبادك وشر الشيطان وشركه ويقرأ خمس آيات من البقرة الاربع من الأول والآية الخامسة ان فى خلق السموات والارض وآية الكرسى وآمن الرسول وان ربكم الله وقل ادعوا الله وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وقل ياأيها الكافرون وقل هو الله أحد والمعوذتين وينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وجسده وان أضاف الى ما قرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها فحسن ويقول اللهم أيقظنى فى أحب الساعات اليك واستعملنى باحب الاعمال

نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث شداد بن أوس (١) حديث تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وايمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور فى السنن من ذلك قصة اسلام الانصار وبيعتهم وهى عند أحمد من حديث جابر وفيه حتى بعثنا الله اليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب الى أهله فيسلمون باسلامه الحديث وهى عند أحمد باسناد جيد (٢) حديث قول من قال له نشدتك الله أبعثك رسولا فيقول نعم فيصدق متفق عليه من حديث أنس فى قصة ضمام بن ثعلبة وقوله للنبى صلى الله عليه وسلم آلله أرسلك للناس كلهم فقال اللهم نعم وفى آخره فقال الرجل آمنت بما جئت به وللطبرانى من حديث ابن عباس فى قصة ضمام قال نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا اله الا الله وان ندع اللات والعزى قال نعم الحديث

ليأخذ مالا نهاية له ولا حد وان نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بانواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة فاذا قد غلط فى قوله النقد خير من النسيئة فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور اطلق وأريد به خاص فغفل به المغرور عن خصوص معناه فان من قال النقد خير من النسيئة أراد به خير امن نسيئة هى مثله وان لم يصرح به وعند هذا يفزع الشيطان الى القياس الآخر وهو ان اليقين خير من الشك والآخرة شك وهذا القياس أكثر فسادا من الاول لان كلا أصليه باطل اذ اليقين خير من الشك اذا كان مثله والا فالتاجر فى تعبه على يقين وفى ربحه على شك والمتفقه فى اجتهاده على يقين وفى ادراكه رتبة العلم على شك والصياد فى تردده فى المقتنص على يقين وفى الظفر بالصيد على شك وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك ولكن التاجر يقول ان لم أتجر بقيت جائعا وعظم ضررى وان اتجرت كان تعبى قليلا وربحى كثيرا وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالاضافة الى ما أخافه من المرض والموت فكذلك من شك فى الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم ان يقول أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالاضافة الى ما يقال من أمر الآخرة فان كان ما قيل فيه كذبا فما يفوتنى الا التنعم أيام حياتى وقد كنت فى العدم من الازل الى الآن لا أتنعم فاحسب انى بقيت فى العدم وان كان ما قيل صدقا فانى فى النار أبد الآباد وهذا لا يطاق ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين ان كان ما قلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا وان كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت وما قال هذا عن شك منه فى الآخرة ولكن كلام الملحد على قدر عقله وبين له أنه وان لم يكن متيقنا فهو مغرور * وأما الاصل الثانى من كلامه وهو ان الآخرة شك فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين ولا يقينه مدركان أحدهما الايمان والتصديق تقليدا للانبياء والعلماء وذلك أيضا يزيل المغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته وقد اتفق الاطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلانى فانه تطمئن نفس المريض الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم ويعمل به ولو بقى سوادى أو معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الاحوال انهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ولا يغتر فى علمهم بسببه ولو اعتمد قوله وترك قول الاطباء كان معتوها مغرورا فكذلك من نظر الى المقربين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بان التقوى هو الدواء النافع فى الوصول الى سعادتها وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة فى البصيرة والمعرفة والعقل وهم الانبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم الى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بانهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء فكما أن قول الصبى وقول السوادى لا يزيل طمأنينة القلب الى ما اتفق عليه الاطباء فكذلك قول هذا الغبى الذى استرقته الشهوات لا يشكك فى صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء وهذا القدر من الايمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به وأما المدرك الثانى لمعرفة الآخرة فهو الوحى للانبياء والالهام للاولياء ولا تظن ان معرفة النبى عليه السلام لامر الآخرة ولامور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه كما أن معرفتك تقليد للنبى صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته وانما يختلف المقلد فقط وهيهات فان التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الاشياء كما هى عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد وذلك بان يكشف لهم عن حقيقة الروح وانه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الامر الذى يقابل النهى لان ذلك الامر كلام والروح ليس بكلام وليس المراد بالامر الشأن حتى يكون المراد به انه من خلق الله فقط لان ذلك عام فى جميع المخلوقات بل العالم عالمان عالم الامر وعالم

الخلق

اليك التى تقربنى اليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعدا أسألك فتعطينى وأستغفرك فتغفر لى وأدعوك فتستجيب لى اللهم لا تؤمنى مكرك ولا تولنى غيرك ولا ترفع عنى سترك ولا تنسنى ذكرك ولا تجعلنى من الغافلين (ورد) أن من قال هذه الكلمات بعث الله تعالى اليه ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة فان صلى ودعا أمنوا على دعائه وان لم يقم تعبدت الأملاك فى

الخلق والله الخلق والامر فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق اذ الخلق عبارة عن التقدير فى وضع اللسان وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فانه من عالم الامر وشرح ذلك سر الروح ولا رخصة فى ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذى منع من افشائه فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه واذا عرف نفسه فقد عرف ربه واذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر ربانى بطبعه وفطرته وانه فى العالم الجسمانى غريب وأن هبوطه اليه لم يكن بمقتضى طبعه فى ذاته بل بامر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم وعبر عنه بالمعصية وهى التى حطته عن الجنة التى هى أليق به بمقتضى ذاته فانها فى جوار الرب تعالى وانه أمر ربانى وحنينه الى جوار الرب تعالى له طبعى ذاتى الا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه اذ قيل له ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون أى الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم يقال فسقت الرطبة عن كمامها اذا خرجت عن معدنها الفطرى وهذه اشارة الى أسرار يهتز لاستنشاق رواتحها العارفون وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون فانها تضر بهم كما تضر رياح الورد بالجعل وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش وانفتاح هذا الباب من سر القلب الى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ويسمى صاحبه وليا وعارفا وهى مبادى مقامات الانبياء وآخر مقامات الاولياء أول مقامات الانبياء * ولنرجع الى الغرض المطلوب فالمقصود أن غرور الشيطان بان الاخرة شك يدفع اما بيقين تقليدى واما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن والمؤمنون بالسنتهم وبعقائدهم اذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الاعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصى فهم مشاركون للكفار فى هذا الغرور لانهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة نعم أمرهم أخف لان أصل الايمان يعصمهم عن عقاب الابد فيخرجون من النار ولو بعد حين ولكنهم أيضا من المغرورين فانهم اغتروا بان الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا الى الدنيا وآثروها ومجرد الايمان لا يكفى للفوز قال تعالى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وقال تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم (١) الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وقال تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فوعد المغفرة فى جميع كتاب الله تعالى منوط بالايمان والعمل الصالح جميعا لا بالايمان وحده فهؤلاء أيضا مغرورون أعنى المطمئنين الى الدنيا الفرحين بها المترفين بنعيمها المحبين لها الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا * ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين فاما غرور الكفار بالله فمثاله قول بعضهم فى أنفسهم وبالسنتهم انه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين اذ قال وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا وجملة أمرهما كما نقل فى التفسير أن الكافر منهما بنى قصرا بالف دينار واشترى بستانا بالف دينار وخدما بألف دينار وتزوج امرأة على ألف دينار وفى ذلك كله يعظه المؤمن ويقول اشتريت قصرا يفنى ويخرب ألا اشتريت قصرا فى الجنة لا يفنى واشتريت بستانا يخرب ويفنى ألا اشتريت بستانا فى الجنة لا يفنى وخدما لا يفنون ولا يموتون وزوجة من الحور العين لا تموت وفى كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول ما هناك شئ وما قيل من ذلك فهو أكاذيب وان كان فليكونن لى فى الجنة خير من هذا وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل اذ يقول لاوتين مالا وولدا فقال الله تعالى رد اعليه أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا وروى عن خباب بن الارت أنه قال (٢) كان لى على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لى فقلت انى آخذه فى الآخرة فقال لى اذا صرت الى الآخرة فان لى

(١) حديث الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم (٢) حديث خباب ابن الأرت قال كان لى على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه الحديث فى نزول قوله تعالى أفرأيت الذى كفر

الهواء وكتب لهم ثواب عبادتهم ويسبح ويحمد ويكبر كل واحد ثلاثا وثلاثين ويتمم المائة بلا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

الباب السابع والاربعون فى أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل

اذا فرغ المؤذن من أذان المغرب يصلى ركعتين خفيفتين بين الاذان والاقامة وكان العلماء يصلون هاتين الركعتين فى البيت يتعجلون بهما قبل الخروج الى

هناك مالا وولدا أقضيك منه فانزل الله تعالى قوله أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لاوتين مالا وولدا وقال الله تعالى ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وهذا كله من الغرور بالله وسببه قياس من أقيسة ابليس نعوذ بالله منه وذلك أنهم ينظرون مرة الى نعم الله عليهم فى الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة وينظرون مرة الى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول فقال تعالى جوابا لقولهم حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ومرة ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر فيزدرونهم ويستحقرونهم فيقولون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا يقولون لو كان خيرا ما سبقونا اليه وترتيب القياس الذى نظمه فى قلوبهم أنهم يقولون قد أحسن الله الينا بنعيم الدنيا وكل محسن فهو محب وكل محب فانه يحسن أيضا فى المستقبل كما قال الشاعر

لقد أحسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقى

وانما يقيس المستقبل على الماضى بواسطة الكرامة والحب اذ يقول لولا أنى كريم عند الله ومحبوب لما أحسن الى والتلبيس تحت ظنه ان كل محسن محب لا بل تحت ظنه ان انعامه عليه فى الدنيا احسان فقد اغتر بالله اذ ظن انه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر فالذى يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الادب ويمنعه من الفواكه وملاذ الاطعمة التى تضره ويسقيه الادوية التى تنفعه والذى يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولا يدخل المكتب ويأكل كل ما يشتهى فيظن هذا العبد المهمل انه عند سيده محبوب كريم لانه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلم يمنعه ولم يحجر عليه وذلك محض الغرور وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها فانها مهلكات ومبعدات من الله[1] فان الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه هكذا ورد فى الخبر عن سيد البشر وكان أرباب البصائر اذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته ورأوا ذلك علامة المقت والاهمال واذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين والمغرور اذا أقبلت عليه الدنيا ظن انها كرامة من الله واذا صرفت عنه ظن أنها هوان كما أخبر الله تعالى عنه اذ قال فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن فاجاب الله عن ذلك كلا أى ليس كما قال انما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت فبين ان ذلك غرور قال الحسن كذبهما جميعا بقوله كلا يقول ليس هذا بإكرامى ولا هذا بهوانى ولكن الكريم من أكرمته بطاعتى غنيا كان أو فقيرا والمهان من أهنته بمعصيتى غنيا كان أو فقيرا وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان اما بالبصيرة أو بالتقليد أما البصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات الى شهوات الدنيا مبعدا عن الله ووجه كون التباعد عنها مقربا الى الله ويدرك ذلك بالالهام فى منازل العارفين والاولياء وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله وقد قال تعالى أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون وقال تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وقال تعالى فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا مبلسون وفى تفسير قوله تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون انهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما وقال تعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار الى غير ذلك مما ورد فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله فمن آمن به تخلص من هذا الغرور فان منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته فان من عرفه لا يأمن مكره

بآياتنا الآية البخارى ومسلم (١) حديث ان الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه الحديث الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان

الجماعة كيلا يظن الناس أنها سنة مرتبة فيقتدى بهم ظنا منهم أنها مسنة واذا صلى المغرب يصلى ركعتى السنة بعد المغرب يعجل بهما فانهما يرفعان مع الفريضة يقرأ فيهما بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين فيقول مرحبا بملائكة الليل مرحبا بالملكين الكريمين الكاتبين أكتبا فى صحيفتى أنى أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن

ولا يغتر بامثال هذه الخيالات الفاسدة وينظر الى فرعون وهامان وقارون والى ملوك الارض وماجرى لهم كيف أحسن الله اليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا فقال تعالى هل تحس منهم من أحد الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون وقال تعالى ومكروا ومكرنا ومكروا ومكرنا ومكروا ومكرنا لا يشعرون وقال عز وجل ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين وقال تعالى انهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل باهمال السيد اياه وتمكينه من النعم على حب السيد بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرا منه وكيدا مع ان السيد لم يحذره مكر نفسه فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى فاذا من أمن مكر الله فهو مغتر ومنشأ هذا الغرور انه استدل بنعم الدنيا على انه كريم عند ذلك المنعم واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب الى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على الكرامة وهذا هو حد الغرور ﴿المثال الثاني﴾ غرور العصاة من المؤمنين بقولهم ان الله كريم وانا نرجو عفوه واتكالهم على ذلك واهمالهم الاعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء وظنهم ان الرجاء مقام محمود في الدين وان نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم وأين معاصي العباد في بحار رحمته وانا موحدون ومؤمنون فنرجوه بوسيلة الايمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بسلاح الآباء وعلو رتبتهم كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم اذ آباؤهم مع نهاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى فقياس الشيطان للعلوية ان من أحب انسانا أحب أولاده وان الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون الى الطاعة وينسى المغرور ان نوحا عليه السلام أراد ان يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من المغرقين فقال رب ان ابني من أهلي فقال تعالى يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لابيه فلم ينفعه وأن نبينا صلى الله عليه وسلم (١) وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فاذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار فجلس يبكي على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله فهذا أيضا اغترار بالله تعالى وهذا لان الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصي فكما أنه لا يبغض الاب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للاب المطيع ولو كان الحب يسري من الاب الى الولد لوشك ان يسري البغض أيضا بل الحق أن لا تزر وازرة وزر أخرى ومن ظن انه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع باكل أبيه ويروى بشرب أبيه ويصير عالما بتعلم أبيه ويصل الى الكعبة ويراها بمشي أبيه فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيأ وكذا العكس وعند الله جزاء التقوى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه الا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له كما سبق في كتاب الكبر والعجب فان قلت فاين الغلط في قول العصاة والفجار ان الله كريم وانا نرجو رحمته ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا فما هذا الا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب فاعلم أن الشيطان لا يغوي الانسان الا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال (٢) الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وهذا هو التمني على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسماه رجاء حتى خدع به الجهال وقد شرح الله الرجاء فقال ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله يعني ان الرجاء بهم أليق وهذا لانه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الاعمال قال الله تعالى جزاء بما كانوا يعملون وقال تعالى وانما توفون أجوركم يوم القيامة أفترى ان من استؤجر على اصلاح أوان وشرط له أجرة عليها وكان الشارط

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار الحديث مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث الكيس من دان نفسه تقدم قريبا

محمدا رسول الله وأشهد أن الجنة حق والنار حق والحوض حق والشفاعة حق والصراط والميزان حق وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتي اليها اللهم احطط بها وزري واغفر بها ذنبي وثقل بها ميزاني وأوجب لي بها أماني وتجاوز عني يا أرحم الراحمين فان واصل بين العشاءين في مسجد جماعته يكون جامعا بين الاعتكاف

كريما يفي بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يريد بقاء الاجير وكسر الاواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الاجر ويزعم أن المستأجر كريم افتراه العقلاء في انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا وهذا الجهل بالفرق بين الرجاء والغرة قيل للحسن قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل فقال هيهات هيهات تلك أمانيهم يترجون فيها من رجا شيأ طلبه ومن خاف شيأ هرب منه وقال مسلم بن يسار لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي فقال له رجل انا نرجو الله فقال مسلم هيهات هيهات من رجا شيأ طلبه ومن خاف شيأ هرب منه وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل فهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور فكما انه اذا نكح ووطئ وأنزل بقي مترددا في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الام الى أن يتم فهو كيس فكذلك اذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ويحرس قلبه عن الميل الى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل الى المعاصي فهو كيس ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ولتعلمن نبأه بعد حين وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون أي علمنا أنه كما لا يولد ولد الا بوقاع ونكاح ولا ينبت زرع الا بحراثة وبث بذر فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر الا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك في قولك وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى وكلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير أي ألم نسمعكم سنة الله في عباده وانه توفى كل نفس ما كسبت وان كل نفس بما كسبت رهينة فما الذي غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير فان قلت فاين مظنة الرجاء وموضعه المحمود فاعلم انه محمود في موضعين احدهما في حق العاصي المنهمك اذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان وانى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر ان الله يغفر الذنوب جميعا وان الله كريم يقبل التوبة عن عباده وان التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وأنيبوا الى ربكم أمرهم بالانابة وقال تعالى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى فاذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج وان توقع المغفرة مع الاصرار فهو مغرور كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى الى الجمعة فقال له الشيطان انك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذب الشيطان ومر يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج وان استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الامام للصلاة لاجله الى وسط الوقت أو لاجل غيره أو لسبب من الاسباب التي لا يعرفها فهو مغرور الثاني أن تفتر نفسه عن فضائل الاعمال ويقتصر على الفرائض فيرجي نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الى قوله أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون فالرجاء الاول يقمع القنوط المانع من التوبة والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء وكل رجاء أوجب فتورا في العبادة وركونا الى البطالة فهو غرة كما اذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان مالك ولايذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول انه مع انه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وانه مع انه كريم خلد الكفار في النار أبد الآباد مع انه لم يضره كفرهم بل سلط العذاب والمحن والامراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على ازالتها فمن هذه سنته في عباده وقد خوفني عقابه فكيف لا أخافه وكيف

اغتر به

ومواصلة العشاءين وان رأى انصرافه الى منزله وأن المواصلة بين العشاءين في بيته أسلم لدينه وأقرب الى الاخلاص وأجمع للهم فليفعل * وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع فقال هي الصلاة بين العشاءين وقال عليه السلام عليكم بالصلاة بين العشاءين فانها تذهب بملاغاة النهار وتهذب آخره ويجعل من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة

اغتر به فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل فما لا يبعث على العمل فهو ثمن وغرور ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب اقبالهم على الدنيا وسبب اعراضهم عن الله تعالى واهمالهم السعي للآخرة فذلك غرور فقد أخبر صلى الله عليه وسلم (١) وذكر ان الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الامة وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم فقد كان الناس فى الاعصار الاول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم فى الخلوات وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع اكبابهم على المعاصى وانهماكهم فى الدنيا واعراضهم عن الله تعالى زاعمين انهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله راجون لعفوه ومغفرته كأنهم يزعمون انهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الانبياء والصحابة والسلف الصالحون فان كان هذا الامر يدرك بالمنى وينال بالهوينى فعلام ذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم وقد ذكرنا تحقيق هذه الامور فى كتاب الخوف والرجاء وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) فيما رواه معقل ابن يسار يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرآن فى قلوب الرجال كما يخلق الثياب على الابدان أمرهم كله يكون طمعا لا خوف معه ان أحسن أحدهم قال يتقبل منى وان أساء قال يغفر لى فاخبر انهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه وبمثله أخبر عن النصارى اذ قال تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا ومعناه انهم ورثوا الكتاب أى هم علماء ويأخذون عرض هذا الادنى أى شهواتهم من الدنيا حراما كان أو حلالا وقد قال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد والقرآن من أوله الى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر الا ويطول حزنه ويعظم خوفه ان كان مؤمنا بما فيه وترى الناس يهذونه هذا يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرؤن شعرا من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات الى معانيه والعمل بما فيه وهل فى العالم غرور يزيد على هذا فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور ويقرب منه تخرور طوائف لهم طاعات ومعاص الا ان معاصيهم أكثر وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم تترجح كفة حسناتهم مع أن مانى كفة السيئات أكثر وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه ولعل ما تصدق به هو من أموال المسلمين وهو يتكل عليه ويظن ان أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال وما هو الا كمن وضع عشرة دراهم فى كفة ميزان وفى الكفة الاخرى ألفا وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله نعم ومنهم من يظن ان طاعاته أكثر من معاصيه لانه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه واذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذى يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله فى اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ويكون نظره الى عدد سبحته انه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه طول نهاره الذى لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فهذا أبدا يتأمل فى فضائل التسبيحات والتهليلات ولا يلتفت الى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه الى غير ذلك من آفات اللسان وذلك محض الغرور ولعمرى لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذى زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته وما نطق به فى

البروج والطارق ثم ركعتين بعد ركعتين يقرأ فى الاولى عشر آيات من أول سورة البقرة والآيتين والحكم الله واحد الى آخر الآيتين وخمس عشرة مرة قل هو الله وفى الثانية آية الكرسى وآمن الرسول وخمس عشرة مرة قل هو الله أحد ويقرأ فى الركعتين الأخيرتين من سورة الزمر والواقعة ويصلى بعد ذلك ما شاء فان أراد ان يقرأ شيأ من حزبه فى هذا الوقت فى الصلاة أو غيرها وان شاء صلى

(١) حديث ان الغرور يغلب على آخر هذه الامة تقدم فى آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أبى ثعلبة فى اعجاب كل ذى رأى برأيه (٢) حديث معقل بن يسار يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرآن فى قلوب الرجال الحديث أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل

فتراه كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته حتى لا يفضل عليه أجزة نسخه فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يفوته فى الاجزة على النسخ ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الاعلى ونعيمه ماهذه الامصيبة عظيمة لمن تفكر فيها فقد دفعنا الى أمر ان شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وان صدقناه كنا من الحمقى المغرورين فماهذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن وانا نبرأ الى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى و يتقى ولا يغتر به اتكالا على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى والله أعلم

﴿بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف﴾

﴿الصنف الاول﴾ أهل العلم والمغترون منهم فرق ﴿ففرقة﴾ أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتممقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا نفقدا لجوارح وحفظها عن المعاصى والزامها الطاعات واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل فى الخلق شفاعتهم وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون فانهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان علم معاملة وعلم مكاشفة وهو العلم بالله وبصفاته المسمى بالعادة علم المعرفة فاما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهى علوم لا تراد الا للعمل ولولا الحاجة الى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل فمثال هذا كمريض به علة لا يزيلها الا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها الا حذاق الاطباء فيسعى فى طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الاخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التى منها تجتلب وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيف خلطه وعجنه فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع الى بيته وهو يكررها و يعلمها المرضى ولم يشتغل بشرب واستعمالها فترى أن ذلك يغنى عنه من مرضه شيأ هيهات هيهات لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيأ الا أن يزن الذهب و يشترى الدواء و يخلطه كما تعلم و يشربه و يصبر على مرارته و يكون شربه فى وقته و بعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه واذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف اذا لم يشربه أصلا فهما ظن أن ذلك يكفيه و يشفيه فقد ظهر غروره وهكذا الفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها وأحكم علم الاخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها وأحكم علم الاخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور واذا قال تعالى قد أفلح من زكاها ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس وعند هذا يقول له الشيطان لا يغرنك هذا المثال فان العلم بالدواء لا يزيل المرض وانما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب و يثنو عليه الاخبار الواردة فى فضل العلم فان كان المسكين معتوها مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن اليه وأهمل العمل وان كان كيسا فيقول للشيطان أتذكرنى فضائل العلم وتنسينى ما ورد فى العالم الفاجر الذى لا يعمل بعلمه كقوله تعالى فى مثله كمثل الكلب وكقوله تعالى مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا فأى خزى أعظم من التمثيل بالكلب والحمار وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعدا وقال أيضا (٢) يلقى العالم فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار فى الرحى وكقوله عليه الصلاة والسلام (٣) شر الناس العلماء السوء وقول أبى الدرداء ويل للذى لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات أى ان العلم حجة عليه اذ يقال له ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله وقال صلى الله عليه وسلم (٤) أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فهذا وأمثاله مما أوردناه فى كتاب العلم فى باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى الآن هذا فيما لا يوافق

عشرين ركعة خفيفة بسورة الاخلاص والفاتحة ولو واصل بين العشاءين بركعتين يطيلهما فحسن وفى هاتين الركعتين يطيل القيام تاليا للقرآن حزبه أو مكررا آية فيها الدعاء والتلاوة مثل أن يقرأ مكررا ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير أو آية أخرى فى معناها فيكون جامعا بين التلاوة والصلاة والدعاء ففى ذلك جمع للهم وظفر بالفضل ثم يصلى قبل العشاء أربعا وبعدها

(١) حديث من ازداد علما ولم يزدد هدى الحديث تقدم فى العلم (٢) حديث يلقى العالم فى النار فتندلق اقتابه الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث شر الناس علماء السوء تقدم فى العلم (٤) حديث أشد الناس عذابا يوم القيامة

هوى العالم الفاجر وما ورد فى فضل العلم بوافقه فيميل الشيطان قلبه الى ما يهواه وذلك عين الغرور فانه ان نظر بالبصيرة فمثاله ماذكرناه وان نظر بعين الايمان فالذى أخبره بفضيلة العلم هو الذى أخبره بذم العلماء السوء وان حالهم عند الله أشد من حال الجهال فبعد ذلك اعتقاده انه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور وأما الذى يدعى علوم المكاشفة كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به أو عرف ذلك الا انه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به وعليه وعاطل عن جميع ما يحبه من زى وهيئة وكلام وحركة وسكون فوردعلى الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخا بجميع ما يكرهه الملك عاطلا عن جميع ما يحبه متوسلا اليه بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته فى سياسة غلمانه ومعاملة رعيته فهذا مغرور جدا اذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب الى نيله المراد من قربه والاختصاص به بل تقصيره فى التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله الا الاسامى دون المعانى اذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه فلا يتصور أن يعرف الاسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام خفنى كما تخاف السبع الضارى نعم من يعرف من الاسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ما عرف الاسد فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالى ويعلم انه مسخر فى قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة وأبدعا يهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثرا ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع ولذلك قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وفاتحة الزبور رأس الحكمة خشية الله وقال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا واستفتى الحسن عن مسألة فاجاب فقيل له ان فقهاءنا لا يقولون ذلك فقال وهل رأيت فقيها قط الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد فى الدنيا وقال مرة الفقيه لا يدارى ولا يمارى ينشر حكمة الله فان قبلت منه حمد الله وان ردت عليه حمد الله فاذا الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين واذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين ﴿وفرقة أخرى﴾ أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصى الا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وارادة السوء للاقران والنظراء وطلب الشهرة فى البلاد والعباد وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت الى قوله صلى الله عليه وسلم (١) أدنى الرياء شرك والى قوله عليه السلام (٢) لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر والى قوله عليه الصلاة والسلام (٣) الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والى قوله عليه الصلاة والسلام (٤) حب الشرف والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل الى غير ذلك من الاخبار التى أوردناها فى جميع ربع المهلكات فى الاخلاق المذمومة فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم (٥) ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم فتعهدوا الاعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الاصل اذ لا ينجو الا من أتى الله بقلب سليم ومثال هؤلاء كبئر الحش ظاهرها جص وباطنها تن أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم أو كرجل قصد الملك ضيافته الى داره فخص باب داره وترك المزابل فى صدر داره ولا يخفى أن ذلك غرور بل أقرب مثال اليه رجل زرع زرعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده فامر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله فأخذ يجز رؤسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبت لان مغارس

ركعتين ثم ينصرف الى منزله أو موضع خلوته فيصلى أربعا أخرى وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعا ويقرأ فى هذه الاربع سورة لقمان ويس وحم الدخان وتبارك الملك وان أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسى وآمن الرسول وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر ويصلى بعد الاربع احدى عشرة ركعة يقرأ فيها ثلاثمائة آية من

عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه تقدم فيه (١) حديث أدنى الرياء شرك تقدم فى ذم الجاه والرياء (٢) حديث لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر تقدم غير مرة (٣) حديث الحسد يأكل الحسنات الحديث تقدم فى العلم وغيره (٤) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب الحديث تقدم (٥) حديث ان الله لا ينظر الى صوركم الحديث تقدم

المعاصى هى الاخلاق الذميمة فى القلب فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة الا مع الآفات الكثيرة بل هو كمريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه فقنع بالطلاء وترك الدواء وبقى يتناول ما يزيد فى المادة فلا يزال يطلى الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التى فى الباطن ﴿وفرقة أخرى﴾ علموا أن هذه الاخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع الا أنهم لحجبهم بانفسهم يظنون انهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك وانما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم فى العلم فاماهم فاعظم عند الله من أن يبتليهم ثم اذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا ماهذا كبر وانما هو طلب عز الدين واظهار شرف العلم ونصرة دين الله وارغام أنف المخالفين من المبتدعين وانى لو لبست الدون من الثياب وجلست فى الدون من المجالس لشمت بى أعداء الدين وفرحوا بذلك وكان ذلى ذلا على الاسلام ونسى المغرور أن عدوه الذى حذره منه مولاه هو الشيطان وانه يفرح بما يفعله ويسخر به وينسى ان النبى صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ونسى ماروى عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة حتى عوتب عمر رضى الله عنه فى بذاذة زيه عند قدومه الى الشام فقال انا قوم أعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العز فى غيره ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبق والابريسم المحرم والخيول والمراكب ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فيمن رد عليه شيأ من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال انما هذا غضب للحق ورد على المبطل فى عداوته وظلمه ولم يظن بنفسه الحسد حتى يعتقد انه لو طعن فى غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله أم لا يغضب مهما طعن فى عالم آخر ومنع بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لاقرانه من خبث باطنه وهكذا يرائى باعماله وعلومه واذا خطر له خاطر الرياء قال هيهات انما غرضى من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بى ليهتدوا الى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى ولا يتأمل المغرور انه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائهم به فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فانه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر ومهما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضا ويقول انما ذلك لانهم اذا اهتدوا بى كان الأجر لى والثواب لى فانما فرحى بثواب الله لا بقبول الخلق قولى هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع من ضميره على انه لو أخبره نبى بان ثوابه فى الخمول واخفاء العلم أكثر من ثوابه فى الاظهار وحبس مع ذلك فى سجن وقيد بالسلاسل لاختال فى هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع الى موضعه الذى به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره وكذلك يدخل على السلطان ويتودد اليه ويثنى عليه ويتواضع له واذا خطر له ان التواضع للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان هيهات انما ذلك عند الطمع فى مالهم فاما أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك والله يعلم من باطنه انه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه فى كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك عليه ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل وكذلك قد ينتهى غرور بعضهم الى أن يأخذ من مالهم واذا خطر له انه حرام قال له الشيطان هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت امام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك فيغتر بهذا التلبيس فى ثلاثة أمور أحدها فى أنه مال لا مالك له فانه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء وغاية الامر وقوع الخلط فى أموالهم ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها فلا خلاف فى انه مال حرام ولا يقال هو مال لا مالك له ويجب ان يقسم بين العشرة ويرد الى كل واحد عشرة وان كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر الثانى فى قوله انك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين ولعل الذين فسد دينهم واستعلوا أموال السلاطين ورغبوا فى طلب الدنيا

القرآن من والسماء والطارق الى آخر القرآن ثلاثة آية هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله وان أراد قرأ هذا القدر فى أقل من هذا العدد من الركعات وان قرأ من سورة الملك الى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم كثير وان لم يحفظ القرآن يقرأ فى كل ركعة خمس مرات قل هو الله أحد الى عشر مرات الى أكثر ولا يؤخر الوتر الى آخر التهجد الا أن يكون واثقا من نفسه فى عادتها

والاقبال على الرياسة والاعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا فى الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقولهم مذهب الشياطين لا امام الدين اذ الامام هو الذى يقتدى به فى الاعراض عن الدنيا والاقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف والدجال هو الذى يقتدى به فى الاعراض عن الله والاقبال على الدنيا فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء انه كصخرة وقعت فى فم الوادى فلا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص الى الزرع وأصناف غرور أهل العلم فى هذه الاعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير (وفرقة أخرى) أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصى وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو وجاهدوا أنفسهم فى التبرى منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية ولكنهم بعد مغرورون اذ بقيت فى زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس مادق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها وأهملوها وانما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه الا انه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الارض وظن ان الكل قد ظهر وبرز وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فاهملها وهو يظن انه قد اقتلعها فاذا هو بها فى غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدرى فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدقائق فتراه يسهر ليله ونهاره فى جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها وهو يرى ان باعثه الحرص على اظهار دين الله ونشر شريعته ولعل باعثه الخفى هو طلب الذكر وانتشار الصيت فى الاطراف وكثرة الرحلة اليه من الآفاق وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم والتقدم له فى المهمات وايثاره فى الاغراض والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الاصغاء عند حسن اللفظ والايراد والتمتع بتحريك الرؤس الى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه والفرح بكثرة الاصحاب والاتباع والمستفيدين والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الاقران والاشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد والتمكن به من اطلاق لسان الطعن فى الكافة المقبلين على الدنيا لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن ادلال بالتمييز واعتداد بالتخصص ولعل هذا المسكين المغرور حيانه فى الباطن بما انتظم له من أمر وامارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فعساه ينتوش عليه قلبه وتختاط أوراده ووظائفه وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه وربما يحتاج الى أن يكذب فى تغطية عيبه وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وان كان قد اعتقد فيه فوق قدره وينبو قلبه عمن عرف حد فضله وورعه وان كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه فى الفضل والورع وانما ذلك لانه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشد اصغاء اليه وأحرص على خدمته ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون فى العلم وهو يظن أن قبولهم له لاخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب فى ايثاره الخمول والعزلة واخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده فى العزلة والاختفاء لذة القبول وعزة الرياسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان من زعم من بنى آدم انه بعلمه امتنع منى فبجهله وقع فى حبائلى وعساه يصنف ويجتهد فيه ظانا انه يجمع علم الله لينتفع به وانما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف فلو ادعى مدع تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه الى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف انما يرجع الى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه ولعله فى تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه اما صريحا بالدعاوى الطويلة العريضة واما ضمنا بالطعن فى غيره ليستبين من طعنه فى غيره انه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علما ولقد كان فى غنية عن الطعن فيه ولعله يحكى من الكلام المزيف ما يزيد تزييفه فيعز به الى قائله وما يستحسنه فلعله لا يعز به

بالانتباه لتهجد فيكون تأخير الوتر الى آخر التهجد حينئذ أفضل (وقد كان بعض العلماء) اذا أوتر قبل النوم ثم قام يتهجد يصلى ركعة يشفع بها وتره ثم يتنفل ماشاء ويوتر فى آخر ذلك واذا كان الوتر من أول الليل يصلى بعده أوتر ركعتين جالسا يقرأ فيهما باذا زلزلت وألهاكم وقيل فعل الركعتين قاعدا بمنزلة الركعة قائما يشفع له الوتر حتى اذا أراد التهجد يأتى به ويوتر فى آخر تهجده ونية هاتين الركعتين نية النفل لا غير ذلك وكثيرا ما رأيت الناس يتفاوضون فى كيفية نيتهما وان قرأ فى كل ليلة

اليه ليظن أنه من كلامه فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذى يسرق قميصا فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق ولعله يجتهد فى تزيين ألفاظه وتسجيعه وتحسين نظمه كيلا ينسب الى الركاكة ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب الى نفع الناس وعساه غافلا عما روى أن بعض الحكماء وضع ثلاثمائة مصحف فى الحكمة فأوحى الله الى نبى زمانه قل له قد ملأت الارض نفاقا وانى لا أقبل من نفاقك شيأ ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين اذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد الى كثرة من يتبعه وانه أكثر تبعا أو غيره فيفرح ان كان أتباعه أكثر وان علم أن غيره أحق بكثرة الاتباع منه ثم اذا تفرقوا واشتغلوا بالافادة تغايروا وتحاسدوا ولعل من يختلف الى واحد منهم اذا انقطع عنه الى غيره ثقل على قلبه ووجد فى نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتز باطنه لاكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى مع علمه بانه مشغول بالاستفادة ولعل التعيز منه الى فئة أخرى كان أنفع له فى دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه فى هذه الفئة وسلامته عنها فى تلك الفئة ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه ولعل واحدا منهم اذا تحركت فيه مبادى الحسد لم يقدر على اظهاره فيتعلل بالطعن فى دينه وفى ورعه ليعمل غضبه على ذلك ويقول انما غضبت لدين الله لا للنفسى ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وان أثنى عليه ربما ساءه وكرهه وربما قطب وجهه اذا ذكرت عيوبه يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين وسر قلبه راض به ومريد له والله مطلع عليه فى ذلك فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له الا الاكياس ولا يتنزه عنه الا الأقوياء ولا مطمع فيه لامثالنا من الضعفاء الا أن أقل الدرجات أن يعرف الانسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على اصلاحه فاذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجو الحال وأمره أقرب من المغرور المزكى لنفسه الممتن على الله بعمله وعلمه الظان أنه من خيار خلقه فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الاهمال هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا فى العمل بالعلم ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون اما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم واما لاقتصارهم عليه (فمنهم فرقة) اقتصروا على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد وخصوصا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذهب وربما ضيعوا مع ذلك الاعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يخرسوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن المشى الى السلاطين وكذا سائر الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين أحدهما من حيث العمل والآخر من حيث العلم أما العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وان مثالهم مثال المريض اذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ومحتاج الى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلا ونهارا مع علمه بانه رجل لا يحيض ولا يستحاض ولكن يقول ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألنى عن ذلك وذلك غاية الغرور فكذلك المتفقه المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة وربما يخطفه الموت قبل التوبة والتلافى فيلقى الله وهو عليه غضبان فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والاجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوى والبينات وبكتاب الحيض وهو لا يحتاج الى شئ من ذلك قط فى عمره لنفسه واذا احتاج غيره كان فى المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال وقد دهاه الشيطان وما يشعر اذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدرى ان الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى فانه وان قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه فى جوارحه وقلبه فهذا غروره من حيث العمل وأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن

المبحات وأضاف اليها سورة الاعلى فتصير ستا فقد كان العلماء يقرؤن هذه السور ويترقبون بركتها فاذا استيقظ من النوم فمن أحسن الادب عند الانتباه أن يذهب بباطنه الى الله ويصرف فكره الى أمر الله قبل أن يجول الفكر فى شئ سوى الله ويشغل اللسان بالذكر فالصادق كالطفل الكلف بالشئ اذا نام ينام على محبة الشئ واذا انتبه يطلب ذلك الشئ الذى كان كلف به وعلى حسب هذا الكلف والشغل يكون الموت والقيام الى الحشر فلينظر وليعتبر عند انتباهه من النوم ما هم فانه هكذا يكون عند القيام من القبر

أنه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ور بما طعن فى المحدثين وقال انهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون وترك أيضا علم تهذيب الاخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بادراك جلاله وعظمته وهو العلم الذى يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى فتراه آمنا من الله مغترا به متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه فانه قوام دينه وانه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التى هى أهم وهو غافل مغرور وسبب غروره ما سمع فى الشرع من تعظيم الفقه ولم يدر ان ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى اذ قال تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون والذى يحصل به الانذار غير هذا العلم فان مقصود هذا العلم حفظ الاموال بشروط المعاملات وحفظ الابدان بالاموال وبدفع القتل والجراحات والمال فى طريق الله آلة والبدن مركب وانما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التى هى الصفات المذمومة فهى الحجاب بين العبد وبين الله تعالى واذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله فمثاله فى الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خز الراوية والخف ولا شك فى أنه لو لم يكن لتعطل الحج ولكن المقتصر عليه ليس من الحج فى شئ ولا بسبيله وقد ذكرنا شرح ذلك فى كتاب العلم ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم يهمه الا تعلم طريق المجادلة والالزام والخام الخصوم ودفع الحق لاجل الغلبة والمباهاة فهو طول الليل والنهار فى التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لانواع التسبيبات المؤذية وهؤلاء هم سباع الانس طبعهم الايذاء وهمهم السفه ولا يقصدون العلم الا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران فكل علم لا يحتاجون اليه فى المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق الى الله تعالى بمجوّ الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فانهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ وانما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التى تجرى بين المتصارعين فى الجدل وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم فى علم الفتاوى لكن زادوا اذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا بل جميع دقائق الجدل فى الفقه بدعة لم يعرفها السلف وأما أدلة الاحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية فانما أبدعت لاظهار الغلبة والالخام واقامة سوق الجدل بها فغرور هؤلاء أشد كثيرا وأقبح من غرور من قبلهم (وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الاهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق فى مناظرة أولئك والخامهم وافترقوا فى ذلك فرقا كثيرة واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل الا بايمان ولا يصح ايمان الا بأن يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم وانه لا ايمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ودعت كل فرقة منهم الى نفسها ثم هم فرقتان ضالة ومحقة فالضالة هى التى تدعو الى غير السنة والمحقة هى التى تدعو الى السنة والغرور شامل لجميعهم * أما الضالة فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا وانما أتيت من حيث انهائم تهم رأيها ولم تحكم أولا شروط الادلة ومناهجها فرأى أحدهم الشبهة دليلا والدليل شبهة * وأما الفرقة المحقة فانما اغترارها من حيث انها ظنت بالجدل انه أهم الامور وأفضل القربات فى دين الله وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن أو ليس بكامل الايمان ولا مقرب عند الله فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها فى تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة وأحدهم يظن ان اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ولكنه لالتذاذه بالغلبة والالخام ولذة الرياسة وعز الانتماء الى الذب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم يلتفت الى القرن الأول فان النبى صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق وأنهم قد أدركوا كثيرا من أهل البدع والهوى فاجعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للخصومات

ان كان همه الله فهمه هو والا فهمه غير الله والعبد اذا انتبه من النوم فباطنه عائد الى طهارة الفطرة فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذى انتبه عليه ويكون فارا الى ربه بباطنه خوفا من ذكر الاغيار ومهما وفى الباطن بهذا المعيار فقد انتقى طريق الانوار وطرق النفحات الالهية فجدير ان تنصب اليه أقسام الليل انصبابا ويصير جناب القرب له موئلا وماآبا ويقول باللسان الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور ويقرأ العشر الاواخر من سورة آل

والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم بل لم يتكلموا فيه الا من حيث رأوا حاجة وتوسموا تخايل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته واذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه فى الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر بل قالوا ان الحق هو الدعوة الى السنة ومن السنة ترك الجدل فى الدعوة الى السنة اذ روى أبو امامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل (٢) وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقئ فى وجهه حب الرمان حمرة من الغضب فقال أبهذا بعثتم أم بهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا الى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتم عنه فانتهوا فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال ثم انهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث الى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم فى مجلس مجادلة لالزام والخام وتحقيق حجة ودفع سؤال وايراد الزام فما جادلهم الا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد فى المجادلة عليه لان ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الاشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الاقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والالزام ولكن الاكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا انجا أهل الارض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم وليس علينا فى المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه الى ما ينفعنا فى يوم فقرنا وفاقتنا ولم نخوض فيما لا تأمن على أنفسنا الخطأ فى تفاصيله ثم نرى ان المبتدع ليس يترك بدعته بجداله بل يزيده التعصب والخصومة تشددا فى بدعته فاشتغالى بمخاصمة نفسى ومجادلتها ومجاهدتها للترك الدنيا للآخرة أولى هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه وكيف أدعو الى السنة بترك السنة فالاولى أن أتفقد نفسى وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى وما يحبه لأتنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه (وفرقة أخرى) اشتغلوا بالوعظ والتذكير وأعلاهم رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والاخلاص والصدق ونظائره وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم اذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق اليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكون عنها عند الله الا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين وغرورهؤلاء أشد الغرور لانهم يعجبون بأنفسهم غاية الاعجاب ويظنون أنهم ما تبحروا فى علم المحبة الا وهم محبون لله وما قدروا على تحقيق دقائق الاخلاص الا وهم مخلصون وما وقفوا على خفايا عيوب النفس الا وهم عنها منزهون ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك الى الله وكيفية قطع المنازل فى طريق الله فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين المضيعين ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز والجاه والمال والاسباب ويرى انه من المخلصين وهو من المرائين بل يصف الاخلاص فيترك الاخلاص فى الوصف ويصف الرياء ويذكره وهو يرائى بذكره ليعتقد فيه انه لولا انه مخلص لما اهتدى الى دقائق الرياء ويصف الزهد فى الدنيا الشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها فهو يظهر الدعاء الى الله وهو منه فار ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ويقرب الى الله تعالى وهو منه متباعد ويحث على الاخلاص وهو غير مخلص ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا ومنع عن مجلسه الذى يدعو الناس فيه الى الله لضاقت عليه الارض بما رحبت ويزعم أن غرضه اصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه وصاحوا على يديه لمات غما وحسدا ولو أثنى أحد من المترددين اليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله اليه

(١) حديث ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل تقدم فى العلم وفى آفات اللسان (٢) حديث خرج يوما على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون فغضب حتى كأنه فقئ فى وجهه حب الرمان الحديث تقدم

فهؤلاء

عمران ثم يقصد الماء الطهور قال الله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به وقال عز وجل أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما الماء القرآن والاودية القلوب فسالت بقدرها واحتملت ما وسعت والماء مطهر والقرآن مطهر والقرآن بالتطهير أجدر فالماء يقوم غيره مقامه والقرآن والعلم لا يقوم غيره مقامه ولا يسد مسده فالماء الطهور يطهر الظاهر والعلم والقرآن يطهر ان الباطن ويذهبان رجز الشيطان فالنوم غفلة وهو من آثار الطبع وجدير أن يكون من رجز الشيطان

فهؤلاء أعظم الناس غرة وأبعدهم عن التنبه والرجوع الى السداد لان المرغب فى الاخلاق المحمودة والمنفر عن المذمومة هو العلم بفوائدها وفوائدها وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه وانما الخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم ان ظن بنفسه انه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة وهو أن يدعى مثلا حب الله فالذى تركه من محاب نفسه لأجله ويدعى الخوف فالذى امتنع منه بالخوف ويدعى الزهد فالذى تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ويدعى الانس بالله فمتى طابت له الخلوة ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلئ بالحلاوة اذا أحدق به المريدون وتراه يستوحش اذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبه ويستروح منه الى غيره فالاكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزويق بل يموتق من الله غليظ والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون واذا كشف الغطاء عنهم فى الآخرة يفتضحون بل يطرحون فى النار فتندلق أقتابهم فيدورون بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لانهم يأمرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر ويأتونه وانما وقع الغرور لهؤلاء من حيث انهم يصادفون فى قلوبهم شيأ ضعيفا من أصول هذه المعانى وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية فى هذه المعانى فظنوا انهم ما قدروا على وصف ذلك ومارزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها الا لاتصافهم بها وذهب عليهم ان القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وان كل ذلك غير الاتصاف بالصفة فلم يفارق آحاد المسلمين فى الاتصاف بصفة الحب والخوف بل فى القدرة على الوصف بل ربما زاد أمنه وقل خوفه وظهر الى الخلق ميله وضعف فى قلبه حب الله تعالى وانما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواءه بفصاحته ويصف الصحة والشفاء وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه فهو لا يفارقهم فى صفة المرض والاتصاف به وانما يفارقهم فى الوصف والعلم بالطب فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب فى كلامهم بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والاخبار ووعظ الحسن البصرى وأمثاله رحمة الله عليهم ﴿وفرقة أخرى﴾ منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة الا من عصمه الله على الندور فى بعض أطراف البلاد ان كان ولسنا نعرفه فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للاغراب وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثرهم بالاسجاع والاستشهاد باشعار الوصال والفراق وغرضهم أن تكثر فى مجالسهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة فهؤلاء شياطين الانس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل فان الاولين وان لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم وأما هؤلاء فانهم يصدون عن سبيل الله ويجرون الخلق الى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصى ورغبة فى الدنيا لا سيما اذا كان الواعظ متزينا بالثياب والخيل والمراكب فانه تشهد هيئته من فرقه الى قدمه بشدة حرصه على الدنيا فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه بل لا يصلح أصلا ويضل خلقا كثيرا ولا يخفى وجه كونه مغرورا ﴿وفرقة أخرى﴾ منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم فى ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير احاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر وبعضهم فى المحاريب وبعضهم فى الاسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه اذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية اذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفورا له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ولكنه يظن ان حفظه لكلام أهل الدين يكفيه وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم ﴿وفرقة أخرى﴾ استغرقوا أوقاتهم فى علم الحديث أعنى فى سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الاسانيد الغريبة

لما فيه من الغفلة عن الله تعالى وذلك ان الله تعالى أمر بقبض القبضة من التراب من وجه الارض فكانت القبضة جلدة الارض والجلدة ظاهرها بشرة وباطنها أدمة قال الله تعالى انى خالق بشرا من طين فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته والادمة عبارة عن باطنه وآدميته والآدمية مجمع الاخلاق الجيدة وكان التراب موطئ أقدام ابليس ومن ذلك اكتسب ظلمة وصارت تلك الظلمة محجونة فى طينة الآدمى ومنها الصفات المذمومة والاخلاق الرديئة ومنها الغفلة والسهو فاذا استعمل الماء

العالية فهمة أحدهم أن يدور فى البلاد ويرى الشيوخ ليقول أنا أروى عن فلان ولقد رأيت فلانا ومعى من الاسناد مالبس مع غيرى وغرورهم من وجوه منها أنهم كملة الاسفار فانهم لا يصرفون العناية الى فهم معانى السنة فعلمهم قاصر وليس معهم الا النقل و يظنون أن ذلك يكفيهم ومنها أنهم اذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به ومنها انهم يتركون العلم الذى هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب و يشتغلون بتكثير الاسانيد وطلب العالى منها ولا حاجة بهم الى شئ من ذلك ومنها وهو الذى أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضا لا يقومون بشرط السماع فان السماع بمجرده وان لم تكن له فائدة ولكنه مهم فى نفسه للوصول الى اثبات الحديث اذ التفهم بعد الاثبات والعمل بعد التفهم فالاول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع فترى الصبى يحضر فى مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبى يلعب ثم يكتب اسم الصبى فى السماع فاذا كبر تصدى ليسمع منه والبالغ الذى يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغى ولا يضبط وربما يشتغل بحديث أو نسخ والشيخ الذى يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه وكل ذلك جهل وغرور اذ الاصل فى الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه و يرويه كما حفظه فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع فان عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين وصار سماعك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن تصغى لتسمع فتحفظ وتروى كما حفظت وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفا ولو غير غيرك منه حرفا وأخطأ خطأ علمت خطأه ولحفظك طريقان * أحدهما أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار كما تحفظ ما جرى على سمعك فى مجارى الاحوال * والثانى أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل اليه يد من يغيره و يكون حفظك للكتاب معك وفى خزانتك فانه لو امتدت اليه يد غيرك و بما غيره فاذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتأمن فيه من التغيير والتحريف فاذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوزت أن يكون ما فيه مغيرا أو يفارق حرف منه للنسخة التى سمعتها لم يجز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب فانك لا تدرى لعلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيأ يخالف ما فيه ولو فى كلمة فاذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك وقد قال الله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم وقول الشيوخ كلهم فى هذا الزمان اننا سمعنا ما فى هذا الكتاب اذا لم يوجد الشرط الذى ذكرناه فهو كذب صريح وأقل شروط السماع ان يجرى الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر منه بالتغيير ولو جاز ان يكتب سماع الصبى والغافل والنائم والذى ينسخ لجاز ان يكتب سماع المجنون والصبى فى المهد ثم اذا بلغ الصبى وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف فى عدم جوازه ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين فى البطن فان كان لا يكتب سماع الصبى فى المهد لانه لا يفهم ولا يحفظ فالصبى الذى يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ وان استبعد أجاهل فقال يكتب سماع الصبى فى المهد فليكتب سماع الجنين فى البطن فان فرق بينهما بان الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فما ينفع هذا وهو انما ينقل الحديث دون الصوت فليقتصر اذ صار شيخا على أن يقول سمعت بعد بلوغى انى فى صباى حضرت مجلسا يروى فيه حديث كان يقرع سمعى صوته ولا أدرى ما هو فلا خلاف فى ان الرواية كذلك لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز اثبات سماع التركى الذى لا يفهم العربية لانه سمع صوتا غفلا لجاز اثبات سماع صبى فى المهد وذلك غاية الجهل ومن أين يؤخذ هذا وهل للسماع مستند الا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها وكيف يؤدى كما سمع من لا يدرى ما سمع

(١) حديث نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها الحديث أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذى وابن ماجه من حديث ابن مسعود قال الترمذى حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس

فهذا

وقرأ القرآن أتى بالمطهرين جميعا و يذهب عنه رجز الشيطان وأثر وطأته و يحكم له بالعلم والخروج من حيز الجهل فاستعمال الطهور أمر شرعى له تأثير فى تنوير القلب بازاء النوم الذى هو الحكم الطبيعى الذى له تأثير فى تكدير القلب فيذهب نور هذا بظلمة ذلك ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما مست النار وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من القهقهة فى الصلاة حيث رآها حكما طبيعيا جالبا للاثم والاثم رجز من الشيطان والماء يذهب رجز الشيطان حتى كان بعضهم يتوضأ من الغيبة والكذب وعند

فهذا أخس أنواع الغرور وقد بلي بهذا أهل الزمان ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخا الا الذين سمعوه في الصباعلى هذا الوجه مع الغفلة الا أن للمحدثين في ذلك جاها وقبولا لاخلاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم وتقل أيضا أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا فاصطلحوا على أنه ليس يشترط الا أن يقرع سمعه دمدمة وان كان لا يدري مايجري وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين لانه ليس من علمهم بل من علم علماء الاصول بالفقه وماذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه فهذا غرور هؤلاء ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مغرورين في اقتصارهم على النقل وفي افناء أعمارهم في جمع الروايات والاسانيد واعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الاخبار بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة بما يكفيه الحديث الواحد عمره كما روي عن بعض الشيوخ انه حضر مجلس السماع فكان أول حديث روي قوله عليه الصلاة والسلام (١) من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه فقام وقال يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره فهكذا يكون سماع الاكياس الذين يحذرون الغرور ﴿وفرقة أخرى﴾ اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الامة اذ قوام الدين بالكتاب والسنة وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فافنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ومثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها الا بالكتابة فلا بد من تعلمها وتصحيحها ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية وكذلك الاديب لو عقل لعرف ان لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع له في معرفة لغة الترك والهند وانما فارقتها لغة العرب لاجل ورود الشريعة بها فيكفي من اللغة علم الغريب بين في الاحاديث والكتاب ومن النحو مايتعلق بالحديث والكتاب فاما التعمق فيه الى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مغرور بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور اذ المقصود من الحروف المعاني وانما الحروف ظروف وأدوات ومن احتاج الى أن يشرب السكنجبين لنزول مابه من الصفراء وضيع أوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين فهو من الجهال المغرورين فكذلك غرور أهل النحو واللغة والادب والقراآت والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها وعرجوا عليها أكثر مما يحتاج اليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين فالب الاقصى هو العمل والذي فوقه هو معرفة العمل وهو كالقشر للعمل وكاللب بالاضافة الى مافوقه ومافوقه هو سماع الالفاظ وحفظها بطريق الرواية وهو قشر بطريق الاضافة الى المعرفة ولب بالاضافة الى مافوقه ومافوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الاعلى العلم بمخارج الحروف والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون الا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها الا بقدر حاجته فتجاوز الى ماوراء ذلك حتى وصل الى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجى عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الاعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل اليه وقشور له ومنازل بالاضافة اليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها فاما علم الطب والحساب والصناعات ومايعلم انه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث انها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع لان العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة كما يشارك القشر اللب في كونه محمودا ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى والثاني محمود للوصول به الى المقصود الاقصى فمن

(١) حديث من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسلا وقد تقدم

الغضب اظهر ور النفس وتصرف الشيطان في هذه المواطن ولوان المتحفظ المراعي المراقب المحاسب كلما انطلقت النفس في مباح من كلام أو مساكنة الى مخالطة الناس أو غير ذلك مما هو بعرضة تحليل عقد العزيمة كالخوض فيما لا يعني قولا وفعلا عقب ذلك بتجديد الوضوء لثبت القلب على طهارته ونزاهته ولكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذي لا يزال بخفقة حركته يجلو البصر ومايعقلها الا العالمون فتفكر فيما نبهتك عليه تجد بركته وأثره ولو اغتسل عند هذه المتجددات والعوارض

اتخذ القشر مقصودا وعرج عليه فقد اغتر به ﴿وفرقة أخرى﴾ عظم غرورهم فى فن الفقه فظنوا ان حكم العبد بينه و بين الله يتبع حكمه فى مجلس القضاء فوضعوا الحيل فى دفع الحقوق وأساؤا تأويل الالفاظ المبهمة واغتروا بالظواهر وأخطؤا فيها وهذا من قبيل الخطأ فى الفتوى والغرور فيه والخطأ فى الفتاوى مما يكثر ولكن هذا نوع عم الكافة الا الاكياس منهم فنشير الى أمثلة فمن ذلك فتواهم بان المرأة متى أبرأت من الصداق برئ الزوج بينه و بين الله تعالى وذلك خطأ بل الزوج قد يسىء الى الزوجة بحيث يضيق عليها الامور بسوء الخلق فتضطر الى طلب الخلاص فتبرئ الزوج لتتخلص منه فهو ابراء لا على طيبة نفس وقد قال تعالى فان طبن لكم عن شئ منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا وطيبة النفس غير طيبة القلب فقد يريد الانسان بقلبه مالا تطيب به نفسه فانه يريد الحجامة بقلبه ولكن تكرهها نفسه وانما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالابراء لا عن ضرورة تقابله حتى اذا ترددت بين ضررين اختارت أهونهما فهذه مصادرة على التحقيق باكراه الباطن نعم القاضى فى الدنيا لا يطلع على القلوب والاغراض فينظر الى الابراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر والاكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ولكن مهما تصدى القاضى الاكبر فى صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا فى تحصيل الابراء ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال انسان الا بطيب نفس منه فلو طلب من الانسان ماله على ملا من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه وكان يود أن يكون سؤاله فى خلوة حتى لا يعطيه ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال وردد نفسه بينهما فاختار أهون الألمين وهو ألم التسليم فسامه فلا فرق بين هذا و بين المصادرة اذ معنى المصادرة ايلام البدن بالصوت حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الالمين والسؤال فى مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى فان الباطن عند الله تعالى ظاهر وانما حاكم الدنيا هو الذى يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت لانه لا يمكنه الوقوف على ما فى القلب وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه أو لشر سعايته فهو حرام عليه وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام ألا ترى ما جاء فى قصة داود عليه السلام حيث قال بعد أن غفر له يارب كيف لى بخصمى فامر بالاستحلال منه وكان ميتا فامر بندائه فى صخرة بيت المقدس فنادى يا أوريا فاجابه لبيك يانبى الله أخرجتنى من الجنة فماذا تريد فقال انى أسأت اليك فى أمر فهبه لى قال قد فعلت ذلك يانبى الله فانصرف وقد ركن الى ذلك فقال له جبريل عليه السلام هل ذكرت له ما فعلت قال لا قال فارجع فبين له فرجع فناداه فقال لبيك يانبى الله فقال انى أذنبت اليك ذنبا قال ألم أهبه لك قال ألا تسألنى ما ذلك الذنب قال ما هو يانبى الله قال كذا وكذا وذكر شان المرأة فانقطع الجواب فقال يا أوريا ألا تجيبنى قال يانبى الله ما هكذا يفعل الانبياء حتى أقف معك بين يدى الله فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوهبه منه فى الآخرة فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد وان طيبة القلب لا تحصل الا بالمعرفة فكذلك طيبة القلب لا تكون فى الابراء والهبة وغيرهما الا اذا خلى الانسان واختياره حتى تنبعث الدواعى من ذات نفسه لا أن تضطر بواعثه الى الحركة بالحيل والالزام ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة فى آخر الحول من زوجته وانهابه ما لها لاسقاط الزكاة فالفقيه يقول سقطت الزكاة فان أراد به ان مطالبة السلطان والساعى سقطت عنه فقد صدق فان مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال وان ظن انه يسلم فى القيامة ويكون كمن لم يملك المال أو كمن باع لحاجته الى البيع لا على هذا القصد فأعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة فان سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فان البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم (١) ثلاث مهلكات شح مطاع وانما صار شحه مطاعا بما فعله وقبله لم يكن مطاعا فقد تم هلاكه بما يظن ان فيه خلاصه فان الله مطلع على قلبه وحبه للمال وحرصه عليه وانه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور ومن ذلك اباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة

والانتباه من النوم لكان أزيد فى تنوير قلبه ولكان الاجدر أن العبد يغتسل لكل فريضة باذلا مجهوده فى الاستعداد لمناجاة الله ويجدد غسل الباطن بصدق الانابة وقد قال الله تعالى منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة قدم الانابة للدخول فى الصلاة ولكن من رحمة الله تعالى وحكم الحنيفية السهلة السمحة أن رفع الحرج وعوض بالوضوء عن الغسل وجوز اداء مفترضات بوضوء واحد دفعا للحرج عن عامة الامة وللخواص وأهل العزيمة مطالبات من بواطنهم تحكم عليهم بالاولى وتاجئهم

(١) حديث ثلاث مهلكات الحديث تقدم غير مرة

والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الاماني والفضول والشهوات وبين الحاجات بل كل ما لا تهم رعونتهم الا به يرونه حاجة وهو محض الغرور بل الدنيا خلقت لحاجة العباد اليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في امثال هذا الملأنا فيه مجلدات والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الاجناس دون الاستيعاب فان ذلك يطول ﴿الصنف الثاني﴾ أرباب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة فمنهم من غروره في الصلاة ومنهم من غروره في تلاوة القرآن ومنهم في الحج ومنهم في الغزو ومنهم في الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور الا الاكياس وقليل ماهم ﴿فمنهم فرقة﴾ أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل ورب ما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا الى العدوان والسرف كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة واذا آل الامر الى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة ورب ما أكل الحرام المحض ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء الى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة اذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام ثم من هؤلاء من يخرج الى الاسراف في صب الماء وذلك منهي عنه(١) وقد يطول الامر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها وان لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت وان لم يفته فهو مغرور لاسرافه في الماء وان لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعز الاشياء فيما له مندوحة عنه الا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سني ولا يقدر على صد العباد الا بما يخيل اليهم أنه عبادة فيبعدهم عن الله بمثل ذلك ﴿وفرقة أخرى﴾ غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت وان تم تكبيره فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه يفعلون ذلك في أول الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك ويظنون أنهم اذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم ﴿وفرقة أخرى﴾ تغلب عليهم الوسوسة في اخراج حروف الفاتحة وسائر الاذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم الى أسراره وهذا من أقبح أنواع الغرور فانه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف الا بما جرت به عادتهم في الكلام ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة الى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها فاخذ يؤدي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما أحراه بان تقام عليه السياسة ويرد الى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل ﴿وفرقة أخرى﴾ اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذا ورب ما يختمونه في اليوم والليلة مرة ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الاماني اذ لا يتفكر في معاني القرآن ليتزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه الى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة فهو مغرور يظن أن المقصود من انزال القرآن المهمة به مع الغفلة عنه ومثاله مثال عبد كتب اليه مولاه ومالكه كتابا وأشار عليه فيه بالاوامر والنواهي فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمر به مولاه الا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة ومهما ظن ان ذلك هو المراد منه فهو مغرور نعم تلاوته انما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه وحفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له

(١) حديث النهي عن الاسراف في الوضوء الترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث أبي بن كعب ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان الحديث وتقدم في عجائب القلب

الى سلوك طريق الاعلى فاذا قام الى الصلاة وأراد استفتاح التهجد يقول الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ويقول سبحان الله والحمد لله الكلمات عشر مرات ويقول الله أكبر ذو الملك والملكوت والجبروت والكبرياء العظمة والجلال والقدرة اللهم لك الحمد أنت نور السموات والارض ولك الحمد أنت بهاء السموات والارض ولك الحمد أنت قيوم السموات والارض ولك الحمد أنت رب السموات والارض ومن فيهن ومن عليهن أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد عليه السلام حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك

صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذبه ويغتر باستلذاذه ويظن ان ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه انما هي لذته في صوته ولو رددا لحانه بشعر أو كلام آخر لالتذبه ذلك الالتذاذ فهو مغرور اذ لم يتفقد قلبه فيعرفه ان لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته ﴿وفرقة أخرى﴾ اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الايام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء وبطونهم عن الحرام عند الافطار وألسنتهم عن الهذيان بانواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور ﴿وفرقة أخرى﴾ اغتروا بالحج فيخرجون الى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك بعد سقوط هيبة الاسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيعصي الله تعالى في كسب الحرام أولا وفي انفاقه بالرياء ثانيا فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الاخلاق وذميم الصفات لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن انه على خير من ربه فهو مغرور ﴿وفرقة أخرى﴾ أخذت في طريق الحسبة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه واذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة واذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال أنا المحتسب فكيف تنكر علي وقد يجمع الناس الى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وانما غرضه الرياء والرياسة ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه بل منهم من يؤذن ويظن انه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال لم آخذ حقي وزوحمت على مرتبتي وكذلك قد يتقلد امامة مسجد ويظن أنه على خير وانما غرضه أن يقال انه امام المسجد فلو تقدم غيره وان كان أورع وأعلم منه نقل عليه ﴿وفرقة أخرى﴾ جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا بذلك وتراه يتحدى ويقول قد جاورت بمكة كذا كذا سنة واذا سمع ان ذلك قبيح ترك صريح التحدي وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم انه قد يجاور ويمد عين طمعه الى أوساخ أموال الناس واذا جمع من ذلك شيأ شح به وأمسكه ولم تسمح نفسه بالقمة يتصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكن حب المحمدة وأن يقال انه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضا مغرور ومامن عمل من الاعمال وعبادة من العبادات الا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور ولا يعرف شرح ذلك الا من جملة كتب احياء علوم الدين فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة وفي الحج من كتاب الحج والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها وانما الغرض الآن الاشارة الى مجامع ماسبق في الكتب ﴿وفرقة أخرى﴾ زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه اما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد فقد ترك أهون الامرين وباء باعظم المهلكين فان الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان الى السلامة أقرب فهذا مغرور اذ ظن انه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة وأن الراغب فيها لا بد وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الاخلاق نعم وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور اذ يتطاول بذلك على الاغنياء ويخشن معهم الكلام وينظر اليهم بعين الاستحقار ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوهم ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لا يدري وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده ولو قيل له انه حلال نفذه في الظاهر ورده في الخفية لم تسمح به نفسه خوفا من ذم الناس فهو راغب في حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا ويرى نفسه انه زاهد في الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فربما لا يخلو من توقير الاغنياء وتقديمهم على الفقراء والميل الى المريدين

توكلت وبك
خاصمت واليك
حاكمت فاغفر لي
ما قدمت وما
أخرت وما أسررت
وما أعلنت أنت
المقدم وأنت
المؤخر لا اله الا
أنت اللهم آت
نفسي تقواها
وزكها أنت خير
من زكاها أنت
وليها ومولاها
اللهم اهدني
لاحسن الاخلاق
لا يهدي لاحسنها
الا أنت واصرف
عني سيئها لا يصرف
عني سيئها الا أنت
أسألك مسئلة
البائس المسكين
وادعوك دعاء
الفقير الذليل فلا
تجعلني بدعائك
رب شقيا وكن بي
رؤفا رحيما يا خير
المسؤلين ويا أكرم
المعطين ثم يصلي
ركعتين تحية
الطهارة يقرأ في
الاولى بعد الفاتحة
ولو أنهم اذ ظلموا
أنفسهم الآية وفي
الثانية ومن يعمل
سوأ أو يظلم نفسه
ثم يستغفر الله
يجد الله غفورا
رحيما ويستغفر

له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين الى غيره من الزهاد وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه وفى العباد من يشدد على نفسه فى أعمال الجوارح حتى ربما يصلى فى اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ويختم القرآن وهو فى جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات فلا يدرى أن ذلك مهلك وان علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك وان ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وانه خير مؤاخذ بأحوال القلب وان توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات وذرة من ذى تقوى وخلق واحد من أخلاق الاكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ثم لا يخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه عن الرياء وحب الثناء فاذا قيل له أنت من أوتاد الارض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدق به وزاده ذلك غرورا وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدرى أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه ﴿وفرقة أخرى﴾ حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه (١) ما تقرب المتقربون الى بمثل أداء ما افترضت عليهم وترك الترتيب بين الخيرات من جهة الشرور بل قد يتعين على الانسان فرضان أحدهما يفوت والآخر لا يفوت وفضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته فان لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورا وانظر ذلك أكثر من أن تحصى فان المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وانما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل وتقديم فروض الاعيان على فروض الكفايات وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره وتقديم الاهم من فروض الاعيان على ما دونه وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد اذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) فقيل له من أبر يا رسول الله قال أمك ثم من قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أبوك قال ثم من قال أدناك فأدناك فينبغى أن يبدأ فى الصلة بالأقرب فان استويا فبالاحوج فان استويا فبالأتقى والأورع وكذلك من لا بقى ماله بنفقة الوالدين والحج فربما يحج وهو مغرور بل ينبغى أن يقدم حقهما على الحج وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه وكذلك اذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالموعد معصية وان كان هو طاعة فى نفسه وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغلط القول على أبويه وأهله بسبب ذلك فالنجاسة محذورة وايذاؤهما محذور والحذر من الايذاء أهم من الحذر من النجاسة وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر ومن ترك الترتيب فى جميع ذلك فهو مغرور وهذا غرور فى غاية الغموض لان المغرور فيه فى طاعة الا انه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هى أهم منها ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه فى حق من بقى عليه شغل من الطاعات والمعاصى الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لان مقصود الفقه معرفة ما يحتاج اليه غيره فى حوائجه فمعرفة ما يحتاج هو اليه فى قلبه أولى به الا أن حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة وقهر الاقران والتقدم عليهم يعمى عليه حتى يغتر به مع نفسه ويظن انه مشغول بهم دينه ﴿الصنف الثالث﴾ المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم والمغترون منهم فرق كثيرة ﴿ففرقة منهم﴾ وهم متصوفة أهل الزمان الامن عصمه الله اغتروا بالزى والطيلسان والمنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية فى زيهم وهيئتهم وفى ألفاظهم وفى آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وفى أحوالهم الظاهرة فى السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع اطراق الرأس وادخاله فى الجيب كالمتفكر وفى تنفس الصعداء وفى خفض الصوت فى الحديث الى غير ذلك من الشمائل

(١) حديث ما تقرب المتقربون الى بمثل أداء ما افترضت عليهم البخارى من حديث أبى هريرة بلفظ ما تقرب الى عبدى (٢) حديث من أبر قال أمك الحديث الترمذى والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم فى آداب الصحبة

بعد الركعتين مرات ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين ان أراد يقرأ فيهما بآية الكرسى وآمن الرسول وان أراد غير ذلك ثم يصلى ركعتين طويلتين هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يتهجد هكذا ثم يصلى ركعتين طويلتين أقصر من الاوليين وهكذا يتدرج الى أن يصلى اثنتى عشرة ركعة أو ثمان ركعات أو يزيد على ذلك فان فى ذلك فضلا كثيرا والله أعلم

(الباب الثامن والاربعون فى تقسيم قيام الليل)

قال الله تعالى والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما وقيل فى تفسير قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون كان عملهم قيام الليل وقيل فى تفسير

قوله تعالى استعينوا بالصبر والصلاة استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصابرة العدو (وفى الخبر) عليكم بقيام الليل فانه مرضاة لربكم وهو دأب الصالحين قبلكم ومنهاة عن الاثم وملغاة للوزر ومذهب كيد الشيطان ومطردة للداء عن الجسد (وقد كان) جمع من الصالحين يقومون الليل كله حتى نقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الغداة بوضوء العشاء منهم سعيد بن المسيب وفضيل ابن عياض ووهيب ابن الورد وأبو سليمان الدارانى وعلى بن بكار وحبيب العجمى وكهمس بن المنهال وأبو حازم ومحمد ابن المنكدر وأبو حنيفة رحمه الله وغيرهم عدهم وسماهم بانسابهم الشيخ أبو طالب

والطيبات فلما تكلفوا هذه الامور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم فى الصوفية كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيأ منها بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون فى الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم اعراض بعض مهما خالفه فى شئ من غرضه وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت ان الشجعان والابطال من المقاتلين ثبتت أسماؤهم فى الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة فتاقت نفسها الى أن يقطع لها مملكة فلبست درعا ووضعت على رأسها مغفرا وتعلمت من رجز الابطال أبياتا وتعودت ايراد تلك الابيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيفية تبختر هم فى الميدان وكيف تحريكهم الايدى وتلفت جميع شمائلهم فى الزى والمنطق والحركات والسكنات ثم توجهت الى المعسكر ليثبت اسمها فى ديوان الشجعان فلما وصلت الى المعسكر أنفذت الى ديوان العرض وأمرت بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر غنائها فى الشجاعة فلما جردت عن المغفر والدرع فاذا هى عجوزة ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر فقيل لها أجئت للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم خدوها فالقوها قدام الفيل لسخفها فالقيت الى الفيل فهكذا يكون حال المدعين للتصوف فى القيامة اذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضى الاكبر الذى لا ينظر الزى والمرقع بل الى سر القلب ﴿وفرقة أخرى﴾ زادت على هؤلاء فى الغرور اذ شقى عليها الاقتداء بهم فى بذاذة الثياب والرضا بالدون فارادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدا من التزين بزيهم فتركوا الحرير والابريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والابريسم وظن أحدهم مع ذلك انه متصوف بمجرد لبس الثوب وكونه مرقعا ونسى انهم انما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لازالة الوسخ وانما لبسوا المرقعات اذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد فاما تقطيع الفوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه فهؤلاء أظهر جاقة من كافة المغرورين فانهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الاطعمة ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصى الظاهرة فضلا عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بانفسهم الخير وشر هؤلاء مما يتعدى الى الخلق اذ هلك من يقتدى بهم ومن لا يقتدى بهم نفسد عقيدته فى أهل التصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان فى الصادقين منهم وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم ﴿وفرقة أخرى﴾ ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والاحوال والملازمة فى عين الشهود والوصول الى القرب ولا يعرف هذه الامور الا بالاسامى والالفاظ لانه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الاولين والآخرين فهو ينظر الى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازراء فضلا عن العوام حتى ان الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحى ويخبر عن سر الاسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء فيقول فى العباد انهم اجراء متعبون ويقول فى العلماء انهم بالحديث عن الله محجوبون ويدعى لنفسه انه الواصل الى الحق وانه من المقربين وهو عند الله من الفجار المنافقين وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين لم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه ﴿وفرقة أخرى﴾ وقعت فى الاباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الاحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم ان الله مستغن عن عملى فلم أتعب نفسى وبعضهم يقول فتكليف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كانوا مالا يمكن وانما يغتر به من لم يجرب وأما نحن فقد جربنا وأدركنا ان ذلك محال ولا يعلم الا حق ان الناس لم يكلفوا

قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل انما كانوا قلعا مادتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع وبعضهم يقول الاعمال بالجوارح لا وزن لها وانما النظر الى القلوب وقلو بنا واهية بحب الله وواصلة الى معرفة الله وانما نخوض فى الدنيا بابدانا وقلو بنا عاكفة فى الحضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ويزعمون انهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالاعمال البدنية وان الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها و يرفعون درجة أنفسهم على درجة الانبياء عليهم السلام اذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتى كانوا يبكون عليها و ينوحون سنين متوالية وأصناف غرور أهل الاباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل احكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن فى الدين والعلم صالح للاقتداء به واحصاء أصنافهم يطول ﴿وفرقة أخرى﴾ جاوزت حد هؤلاء واجتنبت الاعمال وطلبت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها فمنهم من يدعى الوجد والحب لله تعالى و يزعم انه والله بالله ولعله قد تخيل فى الله خيالات هى بدعة أو كفر فيدعى حب الله قبل معرفته ثم انه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل وعن ايثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الامور حياء من الخلق ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى وليس يدرى ان كل ذلك ينافض الحب و بعضهم ربما يميل الى القناعة والتوكل فيخوض البوادى من غير زاد ليصح دعوى التوكل وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه فافهموا أن التوكل المخاطر بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الاسباب واثق به وما من مقام من المقامات المنجيات الا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات فى ربع المنجيات من الكتاب فلا يمكن اعادتها ﴿وفرقة أخرى﴾ ضيقت على نفسها فى أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح فى غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من أهمل الحلال فى مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق فى غير ذلك وليس يدرى المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الاعمال دون طلب الحلال بل لا يرضيه الا تفقد جميع الطاعات والمعاصى فمن ظن أن بعض هذه الامور يكفيه و ينجيه فهو مغرور ﴿وفرقة أخرى﴾ ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال وانما غرضهم التكبر وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاع وهم يظهرون أن غرضهم الارفاق وغرضهم الاستتباع وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم انهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم و ينشر باخدمة اسمهم و بعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم و بعضهم يأخذها لينفق فى طريق الحج على الصوفية و يزعم أن غرضه والبر والانفاق و باعث جميعهم الرياء والسمعة وآية ذلك اهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا و باطنا ورضاهم بأخذ الحرام والانفاق منه ومثال من ينفق الحرام فى طريق الحج لارادة الخير كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة و يزعم أن قصده العمارة ﴿وفرقة أخرى﴾ اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الاخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة فهم فى جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام فى آفاتها فيقولون هذا فى النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب والالتفات الى كونه عيبا عيب ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الاوقات فى تلفيقها ومن جعل طول عمره فى التفتيش عن العيوب وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه ﴿وفرقة أخرى﴾ جاوزوا هذه الرتبة وابتدؤا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة فكلما تشموا من مبادى المعرفة رائحة تعجبوا منها فرحوا بها وأعجبتهم غرابتها فتقيدت

المكى فى كتابه قوت القلوب فمن عجز عن ذلك يستحب له قيام ثلثيه أو ثلثه وأقل الاستحباب سدس الليل فاما أن ينام ثلث الليل الاول ويقوم نصفه وينام سدسه الآخر أو ينام النصف الاول ويقوم ثلثه وينام السدس (روى) ان داود عليه السلام قال يارب انى أحب أن أتعبد لك فاى وقت أقوم فاوحى الله تعالى اليه يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره فانه من قام أوله نام آخره ومن قام آخره نام أوله ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بى وأخلو بك وارفع الى حوائجك ويكون القيام بين نومتين والا فيغالب النفس من أول الليل و يتثاقل فاذا غلبه النوم ينام فاذا انتبه يتوضأ فيكون له قومتان ونومتان ويكون ذلك من أفضل

فلو بهم بالالتفات اليها والتفكر فيها فى كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم وكل ذلك غرور لان عجائب طريق الله ليس لها نهاية فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول الى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها فوقف ينظر اليها ويتعجب حتى فانه الوقت الذى يمكن فيه لقاء الملك ﴿وفرقة أخرى﴾ جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا الى ما يفيض عليهم من الانوار فى الطريق ولا الى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات اليها جادين فى السير حتى قاربوا فوصلوا الى حد القربة الى الله تعالى فظنوا أنهم قد وصلوا الى الله فوقفوا وغلطوا فان الله تعالى سبعين حجابا من نور لا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجب فى الطريق الا ويظن أنه قد وصل واليه الاشارة بقول ابراهيم عليه السلام اذ قال الله تعالى اخبارا عنه فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى وليس المعنى به هذه الاجسام المضيئة فانه كان يراها فى الصغر ويعلم انها ليست آلهة وهى كثيرة وليست واحدا والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بالله فمثل ابراهيم عليه السلام لا يغره الكوكب الذى لا يغر السوادية ولكن المراد به أنه نور من الانوار التى هى من حجب الله عز وجل وهى على طريق السالكين ولا يتصور الوصول الى الله تعالى الا بالوصول الى هذه الحجب وهى حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأصغر النيرات الكوكب فاستعيره لفظه وأعظمها الشمس وبينهما مرتبة القمر فلم يزل ابراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض يصل الى نور بعد نور ويتخيل اليه فى أول ما كان يلقاه انه قد وصل ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا فيترقى اليه ويقول قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل الى الحجاب الاقرب الذى لا وصول الا بعده فقال هذا أكبر فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى فى حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال قال لا أحب الآفلين انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض وسالك هذه الطريق قد يغتر فى الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الاول وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فانه أيضا أمر ربانى وهو نور من أنوار الله تعالى أعنى سر القلب الذى تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى انه ليتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل وعند ذلك يشرق نوره اشراقا عظيما اذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو فى أول الامر محجوب بمشكاة هى كالساتر له فاذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد اشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب الى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه ويربما يسبق لسانه فى هذه الدهشة فيقول أنا الحق فان لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الالهية ولم يصل بعد الى القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور وهذا محل الالتباس اذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى فى المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة وكما يلتبس ما فى الزجاج بالزجاج كما قيل

رق الزجاج ورقت الخمر * فتشابها فتشاكل الامر فكأنما خمر ولا قدح * وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى الى المسيح فرأوا اشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا فى مرآة أو فى ماء فيظن أن الكوكب فى المرآة أو فى الماء فيمد يده اليه ليأخذه وهو مغرور وأنواع الغرور فى طريق السلوك الى الله تعالى لا تحصى فى مجلدات ولا تستقصى الا بعد شرح جميع علوم المكاشفة وذلك مما لا رخصة فى ذكر ولعل القدر الذى ذكرناه أيضا كان الاولى تركه اذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج الى أن يسمعه من غيره والذى لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضر به اذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم ولكن فيه فائدة وهو اخراجه من الغرور الذى هو فيه بل ربما يصدق بان الامر أعظم مما يظنه وربما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجده المزخرف ويصدق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التى أخبر عنها أولياء الله ومن عظم غروره ربما أصر مكذبا بما يسمعه الان كما يكذب بما سمعه من قبل ﴿الصنف الرابع﴾ أرباب الاموال والمغترون منهم فرق (ففرقة منهم) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أسامیهم بالآجر عليها

ليتخلد

ما يفعله ولا يصلى وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يعقل ما يقول (وقد ورد) لا تكابدوا الليل (وقيل) لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانة تصلى من الليل فاذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال ليصل أحدكم من الليل ما تيسر فاذا غلبه النوم فليتم (وقال عليه السلام) لا تشادوا هذا الدين فانه متين فمن يشاده يغلبه ولا تبغضن الى نفسك عبادة الله ولا يليق بالطالب ولا ينبغى له أن يطلع الفجر وهو نائم الا أن يكون قد سبق له فى الليل قيام طويل فيعذر فى ذلك على انه اذا استيقظ قبل الفجر بساعة مع قيام قليل سبق فى الليل

ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم وهم يظنون انهم قد استحقوا المغفرة بذلك وقد اغتروا فيه من وجهين * أحدهما انهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة فهم قد تعرضوا لسخط الله فى كسبها وتعرضوا لسخطه فى انفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها فاذا قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع الى الله تعالى وردها الى ملاكها اما باعيانها واما برد بدلها عند العجز فان عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها الى الورثة فان لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها الى أهم المصالح وربما يكون الاهم التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن لا يظهر ذلك للناس فيبنون الابنية بالآجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها ابقاء أسمائهم المكتوبة فيها لا لابقاء الخير * والوجه الثانى انهم يظنون بأنفسهم الاخلاص وقصد الخير فى الانفاق على الابنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذى أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ولولا انه يريد به وجه الناس لاوجه الله لما افتقر الى ذلك (وفرقة أخرى) ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهى أيضا مغرورة من وجهين * أحدهما الرياء وطلب الثناء فانه ربما يكون فى جواره أو بلده فقراء وصرف المال اليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف الى بناء المساجد وزينتها وانما يخف عليهم الصرف الى المساجد ليظهر ذلك بين الناس * والثانى انه يصرف الى (١) زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التى هى منهى عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة أبصارهم والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك ووبال ذلك كله يرجع اليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ويعد ذلك وسيلة الى الله تعالى وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له وممتثل لامره وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم به الى زخارف الدنيا فيشتهون مثل ذلك فى بيوتهم ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله فى رقبته اذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى قال مالك بن دينار أتى رجلان مسجدا فوقف أحدهما على الباب وقال مثلى لا يدخل بيت الله فكتبه الملكان عند الله صديقا فهكذا ينبغى أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا مثل جناية على الله تعالى وقال الحواريون للمسيح عليه السلام انظر الى هذا المسجد ما أحسنه فقال أمتى أمتى بحق أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر الا أهلكه بذنوب أهلها ان الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التى تعجبكم شيأ وان أحب الاشياء الى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الارض وبها يخرب اذا كانت على غير ذلك وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم وقال الحسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له ابنه سبعة أذرع طولا فى السماء لا تزخرفه ولا تنقشه فغرور هذا من حيث انه رأى المنكر معروفا واتكل عليه (وفرقة أخرى) ينفقون الاموال فى الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر والافشاء للمعروف ويكرهون التصدق فى السر ويرون اخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا وربما يحرصون على انفاق المال فى الحج فيحجون مرة بعد أخرى وربما تركوا جيرانهم جياعا ولذلك قال ابن مسعود فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب يهون عليهم السفر وييسط لهم فى الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين يهوى باحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور الى جنبه لا يواسيه وقال أبو نصر التمار ان رجلا جاء يودع بشر

(١) حديث النهى عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش البخارى من قول عمر بن الخطاب أكن الناس ولا تحمر ولا تصفر (٢) حديث اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم ابن المبارك فى الزهد وأبو بكر بن أبى داود فى كتاب المصاحف موقوفا على أبى الدرداء (٣) حديث الحسن مرسلا لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولا فى السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه لم أجده

يكون أفضل من قيام طويل ثم النوم الى بعد طلوع الفجر فاذا استيقظ قبل الفجر يكثر الاستغفار والتسبيح ويغتنم تلك الساعة وكلما يصلى بالليل يجلس قليلا بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ويصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه يجد بذلك ترويحا وقوة على القيام وقد كان بعض الصالحين يقول هى أول نومة فان انتبهت ثم عدت الى نومة أخرى فلا أنام الله عينى (وحكى) لى بعض الفقراء عن شيخ له انه كان يأمر الاصحاب بنومة واحدة بالليل وأكلة واحدة لليوم والليلة (وقد جاء) فى الخبر قم من الليل ولو قدر حلب شاة وقيل يكون ذلك قدر أربع ركعات وقدر ركعتين (وقيل) فى تفسير قوله تعالى تؤتى الملك

ابن الحرث وقال قد عزمت على الحج فتأمرني بشئ فقال له كم أعددت للنفقة فقال ألفي درهم قال بشر فأي شئ تبتغي بحجك تزهدا أو اشتياقا الى البيت أو ابتغاء مرضاة الله قال ابتغاء مرضاة الله قال فان أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك قال نعم قال اذهب فأعطها عشرة أنفس مديون يقضي دينه وفقير يرم شعثه ومعيل يغني عياله ومرب يتيم يفرحه وان قوى قلبك تعطيها واحدا فافعل فان ادخالك السرور على قلب المسلم واغاثة اللهفان وكشف الضر واغاثة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام قم فاخرجها كما أمرناك والا فاقفل لنا ما في قلبك فقال يا أبا نصر سفري أقوى في قلبي فتبسم بشر رحمه الله تعالى وأقبل عليه وقال له المال اذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطرا فاظهرت الاعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل الا عمل المتقين (وفرقة أخرى) من أرباب الاموال يشتغلوا بها يحفظون الاموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها الى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن وهم مغرورون لان البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج الى قمعه باخراج المال فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن قتلته الحية متى يحتاج الى السكنجبين ولذلك قيل لبشر ان فلانا الغني كثير الصوم والصلاة فقال المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره وانما حال هذا اطعام الطعام للجياع والانفاق على المساكين فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء (وفرقة أخرى) غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم الا باداء الزكاة فقط ثم انهم يخرجون من المال الخبيث الردىء الذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم أو من يحتاجون اليه في المستقبل للاستخار في خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض أو يسامحون ذلك الى من يعينه واحد من الاكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر اذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الاموال أيضا لا يحصى وانما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور (وفرقة أخرى) من عوام الخلق وأرباب الاموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا ان ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا وهم مغرورون لان فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا في الخير فان لم يهيج الرغبة فلا خير فيه والرغبة محمودة لانها تبعث على العمل فان ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها وما يراد لغيره فاذا قصر عن الاداء الى ذلك الغير فلا قيمة له ورب ما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء ورب ما تد خل رقة رقة النساء فيبكي ولا عزم ورب ما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول يا سلام سلم أو نعوذ بالله أو سبحان الله ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور وانما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الاطباء فيسمع ما يجري أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الاطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيأ فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيأ فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييرا يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى اقبالا قويا وأضعيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك فاذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا فان قلت فاذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه وهذا يوجب اليأس اذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات فأقول الانسان اذا فترت همته في شئ أظهر اليأس منه واستعظم الامر واستوعر الطريق واذا صح منه الهوى اهتدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول الى الغرض حتى ان الانسان اذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزله واذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه واذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه واذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري اقتنصها

من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء هو قيام الليل ومن حرم قيام الليل كسلا وفتورا في العزيمة أو تهاونا به لقلة الاعتداد بذلك أو اغترارا بحاله فليبك عليه فقد قطع عليه طريق كبير من الخير وقد يكون من أرباب الاحوال من يكون له ايواء الى الغرب ويجد من دعة القرب ما يفتر عليه داعية الشوق ويرى ان القيام وقوف في مقام الشوق وهذا يغلط فيه ويهلك به خلق من المدعين والذي له ذلك ينبغي أن يعلم أن استمرار هذه الحالة متعذر والانسان متعرض للقصور والتخلف والشبهة ولا حالة أجل من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما استغنى عن قيام الليل وقام حتى تورمت قدماه وقد يقول

مع فصائل السباع والفيلة وتليم الحيوانات استسخرها واذا أراد أن يأخذ الحيات والافاعي ويعبث بفصوص الدرياق من أجوافها واذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه واذا أراد تدبير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الارض وكل جاهد الحيل واعداد الآلات فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهيأ سبيرة الصياد السمك الى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي كل ذلك لان همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه فلو ليسه ما رأى آخرته فليس عليه الا شغل واحد وتقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هما واحدا بل هو كما يقال * لو صح منك الهوى أرشدت للحيل * فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن بعدهم باحسان فلا يعجز عنه أيضا من صدقت ارادته وقويت همته بل لا يحتاج الى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها فان قلت قد قربت الامر فيه مع انك أكثرت في ذكر مداخل الغرور فيم ينجو العبد من الغرور فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور بالعقل والعلم والمعرفة فهذه ثلاثة أمور لا بد منها * أما العقل فاعني به الغريزة والنور الاصلي الذي به يدرك الانسان حقائق الاشياء فالفطنة والكيس فطرة والحمق والبلادة فطرة البليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بد منه في أصل الفطرة فهذا ان لم يفطر عليه انسان فاكتسابه غير ممكن نعم اذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فاساس السعادات كلها العقل والكياسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتاتا ان الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد وما قسم الله خلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين وقال أبو الدرداء أنه قيل يا رسول الله (٢) أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويعتمر ويتصدق ويغزو في سنته ويعود المريض ويشيع الجنائز وبين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما يجزى على قدر عقله وقال أنس أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) كيف عقله قالوا يا رسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه فقال كيف عقله فان الاحمق بحمقه أعظم من فجور الفاجر وانما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم وقال أبو الدرداء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) اذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فاذا قالوا حسن قال أرجوه وان قالوا غير ذلك قال لن يبلغ وذكر له شدة عبادة رجل فقال كيف عقله قالوا ليس بشيء قال لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون فالعقل ذكاء وصحيح غريزة ان نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فان فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها والمعرفة وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور يعرف نفسه ويعرف ربه ويعرف الدنيا يعرف الآخرة يعرف نفسه بالعبودية والمملوكية وبكونه غريبا في هذا العالم وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية وانه خلق له طبعا هو معرفة الله تعالى والنظر الى وجهه فقط فلا يتصور أن يعرف هذا مالم يعرف ان اشتغال باصلاحهم على هذا بما ذكره في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجائب القلب وكتاب ويحترق في نفسه فان قلت فاولى وصف الله تعالى وصف جلال الله ويحصل به التنبه على الجلة وكمال

بين عباده الى آخره الترمذي الحكيم في نوادر الاصول من رواية طاوس العلم وبطلت المعايش وهو حديث ضعيف ورواه بنحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضا (٢) حديث أبي الدرداء كونه مهلكا لا يقوم النهار ويقوم الليل الحديث وفيما يجزى على قدر عقله الخطيب في التاريخ وفي أسماء ما في الموطأ من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبي الدرداء (٣) حديث أنس أثنى على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال كيف عقله الحديث ابن الجحر في كتاب العقل وهو ضعيف وتقدم في العلم (٤) حديث أبي الدرداء كان اذا بلغه عن رجل شدة عمل سأل عن عقله الحديث الترمذي الحكيم في النوادر وابن عدي ومن طريقه البيهقي في الشعب وضعفه

بعض من يحاج في ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك تشريعا فنقول ما بالنا لا نتبع تشريعه وهذه دقيقة فتعلم ان رؤية الفضيلة في ترك القيام وادعاء الابواء الى جناب القرب واستواء النوم واليقظة امتلاء وابتلاء حالي وهو تقييد بالحال وتحكيم للحال وتحكم من الحال في العبد والاقوياء لا يتحكم فيهم الحال ويصرفون الحال في صور الاعمال فهم متصرفون في الحال لا الحال متصرف فيهم فليعلم ذلك فانا رأينا من الاصحاب من كان في ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى ان ذلك وقوف وقصور (قيل) للحسن يا أبا سعيد اني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهوري فما بالي لا أقوم قال

المعرفة وراءه فان هذا من علوم المكاشفة ولم نطنب فى هذا الكتاب الا فى العلوم المعاملة وقال بشر فأى شئ فيستعين عليها بما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين أن لا نسبة للدنيا الى مرضاة الله نفسه ورد به وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله بمعرفة الآخرة شدة الاقبال اذهب الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره ما يوصله الى الله تعالى وينفعه الآخرة واذا غلبت هذه الارادة صحت نيته فى الامور كلها فان أكل مثلا واشتغل بقضاء الحاجة ان قصده منه الاستعانة على سلوك الآخرة وصحت نيته واندفع عنه كل غرور ومنشؤه تجاذب الاغراض والتنوع الى الدنيا والجاه والمال المفسد للنية ومادامت الدنيا أحب اليه من الآخرة وهوى نفسه أحب اليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور فاذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرين كمال عقله فيحتاج الى المعنى الثالث وهو العلم أعنى العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق الى الله والعلم بما يقرب من الله وما يبعده عنه والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله وجميع ذلك قد أودعناه كتب احياء علوم الدين فمن عرف من ربع العبادات شروطها فليراعيها وآفاتها فيتقيها ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر اليه خذه بآداب الشرع وما هو مستغنى عنه فيعرض عنه ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة فى طريق الآخرة فان المانع من الله الصفات المذمومة فى الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التى لا بد وان توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها فاذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الموانع التى أشرنا اليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تفقد الارادة وتصح به النية ولا يحصل ذلك الا بالمعرفة التى ذكرناها فان قلت فاذا فعل جميع ذلك فما الذى يخاف عليه فاقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه الى نصح الخلق ونشر العلم ودعوة الناس الى ما عرفه من الله فان المريد المخلص اذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى سلم له من جميع المكدرات وأى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا فى عينه فتركها وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت اليهم ولم يبق له الا واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق الى لقائه وقد عجز الشيطان عن اغوائه اذ يأتيه من جهة الدين ويدعوه الى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم بنصحهم والدعاء الى الله فينظر العبد برحمته الى العبيد فيراهم حيارى فى أمرهم سكارى فى دينهم عميا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب فغلب على قلبه الرحمة لهم ان كان عنده حظ من معرفة بمعايبهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم الى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب مؤنة ولزوم غرامة ومثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتهنأ ولا يتصرف لشدة ضر بان الالم فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة فى تناوله فاستعمله فبرئ وصار كمثل المريض الذى كان يسهر ليله بعد طول سهره ويهدأ بالنهار بعد شدة القلق وطاب عيشه بعد نهاية البؤس واستلذ الاكل بعد شدة الشهية ثم ينصرف وذلك دأب كثير من المسلمين واذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال سقمهم واشتد الم جهلهم فلا يغنى من الله شيأ فكل وعظ دواء هم هو الذى يعرفه ويقدر على شفائهم باسهل ما يمكن وفى أرجى زمان فى الدنيا فذلك الوعظ نفسه فى التراخى عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك المخلص بعد ان اهتدى الى الطريق تخلص منه أخذ القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضلهم وقرب هلاكهم واشفاؤهم وسهل عليه فى قول من ذات نفسه عزم جازم فى الاشتغال بنصحهم والشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة فلم يزل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه الى الرياء خفيا أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد فلم يزل الدبيب فى قلبه حتى دعاه الى التصنع والتزين للمخلوقين بالالفاظ والنغمات والحركات والتصنع فى الزى والهيئة فاقبل الناس اليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه ايزيد على توقير الملوك اذ رأوه شافيا لادوائهم بمحض الشفقة

والرحمة

ذنوبك قيدتك فليحذر العبد فى نهاره ذنوبا تقيده فى ليله (وقال النورى) رحمه الله حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنب أذنبته فقيل له ما كان الذنب قال رأيت رجلا بكاء فقلت فى نفسى هذا مراء (وقال بعضهم) دخلت على كرز ابن وبرة وهو يبكى فقلت ما بالك أتاك نعى بعض أهلك فقال أشد فقلت وجع يؤلمك قال أشد فقلت وما ذاك قال بأبى مغلق وستر مسبل ولم أقرأ حزبى البارحة وماذاك الا بذنب أحدثته (وقال بعضهم) الاحتلام عقوبة وهذا صحيح لان المراعى المتحفظ بحسن تحفظه وعلمه بحاله يقدر ويتمكن من سد باب الاحتلام ولا يتطرق الاحتلام الا على جاهل بحاله أو مهمل حكم

مع فصار أحب اليهم من آبائهم وامهاتهم وأقاربهم فآثروه بابدانهم وأموالهم وصاروا له خولا يخدموه وقدموه فى المحافل وحكموه على الملوك والسلاطين فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت لذة يالها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة فكان قد ترك الدنيا فوقع فى بهافعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدت الى قلبه يده فهو يستعمله فى كل ما يحفظ عليه تلك اللذة مرة انتشار الطبع وركون النفس الى الشيطان أنه لو أخطأ فرد عليه بين يدى اخلاق غضب فاذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان فخيل اليه أن ذلك غضب لله لانه اذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع فى الغرور فربما أخرجه ذلك الى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع فى الغيبة المحظورة بعد ترك الحلال المتسع ووقع فى الكبر الذى هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد ان كان يحذر من طوارق الخطرات وكذلك اذا سبقه الضحك أو فتر عن بعض الاوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فاتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وربما زاد فى الاعمال والاوراد لاجل ذلك والشيطان يخيل اليه انك انما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيترك الطريق بتركه وانما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب الى قبوله وزاد أثر كلامه فى القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يغتم ذلك اذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من اخوانه قد وقعوا فى بئر وتغطى رأس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرقى من البئر بسببه فرق قلبه لاخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه فجاء من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه فيعظم بذلك فرحه لا محالة اذ غرضه خلاص اخوانه من البئر فان كان غرض الناصح خلاص اخوانه المسلمين من النار فاذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغى أن يثقل ذلك عليه ان كان غرضه هدايتهم فاذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه ومهما وجد ذلك فى نفسه دعاه الشيطان الى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء فان قلت فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس فاقول اذا لم يكن له قصد الا هدايتهم لله تعالى وكان يود لو وجد من يعينه أو لو اهتدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم اذا كان الله يحمده ولم يفرح بحمدهم اذا لم يقترن به حمد الله تعالى ونظر اليهم كما ينظر الى السادات والى البهائم أما الى السادات فمن حيث انه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة واما الى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة فى قلوبهم فانه لا يبالى كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع بل راعى الماشية انما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية اليه فما لم يرسائر الناس كالماشية التى لا يلتفت الى نظرها ولا يبالى بها لا يسلم من الاشتغال باصلاحهم نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه باصلاحهم فيكون كالسراج يضىء لغيره ويحترق فى نفسه فان قلت فلو ترك الوعاظ الوعظ الاعند نيل هذه الدرجة خلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب فاقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) حب الدنيا رأس كل خطيئة ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت المعايش وهلكت القلوب والابدان جميعا الا انه صلى الله عليه وسلم علم ان حب الدنيا مهلك وان ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الا كثرين لا الاقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم فلم يترك النصح وذكر ما فى حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من ان يترك نفسه بالشهوات المهلكة التى سلطها الله على عباده

(١) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة البيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وقد تقدم فى كتاب ذم الدنيا

﴿تم الجزء الثالث من تخريج أحاديث الاحياء للحافظ العراقى ويليه الجزء الرابع وأوله كتاب التوبة﴾

وقته وأدب حاله ومن كمل تحفظه ورعايته وقيامه بأدب حاله قد يكون من ذنبه الموجب للاحتلام ووضع الرأس على الوسادة اذا كان ذا عزيمة فى ترك الوسادة وقد يتهدد للنوم ووضع الرأس على الوسادة بحسن النية من لا يكون ذلك ذنبه وله فيه نية للعون على القيام وقد يكون ذلك ذنبا بالنسبة الى بعض الناس فاذا كان هذا القدر يصلح أن يكون ذنبا جالبا للاحتلام فقس على هذا ذنوب الاحوال فانها تختص بأربابها ويعرفها أصحابها وقد يرتفق بانواع الرفق من الفراش الوطىء والوسادة ولا يعاقب بالاحتلام وغيره على فعله اذا كان عالما ذا نية يعرف مداخل الامور ومخارجها وكم

ليسوقهم بها الى جهنم تصديقا لقوله تعالى ولكن حق القول منى لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين بشرفاى شئ لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة لحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول ان الوعظ لحب الرياسة حرام كيف مرضاة الله الشرب والزنا والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصى بقول الله تعالى ورسوله ان ذلك حرام فانظر لنفسك قال اذهب القلب من حديث الناس فان الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بافساد شخص واحد وأشخاص ولولا دفع الله بعضهم ببعض لفسدت الارض وان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فانما يخشى أن يفسد طريق الاتقاء فاما أن تخرس ألسنة الوعاظ ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدا فان قلت فان علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والاخلاص فيه فما الذى يخاف عليه وما الذى بقى بين يديه من الاخطار وحبائل الاغترار فاعلم أنه بقى عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له قد أعجزتنى وأفلت منى بذكائك وكمال عقلك وقد قدرت على جملة من الاولياء والكبراء وما قدرت عليك فأصبرك وما أعظم عند الله قدرك ومحلك اذ قوالك على قهرى ومكنك من التفطن لجميع مداخل غرورى فيصفى اليه ويصدقه ويعجب بنفسه فى فراره من الغرور كله فيكون اعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الاكبر فالعجب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان يا ابن آدم اذا ظننت أنك بعلمك تخلصت منى فبجهلك قد وقعت فى حبائلى فان قلت فلو لم يعجب بنفسه اذ علم أن ذلك من الله تعالى لا منه وان مثله لا يقوى على دفع الشيطان الا بتوفيق الله ومعونته ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فاذا قدر على مثل هذا الامر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فالذى يخاف عليه بعد نفى العجب فاقول يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والامن من مكره حتى يظن انه يبقى على هذه الوتيرة فى المستقبل ولا يخاف من الفترة والانقلاب فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدا بل سبيله أن يكون مشاهدا جلة ذلك من فضل الله ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا وريا وسوء خلق والتفات الى عز وهو غافل عنه ويكون خائفا أن يسلب حاله فى كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة وهذا خطر لا يخلص عنه وخوف لا نجاة منه الا بعد مجاوزة الصراط ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الاولياء فى وقت النزع وكان قد بقى له نفس فقال أفلت منى يا فلان فقال لا بعد ولذلك قيل الناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فاذا المغرور هالك والمخلص الفار من الغرور على خطر فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة فان الامور بخواتيمها تم كتاب ذم الغرور وبه تم ربع المهلكات ويتلوه فى أول ربع المنجيات كتاب التوبة والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على من لا نبى بعده وهو حسبى ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

﴿ تم طبع الجزء الثالث من احياء علوم الدين ويليه الجزء الرابع بعون الله تعالى وتوفيقه ﴾

من نائم يسبق القائم لوفر عامه وحسن نيته (وفى الخبر) اذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد فان قعد وذكر الله تعالى انحلت عقدة وان توضأ انحلت عقدة أخرى وان صلى ركعتين انحلت العقد كلها فاصبح نشيطا طيب النفس والا أصبح كسلان خبيث النفس (وفى خبر آخر) ان من نام حتى يصبح بال الشيطان فى أذنه والذى يخل بقيام الليل كثرة الاهتمام بامور الدنيا وكثرة أشغال الدنيا واتعاب الجوارح والامتلاء من الطعام وكثرة الحديث واللغو واللغط واهمال القيلولة والموفق من يغتنم وقته ويعرف داءه ودواءه ولا يهمل فيهمل

front

Bind on this side

Restored through a grant from

The Cartwright Foundation

Princeton University Library
32101 047105059